

جامعة القاهرة
كلية الآداب
الدراسات العليا
قسم التاريخ

مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية

حوالى ٤٤٢ - ٦٦٥ هـ
١٠٥١ - ١٢٤٧ م

إشراف

أ. د. محمد بركات البيلى

استاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مقدمة من

الباحثة / إلهام حسين طه جروح

الحصول على درجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م



10-11-1968

٢٤٨١٥

جامعة القاهرة

كلية الآداب

الدراسات العليا

قسم التاريخ

٩٥٩.٥٩٤٦٦

٢١٥٦

مدينة قابس منذ الغزوة الحمالية حتى قيام الدولة الافصية

حوالى ٤٤٢-٦٢٥هـ

١٠٥١-١٢٤٧م

إشراف

أ.د / محمد بركات البيللى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب- جامعة القاهرة

مقدم من

الباحثة / إلهام حسين دحروج

للحصول على درجة الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى

١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
اَكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا
وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا
وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨٦)

صَلَّى اللَّهُ الْعَظِيمِ

الإلهام

إله حياة الوجود ووجود الحياة:
فريدة أيمن عبد العظيم
شريف أحمد شبل
إله ما سيرزقنا الله بآياته تعالى من ألاف
من دروس الأجساد يتعلم الألاف
البذر يبدأ من الحلال
والنهار يبدأ مع أول شمع ضعيف يشق ظلام الليل
والجبل يبدأ مع أول حصة فج الوادع
والكتاب يبدأ مع أول سطر نهجته
وبلوع القمة يبدأ مع أول خطوة فج السفح

الفهرس

.....	المقدمة والشكر
.....	نقد المصادر
.....	الفصل الأول : خطط قابس وتطورها
١	١- اسم قابس
٣	٢- موقع قابس
٥	٣- خصائص الموقع
٦	٤- أسلوب العمارة القابسية وطابعها
٨	٥- المسجد الجامع
١٣	٦- مساجد الأضرحة
١٥	٧- أنواع أخرى من المساجد
١٥	٨- قصر العروسين
١٩	٩- ساحة القصر
٢٠	١٠- رياض القصر
٢٠	١١- القصبة
٢٢	١٢- الأسواق
٢٦	١٣- الحمامات
٢٦	١٤- الأحياء
٢٧	١٥- الشوارع والحارات
٢٩	١٦- عمارة الدور والمنازل فى قابس
٣٣	١٧- منشآت قابس الصناعية
٣٣	١٨- الأسقفية
٣٣	١٩- البيعة اليهودية
٣٤	٢٠- المقابر
٣٤	٢١- السجن
٣٤	٢٢- السور والخندق
٣٨	٢٣- أبواب قابس
٣٩	٢٤- الأرياض
٣٩	٢٥- الساحات
٤٠	٢٦- منارة قابس
٤٢	٢٧- المرفأ والميناء
٤٣	٢٨- الفنادق

٢٩ - الرباطات ٤٤

الفصل الثاني: الحياة السياسية في قابس

- ١- قابس منذ الفتح الإسلامي حتى الغزوة الهلالية ٥٠
- ٢- الغزوة الهلالية ٥٣
- ٣- إمارة بني جامع في قابس ٦٠
- ٤- علاقات قابس: ٦٣
- أ) مع الإمارات و النواحي الإسلامية في صفاقس ٦٣
- ب) في سوسة ٦٤
- ج) في تونس ٦٥
- د) في قفصة وبلاد الجريد ٦٦
- ٥- علاقات قابس ببني زيري ٦٧
- ٦- علاقات قابس مع بني حماد ٦٨
- ٧- علاقات قابس مع المرابطين ٦٨
- ٨- علاقات قابس في مصر ٦٩
- ٩- علاقات قابس مع الأندلس ٧٦
- ١٠- علاقات قابس مع الموحدين ٨٠
- ١١- علاقات قابس مع النورمان في صقلية ٨٣
- ١٢- علاقات قابس مع بلاد السودان ٨٩

الفصل الثالث : نظم الحكم والإدارة

- الوضعية الإدارية لقابس ٩٢
- ١- تحت حكم بني جامع ٩٤
 - ٢- تحت حكم النورمان ٩٤
 - ٣- تحت حكم الموحدين ٩٥
 - ٤- تحت حكم بني غانية قراقوش الأرمني ٩٥
 - ٥- النظام الإداري ٩٧
 - أ - الوالي - الأمير ٩٧
 - ب- الدواوين ٩٩
 - ٢- القضاء والحسبة ١٠٤
 - أ- القضاء في قابس ١٠٤
 - ب- الفتيا ١٠٨
 - ج- الحسبة ١٠٨
 - د- المظالم ١١١

١١٢	٣- الجيش والأسطول.....
١١٢	أ - الجيش في قابس.....
١١٣	الشرطة.....
١١٤	ب- الأسطول.....
١١٥	ديوان العمائر.....
١١٥	قائد الأسطول ومعاونوه.....
	الفصل الرابع : الحياة الاقتصادية.....
١١٧	١- النشاط الزراعي:.....
١١٧	١- خصوبة التربة.....
١١٧	٢- وفرة مياه الري.....
١٢١	٣- ملأمة المناخ.....
١٢٢	٤- الخبرات الزراعية والحقلية.....
١٢٣	٥- تشجيع الشيوخ والفقهاء للزراعة.....
١٢٤	٦- نظام الملكية والحياسة.....
١٢٨	ب- الانتاج الزراعي.....
١٣١	٢- النشاط الصناعي:.....
١٣٢	أ) نظم الصناعة وعوامل إزدهارها.....
١٣٣	ب) الصناعات الرئيسية.....
١٣٤	ج) صناعات أخرى.....
١٤١	٣- النشاط التجاري:.....
	أ) التجارة الداخلية:.....
١٤١	- أسواق داخل المدينة.....
١٤١	- أسواق الأرباض والمرفأ.....
١٤٣	ب) التجارة الخارجية:.....
١٤٣	- تجارة قابس مع مدن أخرى.....
١٤٤	- العلاقات التجارية مع الدول المختلفة.....
١٤٥	- طرق التجارة الخارجية.....
١٤٦	- الفنادق (أنواعها ونظامها).....
١٤٨	٤- المعاملات المالية.....
١٤٨	أ) العملة.....
١٤٨	ب) الصكوك والسفائح.....

الفصل الخامس : الحياة الاجتماعية.....

١٥١ (١) عناصر السكان:

١٥٣ أ) العرب.

١٥٥ ب) البربر.

١٥٧ ج) أهل الذمة.

١٦١ د) عناصر أخرى.

..... (٢) طبقات المجتمع

١٦١ أ- طبقة الخاصة (الولاة - الأمراء - الوزراء)

١٦٢ ب- طبقة العلماء.

١٦٣ ج- التجار.

١٦٤ د- العامة.

..... (٣) الحياة الاجتماعية العامة

١٦٥ أ- العادات والتقاليد.

..... الفصل السادس : الحياة الثقافية

١٨٥ (١) العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية

١٨٥ أ- العامل الديني

١٨٧ ب- التعريب.

١٨٩ ج- العامل الجغرافي.

..... (٢) نظام التعليم

١٩٢ المكاتب

١٩٦ المدارس

١٩٧ المساجد

١٩٨ د- الأربطة

٢٠١ (٤) علماء قابس ودورهم في الحياة الثقافية

..... خاتمة

..... تتضمن الملخص وأهم النتائج التي توصل إليها الباحث

..... الملاحق

..... المصادر

مقدمة

تتناول هذه الدراسة مدينة قابس بعنوان «مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية» (حوالي ٤٤٢ - ٦٢٥ هـ - ١٠٥١ - ١٢٤٧ م)

ظهرت قابس كإمارة أو دويلة عربية مستقلة لبنى جامع الهلاليين، وهم من أكبر القبائل العربية التي غزت إفريقيا وسميت الغزوة باسمهم، وذلك بعد فترة زمنية من فتح هذه القبائل لحصن قابس، حيث تمركزت وفرقت السكة المستنصرية^(١).

استمرت دويلة أو إمارة بنى جامع بقابس حتى فتحها الموحدون، في عام الأخماس (٥٥٥ هـ) وانقذت هي والمهدية من استيلاء النورمان. وتبعت بعد ذلك الموحدون، ثم عادت للظهور عندما تحالف بنو غانية النازحين من شرق الأندلس لاستعادة مجد أجدادهم المرابطين، مع قراقوش الأرمني وجيشه الموقد من قبل تقي الدين الأيوبي ابن أخو صلاح الدين الأيوبي لفتح إفريقيا. أصبحت قابس مقراً لهم وخطب على منابرها للخلافة العباسية وللدولة الأيوبية والمرابطية حتى استردها الموحدون، وأصبحت تابعة للدولة الحفصية التي هي جزء من الدولة الموحدية، ولعبت قابس في كلتا حالتها: كمدينة تابعة وكقاعدة مستقلة دوراً هاماً وخطيراً في تاريخ إفريقيا، بحكم موقعها الاستراتيجي الهام في الجنوب الشرقي من إفريقيا على خليج سرت الصغير (خليج قابس في الحاضر)

وربما كان هذا الموقع سبباً في أنها كانت مطمئناً على مر العصور، هذا الموقع الذي سهل لها الاتصال الدائم بين المشرق والمغرب، لذا نجدها جديرة بلقب باب إفريقيا^(٢). ونقطة الوصل بين الشمال والجنوب، وهي مدينة البحر والصحراء^(٣) ومركز لقوافل الحج والتجارة، ومرفأ سرت الصغرى حيث ترسو السفن الصغرى والمتوسطة^(٤) ومفتاح المدن الإفريقية^(٥) وهي النقطة الاستراتيجية الحساسة بالنسبة للسلطة التي تحكم هذه الرقعة من الأرض، وصفها استرابون Strabon قبل الميلاد بنحو نصف قرن بأنها سوق جامعة عظيمة، يتبادل الناس فيها البضائع الواردة من المناطق والسلع الموجهة نحو نوميديا^(٦). هكذا ظهرت قابس دائماً. لأنها مدينة قديمة نمت وترعرعت كل هذه الأزمنة، بفضل موقعها الفريد وخصائصها المتميزة. ذكرها بليني في القرن الأول من الميلاد في أروع وصف بقوله «وفي خليج

(١) عملات ضربت على الطراز الشيعي الشائع في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله

(٢) انظر محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج (د/١١٤٩ هـ - ١٧٧١ م) الحل السندسية في الإخبار التونسية مع تحقيق محمد الحبيب الهيلة ط دار الغرب الإسلامي سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م قسم ١ ص ٣٣٤.

(٣) مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار (كاتب مراكش من كتاب القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي) نشر وتحقيق سعد زغلول عبدالحميد ط الاسكندرية ١٣٧٨ هـ - ص ١١٢.

(٤) أنظر أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق - بيروت عالم الكتب (بيروت) ج ١ ص ٢٨٠.

(٥) متمدن المرزوقي قابس جنة الدنيا طبع الخانجي ١٣٧٢ هـ ١٩٦٠ م صه وانظر دائرة المعارف التونسية ط ١ تونس كراس ص ٩٨ - ١٠٨

(٦) ولاية نوميديا ولاية رومانية كانت مكان جمهورية الجزائر الآن انظر المراجع السابقة نفس الصفحات.

سيرته توجد مدينة اسمها تاكاب أرضها خصبة ومناخها جميل، وعلى بعد ثلاثين ميلاً منها تقريباً بين عين فوارة متسعة مائها مقسم تقسيماً محكماً بين البساتين بالساعات، وفي بساتينها ترى الزيتون يصعد في ظلال النخيل وفي ظل الزيتون ينبت التين وفي ظلال هذا نجد أشجار الرمان وتحت هذه يفرس العنب وتحت العنب يزدهر القمح وأنواع الخضر، كل هذا يثمر في سنة واحدة وكله في «ظلال وبساتين ممتدة»^(١) في القرون التي تلت بعد ذلك. نجد الجغرافيون المسلمون قد أفاضوا في ذكر ثمار منطقة قابس وخيراتها وكثرة منتجاتها من الفواكه والحبوب والخضر والزيتون سواء في الغابة التي تلتف حول أغلب جهات قابس أو في داخلها وحولها، فذكر التجاني^(٢) (أوائل القرن الثامن) وصفاً مشابهاً لما سبق، وكذلك وصفها من بعده القاضي أبو المطرف بن عميرة، ودخلها الورثيلاني في القرن الثاني عشر الهجري واعطانا وصفاً يؤكد أقوال كل من وصفها قبله، حتى إذا حل القرن التاسع عشر الميلادي وصفها بنفس الأوصاف السابقة التي لا تختلف عن وصف بلييني إذ وصفها الباحث الأثري جرين Guerin^(٣) في رحلته الأثرية عبر واحات افريقية.

وان هذا الموقع الاستراتيجي جعلها جسراً انتقلت عبره التأثيرات الحضارية الى جانب انتقال البضائع التجارية من زمن يسبق حضارة «قرطاج» التي جاءت عبر البحر الرومي، وعن طريق الصحراء انتقلت منها قبل البضائع والسلع المختلفة تعاليم الدين الحنيف الذي نشره التجار المسلمون حتى انتشر في باقى القارة الإفريقية فاحتلت شهرة ومرتبة خاصة بها لذلك ولوجود قبر أبى لباية الانصارى صاحب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المدفون في ترابها.

لذا فإن قابس تعد في موقع القلب من افريقية، ومركزاً للاشعاع الحضارى للمناطق المحيطة وسوقاً للأعمال التجارية وتبادل السلع، كذلك جعل منها هذا الموقع محرساً هاماً ورباطاً لحراسة الساحل والداخل من ناحية أخرى.

هذا الموقع الجغرافي المتميز الى جانب توفر الأمن، فقد كفل لها التحصين بنوعيه الطبيعي والصناعي والطرق المعبدة الى جانب توفر الماء من حيث الازدهار الزراعي، ومن ناحية أخرى - فلها أهميتها - في تزويد المسافرين بالماء والمون من ناحية الصحراء والميناء.

تميز الرحالة التجاني^(٤) بأنه قدم لنا وصفاً شاملاً ورائعاً عن قابس وضواحيها، فقد زارها ومكث فيها بعض الوقت ثم رحل الى طرابلس ورجع الى قابس مرتين وفي كل مرة يمكث فيها أياماً، يقول

(١) انظر: الفصل الرابع من هذه الرسالة : الحياة الاقتصادية

(٢) الرحلة ص ٨٦ (لقد كانت رحلة التجاني في مضمونها وصفاً لمجلة متنقلة من رادس بجوار تونس، وتنقلت حتى وصلت طرابلس، وكلمة المحلة في العصر الحفصي لها دلالة العسكر المتنقلة بمعنى كتيبة أو جزء من الجيش، وهي في ذلك الوقت حركة عسكرية تدعم للتوازن بين الجيش الرسمي للسلطان والطاقة القتالية للقبائل البدوية مما جعلها تتحول شيئاً فشيئاً لحركة منظمة، وقد سيطرت هذه القبائل على بوادي افريقية وخنقت مدنها بداية من عصر السلطان أبى اسحاق ابراهيم ابن أبى زكريا (٦٧٨ - ٦٨١هـ). ويقول الزركشي: محمد أبو عبد بن ابراهيم بن اللؤلؤ كان حياً في ٧٩٤ هـ - ١٤١٦م استولت العرب في أيامه على الغرب وقد استعمل التجاني كلمة المحلة للدلالة على ذلك العسكر المتنقل أو مكان الاستراحة فعبّر عنها بكلمة المنزل أو المناخ (ص ٥٧ - ٨٥ - ٨٦) انظر الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية المكتبة التونسية العتيقة بتونس ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٨م، ط ١، ص ١٣٣ - ١٣٧.

(٣) Voyage archeologique dans la régence du tunis Edit Paris 1867J(86751-86-188

(٣)

(٤) المصدر السابق نفس الصفحات

التجاني:» فرأينا بلداً استوفت المحاسن واستغرقتها، وأذكر بمنظره الأخضر والأنقى، وورقها الأخضر حنة الخلد واستبرقها وقد أحرقت غابته من جميع جهاته، والنخل المتناسق يستوقف الطرف، ويستوفي الحسن والظرف، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا،» (١)

لم يلق على قابس الضوء الكافي من حيث عمرانها وتخطيطها بالتفصيل، وكذلك الحوادث التي المت بها، ولعل من الجدير بالذكر ان الدراسات لم تركز على قابس كمدينة مستقلة أو على ابراز دورها ومدى فاعليتها في الأحداث السياسية الكثيرة التي عصفت بمنطقة شرق وجنوب شرق افريقية.

إن الحقبة التاريخية التي تخص زمن هذه الرسالة مع التغيير المستمر لأحوال قابس السياسية وتتابع الوقائع التي مرت عليها بالإضافة الى قلة ما استطعت جمعه من مادة علمية عبارة عن شذرات متناثرة في المصادر العربية المتنوعة. شكل كل هذا صعوبة في كتابة التاريخ السياسي والحضارى لقابس، لقد تطلب الأمر الكثير من الصبر والمرونة في معالجة الموضوع بشكل جعلني اعكف على دراسة تاريخ قابس في كل مراحل تاريخها سواء كمدينة تابعة أو كمدينة مستقلة تتمتع بخصائص الدولة، وعلى الرغم من الدور الهام الذي لعبته قابس في تاريخ إفريقيا السياسي والحضارى، فأنها لم تلق الاهتمام الكافي الذي تستحقه من مؤرخي المغرب وجغرافيتهم فكانت من أقل مدن إفريقيا حظاً فيما سجله هؤلاء المؤرخين من أخبار ووقائع، أو ما أورده الجغرافيون من نصوص جغرافية عن خطط وخصائصها الجغرافية كلها بالكامل، وربما كان مرجع ذلك هو تركيزهم على أخبار الحواضر من ناحية، ومن ناحية أخرى ربما كان مرجع ذلك انها لم تلتزم بالطاعة للخلافة المركزية إلا لفترات، وكان مؤثلاً للخوارج والأباصيين وكل من أتى إليها براً أو بحراً فوجدنا بها الكثير من العناصر.

ولهذا لا تخفى صعوبة الخوض في موضوع مدينة قابس، فهي من الموضوعات الشاقة المضنية التي تحتاج دائماً الى يقظة تامة عند البحث والتنقيب بين ثنايا السطور في كل ماكتب في كتب التاريخ الإسلامى العام والسير والجغرافيا والرحلات عن مصر وافريقية، والغرب عموماً، وقد حاولت جاهدة أن أجمع كل شاردة وواردة عن مدينة قابس في ثنايا المصادر والمراجع، وقد وجدت أن المعلومات متضاربة في سير الأحداث، ولم تبد صريحة وواضحة أحياناً، مما جعلني الجأ الى التحليل والنقد والمقارنة والاستنباط للوصول الى الحقيقة بقدر الإمكان، هذا ما أعتقد أنني فعلته.

ابن خلدون نفسه يناقض نفسه فقال عن قابس:» إنها مدينة البحر والصحراء أعظم أمصار إفريقيا» في أحيان أخرى ذم موقعها في مقدمته.

ومما سبق يتضح أن هذه الدراسة لم تكن هيئة بالإضافة الى أن مادتها مبعثرة ما بين مصادر تاريخ مصر وليبيا والمغرب والأندلس أيضاً بالإضافة الى مااستطعت معه من كتابات المستشرقين وما سجله الاثريون من تقارير ونتائج لحفرياتهم في المنطقة، ومقارنة كل ذلك بالأخبار الواردة والمصادر المختلفة عن قابس، ومحاولة الوصول الى نتائج تفيد البحث، ومكنت فترة طويلة وأنا أحاول فك طلاسم

المخطوطات من حيث اللغة والخط فعثرت بحمد الله تعالى على عدة مخطوطات افادتني، على رأسها مخطوط السير اللوسيانى، ورجعت للسجلات المستنصرية لاستخلاص بعض الحقائق التاريخية عن الغزوة الهلالية التى لفتها الأساطير والأشعار من بلد لبلد، وتقلت من جيل لجيل حتى طلمست حقائقها التاريخية.

لقد بحثت كثيراً عن العملات التى تفيد البحث فى متحف الفن الاسلامي ثم دراستها ويعلم الله كم هى دراسة مضيئة

إن التاريخ السياسى لقابس كان عامراً بالحوادث والوقائع، وإن لوجود قبر أبى لبابة الانصارى بها أضفى عليها صبغة إسلامية مازالت تتمتع بها للآن وكان بها بيعة وأكاديمية لليهود، وكما كانت بها أسقفية ولما كانت حركة الاسترداد REconquista كانت قابس مستهدفة وحدثت بها فتن وثورات وبخاصة فى عصر بنى جامع الهلاليين - لقد صمدت قابس دائماً فى كل مجريات تاريخها. هذا التاريخ الطويل الذى سجل أمجاد تزهو بها قابس فى فترات معينة كما سجل نكسات تعرضت لها. هذا التاريخ لم يكتب كاملاً وعلى نحو منهجى.

ورغمًا عن ذلك فإنه توجد دراسات تختص بإقليم إفريقية ويأتى ذكر قابس متضمناً هذه الدراسات - وهى دراسات طيبة - تحتفل بالجانب السياسى أكثر من غيره من جوانب.

أهم هذه الدراسات - فى حدود علمنا - دراسة باللغة الفرنسية للهادى روجيه إدريس عنوانها:

“La Berbérie orientale sous les Zirides - xe - x II e siecles”

وقد ترجمها حمادى الساحلى مؤخراً الى اللغة العربية بعنوان «الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية فى عهد بنى زيرى من القرن ١٠ الى القرن ١٢م» كما أن لدينا اطروحة مصطفى محمد عبدالخالق لنيل درجة الدكتوراة بأداب القاهرة بعنوان «علاقة القوى الصليبية فى غرب البحر المتوسط بالغرب الإسلامى فى القرنين السادس والسابع للهجرة». إشراف أ.د/ عصام عبدالرؤوف، أ.د/ سعيد عاشور

ولالأستاذ محمد المرزوقي كتاب بعنوان «قابس جنة الدنيا» وقدم قدم له الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب، وأعطانا وصفاً لقابس لتجواله فيها. وهو كتاب أدبى مدون فيه وقائع تاريخية رجع فيها للمصادر المختلفة، ووجدت بحث - عفيفى محمود عن بنى مكى فى قابس فى عصر بنى حفص لذا كان ذلك مبرراً لأن اختار مدينة قابس موضوعاً لدراستى. وعلى الرغم من أن موضوع الرسالة يرتكز أساساً على مدينة قابس لكنى أيضاً اضطررت فى كثير من الأحيان الى أن أخوض فى تاريخ إفريقية والمغرب بصفة عامة لارتباطهما بهم ارتباطاً مستمراً واتضح لى أن دراسة التاريخ السياسى والحضارى لمدينة ما لا يقتصر على نطاقها العمرانى الذى يسبغ عليها صفة المدينة، وإنما يتجاوز هذا النطاق ليشمل الإقليم الذى ينتسب الى القاعدة الإدارية، إن الوقائع السياسية تفيض عادة عن هذا النطاق وتتجاوزه الى كل الأقاليم ويجرى عليه مايجرى على القاعدة. كذلك اضطررت إلى أن أقرأ بعض قصائد الشعر وأفسرها على أصل الى تفسير ما تذكره المصادر فى بعض الأمور، ومما يجدر بالذكر أن الكتابة فى التاريخ

المحلى للمدن عرفة التاريخ الاسلامى منذ القرن الثالث الهجرى كمؤلف تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ حلب لابن العديم وتاريخ غرناطة لابن الخطيب، وقد ظل هذا الاتجاه عند مؤرخى العرب المحدثين فظهرت على سبيل المثال ابحاث حسن حسنى عبدالوهاب عن القيروان وتونس وغيرها وعبد القادر الريحاوى عن دمشق، وأبحاث د. سيد عبدالعزيز سالم عن المريه وقرطبة وطرابلس الشام وآخرين لكثيرين لا يتسع المجال لذكرهم كتبوا عن مدن الشام واليمن والأندلس وغيرها ولايفوتنا ذكر أبحاث الدكتورة سحر سالم عن بطليوس وشاطيه ورباط الفتح بالمغرب الأقصى، وأبحاث د. محمد البيلى عن اشبيلية وطليطة فكان حظ مدن الأندلس والمغرب الأقصى أكبر فى كتاباتهم، ولقد اتجه الدكتور عطية القوصى اتجاهاً جديداً ضمن أبحاثه القيمة وهو احياء المدن المندثرة فظهرت له أبحاث عن مدينة تنيس وميناء باضع وميناء عيذاب.

تتكون هذه الدراسة من هذه المقدمة وخاتمة وبينهما ستة فصول :

• الفصل الأول وعنوانه رخطط قابس وتطورها.

عرضنا أولاً اسم قابس وتحليله ثم تحدثنا عن موقع قابس وخصائصه، وقبل أن نخوض فى التطور العمرانى لقابس عرضنا لأسلوب العمارة القابسية وطابعها. وتناولنا المسجد الجامع بقابس والمساجد الأخرى بأنواعها والشوارع والمنازل والأربطة والساحات والحمامات والقصور الى غير ذلك.

وكان منهجى فى هذا الفصل لقلّة المادة التى تخدمه هو انى لجأت الى نتائج حفريات الاثريين فى قلعة بنى حماد وحفريات الاثريين فى منطقة قابس وقارنتها بما وجدته من مادة شحيحة صوّرت الى قصائد الشعر وتفسيرها على أكون قد وصلت الى مادة ذات سمة تاريخية مفيدة.

• أما الفصل الثانى بعنوان «الحياة السياسية»

بدأته تمهيد عن قابس منذ الفتح الاسلامى حتى الغزوة الهلالية وكان منهجى فى معالجة هذا الفصل أن أسلط الضوء على قابس منذ الفتح الاسلام لما له أهمية لانه القاعدة القوية التى انطلقت منها للبحث فى الفترات التاريخية اللاحقة سواء التى قبيل الغزوة الهلالية أو بعدها، لكى تتضح الأحداث السياسية المعنية، ثم بعد ذلك درست آثار الغزوة الهلالية وأهمها سياسياً تكوين امارة بنى جامع فى قابس ثم تناولت علاقات قابس مع دول إفريقية والمغرب ومع مصر والأندلس وصقلية والسودان موضحة الدور الذى لعبته قابس فى الأحداث السياسية فى الفترة المعنية بالبحث وهى متشعبة الحوادث، الاضطراب السياسى الذى حدث نتيجة لاتصال يوسف مولى بنى جامع بروجار الثانى ملك صقلية وما تبعه من سقوط دولة بنى زى واستيلاء النورمان كذلك دور قراقوش الأرمنى وابن غانية السياسى وغير ذلك.

• أما الفصل الثالث وعنوانه: نظم الحكم والإدارة

وكانت خطة الفصل هى عرض للنظام الإدارى ثم القضائى والحسبة والجيش والاسطول ولما كانت الوضعية السياسية لقابس تغيرت لعدة مرات تبعا لمن امتلكها، فقد تغيرت نظم ادارتها. كان منهجى فى تناول هذا الفصل هو دراسة عدة نظم إدارية كل منها على حدة فدرست نظام الدولة الفاطمية الذى سار

على منهجه بنى زيرى بعد رحيل القاطمين لمصر ثم درست نظام القبائل العربية وبنى جامع الهالبيين ثم نظام النورمان ثم اسلوب قراقوش الأرمنى وبنى غانية فى الإدارة واضفاء الشرعية على ادارتهما ثم نظام الموحدىن الذى سار عليه الحفصين بعد ذلك.

• أما الفصل الرابع بعنوان «الحياة الاقتصادية»

تميزت الحياة الاقتصادية فى قابس بالتنوع والازدهار، وقد تناولت النشاط الزراعى وعناصره ثم تحدثت عن النشاط الصناعى والنشاط التجارى بأنواعه، وأسواق المدينة وتجارها الخارجية والداخلية وطرق التجارة الخارجية والفنادق ونظامها وأنواعها ثم تحدثت عن المعاملات المالية وأنواعها، وكان منهجى فى ذلك هو دراسة إفريقية بصفة عامة، ثم نظام الشيوخ والفقهاء الإباضيين فى تشجيع الزراعة بصفة عامة ثم الدخول فى نظام قابس، حيث ان مادة الاقتصاد تتغير تغيرا طفيفا الى حد ما بالنسبة لكل مدينة ولقائس نظامها الخاص بها وكان اليهود فيها يعملون أحيانا بالزراعة.

• أما الفصل الخامس بعنوان «الحياة الاجتماعية»

أوضحت أولا العوامل المؤثرة فى الحياة الاجتماعية وأهمها تغلغل الإسلام وتحويل تبعية المسيحيين لأسقفية الإسكندرية بدلا من روما وتحدثت عن عناصر المجتمع وطبقاته والمرأة فى مجتمع قابس ولم انسى ذكر بعض مظاهر الحياة الاجتماعية وعادات وتقاليدهم موروثة ومحدثة وعرض لبعض المجالس الاجتماعية وهذا بالنسبة للعرب وللبربر الذين كانت لهم تقاليدهم الخاصة وذلك فى جنوب قابس فى الصحراء وعلى الجبال وقد مكث معهم محمد المرزوقى ووصفهم كذلك المستشرق اندريه لوبيس وكان منهجى دراسة الحياة الاجتماعية فى إفريقية والمغرب بصفة عامة ليتسنى لى الدخول فى خصوصيات قابس والنظام الاجتماعى الخاص بها وكذلك النظام المألوف فى إفريقية عامة.

• أما الفصل السادس بعنوان «الحياة الثقافية»

فقد خصصته للحياة الثقافية فى قابس وأوضحت أولاً العوامل المؤثرة فى الحياة الثقافية وذكرت نظام التعليم: المكاتب والمدارس والمساجد كذلك نظام التعليم فى الأربطة ودورها فى نشر العلم والثقافة وعرض لأهم علماء قابس ودورهم فى الحياة الثقافية بالقيروان وفى إفريقية عامة.

• أما الخاتمة:

فتمضت أهم النتائج التى توصلت لها والجديد الذى تراءى لى من خلال هذه الدراسة. ثم افردت ثبنا لأهم المصادر والمراجع العربية والمعرية والأجنبية التى أمكننى الاطلاع عليها والاستفادة منها، كذلك افردت مكانا للملاحق التى اثرت البحث.

ولا يسعنى فى الختام إلا أن أذكر فضل الأيادى البيضاء التى مدت الى وارشدتنى الى طريق الصواب والصمود لتحقيق الهدف المنشود والشكر كل الشكر لـ د. محمد البيللى الذى وجهنى فى أصعب المراحل وهى مرحلة الكتابة والمراجعة والطبع ولم يبخل على بنصائحه وارشاداته فى أى وقت وبفضل

توجيهاته المنهجية الصحيحة ونصائحه المفيدة ومساندته لى لما قدر لهذا البحث أن يرى حيز النور. شكرا د. عبادة كحيلة الذى أشرف على هذه الرسالة فى أولى مراحلها حتى مرحلة الكتابة وبذل جهدا فى مساعدتى وتوجيهى التوجيه السليم كذلك اتقدم بالشكر لأعضاء لجنة المناقشة الذين يشرفوننا د. عطية القوصى ود. سحر سالم وشكرا كل اساتذتى فى قسم التاريخ بكلية الاداب جامعة القاهرة الذين تتلمذت على ايديهم واكن لهم كل تقدير ووفاء متعهم الله بالصحة والعافية، وكانت مؤلفاتهم وستظل هى الشعلة المضيئة لى، وأخص بالذكر د. ليلى عبدالجواد رئيسة القسم وواجهته المشرقة التى لم تأل جهدا فى مساعدتى على تخطى الصعاب. شكرا لاستاذى د. حسن محمود شفاء الله وعفاه، وانى لأشكر د. عصام عبدالرؤوف ود. عطية القوصى أعمدة التاريخ الاسلامى الذين ساعدونى بتوجيهاتهم السديدة فى اختيار هذا الموضوع ومواصلة البحث فيه

ولا أنسى الشكر للأستاذ الدكتور / سيد عبدالعزيز سالم شفاء الله وعافاه لما قدمه لى من نصائح وتوجيهات وكانت مؤلفاته القيمة من أهم المراجع التى فتحت امامى طريق البحث كما اشكر د. أحمد مختار العبادى ود. سعد زغلول عبدالحميد وشكرا لأسرة قاعة العملات بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة وإدارة المتحف وإدارة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة القاهرة، شكرا للأولادى وتمنياتى لهم بالصحة والسعادة وأخص بالذكر المهندس / محمد وليد الذى تحمل عنى مشاقا عديدة وتمنياتى له بدوام التوفيق فى عمله وابحائه وحياته.

وانى أقدر وأشكر كل من قدم لى يد العون

• نقد المصادر:

تجولت الباحثة جولة واسعة في المصادر الكثيرة والمتنوعة بتشعبها المادي والغير مادي واشتملت المصادر المادية علي السكة والنميات شواهد قبور والوثائق المختلفة وبقايا الحفائر التي وضحت الكثير من مظاهر الحياة في منطقة قابس.

مثل الحفائر الأثرية التي قام بها الأثري جيرين Guerin عام ١٨٦٧ مع بعض الدارسين فقاموا بعمل رحلة أثرية كان من أهم ما فيها منطقة قابس وما وجدوه من بقايا خزف وأعمدة مهشمة وشواهد قبور مسلمين ومسيحيين وما يدل علي وجود الأسقفية المسيحية في شمال قابس علي خليجها وكذلك أعمال جورج مارسيه Georges Marcais وليفي بروفنسال Levi Provencal وهم باحثون فرنسيون مهتمون بالبحث والكتابة عن العمارة الإسلامية وآثار البربر وعلاقاتهم وبما كشفت أوراق الجينزا عن علاقات يهود قابس بالقاهرة وتجارهم. كذلك كشفت لنا وثائق الأرشيف الوطني في تونس عن تحبيس أموال علي الأربطة والمساجد «ولو أنها زمنيا متأخرة نسبيا» كما كشفت عام ١٩١٢ عن قبور بعض افراد بني جامع الهاليلين في قابس من حيث السكة فقد أثبتت لنا بالدليل الواضح رجوع أفريقية كلها للفاطميين ولو بتبعية مؤقتة «عن طريق قابس مثلما أوضح السجل رقم ٥ من السجلات المستنصرية أنه سكت دنائير مستنصرية في المهديّة.

كذلك وجدنا ديناراً نادراً من السكة الرشيدية لرشيد بن مكي بن جامع الهاللي الذي كان يتولي إمارة قابس.

من حيث المصادر المكتوبة «غير المادية» اشتملت علي الكثير من المؤلفات بعضها من وضع مؤرخي المغرب والأندلس والأخري من وضع مؤرخي المشرق وكلها احتوت علي كتب التاريخ والرحلات والجغرافيا والطبقات والسير والفرق وستختار الباحثة بعضا من أهمها علي سبيل المثال لا الحصر:

(١) كتب التاريخ:

من أهم كتب التاريخ التي مازالت مخطوطة كتاب السير للوسباني فهو عرض لتاريخ منطقة جبال قابس الي جبال نفوسة وقد تتبع لسير الإباضية وتاريخهم كما تعرض لتاريخ الفاطميين وبني زيري.

• الوسباني:

أبو الربيع سليمان بن عبدالسلام ابن حسان بن عبدالله الوسباني (من رجال القرن السادس الهجري مخطوط بدار الكتب المصرية (الهيئة العامة للكتاب) موجود في قاعة المخطوطات يحمل رقم ٩١١٣ ح ورقم الميكرو فيلم ٨٤٥٢.

وقد قرأت في نقد مصادر رسالة مسعود مزهودي التي بعنوان «الأباضية في المغرب الأوسط من بند سقوط الدولة الرستمية إلي هجرة بني هلال الي بلاد المغرب (٢٩٦-٤٢٢هـ). (٩٠٩-١٠٥٨م) باشراف أ. د. حسن محمود - ١٤٠٩هـ - ١٦٨٨م رسالة ماجستير رقم ٥١٠٥ كلية الآداب جامعة القاهرة.

يقول الباحث مسعود أنه وجد نسخة أخرى من مخطوط السير للوسيانى عند الحاج سعيد محمد أيوب بمدينة وداية بالجزائر وهذه النسخة هي التي اعتمد عليها كمصدر هام لتاريخ الإباضية واستفاد منها في تراجم علماء الإباضية سواء في إفريقيا أو المغرب.

أما نسخة الهيئة العامة للكتاب والتي اطلعت عليها مرات عديدة وجدت أن د/ سعد زغلول عبدالحميد قد كتب بحثا تضمن هوامش وشرح لهذه المخطوط ووضع له عنوان: هامش علي مصادر تاريخ الإباضية وقد نشر في مجلد لاشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب طبعته الجامعة التونسية «١٣٩٦ سنة ١٩٧٩م».

استفدت من هذا المخطوط استفادة كبيرة.

فقد أوضح لي الكثير من الأخبار في ثنايا حديثه عن الإباضية مثل:

سجل خطابا أرسله إبراهيم بن ونمو المراتي قائد المعز بن باديس الي الشيخ ابي زكريا قبل دخول جربة أورد الكثير من الغارات التي شنّها المعز علي جبال نفوسة والمنطقة حول قابس.

كما أورد أن قابس أرضها غنية وكانت أيام أزمات المجاعات تعطي من حولها تمرا مقابل مبالغ كثيرة بواسطة شيخ من الشيوخ المعروفين بالثقة فوجدت أن عندهم نظام الوسيط والضامن في عمليات البيع والشراء والصفقات.

كذلك فهمت أنه يوجد مجلس السوق يجتمعون فيه لعقد الصفقات والمشاورات ونقل الأخبار المختلفة وكان في منطقة قابس سوق خاصة لبيع الجمال.

رأي المؤلف دخول الهلالين وأنه كان سعيدا لانحسار المعز بن باديس وذكر مساجد عدة في قابس مثل مسجد الصهريج مسجد الوهبة مسجد السوق، ذكر قري كثيرة جدا حول قابس لم تذكر في أي مصدر جغرافي آخر وقري الجبال في جنوبها.

كما أورد أسماء قبائل عديدة ما بين جربة وقابس مثل: بنودمر - بنو يراسن - بنو واشيه.. وأشار الي علاقات عدائية من بنو حماد والمرابطين «الصهناجيون»، ثم تحدث عن النشاط الاقتصادي والقوافل التي تمر من قابس في طريقها الي السودان وأشار الي معاملات المالية - النظم الزراعية التي استخدمت في ذلك الوقت وكذلك رعي الحيوانات ونظام الأرض المقسمة الي أحواض وتقدير مساحة الحوض «كوحدة مساحية».

كذلك تحدث عن الأسواق ونظام المزايدة فيها وأنواع النقود مثل «الهندسية في جربة» ونظام المجتمع الإباضي. ونظام القضاء والفصل في القضايا العامة والسرقات «اسم السلاية» واجراءات التقاضي - ونوع العقوبات.

هذا الي جانب حديثه الاساسي عن الإباضية ونظامهم وطابعهم الديني وأنواع مذاهبهم واسمائهم مثل: الوهبة والنكاري والاشعرية والخوارج...

كذلك أفدت من مخطوط العيني «ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) المسمي عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - في معركة الكثير من احدث تاريخ. ويبدو أن العيني نقل ايضا ممن سبقه من المؤرخين مثل التسجاني وغيره، وكتاب عقد الجمان هذا كتاب ضخيم يقع في حوالي خمسة وثلاثين مجلدا مصورا وهو بدار الكتب المصرية تحت رقم «١٥٨٤».

وكتاب ابن عذاري البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب - يحتوي علي اخبار المغرب منذ الفتح العربي للمغرب حتي أواخر القرن السادس الهجري اعتمد ابن عذاري علي مصادر مغربية اندلسية وبخاصة اخبار الفتح العربي للمغرب . وكانت آخر سنة أشار اليها في كتابه هي ٧١٢هـ - ١٣١٣م انه كان يكتب فيها بعد أجزاء من كتابه.

وفي كثير من الأخبار التي أوردها أرجعها لتاريخ الطبري والبكري والقضاهي «ابن الآبار»، لذا جاء كتابه متكاملا من الناحية التاريخية وتكاد تقارب الحقيقة فعلي سبيل المثال أورد خبرا عن المعز بن باديس اتصل بالخليفة العباسي ٤٣٣هـ وأورد ابن الأثير انه كان في ٤٣٥هـ وكتاب ابن عذاري مقسم الي ثلاثة أجزاء:

أما الجزء الأول: يتضمن أخبار افريقية منذ الفتح الاول في خلافة سيدنا عثمان، وذكر أمراء المغرب في عصر الدولة الأموية والعباسية حتي انتقال الفاطميين الي مصر واستخلافهم صنهاجة علي افريقيا كما عالج غزو العرب الهلالية واسبابها - وأخبار أمراء بني زيري وبني حماد حتي ظهور المرابطين. والجزء الثاني: فخصص لذكر أخبار تاريخ الاندلس منذ الفتح العربي حتي دخول المرابطين الاندلس سنة ٤٧٨ هـ وهو من صحيح المستشرق الهولندي دوزي عن مخطوطة سنة ٦٧ بلندن.

كما نشر هذا المستشرق نشر في باريس ١٩٣٠ قسم خاص من كتاب البيان المغرب خاصا بملوك الطوائف في الاندلس أي من وفاة ابن ابي عامر الي سنة ٤٦٠هـ وقد اعتقد بروفنسال أن هذا الجزء هو الجزء الثالث من كتاب ابن عذاري ولكن اتضح فيما بعد ان قمته للجزء الثاني من هذا الكتاب لكن حسب نشرة احسان عباس «بيروت ١٣١٧هـ / ١٩٦٧م) تمثل الجزء الرابع من الكتاب.

أما الجزء الثالث من كتاب ابن عذاري فيضم تاريخ دولتي المرابطين واللموحدين حتي انقراض دولة الموحيدين وقيام الدول الوارثة للموحيدين في المغرب.

وقد قام لتحقيق هذا الجزء محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكناني ومعهم المستشرق الاسباني امبروسيو اديني ميراندا ونشروا به جامعة الرباط.

وقد نشرت مجلة Hesperis قطعة من كتاب البيان تتعلق بتاريخ المرابطين «وقد وجدتها مطبوعة في مكتبة د. حسين مؤنس المهدة لمركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة كما نشر الجزء الثالث ليقي بروفنسال في باريس «١٣٥٠هـ - ١٦٣هـ) وهي التي نشرها احسان عباس «وقد ذكرت في الصفحة السابقة».

استمد الكتاب ابن عذاري هذه الأهمية الكبيرة لأنه عاصر أحداثا كثيرة وبخاصة خلال فترة حكم الموحدين الي جانب اعتماده علي مصادر متعددة وثيقة مشرقية أو مغربية «ذكرتها سابقا» هذا بالإضافة الي انه قد انفرد بذكر اخبار كثيرة هامة.

• ابن الاثير:

عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري د/ ٦٣٠هـ - ١٢٦٢م.

الكامل في التاريخ ١٠ أجزاء تصحيح محمد يوسف الدقاق ط بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م. ط ١.

هو الإمام العلامة عمدة المؤرخين ابن الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين.

الطبعة السابقة هي الموجودة في مكتبتي المنزلية لكن وجدت طبعات أخرى في جامعة القاهرة مكتبة معهد الدراسات والبحوث الافريقية ومكتبة الجامعة الامريكية UC مكونة من ١١ جزءا و ١٢ جزءا ط بيروت أيضا بدون تاريخ طبع.

يمتاز ابن الاثير بالدقة في نقل الاختبار واسنادها الي الثقات وهو يختلف عن الطبري في شيء وهو أن الطبري ينقل جميع ما يروي اليه حتي ولو كانت اساطير وعلي القاري أن يستنبط الحقيقة لكن ابن الاثير ينتقي ما يتق فيه وهو ينفي وبأسلوبه البسيط الواضح.

استفدت من هذا المؤلف كثيرا جدا تاريخيا واجتماعيا فهو أول من القي لي ضوءا علي قابس وعلي بنو جامع الهلاليين الذين حكموها ومن خلالها فهمت الكثير عن المناقشات والمواجهات السياسية وغيرها بين الخلافتين العباسية والفاطمية كذلك تتبععت من خلاله علي أخبار بني زيري وبداية انقسامهم عن الفاطميين وخطبتهم للعباسيين كذلك بداية الغزوة الهلالية وأخبارها وأخبار قبائلها.

• ابن خلدون:

ولي الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٤٠م)

عنوان الكتاب: العبر وديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عناصرهم من ذوي السلطان الأكبر أو تاريخ ابن خلدون.

والموجود لدي مكون من ٧ أجزاء من ط بيروت مؤسسة جمال للطباعة والنشر بدون.

أشار المؤرخون أن أسرة ابن خلدون استقرت بمدينة اشبيلية بالاندلس بعد أن تم فتحها وهذه الأسرة تنتمي الي العرب اليمانية بحضر موت وجدهم وائل بن حجر.

ولما بدأت الأوضاع السياسية في الاندلس تتدهور نتيجة استيلاء القشتاليين علي العديد من المدن مثل مدينة قرطبة التي سقطت في ايديهم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٦٧م لذا رحلت أسرة ابن خلدون مثل أسر كثيرة في ذلك الوقت الي بلاد المغرب وفي تونس التحق جد ابن خلدون بخدمة بعض حكام بني حفص.

ولد ابن خلدون بتونس في اول رمضان سنة ٧٣٢ق/٢٧مايو ١٣٣٢م ونشأ في بيئة علمية وتلمذ علي يد مجموعة كبيرة من علماء والاندلسي فعلي يد والده درس النحو واللغة، كما تتلمذ علي يد أبو عبدالله محمد بن السواس الزرزالي والشيخ أو عبدالله محمد بن العربي وغيرهم من العلماء.

تحتوي المجلدات السبع المطبوعة لابن خلدون علي ٣ أجزاء رئيسية موزعة عليها:

١- الجزء الأول: يتحدث فيه عن العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع وعللها وأسبابها وقد أطلق عليه اسم المقدمة أو مقدمة ابن خلدون.

٢- أما الجزء الثاني يتضمن أخبار العرب منذ بدء الخليقة حتي القرن الثامن الهجري ومن عاصريهم من الدول مثل الفرس والروم وغيرهم.

٣- أما الجزء الثالث فقد اشتمل علي كل ما استطاع ابن خلدون جمعه من أخبار البربر وقبائلهم مثل زناته وغيرها وذكرهم وأجيالهم ودولهم بالمغرب فالمجلد الأول يحتوي علي المقدمة.

أما المجلدات من الثاني الي الخامس فتعني أخبار العرب وأجيالهم وأخبار الأمم القديمة والتركية والفرنجية ومن عاصريهم حتي القرن الثامن الهجري.

أما المجلدين السادس والسابع فقد اختصوا بأخبار البربر ودولهم المختلفة.

والمصنف لهذه المجلدات يجد أن ابن خلدون قد اتخذ لنفسه منهجا جديدا في الكتابة فهو يبحث دائما عن العلل والأسباب ويربط بينهما ولا يعتمد علي طريق السرد فقط.

ابن خلدون من المصادر الأساسية في بحثي وقد استفدت منه جل الاستفادة فهو مصدر يعطيني معلومات كثيرة ولو أنه يعتبر مصدر متأخر نسبيا.

فالنسبة للعرب الهلالية اعطاني تفاصيل كثيرة عن انسابهم وتفرعاتهم وبخاصة الموجودين ببرقة. وهم غير الزاحفين من مصدر وهو يوثق روايته دائما ولو انه يعيني مصدر متأخر عنهم.

وقد استفدت منه أيضا في أخبار الزبرين أصلهم والخلافة بينهم وبين بنو عمهم بنو حماد الذين استقلوا بالمغرب الاوسط كذلك القي ضوءا باهرا علي دولة بنو جامع الهلاليين الذين كونوا إمارة عربية في مدينة قابس وما يلفت النظر انه قال عنها أن موقعها سييء وموبوء ثم في قول آخر قال أنها أعظم مدن افريقية كذلك تحدث عن أخبار الدولة الفاطمية ومناوشاتها مع الدولة العباسية التي كان من نتائجها التحريض الذي حدث للمعز بن باديس لتحويل الطابعة الي القائم بالله الخليفة العباسي ويعتبر ذلك من الاخبار والحوادث التاريخية.

• المراكشي:

محيي الدين عبدالواحد بن علي التميمي «د. النصف الثاني من القرن السابع» المعجب في تلخيص أخبار المغرب».

لقب بالمراكشي نسبة الي مكان مولده مراكش في سنة ٧٥١هـ- ١٢١٣م في أثناء خلافة أبي يعقوب الموحيدي.

وتلقي دراسته في العلوم الدينية في مدينتي مراكش وقابس علي أيدي كبار علماء هذا العصر كأبي بكر بن زهر علي سبيل المثال - حتي إذا بلغ الثانية والعشرين من عمره عبر الي الاندلس ليلتقي علومه ومزيدا من المعارف فنجده تلمذ علي يد استاذة ابي جعفر الجعبري في قرطبة وفي أشبيلية في ذلك الوقت» فاصبح من اعضاء مجلسه. ولا شك إن ذلك اتاح له فرصة الاتصال بكبار رجال الإدارة في البلاد. ثم نراه يعود الي مراكش سنة ٦١٠هـ - ١٢٤٢م نجده غادر المغرب في جولة الي المشرق فطاف بأقطار من مصر الي الحجاز الي الشام الي العراق وكانت ذلك الرحلة عن طريق تونس.

وفي أثناء هذه الجولة أو الرحلة ألف كتاب المعجب ولم تشر المصادر الي ظروف حياة هذه المؤلف بعد ذلك ومتي كانت وفاته هل كانت قبل أو بعد منتصف القرن السابع من الهجرة. وطبقات الموحدين وصلاتهم - وفتحهم بجاية واستيلاءهم علي قلعة بني حماد وفتح المهديبة واستردادها من بلاد الصقليين وكذلك قابس.

ثم تحدث بالتفصيل عن بني غاثية وغزوهم لأفريقيا وتحالفهم مع العرب ودخول الموحدين جزيرة ميورقة ثم شرح بعد ذلك حد بلاد افريقيا وبرقة وطرابلس واتصال العمران بين الاسكندرية والقيروان وبلاد افريقية الساحلية - كذلك ذكر المعادن المختلفة مثل الفضة والحديد وغيرها بالمغرب والاندلس ثم ذكر الانهار المشهور.

• المقرئزي:

نصر الدين أحمد بن علي بن تقي الدين المعروف بالمقرئزي «د / ٨٤٥هـ - ١٣٧٧م» له نشر من مؤلفات كثيرة منها:

١- كتاب السلوك لمعرفة دولة الملوك ط القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ونشر محمد مصطفى زيادة.

استعدت جيدا من ج (١) لمعرفة الفترة الزمنية لصلاح الدين الايوبي وما حولها بخصوص اتصاله بالموحدين.

٢- المواعظ والاعتبار يذكر بالخط والاثار المعروف بالخطط المقرئزية - ط بيروت بدون، استفدت منه في اشياء كثيرة فمثلا معرفة مكان وأهمية بركة الحجاج التي أتى اليها الشيوخ المذكورين في الحج نشره السيد علي بن تقي الدين.

٣- المقفي الكبير تحقيق محمد اليعلاوي ط بيروت ١٤١هـ - ١٩٩٢م ط كتاب كبير موزع علي ثمانية مجلدات عبارة عن تراجم لكل من سمع عنهم أو منهم أو عاصروه، أفادني كثير في معرفة الكثير عن التراجم وإلقاء ضوء عليهم مثل الفاطميين ووزرائهم وسياستهم علي سبيل المثال الوزير اليازوري الحسن بن ملهم أمين الدولة ومكينها الذي لعب دورا كبيرا في مصالحة القبائل وانطوائها تحت راية لفاطميين والكثير غيرهم.

٤- اتعاط الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ثم محمد حلمي أحمد ط- القاهرة ط- ٢ هذا الكتاب كان من أكثر الكتب التي أفادتني كثيرا في موضوع الخلاف بني المستنصر بالله والمعز بن باديس وأظهر لي الحقيقة في علاقتهم وسياسة كل منهم طوال حكم المستنصر بالله ومنه فهمت دور قابس الحيوي.

• ابن أبي دينار:

هو عبدالله محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار ط- بيروت ط- وط- تونس ١٤١٣هـ/ ١٦٦٣م ط- ٣.

وعنوان كتابه: المؤنس في أخبار افريقيا والمغرب.

اختلفت المصادر عن ذكر مولده أو وفاته. سوي انه كان حيا بمدينة تونس أواخر القرن الحادي عشر الذي انهي فيه تاريخه.

درس علي يد بعض شيوخ عصره المشهورين أمثال الشيخ محمد بن قتاتة والشيخ محمد بن الشيخ والشيخ ابو الحسن علي بن عبدالواحد الأنصاري.

ألف ابن دينار هذا الكتاب الي جانب كتابين آخرين كتاب رضا العقيق في الروض الأنيق في مجارات الأخوان وأحوال الصاحب والصدیق.

وكتاب آخر ~~معو~~ الأدب وتوجد منه نسخة بالخزائن الأحمديّة داخل جامعة تونس، وكتاب المؤنس يعرض لتاريخ افريقيا بصفة خاصة وأشار ابن أبي دينار اليه استمد مادة الكتاب من ابن الشماخ والزركشي المؤرخين من قبله ومن غيرهم مما تلقاه من الثقاة ما شاهده بنفسه من خلال معارفه للأحداث. والكتاب يعرف بتونس لحاضرة ويافريقية وكيف فتحتها الجيوش الإسلامية ويعرض لتاريخ الخلفاء الفاطميين وتاريخ الأمراء الصنهاجية الذين حموا افريقيا من قبل الفاطميين بعد استقرارهم بمصر. ثم يعرض للموحدين واعطاني معلومات وافرة عن بنو غانية وحروبهم في افريقية وتحالفهم مع العرب ضد الموحدين.

ومن تولى بعد ذلك افريقيا ثم دايات تونس ثم يستعرض العادات والتقاليد الاجتماعية بتونس وطرق الاحتفال بالاعياد الدينية وأحوال الناس في تونس وافريقيا.

مما جعل الاستفادة كبيرة بالنسبة لبحثي ورغم تأخره نسبية الي انه توخي الصدق في اخباره.

من الموسوعات الأدبية:

• النويري:

شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب البكري النويري (د / ٧٣٢هـ - ١٣٦٤م)

نهاية الأرب في فنون الأدب.

ولد النويري في مدينة قوص بمصر «سنة ٦٧٧هـ - ١٣٠٩م» وتلقى علومه الدينية في بلدته في

صعيد مصر فسمع الحديث من عدد من كبار المحدثين في عصر الناصر ابن قلاوون ثم تدرج في سلك الدواوين - وجمع كتابه الكبير «نهاية الأرب في فنون الأدب» وقد وصل في تحقيقه الي ٣١ جزءا منه شملت اقسام رئيسية كبيرة يسميها مؤلفها فنون: مثل الجغرافيا في السماء والأرض والمعالن الفعلية إلا يتشابه وما يتعلق به الحيوان وما يتعلق به النبات وما يتعلق به التاريخ وحوادثه.

هذا الفن وهو فن التاريخ هو من أكثر الاشياء التي استقدت منها جم الاستفادة فمثلا أفرد أجزاء من مجلداته لتاريخ افريقيا والاندلس وفتوحاتهم التي احيانا تختلط فيها الاسطورة بالحقيقة وحقيقة لقد استقدت كثيرا من النويري فعلي صعيد البحث ألقى ضوءا ساطعا علي التاريخ الفاطمي والعباسي وتاريخ افريقيا والدول المعاصرة مما يجعل ألم الماما شاملا بالعالم الاسلامي كل هذا مما لا يتوفر في مؤلفات غيره.

• الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:

مؤلف هذا المصدر هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني «من بلدة» شنترين

Santaren من أعمال بطليوس بالبرتغال الحالية «٥٤٢هـ / ١١٤٧» والكتاب موسوعة أدبية تاريخية لمؤلف أديب وليس مؤرخا، حيث اعتمد في الجزء التاريخي علي كتب غيره من المؤرخين وقسم الكتاب الي أربعة اقسام كما يقول: الأولون لأهل حضرة قرطبة وما يصاحبها من بلاد موسطة الاندلس، والثاني لأهل الجانب الغربي من الاندلس وذكر أهل حضرة اشبيلية وفي هذا القسم يذكر إعلام المرابطين والموحدين مثل «ابن زهر» و«ابن القصيرة» و«ابن الجد» وغيرهم، اما القسم الرابع والأخير فقد افرده لمن طرأ علي الاندلس في تلك الفترة من الأدباء والشعراء وأهل الفضل. ومن خلال ما يذكره «ابن بسام» عن هؤلاء المشاهير تظهر الحقائق الاجتماعية من رثاء وتعليم وأعياد وعناصر السكان والمنزهات والغزل والزهد وغيرها.

واستقدت ايضا منه في معرفة رسول العباسيين الي المغرب، وكيف دخل متخفيا الي مصر ووصل الي افريقيا وكان ذلك ايدانا بما حدث كما توفرت مصادر ادبية هامة تحتوي علي الكثير من المادة العلمية الخاصة بالحياة الاجتماعية في الاندلس في عصر المرابطين الموحدين وتشابههما مع افريقيا وقابس، والتي تخص مادة البحث، منها كتاب «نفع الطيب من غضن الاندلس الرطيب» المقري التلمساني.

• من أهم كتب الجغرافيا:

كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدس طه القاهرة مدبولي ط٣.

• المقدسي:

شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري اشتهر بالمقدسي نسبة موطن رأسه بيت المقدس ونعته ياقوت في القرن الثالث عشر م السابع الهجري بالبشاري وأحيانا بأسمائه الأخرى مثل ابن البناء لأن والده كان من اشهر البنائين حيث بني ميناء عكا - وقد ذكر هو في

كتابه أنه سمي بستة وثلاثين اسما ذكر المقدسي أنه أخرج كتابه عندما بلغ الأربعين من عمره في ٣٧٥هـ وبذلك يكون مولده في عام «٣٣٥هـ - ٩٤٦ - ٢٩٤٧م) أما وفاته فيصعب تحديدها ويرجع أنه توفي أواخر القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي لأنه ذكر في كتابه من حلقاء بني العباس الذي عاصرهم هو الطائع الذي تولي الخلافة بين أعوام ٣٦٣ - ٣٨١هـ ولم يذكر القادر الذي خلفه ويذكر كراتشوفيسكي أنه توفي (٣٩٠هـ - ١٠٠م) هذا الرحالة الجغرافي الذي رحل الي الشرق وجاب مفاوز الأقاليم العربية الاسلامية ليخرج لنا هذا الكتاب النفيس الذي استفدت منه كثيرا في فهم أقاليم الأرض ومفاوزها.

وأحوال أهلها ووصف أمصارها المشهورة وطرقها وسكنها والعادات وأحوال الناس الاجتماعية والثقافية والدينية وامتزاجه مع الناس فهو يقول في مؤلفاته: أنه ساح في البراري وتاه في الصحراء واختنى وافترق وصاحب السلاطين والعالمين وشيع وجاع كاتبه السادات ووبخه الاشراف وسعي به الي السلاطين ورأي حمامات طبرية والقلاع الفارسية.

وذكر أنواع المدن والأمصار وقد وصف قابس ومعاملاتها ومزروعاتها والطرق الموصلة عليها وطرق لتحصيلها ضرائبها وهو يقول عموما ضرائب المغرب انها مثل نظام ضرائب مصر.

كذلك حدد لي وضع قابس بالنسبة لأفريقيا عند تحديده لكل مدن وأمصار وقصباتها.

• البكري:

أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري «د/ ٤٨٧هـ - ١١١٩م»

عنوان كتابه: المسالك والممالك مكون من جزآن.

نشأ البكري في بيت معروف بالعلم والشرف وقد أقام البكري في قرطبة في عصر التفتت السياسي الذي منيت به بلاد الاندلس لمن رغم ذلك فإنه عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والأدباء.

والعجيب أن البكري لم يغادر في حياته أرض الاندلس ولذلك فإن مكتبته الجغرافية لا تعدو وأن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين.

كذلك أفاد البكري من تواليف لاتينية معربة ككتاب Elimologia لايودور الاشبيلي ويعتبر كتابه المسالك والممالك أعظم ما صنعه من تواليف جغرافية الا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب.

وفي كتاب البكري نجد أنه يدرس المسالك المؤدية الي المدن ويضمنها مع ذلك بعض أخبار تاريخية ومعلومات هامة استقي قسما كثيرا منها من محمد بن يوسف الوراق وهو مؤرخ مغربي كان قد هاجر من القيروان واستقر بقرطبة.

استفدت من هذا الكتاب كثيرا فقد وصف لي قابس وصف رائع، وصف المسافات بينها وبين باقي البلاد في تونس وخارجها.

كذلك وصف الساحل والخليج وهو يورد في بعض أجزاء كتابه قصصا طريفا لعلها

أساطير في غاية الطرافة.

• الشريف الإدريسي:

(د ٥٦٤هـ / ١١٩٦م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريسي ينسب الي بيت الاشراف الادراس المحمودين. وتلقي الإدريسي علومه الاولى في المغرب ثم انتقل الي الاندلس حيث قام فترة من الوقت في قرطبة. اتم فيها دراسته ثم رحل الي الاندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى وزار صقلية واتصل بملكها روجار (Roger II) فقربه هذا الملك اليه إذ كان مولعا بعلوم الفلك والجغرافيا ووجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي ما جعله في كنف هذا الملك في صقلية وعندئذ عهد عليه روجار بتصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته معلق الإدريسي علي تصنيفه حتي اتمه في سنة ٥٤٨هـ - ١١٨٠م.

هذا الكتاب الزاخر بالمعلومات القيمة التي أضاعت لي جنبات البحث في قابس وهو يعطينا معلومات قيمة بصفة عامة عن مصر والمغرب والسودان والاندلس وقيمتها مستمدة من انها من واقع واسفاره ورحلاته التي قام بها متجولا في كل الأماكن التي كتب فيها وعنّها. نشر دوزي الجزء الخاص باقي هذه والاندلس من نزهة المشتاق في لندن ١٨٦٦م بعنوان:

“Description de L'Afrique et de L'Espagne”

أما التي استفدت بها فهي طبعة تحتوي علي جزأين من هذا الكتاب والإدريسي في كتابه يسير من الغرب الي الشرق واعتمد ايضا علي عدة مصادر جغرافية أخرى مثل كتاب العجائب للمسعودي وكتابه أبي القاسم عبيد الله بن خرداذبة وكتاب أحمد بن عمر العذري وكتاب أبي القاسم محمد من حوقل البغدادي. وكتاب احمد بن يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي والقياس والمقارنة. وقد لاحظت انه احيانا يبالغ في وصفه لتدمير القبائل العربية لمدن افريقية لكنه في نفس الوقت وصف قابس انها لم تكن من المدن المستهدفة مما يؤكد انها أصبحت مركزا لهم فيما بعد ان كانت تلك المبالغ لتبرير الغزو النورماني بعد ذلك أو ليضيفي عليه صفة السلام لقد عاش الإدريسي في صقلية حتي أن هذا الكتاب يعرف أحيانا بكتاب روجار وربما يكن وصف تدمير المدن الافريقية علي يد القبائل العربية وصف محايد أو كوقائع حدثت.

• مجهول:

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار تحقيق سعد زغلول عبدالحميد مطبعة جامعة الاسكندرية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ ط ١.

لقد المؤلف أغفل عن ذكر اسمه أو نسبة أو عائلة لكنه وجد في ثنايا كتابه القيم اشارات تدل علي انه مغربي الاصل وأنه كان حيا في عصر أمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحيدي، وأنه كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمر بن أبي يحيى الذي يهدي اليه الكتاب ويطلب

منه حسن الرعاية وكذلك بدا من كتابه أنه صنعه في عام ٥٨٧هـ نظرا للإشارات التي وردت فيه وخاصة بمناسبة سفارة ابن رسول صلاح الدين الايوبي الي المنصور الموحيدي، وبمناسبة العمليات الحربية ضد بني غانية.

هذا الكتاب بالنسبة لي مصدر غنيا ومتنوعا من حيث معلوماته الجغرافية والتاريخية الواردة من خلال معاصرته لها كذلك وضع قابس وعلاقتها وقد وصف لي بدقة معلومات وفيرة عن المدن حول قابس وأحيانا أجد أنها تشبه ما أورده البكري ويبدو أنه نقل عنه بعض الشيء الي جانب أنه بصفة خاصة زصفة الي بلاد مكة والمدينة وتصوير شعائر الحج مما أعجبنى بصفة خاصة، لأنه وصفه جاد بدقة وبمثابة فائقة.

هذا بالإضافة الي انه أشار الي فترة سفارة صلاح الدين وحروب بنو غانية في نواحي تونس وقابس وهذه فترة زمنية مهمة جداً في بحثي لأنها زاخرة بالأحداث التاريخية التي يلقي هذا المجهول ضوءاً عليها.

• الثجاني:

أبو محمد عبدالله بن محمد أحمد الثجاني (كانت رحلته ٧٠٦ الى ٧٠٨ وقد توفي بعدها بأعوام قليلة لم تذكر بالتحديد).

رحلة الثجاني قدم لها حسن حسنى عبدالوهاب ط. تونس - المطبعة الرسمية بتونس ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م ط ١. هذه الطبعة قرأتها في الهيئة العامة للكتاب.

وقد صور الكتاب من طبعته الثانية هي ط. ليبيا وتونس الدار العربية للكتاب ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ط ٢. وقد أورد الثجاني في مقدمة كتابه نبذة عن عائلته وقتها في مقدمته.

لما بلغ الثجاني في الشبابات وقد امتلاً علماً وأدباً ودرساً انخرط في سلك الكتاب في ديوان الإنشاء حيث كان يباشر أبوه وأخرون من أقاربه. وقد امتزج في هذا الوسط الأدبي بثلة من أصحاب القلم المعروفين مثل أبى إبراهيم بن حسينة وأبى زيد عبدالرحمن بن نزار - وأبى عبدالله محمد الهوارى وغيرهم وكان انخراط الثجاني في زمريهم في مدة السلطان محمد المعروف بأبى عسيمة في بداية القرن الثامن من الهجرة ولم يكن يستقر في الديوان حتى ظهرت عليه مخايل الثجانية وعلامات الشيوخ فاصطفاه لنفسه كبير الدولة وشيخ المؤحدين أبوزكريا بن اللحياني وقرب منزلته منه ورسمه في خواص كتابه - فلما عزم هذا الأمير على تفقد شئون المملكة وإنزع نيته على محاربة الأسبان المغتصبين لجزيرة جزية وحدد موعد سفره الي تلك الجهات - عين أبا محمد عبدالله الثجاني، لمصاحبته وفوض إليه الإشراف على رسالته وذلك في منتصف سنة ٧٠٦هـ - (شهر ١٢/ ١٣٠٦م) فكانت تلك الانتقالات والجولات التي يراها المطالع مبسوطه في تقييد الرحلة الثجانية وتنتهى بعودة صاحبنا الي حضرة تونس في شهر صفر من سنة ٧٠٨هـ - ١٣٠٨م وقد فارق مؤلفنا مخدومة من تراب طرابلس لأسباب صحيحة وسياسية معاً: فكان أمر الغيبة عامين وثمانية أشهر وأباًيا.

ويعود الثجاني بعد رجوعه الى تونس الى ديوان الرسائل ويقيم على خطته السابقة الى أن يرجع مخدومه من تجواله في الشرق وحجه الى البيت الحرام، طرقت البلاد أحداثاً جامعة أثناء تغيب الأمير غيرت صيغة الحكم من جراء ثورات الخارجين على الملك بمجرد وفاة السلطان الواثق بالله الملقب بأبي عصيدة في خلال سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٨م، وكان هذا السلطان ابن الأمير زكريا بن اللخباني وزيراً مفوضاً لمباشرة سياسته وذلك من حين توليه سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٥م أي مدة خمسة عشر عاماً وبوفاته فتح باب الثورات والتنازع بين المتزعمين من الأسرة الحفصية وهم كل واحد منهم باغتصاب العرش ومحاولة اعتلائه. وفي أثناء هذه الاضطرابات المتوالية كان شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا اللخباني قد عاد من الحج كما أسلفنا واستقر بمدينة طرابلس يراقب الأمور ويتربص حتى سنحت الفرصة له، هجم من مكنه على البلاد التونسية في جموع عظيمة من أعراب وحضر ويقصد العاصمة، وتمت له البيعة العامة في المحمدية (١) من أجواز تونس ٢ رجب ٧١١هـ - ١١/١٤/١٣١١م ودخل القصبه وتلقب بالقائم بأمر الله وتسلم زمام الأمور ومن أول أعماله أن عهد لكاظم سره القديم صاحبنا عبدالله الثجاني برئاسة دواوين رسائله. ومن باكورة أعماله أيضاً إسقاط اسم المهدي الموحدي الثجاني برئاسة دواوين رسائله. ومن باكورة أعماله أيضاً إسقاط اسم المهدي الموحدي من الخطبة وإقامتها لصاحب مصر في ذلك الوقت: محمد بن قلاوون لما كان بينهما من ولاء ومجاملة.

في غمار هذه الأحداث لم نسمع بعبد الله الثجاني بعد ٧١٧هـ. أن رحلة الثجاني هي بحق من غرر المصنفات التونسية وكأنها الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الافريقية والتعريف بعمرانها أوائل القرن الثامن الهجري وهو أحد العصور الغامضة في تاريخ تونس الاجتماعي والسياسي لندرة النصوص الواصلة إلينا منه.

وأهم خصائص هذه الرحلة الميسورة أنها تبسط أخبار المدن والقرى التي يمر بها الرجال كل واحدة بانفرادها وتجعله يحيطنا علماً بما مضى من أحداثها مع التعريف بالنابغين من أبنائها من فقهاء وثوار وأدباء وصلحاء سواء قدامى أو معاصرين له.

وهكذا يزور الثجاني الساحل التونسي الزاخر بالعمران قديماً وحديثاً ويمر بصفاقس ثم ينزل الى الجنوب ناحية قابس وجزيرة جربة فيعرفها أحسن تعريف ويعرض لنا الموقع الجغرافي والعقائد والتقاليد والتاريخ والقبائل والمذاهب وكل مايتعلق بقابس من جميع النواحي.

ومن مصادر كتب الفرق الهامة كتاب عبدالقاهرة البغدادي (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) المعروف بـ «الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم» وهو يمثل مع مؤلف ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ / ١٠٦٣م) المعروف بـ «الفصل في الملل والأهواء والنحل» موسوعتين.

• كتب الطبقات:

تمثل كتب الطبقات أهمية كبيرة في هذا البحث، حيث استفادت منها الباحثة في دراسة مختلف أوجه النواحي الحضارية بالإضافة الى وظيفتها الهامة في الترجمة لمشاهير الاعلام واحتواءها على معلومات

(١) وتوجد مدينة بنفس الاسم في المغرب الأقصى

تاريخية غاية في الأهمية وانفراد بعضهم بها دون المصادر التاريخية المتخصصة.

وهناك من كتب الطبقات، ما خصصه أصحابه للترجمة لطبقات المالكية في منطقة معينة والتي تهمننا هنا هي كتب طبقات مالكية إفريقية، وهي كثيرة، ويأتي على رأسها منصف أبي العرب التميمي (ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م) المعروف باسم «طبقات علماء إفريقية»، ويمتاز هذا الكتاب بعنايته الشديدة بالسند إلى جانب أن أخبار أبي العرب خالية من المبالغات، وأنه يشير في بعض الأحيان إلى المظاهر الاجتماعية، مثل حديثه عن ملابس العلماء والفقهاء، واستفادت منه الباحثة في معلوماته حول المناظرات التي جرت بين السنة والشيعة، إلى جانب حديثه عن كرامات متصوفة المغرب، وقيامهم بالأمر بالمعروف.

وهنا أيضاً مصنف ابن النديم (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) المعروف باسم «الفهرست» ومنه استفادت الباحثة بمعلومات هامة حول أصول المذهب الشيعي، ومصنفات علماء القيروان أمثال القابسي، وابن أبي زيد وغيرهم، إلى جانب تعرضه لأصل الفاطميين وتاريخهم.

ومن كتب الطبقات ما خصصها أصحابها للترجمة لأصحاب مذهب معين من المذاهب مثل المذهب المالكي، أو المذهب الحنفي، ونظراً لأن المذهب المالكي كان ولا يزال المذهب السائد والغالب على سكان أهل المغرب، ولهذا فكتب الطبقات الخاصة بهذا المذهب تعتبر حجر زاوية في هذه الرسالة. ولهذا اهتمت بها الباحثة ومنها استفادت استفادة كبيرة.

وهناك أيضاً مصنف المالكي (ت بعد ٤٥٣هـ/١٠٦١م) الشهير «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وقضائهم وأوصافهم» والجزء الأول منه مطبوع بتحقيق الدكتور حسين مؤنس، وفي حين أن الجزء الثاني مخطوط بدار الكتب، ومن موسوعة المالكي استفاد الباحث في معلوماته حول تفاصيل الصدام بين الفقهاء وبين الشيعة. وعن مناظرات ابن الحداد معهم إلى جانب معلوماته عن التصوف في بلاد المغرب وكرامات المتصوفة ثم حقق هذا الكتاب في جزئين.

وهناك كتاب الخشني القيرواني (ت ٤٩٦هـ/٩٧١م) المعروف بقضاة قرطبة وعلماء إفريقية، والخشني يسجل الأخبار التي يسمعها دون تغيير أو إضافات.

ومن أبرز كتب الطبقات المالكية العامة، يأتي القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ/١٤٩م) المعروف باسم «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك» فمن هذه الموسوعة استقت الباحثة تراجم أخرى عديدة لأعلام المذهب المالكي في بلاد المغرب، ومنها استمد معلومات هامة حول تنكيل الفاطميين بالفقهاء والعامة. فضلاً عن ذكره لمتصوفة المغرب وكراماتهم وأحوالهم وسياحتهم في البلاد، إلى جانب استفادة الباحثة منه في معرفة علماء الأندلس الذين تعلموا في القيروان وسائر مدن إفريقية. ومما تأخذ الباحثة على الكاتب ضياع بعض تراجم المغاربة منه مثل سعيد بن الحداد، وموسى القطان، وابن المرزوق، وعلى ما يبدو أنهم سقطوا من النسخة المطبوعة التي رجعت إليها الباحثة من تحقيق أحمد بكير محمود، ومن منشورات مكتبة الحياة بלבنا، ومن كتب الطبقات المالكية العامة أيضاً، استفادت اباحثة من طبقات ابن فرحون (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) المعروفة باسم «الدباج المذهب في معرفة أعيان

علماء المذهب» ورغم كون ابن فرحون عاش في القرن الثامن الهجري، إلا أنه اهتم بتسجيل علماء المذهب المالكي بإفريقية فجاءت معلوماته دقيقة واضحة ليسقط منا علم من الاعلام، وإن كانت تلك المعلومات في أحيان قليلة لا تذكر أحداثاً هامة.

ومن كتب الطبقات العامة أيضاً مصنف ابن خلكان (ت ٦٨١هـ - ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأبناء آبائهم الزمان، فمنه استفادت الباحثة معلومات هامة حول شخصيات إفريقية، الإمام سحنون، والفقيه القابسي، الى جانب تراجمه الهامة لأئمة التصوف في بلاد أمثال الثوري، إبراهيم بن أدهم، ذو النون المصري، البسطامي وغيره.

ويمتاز المالكي في تراجمه بالإسهاب في بعض التراجم حتى تصل ترجمته ورجعت الباحثة أيضاً الى موسوعة الدباغ القيرواني (ت ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م) في طبقات المالكية باسم «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» ومن هذه الموسوعة جاءت غالبية معلومات الباحث في ميدان التصوف، الى جانب وجود لغة رمزية يتخاطبون بها، فضلاً عن حديثه حول صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي دخلوا إفريقية وعن مساجد القيروان السبعة، ويمتاز كتاب الدباغ باهتمام صاحبه بذكر تاريخ الوفاة لصاحب الترجمة، وإذا لم يعثر على تاريخ الوفاة يقول «من أقف له على تاريخ وفاة».

ومن كتب الطبقات:

• الدر جيني:

أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن مخلف الدر جيني قتبة شاعر ومؤلف ومؤرخ أباضي عاش في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. ألف كتاباً في تاريخ الإباضية عنوانه «طبقات المشائخ بالمغرب، نشره إبراهيم طلال في البليدة - الجزائر في جزئين أولهم بمثابة عرض تاريخ لجماعات الإباضية في المغرب مع بيان نظمهم وتراثهم والثاني في طبقاتهم المنظمة في اثني عشر طبقة. وهو يعتبر تكملة لكتاب السير لأبي زكريا.

أما بالنسبة للدر جيني المؤلف فهو ينتمي لعائلة تسمى بركة تدين بالمذهب الأباضي، كان جده يخلف من يخلف، كان فقيهاً بارزاً مقيماً بضواحي نقطة بالجريد، وكان ابنه ورعا واشتغل بالتجارة مع السودان، وفي إحدى رحلاته سنة ٥٧٥هـ - ١١٧٩م أدخل الملك الوثنى لدولة مالي بالسودان العربي في الإسلام.

أما والد المؤلف فكان متديناً محافظاً، ومستقراً بدرجين السفلى، وقد ذهب المؤلف في مبخرة الى هار جلان لتلقى العلم، وبقي عامين بها للدراسة على يد مشايخ الإباضية فيها ثم عاد الى الجريد، حيث واصل عمله التاريخي بتوز سنة ٦٣٣هـ - ١٢٣٥م، وفي جزيرة جربة كانت إقامته حيث ألف كتاب طبقات المشايخ.

أفادني هذا الكتاب في معرفة تراجم المشايخ الإباضيين وأماكنهم، وقد فهمت أن منطقة قابس وجربة لينشر فيها المذهب الإباضي ومن ثانياً الكتب فهمت الكثير عن النواحي الاجتماعية والنظم والعادات

والمعاملات التى تفيدنى فى بحثى.

• السجلات المستنصرية •

تحقيق عبدالمنعم ماجد ط. القاهرة - ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى طبعة جديدة قد ...
من ... سنة ١٩٩٣م الموافق ١٤١٣هـ ولكن ليس على الكتاب أى إشارة أنه طبعة جديدة.

أن التاريخ الصحيح يضع الوثائق التى هى من آثار وأفكار السلف وأفعالهم والبحث عنها يعتبر
قسماً أساسياً فى مهمة المؤرخ ويأتى فى المرتبة الأولى عنده ويطلق الألمان على الوثائق اسم الهورسطيقا
Heuristic بمعنى اتابع المنهج التاريخى.

والسجلات المستنصرية تعتبر مصدراً فى غاية الأهمية من الناحية التاريخية والأدبية لاحتوائها على
رسائل صادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمى بالقاهرة خلال فترة الحكم للخليفة المستنصر بالله (٢٧هـ -
٤٨٧م) (١٠٣٥ - ١٠٩٤م) وابنه الخليفة المستقل بالله من بعده وعنوانها الكامل «سجلات وتوقيعات
وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين - صلوات الله عليه. الى دعاة اليمين وغيرهم قدس الله
أورااح جمع المؤمنين».

هذه السجلات تستعرض فى مجموعها (٦٤ سجلاً) العلاقات السياسية والدينية بين اليمن ومصر
حيث كان الخلفاء الفاطميون يحثون ولاتهم الصليحيين فى اليمن على التدخل فى شئون الحجاز إذ كانوا
يتمسكون بشدة بأنه يخطب لهم فى الحرمين الشريفين: مكة والمدينة قبله جميع المسلمين، وكذلك ظهرت
فى هذه السجلات المنافسة الشديدة بينهم وبين الخلافة العباسية لتوطيد نفوذ كل منهما فى «دار
السلام» بعمامة، والاهتمام الذى أيد الصليحيون لإخضاع تلك الأماكن المقدسة لنفوذهم تمكيناً لسلطان
أئمتهم بنى المسلمين جميعاً.

لجأ الفاطميون من جانبهم الى إرسال المال الى الحجاز لمساعدتهم وإغراءتهم.

إضافة الى أن هذه السجلات تعرض لنا موضوعات أخرى متنوعة منها سياسة داخلية وخارجية
ونشرات واحتفالات بمناسبات دينية واجتماعية كمولد ابن الخليفة - عيد الفطر وما الى ذلك، ونحن
بصد السجل رقم (٥) الذى أمكننى بفضلته أن أفهم أن أقف على الكثير من الوقائع الحقيقية التى وقعت
بين دولة الفاطميين ودولة الزبريين التى حكمت المغرب الأدنى وهى تابعة للفاطميين فى القاهرة غداة
إعلان حاكمها وهو المعز بن باديس راية العصيان على تبعيته للفاطميين وتحويل راية الطاعة الى
الخلافة العباسية معلناً استقلاله عن سكت الخلافة بالقاهرة.

يستعرض السجل بعد ذلك أخبار العرب الذين أرسلهم لتفويض ملك المعز بن باديس وإعطائه درساً
لا ينسى ويلفت النظر أنه بعد إرسال العرب حوالى ٤٤٢ - ٤٤٣ الى ٤٥٥هـ تاريخ كتابة السجل رقم ٥
أنه كان فيه إشراف وترصد للأخبار من جهة الخلافة فى القاهرة وانهم أرسلوا الحسن بن ملهم للتوفيق
بين القبائل لانطوائهم تحت راية واحدة وهى الراية الفاطمية وأنه حدث مجلس صلح للسلطان الزيرى
وأن شيوخ القبائل دانت بالقبول لحسن بن الملهم وفتح حصن قابس وفرقت السكة المستنصرية ونعير
ذلك عين لقابس قائد تابع للقاهرة، وأن الشيوخ بعد ذلك ذهبوا للقاهرة لتقديم الولاء والذهاب للحج عن

طريق القاهرة.. إلى آخر التفاصيل التي تعتبر جديدة في نوعها.

وقد استفدت كثيراً من هذا السجل من حيث فهمي للغزوة الهلالية وتخليصها كم كبير من الشواثب والأساطير، كذلك أثبت لي هذا السجل أن الغزوة كانت منظمة وتحت إشراف، وليست مجرد قبائل همجية كذلك وهو الأهم إلقاء الضوء على مدينة قابس وأهمية موقعها الاستراتيجي الهام كمدينة متحصنة في إفريقية وكحصن فتح ليكون مقراً للخلافة الفاطمية في تونس وشوكة في جنب الخلافة الزيرية.

أما الرحلات المغربية والأندلسية الأخرى والمشرقية الواردة في هذا البحث، فقد اختلف مضمونها ومنهجها، فمثلاً «رحلة العبدري» أو «الرحلة المغربية»، الأندلسي الأصل، المغربي المولد والموطن (بلدة حاحة جنوب المغرب الأقصى) التي قام بها في نهاية القرن السابع الهجري، حيث بدأ رحلته نحو البقاع المقدسة بعد سنتين من عودة ابن رشيد السبتي إلى موطنه، أي في ٢٥ من ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م. وسار في رحلته ذهاباً من حاحا إلى فاس، تازا، تلمسان، مليانة، الجزائر، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس، القيروان، قابس، طرابلس، ثم مصر، والأراضي المقدسة بالحجاز، وفي العودة سلك نفس الطريق تقريباً، وقد بدأ تدوين رحلته حسبما يذكره من تلمسان. وتميز أسلوب العبدري عن غيره من الرحالة باعتداده المبالغ فيه ببلاد المغرب الأقصى، وتصغيره من شأن غيرها من البلدان، ومن ذلك تركيزه على انعدام الأمن في الكثير من البلاد التي مر بها. كذلك غياب العلم فقد أثارته ردود شيخ المسجد الجامع في قابس ووصفه بأنه غير متعمق في علوم الدين.

ورحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٠هـ/ ٢٣٦٨م) المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» التي انفردت عن باقي الرحلات باستغراقها ربع قرن من الزمن، فاحتوت الكثير من المعلومات عن البلاد التي زارها، خصوصاً قابس التي زارها في ذهابه وإيابه أيام بني مكي.

ومن الكتب الجغرافية المشرقية، كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، وهو مرتب على حروف المعجم مثل كتاب الروض المعطار. ومن الواضح أنه اعتمد على الكتب المغربية اعتماداً كبيراً، خصوصاً كتب البكري، حول بلاد المغرب والأندلس. إلا أن ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) انفرد عن الجغرافيين المشارقة في الفصول التي أوردها في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» حول بلاد المغرب والأندلس، والتي شرع في كتابتها في سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م وانتهى منها بعد عدة سنوات، قدم للبحث معلومات جديدة وهامة حول النبا، والحيوانات، وأهم المدن، والموازين والمكايل، والنقود، والبريد، وكذلك معلومات في الجغرافية السياسية، من خلال تعرضه للإدارة العليا في بلاد المغرب والأندلس، قطراً قطراً، والحفلات الرسمية، والحكام والجيش، ومن هنا نجد في بعض هذه الجوانب لديه استدراكاً على ما يغفله عبدالرحمن بن خلدون بعده.

واعتمد صاحب المسالك الأبصار على نوعين من المصادر، أولهما الكتب المغربية والأندلسية، خصوصاً كتب ابن سعيد الأندلسي. وثانيهما على رواة مغاربة، ومنهم الذين استقروا ببلاد المشرق، فاعتمد عليهم

المؤلف، حيث ذكرهم مصداً له في كتابه، وهم: محمد السلالحي، والقاضي أبو القاسم بن بنون، ومحمد بن عبدالواحد العقيلي، وابن حراز، من المغرب الأقصى والأندلسي، والقاضي أبو الروح عيسى المنجلاتي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) والطبيب محمد بن القوبع (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، وكلاهما من البلاد الحفصية. ولو انه مصدر متأخر بالنسبة لزمان يحيى الادنى وجدته مفيداً في بعض النواحي خاصة في زمن مثل قيام الدولة الحفصية.

ولذلك كتاب «الروض المعطار في خبر الاقطار» لابن عبدالمنعم الحميري (من أهل القرن الثامن الهجري)، السبتي الأصل مثل الإدريسي، يتميز عنه بثقافته الواسعة، ويقل عنه في موسوعيته الجغرافية، وكتاب الروض المعطار اختلف عن كل كتب الجغرافيين المغاربة والأندلسيين، من حيث ترتيبه مواده على حروف المعجم، ويسير على الاقاليم للتعرف عليها آنذاك. وهذا الكتاب أيضاً يحتوي على تراجم ونصوص أدبية متفرقة على العصور والأماكن، فضلاً عن كونه وصفاً جغرافياً.

كتب الطبقات من المكتبة الأندلسية

وكانت حقاً مكملات لكتب التاريخ بما تضمنته من سرد للأحداث في طياتها، التي ترتبط بالأشخاص الذين ترجمت لهم، فضلاً عن كونها مصدراً أساسياً للعلاقات الثقافية، من حيث رصدتها للحركة الفكرية، والمبادلات الثقافية من خلال حركة العلماء والطلبة. وقد اشتهر الأندلسيون باحرازهم قصب السبق في هذا المجال، ويحتل مرتبة مشرفة بعدهم كتاب المغرب. وأهم هذه الكتب التي استفدنا منها، كتابي ابن الأبار (قتل سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٩م) «الحلة السيرة» و«التكملة لكتاب الصلة» (صلة ابن بشكوال)، وكتاب ابن سعيد «المغرب في حلى المغرب» وكتاب ابن الزبير (ت ٧٠٨هـ/١٣٠٨م) «صلة الصلة» وهو تكملة لصلة ابن بشكوال الأندلسي (ت ٥٧٨هـ/١١٩١م)، وكتاب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» لابن عبدالملك المراكشي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م). وهو بدوره تكملة لكتابي ابن الزبير وابن بشكوال، وكتاب «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» الذي اشتهر «بتاريخ قضاة الأندلس» وفقاً لمحتوياته، للنباهي المالقي الأندلسي (ت ٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، وهذا على سبيل المثال لا الحصر ولا يفوتنا ذكر كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية للغيريني (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) فقد افادني في معرفة الناحية الثقافية في قابس ولجوء العلماء ليستزيدوا من العلم فيها، من بين كتب الحسبة على سبيل المثال: (كتاب آداب الحسبة والمحتسب) تحقيق/ليفى بروفنسال ويضم ثلاث رسائل احداها لابن عبدون والآخرى لاحمد بن عبدالله بن عبدالرؤوف والأخيرة لعمر بن عثمان بن العباس الجرسقي. كما استعنت أيضاً بكتاب (الحسبة في الاسلام) لابو العباس أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٦١٤هـ.

وقد افادتنى هذه المجموعة من الكتب في لقاء الضوء على نشأة نظام الحسبة والمحتسب ووظيفته ودوره في المجتمع الى جانب كتب للحسبة لا تقل أهمية مثل ابن الاخوة والعقباني التلمساني.

أما كتب الفقه والتشريع الاسلامي وعلى رأسها كتاب (الخراج) لابي يوسف يعقوب ابن ابراهيم المتوفى سنة ١٩٢هـ وكتاب (الاحكام السلطانية) للماوردي. فقد امدتنى برأى الفقه والتشريع الاسلامي في الملكية العقارية وللامارة على البلدان ونشأة الاقطاع وأنواعه وشروطه وتطوره. ومايعزز أهمية هذه

الكتب المشرقية ان ابن خلدون فى مقدمته قد نشر رسالة الطاهر بن الحسن ووصيته لابنه.

كما استعنت بالكتب التى تتناول النشاط الزراعى، مثل كتاب (مختصر الفلاحة الافريقية) لابن الصوام الاندلسى، وكتاب (الفلاحة) لابن بصال وقد امدنى كل منهما بمعلومات وافية عن الحاصلات الزراعية وطرق زراعتها وريها وتسميدها ومقاومة افاتها.

كذلك كتاب لمؤلف مجهول اسمه (مفتاح الراحة) وهو عن الفلاحة وغرس النباتات المختلفة وطرق تسميدها وأوانها الى غير ذلك.. وهو محقق وطبع فى الكويت.

• من المصادر المتأخرة:

ومنها كتاب (الحلل السندسية فى الأخبار التونسية) للوزير السراج (ت ١١٤٩هـ)، وقد حققه محمد الحبيب الهيلة، وينقسم الجزء الأول من هذا الكتاب الى أربعة أقسام، يختص كل منها بموضوع معين خاص بإفريقية. وقد اعتمد الوزير السراج كثيراً على ابن خلدون والزركشى وابن دينار الذى نقل على ابن الشماخ كذلك أورد جغرافية قابس نقلاً عن البكرى وياقوت فهو كتاب مهم فى الجغرافية والتراث، وكتاب (نزهة الانظار فى عجائب التواريخ والأخبار) لابن مقديش الصفاقسى (ت ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) و(مؤنس الأحبة فى أخبار جربة) لمحمد بن بوراس الجربى تحقيق محمد المرزوقى وهو من جزيرة حربة.

• المراجع والدراسات:

كما اعتمدت فى انجاز هذا البحث على عدد من المراجع والأبحاث باللغة العربية والفرنسية والانجليزية، ساعدتني كثيراً فى تحليل الأحداث، وأبرز انعكاساتها على مختلف النواحي السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، والتخطيطية، وكذلك استكشاف امهات المصادر التى تخص البحث، وتوسيع افقه، واستنباط المناهج المناسبة للبحث، بالاضافة الى أهميتها الكبيرة فى التعرف على جوانب هذا الموضوع أثناء القراءات الأولى، قبل وبعد تسجيله، وأثناء الكتابة حتى الطبع.

وقد اختلفت المراجع العلمية التى تم الرجوع اليها فى بحثنا، فاخص بعضها بدراسة تاريخ طرابلس وذكرتها فيها قابس واهتم بعضها بتاريخ المغرب أو التاريخ الفاطمى والتاريخ الزيرى وتاريخ مصر وصقلية والاندىلس، وكانت المراجع الخاصة بدراسة تاريخ طرابلس وإفريقية من أكثر المراجع مساساً بالبحث حيث كان سلطان قابس يمتد الى طرابلس مثل تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى للدكتور احسان عباس، وهو عبارة عن تاريخ عام ومجموعة كتب الطاهر أحمد الزاوى التى ألفها فى تاريخ ليبيا كتاريخ الفتح العربى فى ليبيا الذى يتميز بترتيب الحوادث ونقده لبعض المصادر التى اعتمد عليها الا ان نقده جاء أحياناً متحيزاً بدافع الانتماء لوطنه، وكتابه ولاية طرابلس استفدت كثيراً من آرائه فى هذين الكتابين خاصة فى الناحية السياسية الثقافية، وأخيراً كتاب معجم البلدان الليبية الذى ذكرت فيه قابس ضمنه الذى ألفه على غرار معجم البلدان لياقوت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) مرتب ترتيباً أبجدياً ويتميز هذا الكتاب بأنه شمل تقريباً كل المدن والقرى والجبال والعيون والسجانات والآبار الموجودة داخل الاقليم خاصة ان فيها مايمتد الى قابس، كما اضاف اليها

بعض المعلومات التاريخية التي افادتنى، كما استفدت من كتب أوروبية ودراسات مترجمة للغة العربية مثل كتاب الهادى روجيه ادريس عن تاريخ الدولة الصنهاجية ترجمة حمادى الساحلى، وقد قرأتها باللغة الفرنسية قبل ان تصدر ترجمته ومما يلفت النظر انه يتحدث عن القبائل الهلالية على انها كارثة، وقد جاءت الترجمة فيها ايضاحات وهوامش مفسرة أكثر من النسخة الفرنسية، كذلك كتاب جوايتين عن دراسته فى حوض البحر المتوسط والذى ترجمه الاستاذ الدكتور عطية القوصى لقد افادنى هذا الكتاب وأفادتنى ترجمة الدكتور عطية و اضافته وتفسيراته فائدة أكيدة فى الناحية الاجتماعية والاقتصادية، كما استفدت من كتب الأستاذ الدكتور محمد البيلى عن الزهاد والمتصوفة والتشيع ودراساته القيمة عن مدن طليطة واشبليه فى اضافة معلومات جديدة والقاء ضوء على ناحية الزهاد والتصوف والتشيع فى المغرب وتعلمت منها الكثير.

واستفدت كثيراً من الدراسات والبحوث والكتب القيمة مثل كتاب الأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم «المغرب الكبير» الجزء الثانى، فهو مفيد الى حد كبير فى الاثام بتاريخ المغرب عامة وتاريخ تونس بخاصة وهو يركز على الفترة التي تمتد منذ الفتح الاسلامى وحتى قدوم الحفصيين.

كذلك رجعت الى كل ماكتبه عن المدن الاندلسية كمثّل فى كتبه وتتبعت تخطيط المدن الاسلامية فى اعداد مختلفة من مجلة المجلة وكان اغلبها قد طبع فى مجلد بعنوان بحوث فى تاريخ الحضارة الاسلامية، لقد استفدت بعلم هذا من «تاريخ المغرب» ورائه القيمة وكذلك كتب د. سحر سالم عن من شاطبه وقادس وبطليوس ورباط الفتح التي اقت ضوءا لى فى كيفية الوصول للمعلومة.

ومن المراجع التي افادتنى باراء مؤلفها فى دراستى مؤلفات د/ أحمد مختار العبادى كدراسات فى تاريخ المغرب والاندلس وفى التاريخ العباسى والفاطمى، وكذلك كتاب الحضارة المغربية عبر التاريخ الجزء الأول للحسن السائح، ومعالم تاريخ المغرب للدكتور حسين مؤنس وكتابه تاريخ المغرب وحضارته، وتاريخ المغرب العربى للدكتور سعد زغلول عبد الحميد، والى جانب هذه المراجع كانت هناك بعض المقالات التي اوضحت بعض جوانب البحث مثل «سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس» للدكتور أحمد مختار العبادى، ومحنة الشيعة بإفريقية فى القرن الخامس الهجرى، وكتاب قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود و«الغزو الهلالي للمغرب» للدكتور حسن على حسن، وفترة حاسمة من تاريخ المغرب موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين من إفريقية ونقلتهم الى مصر للدكتور سعد زغلول عبد الحميد، وكذلك مؤلفات وأبحاث د. حسن حسنى عبدالوهاب.

• عن الدوريات والدراسات:

كذلك استعنت ببعض الدوريات، وما تتضمنه من دراسات تلقى الضوء على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ومن أمثلة هذه الدوريات بحث للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور عن «العلاقات التجارية القائمة بين بيزا وتونس» - وهو فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، وقد افادنى كثيراً فى دراسة التجارة الخارجية وعلاقة إفريقية بالدول المسيحية وبحث فى مجلة تاريخ وحضارة المغرب

«يوليو سنة ١٩٦٨» عن «العلاقات بين إيطاليا والمغرب في العصور الوسطى» وهذه الدراسة باللغة الفرنسية، ويبحث أيضاً للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب عن «قصة الثقافة في تونس» و«معاهد التعليم الكبرى في إفريقية» وهما في مجلة الندوة، تونس عدد مايو ١٩٥١، ولذلك كتبه ودراسة الأستاذ عثمان الكعاك عن أميه بين الصلت وسفارته الى مصر وعن أن الأفضل بدر الجمالى سجنه ستة عشر عاماً امضاها في العلم والقراءة وفي هذه الدراسة نشرت عام ١٩٣٠ في المجلة الخلدونية، وقد أفادني في توثيق استمرار الصلات بين بنى زيرى والفاطميين، وكانت للدراسات الأجنبية وخاصة - الفرنسية والإنجليزية - أهمية في بحثي هذا حيث ألفت أضواء على مختلف النواحي والأنشطة وعلى النشاط الاقتصادى وخاصة التجارى منه - وكانت المصادر العربية قد أغفلتها ولم تكتب بتوسع عنها منها كتاب De belyier General de Bey liery Kalaa de Beni Hammad كذلك تابعت نشرات الحفريات التى قام بها Les Cahiers de Tunisie بمساعدة الباحثين معهم ومنهم Ferchiou Naidé الذى نشر بعض نتائجها في عن موقع قابس على خليج سرت، كما نشرت في مجلد مستقل ط١٩٠٧م - ١٣٢٧هـ - في باريس والجزائر.

والحق ان استفدت من الدراسات التى نشرت في هذه الدورية وغيرها مثل Revue Tunsienne وغيرها في معرفة دراسات الاثريين ونتائج حفرياتهم وابحاثهم وقد ساعدت هذه الدراسات في الاستدلال على معلومات تخطيطية في قابس في بحثي هذا ولا تنسى ذكر كتب العملات والنقد الأجنبية مثل مجموعات Lavoix وكتاب المقريزى والقلقشندي وغيرهم وابن خلدون من جمع الاب انستاس كرملى. بعنوان : رسائل في النقود العربية والاسلامية وعلم النميات . ط القاهرة مكتبة الثقافة الدينية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

خطط قابس وتطورها

اسم قابس

موقع قابس

اسلوب العمارة القابسية وطابعها

المسجد الجامع

مساجد الأضرحة

قصر العروسين

ساحة القصر

رياض القصر

القصبية

الأسواق

الشوارع

عمارة الدور والمنازل في قابس

منشآت قابس الصناعية

الأسقفية

البيعة اليهودية

المقابر

السجن

السور والخندق

الأرباض

الساحات

منارة قابس

المرفأ

الفنادق

الرباطات

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم قابس :-

قابس مدينة أولية موغلة في القدم^(١)، وربما ترجع إلى زمن الفينيقيين^(٢)، الذين أرسوها ميناءً ومصرفاً تجارياً من المصارف الشرقية لقرطاج^(٣)، ومحطة بضائع لها وجزءاً مهماً من ولايتها، ثم تحولت لمستعمرة مزدهرة في العصر الروماني وأصبحت تسمى تاكابي: Tacape, Which irrigated place بمعنى المكان الرطب المروي^(٤)، وكانت من أهم الأسكلة الرومانية^(٥)، يبدو أن كلمة قابس تعريب للاسم اللاتيني تاكاباس، وهو صيغة المفعول من الكلمة اللاتينية تاكابي التي جمعها تاكاباي وربما تكون الكلمة اللاتينية ترجع إلى أصل بربري وهو مالا نعرفه تحديداً،

(١) أثبتت الحفريات والبحوث التي قامت بها بعثة قسم الآثار بتونس بالتعاون مع البعثة الفرنسية وجود إنسان العصر الحجري في واحة قابس، بدليل أنها وجدت بعض الأدوات البدائية وأثار طبقات نباتية أصلية عريقة في القدم، وبعض عظام حيوانات وقد وجدت هذه الآثار بالتحديد في منطقة وادي العكايرت شمال شرق واحة قابس، كذلك فإن المتعارف عليه تاريخياً أن البربري الأول قد استقر بواحة قابس عندما هاجر من الشرق في هجرة من هجرات اليمن التاريخية إثر تصدع سد مأرب، لما تمتع به تلك المنطقة من مياه غزيرة ومزروعات.

عبد الوهاب بن منصور، بالقاسم جراد: لمحة تاريخية عن واحة قابس - المؤتمر الأول للواحات في تونس ص ٥ وما يليها.
(٢) قوم ينحدرون من آل سام وهم شعبة من الكنعانيين جاؤوا من صور وصيدا وجزيرة إرواد، واشتهروا بالتجارة وكذلك بصباغة الثياب الحريرية باللون الأحمر الأرجواني واستخرجوه من محارات الموزانكس على ساحل صيدا، فأرسوا معامل صباغة شمال صيدا تسمى فورفيزون بمعنى مدينة الأرجوان، بل إن كلمة فيليكس phoenix تعني اللون الأحمر وهي المقطع الأول من فينيقيا، كما أن كلمة كينج في اللغة الفينيقية تعني الحمر، وسميت منطقة استيطانهم pheniciu أو فينيقيا، وكانت لهم صلات تجارية مع قدماء المصريين فقد أشارت برديات تل العمارنة إلى سكان الساحل الفينيقي باسم كناهه Kinaknchi أو كناهو Kinahn بمعنى كنعاني أو كنعانيون لذا نجد أن كلمة فينيقي موافقة لكلمة كنعانيون:

أ - سيد عبد العزيز سالم، صيدا: ط بيروت ١ - ص ١٠١.

ب - محمد الصغير غانم: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط ط بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ - ط ٢ ص ٢١.

(٣) قرطاج هي قرطاجنة إفريقية وبينها وبين تونس عشرة أميال - وهي قرط حدثت بمعنى المدينة الحديثة لأن سبقتها أوثيكا على خليج سرت - وتؤكد الأبحاث الأثرية في منطقتها إنها كانت مقسمة إلى أحياء متميزة حسب الطبقات الاجتماعية أهمها حي بيرصا التجاري المحاط بسور قوي ويتوسطه معبد الإله أشمون وكان هناك ثلاثة شوارع تتحدر من نفس الحي لتربطه بالساحة العمومية والميناء المزدوج. كانت أبليتها شاهقة من عدة طوابق وكان هناك حي ميفارة أو ميفارة بمعنى المجاور لحي بيرصا والميناء:

- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، إحصان عباس ط بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٠ م ط ٢ ص ٤٦٢.

- محمد الصغير غانم التوسع الفينيقي من ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٤) مستخرجة من الانترنت: مفتاح تونس ومنها HIT Foccus Mimou Tunis.

(٥) كلمة أسكلة في الجغرافية اسم يطلق في حوض البحر المتوسط أو على المدن التجارية وهي من مكالا Scala أي المكان الذي يوضع فيه سلم للتفريغ والنزول من السفينة، انظر بيار جورج Pierre Goerges معجم المصطلحات الجغرافية ترجمة أحمد العطيني وهيتم ط بيروت (بدون) ص ٣٦.

وإن كانت تدل على وجود أداة التعريف القومية البربرية (التاء) ^(١)، وقد تكون التاء استعملها البربر بدلاً من السين في الكلمة اللاتينية Scaphai وهي كلمة مؤنثة معناها قارب خفيف وتعطي معنى آخر " المعديّة أو الجسر" ^(٢)، أما إذا رجعت إلى الأصل اليوناني فتجد أنها اسم بمعنى حوض Scaphai أو نفق أو قناة Tube أو مركب مجوف كلمة Scaphai ^(٣)، وترجح الباحثة أن هذه الكلمة ذات مقطعين أولهما مقطع Taki وهو اسم يرجع أصله إلى اللغة الكلتية القديمة ^(٤)، بمعنى مركب شراعي أو معنى مجري السفن ^(٥)، أما المقطع الثاني cape من الكلمة اللاتينية caput ويعطي معنى آخر وهو جزء من أرض داخلية في البحر Head Lands ومعنى ثانياً: مقدمة السفينة ^(٦).

ويقول ياقوت الحموي في معجمه ^(٧)، إن كان عربياً فهو من: أقبست فلاناً علماً وناراً، أو أقبسته فهو قابس، ولقد قال تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام "على أتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى" ^(٨). وجاء في لسان العرب ^(٩): والقابس طالب النار، وهو فاعل من قبس، والقوابس الذين يقيسون الناس الخير أي يعلمون، وعندما فتحها الموحدون، قال الشاعر: -
واقبستم نار الهدى خلف قابس وعنيتم فسلم حورياتها العين ^(١٠)

(١) Encyclopedie de L'islam - Edit, Paris 1986 - 2^e Edit V4, P. 357.

- انظر دائرة المعارف التوسمية كرس ٤، ط تونس، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤، ص ١٠٠.

- محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، ط. القاهرة، الخالجي، ١٣٨هـ / ١٩١٢م، ص ٣٠.

(٢) Latin - English Dictionary, London 1866 P. 619.

(٣) A. Lexicon: greck - English Lexicon, Oxford 13^e edit P. 554.

(٤) الكلتين أو الكيلت Celts وبالتيونانية Celts قوم ينحدرون من الغال القماء وهم جماعات من سكان أوروبا الأكتيين وقد هاجروا واستوطنوا سواحل إفريقيا والأكلس.

- See the world Book Encyclopedia United States of America. 1999 - V3, P. 307 - 308.

- انظر محر سالم: شاطبة: الحصن الأممي لشرق الأكلس في العصر الإسلامي ط إسكندرية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ص ٣.

- تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأكلس في العصر الإسلامي ط إسكندرية ١٤٠١هـ / ١٩٨٩م ص ١٤٤.

- انظر إيفارلسنر: الماضي الحي ترجمة شاكر إبراهيم ط القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ص ٢٦٤.

(٥) The Lexicon Webster Dictionary V. II, P. 999.

(٦) Ibid. VI, P. 148 & See The world Book Encyclopedia - United States of America 1999. V3.P.308

(٧) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٨٩.

(٨) سورة طه آية ١٠.

(٩) ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن القاسم بن منظور الإفريقي المصري (ت. ٧١١هـ -

١٣١١م) لسان العرب ت. عبد الله علي الكبير - محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي ط القاهرة دار الشعب ١٤٠١هـ -

١٩٨١م ص ١ ج ٥ ص ٢٥١٠ مادة قبس.

(١٠) ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي من رجال القرن السابع من الهجرة الثالث عشر ميلادي. البليان

المغرب في أخبار الأكلس والمغرب ت. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت وآخرون ط بيروت والدار البيضاء ١٤٠٦هـ -

١٩٨٥م، ج ٢ قسم الموحدين ص ٢٤٦.

موقع قابس :

تقع مدينة قابس في الجنوب الشرقي من إفريقية^(١)، على خليج يحمل اسمها وكان قديماً يسمى خليج^(٢)، سرت^(٣) الصغير (تميز له عن خليج سرت الكبير الموجود في طرابلس^(٤)، الغرب) وقابس جنوب مدينة صفاقس^(٥)، التي تقع في أول عمق هذا الخليج وهي تقع بين صفاقس وطرابلس وذكر المؤلف المجهول صاحب الاستبصار أن المسافة بينهما ثمانية أيام^(٦)، ويقول ياقوت : إنها ذات أودية وإنها من عين خراة تأتيها من الجبل في جنوبها ولها أودية وعيون كثيرة أكبرها عين سلام وعين الأمير وكما أن ساحلها مرفأ للسفن فإن أطرافها تقع على الصحراء الموصلة للطرق التجارية الرئيسية، يصفها اليعقوبي^(٧)، (ومن طرابلس على الجادة^(٨))، العظمى إلى مدينة يقال لها قابس عظيمة على البحر الملح عامرة^(٩)، ومدينة قابس مدينة بحرية صحراوية فإن الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة أميال منها^(١٠).

(١) إفريقية هي الاسم الذي أطلق على المغرب الأدنى والذي يقابل الآن جمهورية تونس الحالية وجزء من الجزائر وجزء من طرابلس.

- ويقول اليعقوبي : (بن يعقوب بن وضعت. ٢٨٠هـ) إن قابس هي أول أعمال إفريقية (ولاية إفريقية).

- البلدان ط بيروت ص ٢٥٤.

- انظر البكري المسالك والممالك ط تونس ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ص ٦٨٧.

- انظر حسين مؤنس تاريخ المغرب وحضارة ، ط القاهرة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٢م ط ٣ ص ٢٠٤.

(٢) الخليج من البحر شرم منه والخليج منقطع من معظم الماء لأنه يحيد منه وعلى هذا فإن لفظ "خليج" قد يطلق في اللغة العربية ويراد به الترع أو النهر يقطع من النهر الكبير أو جزء من بحر يحيط به الأرض من كل جهات ما عدا جهة واحدة هناك ألفاظ في اللغة العربية مدينة في معناها من المعنى المتقدم. للخليج مثل الخور ، الشرم ، الجون ، فالشرم مثل شرم الشيخ فسي شبه جزيرة ميناء والخور تستعمل مثل خور الزبير في منطقة للخليج العربي أما الجون فنجد الأندلسي يستعملها ليصف الخليج:

- انظر ابن منظور: لسان العرب مجلد ٢ مادة خليج. والتبريز آبادي القاموس المحيط ط القاهرة البابي الحلبي

ط ٢ ، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م ، ص ١٩٣٠.

- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ط دار المعارف ط ١ ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ، ط ٢ ج ١ ص ٢٤٨ نزهة

المشتاق في اختراق الآفاق. ج ٢ ص ٢٧٩ وما يليها.

(٣) يري بروكبيوس القيصري في كتابه عمائر جستنيان أن تسمية سرت جاءت من الكلمة اللاتينية والتي تعني السحب وذلك لأن السفن كانت إذا دفعتها الرياح إلى هذا الخليج لا يمكنها العودة ويبدو منذ تلك اللحظة وكأنها تسحب. نقلاً عن عمران عبد السلام الصفرائي: السيادة على الخلق التاريخ والسيادة العربية الليبية على خليج سرت. ط جامعة قاريونس بني غازي ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ، ط ١ ص ٢٨ - ٢٩.

(٤) طرابلس مدينة على شاطئ البحر ، والبحر لاصق بها ، بني جامعها أحسن مبني وكلمة طرابلس معناها ثلاث وليطسة في لغة اليونانيين مدينة أي ثلاث مدن وقلس غريبها وبينها ثمانية منازل ، انظر ياقوت معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٥.

(٥) صفاقس: مدينة من نواحي إفريقية جل غلاتها الزيتون وهي على ضفة الساحل بينها وبين قابس ثلاثة أيام، المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢٢٢.

(٦) نفس المصدر ج ٤ ، ص ٤٧٩.

(٧) البلدان ص ٢٤٦.

(٨) في اللغة جادة الطريق تعني سواء الطريق السوي وجمعها جواد : مفرد جادة الطريق ويعني هنا الطريق الكبير للبريد والحج والقوافل ، انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ص ٥٦٢.

(٩) التجاني أبو محمد عبد الله بن أحمد، ت. بعد ٧١٠هـ - ١٣٣٢م. ط الدار العربية للكتاب ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ط ٢ ص ٧٨.

وهي حاضرة البحر من أعظم أمصار إفريقية^(١)، وهي تعد أيضا من بلاد الجريد^(٢)، وصفها كاتب موحدي (المدينة العتيقة روح هذه الجهات الإفريقية ومعناها وقفلها الذي يحمي حوزتها ويكف عداها، ومنعتها التي لا يتهاى لمفسد أن يتخطاها إلى أذيتها ويتعدها .. يتفجر خلالها الماء العذب) ويلتقي بها الركاب والركب. وتحقق أرجاءها الجنات والأعنان والحدائق الغلب وتجتمع فيها أصناف الثمر المتخير والحب^(٣).

كان ساحل قابس مرفأ للسفن المتوسطة التي تأتي إليها من كل مكان، لتدخل خليجها المتفتح على الشرق من جهة، وعلى أوروبا وبقية دول القارة الإفريقية حيث يكمن الذهب والنفائس من جهة أخرى، وهذا الخليج ربطها مباشرة بطرابلس^(٤)، وبخليج سیرتا الكبير ومنها إلى الشرق ونحو الغرب منه إلى خليج تونس وباقي خلجان البحر المتوسط من جهة أخرى^(٥)، فكما كانت معبرا للطرق البرية صحراويا بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، وكانت معبرا ساحليا وبحريا ليمر بالمدن الساحلية والموانئ^(٦)، ومما لا ريب فيه، كان لكل هذا أثره في رواج تجارتها الداخلية والخارجية، وجعلها دائما مطمعا لكل من أدرك أهمية موقعها على مر العصور؛ إن قابس تتحكم في المجاز الضيق الذي يقع بين منطقة الشطوط والسبخات^(٧)، وبين البحر^(٨)، الذي يربط عن طريق البر بين تونس^(٩) والقيروان^(١٠)، والمغرب كل من جهة، وبين طرابلس والمشرق من جهة أخرى^(١١)، وقد كانت المراكب خلال القرون الغابرة تصل إلى حد ميناء قابس، الذي كان يعني نقطة الوصول الملازمة بين التجارة البحرية أو البرية، وبين

- (١) ابن خلدون د. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ٨٠٨ هـ - ١٤٣٠ م، ط بيروت ط ٢ ج ١ ص ١١١.
- (٢) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٠٥ و ص ١١٢. والجريد: بلاد في إفريقية على طرف الصحراء كثيرة اللخيل، لذا سميت بالجريد وهي فيها ولحات كثيرة خصبة وكثيرة الفواكه والثمار لوفرة المياه بها.
- (٣) رسائل موحدية ت. إيفي بروفنسال، رسالة ٣٠ ط رباط القنص، ط ١ ص ١٩٠.
- (٤) موسوعة تاريخنا، ط ليبيا ط ١ ج ٣ ص ١٢٢.
- (٥) نشرة المؤتمر الأول للوحات التونسية، ص ١ - ٢ وما يليها.
- (٦) ابن فضل الله العمري قطعة من تح/ حسن حسني عبد الوهاب: كرامات تونس المجلد ٩ - ٣ لسنة ١٩٧٢ ص ١١٢.
- (٧) السبخات مغردا مبخة في علم المياه هي قاع حفرة مغلقة خالية من النبات تتميز بظهور مكونات ملحية على السطح خلال فترات الجفاف وتكون أطرافها مغطاة بأعشاب قصيرة متراكمة مع الملح. وأكبر مبخة هي تاكرمت أو شط الجريد هذه السبخات في حد ذاتها تكون ثروة اقتصادية أو يستخرج منها الملح وهو عنصر هام جدا في التجارة مع البلاد حيث وصل في بعض الأحيان أن الأقاليم الحارة في الجنوب من القارة الإفريقية تدفع ثمنه ذهبيا. وأرض قابس وما حولها بها العديد من السبخات جورج بيسار Pierre gorges معجم المصطلحات الجغرافية، ص ٤٤٦.
- أنظر روبر برانشفيك R.Brun shevik: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ترجمة حمادي الساعدي ط دار الغرب الإسلامي، ط ١، ج ١، ص ٣٤٥.
- (٨) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.
- (٩) اسمها الأول ترشيش لها مرسى ويحدها اسمها وادس، فتحها حسان ابن الاعمان وفيها دار صناعة كان عبد الملك عبد مروان وجهه إلى معسكرها ألف قبضي يعملون بها لتكون لواء قوة وعدة للمسلمين.
- أنظر البكري: المسالك والممالك ج ٢ ص ٦٦٥
- (١٠) القيروان مدينة في بساط من الأرض بنيت سنة ٥٠ هـ، في الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهديّة وفي القبلة (الجنوب) بحر صفاقس وقابس. البكري المصدر السابق نفس الجزء ص ٦٧٥.
- (١١) نشرة المؤتمر لواحاح تونس ص ٢ - ٣.

التجارة الصحراوية وكان المسافرين يصل بسهولة إلى واحات متخفض الشطوط^(١)، (سبخة تاكمرت) إلى جانب وضعها الاستراتيجي.

خصائص الموقع :

بنظرة عامة على جنوب أفريقية حيث تقع مدينة قابس : نجد المناظر الطبيعية المختلفة : مشهد أشجار النخيل الباسقات أو ما دونها من الغابات والحدائق وبين السهول المترامية بالتقابل مع الدور المنتظمة في صورة واحات وقرى ومدامر^(٢)، وبين خيام البدو الرحل تتجمع الحياة النباتية والبشرية حول يتابع المياه أو الشعاب المنحصرة بين الجبال والصحراء والبحر^(٣)، هذا إلى جانب السهول المذكورة تستدل من ذلك أن واحة^(٤)، قابس تنقسم إلى ثلاث مناطق رئيسية كبيرة - منطقة جبلية ، منطقة السهول ، ومنطقة ساحلية. يشتمل الساحل على عدة بحيرات مثل بحيرة بوغرارة عند جزيرة جربة^(٥)، ويلتحم كل هذا مع الصحراء الكبرى ليصبح المسرح الجغرافي مكتملا والمنطقة الجبلية تقع نحو الجنوب الغربي من قابس وهي جبال مطماطة^(٦)، التي تمتد من الجنوب الغربي لتنتهي في جنوب طرابلس بجبل نفوسة مكونة فقط

(١) أي بلاد الجريد وما بعدها (انظر الخريطة) لقد كانت قابس منفذا للعبور وقاعدة استراتيجية هامة تمر بها خطوط اللبمس الدفاعية التي تصل إلى ما حول جبل الأورلس للدفاعية في المغرب الأوسط وعن وضعها هذا يقول د/ سعد زغول أن قابس كانت كملتق الزجاجة (انظر تاريخ المغرب ، ج ١ ص ٧٤).

(٢) المدامر جمع مندر وهي مجموعة بيوت من طين يدون سوق ابن خلدون المقدمة ص ٣٢٢.

(٣) انظر ديوبو Depois : تونس للثروة توجمة للصادق أمازيغ ، ط تونس ط ١ ص ٨٨ وما يليها.

(٤) لاحظت للباحث أن هناك اختلافا في أقوال الجغرافيين ، فبعض من وصف قابس كمدينة مثل الليكري والإدرسي ، ومنهم من وصفها بالواحة ، وقابس تجمع بين الاثنين ، فهي مدينة ذات حصن حصين في وسط واحة ، وواحة بمعنى إقليم جغرافي أو ولاية قابس أو منطقة قابس ، التي تتكون من عدة واحات متصلة نذكر منها كتالة ، الحامة ، تيلبو ، الزرافات ، مارت... والواحة قد تكون جبلية مثل منطقة قصبة أو صحراوية مثل دوز أو قبلي أو بحرية مثل قابس وهذه الواحات بأنواعها تجدما في جنوب إفريقية وطرابلس ويزقة وهذا التعريف مصري منذ القدم حيث يمتد أثره ليشمل كل الشمال الأفريقي والواحة جغرافيا هي أرض منخفضة عن سطح البحر يتم زراعتها على مياه الآبار والعيون التي تسمى بالمياه الجوفية لأن البيئة الصحراوية أو شبة الصحراوية تكون الأمطار فيها قليلة فأمطار قابس لا يمتد عن ٢٠٠ ملي في العام. وينتج عن ذلك أن السكان أما أن يكونوا متفرغين للزراعة أو يدرجوا في رحل يسكنون الخيام ويتنقلون حسب المرحى والمشب.

- انظر المصدر السابق نفس المكان

& See Habib Attya: L' organisation de l'oasis. Les cahiers de tunisie 1957 No. 17 - 18, PP. 39 - 44.

(٥) جزيرة جربة هي جزيرة في خليج قابس وبينها وبين قابس مسافة قصيرة وقد وصفها التجاني في أروع وصف. للاستزادة انظر الرحلة ص ١٠٣ وما يليها.

(٦) الجبال لها أسماء عامة وأسماء محلية على حسب المنطقة مثل سلسلة الجبال المذكورة ، في قابس تسمى مطماطة على اسم أشهر قبيلة تسكنها ومنهم النساب البربري سابق من مطماط ، وفي بلاد الجريد تسمى بجبال طباق وفيها هضاب الظهر أو جبال الظاهر، أما في طرابلس نجد أنها أخذت اسم جبل نفوسة على اسم أشهر قبيلة سكنته ، وكذلك اسم جبل دمر الذي يقع في جنوب قابس ضمن هذه السلسلة ، وتوجد منطقة منه تسمى غمراسن وهو اسم للأحية من الجبل ، إن البربر قد سكنوا هذه الجبال وجعلوا منه خطا دفاعيا لحماية ممتلكاتهم وبخاصة أثناء الغزوة الهلالية. التجاني : للرحلة ص ١٤٣ - ١٨٥ - ١٨٧ - ١٩٧. الوسياني : أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني (من رجال القرن السادس من الهجرة - الثاني عشر من الميلاد) ، المسير مخطوط فسي الهيئة العامة للكتاب ، ميكروفيلم رقم ٨٤٥٣.

ورقات ٤٨ - ٥٢ . وفي صفحات كثيرة تحدث عن جبل نفوسة ووصفه :

- See André Louis : Tunisie du sud. Paris 1975 PP. 18 - 35.

من سلاسل الجبال (جبال الظاهر) التي يمتد منه جبال مطماطة وجبل دمر وجبل الأبيض مكونة يصخورها ، ومع الصحراء منظراً ذا خاصية معينة في مواجهة خليج قابس . ومنطقة السهول الممتدة من ناحية الساحل حتى تتوغل في الصحراء ، وهي سهل أو منخفضات الجريد أو الشطوط مثل شط الغريبه وشط الفجاج أو الفجيج^(١) ، أما السهول الرئيسية في منطقة قابس سهول الأعراض والجفارة وتكون الجزء الأكبر من منطقة قابس بمراعيها والنطاق الزراعي بها^(٢) ، أما المنطقة الساحلية : قابس تقع في عمق خليج سرت الذي يكون تجويفاً دائرياً كبيراً في أرض منطقة قابس التي تقع مدينتها على بعد أميال من شاطئه^(٣) ، فيكون شراً صغيراً تدخله المراكب المتوسطة والصغيرة^(٤) وأشار ابن خلدون^(٥) ، إلى أهمية الموقع الساحلي ، وذلك أن قرب المدينة من البحر يسهل الحاجات القاصية من البلاد النائية .

أسلوب العمارة القابسية وطابعها :

لقد احتلت العمارة الإسلامية مكانة بين فنون العمارة المختلفة ، واستطاعت أن تصنع لنفسها أسلوباً فريداً بين تلك الطرز ، وأضافت للتراث المعماري نظاماً تخطيطية لم تكن معروفة من قبل ، كالمساجد والزوايا والمدارس والخانقوات وغير ذلك من ناحية . ومن جهة ثانية أدخلت على نظم العمارة المدنية والحربية أنظمة جديدة جعلت لها طابعاً فريداً مميزاً ، وذلك فضلاً عن عما ابتكرته العمارة الإسلامية من بيوت بيوتاً معمارية وزخرفية عديدة اتسمت بالمهارة والتنوع والدقة البالغة وبقيمتها الفنية والجمالية التي لا تخطئها العين ، ومن الحقائق المعروفة في تاريخ العمارة والفنون أن الأساليب المختلفة تتأثر في مراحل تطورها بعدد من العوامل العامة تختص بالبيئة المحلية . وقد ساهمت في نشأة وتطور العمارة الإسلامية عدة عوامل ، دينية وسياسية واقتصادية وبيئية . ويمكن القول أن هذه العوامل تكاد تكون متشابهة في معظم أقطار العالم الإسلامي ، مما زاد من الروابط التي تربطها ببعضها توثيقاً ، وهو الأمر

(١) ديوا : ص ٨٦ - ٩٣ .

(٢) وأنظر 35 - 18 P. 1975 - PP. André Louis - Tunisie du sud .

(٣) الأدرسي لزمة ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) Frechou Naudé: L'occupation du sud de la province Romaine d'Afrique du 1^{er} siècle après J.C. la petite syrie et le Djerid : cahier de Tunisie 1972 - P. 65 - 99 .

وهي نتائج أبحاث هذا الأثر الذي كان مساعداً للأثر جبال هيلاري الذي انحصرت أبحاثه في منطقة خليج سرت كما قام بحفريات في قلعة حماد .

(٥) المقدمة ص ٤٤٤ أما موقع قابس حديثاً : تقع قابس جغرافياً في الجنوب الشرقي من أفريقيا يحدها من الشرق البحر الأبيض المتوسط على طول خليج يحمل اسمها على طول ٨٠ كم من الشمال تحدها ولاية صفاقس وولاية سيدي أبي زيد ومن الغرب توجد ولاية جبلي أو قبلي ولقصة وفي الجنوب تجد ولاية مدنين مساحة الولايات ٧١٦,٢٢٦ هكتار . وتمثل هذه المساحة ١٤,٦٠٠ من تراب أفريقيا - تونس - اليوم - وعدد سكانها ٣٢٣,٧٠٠ نسمة في مناخها خصوصيات فهو مناخ يتسم بالازدواجية فهو مناخ ساحلي جاف صحراوي وتبلغ نسبة الأمطار ١٨٠ ملم في الساحل ٢٢٣ مم في جبال مطماطة . كانت مساحة قابس قديماً أوسع وقد انقسمت جزيرة جربة إلى ولاية مدنين التي تحتل مكانة جغرافية متميزة في أقصى الجنوب الشرقي ولها حدود وسواحل بحرية تمتد ٤٠٠ كم وهي ما يمثل ثلث السواحل الإفريقية لها حدود برية وميناء جوي طاقه استيعابه مليون و ٥٠٠ مسافر حدودها البرية مع بيان وهي منطقة عبور الشرق والمغرب مساحتها ٩,١٦٧ كم ما يمثل ٥,٦٠ من المساحة الإجمالية للبلاد وثلاثاً ثلثة المراعي الواسعة وهي تمثل بدورها ١ / ١٠ المراعي التوتوسية لكل عدد السكان ١٨,٠٠٠ ساكن فيها ، نسبة السكان الحضريين ٦٥% ، أما الريفيين ٣٥% تنقسم قابس إلى ثلاث مناطق طبيعية رئيسية كبرى .

١- منطقة جبلية : جبال الظاهر . ٢- منطقة الجيفارا : وهي الجزء الأكبر للولاية بسهولها ومراعيها .

٣- المنطقة الساحلية : على خليج قابس .

الذي أضفى على الطراز الإسلامي طابعه الذي يتسم به طابع الوحدة الظاهرة التي لا مجال لإنكارها أو التشكك فيها ، على الرغم من احتفاظ كل قطر بطابع مميز خاص به. وفي ضوء ما تقدم يمكن القول إنه يوجد طراز إسلامي عام تفرعت عنه عدة طرز محلية. فقد كان كل قطر من الأقطار الإسلامية قد اتخذ لنفسه سمات خاصة مستقلة يتميز بها، في قليل أو كثير، عن بقية الأقطار الإسلامية بمعنى أن كل قطر يتميز بسمات خاصة استقل بها في أكثر أو أقل عن بقية الأقطار الإسلامية وهو يتأثر في ذلك بعوامل البيئة المحلية وما كان يصاحبها. وتلك السمات قد تكونت من استقرار في الأوضاع الاجتماعية وتحسين العلاقات الخارجية التي كان لها أثرها البالغ في تبادل التأثيرات المعمارية والفنية وبالتالي في أثر كل طراز من هذه الطرز^(١)، وعندما نتحدث عن طابع مدينة قابس المعماري وتخطيطها لا بد أن نتذكر أنه قبل الإسلام كان طابعها فنيقيًا تجاريًا كميناء ومصرف من مصارف قرطاج لتعبئة البضائع. وبعد ذلك أخذت الطابع الروماني ، و سيطرت على الطرق الاستراتيجية الرومانية^(٢)، وكل طابع كانت له خصائصه المعمارية سواء كان طابعًا دينيًا أو مدنيًا. تبدلت تلك الطوابع العمرانية السابقة مع دخول القيم الجديدة للدين الإسلامي بعد الفتح الإسلامي ، فتكونت حالة عمرانية متناسقة من التعاليم الإسلامية ، و تراث المدينة القديم. تغلب الطابع العسكري الإسلامي الديني ، ويلاحظ ذلك في كثرة المساجد والرباطات والجوامع والزوايا والمزارات والثكنات والتحصينات في المدينة وعلى الساحل وعلى أطراف الطرق الصحراوية^(٣). كما أنها مركز تجاري فقد أصبحت بعد ذلك مركز إشعاع للدين الحنيف ، إلى جانب أنها أصبحت فيما بعد موئلا للإباضيين^(٤)، الذين كونوا فيما بعد جانبًا من سكانها. وكان لهم في مساجدهم الخاصة طابع خاص وقد استخدمت في قابس وفي أغلب طرق المدن الإفریقیة مواد السابقين من الرومان والبيزنطيين لذا قلما نجد آثارا لأبنية الأول في قابس ، ولكننا نجد الأحجار البيزنطية قد استخدمت في بناء المساجد والقصور بعد الفتح الإسلامي^(٥)، ثم أخذ الفن الإسلامي المعماري يعد تلك مظاهر جديدة أيام عصر بني زيري وقلعة بني حماد ، فقد لفت التجاني نظرنا^(٦)، إلى أن الكثير من المنشآت المعمارية في قابس كمثيلاتها حتى في الأسماء الموجودة في قلعة بني حماد ، حيث تبلور التأثير الشرقي في مزيج من الهندسة العربية^(٧)، والتي تتمثل في تضليغ المنارات والمآذن ونقوش الفسيفساء والزخارف الدقيقة والزجاج والخط الكوفي للكتابات القرآنية^(٨)، الواضح حول الجدار في

(١) سيد عبد العزيز سالم قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ط بيروت ١٣٩١ - ١٩٧١م ص ١٩٥

- Creswel, K. Early Muslim Architecture Cairo 1989 P. 291 - 315

- Gorges Marçais, L'architecture Musulmane de l'occident Paris 1937. P. 79 - 80

- وانظر محمد حمزة الحداد : التخطيط غير التقليدي للمساجد في الأندلس مجلة دراسات أثرية إسلامية، القاهرة ١٩٩٥م /

١٤١٥هـ. المجلد الخامس ص ١٤٩

(2) Diehl : charles : L'afrique Byzantine Paris 1896, P. 223-265,

(٣) عثمان الكعاك الحضارة في حوض البحر المتوسط ط. جامعة الدول العربية ط (١) ص ٦٠..

(٤) انظر الوسياني السير - مخطوط ، ورقة ٤٣ - ٦٥ - ١٧٣.

(٥) دائرة المعارف التونسية كرس (٤) ص ١٠٤.

(٦) الرحلة ص ٨٧ وما بعدها.

(٧) عبد العزيز بن عبد الله الآثار الفاطمية في تونس والقاهرة ، ص ١٥٧ ، ١١٣ - مصطفى زيبس ، القبة التونسية ص ٩٣

وما يليها : من أبحاث المؤتمر الأول للآثار التونسية ، وانظر المصدر السابق نفس الصفحات.

(٨) أبحاث المؤتمر الأول للآثار التونسية وكذلك أبحاث المؤتمر الثالث للآثار العربية بتونس.

محاريب المساجد^(١)، وتوسيع الأسواق المسقوفة^(٢)، وظلت الهندسة المعمارية الإفريقية بمظاهر روعتها. حدثنا القاضي ابن عميرة^(٣)، عن جمالها الأندلسي عندما تولى قضاءها عدة سنوات (قابس)، فأضيفت جذوع الأعمدة المحلاة بحلقات وتيجان الأعمدة المنحوتة والزخارف الكثيرة من الرخام والجص الملون ومعجون المرمر والجبس^(٤)، وترى آثار هذا الفن في أبنية صقلية الإسلامية التي تأثرت بإفريقية والصنهاجيين وبنوا فيها قصورا كثيرة تشبه قصورهم^(٥)، في قلعة بني حماد وبجاية، وبدأ هذا الفن المعماري الرائع في التدهور في أواخر عهد الصنهاجيين ثم ارتفع في عهد الحفصيين، فاصلحوا كثيرا من المساجد والأبنية، وزادوا منها الكثير في قابس وأقاموا الكثير من الفنادق تبعاً لازدهار الحياة الاقتصادية وانتعاش التجارة على عهدهم ولذلك تطورت الصناعات الكثيرة^(٦)، أما قابس فنجد فيها خصوصية في طريقة البناء فطابعها - إلى جانب الطابع المذكور سالفاً - نجد فيه البيئة القابسية هي السمة العامة، حيث يوجد البناء المعماري: السقف القابسي نسبة لقابس، والسقف الحامي: نسبة لحامة والسقف الصفاقسي، وكل سقف يتميز عن الآخر بطريقة البناء والحشو واستخدام خشب أشجار البيئة المحلية مثل شجر الزيتون والنخيل والبرقوق والأحجار وكذلك الأحجار المستخدمة كانوا يأتون بها من مكان المدينة القديمة ومنطقة المدر والمحاجر من الجبال الجنوبية^(٧)، واستخدام طين الفخار القابسي والجير والملاط المستخرج من قرى قابس، بذلك تختلط رمال الساحل والصحراء، في كل هذه المواد البيئية المحلية التي يأخذها الصانع القابسي ويضيف إليها ذوقه وخبرته وجودة صنعته لكي تكون في النهاية معبرة متمشية مع الطرز المعمارية التي رأيناها في العصور الأغلبية والفاطمية والصنهاجية والموحدية وبنى حفص.

المسجد الجامع :

تتفق المدن الإسلامية جميعاً سواء في المشرق أو في المغرب، وسواء أكانت مدناً مفتوحة أم مدناً أسست في عهد الإسلام، في مظهرها العمراني العام أي في طريقة تخطيطها وتوزيع مراكزها العمرانية، وفي أبنيتها عامة باستثناء تفاصيلها الزخرفية أو ما اضطرت إلى التماسه بتأثير المناخ أو الموقع أو طبيعة المكان. وتتمثل هذه الظاهرة في المغرب والأندلس كما تتمثل في مصر والشام والعراق، ويمكن تفسيرها بأن المسجد الجامع الذي لا يختلف كثيراً في نظام بنائه في سائر أنحاء العالم الإسلامي كان أساساً للتنظيم العمراني للمدينة^(٨)، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية، والقلب الذي ينبض بالحياة ويهبها النشاط والحركة. كان تشييد المساجد الجامعة أساس العمران في المدن التي يراد طبعها بطابع الإسلام.

(١) حصن حصلي عيد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ط ١ من ٤٨، عثمان الكواكبي الحضارة العربية: ص ٦٠.

(٢) انظر المراجع السابقة، وتسمى هذه النقوش الجليل في قابس وفي مدن إفريقية.

(٣) محمد ابن شريفة: أبو المطرف بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، ط القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ص ١١٢-١١٤.

(٤) أبحاث المؤتمر الأول للتونس.

(٥) انظر رشيد بوريه أثر الفن المعماري الصنهاجي على النورماندين بصقلية مجلة الثقافة الجزائرية السنة السابعة مجلد ٣١،

١٩٦٦م ص ٢٦ وما يليها وقد وجدت آثار بعض القصور في الحفريات التي أشرف عليها الخبراء خزل ديلية Kalaa de

Bani Hassmal G. De Bélier ترجمة.

(٦) انظر بروشيفك تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي ترجمة حمادي الساحلي بيروت دار الغرب الإسلامي ط ٣٨٧.

(٧) ناصر بقلوطي: العمارة للتكنيدية في الجنوب التونسي، مجلة المآثورات الشمسية عدد ١٩٨٩/٣٥ ص ٢٩ وما يليها.

(٨) سيد عبد العزيز سالم: التخطيط ومظاهر العمران في المدينة الإسلامية في المصور الوسطى، مجلة المجلة ط. القاهرة عدد

١٩٥٧/٩م ١٣٧٧م ص ٥٤-٦٢.

كان المسلمون منذ فجر الإسلام ، وفي أيام الفتوحات الكبرى يشيدون المسجد الجامع في البدء رغبة في إضفاء الصيغة الإسلامية على المدن التي كانت وثنية أو مسيحية. شيد عقبة بن نافع جامع بالقيروان سنة ٥٠ هـ (٦٧٠م)^(١)، وقد نص القرآن الكريم في آيات كثيرة على أن المسلمين كانت لهم مساجد جامعة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول الله تبارك وتعالى : {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين}^(٢).

وقال جل ذكره {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار}^(٣).

وقال تعالى : {ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله}^(٤).

وقال سبحانه : {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}^(٥).

ينقسم المسجد بصفة عامة إلى عناصر معمارية متعددة :

١- بيت الصلاة :

عبارة عن بيت مربع أو مستطيل قائم بسقفه على أعمدة وله قبتان قبة المحراب للإضاءة وقبة البهو للدخول وهو متجه إلى القبلة وعلامتها المحراب الذي في جداره القبلي^(٦)، وإلى جانب أهميته الشعائرية له وظيفة تنظيمية بالنسبة لجماعة المصلين الذين يدخلون ويصطفون في المقدمة من الصف الأول ثم الذي يليه دون أن يتخطى بعضهم رقاب بعض^(٧)، وما بين صفوف الأعمدة من الباب إلى المحراب يسمى بلاطة Nef - وما بين صفوف الأعمدة في الشرق إلى الغرب يسمى مسكبه Travee^(٨)، وفي المحراب الذي هو بيت الصلاة عبارة عن دخله أو تجويف في الجدار القبلي يتجه إليها الإمام^(٩)، وهي مزخرفة^(١٠)، والمنبر وهو من الخشب ومتحرك ويدخل مقصورة خاصة قرب المحراب. وأجمل المنابر وأقدمها هو منبر مسجد

(١) المرجع السابق ، نفس المكان

(٢) سورة التوبة آية ١٨.

(٣) سورة النور الآيتان ٣٦ ، ٢٧.

(٤) سورة التوبة آية ١٧.

(٥) سورة الجن آية ١٨.

(٦) عثمان الكفاك : الحضارة في حوض البحر المتوسط - ص ٥٧.

(٧) سعد زغلول عبد الحميد : العمارة والفنون في دولة الإسلام - ط الإسكندرية - منشأة المعارف

١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م ص ٢٤٦.

(٨) المرجع السابق - ص ٥٧ - مسكبه بلغة أهل المغرب لكلمة أسكوب بمعنى الممر الموازي أفقي أو عرضي في بيت الصلاة من جدار القبلة إلى العمق..

(٩) نفس المرجع - ص ٢٤٧. وانظر : محمد حمزة حداد - مرجع سابق - ص ٤١.

(١٠) مثل مسجد جامع القيروان ومسجد قرطبة الكبير وأنواع الزخارف كثيرة وقد تطورت على عهد الأغالة والفاطميين والدولة الصنهاجية وقد انعكس هذا التطور فجدده في معمار صقلية وعمارات المرابطين والموحدين. وفي ما تقدم النظر :

- سيد عبد العزيز سالم : قرطبة ... ص ١١٧ وما يليها.

- سعد زغلول عبد الحميد - نفس المرجع - ص ٢٤٧.

- عبد السلام محمد نظيف : دراسات في العمارة الإسلامية - الهيئة العامة للكتاب

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م ص ٢٦ وما يليها.

- جورج مارسيل : بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى - ترجمة محمد عبد الصمد هيكس - ط

إسكندرية - ١٤١١ هـ / ١٩٩١م.

ويدخل مقصورة خاصة قرب المحراب وأجمل المنابر وأقدمها هو منبر مسجد القيروان وأحيانا في الحواضر تكون موجودة مقصورة خاصة بالخليفة.

صحن الجامع وهو أكبر من بيت الصلاة كما في مسجد احمد بن طولون - جامع الكوفة - جامع القيروان وجامع قرطبة.

المآذن - مفردا مئذنة - مشتق من آذن يؤذن للصلاة وهي تعنى المكان الذي ينطلق منه صوت المؤذن وهو ينادي إلى الصلاة - وقد بحث كريزويل أوجه الشبه بين مئذنة جامع القيروان وبين برج الشيخ على كاسون بالقرب من حصة سوريا^(١)، ويذكر د/ أحمد فكري^(٢)، أن هذه المئذنة قد اتخذت نموذجا لمآذن المغرب والأندلس. لكن د. سيد عبد العزيز سالم^(٣)، يرجح أن عبد الرحمن الداخل الذي أسس دولة بني أمية بالأندلس هو أول من أدخل المآذن السورية في المساجد الأندلسية أي ذات الأبدان المربعة^(٤)، وانتشر بعد ذلك هذا الطراز المربع في المغرب والأندلس وتطورت عمارته وزخرفته وقد ساد في كل أنحاء المغرب والأندلس فيما عدا مئذنتين واحدة مئذنة في جامع برقة^(٥)، والأخرى في طرابلس^(٦).

وبداخل المدينة مسجدها الجامع "وهو مسجد متسع له منار مرتفع قد مال وخرج عن الوزن إلا أنه لصحة موضعه لا يخشى من وقوعه"^(٧)، والمسجد الجامع يعتبر من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية ومن تكويناتها المعمارية الأساسية، واقتضت وظائفه الدينية والتعليمية. والسياسية أن يكون موضعه وسط المدينة ليكون قريبا من كل موضع فيها^(٨)، والمسجد الجامع في قابس وصفه التجاني^(٩)، بأنه متسع كي يسع كل السكان عندما ينادي للصلاة، خاصة صلاة الجمعة حيث يجتمع أغلب سكان المدينة وقد وصفه اليكري^(١٠)، أنه جامع (سرى)، وكان اختيار موضع المسجد الجامع ودار الإمارة في وسط المدينة كان انعكاسا صادقا لحياة المجتمع الإسلامي في داخل المدينة^(١١)، وفي مكان حي الجارة الآن - توجد عدة مساجد كبيرة أهمها مساجد سيدي دريس^(١٢)، أو إدريس، وسيدي الحاج عمر وسيدي ابن عيسى نسبة

- فون شاك : الفن العربي في أسبانيا وصقلية - ترجمة الطاهر أحمد بكر - ط القاهرة - دار المعارف - ١٤٠٠ هـ -

١٩٨٠م ص ٧٣.

- George Marcais L'architecture musulmane d' la l'occident P. 82 P.

(١) انظر : Greswell : Early Muslim Architecture P. 316.

(٢) أحمد فكري : المسجد الجامع بالقيروان - القاهرة - ١٣٥٦ - ١٣٧٦ - ط ١ ص ١١١.

(٣) سيد عبد العزيز سالم : تطور المآذن المصرية - ط الإسكندرية - ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧م ص ٢٣.

(٤) سيأتي الحديث بالتفصيل في جزء المنار.

(٥) اليكري : الممالك والممالك - ج ٢ - ص ٦٣٠.

(٦) التجاني : رحلة التجاني - ص ٨٦ - ٩٣.

(٧) يستدل من ذلك على متانة بناء وعلو المنارة ليراهما كل الناس وبخاصة أنه بالتأكيد في وسط المدينة، انظر : المصدر السابق

، ص ٩٤.

(٨) محمد عبد المنار عثمان : المدينة الإسلامية، ص ١٧٥.

(٩) نفس المصدر والصقحة، ومن وصفه هو وغيره من الرحالة، يتضح لي أن في داخل مدينة قابس مساجد كثيرة لكن يوجد

مسجد جامع واحد.

(١٠) الممالك والممالك، ص ٦٦٧. وكلمة سري من التسمية أو يسري عن النفوس التي تفرح بالصلاة فيه

(١١) محمد عبد المنار عثمان : المدينة الإسلامية، ص ٤٩٠ وانظر عثمان للكماك : الحضارة في حوض البحر المتوسط، ص

٥٧.

(١٢) هكذا أخبرنا جورج مارسيه في مؤلفه عن العمارة الإسلامية.

Gorges Marcais : L'architecture Musulmannne .. P. 78 - 79.

إلى أمراء أسرة بنى جامع^(١)، ويوجد بجامع سيدي دريس بعض الأساطين والتيجان من بقايا الآثار الرومانية في المنطقة، والتي استخدمها السكان في معمار هذا المسجد، كذلك في مقام سيدي أبي لبابة^(٢)،

أما بناء جامع سيدي دريس فقد أخبرنا عنه جورج مارسيه^(٣)، أنه كان على غرار جامع القيروان لكنه أصغر في المساحة^(٤)، ومن المرجح أن هذا المسجد الجامع كان يوجد في حي المنزل القديم^(٥)، وقد ذكر التجاني^(٦)، أن هذا المسجد الجامع كان قريبا من قصر العروسين وأن القصر كان بجانب البطحاء وقد تمكن المرزوقي^(٧)، من معرفة أن مكان البطحاء هو سوق المنزل الآن، وهو بجانب الجامع^(٨)، بعد ذلك أنه في نفس رسم وتخطيط مسجد عقبة في مدينة القيروان لكنه أصغر في المساحة^(٩)، وبنفس الزخارف والممرات والمبنى والقبّة البيعية المزخرفة وبيت الصلاة إلى آخره التفاصيل التي تبين روعته.

يعتبر المسجد الجامع الذي أقامه عقبه بن نافع بعد أن أسكن في القيروان أبا المساجد الجناح الغربي لمملكة الإسلام^(١٠)، أما تخطيطه : ينقسم مسجد القيروان على سطح الأرض على شكل مستطيل غير متساوي الأضلاع، عرضه سبعة وسبعون مترا وطوله ستة وعشرون ومائة متر، وفيه بهو فسيح يقرب طوله من سبعة وستين مترا وعرضه ستة وخمسون مترا، ولهذا البهو مجنّبات يبلغ عرض كل منها حوالي ستة أمتار وعرضه سبعة وثلاثون مترا، أما المحراب فلا يقع في منتصف ضلع المسجد تماما، إذ يحيد يسرة في الوسط مقدار مترين^(١١)، ونصف، ويقع في نصف دائرة قطرها متران، أما المثانة فتقع في منتصف الضلع المستطيل الشمالي لكنها لا تقع بالضبط في محوره^(١٢)، وهي عبارة عن مربع، طول كل ضلع من أضلاعه عشرة أمتار ونصف وقد أكتت أبحاث العلماء المسلمين^(١٣)، أن محراب مسجد عقبة ابن نافع بالقيروان الذي ركز في موضعه في عام ٥٠ هـ مازال باقيا للوقت الحاضر، وزاد عليه الأمير الأغلب زيادة الله عام ٢٢١ هـ / ٨٣٩ م كسوة من الرخام المخرم المحلي بزخارف

(١) انظر الهادي روجية إدريس : تاريخ إفريقية في عهد بلى زيري، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م، ج ٢، ص ١٢، وقد حثت ترميمات بصفة عامة في العهد الخاص وهناك احتمال تسميته جامع إدريس نسبة لأبي العلي إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن الذي ولاه المستنصر.

(٢) دائرة المعارف التونسية : كرس، ص ١٠١.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة، وانظر أيضا إدريس، المرجع السابق نفس الصفحات.

(٤) نفس المرجع، نفس الصفحات.

(٥) نفس المرجع - ص ٢٤٧. وانظر : محمد حمزة حداد - مرجع سابق - ص ٤١.

(٦) انظر : رحلة التجاني، ص ٨٩.

(٧) انظر : قابس جلة الدنيا، ص ٧٢.

(٨) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٩) Marçais: architecture musulmanne : P. 79.

وقد ذكر مارسيه أن بني جامع قد بنوا قصورا ومساجد في مكان حي الجارة.

(١٠) حسين مؤنس : المساجد في الإسلام - سلسلة عالم المعرفة ط الكويت ص ٤٨.

(١١) انظر أحمد فكري : الممثل المدارس القاهرة ومساجدها ط. تون بوسكو، ص ٢٣٢، وما يليها.

(١٢) انظر : عبد العزيز اللطيم رسالة المسجد في الإسلام، ص ٢٧٦.

وانظر : فون شاك : الفن العربي في أسبانيا وصقلية، ص ٦١.

(١٣) أحمد فكري : ص ٢٠ / ٢١، ط ٢.

ملونة بديعة أضفت بجمالها على منظر المحراب العتيق^(١)، كان عهد المعزين باديس سخيا بما فعل من اصلاحات وتحسينات في جميع أنحاء البلاد ، فقد أضاف للمسجد الجامع بالقبروان الإضافات والتوسعات والزخارف البديعة^(٢)، هذا إلى جانب الزخارف التي تكسو جوف المحراب على هيئة طبقة أو قشرة رقيقة من الرخام نقشت منها زخارف نباتية مخرمة ليتسرب الضوء من بين خرومها، وتصطف هذه اللوحات الرخامية صفوفًا أربعة في كل صف سبع حشوات. وقبة المحراب أقامها زيادة الله الأغلب ، وقد أودع في بنائها روائع الفن المغربي من زخارف ونقوش وأوجه^(٣) أنتشر نظام القبروان في المغرب والأندلس وصقلية^(٤)، لقد كان الفن المعماري الإسلامي يرتكز في أول نشأته على العناصر المعمارية والزخرفية التي تتفق وروحانياته فخرجت منجزاته تكاد تشبه بعضها البعض في سائر البلاد الإسلامية مع شيء من التباين اليسير الذي تختص به كل بيئة^(٥)، وتميل إليه مواهب أهلها المرونة إنشاء وصناعة تقاليد وزخرفة وعلى ذلك فإن العمارة في بلاد المغرب والأندلس تشترك في كثير من صفات تشكيل الفراغ وتصميم الأعمدة والتركيب وزخارف الجص المفرغ^(٦)، وعلى الرغم من وجود شيء من الاختلاف البسيط في بعض العناصر المعمارية الإنشائية مثل القباب وتكويناتها المعمارية وزخارفها التي أصبحت تقليدًا متفقًا في كل أنحاء البلاد شرقًا وغربًا في أغلب تكويناته الأساسية^(٧)، فقد لاحظ مارسيه Marcai^(٨)، أن منارة مسجد عقبة بن نافع بالقبروان التي بناها الأغالب تماثل منارة المسجد الأموي في دمشق وأن بعض أجزائه تشبه في تكويناتها بعض أجزاء مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة (منطقة مصر القديمة) وكذلك مساجد بغداد ، وهذا قد بين لنا شيئين غاية في الأهمية أولهما أن العمارة الإسلامية واحدة في العالم مشرقه ومغربه ، وإن تنوعت في بعض تكويناتها ، وثانيهما أنه إذا كان التأثير قليلًا بالفنون البيزنطية المعمارية كالبازيليكا^(٩)، فقد كان التأثير العربي هو الأهم ، فقد انتقل منار الإسكندرية على المغرب والأندلس بصفة عامة ، أما بصفة خاصة ، فقد ظهر هذا التأثير بوضوح على مثناة القبروان وصفاقس هذا في مجال الشكل العام للمنارة حيث تتألف من ثلاثة طوابق مربعة الشكل ومتراصة تميل جدرانها من جهاتها الأربع ميلًا خفيفًا نحو الداخل كلما ارتفعت بحيث يتسع عرضها كلما اقتربت من سطح الأرض

(١) انظر : عبد العزيز الميلم : ص ١٦ - ٢١.

(٢) G. Maxcais: P. D 4 - 117.

(٣) سيد سالم : بحوث إسلامية - في تاريخ الإسلام وحضارته ط إسكندرية - ص ٤٢٨، من بحث تأثير منار إسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس.

(٤) انتقلت الزخارف لصقلية وبخاصة الزخارف للصنماجية التي استعملت فيها مواد متعددة مثل الرخام والحجر وقطع الرخام الملون أو المخرم التولمي في تونس المرمر والخشب الملون انظر رشيد بورية تأثيرات الصنهاجين على العمارة في صقلية ، مجلة الجزائر مجلد ١٩٧٧ ص ٢٨ - ٣٨.

(٥) انظر سيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب الإسلامي ط إسكندرية ط ٢ ص ٣٤٥.

(٦) المرجع السابق ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٧) انظر بحث سعد زغلول من المورثات الإسلامية على الفن الرومانسكي في أوروبا الغربية ضمن أبحاثه الحضارة الإسلامية بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل أحمد لكري كلية الآداب - جامعة الإسكندرية (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م).

(٨) Archéiteure Muslmanne., PP. 29 - 82.

(٩) نفس المرجع نفس الصفحات.

(١٠) انظر سيد عبد العزيز سالم الإسكندرية بحوث أخلاقية في التاريخ والحضارة والآثار بحث تأثير منارة الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس ص ٤١٧ - ٤٣٥ وبحث التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال فلسون العمارة والزخرفة ص ٤٣١ - ٤٤٢

على نحو يبرز قوة اثران بنيانها ، وكانت مؤنذتا القيروان وصفافس المثل الذي احتذى به ليس فقط في افريقية بل في المغرب والاندلس فقد تأثرت مؤنذة جامع الكتبية بمراكش ومؤنذة جامع قسبة الموحدين ومؤنذة جامع حسان بالرباط ومؤنذة جامع أشيلية بالاندلس^(١) وقد حدث ذلك بسبب استقرار جماعات الإسكندرية بإفريقية أواخر القرن الأول من الهجرة^(٢)، وكذلك القباب التي كانت تأثيراتها مشرقية^(٣)، ثم انتقلت تلك التأثيرات والزخارف إلى صقلية^(٤)، مساجد الأضرحة :

اشتهرت قابس شهرة واسعة لوجود أضرحة كثيرة بها مما أعطاها شهرة دينية خاصة لوجود ضريح سيدي أبي ليابة الأنصاري الصحابي الجليل المدفون في جنوب قابس وهو أحد نقيب النبي (ص) ويقول المطرف بن عميرة^(٥)، عن ترابها أنه مستأثر بسيد من سادات الصحابة وقد وجدت بقابس مساجد لأضرحة أخرى كثيرة نذكر منها في جنوبي قبر أبي ليابة الأنصاري يوجد سيدي أحمد بن عبيد وسيدي البوهالي يتيليو وحول ضريح أبي ليابة^(٦)، يوجد سيدي بشار وسيد هريش للغرب بالقرب من شتي سيدي على اليهلوق وقتها على الخريطة^(٧)، سيدي عبد الظاهر (غالبا عبد الظاهر) وعند قرية بوشمة سيدي على الشطوى وشرقا سيدي مروان بو عبد الله وسيدي عبد المالك في الجهة الشرقية ويفعلها إلى الجارة الشرقية (على الخريطة) نجد سيدي عبد السلام وسيدي مشرفي وسيدي عبد المالك وذلك نذكر سيدي المشيرفي^(٨).

هناك جزء هام في بناء المسجد في منطقة قابس هو عمارة مساجد الصحراء والجبال وجنوب قابس أو بمعنى أوضح الجنوب الشرقي من إفريقية في تلك المناطق المستوطنة من البربر^(٩)، نوي الشكيمة القوية والتعبير عن الحياة الصعبة فهم السكان الأصليون في تلك المنطقة والذين صمدوا من الأزل ضد الفينيقيين والرومان والبيزنطيين كما كانوا يشكلون خطرا على الدولة البيزنطية وما قبلها كانوا من ضمن الأسباب الرئيسية في تحصينات قابس الصلبة وأسوارها المنيعة^(١٠)، لقد كان لهم أسلوب خاص في عمارة قلاعهم ومساكنهم وحين جاء الغزو الهلالي ذكرهم ابن خلدون^(١١)، أنهم اعتصموا بالجبال أو سكنوا الجبال وخاصة على المسطحات الموجودة بها. لقد شاع بناء المسيد بمعنى المسجد باللهجة البربرية في المناطق الجبلية

(١) كما لا ننسى أن الإسكندرية كانت القاعدة الرئيسية في مصر لتوجيه الحملات العباسية إلى إفريقية حكم اتصالها بالطرق المؤدية لإفريقية ، كذلك استخدم حسان بن النعمان ألف قبلي بأهلهم لإنشاء دار الصناعة بتونس لشهرة الأقباط من أهل الإسكندرية في صناعة السفن ، المرجع السابق ج ٢، ص ٤٣٠ - سليمان زنيص للعبة التولمية، ط ١ تونس ص ٩٣.

(٢) زبيد القبة التونسية ص ٩٣.

(٣) بوربيه تأثيرات.. ص ٢٨.

(٤) المطرف بن عميرة كان قاضي قابس أيام الحفصيين. الغبريلي : أبو العباس أحمد بن أحمد (٦٤٤ - ٧١٤م) - عنوان الدراسة في المائة السابعة ببجاية ط بيروت ١٣٨٩م - ١٩٦٩م ص ٢٩٨ انظر محمد بن ؟؟؟؟؟؟؟ أبو المطرف بن عميرة حياته وآثاره ط الرباط ١٣٨٦م - ١٩٦٦ ص ١١٢

(٥) انظر التجاني في أماكن متفرقة.

(٦) انظر المرزوقي ص ٧٣ - ٧٧ - انظر الخريطة.

(٧) انظر خريطة gabe's et ses environs.

(٨) البربر موجودين في تلك المناطق من قبل الميلاد وقبل مجئ الفينيقيين إليها وهم في عمومهم يرجعون لقبائل يمانية عارية قحطانية قد نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والاندلس وجزائر البحر المتوسط وهي أول أمة قامت بأول فتح للمغرب ونشرت المعمران بالمعربي ويوجد بينهم لمبايون مثل لمبايو العرب مثل سابق المعطماطي.

(٩) انظر عثمان الكماك محاضرتين فيمركز الثقافة في المغرب ط ١ ص ٦.

Diehl - 1 Afrique by zan tine P. 327

(١٠) العبر : ج ٦ ص ١٦٠.

الصحراوية من قابس إلى حدود طرابلس وهذه الكلمات تدل على محل الصلاة وتدل كلمة مسيد أيضا على محل التعليم بالنسبة للأطفال في القرى أو المدارس الجبلية أو الصحراوية وقد يسمى أيضا للدلالة على تعليم اللغة العربية والأدب إلى جانب القرآن المجيد^(١)، وقد وجدنا نوعين من المسيد:

أولهما المسيد الصحراوي^(٢)، وغالبا ما يكون ملحقا بمركز القوافل أو الثكنة^(٣)، العسكرية على ملتقى الطرق للحراسة والتزود بالماء فيها مثل ثكنة سيدي أبي لبابه^(٤)، بقرب الربوة (خزنة للماء)^(٥)، عند البطحاء^(٦)، الواسعة والمجاورة لأحياء مطماطة^(٧)، جنوب قابس ويكون المسيد الصحراوي مبنى من أحجار صلبة^(٨)، وتتبع أسلوبه في البناء أسلوب الثكنة نفسها فقد تكون في أغلب الأحيان الليمس الروماني^(٩)، ثم طوره الأغلبية وبنوا فيه المسيد ودعموا تحصيناته كما أوضح ابن خلدون^(١٠).

وثانيهما المسيد الجبلي مثلما فوق جبل مطماطة على سبيل المثال^(١١)، ويتكون من الأحجار الجبلية وجنوع الأشجار مثل الزيتون أو الخروع وملحق به كتاب الأطفال ومسجد صغير أو مكان للصلاة يتعلم فيه الأطفال الصلاة وأركانها وساحة صغيرة بها بستان صغير من الأشجار والأزهار ويلعب فيه الأطفال وقت الراحة أو يتدربون على الفلاحة ثم الطابق الثاني والذي بنى على هيئة غرفة عالية السقف يصعد إليه بدرج^(١٢)، ثم انفصل هذا البناء عن المسيد (الكبار) وأصبح زاوية^(١٣)، أو زوايا على الجبال أو الطرق الصحراوية والمسيد هو الأساس في تعليم البربر الإسلام واللغة العربية وتعاليم الدين الحنيف.

(١) عثمان للكمالك محاضرات ص ٦٦-٨٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحات.

(٣) الثكنة هي المعسكر أو القسطنط أو القيروان والثكنة تدل على محل اجتماع للجيش أو الشاوية أو المشي، انظر نفس المرجع.

(٤) يقصد المنطقة التي يوجد بها ضريح أو لبابه الأكصاري الجليل في شرق قابس انظر المرزوقي قابس ص ٦٠.

(٥) مكان تخزين المياه أو مخزن أو صهريج المياه انظر للكمالك الحضارة نفس الصفحة.

(٦) البطحاء قبل بطحاء الوادي تراب لين مما خزنته السيول وقيل أيضا فيه تعاهد الحصن انظر ابن منظور لسان العرب ج ١ ص ٢٩٩.

(٧) مطماطة اسم لمنطقة سهول وجبال واسم مطماطة هو اسم لقبيلة كبيرة تناثرت في هذه المنطقة واستوطنت السهول في حامة مطماطة وهم من البربر الرحل الذين سمعوا إلى أرض آمنه وبرع منهم النصابة سابق بن مطماط وقد برعوا في صنع الخبز الجيد ولهم شهرة في ذلك لأن وحامة قابس قامت فيه واقعة الحامة أيام قرقوش الأرمني والميور في زمن الملصور بن يعقوب انظر التجاني الرحلة ص ١٠٨ - ١١٤ - ١٣٥ - وانظر مجلد العربي في استطلاعها عن تونس العدد ٤٤٨ - مارس ١٩٩٦م.

(٨) يقصد أحجار من الجبل بنفس أسلوب بناء الثكنة نفسها أيام الرومانيين.

(٩) الليمس هو الثكنة العسكرية الرومانية على طرق الصحراء وكان أشهر ليمس المس القرقة الثالثة أو غسطا جنوب قابس طريق الصحراء انظر تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني بعنوان حضارات أفريقيا القديمة ص ٤٥٤ - ٤٥٥ ط وإصدار البولونكو بإشراف جمال ممتاز.

(١٠) طور الأغلبية جميع الحصون القديمة ودعموها بتي الرباط على طول الساحل من طرابلس إلى المغرب الأوسط انظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٣٠.

(١١) ولقد ذلك أيضا على جبل نفوسة الممتد من قابس إلى طرابلس، انظر عثمان للكمالك، محاضرات في ص ٦٧ - ٦٨.

(١٢) المرجع السابق ص ٥٢.

(١٣) الزاوية بناء بسيط يشبه الخانقاه الشرقية للصلاة والتعليم إما أن تكون تابعة لمعسكر أو سنة أو لضريح وأوقفها بعض الأمازيغ للصلاة والتعاليم الإسلامية نفس المرجع، ص ٥٢-٥٣.

وجدت أنواع أخرى من المساجد بمسميات مختلفة مثل :

المصلي : كبراح كبير في خارج المدينة غالبا أو في مكان فسيح وأغلب الأحيان يكون غير مسقوف أو مسقوفا ببعض الأخشاب أو جذوع الأشجار وتصلى به صلاة الاستسقاء أو الأعياد^(١).

كما تقام فيه حلقات التدارس للمالكية والإباضية وتسمى الحلقة^(٢). ففي جربة - وهي على الجزء الجنوبي من خليج قابس - كان هناك موضع لها اسمه اتيجان بجانب شجرة الخروب القبلية كذلك كانوا يذهبون إلى المسجد الكبير^(٣).

مسجد الخمس : لتأدية الصلوات الخمس دون الجمعة.

الخلوة : وهي موجودة بوفرة في جنوب قابس وفي جبال مطماطة وجبال الظاهر وجبال طباقا^(٤) الغار : وجمعها غيران منها ما بين جبل نفوسة وفي جنوب قابس على جبال مطماطة وسهولها وقد ذكر الوسياني^(٥) الكثير منها.

قصر العروسين :

يعتبر قصر العروسين من أبرز المنشآت في قابس وأوضح المعالم المعمارية فيها. ذكر ابن خلدون^(٦)، أن مؤسس هذا القصر هو الأمير رافع بن مكي بن كامل بن جامع الرياحي ثاني أمراء بني جامع الذين حكموا قابس (٤٨٩هـ - ٥٥٥هـ) ، ثم ذكر في موضع آخر أن مؤسسه هو رشيد بن كامل ، ويتفق معه التجاني^(٧)، في ذلك حيث قال "وأهل قابس ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع فرافع بن جامع أحق من تملكها منهم".

يقصد مدينة قابس ، وقد قرأ التجاني^(٨)، نقشا على أحد أبواب هذا القصر موضوعا على حجر يقول "أمر بفعل هذا الباب الأمير الشهم رافع ابن أمير الأمراء مكي بن جامع ، في رجب سنة ٥٠٠هـ فإن ما يذكره أهل قابس من أن رشيد هو الذي ابتناه صحيح فيكون هذا الباب خاصة هو الذي أمر ببناؤه رافع بن مكي ، وأخبرني بعض الطلبة من أهلها^(٩)، أن وقفة لبعض المؤرخين على أن صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانها وانتهوا به لتدر ثلثه فأتته بنو جامع الهلاليون^(١٠)، لقد ضنت علينا المصادر بذكر تكوينات هذا القصر المعمارية وتخطيطه وزخارفه فإن كان من المرجح أنه بدئ في بنيته على أيدي أحد الأمراء الصنهاجيين خاصة التجاني^(١١)، يلفت النظر إلى تشابه أيام هذا القصر وما حوله والمنار مع ما أنشأ بنو حماد في القلعة فإن ذلك يؤكد أنهم مكثوا في قابس حينما قبل انفصالهم وتكوينهم لدولة بني حماد وذلك قد يدل على أن

(١) عثمان الكعك : الحضارة في حوض البحر المتوسط - ص ٥٦ - ط القاهرة - ١٣٨٥م / ١٩٦٥م.

(٢) الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن تحلف - عاش في القرن السابع الهجري) : طبقات مشايخ

المغرب - ج ١ - ص ٤.

(٣) المصدر السابق - ج ١ - ص ١٥.

(٤) الوسياني : السير مخطوط ورقة ١٨ - ٤٧ وفي أماكن كثيرة.

(٥) المصدر السابق نفس الصفحات.

(٦) العبر : ج ٦ ص ١٥٩ ، ص ١٦٠.

(٧) الرحلة ص ٤٩ ، ٩٥.

(٨) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٩) نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(١٠) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦١ هذا يؤكد أن القبائل الهلالية كان لها سلبات وإيجابيات برغم كل ما ذكر عما أحنته من الدمار

للتجارة الرحلة ص ٩٤.

(١١) انظر عبد الحليم عويس بنو حماد ط القاهرة ص ٣٩ وانظر المرزوقي ص ٧٦.

تكوينات قصر العروسين في قابس تتشابه مع قصور قلعة بني حماد^(١)، ووصف على بن حماد الشاعر الصنهاجي في قصيدة رثاء معالم قلعة بني حماد معالمها فقال :

أين العروسان^(٢)، لا رسم ولا طلل^(٣)، وابن شابه منه القادة الأول
ومجلس القوم قد هب الزمان له، بحادث قل فيه الحادث الجلل
وما رسوم (المنار) اليوم مائله، لكنها خبر يجري بها المثل

وفي قصيدة أخرى:

وقد قام (المنار) على ذراها^(٤)، كما قام (العروس) أو الأمير
بناء يزدرى إيوان كسري، لديه والخورنق والسدير^(٥)

يتضح من هذه الأبيات أن هذا القصر كان على درجة عالية من الترف والزينة والبذخ وتحصينه كان شديدا ، وقد رآه التجاني^(٦)، في أوائل القرن الثامن الهجري وقد دبت فيه الشيخوخة أو يقول : "ويمقرية من هذا الجامع قصبة قابس ، وبها المبنى المشتهر المعروف بالعروسين الذي لا يري ، وقد استولى الخراب في وقتنا هذا على القصبة وعليه" وعلى هذا الكلام من المرجح أن يكون موقع هذا القصر وقصبة قابس كانا بجانب سوق المنزل من الجهة المقابلة للمسجد الجامع^(٧)، الذي كان يطل على بطحاء وقابس التي تغني بها الشعراء^(٨)، أي أنها كانت في سرّة قابس مما يجعلنا نتخيل القصبة وقصر العروسين ، في مقابل المسجد الجامع يطلان على بطحاء واسعة في قلب المدينة وهذا من ناحية موضعه أي قلب مدينة قابس كما أشار التجاني^(٩)، لرياض هذا القصر المنسوب لأمرأى بني جامع وقد نزل هو بثكنته أو محلته العسكرية التي جاء معها" ومنه يوم الأحد إلى قابس منزلنا برياضها المنسوب إلى عروسيها^(١٠). من حيث التخطيط فإن حديث ابن خلدون^(١١)، والتجاني^(١٢) إلى جانب هذه الأبيات الشعرية التي ذكرت استقينا منها أنه كان قصرا فخما واسعا قوي التحصين يشبه قصور النعمان الأكبر وأنه كان يفوق إيوان كسري^(١٣).

وقد قارنت الباحثة هذا الحديث مع ما أسفرت عنه الحفريات التي قام به الأثريون^(١٤) في منطقة القلعة لمعرفة أثار قصورها التي تشبه قصور بني جامع الهلاليين في قابس. ومما يلفت النظر

(١) المصدر السابق نفس الصفحات.

(٢) المروسان أو المروس تعلى الأمير وقد فر الشاعر ذلك في بيت شعر لاحق.

(٣) الرسم ما كان لاصقا بالأرض وطلل الدار تقال موضع من صحتها لمجالس أهلها - انظر بن المنصور لسان العرب ج ٢ ص ٢٦٧٩.

(٤) ذراها تعني فروة وجمعها ذري وهي أعلى الشيء وهذا يعنى علو المنار علوا شامقا المصدر السابق نفس الجزء ص ٣٧٢٣.

(٥) نفس المصدر والجزء.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

(٧) أشار لذلك المرزوقي ص ٢٨ وكما ذكر سالقا.

(٨) قال ليها أبو عبد الله محمد بن المطار القرطبي شعر :

لهني على طيب ليالي
خلت بجانب البطحاء من قابس.

انظر التجاني ص ١٧٦.

(٩) المصدر السابق نفس الصفحة.

(١٠) نفس المصدر : وانظر بروتشيفيك تاريخ أفريقية في العهد الحفصي ج ١ ص ٣٤٤.

(١١) المعبر : ج ٦ ص ١٦٠-١٦١.

(١٢) الرحلة ص ١٠١ - ١٠٣.

(١٣) على حد وصفه الشاعر في هذه القصيدة.

كلمة العروس أو العروسان بمعنى أمير أو أميران لم تكن مستعملة فقط في قصور قابس وقلة بني حماد بل وجد في رقادة قصر العروس الذي بناه الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلب إلى جانب قصور أخرى وجامع وأسواق وأجري لها المياه فبني صهريجاً ضخماً طوله خمسمائة ذراع في أربع مائة وأخري عليه ساقية وسماه البحر. وبني بالقرب منه قصراً سماه قصر العروس على أربع طبقات، وانفق عليه مائتي ألف دينار^(١)، وهذا القصر من أجمل ما بناه الأغالب إلى جانب الأربطة. ونستدل مما سبق أن كلمة قصر العروس أو الأمير كانت تدل على التحصين^(٢)، والفخامة عن تحصين تلك القصور أي حصن العروسان أو حصن الأميران أو الأمراء.

لقد كان الفن المعماري أو الهندسة المعمارية أشهر ما عرف من نواحي التقدم في إفريقية، فعبّر كثير من القصور والمساجد التي أبدعت الحضارة العربية في تشييدها، أثبتت الحفريات التي قام بها "بلانش وبيليه وفولغان"، مدى التقدم الذي أحرزه الحماديون في هذا الفن^(٣).

وفضلاً عن الشروط التي كان البربر يوفرونها في الموقع الذي يختارونه لبناء مدنها، من ضرورة توفر مياه الشرب، وكثرة العيون الجارية، وإشراف المدينة على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد^(٤)، ومراعاة أن يوفر المكان للعاصمة قدراً من الحماية الذاتية... فضلاً عن ذلك فقد كانوا يراعون في تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة، ويستحسن أن تكون العيون في الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل بعد ذلك بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل^(٥).

ومن الملاحظ في تخطيطات الحماديين للمدن اهتمامهم بتخصيص أماكن للأسواق، واهتمامهم بالبساتين المحيطة بالقصور، والحدائق العامة^(٦)، فضلاً عن الجداول والأنهار التي

(١) Comme : De Beylier : Kalaa de benihammad : Alger, 1^{er} edit, P.31

Golvin : le Maghreb Central à l'époque des Zirides, Alger. 195 P 97.

(٢) وكان الخليفة عبيد الله بن المهدي بقوله رأيت عدة أشياء يأتي بقية لم أرها على المشرق منها هذه القصر

تنظر حسن حسين عبد اللوهاب لخصاص تاريخ تونس ط الدار التونسية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ص ٩٤.

(٣) ترجع الباحثة أن كلمة قصر هنا تدل على الدار أو سكنى الأمراء وتدل أيضاً على التحصين بمعنى قلعة أو بناء عالي به أبراج. في ذلك أنظر سيد عبد العزيز سالم القصور والمساجد في الأندلس ص ١٧٢، وفريد شاملي العمارة الإسلامية في مصر ص ٣٧٥.

(٤) كان الكاتب الفرنسي Ferand الذي عرف بالدراسات التي تناول فيها عدداً من مدن ولاية قسطنطينة، أول من وجه الاهتمام إلى القيمة الأثرية لخرائب مدينة القلعة، كما كان Blanchet أول من خطرت له فكرة التنقيب في آثار القلعة وقد قام هذا العالم بعملات للحفر استغرقت أسبوعاً كانت موضع دراسة نشرها في مجلة جمعية الحفريات بقسطنطينة في سنة ١٨٨٩، ص ٩٧. وكان بلا شك، يلوي مواصلة التنقيب ولكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ مشروعه. وبعد ذلك بخمس سنوات قام A. Tobert بنشر وصف لأثار مدينة بني حماد المنشورة، ثم قام الجنرال De Beylier في سنة ١٩٠٨ بمساعدة المستشرق جورج مارسيس G. Marçais بسلسلة من أعمال الحفر استغرقت حوالي ثلاثة أشهر كان يستخدم فيها ٨٠ عاملاً. ولحن مدبلون لهذا الملقب بكتاب:

La Kalaa des Beni Hammad, une capitale de l'Afrique du Nord du XI siècle

وفي سنة ١٩٥١، استأنف Golvin أعمال الحفر وضمن نتائج اكتشافاته كتابه المعروف : Le Maghreb central à l'époque des Zirides, Alger 1957. ولم يكتمل التنقيب بسبب اضطراب الأمن. انظر :

إسماعيل العربي عواصم بني زيري ط بيروت ١٤٠٤هـ ص ٣٠ ومايلها.

(٥) مجلة الأصالة، عدد ذي الحجة ١٣٩١، مقال الأستاذ عبد القادر الحليمي بجامعة الجزائر عن "أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر" ص ٨٠.

(٦) المرجع السابق نفس الصفحات.

(٧) تنظر الكيلاني موجز التاريخ العام للجزائر ط ١ - ص ٢٦٢.

كانت تخترق المدينة^(١)، ويبدو أن أحياء أرستقراطية خاصة كانت تقام في داخل المدينة تسكنها الطبقة الحاكمة وأتباعها ، ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية ، كما أن مدنا من جهة بعيدة عن الشمال^(٢).

وفي الطرف الشرقي للمدينة ، على المنحدر الذي يشرف على وادي فرج تقع خرائب المنار. وفي الغرب كان يقوم قصر السلام ، وفي الشمال الغربي ، قصر الكوكب ، الذي سيحمل قصر آخر اسمه في بجاية ، وفي الشمال الشرقي كان يقف قصر الأمراء. وهذا القصر الأخير يشتمل على ثلاث قاعات يرجح أنها كانت تعلو كل واحدة منهما قبة : اثنتان منهما متوسطتا الاتساع وتفضيان إلى بلاط يقع في الجهة الغربية ، ويرجح أنهما كانتا مخصصتين للاستقبالات الرسمية وأما القاعة الثالثة التي تتوسطهما ، فهي فسيحة وتبلغ سعتها حوالي ١٩ مترا طولا ، في عرض ١٥ مترا ، ويرى جورج مارسى أنها هي قاعة العرش^(٣).

ووجدوا العديد من الروايات وقد امتلأ القصر بالرخام والفسيفساء البديعة وكذلك قصر العروسين ، فمن المؤكد أنه كان بهذا الوصف والزخارف المتعلقة به كالرسم والنحت والحفر والنقش^(٤) كما كان في المقدمة الشرقية "الحامية ومليت الحاجب ودار العدل أو القضاء ويوازىها بناية أخرى للاستقبالات الرسمية تشتمل على القاعات التي عليها قبب عديدة.

وهذا يفسر تشبيه الشاعر أنه كالسدير. وفي شمال بنايات القصر عدد من القاعات الصغيرة المفروشة بالآجر وتفضي إليها قنوات الماء. ويستنتج من وضعها أنها كانت حمامات الأمراء. أما القسم الذي يمتد من الجنوب إلى الجنوب الغربي من هذه المباني فهي مسقوفة بالقرميد ومحاطة بحدائق واسعة تخترقها ممرات عديدة.

والملاحظ من الوجهة التاريخية أن دار البحر ، وهو من أهم قصور بني حماد ، قد بني في فترة بين سر من رأي وقصر الحمراء الأندلس. وهو إذ يختلف عن هذين القصرين في طرازه المعماري ، فإنه يشبههما في التصميم العام من حيث إنه يحتوي على مجموعة من البنايات التي تضم مختلف المصالح ، وعلى الحدائق والصحاريح التي كانت دائما تلعب دورا هاما في القصور الإسلامية. وكل من القصور الثلاثة تحتوي على قاعات فسيحة تسود فيها المعماري مظاهر الأبهة والترف الزخرفي ، كما تحتوي على غرف ضيقة للاستعمال الشخصي. ودار البحر ، مثل الحمراء ، يشتمل على حمامات تابعة لمساكن الأمراء. وقد قام جورج مارسى بدراسة بعض النماذج الفنية لآثار دار البحر ضمنها كتابه عن تاريخ الفن الإسلامي وخرج من هذه الدراسة القيمة بالنتيجة التالية :

"ليس من التكرار أن نقول أن الجزائر تملك بدار البحر وتوابعه واحدا من القصور الإسلامية الكاملة وواحدا من القصور التي عرف تاريخها جيدا ، وواحدا من القصور التي أدخل عليها الأقل من الإصلاحات"^(٥).

وأما قصر المنار الذي لا يزال قبوه الهائل يمثل لنا عظمة هذه الآثار وجلالها ، فقد عثر من بين أنقاضه على نموذج من التتميق المعروف باسم "خلايا النحل" وهو عبارة عن قطعة من

(١) لا زال هذا الطابع موجودا ، ارتفاعا ، وتوفيرا لليساتين ، والجداول الصغرى.

(٢) انظر إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ص ٣٥.

وانظر سيد عبد العزيز مالم : روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر المجلة عدد (٢٩) ١٢٧٨م - ١٩٥٩م.

(٣) انظر أبحاث: ديبلية De Béliet عن كلمة بني حماد وانظر إسماعيل العربي: عواصم بني زيري ص ٣٥.

(٤) انظر كاتالوج بجاية صفحات ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥١ (نماذج من فن الزخرفة والتصوير والرسم والنحت)، وانظر La .

Kalaa Des Beni Hammad, P: After 86.

(٥) راجع : إسماعيل العربي عواصم بني زيري ص ٣٥ وما يليها

Et, G. Marçais, Manuel de l'art musulman, P. 124.

الحجر طولها ١ متر في عرض ٦٠ سنتيمترا ، والمعروف أن أقدم أثر يمثل هذا الزخرف في الفن الإسلامي ، هو قطعة صغيرة وجدت بجامع الأقرم في القاهرة. ولما كان تاريخ هذا المسجد يرجع إلى سنة ٥١٩ هـ. فإن ظهور هذا الزخرف في قصور القلعة التي بنيت في أواخر القرن الرابع ، حدث ذو أهمية بالغة في تاريخ الفن المعماري الإسلامي.

ومن الثابت أيضا أن الأكواس النصفية ، والزخرف ذا البريق المعدني والصيني الأزرق والأبيض المنمق بالصليب والنجوم ذوات ثمانية أضلاع ، والمرمر المنحوت والمصبوغ ، كلها كانت موجودة في قصور القلعة عدة قرون قبل أن تظهر في قصور الحمراء بالأندلس.

أن قصر العروسين الذي نسب بناؤه إلى بني جامع إلى جانب مقولة سمعها التجاني^(١)، من أهل قابس أن صنهاجة هم أول من بناه وأكمله بنو جامع وأن المتشابهات التي بين هذا القصر وبين قصور بني حماد في القلعة لتدل على وحدة الفن الإسلامي في تلك الفترة ويدل على ذلك وجود نفس هذا الفن الإسلامي في قصور صقلية^(٢).

إن هذا الأثر ملحوظ في مواد البناء وفي تصميم القصور وفي دعائم البناء وفي الزخرفة وكذلك في الأهمية الكبرى التي منحها نورمانيو صقلية وصنهاجيو المغرب للحدائق الغناء والمياه الجارية. وكذلك في البناء بالأحجار ومن حيث التصميم والأبواب النائية والقاعات المربعة والمستطيلة وجذوع الأعمدة وتيجانها والأكواس والغاب الكثيرة المتواصلة أما من حيث الزخرفة فكانت مثل زخرفة قصور بني حماد التي هي مثل قصر العروسين بقابس فاستعملوا فيها الرخام والحجر والآجر والبلاطات الخزفية ومعجون المرمر والجبس المنقوشين وكانت الأشكال الزخرفية على هيئة أقواس متشابكة وأخرى تصف دائرية وقياب ذات خروم .. واستعملوا الزخرفة النباتية على هيئة ساق ملتف حولها غصون وزخرفه على هيئة زهور وفواكه كذلك استعملوا الزخرفة^(٣)، الهندسية كاللوائير والأشكال المتعددة الأضلاع وغيرها.

ساحة القصر :

ذكر البكري^(٤)، قصة الطائر الغريب الذي لا يحترق في النار وجعل له مشعل نار في ساحة القصر والطائر يتحرك في النار دون أن يتأثر وهذه الساحة كانت متسعة ورحبية وقد اتسعت لمن حضر من العرب والبربر وغيرهم ليشاهدوا هذا الطائر الغريب ، والساحة كعنصر معماري يعتبر عنصرا قديما^(٥).

رياض القصر :

أشار التجاني لرياض القصر المنسوب لأمرأ بني جامع وقد نزل فيها هو وثكنته أو محلته العسكرية التي جاء معها بأكملها ، ومن يوم الأحد إلى قابس ننزلنا بأنها المنسوب إلى عروسها مما يدل على اتساعها ومساحتها الشاسعة وذكر ابن شاهنشاه^(٦) بساتين الحمامة^(٧)

(١) الرحلة ص ٩٦.

(٢) النورمانديون استوطنوا صقلية والتي استعانوا من يد المسلمين مدينة مين في عام ١٠٦١ م ، ثم استولوا على باليرمو ثم تعبر عشرون عاما على كل صقلية وقد عاملوا المسلمين بالحنسلى واقتبسوا منها الكثير من التقاليد والمعدات ونوا قصور القبة وقصر العزيزة وقصر المنار على لمط قصور القلعة وقابس.

(٣) تفاصيل أكثر انظر رشيد بورويبة : أثر الفن المعماري الصنهاجي في بناء النورماندين بصقلية ترجمة حنلي بن عيسى ط الجزائر.

وانظر L. Marçais l'archdechure musulman d'occident PP. 118 - 127.

(٤) البكري : الممالك ج ٢ ص ٦٦٧.

(٥) فقد حفلات القصور القديمة بالساحة أو الصحن أو الحوش مثل قصور امحتطب الثالث ثم قصور الأمويين بالشام وقصور آشور الفارسية.

(٦) انظر : مجلة عالم البناء - لتطور التاريخي لقاهرة الحوش في العمار، عدد ١٠، ١٩٩٩ م ص ١٨.

(٧) محمد بن تقي الدين بن عمر ابن شاهنشاه الأيوبي زين : مضممار الحقائق وسر الحقائق : تحقيق حسن حبشي ط القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ص ١٦٦.

المجاورة للقصر والقصبة وقد وصفها الشاعر بأنها الروضات الزاهرات الخمائيل وأنه كان يسمع الطيور وهي تغدو تجاوب في الغصون الموائل. وأنه كان بها عين السلام قاعات القصر. من المخطط الذي رسمه الأثريين يتضح أنه كان للقصر بهو واسع أو قاعة كبيرة اسمها قاعة العرش ووجدت قاعات على يسارها ويمينها وكلها عليها قباب تشرف عليها ويقول الشاعر وهو يري القصر من بعد ، القباب المشرفات بأفقه كالنجوم التي بدت في صعود المنازل بمعني القصور^(١).

وقد بني بنو مكي في القرن الثامن من الهجرة (عندما حكموا قابس) في قلب المدينة ، قصرهم المجاور للجامع الكبير ذي المنارة العالية والشديدة الاتحاء وسط الساحة الشهيرة والفسيحة المعروفة باسم البطحاء^(٢)، ويخبرنا التجاني^(٣)، ثم توجهنا إلى قابس وهذه خطوطنا الثانية إليها. منزل الجيش بخارجها ودخلنا نحن مع مخدومنا^(٤)، إلى داخل البلد بالدار الكبرى^(٥)، التي اعتنى ببنائها الشيخ ، الفقيه أبو مروان وابن مكي رحمه الله^(٦)، وهي في غاية الفخامة والاحتفال وغير قليل ما أنفق عليها من الأموال^(٧)، فهي للاجتماع وفيها محل يتسع اتساعا كبيرا وله قبة ضخمة تعلوه ، ومن وصف التجاني يتضح لنا أنها كانت مبنية من الأحجار الضخمة بحيث أنها بقيت صامدة عندما ضربت بالمنجنيق فقد رأي التجاني^(٨)، آثاره على هيئة طرق متسع في وسط الحائط الذي في فنيينها الكبرى ، ويبدو أن هذه الدار الجديدة كانت بعدما أصبح قصرا لعروسين متروكا وعنوانا لعهد مضى^(٩).

القصبة :

والقصبة حصن حصين كما أوضح البكري^(١٠)، والقصبة اسم مفرد لكلمة قصاب بمعنى الديار وفي كتب الرحالة نجد أنها تستعمل مكان القلعة : والقلعة هي الحصن الممتنع في جبل . وربما كانت كالمسجد الجامع ومثل الدار ومثل البيت منفردة صعبة لا ترتقي^(١١)، ويوجد معنى آخر يعطي أهمية سياسية لكلمة قصبة - فخلال العصر الأغلب أصبحت قابس المنطقة ومقرا للولاية^(١٢).

(١) انظر معجم البلدان : الحمامة كانت فيما سلف ماء لين سليم وقد تكون ذلك إشارة إلى أن البساتين ملك لبني جامع وهم من بني سليم. ياقوت ج ٢ ص ٢٩٩.

(٢) انظر إسماعيل العربي : عولصم ص ٤٥.

(٣) التجاني ص ١٧٨ ، وانظر بروشنيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، ج ١ ، ص ٢٤٤.

(٤) رحلة : ص ٨٨.

(٥) ويقصد الخليفة الحفصي وفرقة العسكرية الذي كان للتجاني ضمنها..

(٦) دور : جمع دار اسم جمع لموضع بناء ، وكل موضوع خل به قوم فهو دارهم والحديث " ألا أنبئكم بخير دور الأنصار؟ دور بني النجار ثم دور بني الأشهل ، وفي كل دور الأنصار خير والدور جمع دار وهي المنازل المسكونة. انظر : ابن منظور ،

لسان العرب ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥٢.

(٧) الوالي الحفصي على قابس / التجاني : نفس الصفحة.

(٨) التجاني ، ص ١٧٨.

(٩) نفس المصدر والصفحة.

(١٠) انظر براشنيك ، نفس الجزء والصفحة.

(١١) المسالك ج ٢ ص ٦٦٧ وملطقة قابس قيمة في التحصين فقد ذكر ديل Dichl عن قلعة به على ملتقى ثلاث طرق

L'afrique Byzantine P. 297.

(١٢) ابن منظور : لسان العرب - ج ٥ - ص ٣٦٤١ ، ص ٣٧٢٣ - القاهرة - ط ٢.

(١٣) دائرة المعارف الإسلامية للترجمة : Encyclopaedia de L'islam-V. IV. P 1976 - Kabis - 1978.

(وكلمة قصبة قديمة في منطقة قابس فقد وجدت لوحة تشير القصبات بالقرب من قابس وبها زنجيان يركبان جمليهما^(١)).

والقصبة تعتبر مدينة قوية محكمة فيها الإدارة لأن قصر العروسين كان لبني جامع الذين حكموا قابس فيما بين أعوام بعد ٤٨٠ هـ إلى ٥٥٥ هـ وكانت أيامهم مزدهرة وخصبة^(٢)، وجاء وصف عن مكانها وهذه القلعة بالقرب من جهة مطماطة ومن نفاذها^(٣).

الحصن من حولها بالجبل أو الحصن المنيع وقد شبه قراقوش الأرمني الجبل الذي يقرب القلعة بالمنار أو بالحصن المنيع^(٤).

والقصبة هي نواة المدينة أي أنها الجزء المركزي فيها ، وفيها تدار المدينة لذلك كان فيها دار الإمارة أو مقر الحاكم ثم أعدوا لتحسينها تحصيناً خاصاً ، لتكون المعقل الأخير للحاكم ، وقد أشار التجاني^(٥)، إلى أن القصبة وقصر العروسين يتشابهان مع مباني قلعة بني حماد ، أو أنه وجد أنها يحملان نفس الملامح والأسماء مما يدل على أن قصبة قابس كانت مثل قلعة بني حماد قلعة محكمة متكاملة من حيث منشأتها وتحصيناتها وقد احتوت على الكثير من الأبراج واتبعت الأشكال الهندسية القيمة^(٦)، ومن الجائز أنها قد ضمنت معقلاً لإيواء الخاصة وبرجا محصناً ومناراً عالياً وداراً لسك النقود^(٧)، وكل ما يمكن أن يكون في قلعة بني حماد وكان لقصر العروسين دور تاريخي هام ، فقد كان في العصر الإسلامي معقلاً لكل من تملك قابس كابناني المعز بن باديس^(٨)، ثم بني جامع ، ثم طردهم الموحدون ، والرسالة رقم ثلاثين^(٩)، من رسائلهم تصف قلعة القصر ، (أو قصبته) عندما هاجموا قراقوش الأرمني وجيشه وبنيه وأهله المعتصمين بها ، فتحصنوا بقصبة به (أي قابس) منيعة الجوانب^(١٠)، سامية المراقب^(١١)، مستعصية على المنازل لها والمحارب ، واجمعوا على الاستماتة فيها ، فاحاطت بهم أجناد الله من جميع جهاتها ونواحها ، واستنزلوا منها.

ليس لدينا تفصيلات واضحة عن بناء تخطيط القلعة والقصر في قابس لكنه منذ العصر الأموي والعصر العباس الأول كان لكلمة قصر حصن الحصن أو المكان الحصين وقد ظلت كلمة قصر تحمل معنى الحصن أو القلعة^(١٢)، في كل العصور التي قلت بعد ذلك وفي كل

(١) المنجي النيفر : الحضارة التونسية من خلال السنين - ص ٤٢ - الشركة التونسية للتوزيع - ط ١.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحات ، المرزوقي قابس .. ص ٤١ - ٨١.

(٣) ابن شاهنشاه : مضمحل الحقائق ... ص ١٦٧.

(٤) لما أعياه الاستيلاء على قابس لمناعتها وتحصنها فكر مع جيشه في عمل كمين لينزوها مستخدماً الجبل والحصن. وقراقوش هو مملوك لقي ابن الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي .

انظر المصدر السابق ص ١٦٥-١٦٦.

(٥) الرحلة ص ١٢٦.

(٦) البيزنطية حيث كما هو مذكور سابقاً أن كلها وريثة التحصينات الرومانية البيزنطية مع التطور على النمط الإسلامي أو التونسي. انظر سالم بوحوش .. ج ٢ ص ٦٠١.

(٧) لقد صورت الباحثة دناير ذمبية مسكوكة في قابس للامير رشيد من جامع وهي من العملات النادرة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

(٨) هناك احتمال أنه هم الذين بدأوا بناءه لأن التجاني قال : إن صنهاجة بدأت الميناء وأكملة بنو جامع.

(٩) رسائل موحدية ص ١٨٩.

(١٠) أي ذات حصن حصين ولها جدران سميكة مرتفعة.

(١١) سامية المراقب أي لها أبراج للمراقبة بأعلامها وهذه المبررات تدل على مقالة البناء والتحصين.

(١٢) فريد شامي : العمارة العربية ط الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ص ٥١٨ - ٦١٢.

الأقطار الإسلامية مثل كل الحصون التي شيدها الأغلبية على السواحل في إفريقية مثل قصر منسيتر وقصر سوسه وغيرها^(١)، وخاصة على خليج قابس ثم جاء الفاطميون فكان مدينتهم المهدية ومقرها أعظم مثل في التحصين في إفريقية ، كالإحاطة بالجدران القوية المدعمة بالأبراج العظيمة وقد زودت هذه الجدران بأنواع البدع المعمارية للدفاع مثل الشرفات والمزاغل والسقاطات وغيرها^(٢).

كذلك في الأندلس وحصونها وتتميز أغلب المدن التي شيدها المسلمون فيها بصفات حربية بحتة مما يدل على أنها أسست للدفاع عن المناطق المحيطة بها ومما يعبر عن ذلك أنها عملت أسماء تدل على هذه الصفات مثل قلعة جابر والعلية وقلعة أيوم وغيرها^(٣). ومن أهم القلاع في العصر الإسلامي قلعة دمشق وقلعة الجبل التي شيدها صلاح الدين الأيوبي^(٤).

الأسواق:

لما كانت قابس مدينة صحراوية تجارية يفضل موقعها الممتاز لذا كثرت أسواقها أسواقها العامرة الكثيرة فمن ناحية الساحل وجننا أسواقا كثيرة وحركة صادرات وواردات بالمعنى الحديث من ناحية الميناء وفي الأرياض خارج المدينة فقط قيل عنها "جل أسواقها في أرياضها"^(٥)، كذلك وجدت أسواق من ناحية الصحراء حيث إنها مركز للقوافل على جانب الطريق الموصل إلى المشرق وكذلك المغرب مثل أسواق المغرب الأدنى فقد سادت حركة التجارة فيها مثل غيرها فهناك أسواق للأسماك المشهور بها خليجها^(٦)، وأسواق لزيت الزيتون الموجود بكثرة في غاباتها ويعمل منها زيت كثير يجهز بسائر النواحي كذلك التمر الذي لا يشبهه شيء على علوكته وحلاوة مذاقه^(٧)، كذلك اشتهرت قابس بتجارة الحناء^(٨)، تنصب أسواق قابس بصفة تقاضلية بمختلف أنواعها بالقرب من المسجد الجامع^(٩).

(١) الشجاني : المرحلة ص ٧٥ - ٩٥

(٢) سعد زغول عبد الحميد : العمارة والفنون في دولة الإسلام ط الإسكندرية منشأة المعارف ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ج ١ ص ٣٦٦.

(٣) سيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ط الإسكندرية مؤسسة شباب الجامعة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ط ١ ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٤) تتألف هذه القلعة من قسمين أساسيين : القسم الشمالي الشرقي وهو الحصن الحربي على شكل مستطيل مزود بأبراج بارزة ، والقسم الجنوبي الغربي وبه الملحقات من القصور والمساجد والإسطبلات، وقد أحاط صلاح الدين القلعة بسور ضخيم يبلغ سمكه ثلاثة أمتار ويزيد ارتفاعه من الداخل في المتوسط على عشرة أمتار كما يزيد ارتفاع الأبراج على عشرين مترا. وبعض هذه الأبراج له مسقط دائري والبعض الآخر يأخذ مسقطه شكل ثلاثة أرباع دائرة. وهذا النوع الأخير يقع في وادي جدران القلعة وقد زودت هذه الأبراج بحجرات داخلية بها فتحات للسهم. إن وصف هذه القلعة بهذا الشكل يعطينا انطباعا بأن قلعة قابس أو قصبتها لا تبعد عن هذه التفاصيل كثيرا ، وهذا من المرجح.

انظر مجلة البناء عدد ١٠ ص ٢٠ القاهرة.

(٥) الإنريسي : ج ٢ ص ٢٨٩.

(٦) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٧) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٨) القلقشندي : اسمه أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب الشافعي البجيري : ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م ممثلة المأثورات العينية عدد ٣٥ صبح الأعش في صناعة الإنشا ط القاهرة ط ١ ج ٥ ص ١٦١.

(٩) الناصر البقلاوي : العمارة التقليدية في الجنوب التونسي مجلة المؤثرات الشعبية عدد ٣٥ ص ٢٦.

تنصب سوق الحيوان في ساحة كبرى في قابس يجتمع فيها بائعو الإبل والأغنام ونوات الحوافر وقد أشار الوسياني^(١)، إلى أسواق كثيرة وتجارة رابحة ذات أهمية كبرى في سوق الجمال في جنوب قابس عند مراكز القوافل حيث تباع وتشترى أجود أنواع الجمال التي تشتهر بها قابس وما حولها بتهجينها وبيعها وهي سوق رائجة نظرا لأن قابس مركز قوافل صحراوي ويستعان بهذه الجمال لقوافل الحج والتجارة وكذلك أشار الثجاني^(٢) إلى سوق كبيرة للحرير في قصر سجة وأسواق الميناء أو المرفأ حيث الصادرات والواردات^(٣) وفي الأسواق الرئيسية في أرباض قابس وخارجها "جل أسواقها في أرباضها"^(٤).

كذلك توجد أسواق قبلي قابس في تلبو وزريق^(٥) والحامة وهي من الجهة الغربية من قابس^(٦) أو حامة مطماطة. السوق هو موضع البياعات والجمع أسواق وفي التزليل إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وفي حديث الجمعة إذا جاءت سوق أي تجارة وتصير في السوق سميت بها لأنها جلبت إليها وبدأت فكرة تحديد موقع محدد للسوق عندما اختار النبي عليه الصلاة والسلام منطقة ربع الزبير الغربية من مسجد المدينة لتكون له مقرا حيث روى أنه قال: هذا سوقكم ليس له أن يبنى أو يملك ، ولا ضرائب تجبي عليه^(٧).

ثم تغير موقع السوق إلى هو معروف اليوم بالمتاجر وقال الخليفة عمر بن الخطاب الأسواق على المساجد: من سبق إلى مقعده فليقعد حتى يقوم إلى بيته أو يفرغ من بيعه^(٨). والأسواق لها مصطلحات كثيرة منها القيسارية أو السوق المغطي ولعلها محرفة عن الكلمة اللاتينية Caesera حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لبضائعهم وتكثر حجراتها^(٩) يروي البكري^(١٠) أن القيروان كانت بها سوق معروفة وأن الخليفة هشام بن عبد الملك قد أمر بترميمها وتأسيسها عام ١٠٥هـ - ٧٢٤م ، وكان سطحها متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات ونظمه يزيد بن حاتم إذ كانت مقرا لكل أهل الحرف^(١١). أما في باقي إفريقية فقد كانت الأسواق منسقة متشابهة فقد صممت الدكاكين بنفس الأسلوب.

في القيروان كان عبارة عن صف متصل على الجانبين ، يصل بينهما ممر معتود السقف بالأجر أو الحجارة ، وتوجد مصطبة ممتدة على كل رصيف يجلس عليه المشترون. انقسمت تلك الأسواق إلى قسمين - أحدهما للصناعات اليدوية يعمل أصحابها بتحويل الخام إلى مصنوعات. والآخر على هيئة أسواق للبيع وعرض المصنوعات والسلع المتعددة سواء من دور

(١) السير مخطوط ورق ٤٨ وانظر المرزوقي ص ٩٥.

(٢) الرحلة ص ٨٧ وما يليها.

(٣) المصدران السابقان نفس الصفحات.

(٤) البكري ج ٢ ص ٦٦٧ الثجاني : الرحلة ص ٨٧ وما يليها والإدريسي ج ٢ ص ٢٨٩.

(٥) أنظر المرزوقي في قابس ص ٩٩ ومما قرئ في لحواظ قابس.

(٦) الثجاني نفس للصفحات.

(٧) ابن منظور : لسان العرب ج ٣ ص ٢١٥٤.

(٨) محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية ص ٢٥٣.

(٩) صالح الهللود : التحكم في استعمالات الأراضي في المدينة العربية من ندوة أنتر لعنوان : الإسكان في المدينة الإسلامية ط

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ص ١٨٩ وما يليها.

(١٠) المسالك: ج ١ ص ٦٧٧.

(١١) الهللود مرجع السابق ص ١٨٣ وما يليها.

الصناعة القريبية أو المجاورة من الخارج^(١). كذلك وجد نوع من القيسارية اسمه الطباق (مفرده طبقة)، عبارة عن حجرة نوم ملحق بها مرحاض ليسكن بها من يحتاجها وكانت هذه الطباقات تدر دخلا إضافيا على مالك القيسارية^(٢).

ولا ننسى الخان :

كلمة خان تعود بجذورها التاريخية إلى الأصل الآرامي ، وتعني بالتركية دار العمل والتجارة وجمعها خانات ، وتعني بالفارسية الحانوت أو الدكان وقد أضيف لها حرف الهاء فأصبحت خانة، وذكر منزل تساوي في المعنى المخازن الكبرى حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة وغيرها من البضائع. وكان الخان يبنى خارج المدينة أو داخلها وفي خارجها ، يكون على هيئة مربع أو مستطيل مدعم بأبراج نصف دائرية في الأضلاع ويكون له مدخل واحد لحماية التجار وسلعهم.

يتألف المبنى في داخله من عدة طوابق^(٣) تلتف حول صحن مكشوف في الوسط أما الطابق الأرضي فيتكون من فواصل أو مخازن لحفظ البضاعة ، بينما تعد الطوابق العليا لسكن التجار ، وقد يلحق في وسط الصحن مسجد للصلاة أو مصلى.

وخارج المدينة استعملت الخانات كمحطات استراحة للقوافل التجارية والبريد وقت السلم، كما استعملت كربط للإنذار المبكر للمدينة عند هجوم عدو.

أما الخانات داخل المدينة فقد أوجبتها الضرورة جنبا إلى جنب مع المنشآت التجارية الأخرى. ومن المتعارف عليه أن الخانات كانت لسكن التجار الأجانب وممارسة حياتهم الخاصة.

ويرى المبشر إيفالد أثناء رحلته^(٤) من أفريقية أن سكان الجارة والمترل وهما الحيان الرئيسيان بقابس الآن أن هذه المناطق فيما سلف مخصصة للأسواق المختلفة لبيع منتجات قابس وأحيانا كان البيع بالمقايضات. إن هذا يدل على سعة أسواق قابس وسعة حجمها ومثل أغلب المدن الإسلامية الإفريقية كانت أقرب الأسواق قرب المسجد الجامع. وكانت ذات حجرات طويلة من الأجر فوق أعمدة خفيفة متوازية^(٥).

الوكالة :

وهي مكان النقاء التجاري ومركز تجاري وفندق والوكالة تكون على سور المدينة أما الخان فيكون خارج المدينة والوكالة للإقامة الطويلة.

الربيع :

وهو عبارة عن مبنى من عدة أدوار تخصص أصلا للصناع وأصحاب الحرف وكان الدور الأرضي يحتوي على ورش أو محلات والمرافق والخدمات اللازمة والطابق العلويان

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى - ط القاهرة ملكية الإجلو المصرية ط ١٤٠٤هـ - ١٩٨٦م ص ١٠٣ والسوق القابسية هي القنوم في العصر الروماني حيث كان المركز يحتوي لنشاط السكان حيث يحتوي على ساحة متسعة.

(٢) رلعت موسى: الوكالات والبيوت الإسلامية مجلة الاجتهاد (لبنان) مجلد ٩ عدد ٣٤ إلى ٣٩ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ص ٤٤٦ - ٤٦٣.

(٣) المرجع السابق نفس المكان.

(٤) المبشر إيفالد : رحلة إلى تونس (جلال النصف الثاني للقرن الثاني ١٩م) ص ٧٥.

(٥) أرلست كوتل : الفن الإسلامي ترجمة أحمد موسى ط بيروت ١٣٨٦هـ - ص ١٢٨.

يحتويان على مجموعات مستقلة عن بعضها مكونة كل مجموعة من غرفة إلى اثنتين ودورة مياه ومكان للطعام أو الفسح وتشبه الوكالات إلى حد كبير ويؤدي إليها عادة ممر متصل في أحدها بسلم وآخر يؤدي إلى الشارع وفي أغلب الأحيان كان يحيط بهذا المبنى كله سور متين يفصله عما حوله^(١) وكان الحرفيون يقيمون فيه وقد لا يرجعون إلى منازلهم إلا في الليل^(٢) وكان للمرأة الأفريقية دور كبير في تلك الأمكنة في دور الصناعة أو الربيع^(٣) حيث تشترك فيها كل تلك الأنواع التي ذكرت سالفا وتعتبر وريثة الأسواق المغطاة والبيزنطية على جوانب الساحة Forum مع اختصاص كل سوق بسلعة معينة سواء من حيث البيع والتصنيع مثل سوق الأقمشة Basilicae, Vesliva Lesmarchants des etoffes على سبيل المثال^(٤) وبعد دخول الإسلام أصبح المسجد هو منطقة التحول في دراسة الطبوغرافية التاريخية للمدن الإسلامية^(٥).

ذلك هو المركز الديني للمدينة والذي يعتبر القلب من جسدها المسيطر على حياته الاقتصادية والاجتماعية فقد كانت الحركة التجارية بالقرب منها فأصبحت الساحة أو حول الفضاء بجوار الجامع هي المركز الرئيسي للتجارة في قابس الإسلامية وإلى جانب ما ذكر من أنواع الأسواق كانت توجد الحوانيت التي تغلق بالواح متحركة تربطها مزاليج محكمة وكان يعلوها ظلة مائلة من الخشب أو الحصيرة تقي البائع من حرارة الشمس وما تزال شوارع ودروب قابس تزخر بمثل هذه الحوانيت^(٦) مثلها مثل القيروان وتونس^(٧).

وتحدث ابن خلدون^(٨) عن أنواع من الأسواق موجودة في كل أنحاء المغرب وهي أسواق تقام على حافة الجبال وعلى الطرق الكبيرة عندها وبخاصة عند أشجار الزيتون وهي عبارة عن سوق للمبادلات التجارية بين الجبل والسهل.

هذه الأسواق غالبا ما تكون محاطة بسور قوي وتشتمل على كثير من الدكاكين المقسمة إلى أحياء في وسطها رحبة تدور حولها مخازن وغرف تستعمل كحوانيت ومسجد وهي عبارة عن قبيلة صغيرة تقوم بمقام الشرطة والمحتسب في الوقت نفسه وتقام معرض كبير في الربيع والخريف بجانب الأضرحة التي تجذب أغلب السكان من القبائل الكائنة بالقرب منها ويسمى على اسم كل صاحب ضريح. مثل موجاز سيدي(....)

الحمامات :

ذكر البكري^(٩) أن قابس ذات حمامات كثيرة وتبعه ياقوت^(١٠) لما كانت قابس مدينة تجارية من الدرجة الأولى ومركز القوافل فقد تميزت بكثرة حماماتها. والحمامات دائما تكون بالقرب من المسجد الجامع - والأسواق أما في قابس ففي داخل المدينة وخارجها في الأرياض

(١) مثل وكالة الغوري بالقاهرة أنظر توفيق عبد الجواد تاريخ العمارة ط مكتبة الإيجلو بالقاهرة ط ١ ص ٢.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ط ص ٥٨.

(٣) لم تستعمل هذه الكلمة في أفريقية رغم وجود هذا النوع من المصانع والأسواق.

(٤) Fernand L'afrique Meditteranneenne P. 21 - 29

(٥) سيد عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران .. ص ٥٤-٥٦.

(٦) المرجع السابق نفس الصفحات ، وانظر المرزوقي قابس .. ص ٢٤ وما يليها.

(٧) Revauf-J: L'artrradilionnelen Tunis P. 175 1'edid.

(٨) المقدمة ص ٤٢٤ وأنظر الحسن السائح الحضارة الإسلامية في المغرب دار الثقافة بالدار البيضاء ١٤٠٦هـ - ط ١ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٧.

(٩) المسالك والممالك ج ٢ ص ٦٦٦

(١٠) المعجم ج ٤ ص ٢٨٩ ولم يذكر البكري وكذلك ياقوت اسم أي حمام في قابس

وفي مركز القوافل وفي كل مكان : منذ وصف سترابون لها أنها سوق ^(١) كبيرة. كان الحمام دائما مركزا للاجتماعات والمرح وفرصة لاجتماع الشعراء للمساجلات الشعرية ^(٢). لقد كانت عادة الاستحمام والطهارة للوضوء قبل كل صلاة ومن العادات المتأصلة بعمق في الإسلام وقد خضعت الحمامات للمحتسب لضمان النظافة التامة والطهارة والماء ومنع المنكرات ^(٣).

كان الحمام عبارة عن مبنى مربع يشيد من الأحجار الصلبة وله باب يقفز إلى داخله خلفه فتوجد مزيلة تستخدم في إيقاد النار التي تسخن المياه في الحمام وغالبا ما تكون تلك المياه مستخرجه من بئر قريب من الحمام أو من عين جارية (وقابس مليئة بالعيون والآبار) ^(٤) وفي داخل الحمام يوجد المخلل الذي يؤدي إلى ممر ينتهي بالمشلح أو موضع خلع الثياب وحفظها ^(٥) ثم يتصل المشلح بالحجرة الأولى من الحمام أو قاعة تسمى الحجرة الباردة ومزود بأحواض الماء أو الهواء الساخن عبر أنابيب فخارية في الحوائط آتية من المستوقد وتتصل هذه الحجرة بحجرة أخرى هي بيت الحرارة أو الحجرة الساخنة وهي مزودة بمغطس يبلغ فيه الماء أقصى درجة يتحملها الجسم وأرضيات اللقاعات مفروشة كلها بالرخام لتسهيل تنظيفها كما أن الحجر معقود سقفها بها فتحات تغطيها قطع الزجاج التي تسمح بمرور الضوء الطبيعي دون الهواء ، يوجد المستوقد خلف الحمام بجوار (المزيلة) حيث يتم تسخين المياه في قدور نحاسية كبيرة ثم يملأ الماء عبر أنابيب فخارية ويكون لهذا المستوقد باب خلفي لتزويده بالوقود من حطب وغيره ، استوجب تصميم أحواض الماء والأنابيب والقنوات بطريقة معينة تكفل طهارة الماء ^(٦).

الأحياء:

في أيام الدولة الحفصية وربما من قبلها أصبح في قابس حيان رئيسيان هما حي الجارة وحي المنزل وعلى حسب الينابيع والعيون المائية هذان الحيان كانا نوعين من القرى أو الوحدات الصغيرة المنضمة إلى بعضها إلى جانب واحة شنتي وبذلك كانت الأحياء الرئيسية التي يتضمنها هيكل المدينة ويقع حي الجارة شمال شرق المتزل متصلة بأحد أزرع أو جوانب وادي قابس ^(٧) وسهل مرتفع في وسطه طابية أو قلعة صغيرة قديمة وقد ذكر مارسيه وجيرين ^(٨) أن أغلب أبنية بني جامع الهلالين كانت في منطقة جارة. ومنطقة جارة أكبر قليلا من المنزل وهما الاثنان ^(٩) كانت كل الأبنية فيهما مستخدما فيها الكثير من الأحجار الأثرية وتمتد الجارة والمنزل ^(١٠) كمستطيل أصبح شريطيا (كالشريط بعد توسعاتهم في عصر بني مكي) ^(١١)

(١) Gzell : L' Abriepie romaine, P2.

(٢) فون شاك : الفن الإسلامي العربي. ترجمة مكي ط دار المعارف ط ١ ص ١٨.

(٣) كانت الحمامات قديمة في قابس منذ أيام الرومانية وكان من أشهر حماماتهم حمام هارديات كان على نسق حمامات روما.

أنظر البرغوثي : تاريخ ليبيا - ص ٥٥١.

(٤) الرحلة ص ٩٦.

(٥) نص المحتسب على أن يكون له خلوتان أو أكثر ويضم عدة أو أربعين لكل منها حوض ضخم ، أنظر محمد عبد الستار

عثمان المدينة الإسلامية ص ٢٤٦ و ٢٤٧ وأنظر سعيد عاشور وآخرين دراسات في تاريخ الحضارة ص ٢٩٦.

(٦) ابن خلدون المقدمة ص ٤٢٤.

(٧) تنقسم وادي قابس لفلان نصيب في البحر شمالا ويمينا إلى ذراعين وعدة قنوات تغذي كل منها بنورها مئات مصارف

التي تروي الكثير من المزارع الخصبة والحدائق الغناء التي تتميز بها قابس وأحيانا يحدث له فيضان. وأنظر

Encyclopedia de l'islam Paris 1998, tome (v) 350-355.

(٨) Guerine : Voyage archeologique dans la régence de tiuns

(٩) Marcais. G. : Architecture musulmanne P. 78-79 Gueren: Voyage... P. 189.

والمنزل^(١) كمستطيل أصبح شريطيا (كالشريط بعد توسعاتهم في عصر بني مكي)^(٢) كذلك توجد شنتي ومساحتها أكبر من المنزل والجارة كما يضم هيكل المدينة منطقة زواوه (التي بها قبر الصحابي الجليل أبي لبابة) في الجنوب من قابس^(٣) كما أصبحت منارة قابس المشهورة التي (قال عنها التجاني^(٤)) أنها سقطت. وأصبح مكانها منطقة سكنية تسمى حي المنارة إذ إن قابس كانت تضم تجمعات متقاربة من الأحياء المذكورة سلفا.

تصطف أحياء قابس السكنية على منوال المدينة الإسلامية على جوانب الأسواق في نسيج مستقر وكثيف، مبني على التجاور^(٥) يأتي على شكل وحدات ملتصقة بعضها ببعض تطورت هذه الأحياء أو القرى أو الواحات نظرا لطبيعة وضع قابس كواحة كبيرة وسط أودية أنهار وجداول فنجد أن حي الجارة أصبح فيها منطقة تسمى البلد. ومنطقة الثنية ورفعة الضعفاء ووشاح وجنان بين شرود، والمتزل به رفعة حومه الطلعة وحومة الجزيرة وجنان صلاطات ورفعة براتو وجنان وحومة الأربعين أما شنتي فيها النوايل وغابة دواما وجنان الطلعة والطباري كذلك غابة منطقة نيفات والرازيقة وهذا على سبيل المثال لا الحصر وقد حدث كل هذا التطور العمراني إلى أن سجلته وثيقة وقيات محمد باي المرادي في نهاية القرن السابع عشر الميلادي^(٦).

الشوارع :

كانت المدن الرومانية التي فتحها العرب ذات شوارع واسعة مستقيمة وكان يخرقها عادة شارعان رئيسيان يؤلفان محوري المدينة أحدهما الطريق العظمي Cards Masumus والثاني يعرف باسم Dacumanos المتعاهد عليه^(٧). ويذكر ديل^(٨) Diehl أن مدينة قابس في العصر البيزنطي كان لها ثلاثة شوارع رئيسية تبدأ من أمام كل باب من أبواب قلعتها وكانت هناك طرق فرعية من هذه الشوارع إلى داخل أفريقية غربا إلى قصبة ثم إلى قرطاج وشرقا نحو طرابلس كما كان هناك شارع يؤدي إلى الطريق الساحلي إلى قابس يربط الساحل عند خليج قابس (أو سرت الصغير إلى خليج سرت الكبير) ويلمص إلى طرابلس^(٩) أما الشارع الجنوبي فكان يتصل بالطريق الجبلي العسكر الذي يسير فيه خط توزيع المياه على طول الجبل من قابس إلى ليد^(١٠) وقد ذكر ابن فضل العمري :

(١) Faivre du Paigre : L'mnigation Traditionnelle en Gabes .CT. P. 31.

(٢) التجاني ص ٩٦.

(٣) Guerine : les mme P.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) قد تقوم أحيانا بعض المنازل بسبب الأسواق مثل المنازل بين المتزل والجارة على حق استغلال السوق حتى وقتنا الحالي لكن هذا لا يمنع صفة التجاور بينها أنظر المرزوقي قابس ص ٨ وأنظر ناصر يقوطي : العمارة السكنية والسكن التقليدي بالجنوب التونسي مجلة المانوروات الشعبية السنة التاسعة العدد ٣٥ ١٤١٥ م- ١٩٩٤ ص ٢٤ - ٣٨ - وتنتهي تلك العمارة التخطيطية التي تتميز بها جنوب أفريقية إلى هند ظهرت منذ آلاف السنين : ٢٠٠٠ ق.م ببلاد الرافدين ثم انتشر على مناسف البحر المتوسط عند الإغريق والرومان انظر المرجع السابق ص ٢٧

(٦) د. مبروك البالي ملاحظات حول واحة قابس المجلة المغاربية عدد ١٥ ص ٦٢

(٧) Diehl : L'Afrique Byzantine P. 227

(٨) Ibid.

(٩) وقد وجد آثار هذا الطريق من بعض الحجارة في مدينة طرابلس وكان هذا الطريق يصل ما بين إسكندرية وقرطاج.

(١٠) وقد اكتشفت بعد أحجار هذا الطريق الأثري. أنظر البرغوتي تاريخ ليبيا القديم ص ٥٩١.

تم تقسيم الطريق من قابس ، فطريق جنوبي على الجريد وطرق شمالية على الساحل وقد ذكر القباطل العربية والبربرية المشرفة على تلك الطرق الرئيسية^(١) هذا بالنسبة للشوارع الرئيسية وقد تطورت وأصبحت الشوارع كثيرة ومتسعة بعد الفتح الإسلامي فأصبحت شوارع في الغابة والمزارع والأرباض وتلك الطرق الرئيسية. في خارج قابس حدثنا التجاني^(٢) أن الوادي يسقي البساتين والمزارع ويخترق كثيرا من مواضع الغابة وشوارعها^(٣).

كانت الشوارع مبلطة ممتدة أفقية وعليها الساباط للحماية من الشمس وقد وصف لنا القاضي ابن عميرة^(٤) في القرن السابع من الهجرة أنها سكك مآجورة وجنة من جنات الأرض بجمالها الأندلسي. وبعد أن تزايد السكان أصبحت الشوارع ضيقة متعرجة في سيرها مثلها مثل كل المدن الأخرى وكان منفذ الشارع بابا يقفل أثناء الليل تأمينا للسكان كانت تربط بين الشوارع الرئيسية في المدينة بعضها ببعض حارات ضيقة متداخلة وتؤدي هذه الحارات إلى أزقة ودروب وزنقات بعضها مغلق وبعضها نافذ^(٥) وكان هناك حراس يقومون بحراسة هذه الشوارع والدروب ووصف ابن سعيد المغربي ذلك ، أما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب الأرباع في المشرق^(٦) ويصف الأثري جبرين^(٧) Gueren شوارع قابس في مطلع القرن التاسع عشر من المجري أنها ضيقة ومنحنية وبيوتها ذات سقوف منخفضة يقضي إلى جميع أحياء وأنحاء قابس وهذه الأتج والأزقة الضيقة المتوتية تساعد على استغلال أقصى للفضاء ومن وظائفها تلطيف الهواء من تأثير الرياح كما تعدل درجات الحرارة وما توفره من ظلال ، وتؤمن تزاوجا مستحبا من الفضاءات العامة والفضاءات الخاصة بالمنازل مما يحمي خصوصية المساكن^(٨). وإذا رجعنا إلى المضمون الإسلامي في الشوارع والحارات نجد إنها اكتسبت أهمية خاصة من المنظور المعماري الاجتماعي والاقتصادي كأحد التكوينات الأصلية في المدن التراثية، وليس المقصود هو الشكل والملاح التراثية لها ، ولكن المضمون المتمثل في الخصائص التي بنيت على أساسها الحارة أو الشارع ، مع التأكيد على العوامل التي أدت التي تكوينها في المدينة الإسلامية بصفة عامة ، وذلك كوحدة جوار في العمارة الإسلامية ففكرة الشوارع ذات النهايات المقفلة^(٩) تساعد على خلق روابط يومية بين أفراد المجتمع كذلك قسمت الشوارع إلى مقاطع ذات محاور متكررة تتم فيها تغيير الاتجاهات مما يضيف صورة متجددة دائما وأصبح ذلك نمطا سائدا.

(١) أنظر : شهاب الدين ابن العباس أحمد بن منجي ابن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤١هـ) (١٣٠١ - ١٣٤٩م) مسالك الأمصار

في ممالك الأمصار - دراسة وتحقيق دورثيا كرافولسكي ط بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٨م ص ١٨٢ - ١٨٤.

(٢) الرحلة ص ٩٧ من الحجر ممتد يعرض الشارع فيجسمي من الشمس ويكون كالمر من ملازل الجانب الأيمن من الشارع إلى الجانب الأيسر.

(٣) أنفي محمد بن شريف : للقاضي بن عميرة حياته وآثاره ص ١١٢-١١٦.

(٤) المرجع السابق نفس الصفحات.

(٥) سيد عبد العزيز سالم التخطيط والممران في المدينة الإسلامية عام ١٩٥٧ شهر ٩ ص ٥٩.

(٦) نقلا عن المرجع السابق نفس المكان.

(٧) رحلة أثرية ص ١٨٧ وهذه هي وجهة نظره.

(٨) ناصر البقلاوي : مرجع سابق نفس المكان.

(٩) سيد عبد العزيز سالم: التخطيط المعماري ص

أما الحارة فهي أصغر وحدة عمرانية اجتماعية تتكون منها المنطقة السكنية ، تشتمل على مجموعة من السكان المتقاربين في العادات والتقاليد والذين تجمعهم عقيدة الإسلام ليشكلوا أصغر تجمع بشري حضري في المجتمع الإسلامي، ويمكن أن يمثل النواة العمرانية المكونة للمنطقة السكنية، ويتمثل المضمون فيها في الآتي :

- تكوين عمراني تفتح عليه مجموعة من البيوت تساعد على توثيق روابط اجتماعية يومية لسكانها.

- لكل حارة طابعها المميز لها، والمرتبط في بعض الأحيان بنوع النشاط الذي يمارسه سكانها. أو بالنشاط التجاري الموجود بها (النحاسين - العطارين - الصاغة .. إلخ) مثل قابس القاهرة القبروان وتونس حيث كانت الحارة مكانا للسكن والعمل واللقاءات، لأن مسكن العاملين بها غالبا ما كان فوق محلهم مثل أسواق أفريقية كلها^(١).

- تفتح جميع مداخل البيوت على الحارة، وأحيانا تتجمع عدة منازل ضمن تجمع كبير يفتح على مجاز للوصول إلى دور السكني^(٢).

- كانت معظم الحارات ضيقة ومتعرجة لتوفير الخصوصية ، وقد أدى ذلك إلى استخدام الأفنية الداخلية ، حيث كان لا يزيد عرض الحارة على سبعة أذرع. كذلك وجدت الساباط^(٣) أو بمعنى جسر من المنزل يمينا إلى المنزل الآخر يسارا ثم ترك فراغ لتظل حركة الظل والنور فكان ذلك ملمحا منها.

لذلك فإن مضمون الحارة الإسلامية قد ظهر في معظم المدن الإسلامية: فالحارة في القاهرة مثل الحارة في تونس ولها نفس الطابع في حارة مدينة قابس لأن مضمون وجود الحارة المبني على العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلامي موحد ، فأوجد بدوره طابعا مميزا^(٤).

عمارة الدور والمنازل في قابس :

أن هذا الجانب من العمارة لم يزل حظا كافيا من الدراسة بالنسبة للمدينة الإسلامية بصفة عامة : وتخبرنا الحفريات عن نوعية هذه الدور^(٥) أن منطقة قابس وما حولها نجد أنواعا متعددة من الدور والمنازل من القصور المرفهة الفاخرة إلى المتزل البسيط البربري في الجبل في الجنوب ووجد في قرى قابس البسيطة عمارة المداشر^(٦) يقيم فيه بعض البربر إلى جانب

(١) عثمان الكماك الحضارة في حوض البحر المتوسط ص ٦٠ وما يليها. حسن حسني عبد الوهاب : وراقات في الحضارة ج ٢ ص ١٨٢

(٢) هناء شكري: مجتمع الحارة كأسل لتصميم المدينة المعاصرة. رسالة ماجستير - هندسة القاهرة عام ١٩٨٧ ص ٣٠. وأنظر إيمان عطية : المضمون الإسلامي في العمارة الإسلامية. رسالة دكتوراه هندسة القاهرة ١٩٩٦ ص ١٦٤.

(٣) موسوعة تاريخ ج ٤ ص ١٧٢.

(٤) هناء شكري : مجتمع ص ١٥.

(٥) ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ط ١ ص ٨٩.

(٦) جمع منش عبارة عن بيوت من طين كمجموعة في ناحية ولكنها بدون لجد أو سوق / أنظر ابن خلدون المقامة ص ٣٢٢.

سكناهم للجبال (الغيران) ^(١) والسبب في ذلك كما أخبرنا ابن خلدون أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف السنين قبل الإسلام وكان عمرانها كله يدوياً فذلك كان عمران أفريقية والمغرب كله أو أكثره يدوياً مثل خيام طواعن وقياطن ولكن في الجبال.

في قابس نجد منذ القدم أنواعاً متعددة من الدور والمساكن حسب الحالة الاجتماعية لأصحابها. لقد وجدت فسيفساء في أنقاض تينية Thainee وفي جنوبها أيضاً تدل مجموعها على العقارات والمساكن العجيبة التي يرجع عهدها ما بين القرن الأول والرابع الميلادي ^(٢) وكانت هناك في وسط قصور صغيرة وقبيلات كانت المساكن دائماً في شكل حصون وسط حدائق كبيرة محاطة ببعض البناءات الأخرى.

كالأصطيل ومخزن المؤونة ^(٣) كما كانت هناك بيوت الفلاحين البسيطة من الطين كذلك الصيادين كما أشار ابن خلدون ^(٤) وجدت في برج أنه أو Tainme شمال قابس مما يجعل على الاعتقاد بوجود قوافل الترحال عند تغيير الطقس تسمى العمارة السكنية بمنطقة قابس وما حولها مثل قفصه وتورز وقبلي وغيرها من مدن الجريد وهذا النمط ظهر منذ آلاف السنين ٢٠٠٠ ق.م ^(٥) أو أكثر في بلاد الرافدين ثم انتشرت على ضفاف البحر الأبيض المتوسط وتتمثل في البيت ذي الحوش المركزي كما امتازت العمارة الإفرقية وفي جنوب قابس بالأخص بالعمارة البربرية الجبلية مثل جبل مطماطة ودر حيث توجد العديد من القبائل البربرية التي ترعى الماشية وتزرع الزيتون وتحت مساكنها في حجار الجبال وهي القرى التي تحدث عنها ابن خلدون ^(٦) وهي تجمع بين البناء والحفر أو النحت في الجبل أو النقر بمعنى أدق على هيئة غرف مجازاً أو عدة غرف للنوم والجلوس وخزن الأدوات وفوقها الأهراء وهو لخزن المحصول ثم تلي ذلك غرفة أو غرفتان منحوتتان في طبقة الجبل والأدوات اليومية تسمى الخزنة تغطي سقاية تلك الغيران أو البيوت إلى فناء واسع مكشوف فيه مطبخ ومرحاض ^(٧) وبالقرب من ذلك كله كان هناك تحصينات بربرية عسكرية.

المنزل البسيط الذي يسكنه العامة في قابس ويمثل الغالبية العظمى من منازل منطقة قابس التي تخص الطبقة المتوسطة ، يختلف في طرازه وأسلوب بنائه عن باقي المنازل التي تبني في مدن إفريقية الأخرى ، فغالبا ما يتكون من طابقين أو ثلاثة على الأكثر ، ومدخل المتزل القابسي يتكون من سقاية بسيطة أما الحجرات فكل واحدة تسمى دارا ، وتفتح جميعها على حوش رئيسي أو فناء يسمى وسط الحوش ، عن طريق باب يسمى سطوان هذا عن الدور الأول أو السفلي ، كما يوجد درجات لسلم يؤدي إلى الطابق الثاني المكون من عدة حجرات اثنتين أو أكثر تسمى الواحدة منها غرفة وهي للسكنى وعادة ما تكون فوق حجرات الدور ، وغالبا ما تكون ناحية الشرق أو الجنوب. وبداخل الغرف تكون مبنية فيها نوع من المصطبة أو الكنية فسيحة تعد ذلك للنوم وتسمى الواحدة منها الدكانة وتوجد أخرى من الخشب تسمى السدة وتستخدم إما للراحة أو لوضع الحاجيات ^(٨).

(١) جمع غار عبارة عن فجوة ملحوتة أو ملقورة في الجبل ، المصدر السابق ٢٢٤/٤/للس المصدر والمكان.

(٢) المنجي للوفير الحضارة للتونس من خلال السيفاء ص ٣٠.

(٣) المرجع السابق

(٤) المقدمة ص ٤٣٤.

(٥) المرجع السابق

(٦) المصدر السابق

(٧) لناصر المنفلوطي للعمارة السكنية في الجلوب التونسي - تحت ضوء مجلة المآثورات الشعبية السنة التاسعة العدد ٣٥

سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م ص ٢٤ وما يليها.

(٨) Nasser Bakhouti: La maison traditionnelle a gabes P.

وهذه الحجرات العلوية مخصصة للراحة والمعيشة. أما الحجرات السفلية فتكون للطعام ومطبخاً وهناك حجر خارجية للزوار في وسط الحوش ، يلعب الحوش دوراً كبيراً في المنزل القابسي فهو مصدر الضوء ، وحرارة الشمس للمنزل ، ومجلس العائلة حول فسقية أحياناً في وسطه وحولها مجموعة من الزهور والنباتات^(١) (على حسب ذوق الساكنين فيه) وفي أغلب الأحيان تكون فيه أماكن عديدة مخصصة لتجفيف أوراق الحنة^(٢) وسحقها. وعمل العجوة وتجفيف سعف النخيل وبعض الخضراوات مثل الفلفل الأخضر ، أو تعبئة التمر وحفظه في أنية من الفخار هذا للمنزل القابسي يعتبر مثلاً للسكن والراحة ، ونفس الوقت وحدة اقتصادية في ماديّات ساكنيه وأحياناً هذا الحوش يبني فيه أعمدة على الطريقة الرومانية اثنتان أو أكثر ، وعندما توجد تكون من الأحجار العيساوي^(٣) (معروفة في قابس) المطلية بطريقة رقيقة من الجير أو الجبس لتحمل بينها عوارض من جنوع النخيل إن الحوش أو الفناء هو الحلقة الرابطة المميزة لكل العنائر المدنية في قابس مثل أي مدينة إسلامية وهنا يظهر تساؤل هل تبني فكرة الفناء من السلم نابعة من ظروف مناخية أو اجتماعية مكتسبة من الحضارات القديمة أم إن هناك ظروفاً أدت إلى حدث ذلك.

لقد استمر استعمال هذا النمط المعماري وتطويره وإضافة عناصر أخرى ليلبي الاحتياجات الجديدة التي نشأت مع الإسلام لكي يتوافق هذا النمط مع مبادئ الدين الحنيف. لقد حاول المهندس فتحي^(٤) توضيح ذلك بقوله من الأسباب التي جعلت البدوي يعمل الصحن الذي يتوسط الدار عندما استقر واستوطن المدينة حرصه على تروام الاتصال بالسماء كما تعود عندما يعيش في الصحراء وقد أشار المستشرقون إلى أن المغرب أخذوا فكرة الفناء من الحضارات السابقة.

في الحقيقة لقد تناسى الجميع أن القرآن الكريم والسنة النبوية هي مصادر التشريع والإلهام والعتاء الفكري ومن البحث في هذه المصادر والإطلاع عليها لجأ البعض في النظر في الربط بين الحضارات القديمة والإسلام إن الإسلام قد مهد للمسلم طريقة سليمة للسلوك والعلاقات الاجتماعية وتلك أثرت دون شك على تصميم مسكنه فعندما نتأمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن أبي سعيد الخدري إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها فقال صلى الله عليه وسلم إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله قال غصص البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٥) معنى ذلك بطريقة مباشرة أن للطريق خارج المنزل حقه وبطريق غير مباشر أنه يستحسن أن يكون هناك مجالس للتحدث بحرية وراحة إذا هي في المنزل أكثر أمناً لقد التقط المسلمون بالفعل بعض عناصر الحضارات السابقة لكنهم نظموها في إطار جديد يعبر عن الشخصية الإسلامية والسلوك الإنساني القويم وتمتاز مساكن قابس بنسجها العربي الإسلامي واختفى منها الطابع السابق سواء الفينيقي أو الروماني فنجد سقيفة للمنزل متعرجة تمنع المارة من النظر داخل المنزل^(٦) من منطلق لا ضرر ولا ضرار

(١) Ibid.

(٢) تستعمل الحنة وهي نبات مخصوص تختص به قابس في أغراض الخضاب للمرأة والرجال وبخاصة العروسان تسمى ليلة الحنة قبل زواجهن وهذه الليلة مخصصة للخضاب وهي عادة معروفة في جميع الدولة العربية.

(٣) Baklouti jes mames pages

(٤) انظر حسن فتحي : العمارة البيئية في المدينة الإسلامية ص ٣٩.

(٥) انظر أحاديث الرسول في موطأ مالك.

(٦) البقلوطي La mais on traditionnel, a le Gobes. P. 355. ونفس الملف ، انظر البحث : العمارة السكنية في الجنوب التونسي ، مجلة المأثور الشعبي ، الملة الثامنة ، عدد ٢٥ ، محرم ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م ، ص ٢٥ ومايلها.

وبالتالي غرض البصر والسقيفة هي التحتوش باللغة القابسية أو السقيفة^(١) وهو مكان مخصص لاستقبال الزوار العاديين بالطابق الأرضي بالقرب من الباب الخارجي للمنزل والحوش لأهل المنزل وأقربائهم وهو فضاء يوفر النور والتهوية ومن ناحية أخرى بجانب الود والزيارة يسمح القيام بأشغال هامة مثل تجفيف ورق الحناء أو صفر الخوص أو بعض الصناعات المنزلية الخفيفة مثل حفظ التمر، تجفيف الخضروات والفاكهة كما ذكرنا... إلخ كما يوجد بالحوش رواق اسمه في قابس (سطوان) وهو فضاء وسيط بين الحوش والغرف^(٢).

اختص المتزل القابسي بوجود المرحاض ويسمى حفرة الغبار وتستخدم الفضلات عندما تمتلئ الحفرة وترتفع بطريقة مخصصة لتذهب لتسميد الحقول والبساتين وهي العادة التي ذكرها، بعض الرحالة^(٣).

يستخدم في قابس نوعان من الحجارة في البناء الأول قطع الحجر العيساوي (المذكور سابقاً) ومستخرج من مكان قابس القديمة وهو الحي المسمى بالمدينة ويقع بالقرب من ضريح أبي لبابة الأنصاري - ويصنع من هذا الحجر تكوينات قوائم الأبواب وغطاؤها مثل حجر المائة ويقطع من الجبال جنوب قابس والأودية وخارجها إلى قطع صغيرة ويحمل على عربات تجر باليد ويبيع بالمئات لصنع جدران المنازل وهنا اكتسب اسمه حجر المائة (عدده بالمئات).

يبدأ البناء بحفر بئر لجلب المياه اللازمة أما في قابس فتجد أن مشكلة المياه غير الموجودة حيث يتم تحميل الدواب بجرار المياه ومن أي عين أو نهر قريب في قابس ليبدأ البناء والجدران في المنزل القابسي تكون سميكة دائماً وتستخدم حجر المائة في بنائها أيضاً ويستخدم طين الفخار المشهور في قابس والجبس الموجود في المدينة والذي يوضع في أكياس مصنوعة من نبات بري مثل الحلفا يبلل ويغزل في قرية غنوش بجوار قابس وصناعته معروفة في هذا المكان يسمى الجديم أما الجير فيستخدم من مكان المتارة الذي توجد فيه متارة قابس في شرقها وحولها محجر يستخرج منه الجير أو من ميدون وهي قرية يسكنها أفارقة سود البشرة والجير يخلط برمال قابس من الجنوب الغربي لمطرش لكون سواحلها تمتلئ بالرمال الناعمة الصالحة للبناء^(٤) والخشب من أشجار النخيل والزيتون والبرقوق القابسية.

من بحث د. بقلوطي^(٥) يتضح لنا أن كل مواد البناء والمنشآت في قابس لها نظام خاص بها وتكون تكويناتها من المواد المحلية الموجودة مثل الأحجار المذكورة - وخشب النخيل والزيتون والبرقوق والجير والجبس والرمل وأساس البناء في قابس يختلف عمقه من منطقة إلى أخرى لتفادي النشع لقرب المياه في كل مكان - ويخبرنا بقلوطي^(٦) أيضاً بأنه وجدت أنواع من الأسقف مثل السقف القابسي الخاص وهو من بلدة الحامة وعلى طريقة أهلها وتكون فيه الأعمدة الخشبية مجوفة بطريقة معينة لتلتصق ببعضها أما السقف النفازي على طريقة أهل نفازة تدخل فيه جذوع النخيل وفي خلالها السقف بطريقة معينة - كما يخبرنا أن طريقة البناء المعتمدة على الخامات البيئية المحلية تستخدم في جميع منشآت قابس الدينية والاجتماعية والعسكرية والتجارية^(٧).

(١) المرجع السابق، نفس المكان

(٢) صالح لمعي: مرجع سابق، نفس المكان. وأنظر: ثروت عكاشة، نفس الصفحات.

(٣) انظر مثلاً البكري ج ٢ ص ٦٦ والإدرسي ج ٢ ص ٢٨٩ والثجاني ص ٩٠.

(٤) انظر بحث بقلوطي بالفرنسية عن المتزل المادي بقابس.

(٥) المرجع السابق.

(٦) نفس المرجع.

(٧) Baklouti : P. 552-552

منشآت قابس الصناعية :

من وصف الإدريسي^(١) للصناعة في قابس قالقول " وكان بها فيما سلف طرز أي دور طراز تابعة للدولة يعمل بها الحرير الحسن" تستنبط من هذا القول أهمية كبرى لهذه المدينة هي شهرتها في إنتاج الحرير الرقيق الجيد الصنع ، فإنه تبعاً لذلك كانت فيها مصانع ودور لصنع الطراز الخاص بالخلفاء ولا تخبرنا المصادر عن مكان تلك الدور والمصانع لكن الإدريسي^(٢) في حديثه يخبرنا أن قصر سجه التي بينها وبين قابس سوق وباعة حريريون كثيرون^(٣) بعمومية فقد يعني بصفة عامة التاجر الذي يتاجر في الحرير وتعني أيضاً الحريري الذي يعمل بصنع الحرير ، وإعداده لصنع طرز الخلفاء.

من ناحية أخرى فمصانع الحرير كمناشأة وإنه لا بد أن تكون بالقرب من البساتين التي ترعرت فيها أشجار التوت وانها مثل أي مصنع حرير قديم حيث تتم تربية دود القز وتغذيتها على أوراق التوت ثم تنتقل إلى مبنى آخر مجهز أو قاعة أخرى مستطيلة مجهزة بطاولات مستطيلة مجزأة طولياً بتجاويف لرعاية النمو في السقي والشرانق والفقس ثم تنتقل إلى طاولات أخرى في قاعات أخرى مستطيلة لتتم عملية الغزل بعد مرور مراحل نمو الدودة إلى أن تصبح شرنقة مغزولة بالحرير من حولها^(٤) إلى جانب مصانع حفظ الأسماك وغيرها.

الأسقفية :

كانت قابس مقراً للأسقفية في العصر المسيحي فإين كانت تلك الأسقفية ؟ لقد كانت تلك الأسقفية في بلدة (المحرس الآن) على ساحل خليج قابس في أقصى الجنوب من صفاقس وفي الشمال من قابس^(٥) والأسقفية في تخطيطها تشبه القلعة أو القصبة مما يؤكد وجودها في شمال قابس ووجدت شواهد قبور وبقايا توابيت كذلك مخطط لثلاث بلاطات رمزا للكنيسة الأم^(٦) كما وجدت أسقفية في قابس المدينة على الأرجح والمصادر لا تكلنا عن مكانها بالتحديد.

البيعة اليهودية :

يقول المرزوقي^(٧) إنه كانت هناك بيعة يهودية قديمة كانت مزاراً مقدساً لليهود قابس ويؤكد قيم تلك البيعة الموجودة في بلدة أو في جارة القديمة أقدم وجوداً من البيعة الموجودة بحي أو قرية المتزل وكان هناك سيناجوج (المعبد اليهودي) في قابس في شارع يحمل اسمه واصبح بعد ذلك شارع فرجاني منجا وقد أورد د/ناصر البقلوطي على الخريطة المرفقة ببحثه الذي يبين وصف الموقع لمنزل تقليدي في مدينة قابس وقد أوضح عليها موقع الجامع الكبير في قابس وساحات السوق بجواره ثم مجموعة سكنية ثم المعبد اليهودي أو السيناجوج (أو الأكاديمية اليهودية بالقرب منها هذا المتزل الذي كان ملكاً لعائلة يهودية من قبل)^(٨) هذه

(١) لزمة المشتاق ج ١ ص ٢٧٩-٢٨١.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر وانظر موسوعة المعرفة ط بيروت - وسويسرا سنة ١٢١١م - ١٩٧١ ط ١

وانظر ص ٨ ص ١٤١٤.

Jacques revault: Arts Traditionnels en Tunisie P. 128-120-126-110-117.

(٤) المعرفة نفس المجلد والصفحات.

(٥) حفريات جبرين نفس المرجع.

(٦) انظر المنجي النيق : الحضارة التولمية ص ١٠٧-١٠٨ وانظر المرجع نفس المكان.

(٧) قابس حنة ... ص ٣٩.

(٨) وهذا المتزل اسمه حوش كرايف أو حرايف

الأكاديمية أو المعبد كانت بمثابة جامعة لليهود وكان لها اتصال بمثيلتها في القيروان وعندما زار العالم اليهودي إبراهيم بن عزرا قابس أقام بها فترة (١).

المقابر :

كانت هناك مقبرة قديمة مشهورة باسم مقبرة سيدي مرزوق وتقع شرق بلدة المتزل القديمة ومن طرقها الغربي يطل عليها مسجد سيدي أبي علي وهي من القبلة تمتد لمساحة كبيرة وكانت تلك هي أقدم مقبرة بدليل أنها تحتل أمرها طمست آثار قبورها وسويت لتعطي حياتها وفتحت فيها طرقات جديدة ترتبط بها جهات بلدة المتزل المتناثرة وقد اطلع المرزوقي على شواهد قبورها فلم يستطع إلى معرفة (٢) بعض سطور رخامها مكتوبة من القرن السابع الهجري وبعضها محفوظا بجامع المتزل وبعضها في منزل شيخ أو (محافظ) المتزل ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه رأى سنة ١٩١٢ بسور حديقة المراقبة المدنية وخامات أو شواهد قبور كتب عليها بالخط الكوفي تدل على أنها كانت على قبور بعض أمراء بني جامع الذين بقابس ولا شك أن هذه الشواهد منقولة من المقبرة المذكورة (مقبرة سيدي مرزوق).

وقد كشفت حفريات الأثري جبرين (٣) عن وجود شواهد رخامية بمقابر المسلمين في الجهة القبلية من منطقة thaineه كذلك عثر على حطام لوحات رخامية عليها بداية الصيغة المقدسة التي تسبق النقوش للرومان (٤).

السجن :

كان يسمى قديماً الحبس كان موجوداً في حي البلد الموجود في حي أو قرية الجارة من الجهة الشرقية لدار قديمة (فيقول السكان إنها دار الوالي) (٥) وكان هناك سجن آخر ويبدو أنه كان تخصصاً للخارجين على السلطة في البرج الذي يحرس الميناء كما كان هناك مثله في برج جرجيسي بجانب جزيرة جربة على خليج قابس وطل حتى القرن التاسع عشر الميلادي (٦).

السور والخندق :

وهو من أمثلة تحصينات قابس القديمة ، فالسور من بناء الأول كذلك وجود قصبة بها وقد ذكرها الرحالة أنها ذات حصن حصين وسور وخندق يحيط بها ، وغالباً كان من بناء البيزنطيين (٧) وقد بقي هذا السور إلى القرن العاشر من الهجرة ، السادس عشر من الميلاد (٨). أما السور فاصبح مكانه في ذلك الوقت يسمى خندق نشع ، وقد ورد هذا الاسم وتكرر في وثائق البيع والوقف التي وجدت في الأرشيف الوطني في تونس (٩) ونظرا لأهمية مدينة

(١) من بحثه مع آخرين في مجموعة أبحاث عن الإسكان التقليدي حول البحر

L'habitation Traditionnelle

(٢) انظر المرزوقي في قابس ص ٨٠.

(٣) انظر رحلة أثرية للفصل السابع عشر ..

(٤) المرجع السابق نفس المكان.

(٥) Encyclopédia yndiciuca : anticll gabis – cend ben Izra.

(٦) المرزوقي : حلة ص ٣٨ وانظر المجلة المغربية مجلد ١٣-١٧ الأمد أبو زيد للسجن والساجين بجهة الأعراض ص ١٤-١٥.

(٧) Naser Baklouti: la maison traditionenell a le gabes p 515-568.

(٨) دائرة المعارف التتوسية ص ١٣٠ وانظر دائرة المعارف الإسلامية ط ٢ ج ٤ ص ٣٣٧.

(٩) انظر مبروك الباهي ملاحظات حول واحة قابس في نهاية القرن ١٧م من خلال وثيقة وفيات محمد البادي المرادي المجلة التاريخية ش ٢٥ عدد (٨٩) سنة ١٩٩٨م ص ٢٦٣ وما يليها.

قابس^(١) فقد زاد الاهتمام بتحصينها فكانت تضم منشآت حربية ذات أهمية دفاعية جعلت منها حصناً حصيناً^(٢) كما أحيطت بسور منيع^(٣) كان من بنيان الأول ، ومن شدة أهميته لحمايتها أنه بنى بالصخر الجليل^(٤) وليس هذا فقط ، فقد حرص الأقدمون من حماة قابس على ألا تكون له إلا ثلاثة أبواب كما يخبرنا ياقوت^(٥) كما أن الوزير السراج يخبرنا أنه قد أضيف لها باب رابع وأن قلة تعدد الأبواب التي تفتح في السور تساعد على إحكام الغلق ومراقبة الفتح والتحكم في الدخول والخروج^(٦).

ولا نفيدين المصادر المختلفة عما إذا كان سور قابس المنيع هذا جداراً سميكاً ضخم الأحجار أم هو سور مزدوج كالأسوار البيزنطية التي أنشئت في أنحاء أفريقية^(٧) أتبع نظام الأسوار البيزنطية والرومانية في أنحاء المغرب الأندلس فكان السور عريضاً في أعلاه ليصلح ممشياً للجنود ويسمى أحياناً (مشى السور) وأحياناً يوجد سور مزدوج داخلي أعلى من الأول ، ليكون التحصن أشد منه - وقد حدث تدعيم وترميم لهذا السور في عصر الأغالبة ، وهذه الأسوار الأساسية تسمى الستارة^(٨) التي ذكرها الثجاني في رحلته^(٩).

ويصل ارتفاع الستارة إلى أكثر من عشرة أمتار^(١٠) وبها حواجز محصنة بماتريس ذات مزاعل^(١١) ويصل متوسط عرض الجدار تقريباً إلى ثلاثة أمتار ليصلح ممشياً للجنود عند اللزوم^(١٢) وتقام الأبراج بجوار جدران الستارة بحيث يكون بين كل برج والآخر مسافة لرمي السهام تصل لعشرين متراً وغالباً ما تكون شكلاً شبه دائري مساحته من خمسة إلى ستة أمتار^(١٣) تقام أعلى الجانب الخارجي من السور. أما الأركان فهي عبارة عن أبراج مصمتة

(١) الحصن Forte في اللغة كل مكان محرز لا يوصل لجوفه في الحرب عبارة عن مكان بعبار وكام معدا لدفع الحملات والهجمات وقد تكون الحصانة طبيعية كالأجسام والأنهار (مثل الغابة حول قابس والكهار) أو صناعية كالأسوار والماتريس الحجرية أو الترابية مثل خفر الخنادق وملأها بالمياه عند اللزوم وتنقسم الحصون تاريخياً لثلاثة أقسام كبرى وهي الحصون القديمة الأولية مثل سور قابس أو حصون القرون الوسطى مثل تجديدها أو بناء حصون جديدة (مثل زيادة ال) له دعم كل حصون الساحل في أفريقية وبين المتحدث فيها ومن المؤكد كان منها حصون قابس من ضمنها والحصون الحديثة والقديمة ممكن أن تكون على هيئة صليبي أو صفوف أو أشجار كبيرة مستقيمة بتركيز بعضها قرب بعض فتكون كالسور ويعتقد أن هذا كان فكرة للغاية حول قابس في البدء فقابس إذا محصنة طبيعياً وصناعياً منذ نشأتها.

(٢) انظر دائرة المعارف البستاني مادة (حصن) ط القاهرة (١) الإبريس ج (٣) ص ٢٧٩.

(٣) البكري ، ج ٢ ص ٦٦٦ والمرجع السابق نفس الجزء والصفحة / للثجاني : الرحلة ٨٦.

(٤) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٨٦ الحلال السلسلي ج ١ ص ٣٣٤.

(٥) دائرة المعارف البستاني ج ٣ ص ٦٢.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية : ط دار الشعب ١٣٨٩م - ١٩٦٦م ج ٧ ص ٨-٢٠.

(٧) حسن حسني عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس ط الدار التونسية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ص ٦٢-٩٢.

(٨) سيد عبد العزيز سالم بحوث في تاريخ الإسلام في التاريخ والحضارة والأثار ط دار الغرب الإسلامية ١٤٨٠م - ١٩٩٢م القسم الثاني ص ٥٩٥-٥٩٣ وأنظر عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية سلسلة عالم المعرفة ١٤٠٨م - ١٤٨٨م ص ١٤٠-١٤٣.

(٩) أنظر رحلة الثجاني ص ٢٤٠-٢٤٥ وأنظر دائرة المعارف الإسلامية ص ٧-٨-١١.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية ج ٧ ص ٩-٧ ماجة برج الثجاني الذي ذكره لنا للسور الستارة بدون إي إشارة إلى بنائه.

(١١) سعد زغلول عبد الحميد العمارة والفنون في دولة الإسلام ط إسكندرية منشأة المعارف ١٤٠٦م - ١٩٨٦م ص ٣٨٧-٣٩٠.

(١٢) مثلما هو موجد في تحصينات مدينة بغداد أنظر كريز ويل Early Muslim Mutin Architecture P. 355.

(١٣) سيد عبد العزيز سالم ج ٢ ص ٦٠٠-٦٠١ وأنظر محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية ص ١٤٣-١٤٥.

القواعد ، على هيئة طواب كبيرة ، بكل منها غرفة أو غرفتان للدفاع ، وتعلو الأركان على جدار الستارة بطابق واحد^(١).

هذا ولم تظهر المصادر ما إذا كانت هناك ابتكارات أو تطورات قد تمت في هذه الأسوار أو الستارة أم لا كما فعل الفاطميون بأسوار القاهرة. كالفترات الدفاعية المتزايدة أو المداخل المزورة^(٢) وكانت الأسوار تحيط بالمدينة من جميع جهاتها لتتد عنها هجمات الأعداء وكانت تبني بالأحجار ، واعتدال الخطوط ، مما كفل لها الاستمرارية عبر قرون كثيرة^(٣) أما السور الداخلي الكبير فهو أكبر الخطوط الدفاعية قوة ، إذ إنه عادة ما يكون سميكاً^(٤) ومن المؤكد أنه كان مزوداً بأبراج مراقبة ، كما كانت الأبواب مزودة بسلام يصعد منها إلى مجلس يعلو كل باب ، يمكن مشاهدة المنطقة خارج المدينة ، ومراقبتها باعتبار ارتفاعه وإشرافه على الساحات خارج المدينة^(٥). ويخبرنا ابن أبي زرع^(٦) أن الخليفة المنصور الموحد قد ضبط الثغور ، وحصن البلاد وبنى المساجد والمدارس في بلاد أفريقية والمغرب والأندلس ، وبنى

الصوامع والقناطر وعلى هذا فإن قابس قد نالها من التحصين - وبخاصة بعد القضاء على ثورات ابن عاتية وقرقوش الأرمني في قابس وما حولها من خلال السور الأمامي وسمي في زمن الموحدين (الحزام البراني أو البريخانة) وهو غالباً أقل ارتفاعاً من السور الأساسي أو الستارة^(٧) ، وهذا السور الأمامي يحيط به خندق كبير كما حدثنا عنه أغلب الرحالة الذين زاروا قابس^(٨) فقال لنا البكري " وقد أحاط بجميعها خندق كبير يحجزون إليه الماء عند الحاجة فيكون أمنع شيء ". وقد حدثنا عنها اللجاني^(٩) عندما زار مدينة قابس. وقد بقيت آثار هذا السور الضخم المنيع إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين زارها العلم الأثري Guerin في بعثته الأثرية ، فلاحظ أن آثار الحائط غليظة جداً وقوية البناء مما يدل على أنه كان جدار السور الأصلي الذي كان يحيط بالمدينة ، وعلى الرغم من أنه تلاشي قبل ذلك إلا أن هذه البعثة الأثرية استطاعت أن تتبع آثاره عن طريق نتوءات صغيرة مازالت موجودة في مسافات متناسبة مكنتها من معرفة أن هذا الجدار أو السور لم يكن يقل محيطه عن ثلاثة كيلو مترات مما أعطانا فكرة عن مساحة المدينة (على الأقل أوائل القرن السابع من الهجرة)^(١٠) كما لاحظ نتوءات و آثار حائط غليظ في شمال قابس في منطقة

(١) نفس المرجع والصفحات ولا نقيدها للمصادر والمراجع السابقة عن تميزها عن نوعية التحصينات في المغرب عموماً.

(٢) انظر اللجاني ص ٨٧ والمراجع السابقة نفس الصفحات.

(٣) سيد عبد العزيز سالم بحوث ج ٢ ص ٥٩٦.

(٤) نفس المرجع والصفحات.

(٥) عثمان نفس المرجع والصفحة ويخبرنا ابن عذاري أنه في أواخر القرن السادس من الهجرة ظلت قابس ذات منعة شديدة بسبب تحصينها وأنظر : أبو العباس أحمد بن الله عذاري للمراكشي من رجال القرن السابع من الهجرة - الثالث عشر ميلادياً - البيان المغرب لسي أخبار الأندلس والمغرب ط بيروت ط ٢ ص ٦٧-١٦٢.

(٦) ابن أبي زرع أبو الحسن بن عبد الله القاسمي (٧٢٩هـ - ١٣٢٢هـ) روض القرصان في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة قابس ط نورتنج ط ١ ص ٩٥.

(٧) مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٦٦٦.

(٨) انظر الناصري أحمد بن محمد الاستقصاء في معرفة المغرب الأقصى ط ١ ص ١٨١ وانظر رسائل موحدي تحقيق يفي بي والمصال الرسالة الثلاثون التي تلها ط تونس ١٣٦٢هـ - ١٩٤١م ط بحوث ج ٢ ص ٥٩٧.

(٩) الرحلة: Guerin voyage dans la regions de tunis, Paris, P. 187.

(١٠) انظر المرزوقي ص ٧٢-٧٣.

تبنيه Thenae ورغم أنه ثلاثي إلا أنه تتبع ضخامته عن طريق تلك النتوءات المذكورة وقد المساحة من ذلك لنحو ثلاثة كيلو مترات كمحيط لذلك الحائط^(١).

ومن الطبيعي أن الخندق الذي أحاط بهذا السور قد محيت آثاره قبل ذلك بسبب امتداد أرباض المدينة^(٢) للخارج ، تبعا للتطور العمراني ، ويخبرنا المرزوقي^(٣) الذي زار قابس بعده^(٤) بمائة عام أن ماء الخندق مجلوب من وادي السيل ووادي قابس.

لقد تم حفر خندق من حول قابس لا نستطيع تحديد متى ؟ قد يكون من أيام الرومان وتحصيناتهم أو البيزنطيين نحو فهم القبائل البربرية خاصة قبائل الأشوريين^(٥). والطبيعي أن يكون أمام كل باب من أبواب المدينة من الخارج قنطرة لإمكانية عبور الخندق والدخول للمدينة وتوضع بطريقة معينة لترتفع وقت الخطر فتصبح المدينة معزولة تماما لا يصل إليها أحد إلا عن طريق هذا الخندق الذي يكون مملوءا بالمياه وقت المطر^(٦).

من الطبيعي أن يوجد في جانب الخندق القريب من السور الخارجي مسناة^(٧) بمعنى بناء حول المدينة تأخذ أقواس كل منها على هيئة ربع دائرة تصل بين كل باب وآخر وجوانب تلك المسناة مبنية بمواد متينة وصلبة كما توجد مسناة أخرى خارجية تقع في الجانب الخارجي الملاصق للأرض خارج المدينة مما يلي الخندق من الخارج وكانت وظيفة المسناة الأولى (الداخلية) حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق إليها التي قد يسبب بمرور السنين تآكلا في الأجزاء القريبة من الخندق ، أما المسناة الثانية (الخارجية) فهي لحماية جدران الخندق نفسه من التآكل.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يلقي المياه التي قد تتسرب من أي جانب من الجوانب كانت المسناة الداخلية تحيط بالسور والجدران التي تحيط بالمدينة وكذلك الخارجية تحيط بالخندق كله من الخارج^(٨) وجدت صفور في موقع في الجنوب الغربي لقابس من منطقة سيدي المشيرقي تدل على أن هذا المكان كان مفتوح الخندق عند الحاجة كما ذكر البكري^(٩). ومكانه بين الغرب والجوف حيث مجرى الوادي لأن أما جزؤه القبلي فيمتد مع منطقة وادي بوشاعة الآن. ويتصل بوادي السيل شمالي قصر أولاد الجبالي مارا بين منطقتي المنزل والجارا إلا أن هذا الخندق لم تر له ذكرا في الكتب يعد كتاب البكري - والظاهر أنه عطل وانطمس منذ القرن السادس الهجري بسبب امتداد أرباض المدينة.

(١) وقد يعطينا هذا الحديث فكرة أن المدينة القديمة كانت في هذا المكان.

(٢) المرجع السابق ص ١٨١.

(٣) قابس جنة الدنيا ص ٧٣.

(٤) قابس جنة الدنيا ص ٧٣.

(٥) Encyclopédia de L'islam, Tome IV-J350 - J355- Daris- nouvell établi 1978. Charles, Diehl: L'Afrique Byzasstine - J 331 - Jaris 1896.

(٦) الهرثمي : مختصر سياسة الحروب - ص ٥٧ - ٦٢ ط القاهرة - ط ١ عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام ط مصر دار المعارف - ط ١ من ١٥٨٠. عبد المال الشامي : جمر الفية العمران عند ابن خلدون - ط جامعة الكويت - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م. ص ١٨٣.

(٧) المسناة : بمعنى بناء متين السك يتلى بالأحجار ويكون وظيفته حماية الجدران والأسوار من التآكل.

(٨) انظر : الخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣ هـ - ١٠٨٥ م) : تاريخ بغداد ط الخليلجي ط ٢ ص ٧٣ - ١٤٤. أجد وصف المسناة بتفاصيلها عن قابس بالتحديد فأخذت بغداد كمثال لأنها قديمة أيضا وقد أخذ كثير من خططها من الرمان والأشوريين وقد رأها بطريق رمانى ليري خططها وهي نسبة القسطنطينية في أحوال كثيرة من حيث البناء - إذا اعتمدت في بحثي على وجود أملاك تدل على شئ ذكرى الأكرين الذين يقعون في آثار قابس ثم وصفت لأقرب شئ إلى الحقيقة التي استنتجتها وشه المعين.

(٩) المسالك والممالك مرجع سابق ج ٢ ص ٣٣١.

أبواب قابس :

لم يرد في المصادر أي شيء عن أسماء أبواب قابس أو مكانها المضبوط في أسوارها وهل كانت أبوابا ذات مداخل مفردة مثل أبواب بغداد ، أم مزدوجة ، داخلية وخارجية أي باب في السور الخارجي ثم رحية واسعة ثم باب آخر ، فلم نعدنا المصادر بمعلومات وافية سوى أن قابس كان لها ثلاثة أبواب^(١) ويحدثنا صاحب الحلل السندسية^(٢) أنه زيد لها باب رابع ، وقلة الأبواب من زيادة التحصين للمدينة ثم يخبرنا مصدر متأخر وهو الوريثاني^(٣) عن الباب الشرقي لقابس ، ومن البديهي أن يكون قبالة باب يسمى الباب الغربي ، ثم باب البحر ، وهو الذي تطور بعد ذلك ليصبح حيا قائما بذاته ويحمل نفس الاسم.^(٤)

وقد درج اسم باب خوخة في العمارة الإفريقية وهو باب صغير يعمل في محيط الباب الكبير وبعده في الأسوار وفي معظم الأبنية العظيمة التي يقام لها سور حول حديقة^(٥) وكانت هندسة الباب منذ أيام الأغالبة ثم الفاطميين على هيئة أقواس متتابعة^(٦) ثم تطورت هذه الأبواب ذات المرافق وتعتبر هذه الأبواب من الأمثلة المبتكرة التي أبدعها المرابطون ، فقد اختلفت الأبواب البيزنطية ذات العقدتين المتقابلتين اللذين يفتح أحدهما إلى داخل المدينة والآخر إلى خارجها ، فالابتكار جعل الممر الموصل بين فتحتي الباب فتحتين بزوايا منكسرة قائمة على شكل مرفق ، وهذا التخطيط يمتاز بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء انحناء الممر ، أمام المهاجمين^(٧) ثم طور الموحدون تلك الأبواب بأن جعلوا لها مرفقين ثم ثلاثة مرافق^(٨).
لقد ذكر الوريثاني^(٩) في رحلته للحج ، الباب الشرقي الذي أقيمت عنده ساحة كبيرة ، قد أشار التجاني^(١٠) أن أسماء المنشآت في قابس كانت لها نفس أسماء منشآت بني حماد في القلعة ، وقد نقلت هذه الأسماء عندما أسسوا حاضرة ثانية ، وباب الفوقة وهو الذي أسماه الحماديون باب البنود وكان من داخله ساحة قصر السلطان وكان مخصصا لدخول القوافل والوفود إلى الساحة الخارجية للقصر الخلفي ، وكانت توجد أبراج عالية ، يحمل على قممها جهاز الإنذار بالمرايا. ومكان النيران لسرعة الاتصالات وكذلك للرؤية من خلال المرايا التي تظهر المستقبل بعد^(١١).

(١) انظر : نفس المصادر السابقة ونفس الصفحات.

(٢) الوزير المراج ، ج ١ ، ص ٢٣.

(٣) رحلة الوريثاني السماء لزمة الأنظار وفي فضل غم التاريخ والأخبار ط بيروت ١٤٠٦م — ١٩٨٦م ، ص ٣٣٥

وأنظر دائرة المعارف التونسية ص ١٠٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الإنجليزية سنة ١٤٠٦م — ١٩٨٦م ط ج ٤ ص ٣٣٤ — ٣٤٠ وأنظر دائرة المعارف

التونسية ص ١٠٠.

(٥) رياض النفوس ص ٢٦٧.

(٦) هناك مثل شائع يقال عن أبواب المنستير يهلك من باب ويملك من خوضة الذي وجد ضمن أبواب المنستير أنظر

إبراهيم شيوخ رباط هرمة رسالة ماجستير مقدمة لقسم الآثار بأداب القاهرة سنة ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م. وأنظر نشرة

الآثار الإسلامية بتونس ص ١٥٩.

(٧) انظر كمال الدين سامح : العمارة في صدر الإسلام الهيئة العامة للكتاب ط ١ ، ص ٧٤.

(٨) سعد زغلول : العمارة والفنون في الإسلام ص ١١. محمد عبد الستار عثمان المدينة الإسلامية ص ١٤٤ والمرجع

السابق نفس الصفحة.

(٩) الرحلة الوريثانية ص ٦٢٦.

(١٠) محاضرات مذاعة لده حسني مؤنس والطاهر مكي على لقناة الفضائية وقد ذكر الحسن الوزان هذا القصر في وصلة

للتجارة أنظر لبو الأفريقي وضع في أفريقيا بيروت ط ٢ ص ٦٣.

(١١) مارسية الفن الإسلامي وقد ذكر هذا في وصف المنستير.

وكان التجار يدخلون وتفوح رائحة الطيب وتوابل الشرق من أحمالهم ، والصناديق المزخرفة وترفع دقات الطبول والمزامير المشهورة بإفريقية وبخاصة قابس^(١) الأرياض :

احتوى تخطيط قابس على مناطق سكنية وتجارية خارجها عرفت باسم الأرياض حيث اشتملت على الدور والأسواق والملحقات التي تخدمها فنادق وحمامات وحوانيت وغيرها ولا نستطيع الوقوف على سعة هذه الأرياض أو معرفة مساحتها أو أسمائها فالبكري^(٢) يذكر : " بشرقيها وبقليها أرياضها " ويقول التجاني^(٣) " أن جل أسواقها في أرياضها وكلمة جل تدل على السعة والمساحة العظيمة وهذا يعطينا فكرة أن هذه الأرياض كانت شاسعة وبها أسواق واسعة. ولا شك أن الریض القبلي أو الجنوبي كان في منطقة سيدي أبي لبابه^(٤) وربما قرب عين سلام أما الشرقي فربما كان عند المنارة من ناحية البحر وفي حي الجارة وسوق الجارة سوق عظيم ومازال حتى وقتنا الحاضر^(٥) وعند المنارة كان الحدادة وقوافلهم لا يستخرجون إلا عندما يصلون إليها^(٦) وترجع الباحثة من شعر الحدادة الوصول والراحة له لا بد أنه كان هناك سوق كبيرة لتصرف ما يحملونه من بضائع كذلك وجد نزل لراحتهم ومسجد للصلاة ورباط للهجوم والدفاع عند اللزوم^(٧).

الساحات :

قال الورثياني^(٨) فنزلنا قابس عند الباب الشرقي في فسحة عظيمة وتجاه أبي لبابه بعيدا منه من جهة البحر " يستدل من حديث الورثياني^(٩) أنه نزل بساحة مكان فسيح خارج الباب الشرقي ، وقد جاء في قافلة حج فلايد أن يحتاج أولا إلى مكان فسيح يؤوي الجميع، وثانيا لا بد من أن يكون كل هذا خارج المدينة لتأمين تحصينها وحمايتها^(١٠) وثالثا لتأمين الطرق الرئيسية التي تمر القوافل سواء قوافل الحج أو قوافل التجارة إلى جانب الساحات الأخرى خارج المدينة وهي المصاراة. كما يطلقون عليها هذا الاسم في مدن الشمال الأفريقي والأندلسي^(١١).

"والمصاراة" اختلف العلماء في تحديد معناها أو أصلها ، وقد أطلقت بمدن المغرب والأندلس على الفناء الفسيح المجاور للمدن الكبرى وعادة ما كانت تقام فيه ألعاب الفروسية واستعراض الجند ، كما كانت تقام فيه الصلوات العامة ، مثل صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء ، لهذا أطلق الأمويون في الأندلس اسم المصاراة والمصلى لأنها كانت في مكان واحد ، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى اللغة الأسبانية باسم Ahmuzara ، وهناك تفسير آخر يرى أنها جاءت

(١) اشتهرت قابس بالمطور والحناء والفرق الموسيقية في الأفراح النظر ج. بوريس المعادات والتقاليد التونسية ط تونس ، ط ١ ص ٦٠-٨٥.

(٢) المسالك .. ج ٢ ص ٧٦٦.

(٣) الرحلة ص ٩٦.

(٤) المرزوقي : قابس ص ٧٠.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٦) كان لهم بيت شعر : لا نوم لا نوم ولا قرارا حتى يصل قابس والمنارة

(٧) هذا استنتاجات مبينة على ما تحتويه منارات الأريطة والمساجد على شاطئ مثل مسجد الصبريح وغيرها. انظر : التجاني الرحلة ص ٧٥-٩٧ ، وكذلك على أن بعته guisin وجدت أحجار ضخمة كثيرة في هذه المنطقة.

(٨) الورثياني : الرحلة الورثيانية ص ٦٦١.

(٩) المصدر السابق نفس الصفحات.

(١٠) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية طه للكريت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٦٠.

(١١) نفس المرجع ص ٦٠ وانظر سيد عبد العزيز سالم بحوث ص ٥٦٦.

من مصر الخيل ، أي استخراج حربيها ، ويقال للموضع الذي يمصر فيه الخيل المصاراة (١). مما يعطينا هذا المعنى وبخاصة أن المصلى كان بالقرب من ساحة المبنى بين المدينة والبحر وأخبرنا ابن الحاج التميمي (٢) إنه كان يسكن المصاراة دائما وجهاء الدولة ووجوه الخدام ذور المراتب المخصوصين بالبر والإكرام وقواد الاجناد الذين عمروا مقامات الأبراج والألجام. يبدو مما سبق أن المصاراة سكنها قوم عسكريون ممن عهد إليهم بالخيل (الألجام) وأبراج المراقبة لذا وجب وجودهم خارج المدينة للحراسة والمراقبة من ناحية أسوار المدينة وأبوابها (٣) هذا إلى جانب حصن المدينة الطبيعي ، وهو الغاية المليئة بالبساتين والثمار والأشجار المتشابكة أغصانها ، وقد تحدث الرحالة (٤) والشعراء ، واصفين الساحات والعيون الموجودة بها ، ومن أهم ما ذكروا أن هناك ساحة عنبر وساحة الرحا وابن السلام وابن الأمير هنا من أهم العيون بها كما يخبرنا التجاني (٥).

إن أكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر ، وفيها الساحة المعروفة بساحة عنبر وقد ذكرها الشاعر أبو الفضل محمد بن علي التجاني (٦). وتوجد ساحة أخرى في هذه البساتين المسماة بالغابة هي ساحة الرحا وساحة الشراسرة وهي فيها شاليه يحمل اسمها وقد ذكرنا تلك الساحات وهي تعتبر متزهات وهي تختلف عن المصاراة.

منارة قايس :

ويشرفي قايس موضع يعرف بالمنارة ، كان به منارة مرتفعة يراه المقبل من جهة الشرق قبل وصوله إلى البلد بمسافة بعيدة وقد ذكر أن حداثة الإبل يحدون عند قدومهم من مصر إلى إفريقية ويقولون : لا نوم ولا قرارا حتى أرى قايس والمنارة (٧).

وفيما يبدو أن منار (١) قايس الشاهق كان بالشرق ، بالقرب من البحر حتى يراها كل من يدخل قايس من البحر والبر (٢) سواء ضمن العمارة الحربية على طول أسوار الحصون

(١) أمين الحاج التميمي فيض العباب وإباحته قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى القسطنطينية والتراب دراسة أحمد الطوخي ورضوان البارودي ص ٥٧ مخطوط طبع على هيئة مذكرات بعد في كتاب وتوجد منه نسخة واحدة محفوظة في مكتبة د. جمال سرور المهداة إلى مركز الدراسات الشرقية بأداب القاهرة. وقد ساق لنا التجاني قصيدة لأبي الفضل التجاني.

ملنا بملعرج المصلى نحوه حضر الرقيب وليتهم لم يحضر

وجرى لنا فيه حديث كله لقد حضرا مله أطيع بحضر

هذه الكلمة تدل على وجود مراقبة على هذا المكان مما يؤكد المعنى.

(٢) فيض العتاب ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) على سبيل المثال وابن عميرة ، انظر رحلة التجاني ص ٨٧-٨٩ وقد تغنى الشاعر أبو الفضل التجاني ابن عم صاحب الرحالة.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) على حسب تحديد التجاني كانت تقع في الشمال الشرقي من المدينة وأهل قايس يعرفون هذا الاسم ويطلقون عليه سانیه عنبر وقد تقع على حسب تحديد المدينة في الجهة الغربية منها ، ويقول المرزوقي أن سانیه المعروفة الآن (زار قايس ١٩٥٩م) تقع في الجهة الغربية من المدينة وهي نفس سانیه عنبر القديمة انظر قايس جلة الدنيا مرجع سابق ص ٢٧. وقول الشاعر أبو الفضل :

اذكر عيشتنا بساحة عنبر والجو يتحننا بنكهة عنبر *

حيث النخيل عرائس المحيا بسطا لأنها من أخضر وأصفر

* نفس المصدر ص ٩٠.

(٧) انظر اندريه لويي Le Sud Tunisia P. 27

والمدن كما كانت توجد منفردة على طول الطرق الاستراتيجية والتجارية ، وذلك للأغراض الحربية كالتحذير من اقتراب العدو ، أو لتأمين الطرق إلى جانب إرشاد السابلة^(٢) أما في عالم البحر المتوسط فقد وجدت الأبراج والمنارات المربعة. وبالنسبة لقابس كانت توجد أبراج منها منهم تماما^(٣) إلى جانب منارات الأربطة الموجودة بالساحل على طول خليج سرت الصغير مثل المنارة التي توجد بعد جزيرة شريك (قرب قابس حاليا)^(٤).

لقد كانت منارة الإسكندرية أشهر نموذج للمنارات التي يصفها صاحب الاستبصار^(٥) وكانت بديعة وقد بنيت على طرف اللسان الداخل في البحر من البر ، وإنه جعل على كرسي من زجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وجعل طوله في الهواء ألف ذراع وجعلت في أعلاه المرأة^(٦) ثم يصف لنا على أيامه ويقول : هي اليوم ثلاثة أحزمة الحزام الأول : فهو مربع البناء وقد عمل أحسن عمل بحجارة مربعة قد خفي التصاقها حتى صارت كالحجر الواحد لم يغيره الزمان وارتفاعه ٣٢٠ ذراعا ، ثم ترك أعلاه قدر غلط الحائط ، وهو ٨ أصابع ، وتحدّه ١٠ أذرع سوى هذا الغلط^(٧) ثم أقيم عليه بناء مربع الشكل ارتفاعه ٥٠ ذراعا ونحوها ، وفي أعلى ذلك مسجد محكم البناء ويقال إنه مسجد سليمان وباب المنارة من حديد ويرقي إلى الباب من أسفل المنارة^(٨) كما يخبرنا التجاني^(٩) أن المنار الموجود في شرق قابس الذي تغنى له الحداة قد سقط في زمنه ولم يبق له أثر وأصبحت منطقته تسمى باسمه ، ولكن بعثة الأثري Guérine^(١٠) وجدت أحجارا ضخمة قبل هذه المنطقة التي تسمى بمنطقة أو حي المنارة والقصور الأغلبية والمحارس الإفرقية كانت تعرف بمنارتها المرتفعة ، ويقول أبو زكريا^(١١) إذا نظروا في مرآة المنارة ، ورأوا قلاع العدو أن يبني قبيصر نارهم من كان قريبا من القصور ، فيبتعدوا أيضا ، فكل من رأى من أهل القصور نار القصر الذي يليه ، فتفسير أيضا فتتصل نيرانهم حتى تبلغ في ليلة واحدة إلى ستة ، وكما أورد التجاني^(١٢) وهي متصلة فيما بين الإسكندرية إلى بحر الزقاق بالمغرب الأقصى ، وقد تكون منارة قابس

(١) التجاني: مرجع سابق ص ٩٤.

(٢) المنار وجمعها المنائر أو المناور : هي موضع الدور أيا كان ، وفي الاصطلاح تطلق على أبراج ساحلية شامخة البنيان يملوها نور ساطع يهتدي البحار ليلا فيجتاحوا إليها انظر مجلة المشرق مجلد ١١ ص ١٠٤٣ والعامة يسمونها فنار .

هذا الجانب منارات لمرافأ على الساحب في منيفة قابس يقول د. سعد زغلول أنه إذا كانت الكنائس والأبيرة المسيحية قد استعملت تلك الأبراج من أجل رفع الناقوس أو استخدامها كخلاء للمعباد من الرهبان فالضير أن يكون هذا في الشكل المعماري لكن الوظيفة هي الأهم وهكذا نجد برج المنخلة يتطور إلى عمارة قيامها بوظيفة الإرشاد إلى جانب الأذان وهذا الاسم مازال مستخدما في المغرب الأتلس لتظر العمارة والتلون ص ٢١٦.

(٣) سعد زغلول نفس المرجع والصفحة

(٤) Gurini Voyage Archeologique dans la enceinte tunisienne, T219

(٥) ذكرها لنا في رحلته عددا منها فمثلا واحد منها بين بناء الأغلبية هو المذكور في المني ويقع في منطقة الفلاحين وهي آخر أرمن الجزيرة من قصور الحجارة المربعة ص ٢٢.

(٦) مجهول ، مصدر سابقة ص ٩٤.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

(٨) نفس المصدر والصفحة.

(٩) نفس المصدر.

(١٠) الرحلة ص ٩٢٣.

(١١) معجم البلدان ج ٤ ص ١٨٨ ولتظر سيد سالم بحوث، ج ٢ ص ٤٧. Royage Atchcogique P. 18.

(١٢) السير ص ١٦٠.

(١٣) الرحلة ص ١٦٠.

الشاهدة في ناحية الشرق تظهر بوضوح القوافل الآتية من المشرق كما قال الشاعر - في وصف التجاني ^(١) يتضح لنا أن هذه المنارة كانت ناحية الشرق من حدود المدينة في المنطقة المسماة (البلد) وهي أحد أجزاء المكان القديم للمدينة الإسلامية (أي مدينة قابس قديما) لأنه بعد ذلك يذكر منشآت داخل المدينة ^(٢).

المرفأ (الميناء):

يقع المرفأ على خليج سرت الصغير أو خليج قابس وكان في الأصل عبارة عن مصب لأودية قابس وعيونها التي تأتيها من الجبل في جنوبها ^(٣) وهو مثل كل المرفأ في العصر الروماني حولت ضفاف المصب إلى أرصفة ، بعد حين وصل بين حواجز المرفأ الخارجية ببناء حجري لحماية المرفأ من مروج البحر ^(٤) ويبين أن شكل المرفأ عبارة عن شكل متعدد الأضلاع وغير منتظم وله ثغر ضيق ووادي قابس يرمي في البحر على مساحة كيلو متر بين شمال شرق حي المتزل ، وفي أوقات الجزر تنخفض مياهه أقل من مترين وبعلامات ثابتة وهي أن تمرق متضخمة بواسطة أمواج البحر فتتحول ثانية رقيقة وقليلة العمق وفوهة هذا النهر كانت تستخدم منذ قرنين كمرفأ للوادي أما مرفأ مكاباس القديم فقد غطته الرمال منذ مئات السنين ^(٥) كانت توجد منارة لإرساء السفن - كما يوجد برج دفاعي بالقرب منه وتوجد منذ عصر الحماية طابية تسمى البرج الجديد .
يخبرنا البكري : ^(٦) " وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان أما الإدريسي ^(٧) فيقول أنه يستوعب السفن المتوسطة والقوارب ترسو بواديهما وهو ليس بكثير السعة .
كان لمرفأ قابس عدة مراس لكن الحفريات لم تعط سوى اثنتين:
طرف الماء بعد وادي العكاريت شمال قابس، أي في الطريق الأثني من صفاقس على الساحل كما كان في طرف الماء مرفأ صغير مازال المراكب الصغيرة تتعامل معه إلى وقت رحلة جبرين ^(٨)
ومرسى بالماء وهي المراسي القديمة التي أرساها الفينيقيون.

(١) الرحلة من ٢٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة. ومن المحتمل أن تكون المنارة رباط صحرابي يحتوي على مسجد وبيت صحرابي لإيواء رجال القوافل ودوابهم ومن المحتمل أيضا أن يكون قريبا من الباب الشرقي الذي ذكره الوريثاني في رحلته فيما بعد أو تاليا أمام مقر القوافل فهو جزء هام في المدينة الإسلامية وهو ما يجوز أن تطلق عليه اسم العمارة التجارية التي تمت وتطورت في العصور الإسلامية بعد أن شارك فيها الأفراد.

(٣) البرغوتي تاريخ ليبيا من ٥٥٦-٥٥٧.

(٤) جبرين : رحلة أثرية من ١٧٩.

(٥) Elkaïum ,Karim La riseslouce de gabies calers de lunise v. amme 1974 t 154.

(٦) المسالك ج ٢ من ١٦٦

(٧) نزهة المشتاق من ٢٧٩.

(٨) انظر الرحلة... الفصل ١٨

الفنادق :

ويقول ابن منظور أن كلمة فندق فارسية وبلغة أهل الشام تعني الخان^(١)، وهي كلمة أصلها يوناني Fondaque مركبة من لفظين Fon = كل و daque = قبل، أي استوعب كل شيء، وهو مرادف لكلمة نزل أو منزل^(٢)، وبهذا تدل الوظيفة التي يؤديها المبنى المخصص للكلمة المرادفة لها في المشرق، مثل (خان، كرافان، سراي، نزل وكالة^(٣)). ولا يفرق المقريري^(٤) في خططه بين التيسارية الوكالة والخان والفندق لتشابهها في نظره. أما قابس فقد ذكرت المصادر كثرة فنادقها وذلك لأنها كانت مركزا تجاريا للتبادلات التجارية من ناحية البحر والصحراء وعلى طريق رئيسي يؤدي لغيرها من المدن الساحلية الصحراوية.

وتقع الفنادق بصفة عامة خارج قابس وتتجمع فيما يشبه مدينة صغيرة مغلقة، أو مكان خاص بالتجار الغرباء عن المدينة، وعلى مقربة من مرفأ قابس توجد فنادق للتجار الإيطاليين خاصة (البيشاتيين أو البيازنة).

ويبدو أنهم كانوا يسمون كل فندق باسم طائفة من التجار النازلة. وقد جاء في كتاب - Demas Latri^(٥) معاهدة تجارية برقم ٧٩٣ ذكره المدن خاصة قابس التي أقامت فندقا خاصا بالتجار الإيطاليين حتى لا يشاركهم فيه أحد من التصاري. ويبدو أن هذا الفندق كان على بعد ميل واحد من المرفأ كما هو في تونس^(٦). والفندق يضم عددا من المنشآت المتعددة منها منشأة سكنية من عدة طوابق لإقامة التجار، وأخرى لتخزين السلع ومكاتب شئون تنظيم الحالية التي يتبعها التجار (بيازنة، جنوئين) وأحيانا كنيسة لأداء صلواتهم^(٧).

كما يوجد بها فرن ومطبخ لإعداد الخبز والطعام ومحل لتقديم الطلبات الضرورية لهم وسوق جامعة لمنتجاتهم^(٨) وحمام، ومن الجائز أن يكون هناك مكان لتنفيذ أي عقاب للخارجين عن القانون واللوائح، يشرف على ذلك فنصل مهمته تنفيذ أحكام القضاء فيها والإشراف على هذه المنشأة أو الفندق^(٩).

(١) لسان من العرب مادة فندق

(٢) طوبيا العنبرلي: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة مع ذكر أصلها، ط القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ١٧٠ ونظر عبد الجبار ناصر العلاقات الاقتصادية للدولة الحفصية - رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٩٢م.

(٣) خان أو نزل أو وكالة تعطىها على مؤسسات تجارية، وأماكن لراحة التجار في نفس الوقت وهي كلمات مشرقية، أما كرافان سراي، فهي كلمة تركية من كلمة كرافان : القافلة. ثروت عكاشة القيم الجمالية في العمارة الإسلامية القاهرة ط ١ ص ١٧٨.

(٤) المقريري : نصر الدين أحمد بن علي بن تقي الدين (٨٤٥هـ - ١٣٧٧م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريرية ط بيروت - ج ٢، ص ٢٤٠.

اليمقوبي والبكري والإدرسي وغيرهم من مصادر سبق ذكرها وأنظر : نعيم زكي فهمي طرق التجارة الدولية ومحطاتها ط. الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣ / ١٩٧٣م، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٥) Traite de Paix et de commerce edit 1898 P. 169

(٦) أنظر المرجع السابق، نفس الصفحة وما يليها.

(٧) نفس المرجع والصفحات أنظر صبحي ليب، الفندق ظاهرة سياسية اقتصادية بحث في ندوة مصر والبحر المتوسط، ص ٢٨٥، ط القاهرة ص ٢٨٥ وما يليها.

(٨) كما جاء في بحث صبحي الليبي المرجع السابق نفس الصفحات وكذلك المعاهدة رقم ٧١٣.

(٩) أنظر رحلة الميشر إيفالد : ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ٦٨ - ٨٥. وهو تيسيس ألماني ذهب لتونس وزار مدن الساحل وخليج قابس ونزل بفندق متوسط الحال بقابس ثم جريه، وقابس بها حمامات كثيرة إلى جانب الفنادق والأسواق، الوزير السراج، الحال : ج ٢، ص ٢٨٩

وكانت هذه الأبنية التي تتكون منها منشأة الفندق عبارة عن بناية كبيرة مربعة الشكل مكونة من عدة طوابق شكلها الخارجي كالتصميم للحصين ، وبداخلها فناء واسع تجري فيه عملية تبريد البضائع أو إعدادها للشحن من فك وربط ولصق أوراق عليها لتوضيح بيانات. ويتضمن الطابق الأرضي حوانيت مخازن ذات قباب ، والأدوار العليا كانت مخصصة لسكن التجار ونومهم فيها وكانوا يعلقون غرفهم بأقفال رومية^(١) ، ويحيط بها من الخارج أشجار غالبا ما تكون مجلوبة من بلاد هؤلاء التجار^(٢).

وكذلك توجد كنيسة أو معبد تناسب دينانة التجار. وكل أدوار مبنى الفندق تكون سهلة المراقبة والتهوية وتخضع لإشراف الإدارة الحكومية من قبل الخلافة في ذلك الوقت. وتعطي امتيازاً لإقامة الكنائس ودور العبادة^(٣).

يتميز الفندق بأنه يقبل التجار من ذوي الجنسية الواحدة أما الوكالة الإسلامية فتتكون من فناء محاط بحجرات كثيرة من الحجر تستخدم كمخازن ، من فوقها طابق يشتمل على حجرات يتم فيها المقايضة بين التجار الغريباء والمحليين ، تعلوها وحدات سكنية كل منها ذات طوابق ثلاثة قائمة بذاتها أعد الطابق العلوي لكل منها للنوم وبه المشربيات التي تطل على الصحن المكشوف^(٤) وحراسة التجار والبضائع ومكفولة لهم وهي مؤسسة مكتملة المرافق^(٥) لكل ما يلزم التجار وكذلك يوجد بها مسجد أو زاوية للصلاة ، وهذه هي المسافر خان في الشرق أو الكرفان سراي.

الرباطات :

تعني كلمة الرباط مصدرا للفعل رابط ويقال رابط الشخص إذا لازم الثغر ، وهو يخشى من هجوم العدو وعلى هذا فالمرابطة هي ملازمة الثغور استعدادا لملاقاة العدو ، أو أن يربط كل من الفريقين جنودا لهم في ثغره^(٦).

وقد عرف المسلمون الأوائل معنى الرباط والمرابطة كنوع من الجهاد لنشر الدين والدفاع عن الإسلام ، " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"^(٧) " واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"^(٨). لقد كانت روح الجهاد والحماس للغزو ونشر الدين لدى مسلمي المغرب بجانب الرغبة في الزهد والتعشف مما كان له الأثر في انتشار الأربطة (الرباطات) على ساحل إفريقية كما في ساحل المغرب الإسلامي بطوله مما عمل على حماية الجناح الغربي الإسلامي^(٩) وربما في اختيار القيروان^(١٠) التي لا تبعد عن البحر ولحصنها ، واعتبار أهلها مرابطين

(١) علي بن أبي طالب : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ عهد الإسلام حتى سقوط الدولة العثمانية ط القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٦م - ١٩٧٦م ص ١٩٩

(٢) في ذلك أنظر هايد تاريخ التجارة في الشرق الأدنى ت / أحمد رضا محمد رضا ، ط القاهرة ١٩٩٤/١٤١٤ ، ج (٣) ، ص ٣٢-٣٣ ، وأنظر : صبحي لبيب الفلند ظاهرة سياسية ص ٢٨٧.

(٣) ثروة عكاشة : القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، ط القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٧٠ وما يليها.

(٤) سعيد عاشور ، محمد زغلول - مختصر المجلدي ، في دراسات تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، ط الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ص ٣٠٠ - ٣٠٣. والمصدر السابق نفس الصفحة وما يليها.

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٦) محمد توفيق بليغ ، نشأة الرباط وتطورها ، ط جمعية الآثار ، الإسكندرية ص ٢٨-٢٩.

(٧) سيد عبد العزيز سالم : الرباط والمرابطة مجلة دراسات أندلسية عدد يناير ١٩٩٥ ، نقلا عن ابن منظور لسان العرب : ربط.

(٨) سورة آل عمران الآية رقم (٢٠٠)

(٩) سورة الأنفال الآية رقم (٦)

بؤيدون نشأة الرباطات منذ الفتح الإسلامي التي يصلي فيها العباد والمرابطون ، متدربين عسكريا ومستعدين لملاحقة العدو ^(١) ومن الرباطات ما كان على ساحل قابس وما جاورها مثل قصر (ابن عيشون ، قصر زجونة) ^(٢) ورباط البحر الذي ذكره الغبريني ^(٣) المعروف بمسجد الصهريج التي لم يبق له أثر ويعتقد بعض الباحثين أنه ربما كان بمكان زاوية سيدي اسحاق بظهرة قراوش شرقي سوق الجارة الآن نظرا لأن ابن اسحاق نفسه كان يتعبد في هذا المسجد ^(٤) ولكننا نستبعد ذلك لوجود بساتين النخيل بين الزاوية والبحر ، والمعروف أن الرباطات تجعل لحراسة الشواطئ لا يفصلها عن البحر شيء ، يوجد قصر سجة على غدير واد يغذي قابس وقصر سجة بينه وبين قابس ثلاثة أميال ^(٥) وقد وجدت أحجار مبعثرة ربما كانت هذه الأحجار بقايا بناء قديم اضمحل ^(٦).

ورباط الحامة على خليج قابس قرب صفاقس وقص قابس وهناك الربط التي أقامها الأفراد مساهمة منهم في الجهاد وتحصين السواحل على خليج قابس ومن أشهر تلك الربط "قصر طينة" و"قصر نقطة" اللذان زارهما التجاني ووصفهما بأنهما "قصران عامران" ^(٧)، إلى جانب "محرس بطوبة" الذي كان يتميز بوجود منارة عالية يصعد إليها عبر برج من مائة وست وستين درجة ^(٨) ، ومحرس جبلة ، ومحارس أبي الغصن ، ومنه اللوزة والريحانة ^(٩). وعلى مقربة من قابس توجد أنقاض أحد المحارس القديمة وهو يعرف ببرج خديجة ^(١٠) وله منار عال ^(١١)، وبقرب قابس كان هناك "قصر قابس" ^(١٢).

(قصر - حصن - رباط - محرس - مسلح) كلها كلمات تتدرج تحت بند المصطلحات الخاصة بالعمارة الحربية ^(١٣) وتضاف لها كلمة (مرقب) بنفس المعنى زعم عرب الجنوب (في قابس أن إبل الهلالين كانت ترتاد (أم الشياه) وهو جبل بالظاهر يقع في منتصف الطريق بين دوز (غرب قابس) من جهة ومن جهة أخرى بين دوز ومطماطة (جنوب قابس) وأن (دياب بني غانم) من فرسان قبيلة زغبة الهلالية كان يحميها وسمى مكانه مرقب دياب. الأربطة أو رباطات الأغلبية ذات الطابع العسكري الديني ، إما مساجد ونكر ما فيها من مرابطين أي الوظيفة الدينية وتخللها بعد ذلك المرابطة ويطول الساحل مساجد كثيرة وهي مساكن للصالحين

(١٠) بلبلج - ص ٢٧ ونزعة المشتاق

(١١) الإدريسي نزعة المشتاق ج ٢ ، ص ٣٠٥ وانظر محمد عبد الهادي شعيرة الرباطات الساحلية للبيبة بحث من مؤتمر تاريخ ليبيا التقيم والحديث ط بنغازي ط ١ ص ٢٣٦

(١٢) عنوان الدراسة ، ط بيروت ، بدون ص ١٢٩.

(١٣) الغبريني ص ٢٣٩.

(١٤) الإدريسي ج ٢ ص ٢٧٩.

(١٥) المرزوقي ص ٨٥.

(١٦) التجاني : الرحلة ، ص ٨٤

(١٧) عن محارس صفاقس : انظر ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٠ ، البكري : المغرب ص ٢٠ ، الإدريسي : نزعة المشتاق ج ٢ ، ص ٢٨٠.

(١٨) هي خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعالري ، وكانت شاعرة مشهورة ، ونكرها ابن رشيق في كتابه الأملودج ، وقد ذاعت شهرتها في القرن الرابع الهجري بسبب أشعارها في بيت لها يدعى أبا مروان عبد الملك بن زيادة الله ، وقد رفض أهلها زواجها من حبيبها. انظر : حسن حسني : شهوريات الترتيبات ، ص ٥٢.

(١٩) يرجح حسن حسني عبد الوهاب أن يكون سبب تسمية هذا الحصن راجعة لهذه الشاعرة حيث يرجح أن يكون أهلها قد سكنوا المنطقة المجاورة للحصن وعندما ذاعت شهرة خديجة أطلق عليها اسمها على الحصن - حسن حسني: المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٢٠) البكري : المصدر السابق ، الإدريسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٨٠.

(٢١) البكري : المغرب ، ص ٢٠.

(٢٢) محمد حمزة الحداد المخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية في ضوء كتابات الرحلة للمسلمين ومقارنتها بالنصوص الأثرية والأوثائق والتاريخية ، ط القاهرة دار النهضة الشرق

سنة ١٤١٦ هـ - ط ١ ص ١٨.

، وهي شهيرة يزورها الناس وهي أحسن المساكن لمن يريد الإنفراد للعبادة ومساكن تجمع بين الاحتراس ومجانبة الناس ويجوار قرية مارث^(١) (في قابس) وصل التجاني^(٢) لقرية آجاس العامرة ورأى مسجد بها وأخبره أهلها أن الدعاء فيه مستجاب ، وأن فيها بعض الزهاد والمرابطين على المذهب السني الذي كان غالبا من قابس لطرابلس وكذلك في قابس مسجد الوهيبية^(٣) .

والأربطة (الرباطات) ثكنة محصنة عسكرية أولا ، وبها مسجد أو أكثر ، وكان أشهرها (سوسة) ، (المنستير)^(٤) على أقصى الشمال على خليج قابس^(٥) .
وتشابه الأربطة في التخطيط ، فقد كانت مستطيلة المسقط مسورة مزودة بأبراج^(٦) ، إن القصر عبارة عن حصن متوسط المساحة ، وقد يكون كبيرا وقد يبني بجانبه حصن آخر ، وعادة ما يشبه قصر المنستير وهو عبارة عن عبارة عن بناء من طابقين محصن ، وعلى هذا الحصن تشرف حجرات الدور الثاني على شكل شرفة ويحتوي القصر عادة على مسجد^(٧) حتى تتكامل وظائف الرباط من الناحية الدينية والعسكرية. وقد لاحظت الباحثة من خلال رحلة التجاني^(٨) أنه تحدث عن نوعين من الرباطات:
رباط له مسجد يقوم بعمل الرباط مثل مسجد أجاص المذكور على طول الساحل ومسجد يقوم بعمل الرباط ، وقد أورد اليعقوبي^(٩) والإدريسي^(١٠) الكثير من الرباطات على طول خليج قابس وخلجان إفريقية كلها^(١١) وقد أورد ابن عذابي^(١٢) أن هذا التحصينات الساحلية كانت منتظمة على مسافات مدروسة فيما بين الإسكندرية حيث كان الخبر يصل في ليلة واحدة عن طريق التيران والإشارات الضوئية المنبثقة منها ، أشهر هذه الرباطات بناها الأغلبية وأولهم أو إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٤٢-٢٤٩هـ)^(١٣) .
وقد كانت الرباطات في الشرق أيام هارون الرشيد والخليفة المأمون تسمى محارس أو مسالح^(١٤) وقد اقتبس الأغلبية الكثير من أصولها وطبقوها في إفريقية^(١٥) وقد جاء في كتاب الإدريسي^(١) أسماء قصور على هذه الرباطات وحصون أو حصن على طول الساحل..

(١) نفس المصدر نفس الصفحة.

(٢) انظر الشماخي احمد بن سعيد بن عبد الوالد (٩٢٨هـ-١٥٢٢م) السير ط عمان ١٤٠هـ - ١٩٨٢م ج ٢ ص ١٢٨.

حيث أورد قصة بين قائد المعز حول اغتصاب بستان أحد الشيوخ لدعا عليه في مسجد الوهيبية.

(٣) سور منيعة أولية للقدم فيها آثار للأول وهي على ساحل البحر وبالقرب منها محرس المسير وهو صحن عالي البناء متكن العمل فيه جماعة من الصالحين الذين حيوا أنفسهم فيه منفردين عن الأهل والعشائر وبقرية عدة محارس متقلبة البناء معمورة بالصالحين.

(٤) الجون: استدارة للخليج للداخل انظر الإدريسي ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣.

(٥) انظر عنوان التراسمة ص ٢٤٠.

(٦) انظر عبد الرحيم غالب ، موسوعة العمارة الإسلامية ط جروس برس ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م انظر محمد عبد الهادي شعيرة الرباطات الساحلية اللبية الإسلامية ص ٢٣٧.

(٧) انظر الرحلة ص ٢٢.

(٨) يقول عنها أنها قرية حقيرة انظر المصدر السابق ص ١٨١.

(٩) البلدان ص ٢ ج ٣ ص ٢٨٩.

(١٠) نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٨٠ وما يليها.

(١١) المصادر السابقة نفس الصفحات.

(١٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٩١.

(١٣) ابن عذاري نفس الصفحات. Charles Anulien Julien, l'epase de l'afrique du Nord sj 83.

(١٤) أورد أبو الهلال العسكري أن الخليفة المأمون أول من أطلق اسم مصالح على مسالح الأوائل ط بيروت بدون ٤٣.

(١٥) دائرة المعارف الإسلامية ط القاهرة دار الشعب ط (١) ج ١٥ ص ٨٢-٨٢.

وهذه الحصون المحتوية على مساجد تشبه القلاع أو المعاقل الدفاعية التي ينطلق منها المجاهدون لدرء أي عدوان خارجي ، وهذا الحصن مربع الشكل وغالبا ما يحيط به سور غليظ خارجي وفي أركانه أبراج المراقبة ، وترتكز عليه منارة شاهقة الارتفاع ذات وظيفة مزدوجة وهي : المراقبة والأذان في مواعيد الصلاة^(٢) ويدخله صحن أو فناء مستطيل في وسط الرباط وتحيط بالجوانب أروقة ، وفي الجوانب درجات للصعود لطابقين بأعلى فيها غرف للمراقبة ، وهي على جوانب الصحن من أعلى من كل جهة وتشتمل كل جهة على ثمان غرف ، أما جهة الداخل فمن المرجح أنها اتخذت إسطبلات للخيول والمجموعة التي في الأركان وفيها غرفتان كانتا مخصصتين كمستودع للأعلاف وأغراض القصر^(٣) وغرفتا الركبتين الشمالي والغربي والغرفتان المتصلتان بهما كانتا مراحيض وميضة حيث وجد فيها مجاري من الفخار تنصرف فيها المياه خارج القصر أو الحصن ، كما توجد غرفة كبيرة خصصت للمكتبة وقاعة للاطلاع فيها مصاطب يجلس عليها المطلعون ، والمكتبة عبارة عن تجاويف في الحائط لوضع الكتب وبين الحائط القبلي والسور كان يوجد فناء فيه أضرحة للشخصيات الهامة^(٤) أما من حيث الواجهة الخارجية فقط شبهه مارسيه Marais بأنها تشبه الحصن البيزنطي^(٥).

أسس البربر الرابطة وهي رباط أو أريطة له حصن على الجبل تجمع فيه القبيلة مدخراتها ، ويتولى البعض حمايتها ، وأسس المنسيتر على الساحل للعبادة كما توجد في الشرق صروح الأنوار وهي ربط عليها منائر تضيئ الطرق خصوصا على حدود العراق للحماية من الغارات المفاجئة^(٦).

والرباط (في جنوب قابس) هو اللباس العسكري للحراسة الساحلية أو الصحراوية ورابطة لجمع الزاد الجماعي وحمايته وبه منارة تبين السبيل للقادم ، إلى جانب مركز للحمام الزاجل الذي يحمل الزاجل الذي يحمل الأخبار^(٧) وقد أدرك المسلمون خطورة هجمات البيزنطيين على السواحل وفي الجبال والصحراء التي جهزت فيها غرف للمسافرين ، وعلى الرباط منارة عالية للإرشاد ، وكان الحداة يقولون : لا نوم ولا قرار حتى أرى قابس والمنار^(٨).

الرباط البربري حول قابس يسمى تاشرافت وتعزيمت وصارت هذه الأريطة كثيرة ومتعددة^(٩) الأولى التاشرافت ، وهي أي مرقب مشرف به رباط ، وذلك منذ القرن الثاني للهجرة ، ويوافقه كلمة السروات في بلاد اليمن ، وتاشرافت تماثلها ولكن في إفريقية تطلق على الجبال المشرفة بالمراقبة^(١٠) أما بتغرمت هي الدار المحصنة وهي دار مربعة في أركانها أبراج وفي سورها مدخل واحد يتصل بغرفة تجانبها ثلاث غرف ، وفي باقي الواجهات الداخلية وفي زوايا من زوايا هذه الغرف يوجد درج يؤدي للطابق الأول الذي هو صورة طبق الأصل

(١) نزهة المشتاق ج ٢ ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٨-٣٨.

(٣) نفس المرجع ص ١٠٧، ١٠٨.

هذا رأيه لكن الحقيقة لعمارة المسلمين نمط خاص وإن كان بها لقطة من العمارات الأميق.

(٤) Ivoine & architectus Musulmane j 118.

(٥) مؤتمر تاريخ الآثار الإسلامية الأول بالمغرب عن الفن المعماري عبد العزيز عبد الله البربري هلنسة الحصون ص ١٥٦ ، ١٥٨.

(٦) عثمان الكعاك ، الحضارة ، ص ٨٠. والرباط في المشرق والمغرب على نظام واحد وإن اختلفت المصطلحات.

(٧) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ص ٢٨٢

(٨) التجاني ص ١٥٤ - ١٥٨.

(٩) عبد العزيز عبد الله نفس الصفحة.

(١٠) نفس المرجع والصفحات ص ١٥٦.

زوايا هذه الغرف يوجد درج يؤدي للطابق الأول الذي هو صورة طبق الأصل للطابق السفلي حيث الخدم والحاشية ، أما الحصون الركنية فتستعمل كمخازن للمؤن وتؤدي إليها ممرات ضيقة ويحيط بالساحة سقف جانبي من الخشب ، والطابق الثاني لا يحتوي على غرف بل هو امتداد للسور مجهز بتقويع للحراسة ويوجد أيضا عند البربر ما يسمى بالمخازن المحصنة التي تسمى بالبربرية "ايغرام" وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تفتتح في ساحة داخلية وتقوم البناية كلها على ارتفاع شاهق في نقطة استراتيجية لذلك تستخدم كمستودع للمؤن وكقلعة يلجأ إليها الناس عند الخطر^(١).

وتبني كبرى حصون البربر بالطابية وأحجار الجبل وجذوع الأشجار ، وتبني قاعة دائرية كبيرة فيها وتخصص لكبار القادة وتحاط بسور قوي والحصون والقلاع تشرف على المدشر^(٢) أو القرية الصغيرة المحاذية لها (أجادير) وهي نوع من الجور المحصنة للمستودعات وغالبا ما تحتوي على مسجد ومخازن ودار ندوة للأعيان وفي وسطها صهريج مياه .

ومن اقوى تلك الحصون البربرية هي تحصينات مطماطة التي تقع جنوب قابس لأنها مركز البربر الأمازيغ وهم السكان الأصليون للجنوب من إفريقية بصفة عامة^(٣). فهذه الحصون هي تاريخ صمود رجال البربر أمام الطبيعة القاسية ضد كل معتد. لقد نقشوا على الصخر تاريخ هذا الصمود وتترأى لنا تلك القرى على الهلال الحجري لجبال مطماطة وتطاوين.

تري على قمم تلك الجبال حيث الطبيعة القاسية واستمرارية الأصالة لهؤلاء البربر على مر العصور في هذه المساحات الشاسعة الممتدة في الجنوب الشرقي بين والبحر والصحراء حيث حفرت الأيدي مساجد ومساكن معاقل بين طيات الجبال ومنعطفات المنحنيات ونجد القصر عند أهل الجنوب الشرقي في أعلى المرتفعات عادة وهو مخزن المؤن والمعل الذي يلجأون إليه عند أي هجوم يحتمون به زمن الحرب. يعرف القصر بأنه المكان المشترك والمغلق والمقسم داخليا. تحرسه مجموعة من جنود لأن فيه أفراد قبيلتهم و ممتلكاتهم. والقصور جمع أقصر (بلغة قابس) وهي تمتد من التراب الطرابلسي حتى يصل إلى قمم جبال الأطلسي في أقصى الغرب كنظام بربري واحد سواء في الجبال أو الوهاد (مفردها وهاد ويقع بين جبيلين)^(٤) يتميز القصر بخاصيتين أولاهما الموقع: الذي يكون أما على قمة جبل أو في الوهاد (كما ذكرنا) وذلك لضرورة حربية حيث التحصين ومراقبة الأعداء في نفس الوقت. ثانيتهما: التخطيط المعماري: ويكون متماثلا في جميع القصور على مر العصور والذي يتكون من:

١-السقيفة : وهي المدخل الوحيد له.

٢-الصحن : حيث تقام فيها الاجتماعات والحفلات

الغرف أو المنازل وتكون للخزين وتكون مغطاة بالملاط ومزخرفة بزخارف بربرية خاصة ويوجد بجوارها برج للمراقبة ومعاصر الزيتون ومطحنة للحبوب وهي تكون دائما فوق القرية البربرية. هناك اختلاف بين لنا أنها تطورت إلى حد ما ففي العصور القديمة من حياة البربر

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) المدشر عبارة عن تجمعات مساكن للفرحين ليس لها سوق أو مسجد جامع ،أظر بن خلدون ج ١ ص.

(٣) مازلت أراهم محفظة بهذا الطابع البربري في عمارتها لكن

Voir: André louis, le sud tunisien P.45-75.

(٤) لقد أصبح هذا الطابع يشد السائحين لمشاهدتها ويشد الأجانب لاستكشافها مثل أندريه لويس الذي مكث بينهم أياما طويلة.

كان الصحن مربعا أما خلال العصر الإسلامي أصبح الصحن مستديرا مما يدل على تأثير البربرية بالإسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

الحياة السياسية

- ١- تمهيد : قابس منذ الفتح الاسلامي حتى الغزوة الهلالية .
- ٢- الغزوة الهلالية
- ٣- إمارة بني جامع في قابس.
- ٤- علاقات قابس السياسية مع نواحي إفريقية :
مثل : صفاقس ، قفصة ، بلاد الجريد
- ٥- علاقات قابس السياسية:
 ١. مع بني زيري ، وبني حماد.
 ٢. مع المرابطين.
 ٣. مع مصر
 ٤. مع الأندلس
 ٥. مع الموحدين
 ٦. علاقات قابس مع النورمان في صقلية
 ٧. مع السودان

قابس منذ الفتح الإسلامي حتى الغزوة الهلالية

لم يذكر المؤرخون تاريخاً محدداً لفتح قابس ، ولكن بعضهم أشار إلى أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح عليها عام ٢٧ هـ ، ثم انصرف عنها لئلا ينشغل بها عن فتح إفريقية ، وبذلك لم تفتح عام ٢٧ هـ ، كما ذهب ياقوت الحموي^(١) ، ويذكر التوبري^(٢) ، عن جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح^(٣) :
 " ... فجمع عبد الله بن سعد جيشاً عرمرماً ... " ^(٤) ، فتح بها طرابلس وغنم منها ، ثم يقول :-
 " ... ومعنى حتى نزل بمدينة قابس فأشار عليه أن الصحابة أن لا يشتغل بها عن إفريقية ، فسار ويث كل السرايا في كل وجه ... " ^(٥) ، ولم يرد اسمها بالتحديد في فتح العرب للمغرب ككل^(٦) .
 اختلفت روايات الفتح الإسلامي لقابس ، لكنها اتفقت على أن عبد الله بن أبي السرح حاصر قابس في طريقه ثم استصوب أن ينصرف عنها كسبا للوقت لأنها كانت محصنة ، وقد التقى حاكم إفريقية البيزنطي جرجوريوس^(٧) ، وجنده بمكان قريب من سبيطة^(٨) ، يسمى عقوبا^(٩) ، حيث دارت معركة انتصر فيها العرب ، وتسمى معركة سبيطة ، وبذلك وصل إلى سهل تونس^(١٠) .

- (١) معجم البلدان : ج ٤ ، ص ٢٧٩ ، مادة قابس مع ملاحظة أن في هذا الوقت ٢٧ هـ ، لم تكن القيروان قد بنيت .
 - (٢) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب التوبري : ٧٢٢ هـ - ١٣٦٤ م . نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٤ : تحقيق حسين نصار ، ط . القاهرة . الهيئة العامة للكتاب سنة ١٤٠٣ هـ ، ص ١٠ ، ١١ .
 - (٣) فاسمه عبد الله ابن سعد بن أبي السرح بن حبيب بن حنيفة ، المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .
 - (٤) عرمرم بمعنى : الجيش العرمرم الكثير ، انظر المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ج ٢ ، ص ٣١ ، وانظر : المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
 - (٥) ابن عبد الحكم : نفس المصدر والجزء والصفحات ، أبي القاسم عبد القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم بن اعين القرشي توفي ٢٥٧ هـ - ٨٧١ م - فتوح مصر وأخبارها د/ عبد المتعم عامر ، ط . القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٩١ م ، ط ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .
 - (٦) المصدر السابق نفس الصفحة ، وانظر نفس المصدر والجزء والصفحات .
 - (٧) يسميه العرب : جرجير ، انظر للتوبري ، ج ٢٤ ، ص ١١ ، الذي يقول "سُلطان من طرابلس إلى طليجة وولايته من قبل هرقل" .
 - (٨) هي مدينة قنودة غير بعيدة عن قابس على مسافة يومين من القيروان ، وهو بلد واسع فيه مدن وحصون وهي كانت مدينة جرجير ومستقرة ، وكانت عاصمة إفريقية بدلا من قرطاجنة ، وخطها للمسلمين في جيش عبد الله بن سعد ابن أبي مرزج في صدر الاسلام ، حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ط . القاهرة ص ٥ ؛ وسبيطة هي Saffetula ؛ المصدر السابق ، ج ٢٤ ، ص ١١ ، - وانظر : Dicl = L'afrique Byzantine . P.227 .
 - (٩) عقوبا ، ويسمىها التوبري : فحص عقوبا ، وللتحصن هو المتحصن من الأرض ، انظر : نفس المصدر والجزء والصفحة .
 - (١٠) لقد كان جرجير يستطيع أن يمد على المسلمين الطريق الضيق الذي يؤدي من طرابلس إلى إفريقية ، وهو طريق قابس وشط الجريد ، لكنه فضل الانتظار في مكان تسميته الروايات العربية عقوبة ، لقد كانت معركة سبيطة أو واقعة سبيطة من المعارك الحاسمة في تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب كانت في ذلك الوقت دارا الملك ، يقول د/ مؤنس (ب) : أن جرجيرا فضل أن ينتظر المسلمون الفاتحون في عقوبا ، وقد كانت بينهما مفاوضات طويلة قبلها لائحة على الاسلام أو للجزية ويكون تحت سيادة الاسلام وانه أساسا اتخذ سبيطة دارا لملكة خثية هجوم العرب عليه بعد اخذهم طرابلس وبرقة .
- اما د/ سعد زغول عبد الحميد (ج) : فمن رايه أن الاقرب إلى الصواب أن جرجيرا اتخذ سبيطة خثية هجوم البيزنطيين عليه ، وأن جرجيرا أو علم أن جيش ابن أبي السرح سار إلى سبيطة أو إلى عقوبا فسيكون أكثر قبولا ، كذلك لو علم بخطة سير جيش ابن أبي السرح لانتظروا في منطقة قابس الاستراتيجية (د) : فهي أشبه بعلق الزجاجة (كما يقول المسكويون حديثا) لأنها منطقة عبور من طرابلس لإفريقيا ، أما د/ سيد سالم فيذكر أن (س) : وكان جرجير حصن المدن الشرقية مثل قابس وصفاقس مكونا خطا دفاعيا أماميا له ضد الغزو من الشرق لذا كان مطمئنا لمناعة تحصين قابس وأنها ستكون عائقا وتقرى الباحثة في هذا الموضوع أن خطط ابن أبي السرح كانت تكتفها السرية لذلك (ط) : لذلك لم ينتبه جرجير ولم يعقبا جيدا لأنه كان يعتقد أن قابس مليعة للتحصين (ص) : وأن العرب لنا يستطيعوا فتحها ، لذا ترجع الباحثة أنها فتحت قبيل معركة سبيطة ، وإلا كانت شوكة في ظهر الجيش الإسلامي ، ومما يدل على ذلك ، ما جاء في الحل السنسية ، وإن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن مصر سنة ٥٠ هـ كلمة توليته قابس بقوله :- " انه ولاه قابس وأعمالها ، فأبى الباب الذي تسال منه من رام المسير من المغرب إلى المشرق أو من المشرق للمغرب وليس له سلوك إلا عليها .. " وهذا يدل على أنها فتحت قبل ذلك أي قبل سنة ٥٠ هـ - بكثير (س) : لأنها ادرجت هي وأعمالها في سجلات ولايات المغرب ، كمثل من الأعمال ، أ - ابن الأثير (محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بأنه الابن الثاني والملقب بمن الدين [٦٣٠ هـ - ١٢٥٢ م]) الكامل في التاريخ حوادث عام ٢٦ هـ - ب - تاريخ فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢ - ج - تاريخ المغرب العربي ، ط . اسكندرية ، سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ١٥٢ -

وقد قيل أن الصحابي الجليل إبا لبابة الاتصاري المتوفي نحو عام ٤٠هـ مدفون في قابس^(١)، مما يؤكد فتحها قبل هذا التاريخ بفترة زمنية. وعندما استقر القائد البربري كسيلة^(٢)، بالقيروان بعد انتصاره علي عقبه نافع وموته بتهودة (٦٤هـ - ٦٨٤م) - بسط نفوذه علي المناطق المجاورة ومنها منطقة (باب قابس)^(٣) ومن باب قابس قامت جيوش الكاهنة (حوالي ٧٤هـ - ٦٩٣/٦٩٤م) بطرد حسان بن النعمان خارج البلاد التي جاء بنية استرجاعها . لكنه عاد فدخل هذه البلاد بعد مرور عدة سنوات وسلم له هذا الباب (أي منطقة باب قابس)^(٤)، وخرج إليه أهلها وكانوا قبل ذلك يتحصنون^(٥)، وعلي يدى حسان بن النعمان تأسس النظام الجديد لولاية إفريقية^(٦). لم تكن قابس بعيدة عن أحداث عصر الولاة في إفريقية فكانت مركزاً لثورات بعض الخوارج مثل أبي ايوب عكاشة الغزاري الصفري الذي استقر بقابس وهدد منها القيروان^(٧)، حتى استطاع يزيد بن حاتم المهلبى دخول قابس ووضع حداً للتهديد الخارجي الذي يأتي من ناحيتها^(٨). في خلال العصر الاغلبى أصبحت قابس قضية لولاية وعملاً من أعمالهم وتشير بعض المصادر^(٩)، أنها أصبحت تابعة للدولة الرسمية الموالية للدولة الاغلبية لكن يبدو أنها كان بها جابي يجمع الصدقات للاباضية ثم تنقل إلي مركزهم في تاهرت حاضرة بني رستم^(١٠)، لأن قابس انتسبت لسلطة القيروان حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة ، وإيام الاغلبية تبعتهم وكان عامل قابس يمتد إلي طرابلس^(١١).

د - بمعنى عسكرية

من - تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

ط - قواعد إدارة الجيش لهذا الصحابي الجليل هي :- الاتقان وحشد القوى ، وإعداد خطة بديلة الاستعلاء والاستطلاع ، المناورة ، إرسال الميون والأرصاء للتزود بأخبار العدو ولو لوضع خطة مثلى تؤمن النصر ، انظر: محمد شيت خطاب: قادة الفتح ببلاد المغرب، و(١) ، ص ٦١ وما يليها، انظر علي محمد الصلاحي : صفحات من تاريخ ليبيا ، ص ٢٢٢-٢٢١-٢١٩.

ص - انظر: الفصل الأول من هذه الرسالة ص قابس ، انظر : الوزير المراج - (١) ، ص ٢٢٣

ي - الحال المتقدمة : نفس الجزء والصفحة ، ومن المؤكد أن العرب لمسا تحصينها كذاك لم يخفى عليهم أنها منطقة عسكرية محمية بقلاع كثيرة ، وأن لها طريق حربي قديم يربطها بقابس (قصة في بلاد الجريد) ومن الناحية الأخرى بطريق بامايديرا (سوسة) حيث كان يربط القليل الثالث أو غطسا (أو الفرقة الثالثة أو غطسا) دائرة المعارف التونسية كرسي ٤ ، ص ١٠٠ ومايليها.

(٢) مؤثر بشير عبد المنذر الأكصاري الأوسي وهو من بني عمرو بن عوف من بني أمية بن زيد وقيل أن اسمه رفاعه لكنه بكنيته شهر وتواتر أهل قابس بذلك ، وقد يكون أتى ضمن جيش الفتح أو في بعض الجرائد (الكتائب) التي كانت ترسل لإفريقية وانظرو شرحه وترجمته في الفصل السادس من هذه الرسالة ، انظر : الكلبى : أبي المنذر هشام بن محمد بن الشافعي الكلبى ٢٠٤هـ - ٢٦٦م جمهرة للنسب ط. بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ص ٦٢٤.

(٣) مو كسيلة بن ليون الأوربي من قبيلة أوربة البربرية ، انظر الرقيق القيرواني : أبو اسحق إبراهيم بن القاسم (بعد ٤١٧هـ -

١٠١٩م) قطعة من تاريخ إفريقية تحقيق عبد الله الملي وعز الدين عمر ط. بيروت توزيع دار الشروق ١٤١٠هـ - ١٩٩١م ص

٤١-٣٩

أ - ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم القرشي المصري) فتوح مصر وأخبارها - سلسلة تاريخ المصريين ط١

القاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩١م ص ١٩٨

(٣) دائرة المعارف التونسية كرسي ٤ ص ١٠٠

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٨

(٥) الرقيق القيرواني . تاريخ إفريقية والمغرب ص ص ٣٠-٣١

(٦) المصدر السابق ص ٢٤

(٧) المرجع السابق نفس الصفحة

(٨) الرقيق القيروان : تاريخ إفريقية ص ٢٤

(٩) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية ص ٣٥ ودائرة المعارف التونسية ج ٤ ص ١٠١.

(١٠) المصدر والمرجع السابقين ، نفس المكان

(١١) اليمقوبي في البلدان ص ٢٥٥ ، وانظر : مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته ج ١ ، ص ٢٠٤

ولما قامت الدولة الفاطمية أصبحت قابس مع بقية المدن تابعة لها، عهد الفاطميون - وهم شيعة - إلى بني لقمان الكتامين بولاية قابس^(١)، وقد مدح الشعراء بعظمة قوادهم ومدحوا كرمهم وشجاعتهم ، وإذ قال شاعر منهم :-

" لولا ابن لقمان حليف الندى. سل علي قابس سيف الردي^(٢)"

فلما انتقل الفاطميون إلى مصر وبعد نحو عشر سنوات صارت قابس مع طرابلس تابعة لبني زيري الصنهاجيين الذين عهد إليهم الفاطميون بولاية إفريقية^(٣). في ذلك يقول التجاني^(٤)، والاقوام التابعة لبني زيري " فوليا في أول الامر بنو عامر ، ثم وليها ابراهيم بن يوسف بن زيري ، وهو أخو باديس ثم منصور بن موات ثم توالى في أقوام من برغواطة ولاهم المعزين باديس.

يذكر النويري^(٥)، أنه في عام ٤٠٧ هـ - ١٠٢٩ م ولي^(٦)، محمد بن الحسن أمور المعز وجيوشه وكان قبل ذلك علي طرابلس وأضيفت إليه قابس ونفراوه وقصطيلية وقنصه ، فبعث عماله إليها ، وقد قتل محمد بن الحسن في عام ٤١٣ هـ - ١٠٣٦ م لأنه منذ فوضت له أمور الدولة جبي الأموال ولم يورد لخزينة الدولة شيئاً منها ، وبني الكثير من القصور ... وانتهت حاله إلى أن أخذ مالا من الذخيرة ولم يرد عوضه .. وضائق الدولة واتسعت أحواله ... وهادى الأكابر بمصر حتى وصل إليه سجل من الحضرة فضاق منه المعز ... ففس إليه من قتله ، وصودرت ضياعه وأمواله^(٧)، ويبدو من ذلك أن الفاطميين في مصر حاولوا تأكيد سلطاتهم على قابس لكن مقتل محمد بن الحسن أجهض هذه المحاولة وظلت قابس خاضعة للمعز بن باديس

وقد ذكر الوسياني^(٨)، في سيرة بعض أسماء لقواد هذه المنطقة منهم :-
(ابن قطلو قائد عسكر المعز ، يوسف بن حلفون من بني ساغيد^(٩)) كما ذكر لنا قوادا آخرين مثل (ابراهيم بن ونمو المزاتي من مزاته القيروان وكان عاتيا [والوسياني لا يلتزم بالتواريخ^(١٠)] لكنه أورد انه في عام ٤٣٠ هـ ارسله إلى ابراهيم ابي الشيخ أبي زكريا برسالة قبيل دخوله بجيشه إلى جريه^(١١)، جاء فيها بسم الله الرحمن الرحيم .
من ابراهيم بن ونمو قائد القيادة إلى فضيل البراسني ، أما بعد فإن زواغة قد أكثروا الفساد ، وأطالوا العناد ، فاعتزل بمن معك^(١٢).

(١) التجاني ، الرحلة ص-ص ٩٦-٩٧

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) البكري : المسالك ... ص ٦٦٧

(٤) الرحلة ص ٩٦-٩٧-٩٨ : نفس المصدر والصفحة وانظر السراج : الحال : ط ص ٣٣٤ . - لقد كانت طرابلس وقابس تابعتين للقاهرة مباشرة فترة قبل أن تصبح في حوزة بني زيري.

(٥) نهاية الأرب . ص ٢٤٤-٢٠٤

(٦) ولي هنا : فعل ماضى مبني للمجهول ، محمد بن الحسن هنا للكب فاعل ، وهذا يؤكد أن محمد بن الحسن تولي أمور المعز وجيوشه المعز بن باديس ونتيجة للاضطرابات والحروب في ذلك الوقت ، ويبدو أن الفاعل يعود علي عمه بن المنصور الوصي عليه . انظر المصدر السابق جـ (٢٤) ، ص ٢٠٣

(٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٠٧

(٨) أبو الربيع سليمان بن عبد السلام: السير : مخطوط ورقة ١٩٦

(٩) المصدر السابق ورقة ٦٠

(١٠) نفس المصدر ورقة ٢٨ - سعد زغلول عبد الحميد هاشم على سير الإباضية: إشعال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب ط. تونس ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ط ١١ ص ٨٥.

(١١) انظر : فرحات الجعبري :- نظام الغرابة عند الإباضية الوهبة في جريه ، ط . تونس ١٣٩٥ م / ١٩٧٥ م ، ط (١) ص ٢٩٨

(١٢) نفس المصدر ورقم الورقة والمرجع السابق نفس الصفحة.

تولي قابس بعد ذلك محمد بن ولمويه الصنهاجي ، كما تولي أخواه قيادة الأعنة للمعز بن باديس ، وهما ابراهيم وقاضي^(١).

الغزوة الهلالية :-

شهدت إفريقية أواخر النصف الأول من القرن الخامس من الهجرة ، منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، حدثا بارزا كثير العمق ، وعميق الأثر من أحداثها التاريخية وهو الغزوة الهلالية أو تغريبة^(٢) ، بني هلال وسليم التي اجتاحت إفريقية ، وكان لها بصمات واضحة ظلت باقية عقودا من الزمان ، ولم تمح لها آثار^(٣).

كان سبب ذلك أن المستنصر أبو محمد (٤٢٧-٤٨٧ هـ - ١٠٣٥-١٠٩٤ م) لما ولي الخلافة بمصر بعد الظاهر بن الحاكم خطب المعز ابن باديس^(٤) ، محاولا الاستقلال بإفريقية في أيامه للقائم بأمر الله العباسي (أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله (٤٢٢-٤٦٧ هـ - ١٠٣٠-١٠٧٩) ، فكتب إليه وهو يرغبه ويرهبه ، ويقول :- هلا اقتفيت آثار من سلف من أبائك في الطاعة والولاء^(٥) ، فلم يذعن المعز بن باديس لوعيد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، ولم يرهبه تهديد المستنصر بإرسال الجيوش لتأديبه ، فكتب المعز إليه " أن أبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك"^(٦).

اهتدى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله لوسيلة عجيبة في الانتقام من المعز بن باديس - بإيعاز من وزيره البازوري^(٧) ، وهي إرسال القبائل العربية من معانها بالصعيد باتجاه الغرب ، وقال الخليفة في رسالة للمعز بن باديس :- " أما بعد فقد أرسلنا إليكم خيولا فحولوا ، وحملنا عليها رجالا كهولا ، ليقتضى الله أمرا كان مفعولا "^(٨) ، وكان المستنصر يهدف إلى تقويض سلطان المعز بن باديس بواسطة هذه القبائل .

وقد اتفق معهم علي أن يذهبوا جماعات وأفرادا إلي إفريقية.

(١) انظر للثجاني ص ٩٦-١٠٣ ، تستدل من ذلك أن من يتولي قابس لابد أن يكون قائدا أعلي لقواد الجيش أو متولي الجيش

وذلك لموقعها الحيوي الهام .

(٢) جاءت قبائل كثيرة منها مريا من الجنوب في نجد وللحجاز عن طريق حورس القديم عبر سيناء وكثرة مشاكلهم أسكنهم الخليفة الفاطمي علي ضفة النيل الشرقية ، ثم بأمر من المستنصر بالله قطعت تلك القبائل من صحراء صعيد مصر الشرقية بعبور النيل نحو الغرب فظهر عبد الحليم عويس وآخرون : بني هلال ص ١٦ .

(٣) وهي الرحلة التي تسببت حولها القصص والأساطير الشعبية التبريرية الهلالية . انظر : سعد زغلول ج (٢) ص ٤١٧ ، وانظر عبد الحميد يونس : الهلالية في الأدب والتاريخ ج (٨) ص ٥١ وما يليها ، وانظر الظاهر ليقه من إقاصيص بني هلال ط الدار للتوثيق ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ص ٨ - ٢٤ .

(٤) هو حفيد لقتل أول ملوك بني زيري وهو - أبو القنوج يوسف بن زيري الذي ولاه المعز لدين الله الفاطمي على إفريقية مثل رحيله واستقراره بمصر . النويري : نهاية الأدب ج ٢٤ ، ص ١٦٩ ، محمد البيلي : صفحات من تاريخ المغرب والأندلس ط جامعة القاهرة ١٩٩٩ ص ١٩٠-١٩١ .

(٥) النويري : نهاية الأرب ج - (٢٤) ، ص ٢٠٩

(٦) المصدر السابق : نفس الجزء ، ص ٢١٠

(٧) الحسين بن علي بن عبد الرحمن أبو محمد البازوري الوزير الأجل الاموحد المكين سيد الوزراء وتاج الاصفياء قاض الفقهاء وداعي الدعاة - علم المجدي أمير المؤمنين الناصر للدين دخل في خدمة أم المستنصر وارتفع شأنه عندما قبوله خطة القضاء بنصيحة من مولاه أم للمستنصر في الثاني من المحرم سنة ٤٤١ هـ - وقرأ سجله في الديوان : ثم ارتقى الوزارة وقرأ سجله ولقب بالوزير الأجل الاموحد المكين سيد الوزراء وتاج الاصفياء وقاضي القضاء وداعي الدعاة - علم المجدي أمير المؤمنين وخلع عليه في اليوم السابع من المحرم فظهر في الوزارة المقريري : كتاب المعني الكبير تحقيق محمد البعلاري ط بيروت دار العرب الإسلامي ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م لاط ١ ص ٣ - ٣٦٦ ترجمة البازوري : (قتل ٤٥٠ هـ)

(٨) ابن الأثير : الكامل ، ج (٨) ، ص ٢٩٥ ، وما يليها ، للثجاني الرحلة ص ١٩ وابن خلدون : المعبر ، ج (٦) ، ص ١٠٤ وما يليها

فتوافدوا على المعز بن باديس الذي حاول إقناعهم بالدخول في خدمته وضمهم إلى جيشه لكن مقدمهم مؤنس بن يحيى الذي أجابه أنهم لن يستطيعوا أن يكونوا في جيش المعز^(١)، فعمل المعز على مهادنتهم وصاهر منهم ثلاثاً من (بناته) فأصبحوا فيما بعد ذوي نسب مع المعز بن باديس ليأمن عائلتهم^(٢)،

لقد جاءوا للتمتع بالسلطة لا ليكونوا في خدمة الغير وهذا يوضحه قول المستنصر لهم "وقال لهم: - قد أعطيتكم المغرب، وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الإبق، فلا تفتقرون"^(٣)، وتتابع القبائل الكثيرة الوافدة إلى المغرب^(٤)، مثل: - سليم^(٥)، وهلال^(٦)، ويطونهم رياح^(٧) والاتباع^(٨)، وبني قرة^(٩)، وهذا على سبيل المثال لا الحصر، فلما دخلوا بأرض برقة^(١٠)، ومما ولاها وجدوا بلاد كثيرة المرعى، خالية من الأهل لأن زنانة كانوا أهلها فأبادهم المعز. وقد ملكت العرب مدينة طرابلس^(١١)، بعد برقة^(١٢)، ويوضح الأدريسي^(١٣)، المدن التي أيادوها

(١) انظر المصادر السابقة، نفس المكان.

(٢) التويري: نهاية الألب ج ٢٤ ص ٢٠٦.

(٣) مكث هؤلاء العرب دوما لا يملكون قوتهم لجفاف أرض نجد والحجاز ويأتوا يحملون بالرخاء والخصب والمراعي، وكان رأس ماله الوحيد إيجانتهم الشعر والملاحم والوفاء الناشئ لتواعد قبلية مضبوطة، من إطاعة الأب والشيخ والأخ، وهذا هو ما أكسبهم القوة الهجومية والدفاعية، تلك التي استفاد منها القاطمون. انظر: السيرة الهلالية، ط القاهرة، ط ١١ ص ٩٧-١٠٩، عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، ط ١٤١٣/١٩٩٢، ط ١، ج ٢ ص ١٠٢

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٦ ص ١٤.

(٥) تنتسب قبيلة بني سليم إلى بني عيلان من العبرانية بقرب: بني سليم بن عكرمة بن حفص بن قيس بن عيلان بن معز بن نزار بن معد بن عدنان، انظر: التلشددي، أبو المباسد أحمد بن علي صبيح الأعشي، ٨٢١ - ١٤١٨ م، في صناعة الانشا ط القاهرة المطبعة الاميرية، ١٢٨٤ - ١٩٦٤ م ط (١)، ص ٣٤٥

السويدي: الشيخ أبو الفوز محمد أمين البغدادي الشهير بالسويدي سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (ط بيروت)، ١٤١٥ - ١٩٩٥ م ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٦) وتتسب بنو هلال قبل التقرية إلى هلال إلى بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ابن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن معز.

ابن حزم: أبو محمد علي بن سعيد ٤٥٦ - ١٠٧٨ م جمهرة انساب العرب د/ عبد السلام هارون ط القاهرة ط ١٣٩١ - ١٩٧١ م جمهرة انساب العرب ص ٢٧٢ - ٢٧٣

(٧) رياح: من أعز قبائل هلال وأكثرهم. جمعا عند دخول إفريقية وكانت رئاستهم لمؤثر ابن يحيى بن رياح، انظر ابن خلدون:

العبر، ج (٦)، ص ٢١-٢٤، وانظر: عبد الحليم عويس: بنو هلال، ط (١)، ص ١٧-١٨

(٨) ومنهم الأكيح: أولاد ابن أبي ربيعة من الهلاليين، لهم بطون كثيرة، منها دريد وكريمة وعباس... إلخ، ج (٦)، ص ٢٢ ومن الهلاليين أيضا زغبة وم رياح أبناء أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر ومن بطونهم يزيد وحسين ومالك وعامر المصدر السابق ج (٦)، ص ٢٢

(٩) بني قرة: بطن من بطون هلال بن عامر بن صعصعة، انظر: المقرئ: الليان والأعراب مما جعل بمصر أعراب (ط).

للقاهرة (ط) (١)، ص ٢٣-٢٦

(١٠) برقة قصبة جبلية عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر وهي ثغر وقد أحاطت بها تربة حمراء وهي بني غازي أو تار بونس في الحاضر

(١١) ويقال: أطرابلس، بالرومية والأفريقية ثلاث مدن، وعلي مدينة طرابلس ومبني جامعها أحسن مبني، وبها أسواق حافلة يعرف بمسجد الشعاب ج (٤)، ص ٢٥ / يقول عنها الأدريسي: إن العرب اضطرت بها وما حولها نزهة المشتاق ط ص ٢٧٦.

(١٢) برقة قصبة جبلية عامرة ذات مزارع على نصف مرحلة من البحر وهي ثغر وقد أحاطت بها تربة حمراء، وهي علي حادة مصر، انظر المقنس أحسن التقاسيم ص ٢٣٤

والمدن التي لم يفسدوا فيها ومنها مدينة قابس^(١). وصفت المصادر التاريخية المتنوعة الحروب التي قامت واستعد لها المعز بجيوشه وعبيده. ولكن الهزائم توالى عليه، ففي معركة (يوم العين)^(٢)، ألحقه القتال واشتدت الحرب وركزوا الطعنات في عيون جيش المعز التي كانت قد تحصنت بالكزاعندات^(٣)، والمجافر إلى غير ذلك من المعارك التي دارت بالقرب من جبل الحيدران أو الجندران^(٤)، بالقرب من قابس شرق قرية المطوية شمال قابس^(٥)، إلى أن حاصرت العرب القيروان وملك مؤنس بن يحيى باجة^(٦)، وأثار المعز على الناس بالرغبة في الانتقال إلى المعصية لعجزه عن حمايتهم من العرب، وشرعت العرب في هدم الحصون وغيرها، وأقام المعز والناس ينتقلون إلى المهديّة إلى سنة ٤٤٩ هـ ومنها أنتقل المعز إلى المهديّة حيث استقبله ابنه أحسن استقبال^(٧). كانت الخلافة الفاطمية في القاهرة على علم بما يحدث في إفريقيا أولاً بأول، وذلك عن طريق البريد وطرقه المتقدمة في ذلك الوقت مثل الحمام الزاجل المدرّب وإشارات النار وغيرها^(٨).

^(١٧) يشير الإدريسي إلى أن العرب أفسدوا أرياض في مدينة باغاي، أي خارج المدينة - ومدينة البلقان التي يقول عنها، أفسدها العرب واستولت على مناجمها وعلى أرضها ومياها كذلك مدينة لبدة ومدينة سبيلة والمنازل التي على طريق قابس وطرابلس - أما القيروان فقد تولت الحوارج عليها حتى لم يبقى منها إلا أطلال باسمة وآثار وهو يقوضون ما يتوفر من مجلاتها كذلك تحدث عن صيرة وتونس العرب تجاورها وتعدّها بالمسل والحبوب وكل معاملتها مع ثقات العرب : انظر نزهة المشتاق جـ (١) ص ٢٧٦ وما يليها، إن أنحاء إفريقية التي أشار الإدريسي إلى أن العرب أفسدها صغير إذا استأه بعدد قرى المغرب ومدنه التي قامت للكامنة البربرية بتدميرها، لقد أفسدت مناطق واسعة من المغرب ككل أيام الفتح الإسلامي له، ولم يتحدث المستشرقون عن ذلك باستفاضة مثلاً بالغولفي تدمير تخريب العرب للوحي إفريقيا، وإن تخريب عرب الهلاليين - إذا اعتبرناه خصال من أثر الحروب امتدت زمناً طويلاً - يعتبر كما ليس كبيراً من حديث الإدريسي عن مدينة بلقان، إن العرب استولت عليها وهذا يعني أنهم استولوا عليها، والاستيلاء غير للتدمير، إلى جانب أن حولها قرى عامرة متجاورة لم تضار أي ملهم، إلى جانب تونس التي يحكى عن عمارتها، وأن جل معاملتها مع ثقات العرب الذين يمدونها في نفس الوقت بالحبوب والمسل والسمن وهذا يوضح أن الأدريس يصف بمومية.

^(١٨) لقد أخطأ المعز بن باديس حين عزم على خلع طاعة للفاطميين، ثم لم يقدّر خطراً اهذه القبائل وحاول استمالتها، ولم يستمد لمجابهتها حتى أنه لم يستوعب حقيقة طبيعة جغرافية عن الأرض الممتدة من أول برقة حتى إفريقية وقابس وليس فيها أي حاجز يمنع احتياجم لها، فلم يحذر ذلك ولم يحتاط، إن ما حدث في دنيا السياسة والصراع والمناصاة يعتبر أقرب شئ للوضع الطبيعي لذلك.

^(١٩) كان مؤنس بن يحيى مقمّ العرب قد عرفهم مواطن ضعيف خصومهم الذين يلبسون ثياباً ثقيلة، أن يطعموهم في أعينهم - كما فعل عبد الله بن سعد بن أبي السرح في حرب اللوية جنوب مصر - الأمر الذي أدى إلى إطلاق اسم (يوم العين) على تلك المعركة، وقد انهزم جيش المعز لذلك، ولسبب قوى أخر هو اتخاذ صنهاجة أثناء الحرب وتعاصبهم عن الوقوف بجانب جيش المعز، فلولا ذلك لفاز.

انظر : ابن خلدون : العبر . ص ١٦، انظر سعد زغلول : تاريخ المغرب جـ (٢) ص ٤٣٠.

^(٢٠) أودية محشوة من القطن والحريز يتدحرج بها في الحرب، انظر النويري، جـ (٢٤)، ص ٢١٥.

^(٢١) ابن الأثير : الكامل، جـ ٨، ص ٢٩٦.

^(٢٢) نشرة مؤتمر تاريخ ولحات تونس الأول. جزء : من مخلات المؤتمر بعنوان لمحة تاريخية عن واحة قابس، ص ٦ : نشر تونس

١٣٨٩ هـ / ١٩٦٦ م.

^(٢٣) المصدر السابق للنويري ج ٢٤ ص ٩١.

^(٢٤) نفس المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، وانظر ابن خلدون : جـ ٦، ص ١٨.

^(٢٥) انظر : القلشندي : جـ ٢، ص ٦٠-٩٧، جـ ١٤، ص ٣٩١، وانظر أمين الطيبي دراسات في تاريخ الحضارة ج ٢ ص

كانت أحوال المعز بن باديس بعد هزائمه المتكررة وانحصاره حتى المهديّة . مثلما جاء وصفه في السجل رقم ٥ من السجلات المستنصرية كانت كالتّي نقصت غزلها من بعد قوة أنكاث^(١)، وأن الخليفة المستنصر بالله قد رماه بنبال أصابت مقاتله وضربه بنصال بنتت مفاصله، ورمى به في لأسر حصار لا يكاد يكون منه طليقا وملك جميع دياره ونال منه كل النيل هذه الجمل المسجوعة وغيرها مما حفل به السجل رقم ٥ ، ١ من السجلات المستنصرية مبلغ إعداد هذه القبائل التي توالّت في أوقات متتابعة لدرجه تملكها ديار المعز وجعله منفيا لا يملك سوى المهديّة وأسوارها^(٢).

الغزوة الهلالية على قابس :-

ويبدو أن قابس لم يلحقها ضرر كثير بسبب الغزوة الهلالية . يشير الإدريسي^(٣)، مثال أن قابس تضررت من الزحف الهلالي عليها، ولم يحدث بها إلا أقل الضرر بالنسبة لبقية مناطق إفريقية .

لقد كان مرور هذه القبائل العربية الهلالية على قابس بطريقه محدودة لأنهم لم يمسروا بالمدينة وبالغابات الآهلة ، بل كان مرورهم بالطريق القديم طريق الحامة بالقرب من سهول (أم الشياه) قريبا من جبل الظاهر^(٤)، وكان دياب بن غانم^(٥)، يحمي الأبل من (المرقب) الذي يسمي الآن مرقب دياب^(٦)، كما أن إيل وجمال تلك القبائل لا تحتاج إلى أشجار الغابة ومنتجاتها ، فقد وجدوا مرعاهم في منطقة (أم الشياه) وهي السهول الغربية لقابس تغطيها المروج الخضراء التي تغطيها النباتات الصالحة للرعي بالقرب من الضحراء الواسعة التي ترتع فيها الأبل . بعد مرور أكثر من عشر سنوات على الزحف الهلالي على إفريقية وقابس كانت هذه القبائل قد استقرت واتخذت لها أمكنة خاصة لكل منها ، فقبائل هلال - مرداس ورياح قد استقرت ما بين قابس وطرابلس وكلها انقسمت إلى بطون وعائلات^(٧) . لقد كان للقبائل العربية دوران :-

أولهما :- في الفتح الإسلامي لإفريقية الذي تم على مراحل عديدة خلال القرن الأول من الهجرة - القرن السابع الميلادي كان دورهم وهنهم الرئيسي نشر الإسلام ، وكان أثرهم واضحا في نشر تعاليم الدين الحنيف والتمدن الإسلامي .

وثانيهما :- هو دور قبائل هذه الغزوة الهلالية وباقي القبائل معها ، فقد حولوا إفريقيا وقابس بالطبع إلى بربر عرب فأصبح أثرهم واضحا في التمدن والدم المشترك ، فلقد تصاهروا وانصهروا ، فأصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى على المدى البعيد إلى جانب أثرهم الفعال في الزراعة وتربية الخيول الأصيلة ... ولا يخفي جهادهم ضد الروم^(٨)، وجهادهم ضد الصليبيين في عهد الموحدين^(٩).

(١) لقد ساق لنا القرآن الكريم قصة المرأة التي كانت تنقض غزلها من بعد أن تنمه وتقويه ، والتقص من ذلك المعنى هو الانكاث أي

نقض العهد بعد الامتداء ، انظر : حسين مخلوف : التفسير الموجز ، ص ٢٨٨

(٢) السجلات المستنصرية ص ٤٣

(٣) نزهة المشتاق ج - (١) ص ٢٧٦ - وانظر لمحة تاريخية ص ٦ .

(٤) انظر الخريطة ، وهو جبل يقع في منتصف الطريق بين قابس ومطماق وبين قابس وبين دوز ، وانظر المرجع السابق ص ٧ .

(٥) من أشجع فرسان قبيلة زغبة الهلالية وقد سمجت حوله الأساطير حكايات كثيرة ، انظر شعر السيرة الهلالية أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية بالحمامات ط ١ ص ٤١ ٤١٥ هـ - ١٩٩٠ م .

(٦) روبة صغيرة مرتفعة تقع عربي جبل أم الشياه ، وقد وجدت بها آثار أبليّة رومانية مخفونة تحت الرمال ، انظر المرزوقي ، قابس ص ٤١ . ابن فضل الله العمري - شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى ٧٤٩ هـ - ١٢٤٩ م مسالك الأبصار في ممالك الأمصار نج ذكرونيا فوسكي والسويدي سبائك الذهب ص ١٣٦ .

(٧) للاستزادة ، انظر ابن خلدون : العبر ، ج - (٦) ص ص - ١٢ - ١٨ - ٥٦ ولما كن متفرقة .

(٨) انظر : ابن الأثير ج - (٩) ، ص ٢٢٢ - ٤٥٥ .

(٩) المصدر السابق نفس الجزء ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

لكن هناك سؤالاً يفرض نفسه علينا ، هل أصبحت تلك الغزوة مخيبة لأهداف الخلافة الفاطمية في استرداد إفريقية زمتنا طويلاً ، وجعل هؤلاء العرب نواباً لهم في حكمها ونشر الدعوة الشيعية بها والتغلب المذهب المالكي ومذاهب الإباضية والخوارج المنتشرة في قابس وإفريقية ، من الواضح أن هناك اتصالاً وتواصلًا بين مؤنس بن يحيى مقدمهم ، وبين الخلافة في القاهرة^(١) ، وأن هذه الغزوة تمت علي مراحل ، وأن هذه القبائل وإن كانت غير نظامية إلا أن الخلافة قد أرسلتها بقصد الغزو المنظم وزودت جنودها بالسلاح والعتاد والمال^(٢) ، ويتضح هذا من السجل رقم (٥) ، وأن أمين الدولة^(٣) ، ومكينها الأمير الحسن بن علي بن ملهم العقيلي سوى وأصلح الخلافات بين كافة أفراد تلك القبائل ودفع ديات القتلى في مختلف الاتحاء .

ويذكر السجل أنه ذهب لهم علي هيئة جيش شعبي منظم تظله بنود^(٤) ، ورايات الفاطميين وسار الجيش برا وبحرا بقيادة مكين الدولة^(٥) ، وهذا اللقب يدل علي خطورة وظيفته وعظم المهمات الملقاه علي عاتقه في الإصلاح والمراقبة في أمور إفريقية ، ويظهر ذلك من سيطرته التامة علي الموقف بدليل أن أصناف تلك القبائل دانت له بدين الأمم إلي ربه^(٦) ... إلخ ، كما يظهر أيضا من فتحه لحصن قابس وتثريقه للسكة المستنصرية بعد هذا الفتح ، وقد اتخذ الأمير الحسن بن علي بن الملهم قابس مقرا له وجعلها مستقرا للخلافة الفاطمية في المغرب^(٧) ، والمسألة لم تكف عند حد إعادة فتح المغرب عن طريق قابس أو إصدار عملات مستنصرية فيها ، بل تبع ذلك إرسال سفارة تشمل مشايخ المدينة وكبار رجال المنطقة وما جاورها للمثول أمام الخليفة في القاهرة حيث توجد المراسم لاستقبالهم ، وكان من ولائهم أنهم - كما يقول السجل - أرادوا في مصر البديل بدليل استخدام لفظ الهجرة إلي الحضرة^(٨) ، لقد كان فتح قابس فرصة طيبة لفتح الحجيج حيث كانت قابس علي جادة الطريق إلي مصر^(٩) ، وكانت مصر بالنسبة للمغاربة نقطة التقاء لهم بمكان يسمى بركة الحجيج^(١٠).

- البيان المغرب من ١٤٨ .

(١) التيجاني : الرحلة ، ص ١٠٣ .

(٢) النويري : ج ٢٤ ، ص ٢١٠-٢١١ .

(٣) نشأت هذه الوظيفة (أمين الدولة) في عصر الحاكم بأمر الله الذي ولما للحسن بن عمار ويتضح لنا من أعماله وأعمال ابن الملهم أن متوليها لابد أن يكون سياسيا محتكا إلي جانب القيادة والكفاءة العسكرية ، ويذكر بن ميس والمقريري عن مهام ابن الملهم ولسمه الحسن بن علي بن دينار العقيلي ، فقد تسلم حلب وجند في اللاتقية وفي بلاد الروم وما يلاحظ أنه في عام ٤٥٤ هـ - أعطى ولاية عكا وطبرية إلي جانب الوسطة لبني سليم وقرارة ، وهم جزء من بني قرة وهذا يوضح أنه سافر لإفريقية بعد هذا التاريخ ليصلح بين القبائل المتنازعة لأن تاريخ السجل ٤٥٥ هـ أي بعد حوالي اثني عشر عاما من بدء الغزوة ليفتح حصن قابس ، انظر ابن المقريري للمقي للكبيرة ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٤) من إشارات الفاطميين في الموكب عبد المنعم ماجد نعم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) انظر السجلات لمستنصرية ص ٤٢-٤٣ ، قابس مدينة بحرية صحراوية يمكن أن يأتيها الجيش من ناحية البحر ، ومن ناحية البر .

(٦) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٧) لقد ساعد موقع قابس الجغرافي وقربها من مصر - نوعا ما - علي ذلك ، وكما يتضح من كلمة فتح حصن قابس الواردة في السجل ، نفس المصدر ، نفس المكان .

(٨) السجلات ... ص ٤٣ .

(٩) ابن حوقل : ص ٧٠ وانظر موقع قابس : الفصل الأول من هذه الرسالة .

(١٠) مكان بالقرب من القاهرة وعرف بذلك الاسم ، وكانت قوافل الحجاج لا تسير إلا بحضرة الخليفة الذي يتجه إلي المكان في زيه الرسمي زمعما بسمه مرصعة بالجواهر ، وللمظلة وهي شعار الأئمة ، فيجلس الخليفة علي نكة تسمى (نكة الوقار) لتوزيع الحجاج (بعد تزويدهم بالمال والأزود) وتتجه بهم قوافلهم في الطريق الذي يصل إلي مكة بعد ذلك بخمسة وعشرين يوما . انظر السجلات ص ٤٣ ، وانظر عبد المنعم ماجد : المستنصر بالله . ط . القاهرة ، مكتبة الأجلو ، ط (١) ، ص ١١٨ / رسوم الفاطميين ج (٢) ، ص ٧٢ وما يليها .

كان ابن يلمو أو محمد بن ولموية الصنهاجي يتولي قابس وقتها ، وابن حماد الذي هو صاحب قلعة كيانته^(١)، يطلبون الأمان من القائد الحسن بن الملهم والعفو من أمير المؤمنين ، وعلي بابيه جاءت الرسل من صنهاجة طالبين العفو والسماح لهم وللمعز بن باديس . لقد ظلت قابس مستقرا لمؤنس بن يحيى ومقرأ للقيادة بدليل تملك العرب لها^(٢)، وفيما بعد قامت فيها دويلة صغيرة هي إمارة بني جامع^(٣).
التي حكمت قابس أكثر من ستين عاما حتى عام الاخماس (٥٥٥هـ) (٤).

وعلى المستوى الحضاري كان للغزوة الهلالية آثار عديدة :-

شهدت قابس وإفريقية الصراعات القبلية بين القبائل وبعضها ، وبينها وبين الدولة الصنهاجية ، وأصبحت مسرحا للفن والاضطرابات^(٥)، مما أدى إلى تمركز تلك القبائل وانفرد مشايخها في معظم دول إفريقية بالسلطة والنفوذ ، تقلص دور حكومة المعز بن زيري من ناحية النفوذ فأصبحت الزعامة في إفريقية اسمية لبني باديس (بني زيري) وانحصر ملكهم في شريط ساحلي ضيق ، وأصبحت الوحدات القبلية هي التي تهيمن على الشؤون السياسية بعد انقسام المناطق فيما بينها ، فقامت عدة دويلات محلية مثل بني جامع بقابس^(٦)، وبني جليل بصفاقس^(٧)، وبني الرند بقفصة^(٨)، وبني خراسان بتونس وغيرها^(٩).

والتجاء بني باديس إلى تقوية نشاطهم البحري نحو جنوب إيطاليا وصقلية مما ترتب عليه اصطدامات بالنورمان الذين احتلوا صقلية وطردهوا المسلمين منها^(١٠)، ثم هجوم الروم البيزنطيين على زويلة ، فأبلى العرب فيها أحسن بلاء^(١١)، فتحت قابس - كما ذكر السجل رقم (٥) (١٢)، وأصبحت مركزا أساسيا للقبائل الهلالية من زغبة ورياح ومرداس وسليم وغيرها ، وأقام فيها مقدمهم مؤنس بن يحيى^(١٣)، وكبار المشايخ وابن يلمو ومقدم قومه كان يتولي قابس وقتها^(١٤)، كذلك سارع صاحب قلعة (ابن حماد) في طلب العفو ومعه رسل صنهاجة^(١٥)، وبذلك كان لذلك تأثيره على القيروان ، وقد أصبحت قابس مركزا بعد نكبة القيروان إلى جانب أنه حتى لو لم تنمر القيروان فإن من يتركز في قابس عند نفوذه للقيروان والعكس - كما ذكرنا سابقا - كذلك كانت سببا في قيام وسقوط دول .

من الآثار النافعة لتلك القبائل أنها نقلت إلى إفريقية السلالات الجديدة من الخيول إلى جانب الخبرة في تربيتها وتنمية الثروة الحيوانية، من قابس إلى برقة ، ومن برقة إلى قرب الإسكندرية ، وأن برقة وبلاد إفريقية معروفة بالخيول ذات السلالات الاصيلية^(١٦)، إلى جانب

(١) قلعة بني حماد الذين استقلوا بالغرب الأوسط ، ابن خلدون - ج ٦ - ص ١٥٨ والمجلد نفس المجلد.

(٢) التلجاني ، ص ٩٦ ، وما يليها حيث يقول أن أول تملك للعرب كان ٤٥٦هـ.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحات.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢٨ وما يليها وابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤.

(٥) التلجاني : ص ٩٦ وما يليها - عهد زعيم من المغرب بالمغربيات : ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ - ٤٨٨ و ج ٩ ص ٢٨ كامله.

(٦) التلجاني : ص ٩٦ - ١١٠.

(٧) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٥٣.

(٨) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٥ - ابن الأثير ج ٩ ص ٤٥٥.

(٩) ابن الأثير : نفس الجزء ص ٣٧٦.

(١٠) نفس المصدر والجزء ص ٤٧١.

(١١) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٦٩.

(١٢) المجلدات ص ٤٢ - ٤٣.

(١٣) التلجاني : ص ٩٦ - ١٠٣.

(١٤) محمد بن ولمون الصنهاجي والي قابس وقتها ، لكن السجل اسماء (ابن يلمو) المصدر السابق ص ٤٣.

(١٥) نفس السجل ، نفس الصفحات.

(١٦) ابن سعيد ، بسط الأرض في الطول والعرض ص ٧٨ ، والنظر مصطفى أبو صيف : القبائل العربية ص ٣٣٨

تحسين الزراعة والمحاصيل ، وإدخال أصناف جديدة كذلك سيطرة القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية كما توسعوا في احتكار تموين بعض المدن مثل التمر والملح ، وتحكموا في التجارة الخارجية ، وبخاصة من بلاد السودان ومصر وغيرهم واشتهروا بتصدير الخيول والاعنام والملح وغيرها^(١)، تميزت قابس بأنها كانت لها تجارة خارجية وداخلية منذ عهد الفينيقيين وطرق علي جادة الطريق ، كذلك طرق إلي القيروان وباقي مند المغرب العربي^(٢)، وضربت عملات فاطمية بمناسبة افتتاح قابس ، وأعيدت في دور السكة ضرب الدنانير الفاطمية لأن مصر كانت قد فقدت مصدرا فعالا لامدادها بالدنانير المضروبة في دور الضرب الإفريقية ، إذ كانت آخر إصدارتها في دار ضرب المنصورية سنة ٤٣٨ هـ^(٣)، فأعيد ذلك بدليل وجود دنانير فاطمية سكنت في المهديّة من عام ٤٥٥ هـ مثل التي فرقت في فتح قابس وظلت عام ٤٥٩ هـ^(٤).

وكانت للقبائل العربية آثار بعيدة المدى في تعريب إفريقيا والمغرب العربي كله لسانيا وعرقيا ، فقد طغت اللغة العربية على اللغة البربرية واختلطت الدماء العربية بالدماء البربرية حتى تعربت بلاد المغرب لسانيا وعرقيا^(٥)، ويمكن القول بأن القبائل الهلالية قد غيرت مجرى الحياة الإفريقية من كل محاورها^(٦)، لقد تغلغلوا في المدن وفي الجبال وفي الصحاري وفي الأرياف^(٧)، واحتكوا بكل نوعيات سكان المغرب من القبائل البربرية كهوارة وغيرها^(٨)، وهكذا كان للقبائل العربية حينذاك في التاريخ الإسلامي في بلاد المغرب دوران ، دورها في الفتح الإسلامي لإفريقية الذي تم على مراحل متعددة خلال القرن الأول من الهجرة^(٩)، القرن السابع الميلادي - كان دورهم وهنّهم الرئيسي نشر الإسلام ، وكان أثرهم واضحا في نشر تعاليم الدين الحنيف والتمدن الإسلامي والدور الثاني هو دور قبائل الغزوة الهلالية وبقية القبائل معها بعد مرور أكثر من عشر سنوات على الزحف الهلالي على إفريقية وقابس^(١٠).

كانت هذه القبائل قد استقرت واتخذت لها امكنة خاصة لكل منها ، فقبائل هلال - مرداس ورياح ، قد استقرت ما بين قابس وطرابلس ، وكلها انقسمت إلى بطون وعائلات^(١١)، وتحولت إفريقية وقابس بالطبع إلى بربر عرب فأصبح أثرهم واضحا في التمدن والدم المشترك ، فلقد تصاهروا وانصهروا وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى على المدى البعيد إلى جانب أثرهم الفعال في الزراعة وتربية الخيول العربية الأصيلة^(١٢)، لما ذكرنا سالفًا.

(١) مصطفى أبو ضيف : أثر القبائل العربية ص ٢٢٩

(٢) انظر : للبكري : المسالك ، ج - (٢)، ص ١٢ وما يليها

(٣) Milers : (B) Fatimides Coins (1Edit) P. 50

(٤) انظر سهام المهدي : دار ضرب الإسكندرية في العصر الإسلامي : رسالة دكتوراه بكلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٢ والهامش رقم (٤) . ومن رأى دكتورة سهام أن الموجود في متحف الفن الإسلامي ليس كل شيء ، بل أنه من المحتمل وجود عملات في بعض أماكن أخرى من العالم - فاطمية مسكوكة في إفريقية بعد هذا التاريخ لأبواب رجوعها في حوزتهم وقد اكتشف فيما بعد.

(٥) رابع برتر : المغرب العربي ، ص ١٧٥ وما يليها

سيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب العربي ، ج - (٢)

سعد زغلول : المغرب العربي ، ج - (٣)

(٦) حمادي الساحلي : فصول من التاريخ والحضارة ، ص ٣٥-٣٦.

(٧) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ص ٣٨

(٨) ابن خلدون : المعبر ، ج - (٦) ، ص ١٣ - ١٤١ - ١٤٢

(٩) انظر : ابن الأثير : حوالت القرن الأول الهجري ، ما يخص فتح إفريقية

(١٠) البلاسترد : انظر : ابن خلدون : المعبر ، ج - (٦) ، ص ١٢-١٨-٥٦ ولأماكن متفرقة .

(١١) المصدر السابق : نفس الجزء - وانظر : العمري : مسالك الأبصار ص ١٨٢ - ١٨٤ .

(١٢) انظر : مصطفى ابوضيف : أثر القبائل العربية في المغرب ص ١٤٥ - ٢٢٣

كذلك جهادهم ضد الروم^(١)،

إمارة بني جامع في قايس :-

من أهم النتائج السياسية لتقدم القبائل الهلالية إلى قايس أنه قد تمكن فرع منهم من توطيد نفوذه فيها ، فتحول هذا النفوذ إلى شكل سياسي متطور وصل إلى أن أقيمت دولة محلية صغيرة - أو بمعنى أدق - إمارة عربية ، هي إمارة بني جامع^(٢) ، الهلاليين بقايس - أظهر بنو جامع نوعا راقيا من الحضارة وكان لهم النصيب الأكبر في شتى النواحي السياسية والثقافية والعمرانية والاقتصادية - فازدهرت قايس طوال عهدهم وكان نظامهم السياسي هو نظام الإمارات العربية فالأمير يتولى الوزارة بمعاونة حجاب يرتقون لمنصب وزير أو تابع للامير ، كذلك وجدت عندهم وظائف كتابية وبريد ، ومن الناحية العمرانية ، أقاموا قصر العروسين بقايس^(٣) ، وقد استكمل وأزيد عليه بعد ذلك - أثناء حكم الأمير مدافع بن رشيد ، وسكوا عملة باسمهم^(٤) ، ونظموا التجارات الخارجية والداخلية ، كذلك كان لهم نشاط ثقافي وافر كالأدب والشعر .

لقد شجع الأمير مدافع كثير من أمراء بني جامع ، حتى أنهم كانوا يختارون الوزير الشاعر مثل سلام بن أبي بكر بن فرحان^(٥) ، وكذلك كان أبو ساكن عامر الهلالي من شعرائهم الموهوبين وأبو عامر ساكن بن عامر الهلالي .

ذكر صاحب الجريدة^(٦) ، أبا ساكن أنه " كان بدويا وأميرا سويا ولما فارق قايس بعد أن أخذها الموحدون عام الاخماس ، كان يعبر عن الامه بالشعر كما كان ابن حمديس^(٧) ، يمدحهم في أشعاره وهؤلاء الشعراء وغيرهم من بني جامع يدلون على مدي ثقافتهم على طريقة أهل إفريقية كما يذكر ابن خلدون^(٨) ، وكان بلاطهم في قصر العروسين يزخر بمجالس الادب والشعر^(٩) .

إلى جانب الثقافة اعتنى بنو جامع بأن يكون أسطولا تجاريا وحربيا بعد أن جهزوا التجارة واشرفوا على طرقها صحراويا وبين المدن الإفريقية وتوجوا اهتمامهم ببناء السفن لتدعيم أسطول حربي وتجارى خاص بهم^(١٠) ،

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٢٢٢

(٢) هم أولاد مكن بن كامل بن دهمان من بني علي - إحدى بطون رياح الهلالية . انظر ابن خلدون ، ج (٦) ص ١٥٩-١٦٠

(٣) التجاني ، ص ٩٧ ، وعن وصفه ، انظر للفصل الأول من هذه الرسالة

(٤) وجد دينار أطلق عليه رشيد نسبة إلى رشيد بن يكن بن جامع ، انظر : سهام للمهدي : دينار رشيدى نادر ، مجلة المؤرخ العربى ، ج (٣) ، ص ١٦٢ وما يليها وقد صورت الباحثة هذا الدينار للدار ومراق بالملحق

(٥) التجاني ، ص ١٠ .

(٦) هو صناد الدين الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء ٥٩٧هـ - ١٢٠١م . جريدة المعصر ، جريدة المعصر قسم شعراء

المغرب ، وذكره ايضا التجاني ص ١٠٠-١٠١

(٧) اللصقلى : منها هذا البيت : ألا يحالفني الرشاد وممتي جهد بعزم للامير الرشيد انظر حسن حسلى عيد

الوهاب مجمل الأدب لشمار بن حمد نمسي - ذكره ايضا التجاني ص ٩٥ .

(٨) المعبر ، ج (٦) ، ص ٤٧٣ .

(٩) يذكر التجاني أن أحد الطلبة أخبره أن هذا القصر قد بدلت صنهاجة في بنائه ، وأنها اكملت جدرله إلى ثلثي الارتفاع ، وأن دور بني جامع انحصر في إكماله ، وهذه الاخبارية في صالح العرب الهلاليين ... وهم بنو جامع (، وهذا معناه أنهم لما وجدوا بناء كملوه ولم يعمروه - كما أشيع عن هذه القبائل من تخريبهم ... إلى آخر هذه التهم ، وجدير بالذكر في هذا المقام أن حضارة العرب وانجازاتهم لم تظهر واضحة منذ بدء دخولهم ، بل توالى بعد أن استقروا ... انظر : لرحلة ، ١٠٣ - وانظر : الفصل الأول من هذه الرسالة وصف هذا المعصر .

(١٠) المعصر السابق - التجاني ، ص ٩٧-١٠٠

لما تولى الأمير الهلالي رافع بن مكى أو مكن - كان ذلك أو آخر عهد تميم بن المعز بن باديس الذى توفى ورافع متولى قابس^(١)، ثم تولى يحيى بن تميم فهادن رافع طوال عهده حتى انه قدم له الخشب والحديد اللازمين لبناء مركب " وقصد اجراءه فى البحر آخر ايام يحيى فلم ينكر ذلك واعانة بالخشب والحديد وتوفى يحيى قبل اكماله فلما ولى على انف من ذلك^(٢).
لقد ضاق الامير على بن يحيى من وجود اسطول آخر فى خليج قابس قد يكون سبب هذا الضيق المنافسة التجارية او يكون السبب عسكرى خوفا من نفوذ بنى جامع وسيطرتهم التجارية^(٣).

وبذلك التجاني^(٤)، عن على ابن يحيى " وكره ان يقاومه احد من اهل إفريقية فى اجراء السفن فى البحر فانفذ اسطولا الى ساحل قابس لمنع السفينة من الاقلاع واخذها ان اقلعت^(٥).
ولما كان رافع سياسيا محتكا فقد استعان بروجار صاحب صقلية (وهو روجار الثاني وكان معاصرا لعلي بن يحيى)، وأرسل له رسالة بينا فيها " يسأله الاعانة على الأمير علي، ويخبر أنه إنما أنشأ تلك السفينة لبعث هدية يحب أن يهديها إليه^(٦)، فما كان من روجار إلا أن بعث لأعانتته أسطولا ليأخذ المركب، وقد رآها فرصة عظيمة للتفرقة بينهم والكيد لهم، وهذه المعونة ما هى إلا تهديد لبسط نفوذ النورمان مستقبلا، وكان روجار قد وضع لنفسه هدفا أساسيا منذ أن احتل صقلية وهو اتخاذها بداية انطلاق نحو شواطئ إفريقية لاستيلاء عليها وتحقيق هدفه الاقتصادي التجاري المنشود^(٧).

تولى الامير رشيد قابس، يعد وفاة رافع والتي تنسب إليه السكة الرشيدية والعمران والازدهار، وكانت وفاة الامير رشيد سنة ٥٤٢هـ / سنة ١١٤٧م.
اختلف المؤرخون في الأحداث التي ألمت بقابس بعد وفاته، فلا تسعفنا التواريخ في تسجيلها بصورة دقيقة، فقد ذكر كل من ابن خلدون^(٨)، والتجاني^(٩)، أن الذي تولى قابس بعد الأمير رشيد هو الأمير محمد ابنه الذي كان صغيرا - نوعا ما - وغير مؤهل لاعتلاء عرش الامارة، وكان له مولي خاص اسمه يوسف، استبد بالحكم مستغلا صغر سنه وضعفه، وحدث أن خرج الامير محمد لخارج قابس لأمر من الأمور وترك ابنه الطفل نائباً، فكانت هذه هى الفرصة الذهبية للمولي يوسف، فاستولى على زمام الحكم وأصبحت كل أمور قابس فى يده،

(١) نفس المصدر، ص ٩٨

(٢) اللويري، ج - (٢٤)، ص ٢٤٣

(٣) لقد كان صاحب إفريقية صاحب الحق الوحيد الذي يتخذ الاساطيل ويجريها فى البحر، وقد أورد اللويري أن دار الصناعة المهدية من أيام الفاطميين، قبلو جامع أول من صنع الاساطيل غير ولاية إفريقية. لذا ضاق الأمير على بن يمي ذلك - انظر ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٦٩ - وانظر التجاني للرحلة ص ٩٦-٣٤٠-٣٤٢

(٤) الرحلة : ص ٩٨

(٥) ابن خلدون : لعب ج ٦ ص ٣٢٩، ونفس المصدر السابق، نفس الصفحة، وانظر : اللويري، ج - ٢٤، ص ٢٤٣

(٦) نفس المصدر، والجزء والصفحة.

(٧) حامد زيان : الإسلام والمسلمون في صقلية في ظل الحكم النورماني - مجلة كلية الآداب وانظر : راضى عبد الله عبد الحليم : التدخل النورماني في بلاد المغرب، مجلة للمؤرخ المصري مجلة (٣) يناير ١٩٨٩، ص ٢١١ وما يليها.

وصقلية Sicile بثلاث كسرات مع تشديد اللام والياء، جزيرة في البحر المتوسط، قاعدتها بالمر، لعلها الفينيقيون واليونان واسسوا فيها طرقا تجارية، ثم فتحها العرب سنة ٢١٢هـ / سنة ٨٢٧م، في عهد زياد الله الأغابي، ثم غزاها النورمان سنة ٤٨٥هـ - سنة ١٠٩٢م انظر ياقوت - ج (٣)، ص ٤٧٣، وابن الخطيب : أفعال الاعلام، ج (٣)، ص ٢٠٦.

(٨) المعبر : ج (٦)، ص ١٦٣

(٩) التجاني، ص - ص ٩٧-١٠٠ لم ينكر الامير رشيد إذ قال إنه بعد وفاة رافع تولى محمد بن رشيد.

وفوق ذلك أعلن الطاعة - وهو في ذلك زوج (١)، وزعم أن له أخا اسمه عيسى قد فر إلي صقلية مستصرا بطاغيته (٢)،

وكان هذا التصرف الأهوج من قبل المولى يوسف قد صانف هوى في نفوس النورمان (٣)، فإلي جانب أن المغرب الأوسط وإفريقية كان موزعا علي دويلات الطوائف مثل بني الرند في قفصة وبني جليل بصفاقس ، وبني خراسان في تونس (٤)، ٤٥٨ هـ ولم يبق لبني زيري سوى المهدية حتى خصصت للنورمان سنة ٥٤٣ هـ إلي جانب بداية ضعف بني حماد بالمغرب الأوسط ، وكان المغرب الأقصى في حالة خطيرة إذ تتصارع علي السلطة فيه الدولتان المرابطية (٥)، والموحدية (٦)، (٥١٠-٥٤١ هـ/ ١١١٦-١٤٦ م) يذكر ابن الأثير (٧)، أن المولى يوسف قد استبد بالحكم بعد وفاة الأمير رشيد أكبر ابنائه من الأخذ بالولاية من بعده ، ويسمى الأمير معمر واختار لولايته طفلا صغيرا وهو محمد - حتى يستطيع أن يستبد بأمر قابس ثم يعلن الطاعة للنورمان في صقلية (٨)، لكن الأمير معمر لم يرض بذلك الوضع وطلب من الأمير الزيري في ذلك الوقت . الحسن بن يحيى (٩)، الذي كان مقره المهدية - المعونة والتشجيع علي مهاجمة يوسف الذي ثار سكان قابس عليه يطالبون بخلعه من الحكم إلي جانب أن الأمير الحسن بن يحيى أرسل جيشا وقوادا ودخل المدينة بمساعدة أهلها ، وتم القبض علي يوسف وقتله (١٠)، وبمساعدة الأمير العربي محرز بن زياد الذي اشترك في الهجوم لاستعادة قابس بعدها ، استطاع معمر بن رشيد أن يعتلي عرش ولاية قابس (١١).

اتفقت بعض المصادر ، مثل التجاني (١٢)، وابن خلدون (١٣)، علي أن الذي أمسك بزمام الأمور في قابس بعد مقتل المولى يوسف هو الأمير مدافع بن رشيد ، وهذا يختلف مع ما ذكره ابن الأثير (١٤)، في أن ابنه معمر الذي تولي حكم قابس ، لكن من المؤكد أن ثورة قابس والاستعانة بقوى خارجية مثل الأمير الحسن في المهدية مما سبب قلقا وقتنة في أنحاء قابس ، فمن المحتمل أن يكون قد قضى نحبه أثناء تلك الفتنة أو تنازل لأخيه عن ولاية قابس ، ومن المرجح أن رشيد قد عين ابنه الصغير محمد علي الولاية دون أخيه الكبير مدافع ، وهذا ما أعطى الفرصة ليوسف للاستبداد ، فلجأ مدافع للاستجداد بالأمير الحسن وبالأمراء العرب مثل محرز بن زياد (١٥)، وسوف نرى أن استبداد المولى يوسف واستعانتته بقوى النورمان كانت له

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠ ومما ساعده أن المولى بمعنى وزير هو دائما حامل لختام الملك لذا كانت فرصة له ذهبية.

(٢) نفس المصدر والصفحة - انظر المراج : الحال السنوية ج ١ ص ٣٣٤.

(٣) التجاني ص ١٠٠ - ١١٣، وانظر المراج للحال السنوية ج ١ ص ٣٣٤.

(٤) ابن الأثير : الكامل - ج ٨ ص ٣٧٦

وانظر سيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب ص ٥٨٧

(٥) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ج (٣) ص ٢٦٥/٢٥٥.

وانظر حسن محمود : قيام دولة المرابطين ط القاهرة ط ٢ ، ٤.

(٦) الكامل : ج (٩) ص ٣٣٤ - ٣٧٢.

(٧) ابن الأثير ج (٦) ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٨) هو الحسن بن علي بن يحيى ابن تميم حفيد المعز بن باديس تولي بعد وفاة أبيه يحيى بن تميم من عام ٥١٥ للمصدر السابق ج ٩ ص ٢٠٧.

(٩) نفس المصدر والجزء ص ٣٤٧ ، ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٩١

(١٠) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١١) نفس المصادر الصفحات.

(١٢) الرحلة : ص ١٠٠

(١٣) المعبر ج ٦ ص ١٦٥

(١٤) الكامل ج (٩) ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(١٥) المصدر السابق نفس الصفحة.

حوادث وخيمة في تاريخ قابس السياسي فقد ألب القوى الإسلامية في أفريقيا ضده ، وخارجيا أرسل روجار قوى بحرية لمحاصرتها (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) إلى أن عجز عن فتحها^(١). ثم رجعت قابس بعد القلاقل السابقة للهدوء والاستقرار في عهد الأمير مدافع بن رشيد ، وتوافد علي قصره شعراء وادباء عصره والذي كان من أبرزهم الشاعر سلام بن فرحان^(٢)، أما مصير الأمير بن محمد فلم تحدثنا المصادر عنه. عن مصيره الغامض^(٣) ظل حال قابس هكذا إلى عام الاحماس .

علاقات قابس :-

أ- مع الإمارات أو النواحي الإسلامية بإفريقية في صفاقس :-

وأما صفاقس فكانت ولايتها أيام أيام بني باديس من صنهاجة قبلهم إلى أن ولي المعز بن باديس عليها منصور البرغواطي من صناعته فكان فارسا مقدما^(٤)، لما تغلبت القبائل العربية علي إفريقية ، واستولت علي القيروان واضطر المعز بن باديس إلي الالتجاء إلي المهديّة ، وانتهر منصور البرغواطي هذا الوقت للقيام بثورته علي المعز لكن هذه الثورة التي جنح إليها منصور البرغواطي لم تتجح ، إذ حدث انقلاب خطير عليه من قبل ابن عمه حمو بن مليل بمساعدة مجموعة كبيرة من قبائل زغبة ورياح وعدي والأثيج الذين كانوا بقابس ومحولها ، لذا استبد حمو بصفاقس^(٥)، بعد أن غدر بابن عمه منصور وقتله في الحمام^(٦)،

ولم تتوقف أطماع حمو بعد استقلاله بصفاقس ، فقد طمع في الاستيلاء علي المهديّة بعد وفاة المعز بن باديس ، وخاصة أنه كان قد وفق أوضاعه قبل أن يستولي علي صفاقس إلا بعد أن بذل لهم المال الوفير ، فظفر بصفاقس ، وخلا له الجو وأمن شرهم واجتماعهم عليه ، ثم استحوذ علي عدة قرى حول صفاقس^(٧)، وبعد ذلك بفترة من الزمن - لما عزم علي غزوة المهديّة جمع حوله حلفاء من العرب من بطون زغبة ورياح ، ولما تناهى إلي علم تميم بن المعز ما عزم عليه حمو بن مليل حشد جيشه وحلفاءه هو أيضا من غرب زغبة ورياح ، والتقي بجيش حمو وحلفائه من العرب عند سلقطة^(٨)، واشتد القتال بينهما عندها ، حتى انهزم حمو بن مليل ورجع إلي صفاقس فرارا من جيش تميم وحلفائه ، ولم ينس تميم محاولة حمو هذه وقام بعدة محاولات للاستيلاء علي مدينة صفاقس وإخضاع حمو بن مليل ، ففي عام ٤٧٤هـ / ١٠٨١م ، حوصرت صفاقس وأفسدت غايتها^(٩)، وهناك محاولة أخرى (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م)

(١) ابن الأثير ج- (٩) ، ص ٢٥٠ ابن خلدون ج- (٦) ص ١٦٨ ، والتجاني : الرحلة ، ص ١٠٠

(٢) اسلام بن فرحان الهلالي ، من بني ملال ، وعاش في بلاط بني جامع ، المرزوقي قابس ص ١٧٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٧ ، وانظر المرزوقي ، قابس ، ص ١٧٨

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج- (٦) ص ١٦٨ ، أما لمم برغواطي فنسبة إلي برغواطة التي لختلف المؤرخون حولها ، فإن قد يكون لاختلاط من البربر اجتمعوا حول شخص يهودي اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي نسبة لوائي البرباط في جنوب الاندلس BioBarbatK ، فصارت تطلق هذه الكلمة علي كل من اعتنق ديانته ، ثم حرفت إلي برغواطة ، انظر : مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ، ط إسكندرية ، ص ٣٠٠ ، لكن من الأرجح أنها تنتمي لقبيلة مغمورة ، انظر ابن خلدون ، ج- (٦) ، ص ٢٧٧ ، وانظر سحر سالم من جديد حول برغواطة ط. الاسكندرية سنة ١٩٩٣م ، ص-ص ٥-٤ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٦) السراج : الحال السندسية : ط ٢٣٣-٢٣٤

(٧) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ، وانظر التجاني ، الرحلة ، ص ٧٩

(٨) ابن عذاري : البيان ط ١ ، ص ٣٠١ يقول إنه كان ذلك لغزو عام ٤٥٦ بينما ينكر ابن الأثير أن غزو المهديّة كان سنة ٤٥٥ ، انظر : الكامل ص ٣٥٤ .

(٩) ابن عذاري : ج (١) ص ٣٠٠ ، والمصدر السابق نفس للصفحة .

تمت فيها محاصرة المدينة مرة أخرى لكن تميم لم يستطع فتحها ، فعاد أدراجها^(١)، ثم كانت المحاولة التي تمت في عام (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) وتم فيها إخضاع صفاقس ، لكننا نجد أن حممو بن مليل قد تمكن من الهرب والالتجاء إلى قابس طابا الحماية ، فمكث عند صاحبها ، مكي بن كامل الرياحي من بني جامع إلى أن توفي^(٢).

بعد استيلاء النورمان على قابس (سنة ٥٤٣هـ/سنة ١١٤٧م) أرد روجار الثاني أن يستعمل علي حكمها أبا الحسن واليا من قبله فمكانته في أهلها كبيرة غير أن أبا الحسن كان شيخا كبيرا فأظهر العجز والضعف معتبرا لروجار ، فاستعمل ولده عمر بن الحسن الغرياني واليا علي صفاقس ثم أخذ أباه الشيخ أبا الحسن إلى صقلية رهينة ليضمن ولاء أهل صفاقس وطاعتهم للنورمان^(٣)، وقبل أن يقاد أبو الحسن من صفاقس إلى صقلية ليقيم فيها عند روجر ، اسر إلي ابنه قولا :- (أنني كبير السن وقد قرب أجلي ، فمتى أمكنتك الفرصة في الخلافة علي العدو النورمان فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر أنني أقتل ، وأحسب أنني قد مت^(٤)، واستمع إلي نصيح والده فلما علم بثورة أهل صقلية^(٥)، واضطراب أحوال النورمان عقب وفاة روجر عام ١١٥٤م ، هم بالثورة علي الحماية النورمانية في صفاقس رغبة منه في تخليص أهل صفاقس مما يعانون من تسلط حامية النورمان عليهم ونهب أموالهم وهتك حرمتهم^(٦)، ففي عام ١١٥٦ دعا عمر أهل صفاقس إلي الثورة وخطط لهم كيفية التنفيذ فقال تطلع جماعة منكم إلي السور ، وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم ، فقالوا له :- أن سيدنا الشيخ والدك تخاف عليه ، وقال هو أمرني بهذا ، وإذا قتل الشيخ ألوف من الإعداء فما مات^(٧).

فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك سنة ٥٥١هـ ثم انتقلت أحداث هذه الثورة من صفاقس إلي طرابلس فثار فيها عاملها أبو علي بن مطروح علي النورمان وكذلك اقتدى بهم محمد بن رشيد عامل قابس^(٨)، وهكذا لم يكتف عمر بثورته علي صفاقس بل أخذ يشجع علي التمرد ضد النورمان فلبوا دعوته وأعلنوا ثورة شعواء ، فقتلوا من النورمان كل من عثروا عليه ، وفر من النورمان من استطاع منهم الفرار إلي صقلية .

ب - في سوسة (٨) :-

خالف أهل سوسة أيضا المعز بن باديس صاحب إفريقية سنة خمس وأربعين وأربعمائة ومنعوا ما كانوا يحملون إليه من المال^(٩)، وتوفيت أخت المعز في سوسة فحملت أموالها لهم ، ولما قاتلهم المعز أعلنوا العصيان بحجة أنهم أولي بالمال للدفاع عن بلادهم^(١٠)، وصار أهلها إلي

(١) نفس المصدر والصفحة ، وانظر : ابن الأثير : الكامل ، ج (٨) ، ص ١٧٤ ، وابن خلدون : العبر : ج (٦) ، ص ١٦٦ ، والمصراع :

الحلل ، ج (١) ، ص ٣١٦

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٨

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج (٦) ، ص ٣٤٤ ، وأبو الحسن الغرياني كان شيخا كبيرا في السن ولذا عين ولده عمر واليا علي صفاقس

(٤) ابن الأثير . أحداث ٥٠١هـ ، ج (٢) ص ٦١

(٥) The Cambridge Medieval history V. 5 ,P 192-195.

- ابن الأثير ج (١١) ، ص ٦١

(٦) ابن خلدون : العبر ، ج (٦) ، ص ٣٤٥

(٧) الكامل : ج (٣) ، ١١/٩٩

(٨) الكامل ج (١١) ، ص ٩١

- Cambridge , V5 .P194

(٩) سوسة مدينة كبيرة علي سفح جبل عال ، وعليها سور منيع من الصخر ينتهي إليه البحر ويضرب فيه ، وبها ثار الأول ، وإليه

تسبب الثياب السوسية ، التجاني : الرحلة ، ص ص ٢٥-٢٦

(١٠) المصدر السابق ، ص ٢٨

(١١) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

الشورى في أمرهم^(١)، ويعث المعز بن باديس إليهم من المهديّة اسطولا ضخما ، فلما وصل إلي مرسي سوسة أحرق ما فيها من مراكب كثيرة أغلبها لأهل سوسة ، وانتقم أهل سوسة لذلك من أهل القيروان الموجودين بالمدينة ، فأخذوا أموالهم وأهانوهم أشنع إهانة^(٢). وبعد ذلك " وجه المعز إليهم جيشا فيه مائة فارس وأمرهم أن يتصافروا مع الأسطول علي حصار سوسة ليأخذوا بخناقها برا وبحرا^(٣)، فتصانف في نفس الوقت " أن اجتاز علي سوسة يوم خروج هذا الجيش أسطول من قبل صاحب صقلية ، فخافه اسطول المعز فاتصرف راجعا إلي المهديّة ولا علم عند المعز بذلك^(٤)، ثم وصل جيش المعز إلي سوسة للسؤال عن الأسطول الصقلي ، فأخبروه بإقلاعه

" فخرج أهل سوسة وزحف بها من الأعراب إليهم فأدخلوهم المدينة وأجالوا السيوف عليهم جميعا ونصبوا رمحهم علي الفور^(٥)، بعد وفاة المعز استطاع ابنه تميم أن يمتلكها وعفا عن أهلها^(٦)، ويبدو أن العرب الهلالية قد استولت على سوسة وانتزعتها من تميم لكن لم يحدد تاريخ لذلك^(٧)، لقد جمع شيخ من هذه القبائل أو أمير من أمرائها - هو مالك بن علوى الصخري - بطونا كثيرة من عشيرته من القبائل وسار في البدء وحاصر بهم المهديّة فلم يظفر بها ثم رحل إلي القيروان الذي جرد إليه تميم جيشا كبيرا لمحاصرته بها^(٨)، فرأى مالك أنه لا طاقة له بهذا الجيش فخرج من القيروان معاهدا بتميم - واستولت عليها عسكر تميم فعادت إلي حوزته ، لكن لم تمض عدة سنوات لما حل عام ٤٨٢ هـ^(٩)، نقد مالك العهد وسار بجماعة من بطون عشيرته ووصل سوسة فدخلها عنوة وجرى قتال عنيف كان من نتيجته أنه فارقه وتركها لقوات تميم . فخرج إلي حلفه من الصحراء بإفريقية^(١٠)، (وكانت سوسة مأوى الرسول من قبل الخليفة العباسي إلي المعز بن باديس واسمه أبو الفضل بن محمد بن عبد الواحد الدارمي بعد رحيله من القيروان ، وكان ذلك بالتأكيد بعد عام ٤٤٦ هـ^(١١)، وبعد وفاة تميم بن المعز تمكنت العرب الهلالية من إخضاع سوسة وظلت تحت حكمهم حتى وقعت^(١٢)، في أيدي نصارى صقلية بعد وقوع المهديّة^(١٣)، حتى قدوم الموحدين فطلب شيوخ سوسة دخولها في طاعتهم وقدموا إلي عبد تامون من عهد الولاء والطاعة^(١٤).

ج- في تونس :-

عندما رحل المعز بن باديس عن القيروان والمنصورية متوجها إلي المهديّة بعد الغزوة الهلالية وفتح قابس واتخاذها مركزا للعرب الهلالية علي يد مؤنس بن يحيى " استخلف المعز

(١) ابن خلدون : المعبر ، ج- (٦) ، ص ١٥٩.

(٢) المراجع : الحلال السنسية : ج- (١) ، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) الأندلس : الحلال : ج- (١) ، ص ٢٨٦.

(٥) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٦) ابن الأثير : الكامل : ج- (٨) ص ٣٦٣ ، وانظر التجاني : الرحلة : ص ٢٩، حيث ذكر أن تميم عفا وتملك عام ٤٥٦ ، أما ابن الأثير ، فيذكر أن ذلك كان عام ٤٥٥ هـ .

(٧) انظر المصادر السابقة ، نفس المكان .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج- (٨) ، ص ٤٣١.

(٩) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٦٢.

(١٠) نفس المصدر نفس الجزء والصفحة .

(١١) ابن يسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ج (١) ، قسم (١٣) ص ٦٧-٦٨.

(١٢) ابن الأثير ، ج- (٩) ، ص ٣٥٦.

(١٣) نفس المصدر ، والجزء ، ص ٤٣١.

(١٤) نفس المصدر والجزء والصفحة

علي القيروان وعلي قابس ابن تيمون الصنهاجي^(١) ، وأقام بها ثلاث سنين ثم غلبته قبيلة هواره فسلمها لهم وخرج ليمكث في المهديّة ، لما تولى تميم بن المعز بن باديس رده عليها وأقام عليها إلى عام ٤٥٨ هـ^(٢) ، ثم أظهر الخلاف علي تميم والتجأ إلى طاعة الحماديين ، " فسير إليه تميم جيشا كثيفا أخاف قائد بن ميمون فترك القيروان ، وسار إلى الناصر الحمادي ، فسار الجيش إلى داخل القيروان وخرب دور القائد بن ميمون^(٣) - ثم سار بعد ذلك إلى قابس وبها ابن خراسان وحاصر بها سنة وشهرين^(٤) ، ثم أطاع ابن خراسان تميما وصالحه ، أما قائد فإنه لجأ إلى الناصر الحمادي ، وفي نفس الوقت أرسل إلى أمراء العرب الذين كانوا على القيروان ليشتري منهم أمارتها فاجابوه فعاد إليها وبني سورها وحصنها^(٥) ، ومن هذه الرواية نفهم أن تونس في هذا الوقت من عام ٤٥٨ هـ قد خضعت لتيميم بن المعز^(٦) ، وذلك لفترة من الزمن بعد أن عانت تونس فترة فيعد معركة الحيدران تغلب عليها الأمير العربي عائد بن أبي الغيث فملكها مما ساعده أنه تزوج ابنة المعز بن باديس^(٧) ، حيث لم يوضح لنا تاريخ هذا التغلب لكن ما لبثت أن انشقت تونس عن طاعة الصنهاجيين وأولت طاعتها إلى الحماديين بعد فترة عانت فيها من الاتقسامات الداخلية والاضطراب السياسي مما جعل بني خراسان الذين تولوها يناحزون إلى بني حماد بطاعتهم إلى أن دخلها الموحدون^(٨) .

د- في قصة وبلاد الجريد :-

لما تغلب العرب علي إفريقية وانحل نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز من القيروان إلى المهديّة ، وكان بقصّة عامل لصنهاجة هو عبد الله بن محمد بن الرند وأصله من بني صغيان^(٩) ، وعبد الله بن الرند ، ضبط أمور قصّة " وقطع عنها مادية الفساد وصالح العرب علي الاتّواء ، فصلحت واستقام الحال^(١٠) وبعد معركة الحيدران استقل ابن الرند بقصّة ، وبيعته تورز والحافة ونفازوة وسائر العمال وعظم سلطانه رغم وجود عصبية عربية قوية ، وتوافد علي بلاطه الشعراء من العرب والبربر ثم هلك في عام ٤٦٥ هـ وولي بعده ابنه المعتر وكنيته أبو عمر^(١١) ، الذي جبي الأموال وصطنع الرجال ، وظل الحال إلى أن فتح الموحدون قصّة فقام بني الرند بالولاء لهم .

كانت العرب من بني العابد من قبيلة بلي العربية من بطون سليم قد آلت إليهم أمور قصّة قبيل دخول الموحدين ، وبعد أن تحول أمر المدينة إلى نظام الشورى ، وكانت بني العابد من

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج-٨ ، ص ٢٧٠ ، يبدو أنه كان هناك تمايز سياسي من بني هلال والصنهاجيين ، فكان فيه العرب

وشيوخها إلى جانب قائدا أو والي صنهاجي

(٢) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة أن التاريخ مضطرب هنا ، هل ابن خراسان في قابس أم في تونس أغلب الظن أنه سار إلى تونس حيث أن ابن خراسان كان واليا عليها ، ويبدو أنه لجأ لقابس .

(٥) ابن الأثير ج-٨ ، ص ٢٧٦ ، والنوري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٢٨

(٦) المصادر السابقة ، نفس المكان .

(٧) انظر ابن خلدون : المعبر ج-١ ، ص ١٥-١٦ وانظر حسين مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته مجلد (١) ص ٦٠٤

(٨) المصادر السابقة ، نفس المكان ، وكذلك المرجع السابق ، وفتنر :- حسن حسني عبد الوهاب مجلد تاريخ الأدب التونسي ، نشر تونس ، ط (١) ص ١٥٧ .

(٩) ابن خلدون : المعبر : ص ١٦٥ ، وهو يقول حرمه ، لكني وجدت أن صغيان لهم أصول قديمة في جزيرة جربة ولهم فيها مساجد بأسمهم ، انظر فرحات الجعيري : نظام الغلبة عن الإياضية الوهبية في جربة ، ط . تونس ١٩٧٥ م ، ط (١) ، ص ص-ص

٢٠٦-٢١١-٢١٣ .

(١٠) المصدر السابق ، ج-٦ ، ص ١٦٦ .

(١١) نفس المصدر والمكان .

أقوى العصبية الموجودة في مدينة قفصة لكن قدوم الموحدون جعلهم يفرون إلى قابس وتركوا أهل المدينة يعلنون الطاعة للموحدين بعد أن حشد عبد المؤمن بن علي جيش الموحدون ، والبالغ أكثر من ثلاثين ألف فارس وجندى^(١).

علاقات قابس ببني زيري

ظهرت قابس في عهد بني جامع في مستوى حال من الحضارة وساهم بنو جامع بنصيب وافرفي الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية. فارتفع وضعها في إفريقية لفترة غير قليلة من الزمن فكانت امارتهم لقابس لها شكل سياسي متطور من حيث كيان الحكم والادارة والسياسة الداخلية والخارجية لكننا لا نستطيع ان نحدد التاريخ الحقيق لتولي بني جامع الحكم في قابس هل هو بعد ٤٨٩ هـ ام قبلها اذ يذكر ابن الاثير^(٢)، عن جمع من الترك وصلوا بقيادة شاه ملك التركي الذي كان من اولاد بعض الامراء الترك ببلاد الشرق فوصلوا الى طرابلس^(٣)، واستولوا عليها في الوقت الذي كان اهلها مستائين من واليها فارس اليهم تميم بن المعز عساكر لمحاصرة طرابلس واخذوا شاه ملك ومن معه الى المهديّة .

كان شاه ملك حينئذ اذ خرج يوما للصيد مع يحيى بن تميم ، فغدر به ، وقضى عليه وساربه وامن معه الى مدينة صفاقس وكان صاحبها حمو مخالفا لتمييم ، فاعترف بالعبودية ليحيى الذي كان وليا للعهد ، وبعد ذلك لما أخذ من صفاقس أخا آخر له يسمى مثنى مما أخاف صاحب صفاقس مثنى ، مما أخاف صاحب صفاقس فارس إلى تميم في إنقاذ الاثراك وأولادهم ليرسل له ابنه يحيى ، فوافق بعد امتناع^(٤)، ثم جهز تميم جيشا وحاصر صفاقس برا وبحرا لمدة شهرين إلى أن استولى عليها فقارقتها الاثراك إلى قابس^(٥)، ولما رضي تميم عن ابنه يحيى بعد فترة من الزمن أرجعه إلى ولاية العهد ، عظم ذلك في نفس أخيه المثنى الذي أوقع بينه وبين أبيه تميم وأخيه يحيى الذي أمر أبوه بإخراجه من المهديّة ، فسار إلى صفاقس ، فلم يمكنه واليها من الدخول إليه " مدينة قابس " وبها أمير يقال له مكين - مكن أو مكي - بن كامل الدهماني فأنزله وأكرمه فحسن له مثنى الخروج معه إلى صفاقس والمهديّة وأطعمه فيهما مع إعطاء نفقات الجيش والعتاد لذلك^(٦).

فجمع مكن أو مكي من يمكنه جمعه وسار إلى صفاقس ومعها شاه ملك التركي وأصحابه فنزلوا على صفاقس وقتلوا ، وسمع تميم فجرد إليها جندا ، فلما علم المثنى ومن معه أنه لا طاقة لهم بها ساروا عنها إلى المهديّة^(٧)... كان في المهديّة يحيى بن تميم الذي قاتلهم بشجاعة وحسن تدبير حتى هزمهم فردهم خائبيين^(٨)، هذه الرواية تبين لنا أن بني جامع كانوا أمراء قابس من قبل ٤٨٨ هـ ، وكانت لهم سياستهم وجيوشهم كذلك أنه لما عظم شأن يحيى بن تميم بعد ذلك - إذ إنه تولى أمور إفريقية بعد أبيه (٥٠١ هـ - ٥٠٩ هـ / ١١٠٧ - ١١١٥ م)^(٩)، ثم تولى بعده ابنه الذي حاصر مدينة قابس من ناحية البحر وسبب ذلك أن رافع بن مكين الدهماني أنشأ مركبا

(١) عبد الفتاح مقلد : موسوعة المغرب العربي ، طه مكتبة مطبوعاتي ، ط (١) المجلد الثاني ، ج - (٤) ، ص

(٢) الكامل : ج (٨) ص ٥٠٠ ، حواشي ص ٤٨٨ هـ

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفاحة .

(٤) الكامل : ج - (٨) ، ص ٥٠٠

(٥) المصدر السابق .

(٦) كانت الرغامة في كل هذه المناطق تابعة لبني مرداس وهم يطن من مبطون بني سليم الرباحيين ، نفس المصدر ، والجزء ،

ص ٥٠١

(٧) ابن الاثير : الكامل ، ج (٨) ص ٥٠١ وانظر : اللويري ، نهاية الأرب : ج - ٢٤ ، ص ٢٣٢ .

(٨) المصدر السابق : نفس الجزء والصفاحة .

(٩) اللويري : نفس الجزء ، ص ٢٣٧ .

بساحلها وقصد إجراءه في البحر في آخر أيام يحيى ، فلم ينكر ذلك وأعانه بالخشب والحديد " كما ذكرنا سالفا^(١).

يتضح من ذلك أن يحيى ابن تميم كان يهادن بني جامع وعاهدهم علي بناء اسطول لهم وأعانهم في ذلك لكن ابنه الأمير علي كره ذلك^(٢)، وذلك لأنه خاف أن يكون ذلك عندما يقوى عليه ثم يهاجمه بهذا الاسطول . فاعد عساكر وقوى اسطوله وجيشه وانتفض لمهاجمة قابس الذي رأى رافع صاحبها الجد في الحرب فاستجد بصاحب صفلية (الذي انتهز هذه الفرصة الذهبية ليوقع بين المسلمين وبسط نفوذه علي إفريقية) - استجمع رافع قواته كما حالف جميع قبائل العرب الذين ساندوا ، فساروا جميعا لحصار المهديّة ، فخرجت عليهم عساكر علي بن يحيى فجرت الحرب التي كانت في غير صالح رافع ، فقد قتل الكثير من قواته ، فهرب ليلا إلي القيروان ، فداهمته قوات علي بن يحيى وانتصروا عليه فرجع إلي قابس^(٣).

علاقات قابس مع بني حماد :-

وصلت إلي تميم بن المعز الاخبار بأن الناصر بن علناس (من الأسرة الحمادية التي استقلت بالمغرب الأوسط) قد حالف بعضا من صنهاجة وزناتة وقبائل بني هلال ليعينوه علي حصار المهديّة فلما تأكد من هذه الاخبار أرسل إلي أمراء بني رياح فأحضرهم وأعلمهم بحصانة المهديّة ومنعتها وأقنعهم أن الناصر يريد الفتك بهم فطلبوا من تميم المعونة ، فأمدهم بالمال ، ويقول ابن الاثير^(٤).... فأعطاهم المال والسلاح من الرماح والسيوف والدروع فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا علي لقاء الناصر . " ثم أرسلوا لمن معه من بني عمومتهم يخوفونهم منه وأنه عندما يقوى سيهلكهم بمن معه من زناتة^(٥)، واتفقوا علي خطة حربية معينة مع بعضهم ثم مع المعز بن زيري الزناتى الذي اتفق بدوره مع بعض زناتة الذين مع الناصر ، ودارت الحرب ، وكانت الدائرة علي الناصر الذي سلم هو واليسير من عسكريه ، وقتل أخوه القاسم وانتصر العرب ، وغنموا جميع ما كان في معسكره وثم ولاهم ملك بلاد بني حماد ، وأرسلوا الألوية والطبول والغنائم إلي تميم فردها وقال :- يقبح بي أن أخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك^(٦).

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٣

(٢) ابن خلدون : المعبر ، ج- (٦) ، ص ١٦١

(٣) اللويري : ج ٢ ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٤) الكامل : ج- (٨) ص ٣٧٢-٣٧٣ ، حوادث عام ٤٥٧ هـ

(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة.

(٦) نفس المصدر ونفس الجزء والصفحة

مع المرابطين^(١) :-

لم يكن بينهم وبين قابس علاقة مباشرة في البدء كان يوجد طوران من العلاقة الأول :-

في عام (٥١١هـ - ١١١٧م) عند فشل الحملة البحرية التي جردها روجار والثاني لمساعدة رافع صاحب قابس عندما استعان به فقد قام الامير علي بن يحيى بالاتصال بعلي بن يوسف بن تاشفين لوضع الخطط المشتركة لصد هذا الهجوم النورماني ، من هنا أدرك المرابطون خطر النورمان كذلك حل النورمان في أنفسهم الضغينة نحو البربر المرابطين.

وجه المرابطون اسطولهم بقيادة عبد الله بن ميمون عام (٥١٦هـ - ١١٢٢م) إلى جزيرة صقلية فافتتح منها نفوطة وعاد منها بالغنائم^(٢)، ولما أيقن روجر أن غزوة المرابطين ما هي إلا بلباعز من الحسن بن علي صاحب المهديّة لذا قام بإعداد الاسطول والعتاد الضخم وتحركوا في نهاية عام ٥١٧هـ ، إلى ساحل إفريقية ، وبعد أن فتح النورمان جزيرة قوصرة^(٣)، وصدوا المهديّة حيث تحققت لهم بعض الانتصارات البسيطة إلا أن الدائرة دارت عليهم بالهزيمة ، فلم يعد من صقلية إلا من سلم .

وبعد ذلك أصبحت دولة المرابطين غير قادرة علي تقديم العون ، وواصل النورمان تكرار هجومهم بعد ذلك حتى دخلوا حربه عام (٥٣٠هـ - ١١٣٥م) والمهديّة (٥٤٣هـ - ١١٤٨م)^(٤).

الطور الثاني :-

من العلاقات مع المرابطين فيأتي عند خروج بني غانية للتغلب علي قابس وبقي أفريقيا وهم من قبيلة مسوفة ، ويذكر المراكشي^(٥).

"أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وجه إلى الأتلس رجلين اسم أحدهما يحيى والاخر محمد ، وهما ابنا علي من قبيلة مسوفة ، يعرفان بابني غايته وهي أمهما ، كان يحيى رجلا صالحا أصلح الله علي يديه كثيرا من جزيرة الأتلس . وكان واليا علي بننسية ثم قرطبة ، أما أخوه محمد الذي كان واليا من قبله علي قرطبة فلما مات ، أخذ يحيى يتجول حتى وصل إلى دانيا وميورقة ، وانتقل إليها بحرسه وحاشيته فتملكها بالجزيرتين اللتين حولها .

^(١) هم من شعب صنهاجة الصحراء المثلثين في صحراء المغرب الأقصى وهم يتكون من أكثر من سبعين قبيلة من أشهرها بجالة ومسولة وكزولة وعقولة وغيرها الكثير موطنها ما بين جنوب بلاد المغرب وبلاد السودان عرفوا بالمثلثين لأنهم عرفوا بإرتداء اللثام علي خلاف قبائل البربر الأخرى . وتنتشر فيهم المذهب المالكي . علي يد عبد الله بن ياسين الجارولي ويحيى بن إبراهيم الجدلي وجمع ياسين أكثر من ألف رجل منهم وأقام رباطا يعمدا ليلتهم الصلوات والدين والزماد إذا سبوا للمرابطين الذين انتج بهم ياسين لقتال وإخضاع القبائل المتمردة ثم تزادهم يوسف بن تاشفين الذي طلب بجيوشه إلى المغرب الأقصى وتغلب عليهم وبني مراكش .

• ابن أبي زرع الأكييس المطالع بروط قرطاس في الجبل هلك في المغرب ، الرباط (١٣٥٥هـ - ١٩٩٦م) ط. (١)، ج. (٢)، ص. ٦ وانظر : حسن محمود : قيام دولة المرابطين ط. القاهرة ٥٠-٥٢.

• النويري : نهاية الأرب ج. (٢٤) ، ط. ٤٥٥ .

• ابن الخطيب : أعمال الأعلان ج. (٢٢٧/٢٢٨) ط. ٢٢٧ .

مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى في سفح جبل الأطلس الكبير باناما يوسف في صدر ٤٧٠هـ قبل ٤٥٩هـ انظر الحميري ، الروض المعطار ، ط. بيروت ص. ٥٤٠

^(٢) ابن الأثير ، ج. (٦) ، ص. ٢٢٢

^(٣) جزيرة صغيرة تقع بين صقلية وتونس .

^(٤) للمصدر السابق نفس الجزء ص. ٢٢٢-٢٨٦ ، وانظر سلامة الهرفي : دولة المرابطين ط. بيروت ، ط. (١) ص. ١٦٧

^(٥) عبد الواحد المراكش : المعجب في تلخيص اخبار المغرب د/ محمد زليهم دار القرجاني ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م ص. ٢٢٣-٢٢٩

في مصر :-

نجد في السجلات المستنصرية وبخاصة السجل رقم (٥) (١)، ورغم تفاصيله الموجزة الود الرادع للمعز بن باديس وفتح الحسن بن الملهم أمين ومكين الدولة (مندوب الفاطميين) حصن قابس وقرقت السكة المستنصرية واتخذت قاعدة للفاطميين في إفريقية التي عادت بالتالي لحوزة الفاطميين وإلى جانب السكة التي صورتها الياحثة (٢)، وجدت خطابات من الأندلس وعقد زواج في القيروان يدل على استعادة الفاطميين إفريقية لحوزتهم ، أما الخطابات فهي عبارة عن رسالتين مرسلتين من علي بن مجاهد أمير جزيرة دانية والجزر الشرقية من الأندلس نري فيها ما يدل على أن المعز بن باديس كان لا يزال في وقت إرسالها متمسكا بطاعة الفاطميين من انشاء أبو الاصبغ عبد العزيز بن أرقم النميري الوادي الذي تتلمذ في قرطبة علي يد أبي القاسم من الأخيليلي (٣)، وأقام بداية سنوات في كنف إقبال الدولة علي بن مجاهد ، فأما كتاب الرسالة الثانية فهو أبو عامر علي بن سعيد التاكرني الذي عمل في بلاط علي بن مجاهد فترة من الزمن ثم انتقل إلى بلنسية حيث عمل بخدمة عبد العزيز المؤتمن بن عبد الرحمن بن المنصور العامري وتوفي (٤٥٢هـ - ١٠٦٠م) (٤).

أما عقد النكاح فيوجد عقد مودع في محفوظات الجامع الاعظم فسي مدينة القيروان (٥)، مؤرخ في غرة رمضان سنة ٤٤٦ ، وقد صدر " علي يد القاضي عبد الرحمن بن أحمد ، قاضي الامام القائم بأمر الله وواليه المعز لدين الله " تستدل مما سبق أنه حتى (غرة رمضان ٤٤٦هـ / ١٠٤٩/١٢/٤م) يعترف بالخليفة القائم بأمر الله (٦). وهناك واقعة يستدل منها أن تميم بن أبي تميم كان خائفا أن تصل أخبارها إلى الخليفة في مصر وهي:-

كان أبو علي حسن الاسكري المصري من جلاس تميم بن أبي تميم ، فغنت له جارية بغدادية كان قد ابتاعها من هناك فأطربته ، وقال لها تمن علي ، فتمنت الغناء في بغداد ، فاستمع لون تميم وتغير وتكرر المجلس ثم انفض ، فأرسل تميم إلى نديمه الاسكري ثم قال له " ويحك أرأيت ما امتخنا به ، فقلت أي - الاسكري نعم أيها الأمير ، فقال لابد من الوفاء لها وأوثق في هذا بغيرك ، فتأهب لتحملها إلى بغداد" (٧)، ثم نفذ الاسكري تعليمات الأمير تميم وحملها ضمن قافلة الحج مع ذلك العام ثم أكمل إلى منطقة الياسرية قبل بغداد حيث اختفت الجارية ولم يعثر لها علي أثر ... لم يرد في هذا النص أي إشارة لتاريخ زمني فهناك احتمالان:

إما أن يكون حدث أثناء إمارة تميم علي المهدي منذ عام ٤٤٥هـ إلى آخر عام ٤٥٤هـ ، وكان العرب الهلالية قد اجتاحت إفريقية ،

والاحتمال الثاني أن يكون حدث بعد ذلك بسنوات بعد تولية الحكم وكان إليه أي بعد ٤٥٤هـ ، وعندما تدقق في تاريخ ذهاب الحسن بن الملهم (٨)، أمين الدولة ومكينها للمواخاة بين

(١) السجلات المستنصرية ص ٤٢.

(٢) انظر : الملحق.

(٣) ابن الأبار . التكملة : ترجمة رقم (١٧٥٥) ، وانظر : محمد علي المكي : مظهر من مظاهر العلاقات بين مصر الفاطميين والأندلسيين خلال القرن ١١م تبعا لوثائق جديدة مخطوطة من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج- (٣)

(٤) ابن سعد : المغرب في حلي المغرب ، ج- (١) ص ٢٣٢ ، وابن الخطيب . أعمال الأعلام في مختار الغياضي ص ١٩٥ ، وانظر : محمود المكي : مظهر من مظاهر العلاقات بين مصر ... من أبحاث ندوة القاهرة الدولية ج- (٢) ص ١٢٦٢.

(٥) صندوق رقم (٤١٧)

(٦) امر. إدريس : الدولة الصنهاجية ج- (١) ص ٢٦٧ ، وهامش رقم ٩١.

(٧) ابن عميرة النجي : بغية الملتبس ، من المكتبة الأندلسية رقم (٦) ، ط دار الكتب العربي ص ١٠٧ ، ترجمة رقم ٢٠٨ ، (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م).

(٨) هو الأمير الحسن بن علي بن الملهم ابن أبي دينار العقيلي ، الأمير مكين الدولة وأميتها أحد الأمراء في الأيام للمستنصرية : المقرئ : كتاب المقرئ الكبير ط بيروت / ج (٣) ، ص ٤٢٤ وما يليها ، يشير د. عبد الملمع ماجد أنه ذهب مرتين للعرب : المرة الأولى : في الصعيد يتفاهم معهم ، والمرة الثانية : لفتح حصن قابس - انظر : عبد الملمع ماجد : توثيق استرداد الفاطميين للمغرب من أبحاث مؤته : اتحاد المؤرخين القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٦٣م.

القبائل الهلالية وفتح قابس واتخاذها مقرا للفاطميين - لا تفيدنا المصادر في الزمن التي استمرت العلاقات فيه مفتوحة بين مصر وقابس بعد السجل ورسائل من القائد الاتلسي ، لكن التجاني^(١) ، يذكر أنه عندما عزل المعز بن باديس ابراهيم وقاضي قائد الاغنة مخاطبين وذهباً حيث كان مؤنس بن يحيى الهلالي مقدم العرب " فأكرمهما وكساهما ثيابا وصلت إليه من مصر ، وسر بقدمهما وانصرفا إلى والي قابس فاجتمعا بأخييهما فاتفقوا علي قطع اسم المعز بن باديس من الخطبة وصرف الطاعة لمؤنس^(٢) .

وكان نتيجة ذلك أن ابراهيم أصبح واليا علي قابس وهو في طاعة مؤنس^(٣) ، وعندما استولي العرب علي معسكر المعز بن باديس مثل ذلك أرسلت أشياء كثيرة منه للقاهرة .

لقد ظلت قابس جسر العلاقات بين إفريقية ومصر زمنا طويلا وقد ظلت الهدايا تصل من إفريقية للقاهرة فينكي المقريري^(٤) ، أنه في عام ٤٥٢هـ (٦٧٤م) " وفيها قدمت هدية المعز بن باديس فقومت بأربعين ألف دينار . وكانت تلك الهدية تتكون من أشياء قيمة منها درقة مرصعة بالجواهر كانت للمهدي ، وفي عام ٤٨٧هـ ١٠٩٩م أرسل الأمير تميم بن المعز إلى المستعلي بالله الفاطمي بمناسبة توليه بعث إليه المستنصر بالله هدايا فاخرة ورسائل لطيفة مع الشاعر امبه بن الصلت علي هيئة بعثة سياسية إلى مصر لتحسين العلاقات حدث أن شاهنشاه الأفضل من شاهنشاه متولي الأمور وبين امية بن الصلت وحشة محبة الأفضل ستة عشر عاما في جزائره الكتب بالقاهرة هامش ٦ في جزائره الكتب بالقاهرة ، ففي عام ٥٠٢هـ كانت هناك واقعة حدثت في المهدي بين الأمير يحيى بن تميم ورجال غرباء ادعوا أنهم يفهمون في الكيمياء وهم ينون الغدر^(٥) ، فأخرج الأمير أبا الفتوح وزوجته بلادة بنت القاسم بن تميم وهي ابنة عمه ، وكل بها في قصر زياد بن المهدي وصفافس فتبقى هناك إلى أن مات يحيى وملك بعده ابنه سنة تسع وخمسمائة ، فسير أبا الفتوح وزوجته لن إلى ديار مصر في البحر فوصلا إلى اسكندرية^(٦) ، وكان هذا أمانا لهما ، ويبدو أنهما استقر بهما الحال في الاسكندرية وتوفي الأمير أبو الفتوح وتزوجت بلاده من بعده الأمير ابن السلار^(٧) ، الذي كان مغاليا في المذهب السني .

كان ابن اسلار واليا بئر الاسكندرية ، وكانت بلادة لها ابن اسمه أبو الفضل عباس ، كان طفلا عندما جاءت من إفريقية مع أبيه أبو الفتوح في أوائل القرن ٦هـ ، ويقول عنه ابن المقفع : " وكان أمير من جنس ملوك اللثمين بالغرب يسمى عباس من أولاد الأمير تميم بن باديس واليا بالغربية وكانت امه اسمها بلورة توجه هذا علي ابن السلار^(٨) ، ويدل الكلام السابق علي أن ابن عباس هذا قد كبر وعين واليا علي الغريبة وتزوج وأنجب ولدا أسماه نصر الدين تربي في كنف جدته في دار ابن السلار الذي حاطه برعايته^(٩) ، وأنفذ ابن السلار عباس علي رأس جيشه لمحاربة الصليبين في الشام^(١٠) ، وصاحبه اسامة بن منقذ لكن عباس كان مثالما لمغادرته مصر ،

(١) الرحلة : ص ١٠٤

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) البقية التفاصيل ، وانظر : نفس المصدر والمكان ، ولنظر من من هذا الفصل .

(٤) في الدين أحمد ٨٤٥م (١٣٧٧م) : العاط الخفا لنكر الفاطميين الخلفائي محمد حلي أحمد ط القاهرة ط ١٤١٦م - ١٩٩٦م ج ٢ ص ٢٦١ .

- انظر : عثمان الكتان أبو الصلت (نشرة الجمعية الحزولية علوم عدد ١٩٣٥)

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج - (٩) ، ص ١٩٤ .

(٦) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٧) ابن المقفع : تاريخ بطركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث : ط القاهرة (١٣٧٩م - ١٩٥٩م) ص ٤٣

(٨) تاريخ بطركة ... ص ٤٣ .

(٩) حسن ابراهيم : تابع الجولة الفاطمية ، ط الهيئة المصرية بالقاهرة ، ط (٥) (١٤١٥م / ١٩٩٥) ص ١٨٤ .

(١٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ومن عبء الحياة العسكرية ، فأشار إليه ابن منقذ أن يتجنب كل هذا لو قتل ابن السلار^(١)، فاتفق علي أن يقوم نصر ابنه بتنفيذ هذا العمل الشائن ، ويمكن نصر من قتل ابن السلار وهو نائم في (٦ من محرم ٥٤٨هـ / أبريل ١١٥٣م) وفيما بعد قتل الخليفة الظاهر بنفس اليد الاثمة التي قتلت ابن السلار^(٢)، لقد فتح حصن قايس لتكون مقراً للدعوة الشيعية الفاطمية ثانياً^(٣).

من بعد رحيل الفاطميين بسبب تغلغل المذهب السني في إفريقية ثم أصبحت قايس مركزاً يعود منه الحفيد (حفيد المعز بن باديس) لقتل حفيد المعز لدين الله ، وحفيد المستنصر الذي أرسل القبائل الهلالية لتنتقم لهم وتقيم المذهب الشيعي ، فانتشر الدين الاسلامي والتعريب في جميع أنحاء إفريقية والمغرب العربي كله ، كذلك في مصر ما لبث بعد ذلك حتى أصبحت سنية بعد دخول الأيوبيين^(٤)، حيث استمرت قايس مركزاً لهم عندما استولي عليها قراقوش الأرمني ، وخطب من علي منبرها لمولاه نقي الدين وصلاح الدين الأيوبي^(٥)،

ثم لخليفة بغداد العباسي ، ويبدو أن قراقوش الأرمني ظل في مغامراته الجريئة إلي ما بعد رسالة صلاح الدين إلي الخليفة الموحدى ابن عبد المؤمن^(٦)، فعندما نتتبع تاريخ الأمير نقي الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وتولي قراقوش أنه كان بارعاً في الناحية العسكرية والسياسية^(٧)، وكان له نصيب كبير بعد متجددات توزيع الاقطاعات^(٨)، أقطاع اقليم الفيوم والبحيرة والاسكندرية والواحات^(٩)، ليتضح لنا من ذلك أن تجهيز جيش من ممالك ورسالة إلي إفريقية ليس بالامر المتعذر وبخاصة إذا علمنا أن حملة قراقوش كانت برية صحراوية تسلك المسالك البعيدة نوعاً ما في الصحراء وما يعد الواحات^(١٠)، فوصل في محرم ٥٧١هـ إلي السلم (وهي آخر نقطة في حدود مصر) ثم توغل جنوباً إلي منتربة (وهي واحة بسيوة وهي واحة منخفضة جنوب شرق السلم بها رمال منها المتحرك تجعل السير فيها خطراً إلا في دروب بعينها) وخطب في منتريه لصلاح الدين وكتب لمولاه نقي الدين بذلك ثم اتجه إلي جنوب برقة ودخل أوجله وأجدابه (وجنوب برقة وهي واحات تحوطها سلاسل من الكتبان الرملية الوعرة وأوجلة لها مرسى على البحر كما هي محطة للقوافل).

وصالح صاحبها عشرين ألف دينار وما لبث أن عاد إليها بعد وفاة صاحبها وحاصرها حتى دخلها عنوة وقتل الكثير من أهلها وغنم منها الكثير ثم عاد إلى مصر بعد استخلف عليها ثانية.

وبعد ذلك في فتوحاته تجنب البحر وكانت الحملة تسير بعيداً عن البحر متوغلة في الصحراء عند المواقع المنعزلة السهلة الفتح حتى يفتحها فتصل أخبارها لما بعدها من المدن ، فقد فتح قبلها دولة وأزال منها بني خطاب وهم بربر ، وبعد ذلك قويت شوكته في الهجوم علي

(١) للمرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) للتفاصيل ، انظر : حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٥ ، نفس المرجع والمكان .

(٣) انظر : المصدر والمراجع السابقين ، نفس المكان .

(٤) انظر : رحلة التجاني ، ص ٨٦-١٠٤ .

(٥) للتجاني : الرحلة : ص ١١٨ ، وأبي شاقة عيون لروشتين ، ج (٢) ، ص ٢٧ .

(٦) انظر : نص الرسالة الثانية في المصدر السابق ، نفس الجزء ص ٢٢٢ وما يليها لما نص الرسالة الأولى فانظر : القلقشندي :

ج (٦) ، ص ٢٦ وما يليها .

(٧) تحليل تجهيزه لحملة قراقوش هذه ، ومده لسور الاسكندرية ، وجعله وصية علي ولي العهد العزيز عثمان وسعى إلي الشام بجيشه لمحاربة الصليبيين في الشام .

(٨) ابن واصل للمدح للكروب ج (٢) ، ص ٥٢ .

(٩) المقرئ : الخطط ، ج (٢) ، ص ٣١٤ وما يليها ، وانظر : حسين ربيع ، النظم المالية زمن الأيوبيين ، ط (١) ، ص ٢٨ .

(١٠) المصادر السابقة نفس الصفحة .

طرابلس واستغلال ظروفها الداخلية) بسبب موقف الاهالي اليائس من واليهم فاستفاد من ذلك واحتلها^(١).

استمر قراقوش الارمني وتوغله الصحراوي في إفريقية سنين كثيرة تحالف مع العرب وبعض البربر واستولي على الطرق التجارية وقد تتابع الذهاب إلى المغرب والعودة لمصر من طرف قراقوش للامداد والتموين وإعطاء آخر الأخبار ، بدليل أنه عاد بقوات ضخمة وسار معه ناصر الدين إبراهيم سلحدار مملوك تقي الدين عمر ، وهذا يدل على حصوله على تأييد وتشجيع ولاية أموره تقي الدين وصلاح الدين وان انضمام بعض القادة وإمداده بجيوش أخرى يدل على أن ذلك لا يتم إلا برضاء واليه تقي وكذلك السلطان صلاح الدين. وربما كان السلطان صلاح الدين يفكر أنه بوضع يده على أفريقية واتخاذ قابس قاعدة مراكزه البحرية يمكن السيطرة على طريق إفريقيا والمغرب كله وبحريا جعلها قاعدة منوثة لصقلية التي جعلته يفكر جيدا في ذلك بخاصة بعد مؤامرتها هذه لتعويض حكمة وإرجاع النفوذ الفاطمي بالاتفاق مع أعدائه.

أورد ابن شاهنشاه في مضمار الحقائق أكثر من غيره حملات عديدة لقراقوش وفرايكن وشخص آخر اسمه بوزيا.

في أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر وبعد سنتين على التحديد من زوال الدولة الفاطمية التام شمل جماعة من أنصار الفاطميين الذين قعدوا بسقوطهم نعمة كانت تصلهم على أيديهم وأرزاقا كانت تجري عليهم ومن الحائقين على صلاح الدين الأيوبي ومركزه الذي أنفج إليه ومكانته التي تبرأها وكان يرأس أولئك وهؤلاء أحد فحول الشعراء الفاطميين عمارة ابن حسن أبي الحسن اليميني^(٢)، وعبد الرحمن الكاتب والعوريسي القاضي وداعي الدعاة الفاطمي وغيرهم من جند المصريين والسودانيين وحاشية القصر الزائل وكان الغرض الأساسي من اجتماعاتهم السرية على الدولة الأيوبية وإعادة الدولة الفاطمية ولما كانت يد صلاح الدين قابضة على ناصية الأمور ، رأي المؤتمرون أن جهدهم الخاص سيقصر عن بلوغ أهدافهم وأنه لا بد لهم من الاعتماد على مساعدات خارجية ورأوا في ذلك الاستعانة بالنورمنديين في صقلية^(٣)، ثم أخذوا يعدون الجبهق الداخلي بأن زينوا لصلاح الدين تولية أخيه توران شاه لقيادة الحملة على بلاد اليمن ... واتفقوا على إشعال نيران الثورة الداخلية أثناء تغيب صلاح الدين عن القاهرة لملاقاة النجيدات الخارجية وإذا رأي صلاح الدين البقاء في القاهرة وأوفد نائباً عنه لملاقاة الأعداء ساروا به وأخذوه أخذاً باليد بعد أن ينفض عنه عسكره وأنصاره ثم رتبوا أمرهم في شغل المناصب الكبرى بالدولة الجديدة كالخلافة والوزارة والحجابه والقضاء وداعي الدعاة وبدأ بنو رزيك وبنو شاور يختصمون على الوزارة المرتقبة^(٤).

ولقد كانت الخطة بالخطورة يمكن على دولة صلاح الدين في مصر حيث احكمت حلقاتها في الداخل والخارج لولا أن قيد الله له أحد المؤتمرين وهو زين الدين على بن نجاه الواعظ المعروف بابن نجية الذي ذهب إلى صلاح الدين وأعلمه بخيوط هذه المؤامرة فأرضاه صلاح الدين "بملازمتهم ومخالطتهم ومواطنتهم على ما يريدون" ثم طلب إليه أن يحيطه أولاً بأول بما ينتهي المؤتمرون وفي ذلك الوقت وصل صلاح الدين رسول من الصليبيين بالشام ظاهره الاتصال بصلاح الدين وباطنه معرفة مدي ما وصل إليه أصحاب المؤامرة وكانت وسيلة اتصاله بهم بعض نصارى مصر الذين كانوا ينقلون إلى الطرفين أنباء هذه المؤامرة ، وقد استطاع صلاح الدين أن يشتري بالمال بعض هؤلاء النصاري الذين دخلوا الرسول وفهموا منه حقيقة أمره والغرض من حضوره حتى إذا وضع صلاح الدين يده على جميع خطوط المؤامرة أصدر

(١) التفاصيل هذه الحملات انظر : محمد بن تقي الدين شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، حسن حسني ط. عالم الكتب

(١٣٣٨هـ - ١٩٦٨م) صفحات : (٣٣-٣٥-١٧٠-١٨٥)

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٢٥ - ٥٣٨.

(٣) للمقنسي : لروشتين ص ٢١٩.

(٤) المكتبة المربية لصقلية : ج ١ ص ٣٠٩.

أمراً بالقبض على جميع أفرادها^(١)، واعدوا جميعاً وعلى رأسهم عمارة اليمني وعلى الرغم من اكتشاف المؤامرة والقبض على المتآمرين فقد وصل الجيش والأسطول النورمندي إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ وكانت عدته مائتي شينس تحمل الرجال وستة وثلاثين في طريدة تحمل الخيول وست مراكب كبيرة تحمل آلات الحرب والحصار وأربعين مركباً مملوءة بالزاد والطعام وكانت عدة المشاة في هذه الحملة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف ونصف وكان على رأس هذه القوات ابن عم الملك غليالم الثاني ملك النورمنديين^(٢).

ولقد كانت الحملة من الخطورة بكان على دولة صلاح الدين في مصر حيث أحكمت حلقاتها في الداخل والخارج لولا أن قيد الله له أحد المؤتمرين وهو زين الدين علي بن نجا الواعظ المعروف بابن نجية الذي ذهب إلى صلاح الدين وأعلمه بخيوط هذه المؤامرة فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطنهم على ما يريدون. ثم طلب إليه أن يظل يحيطه أولاً بأول بما ينتهي إليه المؤتمرون وفي ذلك الوقت وصل إلى صلاح الدين رسول من الصليبيين بالشام ظاهرة الاتصال بصلاح الدين وباطنه معرفة مدى ما وصل إليه أصحاب المؤامرة وكانت وسيلة اتصاله بهم بعض نصارى مصر الذين كانوا ينقلون إلى الطرفين أنباء هذه المؤامرة المنظمة. وقد استطاع صلاح الدين أن يشتري بالمال بعض هؤلاء النصارى الذين دخلوا الرسول وفهموا وعلموا منه حقيقة أمره والغرض من حضوره حتى إذا وضع صلاح الدين يده على جميع خطوط المؤامرة أصدر أمراً بالقبض على جميع أفراد واعدوا جميعاً وعلى رأسهم عمارة اليمني. وعلى الرغم من اكتشاف المؤامرة والقبض على المتآمرين فقد وصل الجيش والأسطول النورمندي إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٦٩ هـ وكانت مدته مائتي شنيه تحمل الرجال وستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ومراكب كبيرة تحمل آلات الحرب والحصار وأربعين مركباً مملوءة بالزاد والطعام وكانت عدة المشاة في هذه الحملة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف ونصف كان رأس هذه القوات ابن عم الملك غليالم الثاني ملك النورمنديين. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على مدى ما يأمله ويهدفه النورمنديين من هذه الحملة وعلى صدق ما وصل إليه صلاح الدين في خطابه إلى نور الدين من أن الملك الصقلي كان يريد أن يظهر أمام العالم المسيحي بمظهر القادر على تحقيق ما عجز عنه الأباطرة والملوك الأروبيين.

وقد كانت مصر تعتبر في ذلك الوقت حجز الزاوية في المقاومة الإسلامية للحملة الصليبية على الأراضي المقدسة حتى إن كثيراً من الدول المسيحية رأت أنها لا يمكن أن تأمن على مشكلاتها في الأراضي المقدسة ما دامت مصر غير خاضعة لمسيحيين وكان من نتيجة ذلك أن بدأت الحملات الصليبية تتجه إلى مصر فيما بعد بدلاً من الأراضي المقدسة ولا شك أن استيلاء النورمنديين عليها مع مالها من تلك المكانة العريقة يرد إليهم هيبتهم ويعلى من شأنهم ويقلل من حدة عداوة البابوية لهم هذا فوق ما يكسبونه من نفع مادي لسعة ثروتها وكسب تجاري لأهمية موقعها وقد كانت المنافسة التجارية على أشدها في ذلك الوقت بين كل من صقلية وجنوة والبندقية وهنا موقف آخر للملك الصقلي^(٣).

ولعل صلاح الدين الأيوبي قد بدأ يشعر بخطورة الحالة فكتب رسالة الديوان العزيز لنور الدين سمود يشرح له فيما الأعداء المحدثين بالديار المصرية منها قوله "ومن هؤلاء الكفار (الأعداء المحدثين بالبلاد) صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب القسطنطينية قد اجتمعوا في نوبة دمياط فغلبا وكسرا وهزما وأراد أن يظهر قوته المستغلة فعمر أسطولا استوعب فيه ماله وزمائه له الآن خمس سنين يكثر عدده وينتخب".

(١) الملكية العربية الصقلية: ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٣) الملكية الصقلية ج ١ ص ٣٤١.

كل هذا جعل صلاح الدين يوجه كل اهتمامات وإمكانات أن يبحر هؤلاء الأعداء الصليبيين المتربصين من كل جهة - لذا ترك أمر قراقوش جانباً مع معرفة أخباره كلما امكن (١).

لذا رأى الميدان الشامي اجدر باهتمامه أولاً فإذا فرغ منه التفت إلى الميدان المغربي وذلك أن أمر قراقوش عندما وصل إلى مسامع صلاح الدين قال " لعمري أن فتح المغرب مهم ولكن فتح بيت المقدس أهم والفائدة به أتم والمصلحة منه أخص وأهم وإذا توجه إليه تقي الدين واستصحب معه رجالنا المعروفة ذهب العمر في إفتاء الرجال وإذا فتحنا القدس والساحل وطوبنا إلى تلك ممالك المراحل (٢) ثم أمر القاضي الفاضل أن يكتب إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه وكان قد وجد للمغرب واستولى على بعض نواحيه بأمره بالعودة وترك هذا المشروع حقناً لدماء المسلمين (٣).

وإنه إذا انعم عليه بتقوية بلغ أغراضاً بعيدة وسير أموالاً عديدة (٤). ويبدو أن التقوية قد وصلت إلى قراقوش أكمل المسير إلى أن وصل إلى قابس وتم فتحها واتخذ القلعة مقراً له وسكن هو وأهله وعشيرته قصر العروسين وخطب على منبرها (٥) ونادى بجمع الأموال الكثيرة ووضعها في قابس ، ولما أصبحت قابس مركزه زحف منها إلى قصصه وتونس وجزيرة باشو وغيرها (٦).

ولم تغدنا المصادر فيما بعد سنة ٥٨٦هـ بالعلاقات بصفة دقيقة ، فأصبحنا نرى قراقوش مغامراً جرى خاصة بعد رحيل تقي الدين المظفري إلى الشام كما ذكرنا وتوفى محاصراً ملاذكرد (٧) في أرمينية في رمضان سنة ٥٨٧هـ .

وكان صاحب لحمة وخلفه ابنه كما توفى صلاح الدين الأيوبي في دمشق عام (٥٨٩هـ) (٨) وكان صلاح الدين مراسل الخليفة العباسي ومن حديثه عن ذلك لها ولنا في الغرب أثر أعرب .. ونحن بحمد الله قد تملكنا ما يجاورنا من بلاد تزيد مسافتها على شهر ، وسرنا إليها عسكرياً بعد عسكر (٩) ، فرجع بنصر بعد نصر ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : برقة ، قفصة ، قسطنطينية ، توزر ، كل هذه لنا فيها الخطبة لمولانا المستضيء بالله (١٠) ونفهم من هذا الخطاب أن الخلافة كانت تتابع نشاط صلاح الدين في فتح البلاد وإقامة الخطبة للعباسيين خاصة في أنحاء المغاربة فقد كان سقوط المرابطين الموالين للعباسيين قد سبب ألماً لهم وأن دولة الموحدين كانت قائمة بذاتها ولا تتبع أحداً مما أثر ذلك على العباسيين ، لذا كان لإرسال علي بن غانية ثم القراقوش الأرمني بالطاعة للخليفة العباسي أثر طيب في نفوس العباسيين (١١) الذين كانوا وراء هذا النشاط في إفريقية لهدف في أنفسهم وهو تقويض خلافة الموحدين المنافسة لهم ولم يعترفوا للعباسيين عكس الم رابط من خليفة بغداد وإعلان بتبعية لهم (١٢).

(١) أبو شامة لرومين ج ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ نص الخطاب

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٣٠ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج (١) ص ٦٠-٦٦ ، ومن المؤكد وصول هذا المال والرجال مصر لمساعدة في العمل العسكري والحملة لطرده الصليبي من الشام .

(٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ص ٦٧ وإفريقية جزء من بلاد المغرب

(٥) شاهنشاه صاحب حماة : مضمحل الحقائق ص ١٦٤ وما يليها .

(٦) لجوء من الضاميل ، انظر للمصدر السابق ص ٢٢٩ وما يليها ، والشجان : الرحلة : ١٠٥-١٠٨-١١١ .

(٧) الأربلي المعروف بابن المستعري : تاريخ لربل تح / فواد الصغار ، ط . بغداد (١٤٠٠هـ-١٩٨٠) القسم الثاني ، ص ٤٩٦ ، ورقة ١٧٢ ب/٥ .

(٨) أبو شامة لرومين ج (٢) ص ٢٨١ .

(٩) تستدل من ذلك أن الحملة أعقبها تعزيز أو حملات أخرى تلتها .

(١٠) الروميين ج ٢ ، ص ٢٨ .

(١١) ابن الأثير : الكامل ، ص ١٠٠ و ١٤٥ .

(١٢) لقد كان مؤيداً ومغامراً فقد قاتل البربر ولم يحسن معاملة العرب لكنه غدر بهم وقتل ابناتهم ودمهم في قابس فكرهوه . الشجان ص ١١٢ ، بن واصل مفرج

الكروب ج ٢ ص ٣٦١ - ٤٩٦ .

لما كان بنو غانية يدينون بالولاء للخليفة العباسي وكانت تعليمات خليفة بغداد تقضي على صلاح الدين بالتحالف مع بني غانية لاسيما وان الموحيدين يمثلون عدوا مشتركا للطرفين للحلف أنضم بعض العرب من رباح وجهم والأثيج وكاوا من المعارضين للموحيدين بعكس رغبة البعض بني هلال الذين كانوا مع الموحيدين ^(١) وتكون من هذا الحلف ذي الأطراف الثلاثة جيش كبير ولم تكن زعامة هذا الحلف لقراقوش ولكن لابن غانية أمير مبورقة لأصائله بعكس قراقوش الذي كان تابعا لغيره وهو تقي الدين عمر.

وجعل قراقوش الخطبة للخليفة العباسي وصلاح الدين ، وضرب نقودا بذلك ، وتلقب بالمنظفري نسبة للملك تقي الدين وتلقب أيضا بالناصرى لتبعيته للناصر صلاح الدين وكان يوقع باسم (قراقوش الناصري ولي أمير المؤمنين ^(٢))

وكان من قراقوش وابن غانية قد أقام مملكته على أراضي كانت للموحيدين ، وكلاهما يطمع في إفريقية وهي أيضا للموحيدين ، ومن الطبيعي أن يعمل الموحدون على استرداد ممتلكاتهم منهم. امتلك قراقوش قابس ^(٣) وجعلها مخزنا لماله وسلاحه وقاعدة لجيوشه ^(٤) وامتلاكه لقابس كان وضعاً عسكرياً في بلاد الجريد ، ثم أنها يمكن أن يتخذها الموحدون قاعدة لتهديد قراقوش بالجريد ، أو لتقطع مواصلاته ما بين طرابلس والجريد.

وبذلك تحددت مملكة قراقوش بالمنطقة الممتدة ما بين برقة شرقاً حتى قابس الجريد غرباً ، وأصبح الفاصل بين منطقة نفوذه وبين ما يمتلكه ابن غانية هو المنطقة القاحلة التي تصل ما بين الجريد وإفريقية.

وعلى ذلك فالتحالف الذي تم بين قراقوش وابن غانية كان تحالفاً بين مملكتين ، وعلى أساس أن التعاون مع ابن غانية لا يعني أن مملكة قراقوش تصبح ملكاً لابن غانية ، وبصبح قراقوش من رعاياه ، بل كان ذلك يعني ابن غانية أن يقوم بينهم بتنسيق مشترك على أن يكون صاحب الكلمة العليا هو ابن غانية مع احتفاظ كل منهما بما تحيد به من بلاد.

مع الأندلس :

بعد أن استقر محمد بن علي بن غانية في الجزر الشرقية للأندلس ، وكان ذا حنكة وبراعة سياسية وأخذ يحكم فيضم على تلك الجزر ليحقق حلمه الكبير في جعلها ثواة لدولته التي ستحمل اسمه وتستعيد مجد أهله من المرابطين ^(٥) ، لذا كان يعمل على إيواء وفود المرابطين من الأندلس على جزره ، ويستقبلهم بحفاوة ويسبغ عليهم عطاياهم في ذلك الوقت كانت دولة الموحيدين فتية ، دخلت مراكز عاصمة أجداده المرابطين مما أثار شجونة وعزم ^(٦) على تقويض حكم الموحيدين ورفض طاعتهم ^(٧).

(١) ابن الأثير ج

(٢) النجاشي ص ١٠٥-١٠٧

(٣) المصدر السابق نفس الصفحات

(٤) نفس المصدر ص ١٠٧

(٥) حيث ينتمي إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية التي فيها المرابطين.

(٦) وانظر ابن خلدون المعراج ص ١٦١ وما يليه. وانظر مراجع عقيلة غناني : سقوط دولة الموحيدين ، ط. ليا (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) ط ١ ص ١٧٣ هشام

أبو ريمه ، علاقات الموحيدين ، ط الأردن (١٤٠٤هـ - ١٩٩٤م) ط ١ ص ١٤٦.

(٧) كان بنو غانية يدعون لبني العباسي وتقام الخطبة للخليفة العباسي على منابرهم وأرسل للموحيدين لما لكب تلبعا إلى اسحق بن محمد بن غانية " يدعونه إلى الدخول في قاعتهم والدعاء لهم على المنابر " ولكن اسحق تريت واستشار ثم أرجأ هذا الأمر إلى أن تولى وتولى ابنه محمد الذي عزل وتولى أخاه علياً بدلاً منه وأرسله الموحدة له سفيراً هو ابن الربرثو مع جزء من الأسطول الذي سحبت قتلته إلى دار الصناعة بميورمه وفرضت عليها حراسة مشددة ثم حدث أن تولى الخليفة الموحيدي يوسف بن عبد المؤمن في حصار شجرة ٨٠٠هـ فقضى على الربرثو (السفير) وهنا كانت الفرصة مواتية لبني غانية لاستعادة تمعاد مجد اسلافهم على إفريقية وبلاد المغرب للما كان قرارهم بغزو بجاية لمد أن أرسلوا من قبل أرواح لتطلمهم على أحوالها الداخلية. من هنا بدأ هجوم بنو غانية لعمريش الموحيدين وحلقتهم فيما بعد مع قراقوش الأرمني الذي استقر بقابس وسيطر على الجانب الشرقي لإفريقية كله ، ابن خلدون : المعراج ص ٦١.

وإعادة مجد المرابطين^(١) فنفذ خطة أحدهما في ذهنه وهو أن ينزل إلى بجاية ثم يهاجم إفريقية لأنها بعيدة عن المغرب الأقصى معقل الموحدين ولوجود قوة مناوئة لهم في إفريقية وهي قوة القبائل العربية^(٢) استطاع ابن غانية الاستيلاء على بجاية بسهولة في أوائل شعبان من عام ٥٨٠هـ/١٢٠٢م ويتأخذ بجاية قاعدة لهم انطلق ابن غانية ومن معه إلى الاستيلاء على عدة مدن في المغرب لأوسط منها الجزائر ومليانة وأشير والقلعة^(٣) مما جعل الموقف في المغرب الأوسط خطراً فتصدى له المنصور الموحدي مما اضطر ابن غانية إلى اختراق الصحراء^(٤) فوصل إلى بلاد الجريد وهذا هو الطور الصحراوي في ثورته أن يجعل حوله قبائل تلك المناطق متحالفين ضد الموحدين^(٥) وهذا مما ساعد على خطورة ثورة ابن غانية وخصوصاً بعد قطع الخطبة للموحدين في البلاد التي استولى عليها وأمر بالدعاء للعباسيين باسم الخليفة العباسي اهتز الخليفة المنصور الموحدي فجهز جيشاً كبيراً عدته عشرون ألف مقاتل وزوده بالعتاد والسلاح وأسند القيادة إلى ابن عمه السيد ابن زيد بن أبي حفص وفي نفس الوقت جهز أسطولاً كبيراً جداً وأسند قيادته إلى ثلاث قواد ابن محمد بن إسحاق بن جامع وأبي محمد عطولي الكومي وابن العباس الصقلي وسار الأسطول في البحر متوازياً مع الجيش البري حسب خطة عسكرية متوجهة براً وبحراً^(٦) مع بعث الجواسيس والمراسد برسائل إلى أهل البلاد بالأمن والصنف ولتتبع تلك الحملة ويذكر ابن عذاري^(٧) وكان أبو يوسف المنصور اتبع أمراء الجيوش البرية والبحرية كتباً لأهل سائر البلاد ولما دنت الحملة من البلاد درسوا بالكتب جواسيس رحلوا بها ليلاً إلى البلاد واجتمعوا بها مع من يوثق به للأمن لما وافقوا عليها ورأوا أنهم قد أمنوا غوائل العذاب^(٨) وثبوا على من كان عندهم من الأعداء وأرصدوا من هم بالفرار منها وقبضوا على أكثرهم في ملجأهم بتلك المخائق وسبقت الأساطيل ففتحت الجزائر^(٩) ثم فتحت بجاية بنفس الخطة العسكرية مع المراسد في ذلك الوقت استولى الموحدون على ميورقة وكتب عبد الله غانية من إفريقية إلى صقلية ليتعين منها على إمداد جيش بحري ليواجه به أمورهم إلى جانب أنه بعد خلعهم على يد الموحدين من البلاد التي اقتطعها لاذ إلى نواحي طرابلس وما وراءها يالغ لوجهاء العرب وأديانهم ويستميل لهم والعائلة والمنصور يحضرته يستقرأ أخباره^(١٠) ويدخل عام ٥٨٢هـ وصلت أخبار الميورقيين إلى الحضرة الموحدية بأنهم ضيقوا على بلاد الجريد وتغلّبوا على ما تطرف منها في الثغر الأقصى والشاو البعيد^(١١) فخرج المنصور من مراكش لملاقاتهم لكن في عام ٥٨٣هـ كانت موقعة عمرة بالقرب من قفصة وقابس وانهزم فيها الموحدون على أثر خديعة غلبتهم من ابن غانية وحلفائه الذين استولوا على خيل وعتاد الموحدين^(١٢) بنظرة ثاقبة إلى هذه الواقعة وانهزام الجيوش الموحدية رغم ما لها من عتاد وعساكر وخطط عسكرية نجد عدة زوايا مهمة في تاريخ المنطقة الواقعة ، فمنذ دخول ابن غانية إلى إفريقية ساءت أحوالها فيخبرنا ابن شداد^(١٣) "هلك العباد وخربت البلاد" وكان الشتاء

(١) ابن خلدون العمري ج ٦ ص ٦١.

(٢) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٣. وأنظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٦١ وما يليها.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) نفس المصادر نفس الأجزاء والمصنفات.

(٥) ابن عذاري : لبيان ج ٣ ص ١٤٨ ، إنه يذكر أنه وزع المال والناع والنياب التي استول عليها من تلك المدن التي احتلها.

(٦) مراجع فتاوى : سقوط دولة الموحدين ص ١٨٠١ ، عهد عبد الله عتار ، دولة الإسلام ، للمرابطين والموحدين ، ج ٣ ص ١٥١.

(٧) المصدر السابق ، نفس الجزء ، وانظر العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٩.

(٨) نفس المصدر والمصنف.

(٩) نفس المصدر والمصنف.

(١٠) نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٥.

(١١) ابن عذاري : ج ٣ ص ٢٨١-٢٨٠ ، للتفصيل ، أنظر نفس المصدر والجزء ص ١٨٧.

(١٢) نقله النجاني ، أنظر الرحلة ، ص ١٤.

فيخبرنا ابن شداد (١) "ملك العباد وخربت البلاد" وكان الشتاء قاسياً فهلك الناس ونهبوا من عسكر ابن غانية (٢).

ومن زاوية أخرى أنه تحالف مع بعض القبائل العربية المؤثرة وضمهم جنداً معه إلى جانب حفظهم لمغاور الصحراء والأطراف النائية التي يمكن التوغل فيها في الجبال أولاً عند قصبة وجنده ثم إلى الواحات أو بلاد الجريد بمساعدتهم الكر والفر في حروبه واستغلاله اضطراب وقلق هؤلاء العرب خصوم الموحيدين في منطقة إفريقية قبل ذلك بأعوام مثل ثورة بني الرند بتقصه ٥٧٦ التي أخذها الموحدون واسندت ولاية إفريقية للسيد على ابن الحسين (٣) أخي الخليفة أبي يعقوب ، ثم قامت بعدها بفترة قصيرة ثورة بني سليم بأحواز قايس الذين السيد على أبي الحسن ومن معهم عند تصيدهم لبني سليم ، وكان ذلك على مقربة من قايس ، كل هذا وما شابهه من قلق ، كان المشجع الأول في اختيارهم قبائل العرب ومنطقة إفريقية فسرهما لمناوأة الموحيدين (٤) وتملك إفريقية.

يتضح لنا مما سبق أن ابن غانية اختار تلك المناطق من إفريقية لا لعلم العرب بمغاورها وأحوازها ، لكن من الأهم أيضاً أن الولاء فيها للموحيدين غير ثابت ، وكان استيلاء بني غانية وتوغلهم فيها مسرحاً لمختلف الدساس والتيارات المخالفة (٥) إلى جانب زاوية أهم أيضاً ، هي بالإضافة إلى كل ذلك ،

كان هناك تحالف جبار بين بني غانية وقرقوش الأرمني المملوك الغزي التقوي (٦) الذي توغل بجيوشه في هذه المنطقة أيضاً إلى جانب استيلائه على طرابلس وماعداها إلى قايس وتحالف الجانبين على قطع الخطبة للموحيدين والدعوة لطاعة العباسيين وكان الخليفة في ذلك الوقت الناصر لدين الله الذي طلبوا منه في رسالة الخلع والمراسيم والأعلام (٧) ، فأرسل إليهم رسولا هو الفقيه أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني (٨).

فتلك الزوايا مجتمعة كانت من أهم القوى الرئيسية في هزيمة الموحيدين في وقعة عمرة بالقرب من قايس في أحواز قصبة ، ورغم الإزعاج التي سببته تلك القوى الثلاثية المحورية للدولة فإنها استعادت انتصارها " فتحرك إليها المنصور بن يعقوب وكانت له عليها الواقعة المعروفة " بوقعة الحامة" وذلك في سنة ثلاث وثمانين (٩) ، بعد أن توجه إلى قصبة " فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن خرج أهلها راغبين في العفو فشارطهم على تأمين أهل البلد في أنفسهم خاصة وتبقي أملكهم بأيديهم على حكم المساتاه وجميع من عندهم من الجنود والغرباء يتربلون على الحكم (١٠) لقد اندمج الزمان والمكان في تحالف ابن غانية وقرقوش والعرب لصنع حركة مناوئة ومحاولة تملك قايس وإفريقية لكن النصر كان للموحيدين أخيراً ، بعد زمان طويل من الحروب والمعارك هذه الحروب والمعارك أهلكت قايس وجعلتها مسرحاً لهذه القوى المتصارعة في منطقتها إذ واصل يحيى بن غانية (١١) حربه الشديدة ضد الموحيدين بلا هوادة بالرغم من

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) مراجع غنای ، سقوط دولة للموحيدين ط ١ ص ١٨٠ ، محمد عبد الله عنان : المرابطون والموحيدين ج ٣ ص ١٥١ ، أحمد إبراهيم : بنو غانية - رسالة دكتوراه - بآداب الإسكندرية كم تطبع.

(٣) المراكشي : للمعجب ، ص ٢٢٦ ، وانظر : محمد عبد الله عنان : دولة المسلمين في الأندلس ، العصر الثالث ، ج ٢ ص ٨٤٩ - ١٥٥.

(٤) ابن علقمي : البيان ، ج ٣ ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٥) عنان : نفس العصر والقسمة ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٦) سيان ذكره إن شاء الله فيالجزء الخاص بالممالك الغز.

(٧) المرجع السابق ، ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٨) ابن سعيد : الغنصون الياقعة ، ذخائر العرب ، رقم ١٤ ، ط دار المعارف ص ١٧٩.

(٩) النحجان : الرحلة : ص ١٠٣.

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، وانظر رسائل مروحية ، الرسالة ٣٠ / الرسالة ٣١.

(١١) لقد استمرت حروب بني غانية على التوالي ، نجد المصادر تتحدث عن استحقاق وعلى يحيى ، أي أن تلك الحروب كانوا يتناوبون عليها كآسرة لخدمهم على الوحلن الذين سلوهم إجماد المرابطون أجدادهم.

ظروف مواجهات الموحيدين لقوات تلك الممالك المسيحية التي تكالبت في الأندلس على الثغور الإسلامية^(١) لتحقيق حركة الاسترداد المسيحي Reconquista وظلت في عدوان متواصل ، كان على القوات الموحدية ضده والدفاع عن الجبهة الإسلامية ، فإلى جانب هذا كله كان على القوات الموحدية أن تواجه بني غانية وتخدم ثورات أخرى تظهر في إفريقية مثل ثورة الأثل الزاب وقلعة بني حماد^(٢) ، وثورة عبد الكريم الرجراجي للاستيلاء على تونس والمهدية والذي ما لبث أن اتجه نحو قابس حيث كانت حينئذ معقل يحيى بن غانية^(٣).

لكن الرجراجي ومن معه ذهبوا من الحصانة التي تتمتع بها ووفرة القوات العسكرية المحيطة بها ، فخاف أن يحاصرها فلا يستطيع الاستيلاء عليها ، ففضل أن يتوجه قفصة لبعدها عن ابن غانية ولاعتقاده أنها أقل حصانة من قابس ، لكن ابن غانية ظل يلاحق الرجراجي واتباعه حتى حصره في المهدية وتغلب عليه بحيله سياسية بارعه عندما اتحد مع أبي زيد بن الحفص وإلى إفريقية الموحدية لمساعدته في القضاء على الرجراجي ، فبعث إليه سفينتين وقعتا أمام المهدية لتشديد الحصار عليه ، واسقط في يد الرجراجي عندما رأى سفن الموحيدين ففتح المهدية أمام ابن غانية وطلب المفاوضة فيه وتسليم المدينة مقابل الأمان لكن ابن غانية غدر به وبأبيه^(٤).

لم يكتف يحيى بن غانية بفتح المهدية بل ظل يحاول في تحقيق انتصارات أخرى ضد الموحيدين في نواحي إفريقية الأخرى ، مثل ياجه التي قتل عاملها الموحد وفرت قواتها الحامية إلى نواحي شنتبارية^(٥) والأريس ، ثم ظلت المطاردة تشمل نواحي قسطنطينة في المغرب الأوسط وقطع أيدي أهلها حتى خافت البلاد منه ، فنجت مدينة بونه (أو عتابية) تسلم له بالطاعة انتقاء لشروره ، ولكن مع ذلك لم تكن كل المدن تسلم ، فنجت مدينة طره تنور على ابن غانية ، وكذلك أهل الجامة وأهل قابس^(٦) فحالهم من الظلم والتكيد الكثير من ابن غانية وقواته ، وهذا يدل على أن قابس كانت دائما تواجه الظلم وترفض الاستسلام بسهولة^(٧).

كان على القوات الموحدية أن تجابه شرورا ابن غانية وتغلبه من إفريقية وتتقدها من أثامه وعدوانه .. لذا كانت هناك خطة عسكرية موحدية هي مجابهة قوات بني غانية في جعل دمر جنوب قابس والمهدية في وقت واحد ، نزل السلطان الموحد بقابس لتكون مركزا له ففتاها أخبار ابن غانية أنه يعتصم في جبل دمر^(٨) الذي انتقل إليه قواته فاتجه الخليفة الموحد مباشرة إلى المهدية وبعث الشيخ عبد الواحد بن حفص إلى مكان ابن غانية الذي يعتصم به مع قواته وأصحابه الذين حرضوه على التصدي والمواجهة مما جعله يلتقي بقوات ابن حفص في منطقة تاجر وهي منطقة جنوب قابس وأقصى جنوب إفريقية من ناحية الشرق ابن غانية بهزيمة منكرة واستولى الموحدون على أموالهم وسلاحهم وعسكر ابن غانية بمجموعة - أخلاقه كان لهذا النصر صدى كبير وفرح للموحيدين سجله الشعراء^(٩) ومعرضين بخصوصهم من جزر الأندلس أو الشرق من الغز ، كما كان فرصة عظيمة لظهور الدولة الحفصية فيما بعد^(١٠) ومعركة تاجر تعتبر من المعارك الفاصلة بين الموحيدين وبني غانية.

ابن علقري : البيان .. ج ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ ، التجاني ص ١٠٤ - ١١٠ ص ٣٠٤-٣٠٥.

(١) المصادر السابقة ، نفس الأجزاء والصفحات.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤١١ ، وابن علقري ج ٣ ص ١٩٣ ، والتجاني ص ١١٣.

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٢٠٧ ، وابن علقري ج ٣ ص ١٨٩.

(٤) التجاني : ص ٣٣٥.

(٥) ابن خلدون : المعجب ، ج ٦ ص ٤٠٩ وهي الكاف بعد ذلك الزمن (ولي الوقت الحاضر) انظر الخريطة في الملحق.

(٦) رحلة التجاني : ص ١٤٧.

(٧) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٨) التجاني : ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٩) ابن علقري : ج ٣ قسم للموحيدين ص ٢٢١-٢٢٢.

(١٠) المصدر السابق نفس الجزء والصفحات.

لما تحرك الناصر الموحد يحيى بن غانية تراجع الأخير عن كل إفريقية فيما عدا المهديّة وعلى مقربة من قابس حيث تحصن عند جبل تاجرا^(١) وكان يرافقه جموع العرب الذين كانوا في المهديّة ولذا أرسل إليه الناصر قائده المحنك الشيخ عبد الواحد في أربعة آلاف من الجنود ، وأثر أن يبقى هو محاصراً للمهديّة.

أدخل ابن غانية في قتال مرير كان فيه من الخدع التي لم يحفل بها خصمه القوي بها بل هجم عليهم بكل قوته والتحم معهم في قتال مرير لم يصمد معه ابن غانية ومن معه من العرب ففر إلى طرابلس تاركاً وراءه غنائم كثيرة هي حصيلة ما جمعه بنو غانية في عشرين عاماً من بجاية إلى طرابلس وعاد الشيخ عبد الواحد بالغنائم ، وعاد معه أعداد هائلة من أسرى الموحدين الذين احتفظ بهم ابن غانية.

ولقى جبارة أخو يحيى مصرعه في المعركة ، وكان من التلّي أيضاً علي بن اللمطي كاتب يحيى بن غانية وكذلك القائد الفتح بن محمد. ودخلت القوات الموحدية قابس^(٢) التي عين لها الناصر عسكرياً لحمايتها من الأعداء. وعرضت غنائم تاجرا في معسكر الناصر بالمهديّة أما الراية العباسية السوداء فقد نصبت في مكان بارز ليراها أهل المهديّة^(٣).

إن النصر الذي حققه الموحدين في تاجرا والنصر الذي حققوه من قبل في حامة مطماطة، وإن كانت موقعه مطماطة أشد ضراوة ، وكانت حشود الطرفين أضخم. من أكبر انتصارات الموحدين هي مطماطة لأن الخليفة يعقوب كان على رأس الجيش بنفسه ، أما تاجرا فقد قادها أحد قواد الناصر ابن الخليفة يعقوب.

إن معركة مطماطة وتاجرا من أهم المعارك الحربية في حلقات الصراع بين الموحدين وبني غانية. وبعد مطماطة هرب على ابن الغانية إلى الجنوب حيث توفي^(٤) ، أما بعد تاجرا فقد هرب يحيى ابن غانية إلى الشرق حيث واصل صراعه المرير.

وفار يحيى ابن غانية اتجاه الشرق أطال أمد المقاومة وزاد في عمليات الكر و الفر على طول الساحل على خليج سرت توجد مناطق عامرة كما توجد فيها بعض القبائل العربية كانت عوناً لابن غانية على أن يواصل صراعه مع قوة الموحدين^(٥).

ولم يشأ الناصر أن يفعل مثلاً فعل أبوه من قبل حينما رجع إلى المغرب عقب سقوط قابس وقصّة غرب قابس في قبضته معتقداً أن أمر بني غانية قد انتهى^(٦) ، ثم وضحت له فيما بعد استمرار حركتهم وعودتهم لتهديد أمن الموحدين في إفريقية.

لذلك قرر الناصر الاستمرار في مطاردة ابن غانية حتى يقضي عليه نهائياً فهزيمتهم في تاجرا لا تمنعهم (بنو غانية) من العودة إلى إفريقية كما كانوا من قبل ولذلك أرسل الناصر أخاه أبا اسحاق ابن يعقوب في جيش لمطاردة يحيى وخرج القائد أبا اسحاق في سفر ٦٠٣ هـ - ١٢٢٥ م وقضى في طريقه على بنو دمر الذين كانوا يشجعون ابن غانية وهم كانوا يقطعون جنوب قابس على مقربة من مطماطة^(٧).

ثم استمر الناصر في سيره حتى وصل إلى جبال نفوسه وأخضع البربر فيها بعد ما قتل منهم الكثير ، وظل أبو اسحاق يكتفي أثر يحيى ابن غانية ويطارده من مكان إلى آخر ويحيى

(١) تاجرا - جبل صغير قرب قابس ويعرف برأس تاجرا. التتاجي - ص ١٢٠.

(٢) مجموع رسائل موحديّة - رسالة ٣٧ ص ٢٥٥.

(٣) ابن علقري : البيان للمغرب ج ٤ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ وانظر المصدر السابق رسالة رقم ٣٠ - ٣١.

(٤) ابن علقري ، البيان للمغرب .. ج ٢ جزء للموحدين ص ١٧٩ - ١٨٥.

(٥) أنظر أحمد إبراهيم بن غانية .. رسالة ذكرناه بكلية الآداب جامعة الإسكندرية تم طبع ، ص ٢٨٤.

(٦) رسائل موحديّة رسالة رقم ٣٠ ورسالة رقم ٤٧ ص ١٤٥ - ٢١٢.

(٧) أنظر الخريطة ، ملحق رقم

ابن غانية يواصل الهروب شرقاً ، فاكتمسح الناصر الموحدى أرض سويقة بني مذكور^(١) وواصل المسيرة حتى واصل بجيشه إلى ما وراء جبال سرت. وعندئذ اعتقد أبو اسحاق أن دمر يحيى كاد أن ينتهي كما خشي من التوغل في صحراء برقة^(٢) التي هي بعيداً عن قواعد الموحدين في إفريقية وفي نفس الوقت قد يتحرك يحيى ابن غانية فيها لذا عاد إلى طرابلس وترك عليها عبد الله ابن إبراهيم ابن جامع^(٣)

مع الموحدين :

لما استقر الحال بدولة الموحدين بدأت في دفع احتلال الفرنجة في الأندلس وإفريقية^(٤)، وجعلهم تحت راية الإسلام وابتدأ هذا الجهاد المبارك في إفريقية والتحمت أساطيل الموحدين بأساطيل النصارى. أصحاب صقلية حتى انتصر المسلمون وأخرجوهم وبذلك خرج الموحدون لفتح إفريقية والراب^(٥) " وفي أثناء هذا ظهر في العرب بنو سليم القائمين بتعديدهم على مدينة قايس مما أوجب استدعاءهم^(٦) وكان أبو محمد بن عبد المؤمن قد خاطبهم أولاً بالشعر لاستدعائهم وصير على الرد عليه من جانبهم " وقد كانوا تغلغلوا على مدينة قايس فجرد إليهم عسكرياً وأقام هو على مدينة المهديّة ، فما كانت إلا أيام ووصل خبر الفتح بهزائمهم وبقتلهم^(٧) أرسل أهل قايس إلى محمد بن عبد المؤمن بالتوحيد من قبل ذلك^(٨) وفتح الموحدون قايس وأصبحت منزل الموحدين - أعزهم الله - بظاهر قايس - حرسها الله -^(٩). قد عانت قايس من هجوم الميبرقيين^(١٠) وهجوم قراقوش الأرمني^(١١) أمر المنصور أبو يوسف بالاستعداد الحربي وأعد السير إلى قايس لتخليصها ويذكر ابن عذاري^(١٢) أن المنصور عشى الليل عليه ، وهو على مقربة من قايس ، قيات أهلها آمنين واثقين من انتصارهم علي يديه " وانفذ المنصور عند وصوله إلى قايس جملة خيل ورجال ورماة وأبطال يحرسون من فيها من الأعداء عن الفرار ويطوفون بها إلى حين اللحاق بالعساكر مع طلوع النهار^(١٣) وبعد ذلك فتحت قايس وبلاد الجريد كلها^(١٤)، في عام الأحماس ، لقد كان على مقدمة العسكر الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، وانتصر في قايس وفتح حصنها وأبلى بلاء حسناً ، وكان هذا هو أول ظهور أبي حفص الهنتائي على مسرح الأحداث السياسية ، بعد ذلك سيظهر الموحدون

(١) تقع بين ليدا ومسرطة وهي قرية من البحر ناحية مسرطة وهي تتكون من قرى كثيرة عامرة منها قرية بني حسن.

(٢) بلات الحوي ، مجمع البلدان ج ٢ ، ص ٣٠١.

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٨٩. وعن بني جامع هي أسرة نسبها إلى إبراهيم بن جامع وأصلهم من الأندلس استخدمهم في قيادة أساطيلهم .

انتظر حمدي عبد المصم بحث أسرة بني جامع ودورها في عصر الموحدين ط إسكندرية ص ١١

(٤) وضع محمد بن عبد الله بن تومنت* أسس دولة الموحدين وهو أيضاً مؤسس دعوته وهو ينحدر من أمدي قبائل المصامصة وهي قبيلة هرجة* مع أخسر القرن الخامس ومطلع القرن السادس من الهجرة الثاني عشر من الميلاد سافر إلى الأندلس في نهاية رحلته التعليمية إلى المشرق والنتى بشيوخ العالم وعاد بالوروع والعلم الفزير عام ١١١٩-٥٠١ وتلك كانت بداية ثورته وتصميمه على إقامة دولته والتخلص من كل الفلال الذي بدأ يستشري أواخر عهد المرابطين*

* المراكشي : للمصعب ، ص ١١٨-١٨٧.

• عز الدين عمر موسى : للموحلون في المغرب الإسلامي (ط. دار المغرب الإسلامي) ١٤١١هـ ، ط (١) ص ٣٥ وما يليها.

* المصدر والمرجع السابقتين نفس العنصحات

(٥) ابن عشاري : البيان : ج ٣ قسم للموحدين تح / احسان عباس ، ط. بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ط ٢ ، ٦٢.

(٦) نفس المصدر والمكان.

(٧) نفس المصدر ، ص ٦٢.

(٨) ابن عشاري : ج ٣ ، ص ٦٧.

(٩) بمصوع رسائل موحدية ، لي لاني وقصائل ص ١٨٣ الرسالة رقم ٣. وابط الفتح (١٣٦١هـ / ١٩٤١م)

(١٠) أصحاب مبرقة وجزر شرقي الأندلس وهم من بقايا دولة المرابطين.

(١١) ملوك من الفز الأرمني تابع لفتي الدين ابن أنبي صلاح الدين الأيوبي.

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٩٢

(١٣) نفس المصدر والمكان.

(١٤) رسالة موحدية : رسالة رقم (٣٠-٣١) ص-ص ١٥٣-١٩٢.

أول ظهور أبي حفص الهنتاني على مسرح الأحداث السياسية ، بعد ذلك سيظهر الموحدون على مسرح الأحداث في قابس ليجهزوا على حركة بني غانية وقراقوش الأرمني مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي^(١).

زحف المنصور الموحي على قابس ليخلصها من قراقوش واتباعه الذين لم يصمدوا طويلاً أمام جيوش المنصور ، فاستسلموا وغادروا قصر العروسين^(٢) ، ونزلوا إلى مكان المنصور ، فكان المنصور راغبين في الأمان ، فقبل المنصور ذلك منهم ، وبعث بهم بحراً إلى حاضرة تونس ثم تواجها بعد ذلك إلى مراكش.

وتابع المنصور انتصاراته وقضى على مقاومة المتمردين وعادت إلى حوزته مدن وقرى الجنوب الغربي من إفريقية ، كتوزر ونفطة وحامة الجريد ثم اتجه بعد ذلك إلى قصبة التي تركها عمداً لتكون الجولة الحاسمة بينه وبين أعدائه بعد أن سد عليها منافذ الإمدادات ومسالك النجدة^(٣) وقد تحصن بها خصمان - يحيى بن غانية وقراقوش الأرمني واتباعهما ، وقطعت غابة قصبة كإنذار لهم وحرماً نفسية لسكان المدينة ، وشيد الموحدون برجاً متحركاً من سبعة طوابق شحن بالرماء واقتربوا من الأسوار فأصبح في مستواها ، وبذلك تمكن الرماة من إصابة أهدافهم^(٤) وانتصروا عليهم ، كان من نتيجة تلك المعركة تخاذل قراقوش الأرمني عن ابن غانية ، وأعرب عن خضوعه للمنصور الموحي ، فأمنه المنصور ، كما أمن أهالي قصبة^(٥) لم يكن انتصار الموحدون بزعامة المنصور من تونس التي توجه إليها بعد معركة قصبة لينظم شئونها^(٦) ، هذا التحالف الذي كان تحالفاً وقتياً ، قصد به قراقوش مرة أخرى تهيئة الفرص لتحقيق أهدافه وطموحاته ، فيعد إقامته مدة عند وإلى تونس الموحي الشيخ أبي زيد بن أبي حفص^(٧) ، انصرف هارباً إلى قابس حيث دخلها بالخديعة وقتل جماعة من سكانها واستدعى أشياخ العرب الدبايين فقتل أعيانهم بقايس ، ومنهم محمد بن طوق الذي تنسب إليه المحاميد ، وحמיד بن جارية وتنسب له الحواري في سبعين من كبارهم وذلك داخل قصر العروسين فصمم العرب على الانتقام منه فأنحازوا لابن غانية^(٨).

ينكر التجاني^(٩) أن موضع قتلهم شيوخ قابس - بقى مشهوراً إلى وقت رحلته. بعد ذلك شعر بن غانية بخطر قراقوش الأرمني الذي رجع يحقق انتصاراته في قابس وأحوازاها ، أي الجنوب الشرقي من إفريقية بينما ابن غانية قد استحوذ على مناطق بلاد الجريد وصحرائها في الجنوب الغربي من إفريقية. قرر ابن غانية أن يجد من نفوذ قراقوش الذي أحس بنية خصمه ، فخرج بعد أن ترك من طرابلس وقايس نائبه المسمى ياقوت الإفتخار ليلتقي بابن غانية عند منطقة محسن ناحية طرابلس ولم يثبت قراقوش أمام ابن غانية وانصاره ففر هارباً في مفاوز جبل نفوسة^(١٠) وثبت بن غانية حتى أنه طلب الإمداد من جزيرته ميورقة للمحاصرة براً وبحراً وبعد معارك وحصار استطاع ابن غانية أن يسيطر على قابس وطرابلس وبذلك أصبح ابن غانية مسيطراً على أغلب البلاد الإفريقية واستطاع أن يخرج قراقوش الأرمني ويطانته من العز الأتراك من قابس وطرابلس وبالتالي^(١١) مما يلفت النظر هو جبروت هؤلاء المغامرين، قراقوش مثلاً

(١) انظر : الأجزاء القادمة من هذا الفصل.

(٢) النجاني : ص - ص ١٠٥-١٠٨.

(٣) المصدر السابق ، نفس المكان ، وعمد الطوي ، السلطنة الحفصية دار المغرب الإسلامي ، ص ٣٦-٣٧.

(٤) ابن عشاري : البيان ، ج ٣ ص ١١٦.

(٥) انظر : النجاني : ص - ص ١٠٤-١٠٦.

(٦) المصدر السابق نفس المكان.

(٧) المرزوقي : قابس ، ص ١٣٩ والعروس المطوي ، ص - ص ٤٨-٤٩.

(٨) النجاني : ص ١١٠ ، والمراجع السابقة ، نفس الصفحات.

(٩) الرحلة : ص ٢٤٢.

(١٠) المصدر السابق ، نفس المكان ، وأنظر : عمدة العروس المطوي ، السلطنة الحفصية ص - ص ٤٩-٥٠.

(١١) النجاني : الرحلة ص ٢٤٥.

يتخلى عن جبروته عندما يحس بإطلال الهزيمة فيسارع إلى الطاعة للموحدين^(١) وهذا مرة بعد مرة ، فهل كان ذلك من باب الخديعة^(٢) ؟
والمرة الثانية هل كان من باب أن ابن غانية هو الأقوى ؟ أم من باب المهادنة للمصالحة ، حيث أنه في عام ٥٨٦ هـ كانت هناك سفارة على رأسها الأمير ابن منقذ موفدة من قبل صلاح الدين إلى الخليفة ابن يعقوب الموحي الذي كان مشغولاً في ذلك الوقت بمحاربة الصليبيين وحماية الأندلس منهم ، وكذلك صلاح الدين الذي استجد بالخليفة الموحي لإمداده ببعض السفن^(٣) لمساعدة في منازلة الصليبيين المتربصين لعكا وطرابلس وصور^(٤) أي أن الوضع في العالم الإسلامي كان مضطرباً بسبب حركة الصليبيين المسماة في الأندلس بحركة الاسترداد Reconquista وفي الشرق كان الهدف والأمل في بيت المقدس^(٥) .
لذلك شعر صلاح الدين بحاجته إلى أسطول بحري قوي لأحكام حصار عكا بالشام ، ولذا فكر في الاستعانة ببحرية الموحيين لتحقيق هذا الهدف ولقطع الطريق البحري بين أوروبا والشام ولحصار مواني صقلية النورمندية التي وضعت مقدراتها في خدمة الأهداف الصليبية الشام - وأرسل صلاح الدين رسولا إلى يعقوب المنصور هو شمس الدولة عبد الرحمن بن منقذ من بيت بني منقذ أصحاب شيزر بالشام - وأكرم يعقوب السفير وأرسل ١٨٠ قطعة بحرية للشام .

وقد تظهر وثائق في يوم ما تثبت ذلك أو تنفيه فبعض المؤرخين يتشكك في استجابة يعقوب ويهمننا من هذه الناحية أن صلاح الدين اعتقد أن يعقوب غاضب لأعمال قراقوش تابع صلاح الدين فخاف أن يدفعه غضبه إلى رفض إرسال المعونة البحرية إليه . لذلك أمر صلاح الدين رسوله بأن يرد - إذا مثل عن أعمال قراقوش - بقوله (وإن سألت عن المملوكين بوريا قراقوش ونكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معها من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال فتعلمهم أن المملوكين ومن معهم ليس من وجوه الممالك من الأمراء ولا من المعدودين في الطواشية ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يفسد في الأرض^(٦)) .
ولا شك أن هذه الإهانات التي لحقت بقراقوش كان لها أثرها العميق على سلوكه المتقلب عندما نكث تحالفه مع بني غانية وأرغم في أحضان الموحيين ، وقد أثار ذلك حفيظة بني غانية عليه فاعتبروه ناكثاً للعهد غادراً للوعد إذ لم يشاركهم المصير السيئ بعد سقوط قفصه ، ولم يحاول بنو غانية التماس العذر له ، وتقدير موقفه بعد أن تخلى صلاح الدين عنه ، هذا إلى أن بني غانية كانوا هم أيضاً في حالة سيئة يعانون الضياع والتشرد في صحاري الجنوب ، وقد دفعهم هذا الضيق والإرهاق بأن ينسبوا مسؤولية ما حاق بهم إلى قراقوش ، فبينما هم في حالة تشرد كان قراقوش ينعم في تونس في حمى الموحيين ، وقد ردوا إليه حريمه وأولاده وأمواله التي كان أودعها في قابس بعد أنصارهم وتمركزهم بقابس ، وكان قد خباها فيها ورغم ذلك فقد فضل قراقوش العودة إلى أسلوب المغامرات فترك تونس والتقى بجنده القدامى في بلاد الجريد على مقربة من قابس وقتل شيوخها من بني كعب ودياب .

ووصلت أخبار فرار قراقوش إلى مسامع يحيى بن غانية الذي تحرك على الفور لمطاردة غريمه وعاونوه بنو دياب ابن غانية في المطاردة ثاراً لقتلهم .

وتراجع قراقوش عن الجريد إلى قابس وتحت ضغط المطاردة تراجع إلى طرابلس ولكنه فشل في الاحتفاظ بالمدينة فهرب إلى فزان ودخل في قتال مع بربر هواره هناك وكانوا يكرهونه

(١) المصدر السابق ص ١٣٠-١٣٥ .

(٢) النجاشي : ص ١٠٤-١١٠ .

(٣) محمد العروس الطوري ٢٢٢ الخفصية ط ١ بيروت ط ١ ص ٤٩-٥٠ .

(٤) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن عفران : ص ٣-٨٣ وما يليها .

(٦) ابن واصل - مفرج الكرب - ج ٢ ص ٣٦١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ . سعد زغلول - العلاقة بين صلاح الدين وأبي يعقوب ، ص ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٣ ،

١٤ . العبادي : تاريخ البحرية ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وانظر أحمد طه إبراهيم ، بنو غانية : رسالة دكتوراه لم تشر من ٢٦٩-٢٧٠ .

لقسوته واستبداده وتخريبه الكثير من بلدانهم وكما سبق أن فعله مع ملوكهم من بني خطاب^(١)، غير أنه كان هناك بعض قبائل العرب تسانده في التخريب والسلب فرصة للفوضى والتخريب.

وأخيراً استطاع بني غانية ومعه بنو دياب العرب أن يحصروا قراقوش في ودان بفـسـزان حتى نفذت الأدوات لدي قراقوش ورأي الاستسلام وقرر ابن غانية وبنو دياب قتل قراقوش هو وولده ، وطلب منهم قراقوش أن يقتلوه قبل ولده فوافقوه وصلبوه هو وولده بظاهر ودان وكان ذلك في ٦٠٩ هـ^(٢).

مع النورمان في صقلية :

استولي النورمان^(٣)، في سنة (٤٨٤ هـ / سنة ١٠٩١ م) على صقلية وطردوا العرب منها بعد سلسلة من الحروب واستقروا بها لتكون قاعدتهم في محاولاتهم للاستيلاء على مدن أفريقيا وغيرها من مدن الشمال الأفريقي بحكم موقع جزيرة صقلية الجغرافي^(٤)، وذلك في عهد روجار الأول^(٥)،

إلى جانب أنه اتخذ قائداً محنكاً داهية لأسطوله هو جورج الأنطاكي^(٦)، الذي كان يخدم بنسي زيري في المهديّة فعرف جغرافية مدن ساحل أفريقية جيداً مما زاد الحالة سوءاً أن رافع بن مكن الدهماني استجار بروجار ضد حكام أفريقية من بني زيري (على والحسن) تمكن لنفسه وإعلاء لشان قابس وبني جامع فيها ، فكانت تلك هي الفرصة الذهبية التي امتصها روجار الثاني ببراعة لما تولى على ابن يحيى بن تميم يعد وفاة أبيه من ٥٠٩ هـ زاد في عهده اضطراب العلاقة بينه وبين النورمان في صقلية فلقد كان يحيى يريد سياسة أكثر قوة فيستعيد السيطرة الإسلامية في حوض المتوسط بحراً خارجياً ، أما برياً وداخلياً فقد رأى أن يبدأ بالسيطرة على مدن أفريقيا وفرض هيمنة بني زيري عليها وهذا هو السبب الذي جعله يقاوم رغبة رافع ابن مكي صاحب قابس في أن يجري السفينة التي بناها رغم مداراة أبيه يحيى لذلك لدرجة أنه ساعد في بناءها بالخشب والحديد^(٧)، لكن علياً أعد عدته وتسليح لقتال رافع فعمر ست طرادات وأربع شواني^(٨)، وخرج ليقاتل رافع الذي استتجد بدوره بروجار صاحب صقلية الذي قدم له كل عون ومساعدة من أجل تقوية نفوذ قابس^(٩)، كانت هذه المساعدة ظاهرياً لكن باطنها أن جعل مدن شواطئ خليج أفريقية خاضعة له^(١٠)، ويذكر النويري^(١١)، أن السفن لما اجتازت المهديّة أخرج على قطع أسطوله من الحربيّات والشواني لتتبعه فالتقوا بها لكن أسطول روجار رجع إلى صقلية بعد أن عرف أنه لا قبل له بمحاربة على فكان لنصر المسلمين صدي كبير ،

(١) التجاني ص ١١٢.

(٢) التجاني ص ١١٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ - الراوي ص ٢٢٢ - ابن غلبون - ص ٦٤.

(٣) النور منديين Noramands شعب من أصل جرمان ، والكلمة تصفها الأول Nord أي الشمال الأوروبي (السويد والنرويج) وكانت لهم مقاطعة باسمها في جنوب فرنسا أو نورمانديا.

(٤) لأنها تقع في نقطة التقاء القارات الثلاث ومنها انتشرت الحضارات المختلفة قديماً مثل الفينيقيين والرومان ، انظر: محمد توفيق المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية ، ص ٨ ، وعن الجرمان انظر : محمد الشيخ ، الممالك الجرمانية ، ط. إسطنبول ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ط. (١) ، ص ٣١١.

(٥) من أسرة هونفل النورمانديين انظر : أماري المكتبة الصقلية ، ط. بيروت ص ٢٧٣ وما يليها.

(٦) وهو نصرمان من المشرق ، تعلم العربية والحساب في أنطاكية ثم التحق بتسيم فحظي عنده ثم كان ابنه يحيى ، يشاوره ، وبعد وفاته إتضح بخيانة روجار الشان بصقلية والذي عينه قائداً لأسطوله.

(٧) وهذا يوضح أن سياسة على هي فرض القوي عكس سياسة بن يحيى في المهادنة والمبادرة ، انظر ابن خلدون ص ٦ وص ١٦١ والتجاني ، ص ٩٧ ، النويري ص ٢٤ وص ٢٤٧.

(٨) نورمان من قطع الأسطول الحربي سيان ذكرها في الفصل القادم : انظر سالم والعبادي : تاريخ البحيرة الإسلامية.

(٩) النويري : ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، مصدر سابق ج (٢٤٧).

(١٠) حامد زيان : الإسلام والمسلمون في صقلية ، مجلة كلية الآداب ، بجامعة القاهرة لعام ١٩٧٥ ، ص ١٢٤.

(١١) لمائة الأرب : ج (٢٤) ، ص ٢٤٩ مثل الشاعر الصقلي (ابن حمليس).

ونظم الشعراء فيه القصائد^(١)، ويعد ذلك كانت هناك وحشة كبير بين روجار وعلى بن يحيى وبين الحسن من بعده حتى أدت إلى تغلب الروم على المهديّة ولقد تسبب فيه رافع عندما أرسل لروجر الأعانة على علي بن يحيى فبعث له أسطولاً ضخماً لنصرته على الأمير علي، ويذكر التجاني أنه لما وصل أسطول الأمير على إلى قابس (فوجد الروم قد نزل من قطعهم لضيافة أعداء رافع لهم) فلم يراعه وصول الأسطول فبادروا إلى قطعهم فغلبهم المسلمون على أكثرها^(٢)، ولما تم هذا الفتح لعلي دون قبائل العرب أعد الأساطيل لمحاربة قابس وذلك في سنة إحدى عشر وخمسمائة فلما بلغ رافعا أرسل جماعة من وجوه قومه راغباً في المصالحة^(٣)، ولما لم يستجب له على ارتأي رافع أن يصل القيروان، لأن ولاءها من بني عمومته من العرب فسهلوا له مهمته.

تولي قابس بعد دخوله رافع إلى القيروان رشيد بن بني جامع الذي نعمت قابس بالرخاء في عهد ثم أوصى بالعهد إلى أكبر أولاده لكن غلب على دولته مولاة يوسف^(٤)، الذي انتهز فرصة خروج محمد بن رشيد - الذي تولي بدلاً من الابن الأكبر من قابس لأمر ما وترك أحد أولاده نائباً له في قابس فطرده يوسف واستولي على قابس وأعلن الطاعة لروجر^(٥)، وكان روجار قد استولي على جزيرة جربة على خليج قابس لتكون خط الهجوم الأول له^(٦)، (وكان أهلها من البربر العرب يهاجمون كل سفينة تمر بهم)، فكانت هذه الفرصة لروجر للاستيلاء عليها بحجة التخلص من تلك القرصنة^(٧).

وكان ذلك في عام ٥٢٩هـ وانطلقوا منها للاستيلاء شرقاً وغرباً على مدن أفريقيا فاستولوا على برشك وطرابلس^(٨)، ثم انطلق إلى باقي المدن مثل صفاقس وسوسة والمهديّة وسلك جورج الاتطاعي سياسة اللين والمهادنة وكان من عادة روجر كتابة الأمان^(٩)، عند استعمال الولاة المسلمون على البلاد الخاضعة ليعاونوه وكانت سياسة التسامح التي اتبعها روجر دعت إلى التجاء الكثير من العرب إليه إلى جانب تطور الأحداث في أفريقية لصالح النورمان عقب استيلائهم على طرابلس الأمر الذي أدّى إلى استيلائهم على المهديّة في عام ٥٤٣هـ - ١١٤٣م وسقوط الدولة الزيرية في أفريقية^(١٠).

كانت قابس في عام ٥٤٢هـ - ٢١٤٢م قد نشبت بها ثورة أهلية على أثر فتنة حدثت عقب وفاة أميرها - رشيد بن كامل ابن جامع - الذي كان له عدة أولاد أكبرهم معمر وأصغرهم محمد^(١١).

انتهز المولى - يوسف - هذه الفرصة فنقل ولاية العهد مختطياً الابن الأكبر - معمر - إلى الابن الأصغر - محمد - وذلك تمهيداً لنفسه ليتصرف في شئون الدولة منفرداً.

(١) المصدر السابق، نفس المكان، وانظر التجاني: ص ٩٩ يقول الكاتب عماد بن عبد الله مدح على بن يحيى تعدي على الأعلاج في بحر قابس: وسار إليهم في الخميس المرمم ملو على الأديار كلا واحفلوا: بنات نبا عنهم وطئس منظم.

(٢) التجاني: ص ٩٨.

(٣) المصدر السابق نفس المكان.

(٤) نفس المصدر ص ١٠٠.

(٥) ابن أبي دينار - ص ١١٤.

(٦) ابن أبي دينار للمؤنس، ط، بيروت، (٣) ص ١١٤.

(٧) التويري: ج (٢٤) ص ٢٤٥.

(٨) ابن الأثير: ج (١٠) ص ١١٤ والتويري: نفس الجزء، ص ٢٤٦ وابن دينار ص ١١٤.

(٩) التجاني: ص ١٠٠.

(١٠) ابن عشاري: البيان ج ٣ - ٣٢٥ - ياقوت الحموي: فتح البلدان: ٢٠٨.

(١١) ابن خلدون: المعرج ج ٦ - ٣٤٠ - ياقوت: معجم البلدان م: ٢، ٧، ٤٢.

لجأ معمر (وبرفقته أخواله من بني هلال ومسلم) إلى الأمير الحسن ابن باديس فشكا إليه ما فعل يوسف.

كان الأمير الحسن بن باديس متيقناً من قوة بني هلال وبنس سليم وأنهما يستطيعان أن يثيرا الشعب والفوضى في قابس الأمر الذي يؤدي إلى حرابها إذا تحقق مطالبهم في رد الأمر إلى نصابه بتولي معمر السلطة على نحو ما قرر أبوه قبل وفاته وإقرار العدالة بين أبناء الأمير الأسبق - رشيد بن كامل - لذا أرسل الأمير الحسن - إلى يوسف بأن يكف عما يفعل وأن تكون الأمانة للابن الأكبر معمر بحسب وصية والده^(١).

ضاق يوسف بمكاتبة الحسن وقال : لمن كان حاضراً عنده "أن لم يكف الحسن عني سلمت قابس إلى صاحب صقلية"^(٢)، وما لبث أن وصل هذا القول للأمير الحسن صاحب البلاد الشرعي فكرر مكاتبة يوسف مرة ثانية ، فلما لم يستجب يوسف اعتبر الحسن هذا خروجاً على الطاعة ، فجهز جيشاً وسار إلى قابس لتأديب يوسف بأن الأمير الحسن في الطريق إليه أرسل إلى روجر الثاني ملك صقلية قائلاً "أريد منك خلعة وعهداً بولاية قابس ، وأكون نائباً عنك كما فعلت مع بني مطروح أصحاب طرابلس"^(٣).

وبذلك أصبحت الفرصة مهيأة للنورمان لاحتلال قابس وفرض السيطرة عليها. الأمر الذي كان ينتظره النورمان ومنذ زمن ولاسيما أنهم كانوا ينتظرون إلى أحداثها بعين الترقب والسرور ، ويعدون العدة لاحتلال قابس.

استجاب روجر إلى طلب يوسف بفرض عليه الحماية وأرسل إليه الخلعة والعهد^(٤)، فليس يوسف الخلعة وقرئ العهد في بيان رسمي أمام الناس ليعلمهم أن قابس أصبحت قلعة للنورمان وأنه أي سوف أصبح عاملهم عليها.

ويذكر ابن الأثير^(٥)، فسار أهل البلد بيوسف لما اعتنقهم من طاعة الفرنج وسلموا البلد إلى عسكر الحسن ويذكر أيضاً^(٦)، أن يوسف تحصن في القصر فقاتلوه حتى أسروه وسلموه إلى بني قره ومعمر بن رشيدة وتولي قابس بعد ذلك الحوادث معمر بن رشيد فكان أخوه محمد بن رشيد وكان يوسف هذا قد أرسل رسولا من قبله (عندما كان يحكم قابس) إلى روجر صاحب صقلية فاجتمع برسول الحسن صاحب المهديّة عنده فجري بينهما حوار ثم فيه رسول يوسف الأمير صاحب المهديّة وينال منه^(٧)، فلما عادا في وقت واحد وركبا البحر ، كل منهما في مركبه فأرسل رسول الحسن رفعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف ، سير الحسن جماعة من أصحابه في البحر ، فأخذوا رسول يوسف وأحضروه إلى مجلس الحسن الذي سبه^(٨)، وقال ملك الفرنج بلاد الإسلام ، وطولت لسانك بذي ، ثم اركبه جملاً وعلى رأسه جلاجل وطيف به في البلد ونودي عليه هذا جزاء من سعى أن يملك الفرنج بلاد المسلمين^(٩)، ولما وصل إلى الساحة الرئيسية التي في وسط مدينة المهديّة كان غضب العامة وثورتهم وقد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٤.

- ابن خلدون : المعر ج ٦ : ٣٤٠ - ٣٤٣

- د. عبد العزيز سالم : للغرب الكبير ج ٢٢٢ : ٦٨١.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٤.

(٣) Setton: A history of the crusades. P. 23 - 24.

(٤) أماري : المكتبة العربية الصقلية : ٢٩٠ نقلاً عن ابن الأثير : الكامل في التاريخ الباب ٣٥

- ابن خلدون : المعر ج ٦ : ٣٤٠ - ٣٤٣

- Setton: A history of the crusades. P. 24.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٣٤٧.

(٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة.

(٧) نفس المصدر نفس الجزء والصفحة.

(٨) نفس المصدر نفس الجزء والصفحة.

(٩) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ / (٧) التجاني : ص ٢٤٢ / ٢٢١.

إلى الساحة الرئيسية التي في وسط مدينة المهديّة كان غضب العامة وثورتهم وقد وصل زورته فقتلوه بالحجارة حتى هلك ،

من هذا نستدل أن الشعور العام كان حماسياً متأججا بالغضب من تملك الفرنج أو حتى الاتصال بهم سواء في قابس أو المهديّة من العرب والبربر لقد كان دورهم بارزا في الدفاع عن أفريقية وأنهبهم رغم الأضرار التي لحقت بها من جراء الغزوة الهلالية أول مجيئهم إلى أفريقية لكن بعد ذلك اتضح دورهم الفعال في صد هجوم الفرنجة سواء من المدن الإيطالية أو النورمان^(١). لم يستطع روجر أن يرسل نجده كبيرة لحماية عميله يوسف والدفاع عن قابس وذلك لانشغاله بحرب الدولة البيزنطية ، وبذلك اكتفى بإرسال عدة مراكب صغيرة لم تستطع الدفاع عن قابس^(٢)، وبذلك أعاد الأمير الحسن ولاية العهد إلى الابن الأكبر معمر وأن يكون محمد من بعده. أما أولاد يوسف وأخوه عيسى فاتجهوا إلى صقلية قاصدين روجر الثاني فأخبروه بما فعل الأمير الحسن في قابس^(٣).

اعتبر روجر هذا العمل من جانب الأمير الحسن نقضاً للصالح والمعاهدة المبرمة بينهما منذ عام ٥٢٤هـ - ١١٤٦م^(٤).

أعد روجر أسطول يشمل ٢٥٠ سفينة تحمل الفرسان والمعدات التي تمكنه من استعادة نفوذه في قابس والاستيلاء على المهديّة وتأييد الأمير الحسن بن باديس. وأبحر هذا الأسطول بقيادة جرجي الأنطاكي من ميناء صقلية في الثاني والعشرين من يوليو قاصداً المهديّة^(٥)، توقف الأسطول في جزيرة قوصرة التي كانت بمثابة محطة انتظار للأسطول النورماني ، وسرعان ما وصلت أنباء هذه الحملة إلى المهديّة ، فأرسل الأمير الحسن زورقاً صغيراً بها بعض عيون له ليتحسسوا أخبار النورمان ، وشاعت الأقذار أن يصل هذا الزورق إلى جزيرة قوصرة وكان بصحبته قفص حمام للمراسلة إلى المهديّة ، فوقعوا في قبضة رجال الأسطول النورماني فأمرهم جميعاً ، ولم يكتف النورمان بأسرهم بل أمر جرجي الأنطاكي - مقدم الأسطول - أن يكتبوا إلى المهديّة بما يفيد أن الأسطول النورماني قد رحل إلى القسطنطينية^(٦).

وصلت هذه الرسالة على جناح الطائر إلى الأمير الحسن في المهديّة فاستبشر خيراً وأخبر الناس فأقيمت الأفراح وترك أمر الاستعداد للدفاع عن المهديّة. أما عن جرجي - قائد الأسطول النورماني - فقد أراد بهذا العمل الخبيث أن يفاجئ المسلمين وقت السحر وهم نائمون ليتجنب شدة المقاومة^(٧).

^(١) من الطيحي بنو حلال ودورهم في الجهاد في أفريقيا والأندلس ، مجلة البحوث التاريخية ، المجلد الأول ليبيا ١٩٨٥م ص ٩٧ - ١٠١ ويورد قصيدة إيطالية يشهد بدور النورمان العربية في الدفاع رغم نصر الأيوبيين.

^(٢) Setton: A history of crusades I° adit P. 16 - 25.

Smith: Werat were crusades London I° edit P. 18 - 21.

- ابن خلدون : المعرج ٦ ص ١٦٥ - ١٦٩.

^(٣) ابن خلدون : المعرج ٦ ص ٣٤٢.

- ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٤.

^(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٦.

^(٥) Setton: A history of the Crusades P. 24.

- ابن عساري : البيان : ج ١ : ٣٢٢ - ٣٢٣.

- ياقوت الحموي : نزهة البلدان : ٢٠٨.

- أبو الفداء : المختصر ج ٣ : ١٩ " يذكر أن هذا الغزو كان في الثاني من صفر "

^(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج ١١ : ٥٦ - ٥٧.

Setton: A history of the Crusades: P. 24.

- يذكر أنه قفص الحمام هذا كان مع أسطول النورمان وذلك لإنهم الأمير الحسن أنهم قلما إلى القسطنطينية وليس للمغرب وذلك لوجود معاملة الصداقة المتعددة بينهما ، ولكننا نزيد رأي ابن الأثير.

^(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٦ - ٥٧.

ولكن القدر لعب دوره لصالح المسلمين فهبّت على الأسطول ريح عاتية معاكسة في البحر فتأخر وصوله حتى أشرق الصباح ، قرأهم الناس وهم قائمون في البحر قاصدين المدينة^(١). فلما رأى روجر أن حيلته قد انكشفت وأن خطته باءت بالفشل ، فأرسل إلى الأمير الحسن رسولا من قبله يقول له : "إنما جئت بهذا الأسطول طالبا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ، وردّه إليّ ، وأما أنت فبيننا عهد وميثاق ، وإنما نريد منك عسكريا ليكون معنا"^(٢). جمع الأمير الحسن خواصه ومستشاريه ليعرض عليهم الأمر فأشاروا عليه بالحرب^(٣)، ولكن الأمير الحسن الذي كان يقدر الأمور تقديرا سياسيا خاف عواقب الحرب فرد عليهم قائلا: "أني أخاف أن ينزل العدو إلى البر ، ويحاصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين المسير ، وليس عندنا ما يقوتنا شهرا ، فنؤخذ قهرا ، وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خير من الملك"^(٤).

وبذلك قرر الأمير الحسن الخروج من المهديّة بمن تبعه ودخل النورمان المهديّة يوم الاثنين الثاني من صفر عام ٥٤٣ هـ أو آخر يوليو ١١٤٨ م^(٥). فأسرّع قائد النورمان بدخول قصر الإمارة فوجده كما هو بكل ما فيه من ذخائر الملوك فلم يأخذ الحسن منه إلا ما خف وزنه^(٦)، ويسقط المهديّة سقطت دولة بني زيري الصنهاجية بهذه الصورة غير المتوقعة^(٧). يعد استيلاء النورمان اتّخذ روجر الثاني قاعدة لتحركاتهم الحربية في شمالي إفريقيا ، وشن الغارات على ما يليها من البلاد ، فبعد مدة قصيرة من استقرار روجر الثاني في المهديّة سير أسطولين أحدهما إلى مدينة سوسة التي استولى عليها في الثاني من شهر صفر عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م بدون مقاومة أما الآخر فسار به نحو مدينة صفاقس ، التي استولى عليها هي الأخرى بعد مقاومة عنيفة من جانب أهلها وحلفائهم العرب وذلك في الثالث والعشرين من شهر صفر عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م^(٨).

وهكذا سيطر روجر الثاني على جميع سواحل إفريقية الممتدة من طرابلس حتى ضواحي تونس ، فكان على الموحدين تخليص هذه البلاد من قبضة النورمان وتوحيد المغرب الإسلامي تحت رايتهم. ودخل عبد المؤمن المهديّة وأقام بها عشرين يوما ورتب أمورها وبنى أسوارها وأمن النورمانيين على أنفسهم حتى عودتهم لبلادهم وقد تحقّق ذلك في عام الأحماس أو عام ٥٥٥ هـ وكان للأساطيل الموحديّة وأساطيل غزاة البحر بسواحل المغرب وإفريقية الفضل في المساندة الغير مباشرة لمسلمي مصر والشام في جهادهم ضد الغزاة الصليبيين وخاصة بالنسبة لصقلية المجاورة لثغور أفريقية والمغرب الأوسط ، التي كانت آنذاك هي القوة البحرية الرئيسية

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٦ - ٥٧.

- أماري : المكتبة العربية الصقلية : ٥٠٠ - ٥٠١ تتلأ عن ابن خلدون : المعرج ٦ : ٢٢٠ - ٢٢٢.

- أنظر مصطفى عبد الحفيظ : القوى الصقلية في غرب البحر المتوسط : رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ص ٢٥ - ٢٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٦ - ٥٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل : ج ١١ : ٥٧ - أبو الفداء : المختصر ج ٣ : ١٩.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ : ٥٧.

- أماري : المكتبة العربية الصقلية : ٥٠٠ - ٥٠١ تتلأ عن ابن خلدون : المعرج ٦ : ٢٢٠ - ٢٢٢.

(٥) ابن العطار : البيان ج ١ : ٢٢٢ - ٢٢٣.

- Setton: A history of the Crusades P. 24.

(٦) ابن الخطيب : الحلال : ١١٧ - تنبيه أعمال الإعلام ج ٢ : ٨٢.

- ابن أبي زرع : الأئیس المطرب : ١٣٩ - ١٤٠.

- ابن خلدون : المعرج ٦ : ٢٢٢.

- السلاوي : الاستقصا ج ١ : ١٥٤.

- أبو الفداء : المختصر ج ٣ : ١٩.

(٧) تولت دولة بني زيري الزيرية منذ رحيل الفاطميين للقاهرة سنة ٣٦١ هـ إلى أن سقطت عام ٥٤٣ هـ ، توالت على أفريقية تسعة من أمراتها : أنظر الملحق.

(٨) ابن الأثير : ج ١١ ص ١٢٨ ، التبريزي : ج ٢٤ ص ٢٤٩ ، الحادي إدريس : ج ٢ ص ٤١٩.

التي تقدم العون والإسناد للصليبيين في ثغور الشام كما كانت تساند القوات البرية الصليبية في محاولة الاستيلاء على مصر^(١)، و مما يدل دلالة واضحة على دور الأساطيل الموحدية إلهام والخطير في قطع الطريق على أساطيل صقلية، ومنعها من التوجه إلى سواحل الشام ومصر ومطاردتها وإغراقها والإغارة على قواعدها البحرية في صقلية وفلورية هو سعى ملك صقلية آنذاك^(٢)، عليا لم أو وليم الثاني ٦٣٠، ٥٨٥هـ - ١١٦٦ - ١١٨٩م (وهو آخر ملوك أسرة هونفيل النورمندية) إلى طلب الصلح من الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن ويقول صاحب المعجب^(٣)، في هذا الصدد ما يلي لها ... "في عام ٥٧٥هـ - ١١٧٩م"، أرسل ملك صقلية (غليام) إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أثناء وجوده في أفريقية لإخضاع بني الرند، التأثيرين في قصصه يناديه أن يقبل عقد الصلح" وأرسل إليه الإثارة بعد أن خافه خوفاً شديداً فقبل من ما وجه له إليه وهادنه على أن يحمل إليه كل سنة مالا انتقا عليه^(٤).

ومن عهد غليا لم الأول كانت الدولة النورمندية بدأت تفقد مستعمراتها على سواحل

أفريقية لقد كان النورمنديون يريدون التعويض عما أصابهم من نقص شديد لهيبتهم في العالمين الإسلامي والمسيحي بطرد عبد المؤمن لهم من المهديّة وهزيمتهم^(٥)، المنكرة من عام الأخماس^(٦)، بعد ذلك إذ ضاعت آمالهم في اتحاد سواحل إفريقية مثل قابس وطرابلس طريقاً برياً وبحرياً إلى الأراضي المقدسة لذا اتجهت أقطارهم رأياً ناحية الشرق للاستيلاء أغلى جوهرة في الشرق : مصر ولكنهم فشلوا.

مع بلاد السودان :

تقع السودان في أقصى الجنوب من بلاد أفريقيا، العلاقات مع بلاد السودان متصلة منذ القدم لقد كان السودان الأفارقة السود في جيوش الزيريين والمرابطين والحمدانيين وقال اليعقوبي^(٧)، عن قابس إنها بلد الأفارقة والعجم وهناك عدد غير قليل من الولاة والثوار في الشمال الأفريقي أمهاتهم سودانيات مثل أبي يزيد الخارجي الذي قاد ثورة ضد الفاطميين وسك نقوداً باسمه عام ٣٣٣هـ^(٨)، وكانت القوافل تجوب بين الشمال والجنوب من أفريقية وعن طريقها انتشر الإسلام وكذلك الأربطة الدينية وتوغل في بلاد السودان وما حولها وانتشرت المذاهب الخارجية أيضاً مثل الأباضية^(٩)، والمذاهب الأخرى للخوارج عن طريق الطرق التجارية للقوافل بين أقصى المغرب إلى أفريقية وطرابلس^(١٠)، لكن المذهب المالكي استطاع أن يكتسح كل الأقطار السودانية.

وتجد بلدة ميدون التي في إحراز قابس أغلب سكانها من السود، وهم يشتغلون في تقطيع الأخشاب وأعمال البناء^(١١)، منذ كانت الدولة الرسمية وعلاقات قابس والجنوب التونسي حتى قبل النفودي وطيدة ببلاد السودان لقد قام المستشرق البولندي T. Lawicki بدراسة قيمة أوضح

(١) الباروكمباني : تخطيط تاريخ الجزر البليار ص ١٤٠ نقلاً عن عصام سالم: جزر الأنطلس الغنية ط. بيروت ١٣٠٤هـ - ١٩٨٤م ص ٣٤٠.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) عبد الواحد المراكش : ص ٣٢٥ - ٣٢٦

- انظر : عبد الهادي النازي : الدبلوماسية المغربية ط. الرباط ط ١ حيث أورد قطعة مصورة من هذا الخطاب في فصل المرحلين.

(٤) المراكش : للمعجب ... ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

(٥) ابن الأثير : حوادث ٥٥٥هـ.

(٦) البيهقي : البلدان ص ٣٥٤ (٣١٣) البكري، للمالك ص ٢، ص ٦٦٦.

(٧) وجدت عملات بأسمه في متحف الفن الإسلامي لكنها ناقصة في وزنها وسكت عام ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٨) نشرة مؤخر القوافل ودورها الحضاري ط ١ ص ١٨ وما يليها.

(٩) ذكر ابن بطوطة في رحلته أنه وجد قوماً أباختين في صحراء مالي شمالاً انظر ص ١٩٦.

(١٠) انظر : إبراهيم حركات: دور الصحراء الأفريقية، مجلة البحوث التاريخية العدد الأول، ١٩٨١م.

(١١) ناصر باقلاوطي : العمارة التقليدية في الجنوب التونسي. ص ٧٦ وما يليها.

فيها أنه قد وجدت علاقات سياسية واقتصادية بين الدولة الرسمية وبلاد السودان^(١)، وإننا لنجد في بعض المصادر الأباضية كالدرجين والشماخي ومخطوط الوسياني^(٢)، مما ينبئ عن وجود قوافل بين جنوب أفريقيا وبلاد السودان، وكان الأباضية همزة الوصل بين الأغلبية وبلاد السودان أيضاً وأن تجار تاهرت وبلاد الجريد وجبل نفوسة كانوا مهيمتين على القوافل بينهما، وقد دعم هذا القول د/ F. Shacht، في دراساته عن المعمار^(٣)، الإسلامي من أن طراز بناء المنارة في غرب أفريقيا كان يتأثر بطراز مناورات جنوب أفريقيا - أي قابس. وأن محاريم المساجد في غرب أفريقيا محاريم ميزاب^(٤)، في وقت حملة قراقوش الأرمني، وفي عام ٥٧٣هـ، يذكر عند المقريري^(٥)، (سارت البث من عند قراقوش إلى بلاد السودان فغنموا غنيمة عظيمة) ولما توفي قراقوش قتل هو وولده كان له ولد اشتهر أمره بعد مدة وعمل فترة في القاهرة ضمن جيوش المستنصر الذي قدمه على طائفة من الجيش فحدثته نفسه بأن أن يسر على منوال أبيه فهرب بجمع من أصحابه (ولحق ببلاد ودان حيث قتل أبوه وأشعل تلك البلاد نارا فأنفذ إليه ملك الكاتم من قتله .. وحمل أسد إلى بلاده مطعوناً فيها وذلك في سنة ستمائة وخمسين)^(٦).

(١) تحدث عنه أحمد الفيتوري في بحثه عن الجاليات العربية، مجلة البحوث التاريخية ٣، عدد ٢ ١٩٨١ م، ص ٢٤٥ وما يليها.

(٢) انظر الوسياني: السمر ورقات ٤٨ - ٥٤ وأماكن متفرقة.

(٣) البحث السابق، نفس المصنفات.

(٤) أحمد الفيتوري البحث السابق، نفس المصنفات.

(٥) السلوك، جزء ١ ص ٦٦.

(٦) التيجاني: الرحلة، ص ١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث:

نظم الحكم والإدارة

١- الوضعية الإدارية لقايس:

(أ) فى عهد الفاطميين.

(ب) فى عهد بنى زيرى

(ج) فى عهد بنى جامع

(د) تحت حكم النورمان.

(هـ) تحت حكم الموحدين

(و) تحت حكم بنى غانية قراقوش الأرمنى.

٢- النظام الإدارى

أ-الوالى - الأمير

ب- الدواوين

ج-التقسيمات الإدارية

٢- النظام القضائى

أ-القضاء

ب-الحسبة

ج-المظالم

٣- الجيش والأسطول

الوضعية السياسية لقابس :

تفاوتت الوضعية السياسية لقابس من عهد إلى آخر ، ففي عهد بنى زيرى كانت قابس تابعة -رأساً - للخلافة الفاطمية فى القاهرة ثم تحولت تبعيتها إلى بنى زيرى ثم حكمها بنو جامع كإمارة مستقلة ، ثم خضعت قابس فترة من الزمن للنورمان فى صقلية ، حتى فتحها الموحدون ، فأصبحت ولاية موحدية ثم تغلب عليها قراقوش الأرمنى من ناحية ، وابن غانية من ناحية أخرى حتى استعادها الموحدون مرة أخرى ، وأصبحت تابعة للدولة الحفصية التى استقلت بأفريقية ، وهى جزء من الدولة الموحدية^(١).

فى عهد بنى زيرى كانت قابس تابعة رأساً للخلافة الفاطمية فى القاهرة فنظراً لأهميتها الاستراتيجية اقتطعها الفاطميون من سلطة بنى زيرى وجعلوها مباشرة تحت سلطان القاهرة وتخبرنا الوثيقة الثالثة من مجموعة الوثائق الفاطمية عن نظام الحكم فى الأقاليم فى العصر الفاطمى ، وتحدد أنواع الموظفين الذين يعاونون والى فى إدارة شئون الحكم فى ولايته وهى:

١- متولى الحكم أى القاضى.

٢- متولى الدعوة الهادئة - أى الداعى.

٣- المستخدم فى الخطبة العلوية (أى خطيب المسجد الجامع - إمامة).

٤- الموظفون المشرفون على استثمار الأموال (أى كتاب الدواوين القائمون على جمع الأموال فى الأقاليم).

٥- الرجال أى الجنود.

وتتمثل القاعدة التى اتبعتها الفاطميون فى إدارة الولايات والإمارات هى نوع من الإمارات هى إمارة الاستكفاء^(٢).

كان العمال الذين عينهم الدولة الفاطمية بعد أن استقرت فى أفريقية يعملون بأمانة على حد تعبير ابن حوقل^(٣).

كانت ولاية قابس فى أيام الشيعة مترددة فى بنى لقمان الكتاميين^(٤) ، " واستعمل الخليفة الفاطمى وجوه كتامة على مدن إفريقية إلى حيث بلغت طاعته ، وقسم على كتامة

(١) ابن خلدون المبر ج ٦ ، ص ٤٠ - ٧٣ - ١٤٣ - ١٩٩ - ١٨٩ - ١٩٣ - ٢٤٧ - ٢٧٥.

(٢) فتشتمل على عمل محدود ونظر معهد والتقليد فيها يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم على جميع أهله ، ونظراً فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام للنظر فيما كان محدوداً - من عمال ومعهوداً من نظر.. كما تشتمل إمارة الاستكفاء على سبعة أمور أساسية ينظر فيها : -

= إحداها : النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى اللواحق وتقدير أرزاقهم إلا أن يكون الخليفة قنرها ، فيبهرها عليهم.

والثانى : النظر فى الأحكام ، وتقليد القضاء والحكام.

والثالث : جباية الخراج ، وفيض الصدقات ، وتقليد العمال فيها ، وتفريق ما استحق منها.

والرابع : حماية الدين والزود عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل.

والخامس : إقامة الحدود فى حق الله وحقوق الأميين.

والسادس : الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

والسابع : تسيير الحجيج من عمله ومن ملكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه.

(٣) صورة الأرض ، ص ٩٤.

(٤) التجانى : ص ٩٦.

الأعمال ، لكل عسكر منهم ناحية " (١) ، وكان من وصايا الخليفة الفاطمي لهم أن يتجملوا فى ملابسهم " فلبسوا خير الثياب وحلوا سروجهم ولجتمهم بالحلى الثقيل " (٢) ولما انتقل الفاطميون إلى مصر وانقلبت الدولة الكتامية بإفريقية صنهاجية ، ترددت ولاية قابس فى صنهاجة وعبيدهم " (٣) وقيل أن يغادر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله إفريقية ويتوجه لمقره بالقاهرة ولى على جميع إفريقية والمغرب بن زيرى وأمر الناس بإطاعته (٤) ، ولكن قابس كانت وهى طرابلس تابعة للخلافة الفاطمية بالقاهرة (٥) وكانت هناك عدة وصايا فى حكم وإدارة إفريقية أهمها ، ألا يتولى أحد من أقربائه.

وبعد انتهاء مراسم التوديع للخليفة الفاطمي حيث أوصله إلى قابس ومن بعدها مكان اسمه آبار الخشب (٦) ، نزل الأمير بلكين بن زيرى (٧) قصر السلطان بصيرة " وأقام هناك شهرين وبعث العمال والولاة إلى جميع البلاد ، ونفذت أوامره فى إفريقية والمغرب (٨) " أما قابس وطرابلس فقد ولى المعز الفاطمي عليها قبل رحيله ابن عطاء الله خليفته (٩) ، ولم يول بلكين أحداً من أسرته ولاية أقاليم إفريقية ، كنصيحة الخليفة المعز له ، غير أن من خلفوه لم ينتهجوا هذه السياسة التى تتطوى على حكمة ، بل ولوا أقربائهم (١٠) . مما جلب متاعب كثيرة فيما بعد (١١) ، لكن تميم بن المعز باديس اجتنب تلك المتاعب (١٢) ، فحرص على عدم تولية أحد من أقربائه على ولايات إفريقية ، وفى عام (٤٨٩ هـ / ١٠٩٥) حاول أخوه عمرو بن باديس الاستقلال بولاية قابس وتنصيب نفسه أميراً عليها ، فمنعه تميم من تلك المحاولة ، وقام بخلعه من ولاية قابس (١٣) ، وهناك سياسة أخرى اتبعها بنو زيرى وهى تدريب ولادة اليهود على

(١) الداعى ادريس عماد الدين : عيون الأخبار تح/ محمد البعلوى ، ص ١٧٦.

(٢) المصدر السابق : نفس المكان.

(٣) التجانى نفس ص ٩٥.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ، ص ٦٥.

(٥) المقرئى : شواطئ الحنقا ، ج ١ ، ص ١١-١٠١ وكذلك صقلية ترك أمرها لحسن بن على ابن الحسين.

(٦) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ، ص ٩٥. وانظر النويزى نهاية الأرب ج ٢٨ ، ص ١٠٤.

(٧) النويزى : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ١٧٠.

(٨) المقرئى : شواطئ الحنقا ج ١ ، ص ١٢ ، ابن أبى دينار المؤنس ، ص ٩٦.

(٩) الذى كان من أبرز قواد كتامة الذين ساروا على النهج الفاطمي فى نشر الدعوة الشيعية وتسيير الإدارة. انظر الحشاش وحلاب الكرب عن طرابلس والمغرب ، ط. تونس ، ط (١) ، ص ١٢٣ وما يليها مرسى لقبال : المعز لدين الله وجبل جديد من كتامة ، أعمال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب ص ٢٠٩ ، انظر المصادر السابقة نفس الأمثلة.

(١٠) فمثلاً تولى تاهرت إلى البهار رغم المتصور بن بلكين وكذلك تولى أخوه بطوفت وابن خلدون : العبر ، ج (٦) ، ص ١٥٧. من أهمها استقلال فرع من بنو زيرى بالمغرب الأوسط وهم بنو حماد الذين أسسوا دولة بنى حماد وظلت الملازعات بينهم زمناً طويلاً ، انظر المصادر السابقة.

(١١) التى أدت إلى استقلال بنى حماد ، أولاد عمومهم بالمغرب الأوسط. انظر : ابن خلدون : العبر ، ج (٦) ص ١٥٨.

(١٢) ينكر ابن الأثير : أنه فى هذا العام تمكن تميم ابن المعز من قابس وأخرج منها أخاه عمراً وسبب ذلك أن وليها قاضى ابن ابراهيم بن لمونة. توفى لولى أهلها عليهم أخا تميم وهو عمر بن المعز. فسير إليه أخاه تميم جيشاً ليأخذ المدينة منه تعجب أصحابه لذلك لأنه لما كان بها لوالى قاضى توالى عنه وتركه ولم أخذا عمر بمساعدة أهلها قاتله وانتزع قابس منه وكان رأسه أما اليوم ابن المعز بالمهدية وابن المعز بقابس هذا مالا يمكن السكوت عليه. وعندما تأمل رأى السابق نجد أن قابس المتميزة بموقعها ومزاياها الكثيرة كانت فى مستوى الحاضرة المهدية وإن من يملكها من بنو زيرى سهل عليه السيطرة على باقى إفريقية وعلى طريقة التجارة ولهذا مغزى كبير إن قابس لابد أن تظل تحت سيطرة سلطان إفريقية القابع فى المهدية أما إذا كان فيها أخا لسلطان المهدية أو قد اعتلا أهلها من البربر والعرب ذوى النفوس الشكية فيكون قابس حاضرة إفريقية وسيضمحل سلطان

تولى الإمارة من بعدهم ، مثل تعيين المعز بن باديس ابنه على المهديّة ^(١) كذلك عندما اعتلى يحيى بن تميم بن المعز الحكم ، ولّى ابنه على صفاقس ^(٢).

أما بنى جامع:

ويتضح لنا أن بنى جامع لما استقروا فى حكم قابس سكنوا قصر العروسين وكانت لهم حاشية ، وكان على رأس قابس أمير عربى ^(٣) يعاونه جهاز إدارى وله حاشية ، وله بلاط يؤمه القوم ، وله موالى ^(٤) ومؤدبون للأولاد الصغار لإعدادهم لولاية العهد، ومن خلال الأشعار التى نظمت فى مدح هؤلاء الأمراء من بنى جامع يتضح لنا أنهم كان لهم وزراء ^(٥) ، ويعينون نواباً هم ، كما كان لهم جيوشهم كما نشطت الحركة التجارة وازدهر اقتصاد قابس طوال عهدهم ، فكان لهم أسطول تجارى وحربى والذى ارتاب منه بنو زيرى خوفاً من المنافسة إلى جانب القوة السياسية.

قابس تحت حكم النورمان

وقعت قابس تحت طاعة الفرنج ^(٦) - نورمان صقلية ^(٧) - بعدما تطورت الأحداث فيها تطوراً سريعاً لصالح النورمان ، عقب استيلائهم على طرابلس ، فقد استولوا على قابس المهديّة عام (٥٤٢-٥٤٣ هـ / ١١٤٢-١١٤٣ م) وأرسلوا خلعة وعهد وولاية قابس إلى يوسف مولى الأمير رشيد بن كامل بن جامع ووزيره الذى انتهر فرصة وفاته ليتصرف فى شئون قابس منفرداً ^(٨) ، حرص النورمان على الاعتماد على العناصر العربية ، فقد نصبوا رافع بن مطروح على طرابلس كما نصبوا يوسف على قابس نائبين عنهما فى الحكم والإدارة ^(٩) ، وكان من عادتهم ترك الأمور الداخلية لحاكم المدينة والتركيز على الجباية والتجارة والأسطول ^(١٠).

المهديّة إذا فإن تميماً خاف على مركزه كسلطان لإفريقية من منافسة أخاه عمرو إذا تملك قابس لذا نجده قد سارع إلى قابس بمساكره لإخراجه منها - الكامل : ج - (٩) حوادث عام ٤٨٩ هـ.

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج - (١) ، ص ٢٧٢.

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج - (٦) ، ص ١٦١.

(٣) بدلاً من الوالى مثل ذلك ، وبعد ذلك (أى بعد إسقاط بنى جامع قابس على أيدي الموحدين فأصبحت ولاية تابعة لهم). انظر التجانى : الرحلة ، ص ١٠١.

(٤) مثل المولى يوسف الذى اتصل بصقلية وأعلن التبعية للنورمان مستبداً بقابس لقد كان المولى وهو بدرجة وزير حاملاً لأختام الملك، انظر الفصل السابق ص -

(٥) لم ينكر من أسمائهم سوى اسم الوزير سلام بن قرحان الذى بطل نفسه فى الدفاع عن قابس فى عام الأخماس.

(٦) انظر : ابن الأثير ، ج - (٩) ، ص ٣٤٦.

(٧) تمكن النورمان من الاستيلاء على جزيرة صقلية فى (٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م) بعد حلقات متصلة من الحروب العنيفة استمرت ما يقرب من ثلاثين عاماً ضد المسلمين ، إلى أن استولى على صقلية استيلاء تاماً ، وأزالوا السيادة العربية عنها نهائياً على يد روجر الأول أخيه روميو جويسكارى من أسرة هونفيل للنورمانيين. (٣١٢-٤٨٤ هـ / ٨٢٧-١٠٩١ م) للاستزادة : انظر ميخائيل أمارى - المكتبة العربية الصقلية ، ص ٢٧٣ وما يليها ، وانظر المصدر السابق ، ج - (٨) ، ص ٤٧١ ، ٤٧٤.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) التجانى ، الرحلة ، ص ٩٩-١٠١.

(١٠) المصدر السابق : نفس الصفحات.

قابس تحت حكم الموحيدين

ظلت قابس تحت حكم النورمان مدة ثلاثة عشر عاماً إلى أن فتحها الموحدون على يد خليفهم عام (٥٥٥ هـ / ١١٧٧ م) وملكوها ، وانتهى - فى نفس الوقت - دولة بنى جامع الهلالين ^(١) وخاطبهم أهل قابس بالود ، فبعث الخليفة إليهم الوزير عبد السلام بن محمد الكومى ، حيث استبد بجمع الغنائم والأموال ^(٢) .

كان النظام الإدارى الموحدى نظاماً خاصاً يختلف اختلافاً كبيراً عما قبله ، ففى كل ولاية مثل قابس وجد والى المعين من قبل الموحيدين ووجد العامل ^(٣) ، وتخلط المصادر بين العامل والوالى ^(٤) ، وفى حالة واحدة سمى ابن عذارى ، كلاً من المشرف وصاحب المدينة وخازن الطعام عاملاً ^(٥) ، وأساس النظام الموحدى يعتمد على مجلس أو هيئة العشرة ، ويسمى أهل الجماعة ، وهم العشرة الذين سارعوا بالبيعة لابن تومرت ومجلس الخميس وهو شبيه بمجلس الأعيان ، وأهل الدار وهم فيه بمجلس المستشارين وعدده عشرون شخصاً ، ومنهم إخوة تومرت الثلاثة ، وكان لجوار هذا التنظيم تنظيم قبلى أشبه ما يكون بتقسيم عمر بن الخطاب فى ديوان العطاء ^(٦) .

إلى جوار ما سبق كان هناك تنظيم طبقي ثالث ، وكان هذا يتبع سياسة إدارية واحدة ، وقد قسم هذا التنظيم المحتسبون الذين كانوا يشكلون القوة الاقتصادية التى تقوم بضبط الموارد الاقتصادية فى الولايات كافة ، ويأتى بعدهم فى الأهمية المزاور الذين تعددت درجاتهم تبعاً لتعدد درجات مراتب الموحيدين أنفسهم ، ويعدهم يأتى السكاكون المكلفون بضرب السكة ، وفى المرتبة الرابعة يأتى الجند ، وفى الخامسة المؤذنون ، وفى السادسة المحاربون ، ويليهم الحفظة وأهل الحرب المتربصون والرماة والغزاة وعامة عبيد المخزن من الجند ، كما أن هناك طبقة الطلبة من العلماء والمفكرين وطبقة الحفاظ من صغار الطلبة ، والمهم أن تومرت استطاع أن يسطع على هذا النظام سيطرة تامة ^(٧) .

قابس تحت حكم بنى غانية وقراقوش الأرمنى

" وتغلب على قابس بعد خلوها للموحيدين شرف الدين قراقوش الأرمنى مملوك الملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ابن أخى السلطان صلاح الدين ^(٨) الأيوبى " وكانت بينه وبين على ابن اسحاق الميورقى ^(٩) مهادة ومصالحة ، وكانا يجتمعان فى أكثر حروبها ويقيمان الدعوة العباسية فى هذه الجهات ^(١٠) ، وأقيمت الدعوة العباسية على منابر

(١) التجانى : ص ١٠١ .

(٢) ابن صاحب صلاة (عبد الملك - ٥٩٤ هـ / ١١١٨ م) تحقيق عبد الهادى النادى ، ط / دار العرب ، ط (١٤٠٧ - ١٩٨٧ م) ، ط

(٣) ، ص ١١٤ - ١١٥ ، والنظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج (٣) ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤١ وما يليها ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ .

(٥) بخاصة ما يخص المربيين ، أما أفريقية ، فقد كانت للحفصيين وهؤلاء جزء من الموحيدين .

(٦) ابن عذارى : ج (٣) ، ص ١٣١ .

(٧) للاستزادة ، انظر : ابن صاحب الصلاة ، ص ٤١ وما يليها ، ص ٢٦٤ وما يليها ، جوليان تاريخ أفريقيا جزء الدولة الموحدية ، عز الدين موسى : الموحيدين وتنظيماتهم طبعة بيروت ص ٧٨ - ١٤٥ وانظر : رياض الأسطل : النزعة القبلية لدى المغرب إلى آخر الموحيدين ، رسالة دكتوراه فى كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م .

(٨) عز الدين عمرو الموحدون تنظيماتهم .. ص ١٧٨ وصفحات أخرى كثيرة .

(٩) التجانى : ص ١٠١ .

(١٠) من بنى غالية الذين حكموا جزر شرق الأندلس فى ذلك الوقت .

(١١) المصدر السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

قابس بعد أن اتخذها قراقوش حصناً له ولأهله وأتباعه وذلك بعد أن استقروا بقصر العروسين بها ، وبعد ذلك توجه قراقوش إلى طرابلس ، وقد كانت قد نقضت عهدها معها ، عندما جاء ، مثل دخوله قابس وكانت قد بايعته ، ثم رجعت إلى إيلاته مع قابس التي خضعت له بعد مقاومة شديدة من أهلها وحصار شديد من أتباعه حولها^(١).

وكان قراقوش يكتب ظهائره^(٢) إلى أهل قابس ويهددهم أو غير ذلك ، وكانت علامة الظهير " وثقت بالله وحده " ويجعلها أسفل الظهير ، ويسمى نفسه فيه " قراقوش الناصري ولي أمر المؤمنين " ^(٣)، وكان يقال لقراقوش ، وكان يقال لقراقوش المظفرى لأنه مملوك الملك المظفر ، والناصرى لأنه كان يخطب للملك الناصر صلاح الدين.

وبعد أن استولى ابن غانية على بجاية بدأ تنظيماته الإدارية ، فأكثر من جيشه وفرق ما كان فى خزائن بجاية من أموال ومتاع ، فرقها بأكملها على أتباعه الجدد من العرب والصنهاجيين ليضمن ولائهم^(٤) ، ثم وقف فى المسجد الجامع لأخذ مبايعة الناس ، ولكى يضمن صيغة شرعية على نفسه ، اتصل بالخليفة العباسى المستضىء بالله ، لإعلان طاعته ولطلب الأعلام السوداء - شعار العباسيين والخلع ، ورحب بالخليفة المستضىء بالله ومنحه لقب أمير المسلمين ، الذى كان لأمرأ المرابطيين من قبل ، كما أرسل لصلاح الدين الأيوبي بمصر يطلب منه مناصرة على ابن غانية خصوصاً وأنه - فى نفس الوقت - كان قراقوش الأرمنى مملوك تقي الدين ابن أخى صلاح الدين - قد دخل بجيشه إفريقية - فكانت الأمور بذلك تحتم تنسيق الهجوم والاستيلاء على إفريقية مع بنى غانية حتى لا يحدث اختلاف وبلبلية ، فيستفيد الموحدون منها^(٥) ، نفهم مما سبق أن هناك دولة صغيرة قد تأسست فى إفريقية والمغرب الأوسط حاضرتها بجاية ، لها جيش كبير من العرب وصنهاجة إلى جانب الميورقيين ، ولها عمال عينوا على خدماتها المختلفة ، أصبح لها نظامها القضائى ، فضلاً عن كونها مؤيدة تأييداً شريعياً من الخليفة العباسى ، فماذا بقى على الاستيلاء على إفريقية والمغرب بأكملها؟^(٦) مختصر القول ، لقد ظلت الصراعات والشدة والجذب بينهم وبين الموحدين حتى استرد الموحدون إفريقية والمغرب الأوسط من برائتهم وأصبحت قابس^(٧) مع إفريقية من الدولة الحفصية وهى جزء من الدولة الموحدية^(٨).

(١) للاستزادة ، انظر : ابن خلدون ، ج - (٦) ، ص ١٧٢ وما يليها - ونفس المصدر والمكان ، وابن عذارى ج - (٣) ، ص ٤٦ وما يليها.

(٢) جمع ظهير ، وهو بمعنى الكتاب أو البيان المكتوب.

(٣) للتجاني ، ص ١٠٣-١٠٧ ، وما يليها.

(٤) ابن عذارى ، ج - (٣) ، ص ٨٣ وما يليها.

(٥) للتجاني : ص ١٠٥ وما يليها.

(٦) للاستزادة : انظر : ابن عذارى ج - (٣) ، ص ١٤٢ وما يليها ، وكذلك المصدر السابق ، نفس المكان.

(٧) المصدر السابق ، ج - (٣) ، ص ١٤٨.

(٨) للاستزادة : انظر العروسى المطوى - السلطنة الحفصية ، وبر الشفيك : تاريخ إفريقية على عهد الدولة الحفصية.

النظام الإدارى فى قابس

(أ) الوالى - الأمير

لما اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد عمر بعد الفتوح الكثيرة ، ولم يجد بداً من التقسيم الإدارى التنظيمى فى المناطق والأمصار والحوافر الكبرى فنجد أن أفريقية ، قد اضطرت - لسعتها - إلى أن تكون ثلاث ولايات - ومن هنا تعددت فيها الإدارات^(١) ، وسمى من ذلك العهد متولى إدارة الولاية (عاملاً) وهذا اللفظ يوصى إلى سلطته الواسعة العملية ، فهو يعمل كل ما يراه الأفضل فى كل مرفق من مرافق الحياة دينياً ودنيوياً ، وكان عمر يختار أولئك العمال من العرب ، لا تعظيماً لعروبتهم أو جنسهم ، ولكن لمقدرتهم على فهم أصول الشريعة وتعاليمها ، فإن عليهم أن يقيموا الصلاة بالناس ، ويقضوا بينهم بالحق ، ويقسموا بينهم الأموال والغنائم^(٢) . والعشور^(٣) - لذا نجد أن العامل يجب أن يكون كفئاً لهذه المهام وقُدوة حسنة فى الحق والشجاعة والمروءة والقوة.

حلت لفظة " والى " محل لفظة " عامل " التى اقتضرت على رئيس الناحية الإدارية كما فصلت الشؤون المالية عن سلطان الوالى ، كما قام ديوان الرسائل بدور الرقابة على الولاية ونقل أخبارهم أولاً بأول إلى الخليفة ، أيام الأغالية كان والى قابس أميراً من الأسرة الأغلبية^(٤) ، حتى انقضت وجاءت الدولة الفاطمية الشيعية ، فحرصت أو تولى على قابس خير الرجال الكتاميين ، ولما رحلت إلى مصر وتولى بنو زيرى أفريقية ، كانت قابس تابعة - فترة - للقاهرة ثم رجعت لحوزة بنو زيرى ، فكان بنو زيرى يعينون العامل على الإقليم أو الناحية ، والوالى على البلدة^(٥) ، ولأهمية قابس ووضعها الاستراتيجى كان المعز بن باديس يولى قابس لقائد جيشه الذى كان يسمى قائد القيادة^(٦) ، وهو - بدوره - يبعث عماله لقابس ، وطرابلس ونفزاوة ، وقصطالية وقفصة ، حيث كانت البلاد تحت حوزته^(٧).

تغير النظام الإدارى فى قابس بعد مجيء القبائل العربية ، ومنحت قابس^(٨) ملكها العرب الهلاليون ، وأقام بها مؤنس بن يحيى مقدم العرب^(٩) - رئيسهم وأصبحت تحت رياسته ، وفيها محمد بن ونمو^(١٠) ، الذى كان بن باديس ولاه قابس قبل الغزوة الهلالية^(١١) . وكان يوجد مجلس أعيان يمارس السلطة عن طريق الشورى ، ويرجعون للكبير دائماً ويطلق عليهم فى أغلب الأحيان اسم الأسياف ، ثم يختاروا أكثر العائلات نفوذاً وجاهاً فى المدينة ، ثم يكون فى هذا المجلس شيخ يكلف بشئون المدينة وشيخ آخر ، وهو الأمير يكلف بالشئون

(١) للاستزادة ، انظر : صبحى الصالح ، النظم الإسلامية ، ط. بيروت ، دار العلم للملايين (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م) الطبعة الخامسة.

(٢) الغنime " من أموال الكفار وظفر بها المؤمنون على وجه الغلبة والقهر.

(٣) العشور : وهى تؤخذ فى الإسلام على أنها ضرائب على بضائع التجار ، فيؤخذ العشر على التجار الكافرين إذا قدموا بها من دار الحرب إلى دار الإسلام ورخص له ذلك ، انظر المرجع السابق ص ٣٣٦-٣٦٨.

(٤) الحبيب الجناجى القبروان .. ص ١٤٣.

(٥) ابن أبى ديار : المؤنس : ص ٧٦.

(٦) الوسيانى : السير المخطوط ، ورقة (١٣١) ظ

(٧) النويزى ، نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٢٠٤.

(٨) كما يخبر به السجل رقم (٥) من السجلات المستنصرية. انظر السجلات المستنصرية ، ص ٤٢.

(٩) البكرى : المسالك ، ج ٢ ، ص ٤٢.

(١٠) كما يخبرنا السجل (٥).

(١١) وهناك احتمال كبير فى أن تصبح هذه التولية نظرية بعد دخول العرب وملكهم قابس.

العسكرية والضبط والربط في أنحاء المدينة^(١) وربما كان هو والى الشرطى وإن لم تشر المصادر إلى ذلك تفصيلاً.

أما بنو جامع الهلاليون ، فكانت قابس وأحوازها إمارة عربية مستقلة الشئون ، وكانت مركزاً للأمير العربي الهلالي، بها دار ضرب وبلاط ملكي يحفل بالشعراء والأدباء وكان تحت يد الأمير مولى وصاحب أو وزير ينفذ كل ما يأمره به الأمير أو رئيس الإمارة^(٢). أما قراقوش فقد ترك فيها مساعده ياقوت^(٣) أما النورمان فكانت قابس عليها حاكم من قبلهم يسمى نائباً أو حاكماً ، أما الموحدون ، فقد اختلف اللفظ في عهدهم ، كان الوالى على قابس يسمى والياً ، أما على الأقسام الإدارية الصغيرة ، فكان على حكمها أحد الحقاظ ويسمى حافظاً^(٤)، وعند فتح قابس كان يولى عليها قواد عسكريون أو وزراء مثل عبد السلام الكومى - السيد أبو زيد بن عبد المؤمن ، ثم الشيخ محمد بن عبد الواحد أبى حفص الهنتانى^(٥).

(١) وقد أعطانا ابن عذارى نموذجاً لذلك في وصفه لحكم تونس بكونك انظر البيان ، جـ (١) ، ص ٢١٥ ، والرحلة ، ص ٣٠.

(٢) التجانى : ص ٩٧-١٠٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البيان المغرب : جـ (٣) ، ص ١١٩-١٥٣ ، وانظر : للتجاني ، ص ١١٠.

(٥) عز الدين عمر موسى : الموحدون في الغرب الإسلامى ، الجدول ص ٣٢٢-٣٢٤.

الدواوين

١- ديوان الرسائل :

كان ديوان الرسائل من أهم الدواوين الإدارية في الدولة الإسلامية عام، وهذا الديوان قديم، وقد تنوعت مسمياته، فتارة كان اسمه (ديوان المراسلات) وتارة اسمه (الإنشاء)^(١)، وترجع أهميته إلى أن اختصاصاته كانت كتابة العهود والمواثيق والتقليدات والوصاية والبيعة. وفي رأى ابن خلدون^(٢) "ديوان الرسائل والكتابة ضرورية للأمم المتحضرة ... وإنما أكد الحاجة إليها في الدول الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد ..."^(٣) ومن شروط من يتولى هذا الديوان أن يكون متصرفا في جميع فنون المكاتب، واضعا لما ينشئه في موضعه.

يقول ابن الصيرفي "الكتابة الجليلة قدرأ، والنبيلة ذكراً، الرفيعة شأنأ) العلية مكانا التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدولة والمكاتب عنه إلى من قل من الأمم وجل"^(٤).

وبعد تعريب الدواوين كان شأن ديوان الرسائل والإنشاء قد ارتفع ، فعلية إعداد المكاتب الرسمية بأنواعها ورسائل تعليمات الخليفة بجميع الولاة .. ولهذا كان لكل فرع من هذه الفروع كاتب خاص به، لذا كان من أهم الدواوين في أفريقية. ومن أشهر كتاب إفريقية "الرفيق القبرواني" الذي سمي "كاتب الحضرة مدة نصف قرن - خمسين عاما. شملت عهود المقصور من زيري إلى حفيده المعز، والآخر هو أبو الحسن على بن أبي الرجال، معلم المعز بن باديس وكان سنيا"^(٥).

إن السجل رقم (٥) من السجلات المستنصرية^(٦)، هو أوضح دليل على وجود مكاتب بين قابس ومن اتخذها مقرا من العرب الهلاليين، ومن المؤكد أنه المؤنس بين يحيى، مقدم العرب، إذ يذكر التجاني^(٧) أن "إبراهيم وقاضى فائدى الأعتة بحضرة المعز بن باديس، فعزلهما المعز" .. فذهبا إلى أخيهما وإلى قابس ولحقا بمؤنس بن يحيى فأكرمهما وكساهما ثيابا وصلت إليه من مصر".

بعد ذلك عندما ولى بنوجا مع الهلاليون قابس، كانت أشهر شخصية أدبية هي شخصية الشاعر "سلام بن فرحان الهلالي"^(٨) وأيام استيلاء قراقوش الأرمني كان هناك ياقوت

(١) القلقشدي : صحيح الأعشى ، ط (١)، ص ٨٩ وما يليها.

(٢) المقدمة : ص ٢١٩.

(٣) قداقد بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة، تح حسين الزبيدي، ط بغداد ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) ط (١)، ص ٣٧-٣٨.

(٤) ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل. على بهجت، ط القاهرة (١٣٢٥هـ / ١٩٠٥م) ص ٥٠٤.

(٥) مقدمة (ابن خلدون) الذي قال عنه : "ابن الرفيق مؤرخ أفريقية، والنولة التي كانت بالقبروان ولم يأت بعده إلا مقلد" المقدمة

ص ١٠٠.

وقد عمل الرفيق سفير (بالمعنى الحديث) بين بنى ربرى والفاطميين نيابة عن المقصور ابن زير، وسافر سنة ٣٨٨هـ لتهنئة

الحاكم بالولاية، حسن حسلى عبد الوها : محل تاريخ الأدب التونسي، ص ١٢١.

(٦) السجلات المستنصرية ص ٤٤، ٤٤.

(٧) الرحلة : ص ٨٩.

(٨) ابن خلدون : ط (١)، ص ١٦٠.

نائب^(١) قر اقوس وكاتبه، كذلك كاتب يحيى بن غانية الخاص عبدالبر بن فرسان، وكان أيضا سفير وكاتب رسالة إلى خليفة بغداد ثم الرسالة التي ذكرناها إلى أهل طرابلس. نحج بنو جامع في سياستهم في إدارة قابس ما يقرب من تسعين عاماً كانت قابس فيها إمارة عربية فكتلمة الأركان. كان بلاط بنى جامع يؤمه الشعراء باستمرار مدح أمرائها ورجال حاشيتهم^(٢). مما يدل على اهتمامهم بالكتابة والشعر، ولا نذكر لنا المصادر شيئاً من دواوينهم، لكن يبدو أن الوزير سلام بن فرحان كان يقوم بمهمة الكتابة لأن كان فصيح اللسان ومخلصاً لبنى جامع، وكسب ثقتهم^(٣). أما الموحدون وبنو حفص بأفريقية فيقول ابن خلدون^(٤): "واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسل ويؤمن على الأسرار، لأن الكتابة لم تكن من متحل القوم، ولا الترسل بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب. ومن خطط الكتابة، التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمة وفصله ... ويحتاج الوقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه^(٥)".

٢- ديوان البريد :

ديوان البريد^(١) متعلق بديوان الإنشاء والمراسلات، وأحياناً يكون متولى الديوان من شخص واحد، وأول من وضعه في الإسلام (معاوية بن أبي سفيان). كانت مهمة صاحب البريد هي أن يكون واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة إلا أن عمله لم يقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب، بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بالحوادث والأخبار كافة، تلك التي يمد بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الولايات، بمعنى أنه كان رقيباً ومفتشاً وعينا للخليفة، يرفع التقارير عن أحوال الجند والماء وأحكام القضاة وأسعار الحبوب والماكولات، فكان عملة يشبه نظام المخابرات^(٢)، كما كان من جملة

(١) ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق، ص ١٦٦ وما يليها، التجاني ص ١٠٧ وانظر : المرزوقي : قابس من الدنيا ص ٢٦٩ وما يليها.

(٢) عن شهرهم، أورد التجاني الكثير منه انظر : الرحلة ص ٩٦ وما يليها وانظر : مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية .. ص ط. اسكندرية، ص ٢٧٤.

(٣) المرزوقي ص ١٦٧، في حذيفة عن هذا الوزير.

(٤) المقدمة ص ٢١٥ المرزوقي ص ١٦٧ في حذيفة عن الوزير.

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٠، وقد حدد ابن خلدون "الشروط والواجبات للكاتب والكتابة في رسالة عبد الحميد الكاتب للكتّاب - المقدمة ص ٢٢١ وما يليها. وانظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ط ١٤، ص ١ وما يليها، حيث كرر باستطراد وصف الكاتب والكتاب وديوان الإنشاء.

(٦) البريد في معناه اللغوي : مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهامشي، ويقال أيضاً على البريد المرتب، ويطلق أيضاً على الرسول "بريد"، وقيل أنه عربي مشتق من برد الحديد، إذ أرسلت ما يخرج منه، ومثل من أبرنته أي أرسلته، وذهب آخرون إلى أنه فارس معرب من الكلمة الفارسية (بريد تم) ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن ملوك الفرس كان من عاداتهم قص ذنب الدخّل الذي يجري بالبريد ليكون ذلك علاقة له.

انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج (١٤)، ص ٣٦٦ وما يليها.

(٧) انظر : قدائق بن جعفر : الخراج، ص ٥٢/٥١، حيث أورد نموذج عهد بولاية البريد وعبرة عن وثيقة من أمير المؤمنين إلى شخص بولاية البريد، وفيه كل الواجبات المرجوة منه وكذلك مواصفاته وواجبات عماله في كل ناحية ومنهم المرتبين بعمل الخرائط ومعناها : وعاء من أدم أو ديباج أوليف هندي يوضع فيه كتب الولاة أو القنود التي ترد للحاضرة أو غيرها، وحامل اسمه القرائق بدمشق وجمة القروائين.

أعماله حفظ الطريق وصيانتها من قطاع والأعداء والجواسيس^(١)، وكان صاحب البريد فى أفريقية والمغرب، يسمى صاحب الأخبار^(٢) أو (الرقاص) قال أبو الفرج^(٣) : "يحتاج فى البريد إلى ديوان يكون مفرداً به وتكون الكتب المنقذة من جميع النواحي مقصوداً بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شئ منها إلى الموضع المرسوم بالنفوذ إليه ويتولى عرض .. كتب أصحاب البريد والأخبار من جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع لها - ويكون له النظر فى أمر الفرواقيين والموقعين والمرتبين فى السكك"^(٤) ورسوم هذا الديوان مثل رسوم غيره، لكنه يتميز بأنه يجب على صاحبة معرفة علم الطرق وتحديد المسافات ومواقع السكك والمسالك إلى جميع النواحي^(٥) وما أن سأل عنه الخليفة فى وقت الحاجة إلى شخص أو إنقاذ جيش يهمله أمره، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه^(٦) وقابس تقع على الجادة العظمى (طريق البريد والحج) كما ذكرت المصادر^(٧).

كان لى زيرى - كما كان للأغالبة والفاطميون من قبل - أعوان مخابرات (وهم أصحاب الأخبار، وعندما اختار المعز لدين الله الفاطمى، يوسف بن زيرى ليوليه أفريقية قال له : "يا مولانا شريطة أن تولى القضاء والخراج لمن تراه وتختاره والخير لمن تنور به"^(٨). وكان يوجد بأفريقية بعد ذلك صاحب خبر السلطان، وكان يقيم بالساحل وقد عاب على الشيخ عدم رفع الأذان الشيعى^(٩)، وليس أدل على خطورة البريد والإنشاء والمراسلات هى المراسلات بين البازورى والعز بن باديس وأن البازورى تطف حتى أخذت سكينه دواه المعز^(١٠) ونقل للمعز ووصلت للقاهرة فى أيدي البازورى الذى كان يطلع نائب المعز بن باديس فى القاهرة على هذه الأحوال^(١١).

ومن وسائل البريد الحمام الزاجل^(١٢) مثلما كان من الأخبار التى كانت تصل من رباط إلى الذى يليه، فكان الخبر يصل من الإسكندرية إلى سبته فى المغرب الأقصى فى ليلة واحدة^(١٣) - وقد أفرد للحمام الزاجل ديواناً منفرداً تابعاً لديوان البريد الرئيسى^(١٤) - وفى أثناء

(١) أنور الرفاعى : النظم الإسلامية، ط. دار الفكر (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) ط(١)، ص ٩٢.

(٢) حسن إبراهيم تاريخ الإسلام، ط. القاهرة، ط (٥)، ج (١)، ص ٤٧٠ وكلمة (الرقاص) خاصة بالدولة الموحد به.

(٣) قدامة بن جعفر : الخراج، ص ٧٧.

(٤) الفرواقيين والموقعين والمرتبين من عمال البريد والسكك جمع سله، وهو الموضع أو المكان الذى يقيم فيه عمال البريد من رباط أو قبة أو بيت أو نحو ذلك : أنظر : المصدر أبى جعفر، ص ٧٧، حاشية رقم (٤).

(٥) وقد جاء فى المصدر السابق ذكر السكك والمساحات وأسماء المدن والقرى. وما يسكن البريد فى أنحاء الأمة الإسلامية. كما جاء ذلك فى عديد من المصادر : مثل : يسلكه البريد فى أنحاء الأمة الإسلامية. كما جاء ذلك فى عديد من المصادر. مثل أبو حوقل وابن خرداذبة للبكرى.

(٦) نفس المصدر : ص ٧٨.

(٧) أنظر : المصادر السابقة.

(٨) المقرئى : أتماظ الحلفا (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م) ط(٢)، ج(١)، ص ٩٩.

(٩) هـ.ر. إدريس : الدولة الصنهاجية، ج(٢)، ص ١٣٦، عن ملأب الجلبائى (ت ٣٦٩هـ - ٩٧٩م).

(١٠) ابن طاهر : أخبار الدول المنقطعة، ص ٧٠.

(١١) المصدر السابق : ص ٦٩ - ٧٠.

(١٢) عن مخلوه وتفاصيل عنه، أنظر : الجاحظ : كتاب الحيوان، ط(١)، ج(١)، ص ٤٥٨ والمرآشى : المعجب : ص ٢٨٢.

(١٣) أبو زكريا : السير، ص ١١٢، والتجلى : الرحلة، ص

(١٤) عبد المنعم ماجد : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى (ط. القاهرة) ط. ٥، ص ٣٧.

حكم الحسن بن علي الزيري^(١) أرسل المولى يوسف مولى محمد بن الرشيد - في قابس - إلى روجر الثاني ينشد مساعدته ورغبته في أن يكون نائباً عند في قابس، وتزامن مع هذه الواقعة وصول رسول الحسن^(٢) - فجرت بينه وبين رسول يوسف مناظرة أرسلت تفاصيلها رقعة^(٣) على جناح طائر إلى الحسن - فأسرع الحسن بإرسال من يأخذ رسول يوسف من مركبة بالبحر إلى المهديّة لمحاسبته.

وكل ما يصدد عن هذا الديوان - ديوان البريد - كان لابد أن يكون عليه توقيع الخليفة ليتخذ صيغة رسمية^(٤)، عرف التوقيع بلفظة العلامة، التي لا تعنى توقيعاً بالخاتم، وإنما بعبارة دينية أو نعت، يقوم مقام التوقيع، يذكر قدامه بن جعفر^(٥) أنه كان للتوقيع ديوان يسمى ديوان التوقيع والدار لاستطلاع رأي الخليفة ثم يوقع عليها "وأنشئ من ديوان التوقيع كتاب إلى صاحب ديوان الدار بنسختها واقتصاص ما تضمنت".

أما ديوان الخاتم

فيتضح من اسمه أن يكون لأمر المؤمنين خاتم يختم به الرسائل الواردة أو المصدرة بعد إثباتها في ذلك الديوان^(٦)، كما اتخذ القاطميون ديوان النظر، وصاحبة هو رأس الكل، ولابد أن يكون مسلماً كما كان ديوان التحقيق وموضوعة المقابلة على الدواوين، وديوان المجلس ولعل تلك الدواوين كانت في إفريقية^(٧).

أما الموحدون والحفصيون، فالإدارة السلطانية عندهم كان اسمها (المخزن) يعمل فيها الكثير من الكتاب الموزعين على مختلف فروعها - المعروفة باسم الدواوين فكانت مصلحة الرسائل أو أمانة سر الدولة - ديوان الإنشاء - مهمتها تحرير الوثائق العمومية والتصديق عليها، وقد قام الحفصيون بتقسيم هذه الخطة مرات متتالية^(٨)، فكان رئيس مصلحة الكتابة اسمه كاتب السر، وتارة أخرى اسمه صاحب العلامة والإنشاء^(٩)، أما البريد فقد كان مقصوراً موروثاً من الدولة العباسية وقد تبنته أفريقية ونظمته ونظمت وسائله المختلفة وفي أحوال مخصصة كان هناك ناقل بريد خاص وهو عبارة عن عداء حقيقي سريع وصبور يستطيع قطع المسافات بسرعة على القدم واتباع المسالك المختصرة ولاشك أن هذا هو (الرقاص) الذي أشارت إليه بعض المصادر كذلك استعمل الحمام الزاجل والإشارات الضوئية (النار)^(١٠) أقسام قابس الإدارية :

(١) حكم (٥١٥ - ٥٤٣ م / ١١٢١ - ١١٤٨ م).

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج (٨)، ص ١٤٧، ولنظر : أمين توابق الليثي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ط. تونس، (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) ط (١)، ص ١١٤/١١٣.

(٣) بمعنى رسالة : وعن تفاصيل ومواصفات رسائل الحمام، انظر : القلقشندي، ج (٢) ص ٩٠ وما يليها.

(٤) كان للبي صلى الله عليه وسلم خاتم يوقع به ومنذ ذلك والخلفاء يتخذون الخاتم للتوقيع حتى أن معاوية أنشأ ديوان الخاتم وربما يعنى ديوان الرسائل، ولكن منذ عهد العباسيين - وربما قبلهم عرف التوقيع بلفظة - العلامة - أما السلاجقة فسمي توقيعهم (الطغرى - الطغرى) وظل كذلك إلى عهد العثمانيين، المقمة ص ٢٠٩ - ٢١٠، والنظر : ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٧.

(٥) الخراج وصناعة الكتابة ص ٥٣/٥٤.

(٦) المصدر السابق ص ٥٥.

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى، ج (٣)، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٨) انظر : برانشفيل : تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، ج (٢)، ص ٦٦، ٦٦.

(٩) ابن القنفذ : الفارسية في مبادئ الحفصية، ص ٣٢١.

(١٠) المرجع السابق، ص ٦٥، ٦٦.

جرى العرب .. عند فتحهم لإفريقية على التقاسيم الإدارية السابق دون أن يدخلوا عليها تغييراً جوهرياً، وكان الإصلاح الذى أدخلوه، هو تثبيت قواعد التقسيم الإدارى وضبط شئون المال على أساس من قواعد الإسلام فى الحكم بالعدالة التى يقضى بها الكتاب والسنة^(١).

وكل الجغرافيين الذين زاروا إفريقية تكلموا بصفة عامة وليس بصفة خاصة فعلى سبيل المثال "اليعربى"^(٢) يتحدث عن ولاية إفريقية ويقسمها فى مجموعة بلدانها إلى ثلاثة أقسام رئيسية، عمومية إفريقية أو المغرب الأدنى، والزاب، وطرابلس. "إن معاوية بن أبى سفيان عزل معاوية بن حديج عن مصر سنة خمسين، وولى مسلمة ابن مخلد مصر وإفريقية وجمع له طرابلس وياق قابس"^(٣)، وأحياناً كانت قفصه تتبع قابس وطرابلس إدارياً^(٤)، ولما رحل المعز لدين الله الفاطمى كانت قابس وطرابلس تحت إدارة الفاطميين، وكان يولى عليها أشخاصاً من قبيلة كتامة خليفة الفاطميين حتى أضيفت إلى إفريقية وأصبحت تحت إدارة بنى زيرى^(٥).

ومن بين المصطلحات الفنية المستعملة لتعبير الأقسام الإدارية نجد عبارتين فقط لهما قيمة إدارية ثابتة وهما عبارتا (الكورة)، (العمل) المستعملتان للإشارة للدائرة الإقليمية الخاضعة لسلطة العامل، كما أن هناك مصطلحين آخرين هما (البلد)، (الطرف) جمع اطراف - لهما مدلول جغرافى، يطلق الأول على منطقة ممتدة الأطراف مثل الزاب، ويطلق الثانى على المناطق الخارجة عن المركز والواقعة على تخوم البلاد^(٦)، أما المصطلح الأخير وهو الناحية فقد ورد ذكره فى المجالس والمسائرات بصورة دقيقة عند الحديث عن إقليم الزاب^(٧) ويبدو أنه يعنى قسماً من مقاطعة كبيرة يديرها أيضاً عامل، ولعله يقابل المصطلح الشرقى الرستان، وعلى هذا الأساس لا نستطيع وضع خريطة إدارية دقيقة لأفريقية ومنطقة قابس، وهى تقع فى القسم الجنوبى وهى كورة قابس أو مقاطعة تاكاس الرومانية^(٨) وتتبعها الجبال^(٩) فى جنوبها وجزيرة جربة^(١٠) وجزيرة زاريس وبالقرب منها وجرجيس ومدنين وقابس مقسمة إلى سبع واحات متجاورات كل منها تتبعها قرى ومنازل كذلك غابة قابس احتوت على العديد من المنازل.

أما ابن حوقل^(١١) فقد ذكر فى سياق حديثه عن المغرب وأفريقية أن بلاد المغرب تنقسم إلى مقاطعات ونواحي والنواحي هى وحدة أصغر تتكون من عدد من القرى لها مركز

(١) توجد الباحثة صعوبة كبرى فى معرفة التقسيم الإدارى أو النظام الإدارى قبيل الفتح وبعده لأننا لا نعرف الوضع الإدارى للناحية الجنوبية والجنوبية الشرقية من أفريقية، ونوع علاقتها الإدارية بالقيروان ثم بالمهنية، وسنحاول على ضوء ما تسنى لنا من مادة علمية أن نوضح بأمر الله، ولقد قال د. حسين مؤنس، مثل هذا الكلام لى إقليم المغرب بصفة عامة، أنظر : تاريخ المغرب وحضارته المجلد الأول، الجز الأول، ص ١٨٩.

(٢) البلدان، ص ٣٤٧.

(٣) الوزير السراج : الحلال السدسية، ج(١)، ص ٣٣٠.

(٤) مؤنس : تاريخ .. ص ٢٠٦.

(٥) التجانى : الرحلة، ص ٩٦.

(٦) فرحات الشراوى : الدولة الفاطمية بالمغرب، ص ٤٦٥.

(٧) وردت عبارة (بلد) فى افتتاح الدعوة النقي ٢٧٤، وسيرة الاستاذ جورثر ص ٩٤-١٠٣، كذلك عبارة (اطراف) فى ص ٥١.

(٨) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٩) عند هذا المصطلح وغيره : انظر ياقو المعجم : ج(١)، ص ٢ : ٢٨.

(١٠) نفس المرجع ص ٤٧٧، وانظر : هـ. ر. إدريس، الدولة الصنهاجية، ج(٢)، ص ٦٢، ٦٦.

(١١) صورة الأرضى ص ٧٠.

جغرافى وإدارى فى الوقت نفسه هو المدينة وضرب مثلا برقة فيقول عنها أنها تعنى المدينة وفى نفس الوقت المقاطعة^(١) - أى البلاد التابعة لها وكان على رأس كل مدينة يوجد حاكم يمثل السلطة المركزية وهو مكلف بمختلف فروع الإدارة والمواد العامة. ويقوم بجميع الجباية والضرائب ... إلخ، وقد يكون له دور عسكري وتخضع المدن الكبيرة إلى حاكم مستقل يكون واليا أو أميرا يرتبط مباشرة بالحكومة المركزية كما هو الحال بالنسبة لقايس وصفاتى وعناية^(٢) ومما يؤيد هذا الكلام إلى حد كبير أننا نجد فى وصف البكرى^(٣) لمنطقة قايس إذ يقول "من مدينة قايس إلى عين الزيتون وهى عين جارية على محبى نبت عليها مرصد لجلبى إفريقية" ... وحوار فى ابن الأثير ما يؤكد هذا الحديث فقد ذكر أن المعز قد استخلف على القبروان وقايس قائد من ميمون الصنهاجى وأقام لها ثلاث سنين حتى غلبته قبيلة هواره فتركها لهم ورحل إلى المهديّة، فلما تولى عينهم بن المعز الملك رده إليها.

القضاء والحسبة

القضاء فى قايس:

القضاء منصب رفيع لأن صاحبه يمثل الشرع وأحكام الدين وخطة القضاء ترتكز على أساس الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للنزاع بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة ، وهو من الوظائف التابعة للخلافة، لهذا كان الخلفاء فى صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم^(٤)، والقضاء ينظر أيضا فى مسائل أخرى غير الخصومات مثل: الأوقاف ، والأيتام ، والحجز وغيرها.

تطور القضاء تطورا كبيرا فى العصر العباسى نظرا لاتساع الدولة وأعمالها، ومن ثم اتسعت سلطة القاضى وأعماله، إذ كان عليه الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات وتنصيب^(٥) الأوصياء ، وأضيفت إليه أحيانا الشرطة والحسبة والمظالم ودار الضرب وبيت المال وغيرها، وكذلك لنشوء المذاهب الفقهية الأربعة^(٦) وظهور الاصطلاحات الفقهية ، كما

(١) أنظر المصدر السابق ص ٦٦

(٢) عبد الرحمان التليلي : وصف المدن المغربية فى كتاب صورة الأرض لابن فوكل ص ٨ وما إليها كراسات تونس ص ١٩٧٥

(٣) المالك ج ٢ ، ص ٦٦٨ .

(٤) النظر : ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١ .

والنظر : ابن ابن الدم الشافعى: كتاب أدب القضاء ، ط. بغداد (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) تحقيق محى ملال السرحان، ج - (١)، ص ٦٣ .

(٥) النظر : أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ الحضارة... ص ١٥٧ ، وما يليها.

(٦) وهى: أ- مذهب الإمام أبى حنيفة إمام أهل الرأى والقياس.

ب- مذهب الإمام مالك الذى يعتمد على الحديث.

ج- مذهب الإمام ابن حنبل الذى يتفق مع مذهب الإمام مالك من حيث اعتماده على الحديث.

د- مذهب الإمام الشافعى الذى جمع بين الحديث والرأى والقياس.

وأصبح القاضى ملزما بأن يصدر حكمه وفق هذه المذاهب أو أحدها، وقد تدخل السياسة فى القضاء أو عمل الخلفاء على حمل القضاء على السير وفق رغبتهم فى الحكم/ حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء كما فعل الإمام أبو حنيفة، كما كلفه أبو جعفر المنصور بذلك وفضل أن يعمل فى بناء مدينة بغداد بيديه وأقن عمله حتى فقه اختراع مسطرة مرقمة لحد الطوب ، انظر: الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، أبو الفضل إبراهيم، ط. الهيئة العامة للكتاب ، ج - (٧) ، جزء ١ عام ١٤٤ هـ.

وضعت كتب في صفات القاضى وعلمه ومجلسه ووجود منصب قاضى القضاة^(١) وهو يولى القضاء من قبله على الأقاليم ويقيم هو فى حاضرة الدولة ، وأول من لقب بهذا اللقب القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج ، وذلك فى عهد الرشيد العباسى ، أما القضاء فى العصر الفاطمى فكان مرتبطاً أشد الارتباط بالتغيرات العميقة فى بلاد ما زالت متمسكة بالمذهب المالكي السننى وهى بلاد أفريقية. إن قيام الخلافة الفاطمية فى أفريقية كان مضاداً للمذهب المالكي السائد ، من هنا كان النزاع الشيعى السننى الذى كانت القيروان مسرحاً له^(٢)، لكن مع هذا تغلغل المذهب الشيعى إلى حد ما^(٣)، وقد اكتسب مع هذا القضاء الفاطمى الخطوة التى اكتسبها القضاء فى العصر الأغلبى ، فقد سعى الفقه الشيعى فى أفريقية بالذات لمحاولة الحرص على التوفيق بين المذهب الاسماعيلى والسنة ، وقد سعى إلى ذلك النظام الشرعى النظرى الفقهى الذى وضعه وضبطه الفقيه الفاطمى القاضى النعمان بن حيون التميمى ثم أجرى عبيد الله بعض التغيرات الإدارية التى كان لها دور فى التشدد فى الدعوة الشيعية والتضييق على أهل السنة فقد فرغ المهدي القاضى المروى لقضاء القيروان وجدها حتى يصرف كل وقته فى مراقبة فقهاءها والتضييق عليهم^(٤)، وولى على قضاء رقادة أفلح بن هارون الملوسى^(٥) الذى كان فقيهاً فى التشيع ومن كبار دعاة^(٦) ويبدو أن تعيين أفلح فى قضاء رقادة جعل المروى يخشى على مكانته ومنصبه فبذل جهداً فى اضطهاد المالكية استرضاءً لعبد الله المهدي^(٧).

لما انتقلت الخلافة الفاطمية إلى القاهرة واتخذتها حاضرة لها ، هنا عرف العصر الفاطمى منصب قاضى القضاة ، وأصبح القاضى فى القيروان معيناً من القاهرة وهو بدوره يتبعه كل قضاة أقاليم أفريقية.

كان الخليفة المنصور قد انتهج سياسة الاعتدال أول خلافته لمراجعة ثورة أبى يزيد مخلد بن كيدار ، وما لبث أن عاد للتشيع والقبيل واضطهاد أهل السنة ، وعهد بالقضاء إلى فقهاء الشيعة تولى ال بن محمد بن حيون على القضاء ، ويتبعه كل القضاء فى الدولة العبيدية ، وكل قضاة المدن مثل قابس يتبعونه^(٨).

(١) يلاحظ أن الدولة العباسية اعتمدت فى كثير من إدارتها على النظم الفارسية مصدرين استقوا منها منصب قاضى القضاة * موير موبدان* بمعنى قاضى القضاة أو رئيس القضاة وهو أعلى الوظائف الدينية قدراً ، فهو -قاضى الدولة كلها ومن سواه من القضاة فى الأقاليم والأمصار نواب عنه ، فهو المتصرف فيهم تعييناً وعزلاً مثل وزير العدل اللزم ولهذا كان يلقب بقاضى القضاة ، ومن عداه قاضياً فقط أو قاضى بلد كذا..

انظر: فرحات الدشراوى: الخلافة الفاطمية فى المغرب ، ص ٥٦٢ وما يليها.

وانظر: المبادئ وآخرون: دراسات فى تاريخ الحضارة ص ١٦٠ وما يليها.

(٢) الدشراوى: نفس المكان.

(٣) وضع كتاباً مثل: افتتاح الدعوة * لهمة فى اتباع الامة * دعائم الإسلام * وغيرها.

انظر : المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) انظر: محمد الببلي: التشيع فى المغرب ، ط جامعة القاهرة (١٤١٣ هـ - ١٩١٣ م) ، ص ١١٤.

(٥) الداعى إريس عماد الدين (٨٧٢ هـ / ١٤٨٨ م) تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخامس من كتاب عيون الأخبار ،

تحقيق / محمد البعلوى ، ط / دار المغرب ، بيروت (١٣٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) ط (١)، ص ٢١١.

وانظر المصدر السابق ص ٢١١.

(٦) للاستزادة: الدباغ معالم الإيمان ، ج - (٢) ، ص ٢٩٠-٢٩٢.

(٧) انظر المرجع السابق ، نفس المكان.

(٨) انظر: نفس المرجع ، ص ١٤٣.

وظل الحال كذلك فى عهد المعز لدين الله قاضى القضاة وداعى الدعاة ، بعد انتقال الخلافة الفاطمية لمصر كان قاضى القضاة فى القاهرة يعين قاضيا لأفريقية يتبعه .

كان النظام الإدارى الزيرى يجعل للقضاء فى الدولة عملا رفيعا ، فقد كان فقهاء المالكية - وعلى رأسهم الحسن بن أبى الرجال - معلم المعز - هم الذين مهدوا للمعزين بآدين الاستقلال عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، ولقد أحبهم الناس لحسن معاملتهم ورفقهم بهم فحصلوا على التأييد ، فتركزت سلطة القضاء فى يد المالكية وكانت سلطة قاضى القيروان مثل شيخ الإسلام لعموم المدن والنواحي ، بل لجميع أقطار المغرب ، وكانت دار القضاء قبل الغزوة الهلالية ، ملاصقة لجامع عقبة بن نافع النهري بالقيروان^(١).

ولم يكن منصب قاضى القضاة^(٢) معروفا فى أفريقية ، لكن الهادى روجيه إدريس اطلع على نسخة من المدونة محفوظة بالجامع الأعظم بالقيروان ، وهو القاضى عبد الرحمن بن محمد عبد الله بن هاشم اعتباراً من عام (٤٢٤ هـ - ١٠٣٣ م) - ولا شك أن هذا اللقب كان ضمن مؤشرات ميل باديس إلى قرب قطيعته مع القاهرة^(٣) ، كما توجد فى محفوظات الجامع الأعظم وثيقة مؤرخة فى (رجب ٤٤٦ هـ - ١٠٥٤ م) صادرة عن القاضى عبد الرحمن بن أحمد قاضى الإمام القائم بأمر الله - وواليه المعز لدين الله^(٤).

بالنسبة لقضاء الأقاليم لا تسعنا المصادر بأسماء القضاة المفوضين فى أهم المدن قبل قاضى القضاة ، وبخاصة فى مدينة قابس ، سوى أنه كان هناك لابن مشكان وابن ريادة الله القابس^(٥) ، أما القرى التى لا يوجد بها قاضى أو أى عون من أعيان السلطة يمكن للصالحين والعدول الذين لا عيب فيهم اتخاذ قرارات صالحة فى نظر الفقهاء مثل القابسي ، وأبى عمران القاسى القاضى الذين يرون أن المتعبدين فى بلدة لا يوجد بها قاض يجوز لهم أن يقوموا مقامه^(٦) ، وكانت أحكام القضاء طوال العهد الصنهاجى كانت تعتمد فى أساسها على فتاوى كبار المالكيين^(٧) ، كما كان هناك قاضى الأنكحة ومجلس القضاء كان يوجد - بطبيعة الحال - فى المسجد الجامع فى الحاضرة^(٨) ومن المؤكد أن يكون الحال كذلك فى قابس ، وقد ذكر الوسبانى أنه كانت هناك قافلة مستقلة واحدا من أفرادها بريد الزواج ، فعقد العقد فى مجلس السوق الكبير فى قابس^(٩).

كان منصب قاضى القضاة موجود فى أفريقية ، لكنه كان يسمى قاضى الجماعة^(١٠) ويقيم فى حاضرة القيروان ثم المهديّة فيما بعد ، وأن الدولة الزيرية قد أعدت مراتب للقضاء

(١) عبد الفتاح الغنيمي: موسوعة المغرب العربى، ط. مديولى القاهرة، مجلد (٢)، هـ (٤)، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) كان هذا المنصب يرجع أصله إلى دولة القروس واسمه موبذ موبذان ، وكان معروفا فى الدولة العباسية ، وهو أكبر منصب فى القضاء ، ومقره يكون فى الحاضرة وهو الذى يعين قضاة اللواحي ويرجعون إليه باستمرار.

(٣) هـ. ر. إدريس : تاريخ أفريقية ، جـ (٢)، ص ١٦٨ / ١٦٩.

(٤) وهى عدد ٤١٦ ضمن المجموعة ، كما تدل هذه الوثيقة على أن المعز أسند إليه نفس كنية الخليفة الفاطمى ، ولا يعرف شيئا عن هذا القاضى الذى كان يلقب بقاضى القضاة، المرجع السابق، نفس المكان.

(٥) حسب رأى حسـب. عبد الوهاب ، انظر : هـ. ر. إدريس ، جـ (٢)، ص ١٧٣.

(٦) للمرجع السابق، جـ (٢)، ص ١٧٤ ، حاشية رقم (٦٥).

(٧) نفس المرجع والمكان.

(٨) ابن أبى الدم: أدب القضاء، جـ ١١، ص ٣٧.

(٩) الوسبانى: السير، ورقة ١٤٨.

(١٠) ابن سعيد الأندلسى: الفصول الياعة فى شعراء المائة السابعة تى/ابراهيم الايبارى، ط. دار المعارف (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)،

أو درجات ، فهناك قاضى الأقاليم ، ثم قاضى المدينة، ثم القرية الصغيرة، ولقد كان لكل اقليم الدولة الكبرى قاض ييسر سلطانه على قضاء المدن الواقعة فى اقليمه^(١)، كما كان للإباضية فى قايس (وغيرها مثل الجبال فى جنوبها إلى جبل نفوسة جنوب طرابلس) نظام قضائى خاص^(٢). وكان القاضى فى بعض الاحيان يبعث لاستشارة علماء جربة وكانت الاحكام عادلة حتى مع خصومهم من الناس وموضوعات قضائهم تشمل الفصل فى القضاء ، العامة مثل ملاحقة قطاع الطريق والمراقبة الذين كانت توضع لهم المراسد دائما فى بعض المواضع مثل غرنيس^(٣) ولهم اجراءات وعقوبات للجرائم المختلفة^(٤).

ومن قضائهم أبو بكر صالح البراسنى، أما القضاء الحفصى فقد كان على نهج القضاء الموحدى، ومن أشهر القضاة أبو المطرف بن عميرة الذى كانت له رسائل فى وصف قايس وفى الصحابى إلى لبابه ، وكان على علاقة طيبة بالسلطان الحفصى وتولى القضاء فى مدن متعددة ثم تولى القضاء فى قايس زمانا قبل رجوعه إلى تونس، عاصمة الحفصيين^(٥)، وأبو الروح بن مسعود^(٦) الذى التحق بقايس ، حيث أقام مدة ليست تعلم ، وولى بها القضاء ثم رجع إلى مصر حيث درس بالأزهر ، ثم تحول إلى دمشق ليشغل منصب نيابة القضاء نحو سنتين ومنها إلى مصر ليشغل نفس الخطة مع قاضى القضاء زين الدين بن مخلوف المالكى، ومع خلفه ثم ترك القضاء ليتولى التدريس بزاوية المالكية وتوفى بالقاهرة (٤٧٣هـ).

والقاضى عبد الله بن أبى مسلم، ذكره التجانى^(٧) عندما شرد شيوخ شيخه أبى فارس عبد العزيز بن عبيد فقيه طرابلس ، وتولى قضاء طرابلس^(٨) وقايس، وقد كان موجوداً أثناء رحلة التجانى^(٩)، لكن لم يستدل على مكان وسنة وفاته، وابن زيادة الله القايسى وهو أبو عبد الله محمد بن زيادة الله القايسى، ذكره حسن حسنى عبد الوهاب فى تلاميذ الإمام الرازى^(١٠)، وأبو القاسم محمد بن خلف المعروف بابن مشكان الذى ذكره حسن حسنى عبد الوهاب أنه ايضا من تلاميذ الإمام المازوى^(١١)، وإنه تولى قضاء قايس وهو آخر ما روى عن المازوى^(١٢)، ومما لاشك فيه أنه تتلمذ على يد الإمام بعدد (٥٣٠ هـ - ١١٥٢ م)، وكان يدرس الشريعة ورواية الحديث مع القضاء ، ومن تلاميذه: أحمد بن عبد الرحمن بن عطية التونسى الذى توفى (٦٩٩ هـ) فى تونس^(١٣).

وكان لقضاة قايس ديوان يحتوى على الوثائق والسجلات الخاصة بقضايا الناس وأحكامهم ويهتم القضاء بالحفاظ على هذه السجلات والمحاضر والوثائق الهامة لأنها ودائع

(١) الغنى: موسوعة المغرب العربى، مجلد (٢)، جـ (٤)، ص ٨٨.

(٢) وهذا النظام منذ أيام الدولة الرسمية، وكان لقاهرة حاضرتها أقاليم لها ولاية وقضاة.

(٣) انظر الوسياتى: مخطوطات ورققات رقم ١٣-١٢-٤١ ط- ٢٤ ظ.

(٤) سعد زغلول : هامش على مصادر تاريخ الإباضية من اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب، ص ٧٤ وما يليها.

(٥) المقرئ الإحاطة فى أخبار غرناطة ط. بيروت ، ط (٢)، جـ (١)، ص ٦٠ ، المرزوقى: قايس جنة الدنيا، ص ٢٦٧.

(٦) المرجع السابق ص ٢٧٨.

(٧) الرحلة: ص ٢٥٧.

(٨) المرور فى قايس: ص ٢٦٢.

(٩) المصدر السابق: نفس المكان.

(١٠) المرجع السابق ص ٢٥٢.

(١١) نفس المرجع والصفحة.

(١٢) ابن الجار، تكملة التكملة، جـ (٢)، ص ٧٥٣.

(١٣) نفس المرجع والصفحة.

الرعية^(١) وكان مكان ديوان القضاء بجوار مجلس القضاء ، فإذا كان القاضي يعقد مجلس القضاء في المسجد الجامع^(٢)، كان الديوان موجودا فيه وفي قايص كان ديوان القضاء في الساحة الكبيرة لسوق الجمال^(٣). ويجرى العمل والنظام في ديوان القضاء كما هو الحال في ديوان المظالم من حيث تسلم والمجالس^(٤) والموظفين وخازن ديوان القضاء ، وهو من أهم الموظفين ويعين له رزقا من الدولة^(٥).

الفتيا

ولا يتولاها إلا من كان ذا علم غزير ومعرفة وفقهيا بشئون الدين وقوانين الأعمال حتى لا يضل الناس بفتواه إذا عمل بها من هو ليس بأهل الدين والعلم^(٦). كان ابن سحنون يحذر من بعض من يتعرضون للفتيا فيقول: "أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أن الحق كله معه" كان عمران الفاسي من أشهر من قام بالفتيا وذلك في عصر ياديس ونستدل من ذلك أن الفتيا كانت مقصورة على الحواضر مثل القيروان ويرسل الناس فتواهم أو يذهبون بها^(٧) ويقول القاضي عياض عن عمران الفاسي : "قطارت فتواه في المشرق والمغرب واعتنى الناس بقوله^(٨) واستفتاه المعز بن باديس بشأن الطرز التي عليها أسماء بنى عبيد فأفتى بمنعها وأيدها بذلك الفقيه أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن الخولاني"^(٩)

وهذا بالنسبة للفتيا ومن البديهي إن أهل قايص كانوا يذهبون للقيروان إذا تعذر حل الفتوى في قايص أما الإباضية في جنوب قايص فكانت لهم فتاواهم التي كان يحلها التي كان يحلها لهم أصحاب الصلاة في المساجد وعلماء مذهبهم مثل أبو عمرو النميلي وغيرهم.

الحسبة:

يقول ابن خلدون^(١٠): "إن الحسبة خادمة لمنصب القضاء" ، وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس داخلة في أعمال القاضي، يولى بها باختياره من يقوم عليها. حينما انتظمت اصول المدن الإسلامية على نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ، أصبحت الحسبة وظيفة ثابتة^(١١). تنازلت أمورا متعددة، دينية : كمرابة المساجد والعبادات، واجتماعية كالمحافظة على نظافة الطريق والرأفة بالحيوان، وتغطية الزوايا وعدم

(١) الخراج : ، ص ١٤.

- القلقشدي: صبح الاعشى، جـ (١٠)، ص ٢٧٤-٢٨٤.

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، جـ (١)، ص ١٠١.

(٣) لقد أخبرنا الوسيان عن قافلة كانت متكلم من قايص عصرا وكان احد افرادها يريد الزواج فذهب للقاضي في مجلس السوق ولم يكن هناك شاهدين من الرجال وكان تستفتي هل يجوز رجل وامرأتان يدل من رجل كما يقول الشرع انظر السير مخطوط ورقة ٥٣.

(٤) السمرقندي: رسوم القضاء ، ط. بغداد، ط (١)، ص ٣٧-٢٨.

(٥) قلقشدي، وأمر الأمانة في معالم الخلافة، حـ (٣)، ص ١٤٨.

(٦) ابن خلدون: المقدمة ص ١٩٠.

(٧) أبو العرب تميم: الطبقات ، ص ١٨٧.

(٨) القاضي عياض: المدارك جزء ٤ ، ص ٢٩٥ ، الدباغ : معالم الإيمان جـ ٣ ، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٩) القاضي عياض: المدارك جزء ٤ ، ص ٢٠٣ .

(١٠) المقدمة ص ١٧٨.

(١١) ماجد ، تاريخ الحضارة ص ٥٧ ، وهذا الرأي غير صحيح ، لأن الحسبة من أيام الرسول عليه الصلاة والسلام علما اكتشف غشا في السوق وقال: من غشنا فليس منا.

ضرب الاطفال ومراقبة السلوك العام ومراقبة المحلات والشوارع والأسعار والبضائع والموازين^(١)، وكان المحتسب يستعين بالعرفاء لمساعدته يختارون من أرباب الصناعات والتجار، وهذا يبين دور المحتسب في ضبط الاقتصاد^(٢)، وكان المحتسب له سلطة تنفيذية مفوضة سريعة.

ولقد عرف العرب في المشرق والمغرب الحسبة من خلافة الامويين، ومرت الحسبة بمحاولات الفقهاء لتصنيفها وترتيبها وتحديدها، وقد ارجعوا جذورها إلى عصر النبي صلى الله عليه وسلم^(٣)، والحسبة لفظ غير قرآني يجري استعماله للدلالة على الواجب المفروض على كل مسلم في " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^(٤)، ويرى بعض الباحثين أن خطبة الحسبة عند صاحب السوق في المدن اليونانية. ومهما يكن من هذا الأمر فإن المحتسب قد حل محل صاحب السوق، وخطته في مراقبة السوق ضمن عمل السلوك الاجتماعي، هذا وأن الحدود الفاصلة بين الشئون التي هي من مشمولاته، وبين ما يعود بالنظر إلى القاضى أو إلى صاحب الشرطة. ليست دائما في منتهى الوضوح، فالقاضى يحكم في الموضوعات التي قامت بخصوصها دعوى وتم فيها اجراء بحوث لمعرفة حقيقتها، والشرطة تتدخل في حالة حدوث جريمة. أو جريمة تقتضى تحريك القوة العامة، اما المحتسب فهو لا يشغل الا بأمور صريحة ومخالفات واضحة للعيان لا مجال فيها للشك أو النزاع، وهو لا يقوم بأبحاث وإنما يتدخل في القضية من تلقاء نفسه ودون انتظار قيام احد بدعوى لإصلاح الأحوال والأفعال مباشرة، وتغيير المنكر، والجري إلى الغير والعمل به^(٥).

عرفت أفريقية الحسبة من وقت مبكر، بعد بناء مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ، وتنظيم ادارتها في عهد الحسان بن نعمان الذي دون الدواوين وضبط الخراج وفي عهد موسى بن نصير ازدهرت مدن أفريقيا ومنهم قابس والقيروان، وأحدثت دار ضرب النقود حتى أصبحت المدن الافريقية - قابس منهم - وريثة المدن الرومانية القديمة بمعنى أن قابس أصبحت وريثة المدينة الرومانية بأنظمتها البلدية الرومانية^(٦)، والمجلس البلدى الرومانى المكون من رئيس ووكيل المال وعرض مجلس الساهرين على الطرقات والألعاب. اجتهد المسلمون أن يحققوا نظاما أعدل من التنظيم الرومانى الشكلى، فنظمت الاسواق والدكاكين وعين على كل صنف من الاسواق عريفا والذي كانت من وظيفته مقاومة الغش والسهر على حسن العلاقات بين أصحاب المهنة وعمالهم واعوانهم والحرص على ضمان حقوق الامير^(٧).

(١) الشيزرى: نهاية الرتبة، ص ١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٣) كان للنبي صلى الله عليه وسلم يتجول في السوق ووجد لبنا يباع وعليه ماء، فقال صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا، انظر: موطأ مالك، ط. دار الشعب، ص، وانظر دائرة المعارف التونسية، كرس ٤، وانظر "عز الدين عمر الموحدين .. ص ٢٨٦.

(٤) وما زال ذكر حاكم السوق... في الكتابات والقوش اليونانية قبل الفتح العربى بثلاثة قرون، دائرة المعارف التونسية، نفس المكان.

(٥) رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة تي / ليفي يرومنسال، ط. القاهرة، (١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م) ط (١)، ص ١ وما يليها، وانظر دائرة المعارف التونسية نفس المكان.

(٦) جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية، ترجمة محمد المراسي وآخرون ص وانظر: الحسن السائح: الحضارة الاسلامية في المغرب والدار البيضاء (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م) ط (٢)، ص ٤٣٤-٤٤٦.

(٧) الدباغ: معالم الإيمان.

والنشرى: المعيار المغربى، ج (١)، صفحات ٥٦، ٥٧، ١٠١، ١٠٣.

لم تعرف إفريقية وظيفة المحتسب إلا في عهد سحنون^(١)، فيعتبر سحنون أول من قلم بوظيفة المحتسب وهو أول من اضافها لاختصاص القضاء بعد أن كانت من عمل الولاية وانحاء إفريقية^(٢)، وقام به عنه نواب مختصون بالحسبة اسمهم امناء، ثم فى عصر بنى زيدى، لا تسعنا المصادر بالحسبة فى الحاضرة أو الأقاليم وأسماء محتسبين أو عرفاء الأسواق فى قابس واسواقها وجوامعها، وابن خلدون ذكر أن الحسبة فى إفريقية فى العصر الفاطمى كانت داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى منها باختياره^(٣)، وكان الموحدون يسندون الحسبة إلى الأكفاء المشهود لهم بالصلاح والتقوى مثل أبى يعقوب يوسف بن على المؤذن^(٤).

وكان للحسبة ديوان خاص تحفظ فيه تقارير ووثائق الحسبة:

وهذا يتعلق بتفتيشات وإلى هذا الديوان من حيث المرور على الأسواق ومراقبة حركة البيع والموازين^(٥). والمساجد ومراقبة اهتمامها والعبارات فيها. ودور الضرب لمنع النقود المبهرجة والغش والتدليس فى ميزانها.^(٦) ومراقبة حراس السفن فى المدن الساحلية أو التسي لها ميناء كقابس، وله أن يمنع أربابها من حمل ما لا تستعد ويخاف منه على غرقها^(٧) وما إلى ذلك من التفتيش والمراقبة فى كل أنحاء المدينة والميناء^(٨)، ومن أهم سلطات هذا الديوان إقامة التعزيز عقاباً وتاديباً، وتعيين موظفين كثيرين يعاونون وإلى الحسبة فى أعماله وتفتيشاته وعليهم تقديم تقاريراتهم باستمرار وتسجيلها فى سجلات الديوان^(٩) ومن اختصاصات هذا الديوان أيضاً الاحتساب على القضاء على سبيل المثال الإيجاليس الخصوم على باب القاضى^(١٠) كثيراً فى الشمس^(١١) وإرسال أخبار قضاة المدن إلى قاضى القضاة^(١٢)، والإشواف على نظام الطرقات والأسواق وتنظيمها ومنع الغش، وتخزين المواد الغذائية فترة لبيعها

انظر: ابو عبد الله المعباني التلمساني، عينة الذاكر فى تغيير الملاكات / على الشنوفى، ط. الرباط، ص ٦٧-١٠٠ وما يليها.

(١) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التفوضى الشهير بسحنون، وهو اسم طائر، عالم وقلبي عاقل، وربما حفظ للكثير من القرآن والكتب الفقهية، ولد (١٦١ هـ / ٧٢٣ م) قدم ابوه من جند حفص من العرب إلى إفريقية، ذهب إلى مكة، وسمع من سفيان بن عيينة، وكيح بن الجراح ورجع إلى إفريقية ليدرس كما عمال قاضيا.

انظر: محمد زيهيم: الامام سحنون، دار للرجالي، ط (١)، ص ١٦٥-١٣٩.

(٢) والنظر: الدباغ: معالم.. ج (٢)، ص ٨٧، والنظر محمد المنوفى: خطة الحسبة فى المغرب مجلة المناهل، الرباط، عدد (١٤)، ص ٢٠٩ وما يليها.

(٣) المقتمة: ص ٢٠١.

(٤) توفى فى (٥٥٧ هـ / ١١٦١ م) وكان من بلده وتولى فيها الحسبة مكرماً، يقول عنه القادى عبدا صالحاً.

انظر: التادلى: التشوق إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، ط (١)، ص ١٤٧.

(٥) الشبرزى: نهاية الرتبة ص ٢٢، ولعب البريد دوراً رئيسياً فى ذلك فيذكر الطبرى أو ولاية الحسبة كانوا يرسلون تقاريرهم اليومية عن طريق البريد - تاريخ الرسل ج (٨)، ص ٦٣، حوادث ١٥٨ هـ.

(٦) المعباني التلمساني: تحفة الناظر: ص ١٦٧، ١٣٠.

(٧) الماوردى: الأحكام، ص ٢٥٧، وانظر الوشرسي للمعيار المغرب ج (٦)، ص ٤٠٩ - ص ٤١١ - ص ٤١٦، ج ٧، ص ٤٠٧.

(٨) تستجج الباحظة: وجود ديوان الحسبة فى قابس تابع لديوان الحسبة المقامة فى الحاضر، كما هو مألوف فى كل مدن الخلافة.

(٩) المعباني التلمساني، تحفة الذكر ص ١٣٧ - ١٧٠.

(١٠) الماوردى، ص ٣٤٩.

(١١) المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(١٢) الطبرى: تاريخ الرسل، ج (٨)، ص ٨١.

بأعلى سعر.^(١) وكانت السكة داخلة في اختصاصات الحسبة والمحتسب حيث كان على المحتسب الإشراف على دار السكة ومراقبة الوزن والغبار.

المظالم :

كان سحنون أول من أدخل قضاء المظالم في إفريقية، وكان حبيب بن نصر بن سهل التميمي صاحب مظالم سحنون^(٢) (سنة ٢٣٦هـ - ٨٥٥م).
لم تشر المصادر لوجود قضاء المظالم في قابس على الأخص، وركزت على وجود المظالم في القيروان، ومن المرجح أنه من المحتمل وجود المظالم في قابس وغيرها من المدن بالقياس إلى القيروان.

وقد جاء في سيرة جوزر ما يفيد أن آخر الخلفاء الفاطميين في إفريقية، كان يقوم بمراقبة مشددة على نشاط عماله ويزور أحيانا الأقاليم لمعاينة الوضع على عين المكان، فقد كان مدركا لمهمة العدل ونشر محاسبة بين رعاياه، فقد أجاب الذي أحاطه علما بتجاوزات بعض العمال قائلا له: " وقد علم الله أنا لا نرضى بهذا الظلم والعدوان من أحد أهل طاعتنا"^(٣)

لا يبدو أن بنى زيري قد قاموا بمهمة رد المظالم بواسطة قاض خاص، فقد كان يتولى القضاء، قبل ارتقائهم للحكم قاض يسمى إلى حد سواء صاحب المظالم والحاكم^(٤). وقد كان هذا النوع من القضاء يكتسب صبغة أسرع وأكثر مرونة من القضاء الشرعي - النوع الأول المقيد بالاجراءات الشرعية.

لا تسعنا المصادر بشيء عن قضاء المظالم، أى أخبار عنه، لكن يبدو أن من أهمية قابس كان يعين فيها قضاة مشهورين، ويبدو أنهم تولوا القضاء، وقضاء المظالم، إذا لم أجد ذكرا لأى قاضى مظالم تولى المظالم في قابس. أما العمرى^(٥) فقد تحدث عن قضاء المعالم في الدولة الحفصية وله مجلس في تونس لحضر الخليفة بنفسه مع قاضى القضاة، ووزير الجند وكبار الشيوخ والمستشارين على أبواب القصر الكثيرة^(٦)

ثالثا: الجيش والأسطول

أ- الجيش في قابس:

كان يوجد في قابس منذ القدم حامية أو كتائب تحمى مداخل المدينة والميناء وأبواب الصحراء وهذه من الطبيعي مثل أى مدينة لها وضع استراتيجى شبيه بقابس.
ومن المؤكد أن الدولة الفاطمية تركت بصمتها العسكرية، بما أن بنى زيري تابعون لهم فلا بد أن يكون جيش الزيريين نفس نظام الجيش الفاطمى وإن لم يكن فى قوته، لقد كان

(١) العقباني التلمساني: ص ١٦٧.

(٢) الدباغ: معالم الإيمان، جـ (٢)، ص ١٩٨.

(٣) سيرة الأستاذ جوزر، ص طـ (١)، ص ١١٤.

والنظر: فريجات الشراوى: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ترجمة حمادى الساحلى ص ٤٧٣.

(٤) الدباغ: معالم الإيمان، جـ (٣)، ص ٧٥.

والنظر: هادى إدريس: الدولة الصنهاجية، جـ (٢) ص ١٥٩ وذلك مثلما كان حبيب بن نصر أول من عينه سحنون على

المظالم، كان يحكم بين الناس فى الأسواق، الدباغ، نفس المصدر، والجزء ص ٩٩٩.

(٥) ابن فضل الله العمرى: مالك الأبصال فى ممالك الأمصار قطعة فى مصر أفريقية والأندلس تحقيق حسن حسلى عبد الوهاب

كرسات تونسمة مجلد ٣٩-٤٠ ص ٢٤٢.

(٦) تغيريين بين وظيفته ولعلها وظيفة قاضى القضاة فى العمور السابقة.

الجيش الزيرى يتشكل من الفرسان والرحالة^(١) وفرسان الخيل الكثير، يسمون قائدى الأعنة^(٢) (فعند ما غضب المعز على قائدى الأعنة لسبب ما ، عزلهم فذهبوا إلى أخيهام فى قابس)^(٣) وكان العسكر مزودين بالأسلحة الشائعة الاستعمال مثل السدروع^(٤) والسيوف والرماح والسهم والديوس إلى جانب تسيير الجمال والبغال تحمل مؤنهم وعتادهم، وكان القائد أميراً أو وزيراً^(٥).

لقد أتت الغزوة الهلالية على هيئة قبائل متتابعة جاءوا بخيولهم وسيوفهم وفتحوا قابس وتمركزوا فيها وكان مؤنس بن يحيى مقدمهم مهيمناً فيها - وكان فى نفس الوقت محمد بن ونمو أراد بن ولمويه وهو قائد عسكرى تحملها من قبل المعزين باديس.

لما انتقل لها بنو جامع وأصبحت فى قابس إمارة عربية كان لها جيش ولم تسعفنا المصادر بتفصيلات عنها لكن الباحثة وجدت بيت شعر يدلنا على عظمة هذا الجيش:

ولقد ملكنا قابسها .: بالمشرفيات القواطع^(٦)

أى أنهم ملكوا قابس بحد سيوفهم المسنونة وكذلك يقول شاعرهم عنهم إنهم أهل المراتب والكتائب.

وفى معنى كلمة مراتب قال الخليل: والمراتب فى الجبل والصحراء هى الأعلام التى تربت فيها العيون والرقباء والكتائب مفردا كناية تعطينا أكثر من معنى فهى الجماعة المستحيزة من الخيل أى فى حيز على حدة ويطلق أيضاً على جماعة من الخيل إذا أغارت ويكون عددها من المائة إلى الألف وفى معنى آخر وفى معنى آخر القطعة العظيمة من الجيش وجمعها كتائب^(٧).

كان الجيش الموحدى هو العماد الرئيسى فى فتحة لأفريقية بتنظيماته الدقيقة وكثرة عتاده وأسلحته بالنسبة للديوان عندهم تقابلنا مصطلحات جديدة هى الحشم - الجنود - عبيد المخزن^(٨)، فقد ذكر ابن صاحب الصلاة^(٩) أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن خرج لاستقبال عسكر أفريقية وبجاية وتلمسان كما خرج الموحدون " وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد " ^(١٠)، وكلمة حشم قد تعنى القبائل البربرية من غير الموحدين، والسى جانب ذلك، فجيش الموحدين احتوى عناصر كثيرة من العرب والاندلسيين والإغزاز وغيرها. وكان الجيش الموحدى مقسماً لوحداث، كل وحدة عليها تفيد أو مزوار^(١١).

وردت إشارة عابرة تفيد أنه كان لقابس جيش:

ولى الخليفة الناصر بن المنصور يعقوب بن عبد المؤمن الموحدى على أفريقية الشيخ أباً محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص ، الذى ظل مقيماً فى أفريقية حتى وفاته (سنة ٦١٨

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ، ج - (١)، ص ٤٤٢.

(٢) ينكر النويرى أن قبيلة زناتة اعتنت على خيل المعز ، فى عام ٤١٣ هـ - فى منطق قابس، نهاية الأرب ، ج - (٢٤) ، ص

١٠١. وانظر ابن الأثير حواش عام ٤١٣ هـ

(٣) منكور فى الفصل السابق.

(٤) كان شائعاً استعمال الدروع من حيوان اللط الموجود بكثرة فى أفريقية والمغرب عموماً.

(٥) ابن عذارى ، ج - (١) ، ص ٤١٩.

(٦) التجانى الرحلة ص ١٠٧.

(٧) المعجم الوسيط بمادة ركب.

(٨) عز الدين عمر موسى: الموحدون، ص ٢١٩.

(٩) المن بالإمامة ، تحقيق عبد الهادى التازى ، ط. بيروت ، ط (١) ، (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) ، السفر الثانى، ص ٤٣١.

(١٠) المصدر السابق : نفس الصفحة.

(١١) المرجع السابق: ص ٢٤٣.

هـ- ١٢٢١ م ، فخلقه ابنه عبد الرحمن غير أن الخليفة المستنصر بن الناصر (٦١١-٦٢٠هـ/ ١٢١٤ - ١٢٢٣م) عزله ثلاثة أشهر ، ولى بدلاً منه عمه إدريس الذى لم تطل ولايته ، فخلقه ابنه عبد الله عبد الابن الثانى للشيخ ابن محمد ، وذلك فى عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) وعقد لأخيه ابن زكريا على قابس لكنه ما لبث أن عدل عن توليته وعزله ، ونهض لمحاربته ، فأنكر الجند عليه ذلك وخالفه كبراء دولته والتحقوا بجيش قابس^(١) . كان جيش قابس زمن الموحدين وبنى حفص مثل جيش الموحدين ، قد أسندت شؤونه إلى ديوانيين رئيسيين هما: ديوان العسكر - والذى يرأسه غالباً - رجل من الجند ليشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش النظامى والاستعداد للحرب واحصاء الجند^(٢) .

والديوان الثانى هو ديوان التمييز ، والذى كانت من مهامه الرئيسية: استبعاد الخصوم والمارقين فى أفراد الجيش واعدادهم وتطهير حقوق الجيش ، ثم تطور وأصبح اختصاصه ، اختيار الصفوة من العسكر ، وكانت قبل كل خروج للحملات أو الحرب أو الفتح يجرى التطهير والتمييز لتمام أمور الجيش^(٣) . وقد أولى الموحدون عناية كبرى للمدن الساحلية والصحراوية وامدادها بالأقوات مثل القمح والدقيق والزيت . فيخزن فى مخازن أعدت لها ، كما كانوا يرسلون لهذه المدن الهامة الأسلحة المختلفة والرجال الأشداء تحسباً لأوقات الشدة ومحاصرة الأعداء^(٤) ، ويتولى العمل كان ديوان التمييز الذى يشرف على ديوان الاعمال المخزنية والدخل والمنصرف ، وله الحق فى محاسبة الأعمال ، وكان له معاونون بكل الأقاليم التابعة للدولة الموحد به ، يسمون المشرفين الذين كان لهم معاونون كثيرون مثل خازن المال ، خازن الأسلحة ، وخازن الطعام^(٥) .

الشرطة أصحاب الشرطة:

من المناصب الإدارية الهامة منصب صاحب الشرطة ، ومهته الإشراف على حفظ النظام واستتباب الأمن ، والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك التى تكفل سلامة الفاس وطمانتهم ، وكان يطلق على صاحبها بإفريقية لقب الحاكم^(٦) . وهى وظيفة تتبع صاحب السيف وفى أيام الدولة الزيرية كان لها شأن كبير وأعوان كثيرون يقومون باستتباب الأمن داخل الحاضرة والمدن ليلاً ونهاراً - وهذا كان نظام المدن الإسلامية فى كل أنحاء قابس ، فمساء تغلق المدينة أبوابها ويضرب البوق فى أنحاء المدينة ، وعندما ينقطع المشى فى الطرقات إلا من الشرطة وتسمى العسس^(٧) ، ولها مراكز يسمى كل مركز الرابطة ، ويتخذ أعوان الشرطة ليلاً كلاباً للحراسة والإرشاد وكانت هناك خطة طواف الليل موكله^(٨) إلى الدرايين أى المكلفون بالطواف فى الدروب .

(١) ابن تكتف القسطلطنى: الفارسية ص ١٠٣-١٠٨ ، حسن حسنى عبد الوهاب: خلاصة ، ص ١٢٧/١٢٨ ، وانظر: عفيفى محمود

إبراهيم : بنو مكي أمراء قابس ط. دار الثقافة ، ص ٦ .

(٢) محمد عبد الله عثمان: عصر المرابطى ، جـ (٢) ، ص ٦٣٨ .

(٣) عثمان عصر المرابطين ، جـ (٢) ، ص ٦٣٩ .

(٤) البيان المغرب ، جـ (٢) ، ص ٨٤ ، وانظر ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٠١-٢٥٢ ، وانظر: عز الدين عمر موسى: الموحدون ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

(٥) فى ذلك انظر: رسائل موحدية ، ص ٢٣٩-٢٤٤ ، وابن صاحب الصلاة ص ٢٠١-٢٠٢ ، المراكشى المعجب ، ص ١٨٣ ، وابن

الأثير ، جـ (١٠) ، ص ١١٥ .

(٦) ابن تكتف القسطلطنى: المقدمة ، ص ٢١٥ .

(٧) حسن حسنى عبد الوهاب ، بساط المقيق ، ص ٢٩ .

(٨) انظر: محمد الشريف الرحومى ، نظام الشرطة فى الإسلام ، ص ٩٠ وما يليها .

أما أزقة المدينة فكل زقاق عساس مسؤول عنه ويبيت في الزقاق، ويكون مسلحاً إلى جانب إنه يعلق سراج ومغلق لينير^(١) له وكلب يتبعه مثل مدن الأندلس.

ب) الأسطول :

لما كانت إفريقية تقع هي وسائر المغرب على ضفة البحر الرومي (المتوسط) من جهة الغرب والجنوب لذلك فإن أهلها كانوا يعانون من خطر أساطيل الروم، والفرنج وما لا يعاني غيرهم، لذا يذكر ابن خلدون^(٢) أن قيادة الأساطيل من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وإفريقية، ولما جاءت الدولة الفاطمية المغرب بنى المهدي بمدينة المهديّة داراً لصناعة السفن تتسع لأكثر من مائة سفينة^(٣)، وبنى بنو زيري أسطولا ضخماً لحماية شواطئه من أساطيل الروم خاصة بعد أن رحل الفاطميون بأسطولهم الجبار الأسطول الحربي يحتوى على سفن عملاقة ومتوسطة تجوب البحر وتدافع عن البلاد، ومن أهم قطع الأسطول الشوانى^(٤)، جمع شينى أو شونة وهي من أهم قطع الأسطول الفاطمي وأطولها، وتجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجدافاً والحراريق جمع حراقة، وهي مركب كبيرة مهمتها حرق سفن العدو، وهي مزودة بالنفط الذي يرمى المنجنقات والسهام^(٥)، والبطى جمع بطة وهي سفينة حربية عظيمة، وتوجد الغراب، وجمعها أغربة من السفن الحربية شديدة البأس^(٦) والمسطحات والطرائد والشلندبات والقواير^(٧) هذا بصفة عامة.

ومن المؤكد أن دولة بنى جامع كانت تملك أسطولا بحرياً، لكن لا تسعنا المصادر بمعلومات عنه، لكننا نستنتج أنها كانت لها علامات مع صقلية، وينبهي أنه توجد سفن^(٨) لكن لم تذكر تفاصيل عنه لأن تاريخ تلك الدولة شبه مطموس، لكننا نحاول الاستنتاج.

وقد سقطت على أيدي الموحدين، وهؤلاء لهم أسطول قوى وعتاد كبير لأنهم جابوا البحر المتوسط الرومي زمنها، وقمعوا حركات الصليبيين المسماة بالاسترداد Reconquista بالنسبة لنبي جامع، فيبدو أنهم كان لهم أسطولان وأسطول ذو وظيفتين حربية عند اللزوم وتجارية على طول العام وهناك صعوبة في تحديد تولى هؤلاء الأمراء قابس فيبدو لنا أن أول من تولى قابس الأمير مكى كامل بن جامع الذى ظهر بعد ثورة قابس على الأمير تميم بن المعز، ولم يذكر لنا المؤرخون متى ثارت قابس ولا متى تملكها الأمير مكى، لكنهم ذكروا أنه كان موجوداً سنة ٤٩٣هـ، وعلى إثر وفاته، تولى الأمير رافع بن مكى الذى قال عنها

(١) عصمت الطيف : الأندلس فى نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، بيروت ١٤٠٨ ط ١ ص ١٣٤.

(٢) المقدمة: ص ٢١٦.

(٣) البكرى، المسالك، جـ (٢)، ص ٥٦١، والمغرب، ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) بعد غزو العرب بإيعاز من اليازورى وزير المستنصر، حضر ملك المعز بن باديس بالداخل، ولم يبق له إلا شريط ساحلى ضيق، فالتجيت سياسته نحو البحر، إذ اضطرته الظروف لذلك، ولكن دمر جزءاً كبيراً من أسطوله من جراء عاصفة هبت عليه عند ذمابه لمعاونة أهل صقلية لدمر عند قوصيرة، انظر أرسينال: القوى البحرية: ص ٣٠٩.

(٥) انظر: حسين مؤنس: تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، ص ٨٢ وما يليها وقد ذكر أصناف كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

(٦) لعل اسمها مشتق من مقدمتها التى على شكل رأس غراب، انظر: صابر دياب: سياسة الدولة الإسلامية فى غرب البحر،

رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة، ص ٦٠ وما يليها.

(٧) المراجع السابقة، نفس الصفحات وما يليها،

وانظر: عبد الجواد الأصمعى: سفن الأسطول الحربي، مجلة منبر الإسلام مجلد (٥) عدد ٧/٦/٥٤، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٨) يأتى ذكرها فى جزء الأسطول.

التجاني^(١) "توفى تميم ورافع متولى قابس ثم تولى يحيى ابن تميم فصالحه وداره طول حياته. فلما تولى ابنه على بن يحيى أنف من ذلك وكره أن يجاربه أحد في أفريقية من إجراء السفن في البحر فأنفذ أسطولاً لمنع هذه السفينة من الإقلاع وأخذها إن أقلعت.

ديوان العمائر :

هذا الديوان كان يختص بكل ما يتعلق بشئون الأسطول سواء الحربي أو التجاري وما يتصل بذلك من صناعة السفن الحربية والتجارية وله إيراداته الخاصة للإنفاق على كل ما يتعلق بشئون السفن والقائمين عليها من عسكر أو المدنيين^(٢) وتكوينات الجيش البحري والإشراف وتحصين السواحل وتعمير محارستها ومسالحتها وشدها بالرحال^(٣) وخزنها بالمواد التموينية اللازمة طوال الحرب أو حصار أو ما شابه ذلك منذ فجر التاريخ لأنه من القدم وأهل المغرب كانوا مهرة في ركوب البحر وهذا الديوان يدون فيه كل من يعمل بالأسطول وظيفته وراتبه وكل ما يتعلق به من أوراق، كان قائد الأسطول في أعلى الوظائف وهو كما قال ابن خلدون اسمه الملند وهي منقولة عن الإفرنجية

قيادة الأساطيل:

من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وأفريقيا ومرووسه لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال، ويسمى صاحبها في عرفهم: "الملند" بتفخيم اللام منقولاً من لغة الإفرنجية، فإنه اسمها في اصطلاح لغتهم، وإنما اختصت هذه المرتبة بملك أفريقية والمغرب لأنهما جميعاً على صفة البحر الرومي وتحت يده يعمل اعداد بمغيره من التوثيته أو عمال المراكب ويقول ابن خلدون "استخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أما ذلك الكثير من الرجال المقاتلة والعساكر لمحاربة من وراء البحر من أهم الكفر هؤلاء وهؤلاء كان لهم قائد .. مسلموا المغريين الإفرنج يوازن لفظة (أميرال) الآن^(٤).

وكان لكل سفينة عدد من البحارة (النواتية) يخضعون لكبيرهم الملقب بالرئيس الذي يتولى مع رجاله إدارة الشراع والمجاديف كما يتولى أمر ارسائه في مرفئه^(٥).

وللحملة قائد من الأمراء أو من أصحاب المناصب العليا ما لم يتولى القيادة كبير أمراء البحر نفسه^(٦) ومن مقدمي الأسطول في عهد تميم بن المعز (أبو الحسن الفهري) الذي قاد الأسطول الموجه إلى جزيرة جربة في سنة ٤٩٩ هـ^(٧).

ومنهم أيضاً (إبراهيم بن عبد الله) الذي عينه على بن يحيى على الجيش ففتح جربة في أواخر سنة ٥٠٩ هـ^(٨).

(١) لقد كانت هذه السفينة مشنومة لأنها كانت من أهم الأسباب المباشرة للغزو والنورمانى على المهديّة وقابس إذا لجأوا بوس يوسف مولى الأندلس (منتصف سفره سبله إلى روحاً ملك صقلية .. انظر الفصل السابق (الحياة السياسية) وانظر التجاني : ص ٩٨.

(٢) أمينة الشوريجي رؤية الرحالة المسلمين للدولة الفاطمية ص ٦٤.

(٣) حسين مؤنس تاريخ المسلمين بحر المتوسط ص ٦٠ وما يليها هناك وثيقة بردية يرجع تاريخها سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م تعطيان فكرة عن تهديد البيزنطيين السواحل مصر حتى ذلك التاريخ وشد اهتمام الولاة بفهم عن السواحل ومقدار ما كان يمانيه المصريين بالخدمة في الأسطول وحماية الشواطئ ونشر النص حسين مؤنس، المرجع السابق ص ٦٤.

(٤) ابن خلدون / المقدمة ص ٢١٦ وحسلى عبد الوهاب / البساط ص ٢٩.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٤.

(٦) المقدمة لابن خلدون ص ٢١٢ وارشيبالدوس / القوى البحرية ص ٢٤١-٢٤٢ ود/ المدنى الأساطيل العربية البحرية : ١٥٦-

١٥٨.

(٧) ابن عذاري/ البيان المغرب ج ١ ص ٣٠٢.

ولم تقتصر عناية بنى باديس البحرية على ما سبق بل شيدوا المحارس وأقاموا الحصون على الثغور البحرية وجعلوها متقاربة حتى تتمكن من صد غارات الأفرنج المتوالية على بلاد السواحل الأفريقية. وكان يطلق على هذه الحصون اسم (الرباط) ومن أشهر هذه المحارس أو الرباطات مرسى رانس والمنستير وسلقطة (والمحرس) قرب صفاقس وغيرها. وكان يقوم على أمر هذه الحصون رجال ذوى خبرة يشئون بها بحيث إذا أحس ثغر فى الليل بقرب عدو أوقد نارا بكيفية مخصوصة من أعلى الحصن فيعلم حرس الحصن المجاور له بالخطر وينذر هذا الأخير بالطريقة المذكورة الحصن التابع وهكذا. أما إذا طرأ خطر فى النهار ولزم الإعلام به فإنهم كانوا يتخابرون بواسطة الحمام المربى فينقل الرسائل فى عنقه من محرس إلى آخر^(١). ولقابس بحرية طالما بها جيش وكذلك أسطول تجارى كان سببا فى نزاع مع بنى زيرى أدى إلى استيلاء النورمان على قابس والمهدية لكن بحرية الموحدين أنقذتهم.

(١) لرحلة التجانية ص ١٢٥.

(٢) حلى عبد الوهاب / البساط ص ٣١-٣٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية

١- النشاط الزراعي :

أ- موارد المياه (الآبار - المواجه - الصهاريج)

ب- الإنتاج الزراعي

٢- النشاط الصناعي:

أ- نظم الصناعة وعوامل ازدهارها

ب- الصناعات الرئيسية

ج- صناعات أخرى

٣- النشاط التجاري:

أ- التجارة الداخلية : * أسواق المدينة داخلها

* أسواق الأرباض والمرافأ

ب- التجارة الخارجية * تجارة قابس مع مدن أفريقية

* العلاقات التجارية مع المدن المختلفة

* الطرق التجارية الخارجية

* الفنادق : أنواعها - نظامها.

٤- المعاملات المالية:

أ- العملة

ب- الصكوك والسفائح

تمهيد:

توفرت في قابس منذ القدم مقومات اقتصادية عديدة مثل توفر المياه وخصوبة التربة مع المناخ الطيب الذي وفره خليج سرت الصغير فضلا عن موقعها المتميز. أدت هذه المقومات إلى ازدهار الاقتصاد القابسي ازدهارا ملحوظا، أشار إليه الجغرافيون والمؤرخون القدامى والمسلمون كما سبق أن أشرنا وقد تنوعت الأنشطة الاقتصادية في قابس من زراعة إلى صناعة وتجارة وغيرها على النحو الذي سيتضح فيما يلي:-

أولا النشاط الزراعي:

كانت الزراعة في قابس تمثل الركيزة الأولى في حياتها الاقتصادية إذ قامت الصناعات بها على المنتجات الزراعية نتيجة العوامل الآتية:

- ١- خصوبة التربة
- ٢- وفرة مياه الري
- ٣- ملائمة المناخ
- ٤- الخبرة الزراعية والحقلية
- ٥- تشجيع الفقهاء ورجال الدين
- ٦- نظام الملكية والحيازة الزراعية

(١) خصوبة التربة:

يستفيد أهل قابس من الطمي الذي تجرفه مياه الأودية في تسميد الأراضي إلى جانب الأسمدة الطبيعية^(١) وقد عاب الرحالة^(٢) على أنهم يتبرزون في الأفنية ويبيعون فضلاتهم لطعمه البساتين على حد قول باقوت^(٣).

(٢) وفرة مياه الري:

وصفت قابس بأنها مليئة بالعيون الجارية ، وينكر الإدريسي^(٤) " أن لها واد يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الغدير قصر سجة وبينه وبين قابس ثلاثة أميال " ، وينكر التجاني^(٥) : " ولها واد يسقي بساتينها ومزارعها ويخترق في كثير من مواضع الغابة دورها وشوارعها وأصل هذا الوادي من عين خرازة في جبل بين القبلة والمغرب منها وأكثر جناتها فيما بين المدينة والبحر ، لوادي قابس منابع كثيرة متتالية يندئ الوادي من أبعد ما ثم يمر على بقية هذه المنابع ، منبعها تلو الآخر ، فتتجمع مياه وفيرة تتحدر بمجموعها نحو غابة قابس ويساتينها ، وقد سمى العديد منها والبعض أهملت تسميته^(٦) ، ولكنها تسير الوادي المعروف باسم " وادي السيل " وبداية تلك المنابع الكثيرة التي تتكون منها مياه الوادي الوفيرة هي العين البيضاء التي يبدو وأنها عين الفرارة التي وصفها البكري^(٧) والغدير الكبير التي تحدث عنه الإدريسي^(٨) وهو أول المنابع

(١) باقوت : المعجم ص ٤ ، ص ٢٨٩.

(٢) مثل البكري : المسالك ج ٢ ، ص ٦٦٧.

(٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) نزعة المشتاق: ج ١ ، ص ٢٨٠.

(٥) الرحلة : ص ٨٧ ، ص ٨٨.

(٦) المرزوقي : قابس ص ٢٠ - ٢٢.

(٧) المسالك: ص ٢ ، ص ٦٦٦ أنظر المرجع السابق نفس الصفحات.

(٨) نزعة المشتاق: ج ١ ، ص ٢٧٩.

الكبرى التي تغذي الوادي ، وتتوالى من تلك العين الأجراف الكبرى (١) المشكلة حنايا تشبه حنايا الجبل ، وذلك سر تسميتها بالجبل إذ يخيل للناظر عندما يشاهدها من مجرى الوادي أنه أقام جبل كما يسميه الأول (٢) ، وإلى جانب العين البيضاء وجدت عيون كثيرة أخرى لا تقل عنها غزارة مثل "عين زائد" و"عين المهشومة" و"عين الترابكة" ، "عين هريس" ، "عين سعد" (٣) وغيرها الكثير وتلك العيون متباعدة نسبيا وتتبع من مساحات شاسعة تشمل أراضي كثيرة ليس لها أسماء ، وإنما هناك اسمان يجمعان غالبها هما رعوس العيون وهنشير سيدي هريس (٤) وتلك العيون بعضها على الضفة اليمنى من الوادي مثل : عين زيد ، الشعالة... إلخ. وهناك الكثير على الضفة اليسرى منها "عين الحنش" ، "عين المهشومة" - "عين الزرقاء" والشرشارة (٥) وهذه العيون أو المنابع (٦) منها ما ينحدر ماؤه إلى مجرى الوادي الجوفي المعروف بوادي بن يحمى وتسقى منه غابة ثنى وما يجاورها بينما ينحدر البعض الآخر إلى مجرى الوادي القبلي المعروف بوادي السيل ومجره منخفض عن الأول بما يتراوح بين مترين وأربعة أمتار ولما كان الواديان متوازيين فإذا ما طفا الماء في موسم الأمطار انحدر ماء الأول فاختلف بالثاني (٧) في موسم الأمطار انحدر ماء الأول فاختلف بالثاني (٨) ، وقد نبه لوجود هذين الفرعين ابن سعيد (٩) في القرن السابع من الهجرة : الثالث عشر الميلادي ، فقال عنها : وينزل لها نهران من الجبل الذي في جنوبها يرويان غوطتها وتتوزع جداولها عليها " هذان الفرعان لوادي قابس هما الفرعان الأصلان خارج الغابة ، حتى إذا ما وصلا إليها تفرع كل منهما إلى عدة فروع أو جداول لتصل إلى السواقي ، فتسقى البساتين والمياه الباقية من السقي تنحدر كلها إلى الفرع القبلي (١٠) وتوجد مجموعة أخرى من الأودية التي يمكن أن يطلق عليها أودية سهوبية (١١) بحثة فهي ذات نظام مائي متذبذب بشدة ، ولا تجرى هذه الأودية إلا بعد رخة مطر غزيرة ، ومنطقة قابس تتلقى أمطار بين (٢٠٠ ، ٤٠٠ مم) ، مثلها مثل باقي أودية جنوب أفريقية بصفة عامة ، تلك التي تصب في خليج قابس وفي خليج بوغرة وفي شطوط الغرسة والجريد والفجاح أو سيخات مثل سبخة الملح في جرجيس وبحيرة البيبان جنوب شرق جرجيس ، هذا الجريان المتذبذب لأودية السهوب بتقسيماتها المختلفة لا يعتمد عليه في الزراعة ، لهذا فقد

عرف الفلاحون بناء السدود (١٢)

(١) الأجراف: أرض طينية جرفت السيول أجزاء منها ، فتركت بها آثار عميقة تبدو كمخلفات غائرة أو أخاديد: جمع أخدود.

(٢) Faivre du Paigre: L'irrigation Traditionnelle dans L'oasis de gabés, P.2-7-35- C.I T: 5 - 1452

(٣) Faivre du Paigre mm. P.

(٤) المرزوقي: نفس الصفحات

(٥) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٦) هناك عيون أخرى كثيرة تحمل أسماء يدو أما سميت حديثا أو قديما مثل عين أولاد بندان ، وعين أولاد ابن فلاح... إلخ.

(٧) سنن تربة في أحواز قابس أنظر Du Paigre: L'irrigation P, 26 وأنظر أيضا المرزوقي ص ٢٣ - ٢٤.

(٨) بسط الأرض: ص ٧٨ وذكر من ذلك أبو الغدا أيضا في ص ١٢١.

(٩) المرجعان السابقان ، نفس الصفحات .

(١٠) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(١١) السهوب: Styppes بمعنى مساحة مستوية من الأرض كثيرة العشب تعرف بالعراري

صلاح الدين حميدة : السهوب التونسية: رسالة دكتوراه ، ص ١٨ ، معهد الدراسات والبحوث الأفريقية ، قسم الجغرافيا سنة ١٩٨٩ .

(١٢) للعرب منذ العصر الجاهلي مهارة فنية في بناء السدود للاستفادة من مياه المطر والسيول كما بنوا الصهاريج المتصلة ببعضها على هيئة الكهاريذ وجعلوا لها فتحات صغيرة لاستخراج المياه منها ، وأعظم مشروع للسدود العربية القديمة ، سد مأرب وسد حبش وسد رجب وغيرها... ، وأصبحت سدود جنات تجري من تحتها الأنهار بفعل نظام الري العربي أنظر: ناجي معروف: أسئلة الحضارة العربية ، ط ، بسطوت ، ط (١٣) ، ص ١٥١ ، وقد امتازت قابس بوفرة مياهها ، فلم تمان من قلنها كالفقروان ، وقد تغلب الرغبة على ذلك فبنوا فيها المواصل والبرك كزيادة الله الثالث المرامية ،

والخزانات للاستفادة من مياه الأمطار ويختلف استخدام المياه في البداري تبعاً لمصدرها حيث تستخدم تقنيات مختلفة تقليدية وغير تقليدية مثل:

١- موالج الماء:

نظراً لعدم انتظام سقوط الأمطار في أفريقية، اتجهت عناية الولاة لحفظها في الموالج للاستفادة بها. وهي عبارة عن أحواض مكشوفة تشبه البرك إذا امتلأت بالماء، فيذكر اليعقوبي (١) " فإذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول، دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها الموالج، وكانت تبني بالحجارة (٢) وتغطي من الداخل بطبقة من الملاط الشديد الصلابة (٣)، وذلك لمنع تسرب المياه من القاع والجدران، كما كانت مستديرة الشكل متعددة الزوايا والأضلاع (٤)، وحتى لا تتأثر حوائط الموالج بضغط الماء عليها، أقيم في كل زاوية سواء في الداخل والخارج ركيزة (دعامة) مستديرة بالإضافة إلى ركيزة متوسطة تتوسط كل ضلع من الخارج (٥)، وكان ارتفاع الضلع يمثل عمق المايل (٦)، وجرت العادة عند بناء المايل الكبير إقامة ميايل صغير متصل به يسمى "الفسقية" يقع فيه ماء الوادي فتتكسر حدة جريانه مما يساعد على حماية حوائط المايل الكبير من قوة تدفق الماء (٧) ولم يكن الاهتمام ببناء الموالج مقصوراً على ولاية أفريقية في القرن الخامس الهجري، بل عني خلفاء بني أمية بإقامتها، إذ أمر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٦هـ/ ٧٢٣-٧٤٤م) عامله على أفريقية ببناء الموالج خارج مدينة القيروان (٨) فبنى هذا الوالي من الموالج ما يكفي لإمداد المدينة بالمياه (٩) وقد وجه الأغلبية اهتمامهم إلى إقامة الكثير من خزانات المياه في جميع أنحاء البلاد، ولا تزال بقايا هذه المنشآت موجودة في الطريق من القيروان إلى صفاقس (١٠)

٢- السدود الصغيرة

ويقيمها السكان في المناطق المغروسة وذلك للاستفادة من مياه الأمطار بتخزينها أمام هذه السدود فتشكل بحيرات صغيرة للاستفادة منها في الري وزراعة المراعي المروية.

٣- المدرجات:

وهي طريقة قديمة مستخدمة في المرتفعات والمناطق الجبلية

تبلغ ٤٠٠ ذراع × ٣٠٠ ذراع كما بنوا فيها تصراً جليلاً يسمى قصر المروسين، أنظر: ابن وردان: مملكة الأغلبية تحقيق محمد زينهم، ط الفرجاني، ط (١)، ص ٤١.

(١) اليعقوبي: ليلة، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٢) أنظر المالكي: رياض النفوس / ص (١)، ص ٢٥٨.

(٣) Greswell: Ashort Account, P. 291

(٤) Greswell: Ashort Account, P. 291

(٥) Marçais: L'architecture Musulmans, P.38 Greswell: Ashort Account P. 291

والركائز في صناعة البناء كما يذكر دوزي "أعمدة غليظة تبنى في الروابي ليحدد عليها الأسقف المقعود بالحجارة. أنظر:

Dozy: Supplément aux dictionnaires, T. 1, P. 554

(٦) Greswell: Ashore Account, P. 291

(٧) البكري المسالك، ص ٢، ص ٦٧٨

(٨) المصدر السابق: نفس الجزء والصفحات، الوزير السراج: الحلال السنسية: ص ١٨١

(٩) المصدر السابق: ج ١- ص ٢٨

(١٠) أنظر الصفاقي: نزهة الأنظار ص ١، ص ٣٨

٤- السدود التحويلية :

تستخدم للري حيث الأودية الجافة^(١) ، وتشيّد كحواجز بهدف رفع مستوى المياه ، ومن ثم تحويلها عبر قنوات تنتشر على ضفاف الوادي إلى الأراضي الزراعية لريها.

٥- المسقاء :

وتشكل مع السدود التحويلية ثنائية مهمة ومهيمنة على السهوب أو البراري وهي منتشرة في جميع أنحاء أفريقية ويزرع الزيتون فيها على مائها^(٢).

٦- الجسور :

وهي حواجز تقام على الأودية لحجز الطمي أمامها وبناء المدرجات من التربة الخصبة لزراعة الفاكهة والخضراوات والحبوب الغذائية^(٣)
* أما بالنسبة للمياه الجوفية فتتكون من :

١- الفجارات :

وهي نوع من الآبار وتسمى في براري قابس بالخرائق^(٤)

٢- الآبار السطحية :

كانت تشكل الحل الجذري لمشكلات إمدادات المياه للشرب والري في المناطق الجافة والصحراوية لقابس.

وتوجد المياه الجوفية في كل مكان في البوادي وعند الجبال حول قابس مما جعل حفر البئر أمرا ميسورا لمن يريد الزراعة أو حتى البناء^(٥) ، وهذه المياه الجوفية قد تكون عذبة رقيقة أو تكون مياه جوفية حارة ساخنة مثل مياه الحامة^(٦) (حامة قابس)^(٧) الذي يستفاد منها في الاستشفاء ، وكذلك واحة شاشو^(٨) التي تستخدم فيها العيون والآبار الجوفية في الزراعة وعندما يحدث فيضان لأحد الأودية فإنه يستفاد من مياهه في ري البساتين ويذهب الباقي إلى البحر ، ولاتقاء شروور الفيضان ، يقوم الفلاحون بإنشاء سدود ترابية^(٩) للاستفادة من المياه دون الغرق ، وتلك السدود قديمة عرقها الرومان في قابس وهي عبارة عن حفر طويلة أو أخاديد ينسب متابعية لكي تحتجز المياه الفيضية وتمنعها من الجريان الشديد كما تفتح أيضا في حالة حدوث المطر الشديد^(١٠) ولا تنسى عرب الفتح الإسلامي لأفريقية الذين عملوا في تنظيم الزراعة والري وحفر الآبار وتحسين تلك السدود وتدعيمها وبخاصة القديمة بحيث لا يتجاوز

(١) وتنتشر هذه الطريقة القديمة في أنحاء الجنوب من أفريقية أنظر المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٢) Dupaigne, L'irrigation nature ... P28

(٣) Ibid, P.28

(٤) صلاح حميدة : السهول : ص ٥٣ ، Ibid, P. 23

(٥) أنظر ص ١٠٠ من الفصل الأول من هذا البحث (جزء بناء المسكن القابسي)

(٦) استمدت الحامة اسمها من المياه الحارة فيها ، وقد سماها الرومان Aque Tacapitana

(٧) وهي حامة قابس تميزها لما عن حامة الحريد ويستفاد من حرارتها في التفتية الزراعية الحديثة في الوقت الحاضر في قابس فيما يسمى بالفلاحة الجيوحرارية وهي باكرة المنتجات الزراعية من الخضراوات والفواكه المعدة للتصدير كلها وبخاصة طماطم الكريز التي هي مثل عنقود الكريز أي عنقود من الطماطم الصغيرة الحارة الطعم وتصدر كلها بناء على طلب الدول الأوروبية وتستفاد لما عن الكريز العالي الثمن من برنامج تومي بتونس يسمى أرضي وناء بالوعود ، يشرف عليه الصندوق الوطني ٢٦٢٦ في تونس وبلاغ على قناة (٧) الفضائية التونسية.

(٨) المرزوقي : ص ٢٣

(٩) المرجع السابق ص ٣٢

(١٠) جبل المجري: الجفاف الشاخي في بلاد التونسية من بحوث ذروة المياه في الوطن العربي ط الجمعية الجغرافية (١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٢٣٩ حيث يتسم هذا الباحث تونس إلى أبع مناطق مطرية من حيث ارتفاع المنسوب فتقع قابس في المنطقة الثالثة المطرية أي المنطقة شبه الجافة أو شبه الصحراوية.

ارتفاعها نصف متر ، وذلك تبعا لدرجة انحدار الأرض ^(١) ومن أهم فوائدها ، إلى جانب تقليل الجريان السطحي للمياه ، ترسب طبقة الغرين أو الطمي أمامها مما يؤدي إلى زيادة مساحة المزروعات، فهي ضرورية إذ أنها تزيد من خصوبة التربة في بعض المواضع الصحراوية لذلك تزيد مساحة الرقعة الزراعية إلى جانب فائدة أخرى كبيرة إذ تنمو الأعشاب حولها بكثرة مما يشجع على الري وتربية الحيوانات ^(٢).

إن تقسم المياه في قاييس قديم إذ تحدث عنه بليني ^(٣) في وصفه لبساتين قاييس وجناتها وهناك اسمان يرجع إليهما الفضل في تقسيم مياه قاييس تقسيما محكما إبان العصر الإسلامي ، أولهما رجل عربي من أهل قاييس يعرف باسم شمام ^(٤) ، والظاهر أن تقسيم شمام قد حدث منذ أن اتسعت رقعة الغابة ، وهذا التقسيم إنما هو مراجعة للتقسيمات الأولية للمياه وهو التقسيم الذي ذكره بليني ^(٥) ، ويذكر المرزوقي ^(٦) أن شمام هو أول من حفر العيون وأوصلها ببعضها وسرب ماء للغابة و"تفتح الفتوق" داخل الجبل وبنى السدود الأولى (الطوايي) ، ويذكر الثجاني ^(٧) إنهم وصلوا إلى موضع اسمه العقلة " وهو واد متسع بجبل يجري في وقت الأمطار ويجف في غيره وصادفناه في ذلك الوقت ليس به ماء إلا ماء في إحساء صغيرة وتلك الإحساء هي المياه بالعقلة والعقلة عند العرب هي التي يحبس الماء فيها عن أن يسير " ^(٨) أما من ناحية السدود فأشهر سد في قاييس هو سد الرحا في وسط ساحة الرحا ^(٩) المعروفة في قاييس وتقع هذه الساحة في آخر البساتين الغربية من العابة على بعد رمية سهم من قرية المعايطه المجاورة لقرية شنتى أما التقسيم الآخر ، فقد تم على أيدي الرجل الثاني المسمى بابن الشباط التوزري المصري ^(١٠). وأهل الجريد يتفقون على أنه مبتكر طريقة توزيع المياه على واحات النخيل على أنحاء واحاتهم العديدة وذكره البكري ^(١١) والتقسيم واحد في كل الواحات.

ملاعة المناخ :

من خصائص موقع قاييس تأثيره في طبيعة مناخها وتتميز بمناخ خاص ، فالصيف بها حار جاف ما عدا الساحل في الشرق منها وأعالى الجبال منها ، أي في الجنوب أما من الجهة الصحراوية ، فالمناخ صحراوي قاري جاف بارد شتاء حار صيفا ، وتهب لفحات حارة بصفة مستديمة ، وهذا يعجب السكان حيث أن هذا مفيد للإنسان ، وينضج فيه النخيل ويعطي تمورا شهية وكذلك الفواكه ^(١٢) والزيتون ، وترتفع معدلات الحرارة أكثر مما هي عليه في شمال أفريقية ، وكميات الأمطار أقل من شمال أفريقية إذ لا تزيد عن ٢٠٠ ملي ، وهذا المناخ له تأثير على التربة ،

(١) ناجي معروف : ص ١٥١ ، المرزوقي ص ٣٣

(٢) المرجعان السابقان نفس الصفحات.

(٣) أنظر ص ٢ من هذا الفصل

(٤) يذكر المرزوقي أن اسم شمام موجود في قاييس تحمله عائلة من سكانها ، كما أن هناك عين تسمى عين شماما (كما أشرنا سابقا) قاييس حنة الدنيا ، ص ٥٢

(٥) المصدر السابق

(٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة

(٧) الرحلة : ص ١٩٣

(٨) الثجاني : ص ١٨٣

(٩) وهي عبارة عن قطعة أرض فسيحة متساوية الأخلاع تقهرها المستنقعات من المياه وتغطي جوانبها الأعشاب والحشائش الخضراء وفي وسطها نخلات يقع ظلها على سد لتقسيم مياه الرادي إلى فروع وجدول كثيرة أنظر : المرزوقي ص ٢٩

(١٠) هو أبو عبد الله محمد بن علي عصر المعروف بالمصري من توزر ، قرأ القرآن وتعلم الفقه ودرس بجامع الزيتون وتولى القضاء بتوزر ، وعائلته كانت نصرانية وأسلمت ، وكان جده قد انتقل إلى القاهرة ، ومات فيها وولد ابنه فيها ثم رجع إلى توزر المرجع السابق ص ٢٤

(١١) المسالك ، ج (٢) ص ٦٧٣ وأنظر المرجع السابق : نفس الصفحات

(١٢) محمد العزيز بنجاحي ، مذبذبة دوز ، ط الطبعة الأساسية تونس ، ط (١) ص ٣٣ وما يليها

فهو يساعدها على تفتيت المواد العضوية كما يزيد من ذوبان المعادن بها ، فترتفع خصوبتها وذلك يساعد على نمو النبات وتمازج النضج وحلاوة الطعم^(١).
أثرت العوامل الجغرافية السالفة الذكر في النشاط الزراعي ، فقد كان العمل الزراعي في قابس يقوم على الدورة الزراعية الثلاثية ، فالأرض بين بور وقليل ومعمورة فالبور لا تصلح إلا بالقليل والتربيل والتسميد ، والقلب هو حرث الأرض مرتين إلى أربع حسب الأرض ونوع الزرع أو الغرس ويبدأ القلب في الغالب من يناير ويستمر إلى يونيو حيث تترك معرضة للشمس المحرقة ورغم صعوبة هذا العمل والجهد الذي يبذل فيه إلا أنه لابد عنه لأن بعض المحاصيل لا توجد إلا في أرض القلب كالقمح ولأن القلب يجود الأرض فنجد الفلاحين يشترطونه من كراء الأرض أو مزرعتها أو مغارستها وأحيانا يستعوضون عن القلب بزراعة ما يزيد التربة خصوبة مثل اللوبيا والفول ، ويحرص الفلاح على الاستفادة من الأرض فيزرع غير محصول في وقت واحد في ذات الرقعة المزروعة من الأرض ، فنجد البقول مع الغروس واللوبيات مع الزعفران^(٢) وفي أوان الزرع تحرث الأرض بالثور ، وتختلف عدد السكك التي تشق الأرض حسب طبيعة ونوع الزرع ، وبعد الزرع تعدل الأرض ليستوي جرى الماء عليها ويتم تعديل الأرض وتسويتها عن طريق الجاروف الذي تجذبه البقر ومتى تم تعديل وتسوية الأرض خططت للغرس خطوطا مستقيمة مقابلة للريح من كل جهة ، وتتباع الغروسات باختلاف أنواع الثمار ، وإذا كان لزراعة المحاصيل فتسوى الأرض أحواضا وتتباع البذور بدرجات تختلف باختلاف أنواعها^(٣). وكان لابد من ثلاثة عناصر رئيسية ، الزريعة أي البذور ، والأدوات اللازمة للعمل والطاقة الحيوانية المساعدة لضمان وفرة الإنتاج. كما اهتم فلاحو قابس بالتربيل وتسميد الأرض اهتماما بالغا وخاصة في التربة المجدية والتي تقع في الجريد.

الخبرات الزراعية والحقلية:

-٣-

كان الفلاحون يعيشون في القرى والقصور^(٤) التي انتشرت في مناطق الزراعات التي تكاد تكون متصلة^(٥)، وقد تتكون القرية من اثنتي عشرة دارا وتصل إلى أكثر من خمسين وهي تسمى منازل في منطقة قابس ، وكذلك في بلاد الجريد بصفة عامة ، وتكثر هذه المنازل مثلما في قصبة^(٦)، حول قابس متناثرة في غابيتها الكثيفة الأشجار^(٧)، وكان الفلاحون يستعملون المحراث التقليدي والفأس والمنجل والمدراة وأدوات الزراعة المعروفة في ذلك الوقت ، وتساعدهم الأبقار في عمل الحقل.
ويطلق اسم (جباد) على الفلاح وذلك من أول منطقة قابس إلى برقة وفزان^(٨)

(١) المرجع السابق : ص ٣٥

(٢) د. عز الدين موسى / النشاط الاقتصادي في المغرب ص ١٨٩ وأنظر من عبد العزيز : الحياة الاقتصادية في العصر الحفصى رسالة ماجستير في معهد الدراسات والبحوث الأثرية مطبوعة ص

(٣) د. عز الدين موسى / النشاط الاقتصادي في المغرب / ص ١٩٠

(٤) التصور : جمع ثمر يستعمل هذا المصطلح في جبال مطماط ودمر وكل جبال أترقية للتعبير عن الثروة وبخامة المحنة.

(٥) الاستبصار ص ١٥٣

(٦) المصدر السابق : نفس الصفحة

(٧) البكري : ج (٢) ص ٦٦٦

(٨) أمين جوسان : مخطوط سواطر وآراء حول الزراعة ، ترجمة عبد الكريم بوشويرت ص ٢٦-٢٧ مجلة البحوث التاريخية ، جامعة ليبيا ، المجلد الثامن يوليو

تشجيع الشيوخ والفقهاء للزراعة:

حفلت السير المنقبية لجماعات الإباضية المنتشرة في قابس وما حولها بمعلومات كثيرة عن النشاط الزراعي والرعي ، وكان مشايخ المذهب يحضون على الاشتغال بالزراعة بصفتها وسيلة إنتاج الطعام الرئيسية ^(١) ، وتبعا للتقاليد الإسلامية التي تقرر أن أحياء الزراعة من أحياء الدين والتي تنص عليها كتب الزراعة ، فقد قرأ الشيوخ في بعض الكتب " إن من فن غرس سبع فسائل يرعها من حلة وغرسها في حلة حتى أخذن وقمن ، قال : للنار سبعة أبواب تسد كل فسيلة منها بابا " ^(٢) وكان الشيخ الأباضي أبو محمد ترورسن ^(٣) يعمل بهذا المبدأ إذ إنه بعد عودته من أداء فريضة الحج عام ٤٤١ هـ حمل معه من الحجاز ستة غروس من نخيل التمر منها البرني والعجوة والصيحاني ^(٤) وفي سبيل تشجيع الزراعة والرعي وتربية الحيوانات اللازمة للزراعة ، أحدث الفقهاء نوعين من "الرخص" في مجتمع الإباضية المتشدد ، وظهرت فتاوى تقول أن الزريعة إذا كانت حراما لا جر حراما ، والبقر الحرام لا بأس بالزراعة به ^(٥) كان الشيوخ من العزابة ^(٦) يعملون في الأرض بأنفسهم ^(٧) ، كما جرت العادة أن يعمل الطلبة في حصاد الزرع بعد تمامه ^(٨) وحسب عرف الإباضية كان تقدير مساحة الحوض " عرضه كسء أربعة أذرع ، وطوله كسء ثمانية أذرع " وكانت قيمة هذا الحوض دينارا ^(٩) . وفي تقييم ما يلحق بالأشجار والأرض من فساد ، قال فقهاء الإباضية بمبدأ تقييم الأرض وهي طيبة مزروعة ثم تقييمها بعد ذلك بعد أن نزل بها الفساد فيكون على المسئول عن الفساد رفع الفرق ما بين الثمين كما يجوز تقييم النبات فقط ^(١٠) . كان وجود بئرين في الجنان مما يعيها لا سيما إذا كانت البئر ملكا للغير ^(١١) وكانت زراعة الشعير هي السائدة في البادية وكان الناس يخزنونه من الحول إلى الحول ^(١٢) لمؤونة القبيلة والساتحة التي تملكها والتي تحتاج ملكيتها إلى توفير الكلا والتبن لها ^(١٣) . وقد سعى الفلاحون إلى تخزينها في مكان أمين باعتبارها المادة الحيوية للعمل الزراعي . ذكرت بعض كتب النوازل بصدد مجتمعات التعاون مزرعة ومغارة وأن مجموعة من الفلاحين قامت بتعمير أرض وغرسها مدة طويلة ثم حاول عامل السلطان سلبها مدعيا أن السلطان أقطعها له ^(١٤) ، وهكذا فإن الفئات المهيمنة من ولاة وأعيان هم المنتفعون الأساسيون من عملية التعمير لإمتلاكهم السطوة والنفوذ والرأسمال العقاري من أرض وطاقاة حيوانية ^(١٥)

(١) أنظر: سعد زغلول : هامش على مصادر سمر الإباضية من أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، ط (١) ، ص ٧٦

(٢) الرسبان : السير ، ورقة (٤٧) ، وأنظر : سعد زغلول : هامش على مصادر تاريخ الإباضية ... ص ٧٠

(٣) المصدر السابق ورقة ٣٥ ، المرجع السابق ٧٠

(٤) نفس المصدر والمراجع ، نفس الصفحات

(٥) نفس المصدر : ورقة ١٩٢

(٦) لنظ أصله من العزوب أي ترك متاع متاع الدنيا : الدرجين طبقات المشايخ ج ٢ - ص ١١

(٧) الرسبان : ورقة (١٠٢)

(٨) المصدر السابق ورقة (١٨٢)

(٩) نفس المصدر ورقة ٢٠

(١٠) نفس المصدر ورقم ٣٥ م

(١١) نفس المصدر ورقة ٣٥

(١٢) سعد زغلول هامش .. ص ٨٩

(١٣) سعد زغلول : هامش ص ٧١

(١٤) محمد حسن : الربيع المغربي : ص ١١

(١٥) المرجع السابق : ص ١٢

نظام الملكية والحيازة

انقسمت ملكية الأراضي بصفة عامة في أفريقية على النحو التالي:

- ١- أراضي العروش : وهي أملاك القبيلة ملكية عامة لأفرادها في مقابل رفع الخراج للدولة
- ٢- أراضي الملك: التي تخص فرد أو أفراد أو عائلة ملكية خاصة
- ٣- أراضي الديك أو المخازن : وهي أراضي تمتلكها السلطة الحاكمة أو تخص الوالي أو السلطان.

٤- أراضي أوقاف أو أراضي حيوس: أو الإنزال التي أوقفها المسلمون للخدمة العامة كبناء مسجد أو سوق أو لحفر بئر أو إقامة دمنة^(١) أو مدرسة.

كان للأحداث التاريخية التي عرفت بها بلاد المغرب - بصفة عامة - تأثير ملموس على أوضاع الملكيات الزراعية وانعكاس مباشر على القوانين الخاصة بها أسوء منها ما يعود إلى الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي في القرن الأول من الهجرة السابع من الميلاد ، أما ما يرجع إلى زمن الدول التي ظهرت ببلاد المغرب منذ انتشار الإسلام وحتى مطلع الدول الحديثة^(٢).

وكان ماعون التينيقي^(٣) أول من زرع الزيتون والتين والكروم ، ولما جاء الرومان وسعوا الزراعة وحولوا أفريقية إلى مزارع خاصة معتمدين على القوة العسكرية المعززة بالحصون والخطوط الدفاعية Lims الممتدة من قايس إلى حافة الصحراء^(٤). وقد ظلت تقاليد الملكيات الزراعية للعهد الروماني راسخة كما ظلت أساليب خدمة الأرض متوارثة حتى الفتح الإسلامي ، أما بعد الفتح الإسلامي فقد كان له انعكاس على حالة الفلاح وعلى وضعية الأرض (ازدهرت الحياة الاقتصادية بفضل قيام دولة الأغالية ، فقد بنوا المواجه والصهاريج لتخزين المياه وطورا للزراعة)^(٥). والسؤال بالنسبة لوضع الملكية في أفريقية ، هل فتحت أفريقية صلحا أم عنوة ؟ وكيف كان الوضع بالنسبة لقايس ؟ إن الإجابة غامضة بالنسبة لقايس بالذات.

لقد نقل عبد الله بن أبي زيد عن ابن سحنون قال " كشفت عن أرض أفريقية ، فلم أقف منها على حقيقة هل هي عنوة أو صلح^(٦) كما جاءت عبارة أوردها الوثريسي^(٧) " وأما بلاد أفريقية .. ففيها بلاد ليست صلحية ولا عنوية. وفي القرن الأول من الهجرة يبدو وأنه اتبع في ملكية الأرض نفس النظام الذي اتبع في القسطنطينية في توزيع اللقائن على أراضي القسطنطينية وضواحيها إذ وزعت الخطط بعد تأسيسها على القبائل المشاركة في الفتح لبناء الدور ، وتجاورت قطائع الأراضي إلى الأراضي الزراعية للنبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين أراضي شاسعة ومن المعروف أن أغلب الأراضي قد بقيت بأيدي السكان الأصليين.

(١) دمنة : بمعنى مستشفى أو دار علاج وهذا المصطلح خاص بأفريقية ، أنظر: حسن حسني عبد الوهاب ورقات .. ج ٢ ، ص ٤٢٠ وحدث في قبايس عروش كثيرة منها عرش الشمعة أسفاد حمام مقسم المياه عرش ، الجماعة وهم يذكروننا بني جامع حكام قبايس وخارج المدينة بر وشاح وبنو رباب ، أما بالسرير لي داخلها ، ففي مقلمتهم عرش بني مكي اللواتي حكم قبايس في مطلع القرن الثامن الهجري ، المزروعي ص ١٢٩-١٣٠ ، ابن بطوطة ص ٦٥٦-٦٥٧.

(٢) ناصر الدين سعيون : أنواع الأراضي في القرون العثمانية : شمال أفريقية الحضارة الإسلامية بحوث ودراسات مآب مؤسسة آل البيت ط ١٩٨٧ عمان ج ٣ ص ١٦٥ وما يليها.

(٣) لقد كان لتينيقيون شعبا من شعوب البحر المتوسط من ناحية الشرق متعاطيا للتجارة والملاح لكنهم أسسوا حضارة في أفريقية بتأسيسهم قراطاج ٨١٤ - ١٤٦ ق.م ومصارفها التي كان من أهمها تاكلابل أو تاكلاب وهي قبايس التينيقي التي وضعوا فيها كل خبرهم الملاحية والزراعية

ديو Depois تونس ص ٦١-٦٢

(٤) سعيون : ص ١٦٦

(٥) ابن وردان : ملكة الأغالية : تحقيق محمد زينه ط مديولي ، ط ١ ص ٤٠.

(٦) الحبيب المنحان: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب العربي ط بيروت دار الغرب الإسلامي ١٤٠٦-١٩٨٦ ط ٢

(٧) المعيار العرب ط ٨ ص ٢٠٨

بعد انتصار المسلمين وهزيمة جرحير ، طلب رؤساء أفريقية من عبد الله ابن أبي السرح أن يأخذ منهم مالا ويرجع ، فقبل ورجع إلى مصر ، ولم يول عليها أحدا ، وبعد انتصار حسان بن النعمان على قوة المعارضة العسكرية بزعامة الكاهنة (سنة ٨٢هـ/ ٧٠٤م) ^(١) ، بدأ التفكير جديا في تنظيم شئون أفريقية في المقدمة الخراج وملكية الأرض ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم أفريقية وعلى من أقام معهم على نصرانيته ^(٢) ، كما ساوى حسان في الأعطيات بين العرب والبربر ووزع الأراضي بين فقراء البربر ، بعد أن كانت ملكا لحكومة بيزنطة فازدادوا ثقة بالإسلام وأهله. ولم يبق ملكا عاما للمسلمين يقطع منه والي أفريقية على رؤساء الجند وزعماء القبائل الأرض الموات أو المهجورة التي تركها البيزنطيون ^(٣).

لو طبقنا هذا على قابس ، لوجدنا بالتأكيد ولاية ورثوا الأرض الموات التي كانت للحاكم البيزنطي (الأكزرخ) وللأسف حيث إن قابس كانت مقرا للأسقفية ^(٤) قبل الإسلام. وكان الولاية يعطون أراضيهم الخاصة للوكلاء لزراعتها ^(٥) ويبدو أن الإقطاع قد تطور وسمح للرتب العسكرية والإدارية بامتلاك الأراضي الكبيرة ولما جاءت الدولة الفاطمية ، لم تدخل تغييرا كبيرا على الملكية الزراعية ، فقد احترمت الخلفاء الملكية الخاصة ، وكما هو معهود في كل عهد حديث ، فإن المقاطعات الكبيرة التي بقيت شاغرة بعد إعلان دولتهم وكانت للأمراء السابقين أو لأعوانهم وهجرت وأصبحت أرض موات منحها الخلفاء للشخصيات البارزة من أهل أفريقية وغيرهم من الموالين ، لهم مثل رجال كنافة على سبيل المثال عندما أقطعهم عبد الله المهدي مثل يوسف بن بلكين الزيرة عندما أقطعه المعز لدين الله الفاطمي المسيلة وأعمالها ^(٦) وكما أقطع فيما بعد الأمير باديس بن زيري فلفل بن سعيد مدينة طينة ^(٧). ولو طبقنا بعد هذا التاريخ - أي عند دخول العرب الهلاليين قابس ، ستجد أنهم امتلكوا قابس أو أجزاء منها وخصصوا البارين منهم الأراضي التي كانت مهجورة أما في عهد الموحيدين سمي الإقطاع بالسهم أو السهوم ^(٨) وكان الإقطاع في بداية الدولة تمليكا ، فأقطعت كل البلاد التي تفتحت على أيديهم للقبائل الموحدية على أسسهم القبلية وبعد استقرار الدولة بغير نظام الإقطاع ، أصبح الغرض منه رفع جزء من الرواتب ^(٩) أو تسكين ^(١٠) أو تأليف أو لقاء خدمة ^(١١) أو هبة والإقطاع الموحيدي غالبا ما كان مزارعة أو مشاركة لأن هذا يتفق ونظرة الموحيدين للملكية بعد قيام الدولة ، بمعنى أن الدولة دخلت شريكا إقطاعيا مع الملاك الأصليين لها حصة من دخل الأرض وكان الإسهاء أو الإقطاع يسجل في ظهير ولم يرد شيء عن الوراثة ، وقد ينزع ضمن المستخلص ^(١٢) كان بقابس نظام حيازة الأرض كما حدده الفقهاء بالنسبة لأربعة - وعاد ما يطبق النظام علي باقي المناطق من

^(١) الحبيب الحنجاني : دراسات .. ص ١٢٣

^(٢) ابن غلري : البيان ، ج (١) ص ٣٧-٣٨

^(٣) الرقيق القيرواني : قطعة من تاريخ أفريقية ص ١٢ أنظر : عبد العزيز الميلم حسان بن نعمان ودرويه في فتح بلاد المغرب الرسالة (١٤٠هـ/ ١١٨٥م)

^(٤) Encyclopedia Vh P 356.

^(٥) ابن أبي الصياف : أهل الرمان بأخبار ملوك تونس في عهد الأمان

ط. تونس (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣) ط (١) ص ١٢٢

^(٦) ابن الأئس : الكامل ، ج (٨) ص ٢٣٥

^(٧) المصدر السابق ج (٩) ص ٥٧

^(٨) أبو بكر ابن الخطيب ابن هشك : (أقطع سهاما لما عطرأ) انظر الإحاطة في أخبار غرناطة

ط بيروت ج (١١) ص ٣١١

^(٩) كان الجند الموحدي يعطي إلى جانب راتبه الذي يسمى بركة أو إحسان

^(١٠) قد يقطع الموحدون من يمشون فنته تسكينه كما فعل عبد المؤمن مع بني هلال.

^(١١) ابن غلاري : ج (٣) ص ٨١

^(١٢) المصدر السابق : نفس الجزء ، ص ٢٥ وأنظر عصمت دندني الأتلس في لمابة .. ص ١٦٠

الشروط ما يسمى بالملكية بوضع اليد فبينما الفقهاء مختلفون فيما إذا كانت المدة المطلوبة لذلك تتدر بعشرين عاماً جعلها فقهاء الإباضية بثلاث سنوات فقط ، حتى لو كان صاحب الأرض موجود وقت حراثتها وزرعها^(١) ، كما وافق الفقهاء على زراعة الأرض المشاع أي الأرض التي يرتفق بها^(٢) ، والأرض التي يترفق بها تعني أراضي الإرفاق بمعنى ذات المنفعة البشرية العامة كالصحاري والنفات والتلال ومنازل السفر وغيرها ونجد تحديدها وشروطها عند المواردي^(٣) الذي ذكر لنا أيضاً أراضي الحمى هي المخصصة للكلأ ورعي الماشية حسب ما يراه الإمام^(٤) أما الخماسة وصغار الفلاحين فإنهم يمثلون القوى العاملة في استصلاح الأراضي وإعدادها للزراعة^(٥)

هل الخماس شريك أم أجير ؟ :

جاء في مستهل قطعة مخطوطة^(٦) غير مؤرخة ما يلي:
" وأجرة الخماس أمر مشكل وللضرورة تساهل والمعنى أنه جرى العمل بالتساهل في مسألة الخماس للضرورة الداعية لفعلها مع كونها مشكلة لم يتضح وجه الجواز فيها وصورتها أن يخرج أحد المشاركين في الحرث جميع ما يحتاج غليه من أرض وبذور ويقر وآلة .. إلخ ، ويخرج الآخر عمل يده فقط على أن يكون للعامل جزء من الحصاد كالخمس مثلاً ، أو أقل أو أزيد وللآخر ما بقي ، ووجه الإشكال هو عدم تمحيصها للشركة ولا للإجارة وعدم توفر شروط الصحة لأي منها " ^(٧)
وقد اختلف الفقهاء في تحديد وصف الخماس ، فقد رأى سحتون أنه شريك بناء على ما قاله مالك ابن أنس^(٨).

" إن الجير لا يستأجر بشيء مسمى ، لا تجوز الإجارة إلا بذلك ، وإنما الإجارة بيع من البيوع، إنما يشتري منه عمله ولا يصلح ذلك إذا دخله الغرر لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الغرر"^(٩).

فإن كان الخماس شريكاً وجب عليه دفع قسطه من الزكاة ، وهذه إذا كانت الخماسة لا تجوز إلا بالإجارة لأنه لا يصح لأجير أن يدفع عن زرع لا يملكه^(١٠) وإن كان الخماس شريكاً بأخذ نصيبه من التين خلافاً للآخر فإنه لا محالة مطالب بتولي القيام بعلف الماشية حتى في سنين المسغبة^(١١) ويبدو أن شركات الخماسة كانت موجودة لكنها لم تكن كثيرة مثلها مثل باقي أنحاء

(١) الرسبان السمر : ورقة ٥٦ ط

(٢) المصدر السابق ورقة ١٠٢ و

(٣) الأحكام السلطانية : ص ٢٨٨ وأنظر إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي في المعصور

الوسطى ، ط (١) ص ١١

(٤) المصدر السابق : نفس الصفحة

(٥) محمد حسن : الريف المغربي : ص ١٢

(٦) مخطوطة برقم ١٧٣٥ : ص ٧١٠٥ في دار الكتب الوطنية بتونس ، وأنظر محمد حسن : ملاحم من الريف المغربي ص ٢٠ هامش ٤٥.

(٧) المرجع السابق : نفس المكان

(٨) انظر مالك : الموطأ : القاهرة (١٣٧١هـ/١٩٥٢م) ج (٣) ص ٧٠٦

(٩) مالك : الموطأ ج (٢) ص ٧٠٦

(١٠) وردت هذه الفقرة في جامع البرزلي مخطوطة رقم ١٢٧٩٣ وكذلك في الفنازل التونسية ج (٨) ص ١٥٠-١٥٤. وأنظر محمد حسن : ملاحم .. ص ٢١ ،

هامش ٤٧

(١١) المصدر السابق : نفس الجزء والصفحات والمرجع السابق نفس الصفحة ، هامش ٤٨

أفريقية ومثل الريف المغربي ككل وجدت شركات المزارعة في كل الواحات^(١) ، فتكون لمدة محدودة وتعددت بتعدد المكونات الخمس لشركة بوزارة وهي : الأرض والعمل والزراعة والأدوات والبقر ، وهكذا بقي الفقه حريصا على ربط علاقات دقيقة بين عناصر الإنتاج الزراعي المختلفة^(٢) ، أما نظام المساقاة المطبق على الزراعات المرونة كان نصيب الماء فيه يتراوح بين عشر إلى ثمن المحصول^(٣) أما بالنسبة للزيتون فيبدو للمساقي الحق في "تصف ما يخرج منها" ودليلنا ما جاء في سيرة العالم التميمي المعروف بالسبوري^(٤) " كان يملك من الزيتون بالساحل اثني عشر ألف زيتون ويعمد إلى شجرة منها يأتمم وينتجع به والنصف الآخر مع بقية الزيتون للفقراء والمساكين ، كان في قابس مثملا في غيرها حراسة على المحاصيل الزراعية قبل حصادها وعالجت قتاوى ابن أبي زيد هذا الموضوع وأوضحت وجوب مكافأة هذه الخدمة بأجر ثابت وغير مشروط^(٥) وكذلك حراسة السواقي والنوايع ، كما ألمحت النوازل إلى العديد من الحوائج التي قد تصيب المحاصيل منها السيول والجفاف والبرد الشديد^(٦).

شهدت قابس تطورا اقتصاديا واضحا على عهد بني جامع الهلالين فزرعوا القمح والحبوب ، فكثر البساتين العربية^(٧) المتمركزة حول بركة أو فوارة وحوض من الزهور وحوله الأشجار الوارفة الظل تحفها رائحة القرنفل والورد والياسمين وأصبحت قابس زراعية : كما قال ابن بدون^(٨) " عن الزراعة " هي العمران ومنه العيش كله والصلاح حله وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال وبما نملك المدائن والرجال وبيطاليتها تقسد الأحوال ، ويحل كل نظام " .

وبجانب عمل اليهود بالزراعة في قابس كان هناك ملاك يهود لأرض زراعية يقيمون في المدينة وتزرع أراضيهم بواسطة نظام المزرعة حيث تصلهم نسبة معينة من المحاصيل كما يبدو وأن الزراعة في قابس اعتمدت على الري أيضا بالغمر بواسطة النهر وكذلك الإقراض بضمان الأراضي الزراعية منتشرا بين اليهود^(٩).

بالنسبة لليهود في قابس فقد كان امتلاكهم للأراضي الزراعية مظهرا من مظاهر الترقى والتقدم في مجتمعهم ، وإن كان ابن خلدون^(١٠) قد أشار عابرا أنهم قد اشتغلوا بالفلاحة فإن المصادر التاريخية تدلنا على أنهم برعوا في التجارة^(١١) والسياسة^(١٢) ، مع أن هناك بعض المصادر المعاصرة أوردت بعض أسئلة وقئاوى دينية تؤكد امتلاك بعض اليهود لبعض الضياع في قابس

(١) نفسها

(٢) محمد حسن : ملاحح .. ص ١٨

(٣) فتوى البرزلي : مخطوط ورقة ٢٣٦ ، وأنظر ه إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج(٢) ص ٢٣٦

(٤) الأسدي الدباغ : معالم الإيمان .. ج (٢) ص ١٨٣ .

(٥) الوشريس : ج (١) ص ١٤٤ وأنظر الإدريسي : ج(٢) ص ٢٣٦

(٦) كمال مصطفى : جواب من الحياة .. من خلال موازل الوشريس :

ط إسكندرية (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) ص ٦٤

(٧) البساتين العربية كما جاء وصفها في المتن أما الأخرى فتكون من مائتي طرية وطرقات

أنظر عثمان الكعاك : الحضارة ص ٥٥-٥٦

(٨) في القضاء والحسبة ص ٥

(٩) Menhem- Ben Sasson: The jews community of gabs in the 11en century, in commune juifs de marges sahariennes du maghereb, jerusalem, 1982, P279.

وأنظر : عبد الرحمن بشير : اليهود في المغرب العربي من الفتح الإسلامي حتى قيام دولة المرابطين ، رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الزاوية سنة

١٩٩٨ ص ٩٧-٩٨ .

(١٠) المعز : ج (٦) ، ص ١٢١ .

(١١) أنظر : تقييم ذكر دور اليهود في التجارة في العصور الوسطى

(١٢) المرجع السابق - المقدمة.

واحترافهم للزراعة فقد أورد هيرشبرج Herchberg^(١). أرسل سؤالا من الرباة في مدينة قابس إلى الجاؤون جاي Hay عن حقل يروي بواسطة قناة تمر من خلال حقل مالك آخر ، ودار نزاع حول حق الانتفاع بالقناة وما ينمو من نباتات على حافتيها وسؤال آخر حول إرث (في قابس) من أرض زراعية مرهونة طالبا من الجاؤون فتوى حول إمكانية تقسيمها بين الورثة أم يبيعها لسداد الرهن^(٢)، وسؤال آخر عن بذور تالفة^(٣).

الإنتاج الزراعي:

تشتهر قابس بوفرة الإنتاج المتنوع " وفيها جميع الثمار ، والموز فيها كثير وفيها شجر التوت الكثير^(٤) " وتقوم الشجرة الواحدة منها من الحرير وما لا يقوم من خمس شجرات غيرها، وبها قصب السكر كثير^(٥) ، هذا القصب قد أدخله العرب إلى البلاد^(٦) تلك البساتين التي ذكرها النجاني^(٧) ، وقد أحذقت غابته من جميع جهاته ، وبهذه من الجواسق ، والنخل المتناسق " ، فاما النخل فجمع عظيم^(٨) والذي لا يعادل حلاوة ثمار تميز غيره^(٩) ولم تقتصر الزراعة في قابس وغابيتها فحسب ، بل انتشرت في كل واحاتها المتناثرة وكما يكثر فيها النخيل فقد اشتهرت بالتين والزيتون والأعناب^(١٠) ويصف صاحب الاستبصار أنه ليس ببلاد الجريد عنباً من الحامة وشرابه أطيب شراب^(١١) وكانت قابس كما يقول المراكشي^(١٢) أخصب أفريقية وأوسعها فواكه وأعنابا كما أسلفنا الذكر.

أما الخضر فقد انتشرت زراعتها في جميع أنحاء أفريقية واختصت قابس بالأنواع الممتازة منها وأشهرها: الخيار والتناء واللوبياء والطماطم والباذنجان والكرنب وسائر البقول وغير ذلك من مختلف الخضراوات المتنوعة أصنافا وأحجاما^(١٣) ، وكذلك زرعت الأرز والذرة والفول والحمص والعدس^(١٤).

وكذلك الحبوب مثل القمح والشعير والبنخ والجلبان والبسلة التي تسمى السيم وأنواع من الخوخ والرمان السفرجل والتفاح واللوز^(١٥) والكمثرى والخروع^(١٦) والأترج والنانج والتوت الأبيض والتوت الأسود المسمى الفرصاد^(١٧) كذلك زرع في قابس الهليون^(١٨) والزعرور وأنواع الورود الرائعة مثل النيلوفر والسوسن والبنفسج والياسمين ، وكذلك أنواع الأعشاب

^(١) Astory of the jeus in north Africa, P. 40

^(٢) Ibid

^(٣) Ibid

^(٤) البكري : المالك ، ج (٢) ، ص ٦٦٦ ، وأنظر / باثرت المعجم ج (٤) ، ص ٨٩

^(٥) المصادر السابقة نفس الأجزاء والصفحات وأنظر اريسياندي ولويس القوي البحرية ص ٢٤٠

^(٦) نفس المصادر السابقة والصفحات

^(٧) الرحلة ص ٨٦.

^(٨) الإدريسي ج (٢) ، ص ٢٧٩.

^(٩) المصدر السابق وأنظر محمد بن شريف أبو الطرف ص ١١ ، ١٢١

^(١٠) الوزير السراج : الحلل السندسية ، ج (١) ص ٣٢٤.

^(١١) عبد الواحد المراكشي : المعجم ، ص ٢٥٥

^(١٢) القلقشندي : صبح الأمشي : ج (١٥) ص ١٤١ الوزير السراج : الحلل : ج (١) ص ٣٣٥

^(١٣) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة

^(١٤) العمري مسالك الأبحار / حسن حسين عبد الوهاب كراسات تونسنة مجلد ٣٩ ، ص ٢٢٧ وما يليها.

^(١٥) المصدر السابق نفس الصفحة

^(١٦) الوسيان — السورة ورقة ٢٨

^(١٧) العمري : مسالك الأغمار ص ٢٥٨ - ٢٦٠

^(١٨) الهليون : هو نبات معروف بأفريقية بانسكوم ويسميه علماء النبات Asperge أنظر المصدر السابق نفس الصفحة.

الطبيعية مثل: المرنجوس^(١) والزعفران والشمام^(٢) ، كما اشتهرت قابس بزراعة الحناء^(٣) كما اشتهرت قابس بهذه الحناء بفضل جودتها وعلو شأنها واحتياج السكان لها ، كما زرعت الكراوية ونوع من الرمان الحلو ذي القشرة الرقيقة^(٤) كان هناك الوفير المتنوع يشكل اكتفاء ذاتيا لدى سكان قابس مما جعلهم يمدون جميع أقطار المغرب بالفاكهة^(٥) ، لقد كانت قابس الغطاء الذهبي لكل مدن أفريقية لما تتميز به من مردود زراعي كان يعد قاياسا للاكتفاء الذاتي ونموا بالنسبة لأفريقية " وهذه المدينة العتيقة روح هذه الجهات الأفريقية ومعناها.. يتفجر حولها الماء العذب.. وتحيق بأرجائها الجنتات الألفاف والحدائق الغلب وتجتمع فيها أصناف المتخير والحب"^(٦).

الثروة الحيوانية في قابس:

تسمى في قابس السائمة وتعني مجموع الماشية والدواب بأنواعها. وتكثر السائمة حيث تعيش في المراعي الواسعة وحول السدود الترابية التي يثبت حولها العشب والكلأ بوفرة^(٧) توسع العرب الهلاليون في تربية الغنم والعنز والبقرة^(٨) واستخدموا نوى التمرور المنقوقة في علفها^(٩) وبخاصة البقر السمين الذي يكثر في قابس^(١٠) - إلى اليوم - كما اشتهرت قابس بتربية وإعداد الجمال^(١١) لبيعها للقوافل سواء للحج أو للتجارة كما اشتهرت منطقة قابس - منذ الفتح الإسلامي - بالخيل ، وكان للمعز بن باديس مزرعة كبيرة في قابس^(١٢) ، وكانت زنانة قد اعتدت عليها لمناوئته وادخل الهلاليون سلالات وأنواعا أصيلة من الخيل العربية واهتموا بتربيتها ، وقد ارتبطوا بالحصان منذ القدم ، والحصان هو الذي يجعلهم ينتجون في مواسم الكلأ دائما واحتفظوا دائما بسلامة أنسابه ، وكذلك بالنسبة لإبلهم^(١٣) ، وصلة القبائل العربية بالخيل الأصلية قديمة ، وتميزت قبيلة سليم^(١٤) في هذا المضمار ، ومن أشهر خيولهم "الأحزم" والأزور ويليهام هلال من عامر ، وأشهر خيولهم الأعوج ، وذو العقال^(١٥) واشتهرت عرب بني

(١) وهو المعروف في أفريقيا باسم المردقوس وهو يشبه الصبار عمدا

الصقلي التونسي في كتابه : أنظر نفس المصدر والصفحة

(٢) التمام نبات يعرف في أفريقية بالنتهى ، نفس المصدر

(٣) نبات معروف منذ قدماء المصريين وتشتهر قابس به ، يستعمل في صبغات الشعر وتستعمل في حيث يرسم به اليدين والأقدام - النشرة السياحية والتوتسية

(٤) القلقشندي : صبح الأعشي ج (٥) ، ص ١٤٢

(٥) البكري : ج (٢) ، ص ٦٦٢

(٦) رسائل موحدة : ص ١٦٠ ، رسالة رقم (٣٠)

(٧) جاء ذكر ذلك في صفحة سابقة

(٨) أبو ضيف : أثر العرب ، ص ١٧٣

(٩) إدريس : الدولة الصنهاجية ج (٢) ، ص ٢٤٤

(١٠) المرجع السابق : نفس الصفحة

(١١) الرسبان : ورقة ١٠٥ ، وأنظر الدباغ : معالم الإيمان ج (٣) ، ص ١٧٣

(١٢) ابن الأثير : حوادث ، سنة ٤١٣ هـ

(١٣) عبد الحميد يونس : الملائكة في الأدب والتاريخ ص ٨٨ ، ٩٨٩

وأنظر مصطفى أبو ضيف أثر العرب ص ٧٥

(١٤) العمري : المسالك والممالك ص ٧٥

(١٥) المرجعان السابقان نفس المكان

وتأتي الفصة Alfalfa أو البرسيم الحجازي - بالمعنى الحديث - كأهم محصول علف مزروع ، وقد دخلت الفصة إلى السهوب التونسية ، في ظروف تشبه دخول البرسيم لمصر وهي - إلى حد كبير - تشبه البرسيم شكلاً وأهمية. وتزرع في مساحات كبيرة متفرقة في كافة السهوب التونسية على الأمطار والري من الآبار ولا علاقة للفصة بالحلفا ، فالفصة محصول علف يتناوله الحيوان في حالته الطازجة أو مجففاً - دريس - أو ضمن تركيبه علفية مصنعة تتكون أساساً من الذرة الصفراء والشعير والتخالة ، وتزرع الفصة في واحة شانسو^(١) ، ومن الممكن أن تزرع الفصة في مساحات قد لا تزيد عن عدة أمتار مربعة بجوار المنازل الريفية أو حتى داخل الحدائق الخاصة ، أو حيث توجد ضرورة لتغذية الأغنام والمعز التي يربّيها الأهالي داخل حظائر منازلهم ولا تزيد في العادة عن ثلاث أو أربع رؤوس فالفصة إذن هي ركيزة محاصيل العلف في قابس ومنطقتها وجميع أنحاء أفريقية وهي تمد الحيوان بالعلف الأخضر شتاءً ، والجاف صيفاً ، ويمكن لها - وحدها أن تشكل الغذاء الوحيد للحيوان ، ودون إضافات أخرى. ^(٢) بعد الفصة تأتي مجموعة من محاصيل العلف - الرسمية - بمعنى أنها تزرع بمعرفة خبراء الزراعة تتبع الدولة ويأتي في مقدمتها فصائل من الشيع ، وهو مجموعة من الحلفا Artemesia Rerba Alba إضافة إلى القطف (الأتريلكس - Atriplex) وهو نبات يتحمل درجة عالية من الملوحة ^(٣) فيزرع في الصحراء الجنوبية ، وحول السنجات والشطوط مثل شط الجريد.

الصيد البحري والبري في قابس :

اشتهر القابسيون بصيد الأنواع الجيدة من الأسماك مثل الحوت اللحم الطري ^(٤) والتونة ، وهذا في الخليج ، أما الصيد في جميع أنهار قابس ^(٥) وجداولها حيث تكثر الأسماك الممتازة المكتنزة مثل البوري والقاروص والمحل والتونة واللاج والكحلا والطفلو ولحوصة والقاجوج ، وغيرها مما ذكره الإدريسي ^(٦) ويساعد على ازدهار رصيده المناخ والملائم ونوع مياه الخليج وخبرة الأهالي في الصيد أما الصيد البري أشهره صيد الكباش البرية والغزال الصحراوي ، وحيوان الضب واللمط والنعام الوحشي ^(٧) ،

(١) مصنع علف

(٢) في الوقت الحاضر تقترب من حد اكساح المساحات المخصصة للحيوب الغذائية ولا يخلو - مشروعات حكومي من مشروعات استخدام الأرض سواء أكان زراعي أم رعي - ومن تخصيص مساحة معينة لزراعة الفصة ، بل إن الرعاة أنفسهم قد اقتطعوا لها المياه تحملها الدواب ، والمينة الحاكمة تشجع هؤلاء الرعاة ولأنها تنظر إلى زراعة الفصة كمؤشر استقرارهم على المدى البعيد.

* أنظر القيلاني تجارب إدماج البئر - كراسات تولسية ١٩٧٢ - ص ١٥٩

(٣) أنظر: صلاح الدين خبطة : السهوب - التونسية رسالة ذكرورة - معهد البحوث والدراسات الأفرقية ١٩٩٦م - ص ١١٣ ودائما كانت توصف مياه قابس بالملوحة.

(٤) الاستبصار : ص ١١٢

(٥) البركي : للمالك والمالك ج ٢ ص ٦٦٧

(٦) نزهة المشتاق : ج ١ ، ص ٢٨٩

(٧) جاء في أكثر من مصدر أنه " ما اجتمع في مائة رجل ٣ أشياء متضادة المواضع إلا في مائة من يسكن قابس : يجتمع فيها الحوت الطري ولحم الغزال الطري والرطب الجني " *

* الاستبصار : ص ١١٢ ، وأنظر السراج : الحلال ، ج (١) ، ص ٣٣١

وقد أفاض الشعراء في ذلك ^(١) كما حفلت قابس بأنواع من الدواجن ، كالدجاج والأوز والبط والحمام وقد كان أبو عميرة القاضي قد وصفها بأنها سيئة الجوار ^(٢) ، ووجد أيضاً من الطيور الكركي أو الغرنوق جمعها غرائيق ، وهو صيد الملوك ، كذلك تربية النحل التي تكثر دائماً مع وجود البساتين والرياضين وفاقت جودته عسل بونة وقسطنطين ^(٣).

ثانياً: النشاط الصناعي في قابس:

إذ أردنا أن نتتبع تاريخ الصناعة في قابس ، فإننا نجد لها قديمة منذ الفينيقيين عندما اتخذوها مصرفاً تجارياً لهم واستفادوا من وجود نبات الفوه، الدردار وقواقع الموارد كس واستخدموها في صناعة الصبغة وكما برعوا في تصيير الأسماك وتليجها وصناعة سفنهم ^(٤) وصناعة أدوات الصيد المختلفة وغير ذلك.

أما بعد الفتح الإسلامي فالفضل يرجع إلى زيد بن حاتم في جعل كل صناعة في مكانها وتنظيمها ^(٥) ، وإعطاء الصانع حقه وتنظيم العلاقة بينه وبين صاحب العمل ، وقد نظمت كتب الحسبة والنوازل ، ذلك وحددت مسائل النفقات والملكية مراقبة الجودة ومنع الغش ^(٦) ، وتوريد حق الدولة في الجباية المفروضة وعدم تهرب أصحاب الحرف من دفع ما عليهم من أموال ^(٧) وإبعاد بعض الصناعات عن قلب المدينة متعاً للضرر مثل صناعات الزجاج والطوب والفخار ومدابغ الجلود ^(٨) ، وكان يشترط على أصحاب المصانع شروطاً صحيحة محددة تحقق سلامة الصانع فيها ، مثل : سعة مكان المصنع وارتفاع سقفه ^(٩) ، ومن أجل النقة كان هناك نظام للصناعة الأهلية ، أو مصانع الأسواق ^(١٠) ، بمعنى القسم المعد للصناعة في الأسواق ، وقد يكون دكاكين لتبني عن طريق السلطة الحاكمة ولها مواصفات خاصة كالشكل المربع على أن يحيط بها سور له باب واحد فقط للدخول والخروج وهذا للحيطرة والتحكم. ويرتب بداخله أرباب كل صناعة فيقيمون به مقابل أجر مناسب ^(١١) كل مدة حسب الاتفاق ، هذه الأسواق المغطاة يطلق عليها مصطلح القيسارية وأصلها محرقة من الكلمة اللاتينية Caseria حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لبضائعهم وتكثر حجراتها ^(١٢).

(١)

لعلها قيمة لا تمن	✽	بما حنونة فقلت انسان
فلهذه كنيسة وذا عمن	✽	صاهر حيثما الغنياب وما
وممن نعلم كالمنا من	✽	من منمن كالمنا م مقبله

* التجار : الرحلة ، ص ٨٧

(٢) محمد بن شريفة : القاضي بن عميرة ، حياة ، ص ١١٢.

(٣) عز الدين عمر موسى : النشاط الاقتصادي. في المغرب ، ص ٢٠٢.

(٤) جمال مختار : تاريخ أفريقية العام ، ج ٢ ، ص ٤٤٨.

(٥) ابن علقاري : ج ١ ، ص ٦٨.

(٦) ابن الأعمدة : معالم القرية ، ص ١١ ، ٣٧ ، ابن عيود رسالة في القضاء والحسبة ص ٢ إلى ص ٣٥.

(٧) حسن حسني عبد الوهاب ورفقات في الحضارة ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣.

(٨) حسن حسني عبد الوهاب ، ورفقات ج (٢) ص ٧٣.

(٩) حسن أباشا : الفنون الإسلامية ، ج (٢) ، ص ٥٦٢ - ٥٦٣ وهو مقتبس من النظام البيزنطي لكن ما يتلاءم مع الإسلام.

(١٠) المرجع السابق : نفس الجزء والصفحة

(١١) حسن حسني عبد الوهاب ، ورفقات ج (٢) ، ص ٧٢

(١٢) عبد المنعم ماهد : تاريخ الحضارة .. ص ١٠٣

لقد كانت الأسواق ومصانع الأسواق منسقة تنسيقاً متشابهاً مثل أسواق القيروان^(١) فكانت عبارة عن صف متصل على الجانبين يعمل بينهما ممر معقود السقف بالأجر أو الحجارة ، وتوجد مصطبة حجرية ممتدة على كل صف يجلس عليها المشترون^(٢) ، انقسمت تلك الأسواق إلى قسمين أحدهما للصناعة اليدوية حيث يعمل أصحابها لتحويل المواد الخام إلى مصنوعات ، والقسم الآخر على هيئة أسواق للبيع وعرض المصنوعات والسلع المعدة سواء من دور الصناعة القريبة أو مجلوبة من الخارج^(٣) .

وكان عدد العاملين بهذه الدور أكثر من البائعين وقد يمتد العمل في الأسواق إلى ساعة متأخرة من الليل ، حيث إن العاملين يتناولون طعامهم في أحد المطابع الموجودة بالقرب منهم أو يحضرون طعامهم معهم لأنهم لا يرجعون إلى منازلهم إلا في المساء أو الليل^(٤) وهم يعملون كمجموعات متعاونة مع بعضهم البعض لإيجاد سلع جديدة أو تطوير صناعة جديدة ، وكان اجتماعهم دائماً في مكان واحد مثل المخصص لهم في السوق المستوفة أو في حوش نفس منزل الصانع أو رئيسهم لذا تسمى الصناعة المنزلية أو الأهلية^(٥) .

وفيها يحضر العاملون بها الخامات اللازمة من الأسواق ويقومون بتصنيعها ثم يبيعونها مرة أخرى بسعر أغلى ، ويديهي ألا يستطيع الولاة للإشراف الكامل على هذه الدور كما أن أصحابها لا يتحملون الأعباء التي يتحملها دور الصناعة المعترف بها مثل الإيجار والضرائب .. إلخ ، وهذا يفسر وجود صناعات رخيصة الثمن كذلك يفسر السر في انتشار هذا النظام في كل مدن أفريقية^(٦) .

أما دور الصناعة الموجودة داخل الأسواق المغطاة فكانت تخضع لإشراف الولاة ، وأحياناً كثيرة كانت ملكيتها تعود للدولة أو لأصحابها فقد كان هناك من يقوم ببناء كباكين ويؤجرها لغيره بعد تجهيزها بالمعدات اللازمة^(٧) .

عوامل ازدهار الصناعة :

١- الأمن والاستقرار السياسي :

الذي كان موجوداً رغم حدوث الثورات في بعض الأحيان ، فيعد أن استقرت الأوضاع في قابس بعد الغزوة الهلالية وتملك العرب من بنى جامع الهلاليين ، ازدهرت الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة^(٨) .

٢- توفر المواد الخام :

الأولية اللازمة للصناعة ، وتلك موجودة في قابس حيث تزرع فيها احتياجات السكان من المأكول والمشرب والملبس^(٩) .

(١) بروي البكري : أن الخليفة أمر بترميم أسواق القيروان المستوفى في عام ١٠٠٥ هـ ، وكان سطحاً متقلاً به جميع الناحر والمصانع ، المسالك ، ج (٢) ، ص ٦٦٦ .

(٢) صالح الخليل : التحكم في استعمالات الأراضي في المدينة ، نلوة انقرة سنة ١٤٠٤ هـ ، ص ١٨١ .

(٣) حسن حسن عبد الوهاب ، وراقات ، ج (١) ، ص ٥٨ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان ، ج (٣) ، ص (٢٨) .

(٥) في ذلك أنظر الدباغ ، ج (٣) ، ص ٩٢ / ج (٣) ، ص ٢٧ - ٢٨ / ج (٤) ، ص ٢٢٠ .

(٦) حسن حسن عبد الوهاب وراقات ج (٣) ، ص ٧٣ .

(٧) المصادر السابقة نفس المصنوعات .

(٨) النجاشي : ص ٨٦ - ٩٦ .

(٩) الإدريسي : ج (١) ، ص ٢٧٩ وما يليها .

٣-زيادة متطلبات الجيش والأسطول :

ولقد اتضح ذلك أيام بنى جامع عندما شرعوا في بناء السفن للتجارة والحرب ، كذلك دعّموا الجيش والأسطول ^(١) الأمر الذي أدى إلى عمل الكثير من المصانع المتخصصة لتحقيق هذا الهدف ^(٢).

٤-الحياة الاجتماعية:

ووفرة العاملة ، نعمت قابس بحياة اجتماعية متكاملة ، فاليدوي لا يستغني عن الزارع الذي يزرع له ، وهذان لا يستغنيان عن الصانع ، وهو بدوره لا يستغني عن التاجر الذي يسوق له إنتاجه وهكذا ..

وهؤلاء لا يستغنون عن يحرسمهم أو من يصنع لهم أسلحة للزود عن ممتلكاتهم ، إلى جانب الولاة والوزراء والأمراء ^(٣) الذين يحتاجون إلى من يسد حاجاتهم من حيث المأكل والملبس وحاجات قصورهم إلى جانب المرفأ ^(٤) والصحراء ^(٥) حيث يعد الكثيرون سواء للتجارة أو الاستقرار ، يرى ابن خلدون ^(٦) أن الكسب يمثل قيمة العمل الإنساني ويزداد الكسب تبعاً للعمل والجهد كما أن ضم الخشب مع النجارة وأيضاً الغزل مع النسيج والحياة والحياكة والتطريز ^(٧).

الصناعات الرئيسية:

ترتكز الصناعات الرئيسية في قابس على عدة محاور رئيسية أهمها:

١)صناعات كثيرة قائمة على زراعة:

مثل النسيج وبخاصة الحرير الذي ليس له مثيل في أفريقية ^(٨) ، وعصر الزيتون وعمل السكر من القصب - تجفيف التمر وحفظه في دنانير وعمل العجوة وتجفيف أصناف من الفواكه...

٢)صناعات متعلقة بالمصايد:

مثل تجفيف الأسماك ^(٩) وتعليقها وصناعة الشبك وقوارب الصيد.. إلخ.

٣)صناعات قائمة على التعدين:

مثل تجفيف الملح من المبخات ^(١٠) وصناعات من الحديد والخشب كالأسلحة وأدوات القتال وغالباً ما يكون أغلبها على حسب طلب السلطات الحاكمة، كذلك صنع السنج والموازين ، واشتهرت قابس بالميزان القابسي في أسواقها ^(١١)

٤) صناعات قائمة على الحيوان:

مثل دبغ الجلود المشهورة في قابس وغزل الصوف ، مصنع الملابس والسجاد ^(١٢)

(١) المصدر السابق.

(٢) هذه الصناعات كانت دائماً صناعة أصحاب السلطة أنظر : النجاني ص ١١٣.

(٣) النجاني : ص ٩٦.

(٤) البكري : ج (٢) ، ص ٦٦٦.

(٥) الاستيصار : ص ١١٣

(٦) المقدمة ، ص ٣١٣.

(٧) المصدر السابق - نفس الصفحات.

(٨) المقتوي : البلدان ، ص ٢٥٤

(٩) الإدريسي : ج (٢) ، ص ٣٧٦

(١٠) النجاني : ص ٨٦ - ١٠٤ مثل أيام حشم بنى جامع عندما عملوا جيشاً لهم وأسطولاً حربياً وبحارياً.

(١١) بشر يوشع : وثائق تجارية من عداس - ص ١١

(١٢) النجاني : نفس الصفحات ، والإدريسي بقية ص ٧٣.

صناعات أخرى :

وهي صناعات بيئية وريفية قائمة على المنتجات الطبيعية فهي قابس مثل صناعة المعمار، مثل قطع الأحجار وتذهيبها^(١) على قطع بمقاسات مختلفة، وكذلك الأجر وصناعة الصبغات المختلفة القائمة على بعض النباتات مثل نبات الفوة^(٢) وصناعة نسيج اليزمون الذي اختصت به منطقة قابس وطرابلس^(٣) ويصنع من اللحاء الطري للخروع، وصناعة الورق من نبات الحلفا البرية واللوتس المشهورة به قابس وجربه منذ زمن بعيد^(٤) وصناعة قامت على سعف النخيل والبوص مثل الأسبقة والقنف والحقائب^(٥) وصناعات أخرى مثل تسفير الكتب خاصة كتب الفقهاء المذاهب المتنوعة مثل الإباضية^(٦) وصناعة الأنوال وكل ما يلزم من أدوات الصناعة المختلفة وصناعة سروج الخيل والابل والبغال وصناعة النحل والغربال لتتقية الدقيق من الشوائب^(٧).

صناعة الحرير :

ازدهرت هذه الصناعة في قابس إلى وقت الإدريسي^(٨)، " وكان بها - فيما سلف - طرز يعمل بها الحسن. " وأخفق الموحدون في إحياء تلك الطرز في قابس على الرغم من نجاحهم في إنعاش إنتاج الحرير بها / يتضح من قول الإدريسي^(٩) أنه كان بها طرز - فيما سلف - كلمة طرز تعني دور الطراز وهناك نوعان من الطرز، طرز الخلافة والطرز الأهلية^(١٠)، وبما أن حرير قابس من أطيب أنواع الحرير ولا يعمل إلا بها في كل أفريقية^(١١)، فمن المؤكد أن طرز قابس كانت تابعة للخلافة وتصنيع ما يلزم الخلفاء وقصورهم من الحرير^(١٢)، ولا تخبرنا المصادر عن مكان دور الطرز ومصانع الحرير ودور الطراز الخاص بالخلفاء، لكن الإدريسي^(١٣) أشار بأن قصر سجة وتلك المدينة الصغيرة المتحضرة التي تبعد عن قابس بثلاثة أميال، وبها من ناحية البحر - مثل قابس - سوق وياعة وحريريون كثيرون^(١٤) غلا أننا نلاحظ توقف صناعة الحرير في قابس، ولم يذكر أي من الرحالة الذين زاروا قابس خلال قيام الدولة الحفصية أن بها دورا للطراز على أن عثمان الكعاك^(١٥) ذكر أن جالية أندلسية قد استوطنت تستور على تنهر مجردة في أواخر الدولة الحفصية وقاموا بزراعة أشجار التوت في تلك

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث من - يستعمل في بناء الدور والمنازل في قابس: البلطوطي: العمارة السكنية في الجنوب التونسي - مجلة المآثورات

الشعبية عدد ١٩٩٤ ٣٥

(٢) هذه الصناعة نادرة جداً وهي ضمن أهداف التينيتين منذ وطأوا هذه الأرض

أنظر: موسوعة تاريخنا، ج ٣، ص ١٠٣.

(٣) التوسباني: ورقة ٤٨ -

(٤) قيل عن منطقة قابس حربة أنه أكل اللوتس - المرزوقي: قابس حبة الدنيا ٢٠-٢٤

(٥) وهذه غالباً ما تكون على ضفاف الأنهار وتنتجها قرية سني - المرجع السابق ص ٧٢

(٦) المخطوط السابق: ص ١٤٩.

(٧) Revault Art traditionnel de gabes P. 83.

(٨) الإدريسي نزهة: ج ٢ ص ٢٧٩ - صاحب الاستبصار ص ١١٢-١١٣

(٩) عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي .. ص ٢١٧.

(١٠) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة

(١١) البكري: للمالك: ج ٢، ص ٦٦٧.

(١٢) كانت قابس أيضاً تخرج بالقصور والدور التخمعة للولاة والوزراء بنى خلفاء بني هلالين ووزرائهم وكبار القوم من التجار واليهود وغيرهم .. إلخ.

(١٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(١٤) يستعمل الإدريسي هذه الكلمة بعمومية، فقد يعني بها تاجر الحرير والصناع وكل من يعمل بها من أول القائمة بعمل دود القز.

(١٥) عثمان الكعاك: الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط - ص ٧٧.

المنطقة ، ومن ثم أحيوا صناعة الحرير فيها ، حيث قاموا بنسجه وتطريزه ، وقد اكتسب حريرها شهرة عظيمة سواء حريرا خالصا أو مخلوطا بالصوف ولقد كانت تونس تقوم بصناعة المنسوجات من الحرير الخالص المرسل إليها من قابس والمخلوط بالقطن أو بالصوف الأبيض الناصع ، وتصنع من هذه المنسوجات الملابس الفاخرة التي تباع للطبقات المتيسرة ، ويطلق على الثياب المصنوعة من هذه المنسوجات اسم " السنساري " (١) .

كما اشتهرت مدينة قفصة غرب قابس بصناعة أنسجة الحرير الجيد المستورد من قابس ، وبمدينة طرابلس ، حيث كان قوم فيها حوالي مائة وخمسون صناعة من هذه الصناعات (٢) وقد ظهر نوع من الثياب في أفريقية يسمى بالثياب الرفيعة الملوكية بمدينة صفاقس وقابس ويصنع هذا النوع من النسيج المأخوذ من حيوان مائي ينمو على حجارة في قاع البحر المتوسط على هيئة كمائم شبيهة بالبصل بأعناق في أعلاها ، ويغوص الغواصون في البحر ليخرجوا هذه الكمائم ، ويتم نشرها في الشمس حتى تتفتح هذه الكمائم ، ويظهر وبرها فتمشط ، تؤخذ لتعزل وتصنع منها الثياب الملوكية المختمة وغير المختمة ، وكان يباع الواحد من تلك الثياب بمائتي دينار ، ولندرة هذه الثياب حرم الخلفاء في أفريقية حملها إلى البلاد المجاورة (٣) وقد صاحب ازدهار صناعة المنسوجات بأفريقية ازدهار صناعة أخرى متصلة بها هي :

صناعة المنسوجات :

فقد عرف السكان الألوان الأساسية والمركبة من أحمر واسود وأبيض وأصفر وجوزي - مركب الأخضر والأسود - ومن مواد الصناعة النيلية والقرمز والزعفران (٤) والقوة أو الدرادر .

وقد اشتهرت مدن أفريقية - وبخاصة قابس - بالصباغة وأتقن الصناع صباغة المنسوجات والجلود ، فقد كانت هي وتوزر مركزا لصباغة المنسوجات ، فقد ذكر الثجاني (٥) عن وصفه المنتشر بها أن الصباغين يجتمعون فينشرون للثياب الملونة والأمتعة الموشية على الأشجار بجانب الماء بعد وضعها فيه ، فيمتلأ المكان بهذه الثياب فيتخصل للناظر أنها روض تفتحت أزهارها .

وتتفاوت أسعار الأصباغ بتعدد ألوانها ، وذلك للتفاوت إما الصعوبة تركيب تلك الألوان أو لعدم وجود مادتها مما يوجب استيرادها (٦) .

وهكذا نجد أن سكان منطقة قابس وبلاد الجريد قد اكتسبوا منا ومهارة في صناعة المنسوجات وصباغتها بالألوان الزاهية البسيطة والمركبة ، مما جعل الصانع يحرص على وضع خاتمه على ما يصنعه حرصا على عدم تقليده أو سرقة (٧)

(١) د. عبد العزيز الدولاطي : مدينة تونس ص ٦٩ .

(٢) عثمان الكماك : الحضارة العربية ، ص ٧٧ .

(٣) أنظر : وصف ابن سعيد الذي شاهده في كتاب الفلشندي : صبح الأعشي ج (٥) ص ١٠٤ .

(٤) الفلشندي : صبح الأعشي ، ج (٥) ، ص ١٤٢ .

(٥) الثجاني : الرحلة ، ص ١٥٨ .

(٦) د. عز الدين أحمد ، النشاط الاقتصادي ، ص ٢٣١ .

(٧) الصفاقسي : نزعة النظار : ص ٣٥ .

التمر : يصنع العرب والبربر في قابس التمر بوضعه في دناناث (١) وحفظه مدة من الزمن ثم يفتحونها فيجدون تحت قوحتها عسلاً جنيًا (٢) فيستفيدون منه كما يفصلون نوى التمر لعلف ماشيتهم (٣) ثم يصنعون العجوة من التمر.
صناعة الزيوت والصابون :
انتشرت صناعة واستخراج الزيوت من المحصولات الزراعية وخاصة من الزيتون في مدن أفريقية إلى جانب قابس الزيتون :

اشتهرت قابس كمركز واسع لاستخراج الزيت الزيتون وحفظه فتغلّبت على شهرة صفاقس في ذلك كثرت معاصرات الزيت في أنحاء قابس وواحاتها مثل الزارات كنانة ، حامة قابس ، شانشو ، واحة ذريق (٤) مما يدل على وفرة كفايتها في قابس فكثرت المعاصر التي تعصر الزيتون استخلاص وتعمل في استخلاص زيت وتجهيزه (٥) ، ثم إلى جانب ذلك حفظ الزيتون الذي كانت صناعة من الأسباب الأساسية لغزو الرومان لأفريقية (٦).
وقد تقدمت قابس وباقي الصناعة الزيتية منذ عهد الرومان الذين استعمروا أفريقية ، وقد اشتهر بزيوتها الجيدة الزكية الطعم والرائحة وكان لزيت الزيتون أهمية كبيرة إذ يعتبر مادة غذائية هامة لكثير من السكان ، إلى جانب الاعتماد عليه في إضاءة المنازل والقصور والطرق والأسواق ، وبهذا الاعتماد عليه في صناعة الصابون.
وقد اتبع أهل قابس طريقة العصر أو الطحن المتبعة في الإريقية بصفة عامة لإستخراج الزيت الزيتون وقد انتشرت المعاصر في أفريقية ، وكثيراً ما تكون هذه المعاصر تحت الأرض ، وهي عبارة عن رحية من الحجارة الصلدة القوية التي تصنع من حجارة مدينة المرو - يحركها دابة من الدواب - الحمير والبغال - حتى يصبح الزيتون كالعجين ثم يقوم الرجال الضغط على هذا العجين المهروس بسواعدهم فيتصيب الزيت منه في أوان خاصة به (٧) إذن فالقابسيون والصفاقسيون من صناع زيت الزيتون منذ القدم ، ففيهما أهم مراكز عصر الزيتون في أفريقية ، إنتاج زيت الزيتون الذي كانت المراكب تحمله إلى بلاد أوروبا لشهرته العظيمة (٨) ، على أن الثجاني (٩) قد نفى وجود أشجار الزيتون بصفاقس ويرجع سبباً ذلك إلى الأعراب الذين أفسدوا غاية الزيتون الموجودة بها واقتلاعهم أشجارها ، لكم الحفصين قد عملوا على تطوير زراعة الزيتون بها ، فيغرسوا أشجار الزيتون بالقرى المجاورة لقابس (١٠) فانتعشت زراعة الزيتون بها مرة أخرى ، ومن ثم انتعشت صناعة عصر الزيت كذلك انتشرت معاصرة الزيت بجزيرة جريه (١١) حيث الزيت الطيب النقي الذي يعم سائر مدن أفريقية وكذلك بمدينة سوسة (١٢)

(١) آنية من الفخار - تشتهر قابس بصنعها.

(٢) تج الإدريسي : لزهة ٥٥ ج (٢) ص ٢٧٩.

(٣) إدريسي : الدولة الصنهاجية ج (٢) ، ص ١١٣.

(٤) أنظر الخريطة ، وأنظر المروئي قابس ، ص ٢٤

(٥) المصدر السابق : نفس الجزء والعنفة

(٦) الوزير السراج الحلال السنسية ، ج (١) ، ص ٢٣١.

(٧) الثجاني : الرحلة ، ص ١٢٢.

(٨) مجهول ، الاستيعار ص ١١٦

(٩) الثجاني ، الرحلة ، ص ٦٨.

(١٠) الثجاني : الرحلة ص ١١٩

(١١) الثجاني : الرحلة ص ١٢٢

وقصة حيث معاصر الزيتون التي يوجد بها الزيت جيد المذاق جميل اللون. (٢) أما صناعة الصابون فقد توافرت عوامل قيامها في قابس ومدن أفريقية ، ويذكر هذا أن كمية الإنتاج الكبيرة من الزيت خلال عصر بني حفص أدت إلى ازدهار صناعة الصابون بنوعيه الأسود والأبيض ، على أن صناعة الصابون الأبيض كانت محرمة على السكان ، وكان يصنع في مكان معلوم بتونس بأمر من السلطان الحفصي ولا يباع إلا فيه حتى جاء السلطان أبو فارس عزوز - كما سبق الذكر وإباح صناعة الصابون الأبيض العامة (٣) ، كما اشتهرت جريه بعمل الزيت الجيد بعد صناعة تجفيف العنب (الزبيب).

صناعة الروائح والعطور :

اشتهرت مدن أفريقية ، وبخاصة قابس لانتشار البساتين والورود بها ، بصناعة العطور والروائح المختلفة لاهتمام أهلها بالتطيب وتعطير أنفسهم بالروائح الجميلة ، ولذلك اشتهرت مدينة قفصة غرب قابس بصناعة ماء الورد (٤) ، واستخراج الينفسج (٥) كما برع أهلها أيضاً في تقطير الروائح ومن حسناتها وجودتها كانت تصدر إلى مصر (٦).

صناعة السمن والجبن :

كانت هذه الصناعة تقوم أساساً على وفرة الماشية والأغنام واليت تدر كميات كبيرة من الألبان التي تصنع منها السمن والزبد والجبن ، وقد اشتهرت مدينة قابس بكثرة سمنها نظراً لكثرة مواشيتها ، وكانت كميات كبيرة منه تنقل إلى تونس وجزيرة جريه وكل السواحل الأفريقية من كثرته ووفرة إنتاجه.

المصنوعات الجلدية :

وهي تعتبر من الصناعات الهامة في قابس بعد صناعة المنسوجات وعصر الزيتون وتشكل المصنوعات الجلدية نسبة كبيرة من صادرات قابس ، والمصنوعات الجلدية تعتمد أساساً على وفرة الثروة الحيوانية والتي توفرت في قابس نظراً لانتشار المراعي الخضراء بها ، وبسبب وفرة هذه المادة الخام يتم تصدير الجزء الأكبر منها للخارج ثم الاستفادة من الفائض والباقي في تزويد الصناع كالحذائين والسراجين بحاجتهم لصناعة الأحذية التي ينتعلها الجنود والضباط وشيوخ الأعراب ، وكذلك صناعة النعال والسروج وجلود الكتب (٧) وقد اشتهرت قابس وقفصة بدبغ الجلود ونقشها وزخرفتها (٨) واشتهرت تلك الجلود بطراوتها ورائحتها الزكية وإلى هذه المدينة ينسب جلد الوعل (الروي) الذي تصنع منه نعال شديدة الليونة والمتانة ، وهي عريضة النعل لكي يتمكن لابسوها من تجديد نعال الحذاء عدة مرات (٩) كما اشتهرت بدبغ الجلود وخاصة جلود الأغنام والماعز ، ولجودة جلدها وليونته ورقته وصف " بأنه كالحرير" واليت كان السكان يصنعون منه ثياباً يبيعونها للمسافرين.

(١) الصفاقسي : نزهة النظار ، ص ٤٣.

(٢) الحسن الوزان ، وصف أفريقية ، ص ٥١٥ ، ٤٧٨.

(٣) الترمذاني ، تحفة الأرب ، ص ١٤.

(٤) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٥٤.

(٥) الفلشندي ، صبح العشي / ج (٥) ، ص ١٠٧.

(٦) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٥٤.

(٧) د. / عبد العزيز الدولابي ، مدينة تونس ، ص ٦٩.

Revault : j` est trachlnonnch tunis jz 5

(٨) الإدريسي : نزهة ج ٢ - ص ٢٨٦.

(٩) الفلشندي ، صبح الأعشي ، ج (٥) ، ص ١٠٧.

مدابغ الجلود :

صناعة الجلود قديمة وأهل قابس متمكنون فيها وهم يستعملون مادة القسوط^(١) ، وهم ينتجون الكثير منها حتى أنها تهم أكثر المغرب وهي مصنوعة بطريقة جيدة وتأتي من طيب الرائحة ونعومة الملمس^(٢) مثل حال الأديم الجرش^(٣) ، ما لم تحدثنا المصادر عن المصانع أو الدور التي كانت تدبغ فيه تلك الجلود لكن من الواضح أنها كانت بالجانب الغربي من الأسواق خارج قابس بحيث يصنع ويعرض فتتوحد رائحته ، وكذلك وجدت صناعات محلية عرفت بها قابس كصناعة السروج^(٤) وما يوضع على ظهور وجوانب الدواب وغالباً ما يشتغل بها البربر والعرب الذين يسكنون الأرياض والبادية^(٥) حيث تكثر الإبل والبغال والخيول الأصيلة^(٦).

صناعة الورق والأحبار :

اهتم أمراء قابس وخاصة الحفصيون اهتماماً كبيراً بتنشيط الحياة العلمية فقاموا ببناء المكتبات واقتناء الكتب ، ولقد بلغت الحركة العلمية درجة عالية من الرقي والتقدم في عهد السلطان أبي زكريا الحفصي ، مما أتاح الفرصة لصناعة الورق والأحبار لتتھض ، وأصبحت أماكن صناعتها وبيعها تحتل الأماكن القريبة من الجامع الكبير ، وقد عرفت أفريقية صناعة الورق المنقول إليها من الشرق ، واشتهرت قابس بصناعة الورق من الكتان^(٧) بدليل وجود سوق خاصة للوراقين تتوفر بها جميع الأدوات اللازمة للكتابة من أحبار وورق وخلافه ، وقد أشار ابن دينار^(٨) أن أبا بكر قد باع الكتب - التي بالقصبة والتي جمعها الأمير أبو زكريا يحيى في سوق اللوراقين بمال جزيل . كما اشتهرت رباطات قابس بكثرة الورق بدليل كثرة النساخين فيها^(٩) وحمل الكتب الدينية مع القوافل.

صناعة الزجاج والخزف :

ازدهرت صناعة الزجاج والخزف في قابس ومن أفريقية ويرجع ذلك إلى نهضة حركة البناء وإقامة القصور والجوامع وما يستلزم ذلك من تزويد هذه المنشآت بالقناديل والزجاج. وقد اشتهرت قابس وجريه وتونس بصناعة أوان للماء من الخزف والتي كانت شديدة البياض وغاية في الرقة^(١٠) وكان يصنع أيضاً الخزف الجيد بمدينة قفصه خاصة أواني الماء التي تعرف باسم الرحيحة وهي أوان رقيقة بيضاء^(١١) ، ولقد كان لجريه شهرة كبيرة في صناعة الخزف لانتشار الصلصال اللزج حول الجزيرة وتميزت بصناعة الألوان الخزفية للزيت والماء ، وكانت تصدر إلى تونس وطرابلس من جودتها وحسنها^(١٢).

(١) القسوط شجر ينبت في بلاد العرب وتؤخذ أولقته لينبغ في الجلد - المعجم الوسيط ج ٢ - مادة قال.

(٢) الأدرسي نزعة المشقان: ج ١ - ص ٢٨٠

(٣) وهي مشهورة بنوع من الجلد لا يضاهيه جلد آخر - المعجم الوسيط ج ١ - مادة جيم.

Revault J les Arts ... ibla v.6 1851 P 160-168

(٤) ابن حوقل سورة الأرض ص ٧٠-٧١

(٥) رسالة الجرسيتي في الحسبة ت. ح. levi provensal ص ٣٥-٣٩

(٦) حسن حسني عبد الوهاب ، وراثت ، ج (٢) ، ص ١٦٤ .

(٧) ابن دينار : المونس ، ص ١٣٤ .

(٨) الغريبي : عنوان الدراية ، ص ١٢٤ ، ١٢٤ .

(٩) ابن أبي دينار : المونس ، ص ١٢ ، دائرة المعارف ، ج (٦) ، ص ٣٤ .

(١٠) الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٥١٥ .

(١١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج (٥) ، ص ١٠٨ .

نظراً لترسب الطمي الجيد الكثير حول الجداول والوديان ^(١) ، وانتشرت في باقي البلاد الأفريقية فصبغت الأواني المزججة بخطوط ذهبية ^(٢).

وكان الصناع بارعين في صنع الفسيفساء منذ القدم حتى أنه يمكن معرفة حضارة أفريقية القديمة من خلال آثار القطع التي وجدت حول قابس ^(٣) ، وكذلك الزليج المدهون لفرش الدور وهم يقيمونه مقام الاخام ، وكذلك صناعة الزجاج الراقي والخزف الأبيض الذي اشتهرت به قابس وقصص ويعرف باسم الربحية ^(٤) ، ومثله مثل الصناعات الأخرى مثل القرميد ^(٥) والأواني الزجاجية والخزفية ^(٦).

وقد أدخل الأندلسيون صناعة الزليج (القيشاني) ، إلى أفريقية ، وقد برع سكان أفريقية في صناعة الزليج بجميع أشكاله ، وكان يستخدم في قصور الحفصيين ، وفي القرن الخامس عشر الميلادي - التاسع الهجري - ظهر رجل أندلسي اسمه قاسم الجليزي " أبتدع الزليج ذا الخزف البارز ^(٧).

صناعات بيئية قديمة :

كانت بقابس صناعات قديمة مثل صناعة البسط وهي تعني صناعة سجاجيد وأغطية وثياب ، وهي من الصوف تسمى صناعة المرجوم ^(٨) وهي صناعة بربرية أولية ، ثم أدخل البيزنطيون صناعة سجاد عالي الوبر متوفر الزخارف الخاصة به ^(٩) ، ثم أدخل العرب صناعة السجاد العربي الذي يشتمل الزخارف الهندسية المستقيمة المنحنية والزخارف النباتية والحيوانية ، وأفضلها الذي يصنع من الصوف ذي الألوان الطبيعية ^(١٠).

ثم صدرت تلك الصناعة إلى الآفاق كصناعة تقليدية اشتهرت بها قابس وجريه ومدن أفريقية ثم صناعة الأغطية ^(١١).

وتلك الصناعة يمزج بخيوطها الحرير . ومجلس التويزة - كما هو معروف بعكس عادات جنوب أفريقية وقابس - فالنساء يجلسن في مكان فسيح أو حوش منخفض ليعملن عملاً تكاملياً ليخرج المنتج في أبهى صورة ، فهنا نقل الصوف بمعزل يدوي ^(١٢) ثم غسله وغزله بالمغزل ، ثم تنسجه على نول مكون من قائمتين على خشبه عريضة ترتكز على الحائط وترتب الخيوط طولياً وعرضياً ، وتجلس المرأة لتعمل بهمة مستخدمة أدوات مثل (الكرداش والمشط والقاريمة

^(١) الشجان ، ص ٨٦ ، ابن سعيد : بسط الأرض ، ص ٧٩

^(٢) لقد ظلت هذه الصناعة إلى اليوم ، وحصلت جريه على المركز الثالث عالمياً هذا العام في معارض ألمانيا (برنامج على قناة تونس الفضائية) .

^(٣) عز الدين عمر : النشاط الاقتصادي : ص ٢٥٤ .

^(٤) أنظر : المنجي النير الحضارة التونسية من خلال الفسيفساء

^(٥) المرجع السابق : نفس الصفحة

^(٦) الاستيصار : نفس الصفحة .

^(٧) أحمد بن عامر الدولة الحفصية ، ص ٩٧ ، ص ١١ .

^(٨) المرجوم : هو المرقوم ، ولكن ينطقونها بالجمع مثل قابس تنطق جابس باللهجة المحلية وكلمة المرقوم تعني بها بعد طريقة العمل ومساحته بالأرقام على

النول وبمى الصناعة بالرقام أو الرجام .

أنظر . Hesperisi Le Reggame Tom V. 1922, P3 73

^(٩) عثمان الكمال : الحضارة العربية في حوض المتوسط ، ص ٧٢ .

^(١٠) المرجع السابق ، نفس المكان ، وقد وصف الشجان ص ١١٣ أصواف جريه بالمعمورة .

^(١١) نفس المرجع ، هذه الأغطية حملت أسماء محلية اختلفت منها الأسماء الأجنبية مثل الحشة والمطرح ومطرز والفرنسية Matelas والسادي بالأسبانية

Almo hada وبالتونسية المعدة - وتسمى غطاء الفراش بالفرنسية ، وفي بعض لهجات جزر المتوسط Lacama من الإقامة بطرح الأول يصمم

قائمة : أنظر : نفس المرجع ، نفس المكان .

^(١٢) العتيان : عتبة الذاكرة ، ص ١٤٣ .

والتومة^(١) ، وهناك لجانبهم دائماً امرأة عجوز تحكي لهم الأقاصيص وتصنع لهم المشروبات الساخنة والأطعمة حتى لا يحسسن بإرهاق أو تقوم بتدفئة المكان في الشتاء بواسطة الكانون^(٢) كذلك وجد في الأسواق المخصصة رجال يعملون هذا العمل مثلما في أسواق جريه والحامة ويصنعون البسط^(٣) ، والمرجوم والجبة والبرنوس والباج نوع مختلف الأغطية.

صناعة العاجيات أو سن الفيل (الفيل أفريقي أو آسيوي) وهو موجود قرب قابس^(٤) لذا كانت تلك الصناعة تمتاز بها أفريقية وبخاصة قابس ، وتجلب القوافل الآتية من السودان سمّد الفيل والعاج ، وبعض مصنوعات العاج ، متمر بقابس ولا تسعنا المصادر بمعلومات عن هذه الصناعة سوى جلبها من السودان ، وصناعة العاج موجودة عن الخراطين بسوق الخراطين بتونس^(٥) ونظراً لوجود غابات حول قابس ، فمن المؤكد أن الصناعات الخشبية قد قامت بها مثل السفن ، وقد كان للحسن بن يحيى مركب يسميه نصف الدنيا^(٦) ، كذلك صناعة الأسلحة ، فقد ورد ببيت شعر أورده الثجاني أن بنى جامع حكموا قابس بالمشرفيات والقواطع^(٧) . كذلك المجانيق وغيرها^(٨).

صناعة السفن والمنجنيق:

تعتبر صناعة السفن من أهم الصناعات التي قامت في قابس وباقي مدن أفريقية ، سواء كانت للحرب أو للتجارة والصيد ، وقد ارتبطت هذه الصناعة بطبيعة موقع قابس البحري وكثرة جزرها ومجاورتها للبلاد المسيحية الأوربية التي كانت تشن عليها الغارات كثيراً.

وقد تركزت صناعة السفن في مدينة المهدية وتونس حيث وجد بها داران لصناعة السفن والمراكب - هذه الصناعة ربما كانت أيام بنى جامع لوفرة الأخشاب في غاباتها وكثرة الزفت والقطران في جبلها ، وتوجد بها دار لصناعة المراكب وإنشاء السفن.

وأبرزها سفينة رافع التي كانت تشكل خطورة على سفن بني زيري ، كما نجد صناعة السفن أيضاً في قصر محرس شمال قابس ، ونتيجة هذه الصناعة أصبح معظم سكانها من البحارة الذين يخرجون على مراكبهم^(٩) ويجوبون الخليج طولا وعرضا ، ومن المحتمل أن هذه هي دار الصناعة لبنى جامع.

وقد ظهرت أيضاً صناعة الألواح الخشبية المصنوعة من الخشب والتي تستخدم في صناعة الأثاث وغيرها من الصناعات التي قامت على الأخشاب كهياكل السروج^(١٠) والأقلام^(١١) وقد ظهرت صناعات أخرى في قابس وأفريقية ، منها صناعة الشمع الذي يجلب من الجبل ، جبل قابس والذي يمتد إلى طرابلس ، وظهرت المكاحل والإبر والأقفال ، وكذلك صناعة الحلفا^(١٢) أما صناعة المجوهرات وحلي الزينة في قابس كانت تتركز حول الجامع الكبير كما في تونس^(١٣) ولقد استخدم الحديد في صناعة بعض الأدوات البسيطة كالمقصات والسكاكين

Revault L'art traditionnel en tunnise, P.2:14. (١)

Revault les mêmes . (٢)

P. Précédent. (٣)

عثمان الكعك : الحضارة العربية ، ص ٨٣ ، ولد جلب الفوائد الفطاحني النيلة من السودان للهجوم على رومة وكانوا في قابس. (٤)

المرجع السابق ، نفس الصفحة. (٥)

الثجاني : الرحلة ، ص ١٠٣. (٦)

المصدر السابق ، ص ١٠٢. (٧)

نفس المصدر ، ص ١٠٦. (٨)

الحسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ص ٤٦٦. (٩)

أحمد بن عامر الدولة الحفصية ص ٩٧. (١٠)

ابن سعيد بسط الأرض ، ص ٧٧. (١١)

أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٩٧. (١٢)

تونس^(١) ولقد استخدم الحديد في صناعة بعض الأدوات البسيطة كالمقصات والسكاكين ومقابض الأبواب والمطارق والمحاريث والسلاسل والشبابيك ، وصناعة المطاحن التي برعوا في صناعتها ، هذا إلى جانب شهرتهم في صناعة الخبز من العجين ، حتى أن الرغبة الواحد من هذا الخبز وضع بين جماعة من الناس لكفاهم حتى ولو كانوا أكثر من عشرين ، ويطول ، مكث هذا الخبز لمدة شهر أو أكثر^(٢).

أسواق داخل المدينة :

تصطف الأسواق المغلقة كما ذكرنا في صفوف متتابعة لتكون حارات ضيقة متصلة ببعضها البعض : حيث تعرض مختلف السلع والمنتجات ، وذلك في الأحياء القريبة من المسجد الجامع^(٣) والتي أصبحت تحمل فيما بعد أسماء الحارة والمنزل^(٤) ، والتي مازالت إلى اليوم ، وتوجد أنواع كثيرة من الأسواق ، أما ساحات تفسحية مكونة من باكايات مسقوفة كل جزء منها لسلعة ما ، إما كما ذكرنا سابقا - الأسواق المغلقة Caséirc بها مصانع^(٥) ، إما صفوف طويلة كل صف مخصص لسلعة ما أو صناعة ما ، أو تكون عن الصانع فيعرضها في حوش بجوار مكان الصناعة ، وغالبا ما تكون الصناعات الصوفية وأغلبها التي تعمل بها المرأة (في مجلس التوزيع)^(٦) ، كذلك الجبة التونسية^(٧) وقطع الثياب المطرزة ، كذلك قطع المرجوم والكليم والبساطين والملاءات المطرزة وأغطية الفراش (الفراشية) ومختلف أنواع العطور وما يلزم الأفراح من حناء وشموع والثياب الذهبية والفضية^(٨).

* أسواق الأرياض :

يقول البكري^(٩) وجل أسواقها في أرياضها في الأرياض خارج المدينة تكون الصناعات وبالتالي أسواق المنتجات التي يخشى من وجودها في المدينة عملا بالمبدأ الإسلامي " لا ضرر والأضرار"^(١٠) مثل الحرير وما يحتاجه من مكان وأدوات ومصانع ، ويذكر الإدريسي^(١١) عن قصر سجة أن فيه حريرين كثيرين. كذلك مصانع الدباغة حيث يؤتي بجلود الحيوانات المذبوحة وتأخذ عدة مراحل في مكان أو مصنع خاص بها إلى أن تصل للمرحلة النهائية وهي جلود مدبوغة ذات رائحة عطرة تميزت بها قابس وتفوق جودتها عن أي جلود أخرى ويستعمل فيها شجر الناكوت القداسي^(١٢) ، بالإضافة إلى صناعة الرمد أو الرقوق التي تستهلك جلودا كثيرة من الماعز^(١٣) ، وانتشرت صناعتها عندما كان الحصول على البردي صعبا^(١٤) ،

(١) ابن أبي دينار : تونس ، ص ٣٠٥.

(٢) مجهول ، الاستبصار ، ص ١٩٥ ، والمصدر السابق ص ٣١٥.

(٣) مثلما في القيروان وتونس : أنظر Revault l'art traitionnelle P. 20-31.

(٤) المرزوقي : قابس ، ص ٧٣ ، وحسين حسين عبد الوهاب ، وراقات ، ج (٢) ص ٧١.

(٥) أنظر ص من هذا الفصل.

(٦) العتيان : عينة المذاكرة ص ١٦٣.

(٧) تشتهر هذه الجبة في كل أنحاء أفريقية في الوقت الحاضر يوم سنوي هو ٧ مارس من كل عام أمة يوم الجبة التونسية تترددها الجميع من أول الرئيس التونسي إلى

الأطفال "الفتاة الفضائية التونسية / تونس ٧"

(٨) المصادر والمراجع السابقة - وأنظر revault: ibid j20-30 - وعثمان الكماك الحضارة... ص ٦٠ - ٦١ .

(٩) المسالك ، ج ٢ ، ص ٧٧٦

(١٠) صالح المملوك : ص ١٨١

(١١) نزهة المشتاق : ج ١ ، ص ٢٨١

(١٢) يأتي من مدينة غدامس.

(١٣) الدباغ : معالم الإيمان ، ج ٣ ، ص ٢٢٣

(١٤) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٢١-٢٢٤

وقد برعوا في صقل الرق وتحضيره (١).

أسواق المرفأ :

أسواق الساحل والمرفأ موجودة منذ وجود قابس حيث كانت دائماً مصرفاً تجارياً لمختلف أنواع السلع التي تحملها سفن البحر المتوسط وتدخل خليجها ، أو السفن التي تحمل سلع قابس ومنتجاتها إلى الشرق وجميع أنحاء البحر المتوسط ، وإذا كان هنري بيرين Henri Prenne قد زعم أن وجود المسلمين في منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط كان عاملاً من عوامل فصل غربي أوروبا عن شرقها ووضع نهاية لوحدة البحر المتوسط الذي تحول غربية إلى بحيرة إسلامية ولم يعد يؤدي دوره التجاري والفكري الذي كان يقوم به قبلاً (٢) فقد أثارت نظرية بيرين جدلاً شديداً لكن هذا الجدل كان يقتضيه معرفة التأثير المباشر للانتصار الإسلامي والسيطرة التي حققها المسلمون على الأحوال الاقتصادية في الشرق الأدنى ذاته ، إن بيرين استمد نظرية هذه من محاولته لفهم علاقات مسلمي الشرق الأدنى بغرب أوروبا ، لم يجادل فيها سوى عدد قليل من المتخصصين في التاريخ الإسلامي ، مثل دانييل دينيب Danial Denette ، وإيلي اشتور Elie Ashtro (٣) وكاهن Claude Cahen أما المؤرخ الفرنسي لومبارد M. Lombard (٤) ، فتعارض نظرية Pirenne إذ يرى أنه بسبب الفتوح الإسلامية استعاد الغرب صلاته التجارية والثقافية وكذلك من خلال التجار العرب ويرى ارشبالدولويس Archibald Delouise (٥) أن البيزنطيين هم المسئولون عندئذ فيرو وحدة البحر المتوسط . لقد كان ساحل قابس مرفأ للسفن الآتية من كل حذب وصوب (٦) وترسو القوارب بواديها (٧) .. ويسع المراكب الصغيرة والمتوسطة (٨) ، إن قابس تقع على خليج مما يبدو أن السفن الكبيرة كانت ترسو في الخليج بعيداً عن المرفأ ومنها تنقل السلع والمسافرين بواسطة السفن الصغيرة والزوارق عليها جماعة قابسيون يفهمون في عبور خليج بلدهم ودارسون لمل أحواله الملاحية ويوصلون السلع والتجار والمسافرين بمهارة إلى المرفأ إلى وبالعكس (٩) وقد نصت إحدى ماهرات دى ماس لاتري Demas Latrie على صولتهم ونسبة معينة من السلع والبضائع التي ينقلونها (١٠) كانت أسواق المرفأ تعج بالبضائع ومختلف السلع ، حافلة بالفنادق والحمامات (١١) والمصاريف التي تتعامل بالعملة الذهبية والفضة وكان بهذه المصاريف يهود كثيرون يعملون جهابذة (١٢) كذلك كانت توجد فنادق خاصة بالأجانب وجمرك لتنظيم التجارة الملاحية وحفظ كل الحقوق المتعلقة بها عن طريق إجراءات متبعة (مثل جمرك اسكندرية)

(١) ح. حسني عبد الوهاب. وثقات ، ج ٢ ص ٢٧.

(٢) henri preenne Mohamed et charlemagne p31 c.t 1972.

(٣) انظر محمد صبحي عيسى الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢٤ وما يليها.

(٤) الإسلام في مجده الأول ترجمة : إسماعيل العربي ، ط (١) ، المقدمة ، وانظر المربع السابق ، نفس الصفحات.

(٥) القوى البحرية : ترجمة : محمد شافق غربال : مقدمة الترجمة للمترجم.

(٦) المرزوقي : قابس ص ٥٢.

(٧) البكري : المسالك ، ج (٢) ص ٦٦٧.

(٨) الإدريسي : نزهة .. ج (١) ، ص ٢٧٩ ، ٢٨١.

(٩) انظر سامي سعد ، الأسس الاقتصادية .. ماجستير بأداب القاهرة ١٩٦٨ م ص ١٦٢ : ٢٠٣.

(١٠) دماس لاتري ، P. 32 - 34. Traite de paie etde Commerce.

(١١) انظر المصادر السابقة - نفس الصفحة.

(١٢) مفرداً جهيد ، وهو لفظ من أصل فارسي أي خبيراً وخبراء في المال كما تطلق على جماعة مستبدل الأموال أو الصيارف كما كان الجهد مصراف

القرية أو المدينة والقصر .. انظر نعيم زكي : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب ، ط القاهرة (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) ص ١٨.

كان الإجراء الأول:

- (١) معرفة جنسية السفن
- (٢) إحصاء عدد من عليها
- (٣) كتابة قائمة بأسمائهم والسلع التي يحملونها
- (٤) تبليغ كل هذه المعلومات لوالي قابس^(١).

والإجراء الثاني :

بعد أن تدخل السفينة الخليج ترفع عنها شرعها ودفتها وتحفظ لدى السلطات لحين التحقق من بياناتها ولا تسلم إلا بعد دفع ما عليها من رسوم وضرائب^(٢) ثم السماح للرياح والركاب بالنزول للمرفأ بعد إعطائهم الإذن في أحوال الحرب (مثل أيام هجوم النورمان) كان العمال يشتدّون في التفتيش خوفاً من وجود أسلحة كذلك المراقبة الدقيقة ، وكان هناك مكان للحمام الزاجل لاستعماله في إرسال الرسائل عند اللزوم.^(٣)

التجارة الخارجية

تجارة قابس مع مدن أخرى

كانت قابس تمتد القيروان بمختلف أنواع الفاكهة^(٤) مثل التمر والتفاح والرمان والتين والموز وغيرها ، كما كانت تمتد البادية وبلاد الحرير^(٥) في أوقات الشدة والمجاعة^(٦) كما كانت فواكه صفاقص مجلوبة من قابس^(٧) كذلك يرسل حريرها إلى القيروان وغيرها لتجهز وينسج^(٨) إلى جانب انفرادها بانتاج دودة القز وصناعة الحرير في دور الطرز بها^(٩) ، وكان خمار التونسيات من أبدع الملابس الحريرية والتي تسمى (العجار) المزخرف بالرسومات البديعة^(١٠) الذي تختص به قابس كذلك حفل سوق السكاكين والسراجين في تونس بالسروج الجلد المتقنة الصنع التي اشتهرت بها قابس^(١١) كما كانت تصدر الأخشاب من غابيتها من أشجار الجبال ، كذلك كانت بلاد الجريد ، وبخاصة قفصة تتبادل مع قابس النسيج الفاخر والخزف الراقى والسكر واللوز الفريك المشهور في قابس ، والفستق الذي تشتهر به قفصة وكذلك كانت تباع تمر قابس مع تمر بلاد الجريد في توزر قلب الجريد ، إذ كانت السوق الرئيسية لكل أنواع التمور^(١٢).

بالنسبة للضرائب ، فقد حافظ بنوزيري على الضرائب التي فرضها القاطميون على السكان^(١٣) ، ويقول المقدسي^(١٤) أنها مثل نظام مصر ، وهي ضرائب المعاملات التجارية مثل لوازم في الموانئ على الوسق الإيراد : قبالات على الأسواق ، مراصد على القناطر

(١) المرجع السابق : ص ٣١٠.

(٢) الفلقشندي : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٦١ وأنظر : نفس المرجع ، ص ٣١٤.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) انظر البكري ، ج ٢ ص ٦٦٧.

(٥) guerin: voyage archeologique... P. 118.

(٦) الوسياني : السمر ورقة ٤٨ ، وأنظر الدرجيني ، ج ٣ ، ص ٢١

(٧) النجاني : الرحلة ص ٧٦ . ٢٢٩

(٨) باتوت : المعجم ، مادة قابس

(٩) الإدريسي : نزهة ، ج ١ ص ٢٨٠

(١٠) عثمان الكماك : الحضارة .. ص ٧٦ وأنظر جوايتاير دراسات ... ترجمة عطية الغرمي ص ١٧٥

(١١) المرجع السابق : ص ٧٧ وأنظر ص ٧٦

(١٢) في ذلك انظر البكري ج (٢) ، ص ٦٦٦ ، الإدريسي ج ١ ، ص ٢٧٩.

(١٣) الاستيعار ، ص ١١٢ ، ١٥٤ ، عبد الل العلووي ، بمل تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٩

(١٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٧.

لوازم في الموانئ على السوق الإيراد : قبالات على الأسواق ، مراصد على القناطر والجسور ، مغارم على المراعي وعلى القوافل والمحاصيل السلطانية إن أهم مصدر للخرينة هو ما يجبي على التجارة بأنواعها ^(١).

المعاملات التجارية مع الدول المختلفة :

كانت قابس تتعامل مع الدول المختلفة بطريقتين أولهما : ميناءها أو مرفأها أي الطريق البحري ^(٢) ، وثانيهما : عن طريقها الصحراوي كمرکز للقوافل على جادة الطريق ^(٣). صدرت قابس الصواف والحريير والسجاد إلى جزر البحر المتوسط حيث انتقلت هاتان الصناعتان ، فنجد سجادهما الرائع في سرانديا ، وأصبح ضمن الصناعات المحلية بها مع المحافظة على صيغته الأصلية ^(٤) ، كذلك صدرت إلى أسبانيا وإيطاليا والجزر سالفة الذكر أغشية الفراش ، ونلاحظ معانيها بلغات تلك الدول أصلها عربي ^(٥) من أهم صادرات قابس زيت الزيتون والزيتون والمحفوظ الذي يقول عنه الإدريسي ^(٦) "وزيتون كثير يستعمل منه زيت كثير تجهز به إلى سائر النواحي كما صدرت الماعز والماشية إلى مصر ، كما صدرت التفاح إلى بلدان أوربا والطماطم ^(٧) ، كذلك اشتهرت قابس بالجمال التي تستعمل في سفر القوافل للتجارة والحج ^(٨) ، ومن رباطتها حيث كانت تنسخ مجلدات القرآن الكريم وكتب الإباضية في الفقه وصدرت قابس تلك الكتب وكذلك مدن أفريقية ، فساعدت على نشر الإسلام في بلدان قارة أفريقية ^(٩) وفيها رباط الصحراء ورباط البحر ، وهو مسجد الصهريج ^(١٠). كان الرقيق والعاج وناب الفيل من أهم واردات قابس ومدن أفريقية من السودان والسودان الغربي ^(١١) وسنغاي ، واستوردت قابس من غدامس شجر التاكوت لدبغ الجلود ^(١٢) ، وكذلك الجوارى والعبيد ، وكان لكل نوع من أصناف الرقيق مزاياه وخصائصه ، فهناك الجوارى الترك والزنوج والعراقيون والمكيون ^(١٣) ، أما الرقيق الرجال فكانوا مستوردون من الهند والتوتة للخدمة والزراعة وأصناف العمل الشاق ^(١٤). اشتهرت قابس بالملح في سهولها ، فصدرته ، وكان ذلك عن طريق المقايضة بالذهب عن طريق قوافل الصحراء الذاهبة إلى أفريقيا ، وكذلك حريرها الفاخر ^(١٥). كما كان للتجار اليهود دورا في التبادل التجاري فترى تبادلا قويا بين يهود قابس ووكالة حوكل بالقاهرة كما كان

(١) نلس المرسع والجزء والصنحتز

(٢) الإدريسي ج ١ ، ص ٢٨٦

(٣) ابن قدامة : الحراج .. ص ٦٨ - ٧٢ وابن حوقل ص ٧٠.

(٤) الإدريسي ج ١ ، ص ٢٨٦

(٥) ابن قدامة : الحراج .. ص ٦٨ - ٧٢ ، وابن حوقل ، ص ٧٠ وأنظر عثمان الكماك : الحضارة ... ص ٦٠.

(٦) نزهة المشتاق ج ١ ، ص ٢٨٧.

(٧) مازالت أوروبا إلى الآن تطلب هاتين السلعتين "برنامج في ٧ الفضاية"

(٨) الدباغ : معالم الإيمان ، ج ٣ ، ص ١٨٣

(٩) محمد بن تاروب الأدب المغربي ، ص ٩٢ الكماك : مراكز الثقافة ، ص ٨-٣٩.

(١٠) أبو القباس الغبريني عنوان الغرابة ، ط بيروت ط ٢ ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٩م - ص ٤٠.

(١١) الكماك : الحضارة ، ص ٨٢ - ٨٤.

(١٢) الاستبصار ، ص ٩٥.

(١٣) عصمت دنش : الأنلس في حماية المرابطين ومستهل المرشدین ص ٣٠٩.

(١٤) المرسع السابق ، نلس الصفحة.

(١٥) موریس لومبار : الإسلام في مجده الأول ، ص ٢٧٢.

أوفى الأعم تكون مرتبطة بالسواق وهي تحوى مأوى لتزليها ودوابه وبضاعته ، وفي كل بلاد أفريقية كانت الفنادق باسم ما تلاحقه من بضائع أو باسم جنسية نزلائها ، في مدينة تونس يوجد فندق الصوف المغزول وفندق القمح وفندق الفحم .. وكذلك وجدت فنادق لطماطة أو جربة أو الجوانسية أي مجتمع فيه سكان مطماطة أو جربة أو قابس ^(١) ، وجد في مرفأ قابس فنادق كثيرة بالقرب من حي قشلة البحر ^(٢) الذي توجد فيه أيضا فنادق ، كذلك وجدت فنادق بالقرب من البحر في مناطق الزارات سانسور الحامة ، وكذلك ^(٣) ، وفي أرباضها وفي الغاية من حولها ^(٤) أقيمت الفنادق خصيصا لفئة التجار الأجانب عن قابس ولكل جالية فندق خاص بها فمثلا فندق الجنوبيين (من جنوا) فندق البيشانيين (من بيثة أو بيزا) وهذا النوع من الفنادق يكون ملكا للحكومة أو السلطة الحاكمة ^(٥) في قابس ويسري عليه النظام المعترف به بالنسبة لأفريقية وقابس ما يحق النظام والأمان ، فهو كمنشأ ذات أدوار عدة كانت تغلق غروب الشمس إلى شروقها حيث بقى النزلاء فيها طوال الليل ، وكذلك وقت صلاة الجمعة ^(٦).

وكان يوجد بها قنصل أجنبي وترجمان وتحصل فيها الضرائب المنصوص عليها والقنصل عليه الإشراف الداخلي باستمرار ^(٧) ، وظيفة القنصل (من نفس بلد التجار) ، كانت نتيجة للنظام الذي وضع بين الدولة الإسلامية سواء الدولة الفاطمية وبعدها الزيرية أو الموحدية، وتوجد وثيقة ^(٨) ما بين مندوب من السلطة الحاكمة وبين أمير المؤمنين أبي يحيى زكريا ، تنظيم مصالح البيشانيين عندما يأتون للمغرب أو أي بلد يفتح الموحدون وإلا يصل أي جفن (مركب) حربي ، ونظمت هذه الوثيقة الضرائب بينهما ، وإذا أعطيت سفينة في بيضاء فعلى سكان البلد حراسها بغير إجارة ، ومن أهم البنود إقامة فندق خاص بهم في مدن أفريقية ومنها قابس ^(٩) وإن تفرض الخصومات والمنازعات ، وأيضا حلوا للقضاء مآربهم يكونوا أحراراً فيما يشترطون في الحلقة أي الأسواق بعد الاختيار (المراقبة) وإلى جانب ذلك بنود كثيرة أخرى نصت عليها هذه الوثيقة لتنظيم العلاقات التجارية والمالية للتجار البيشانيين ^(١٠) إلى جانب الفنادق وجد القياس والوكالات وهما من أنواع الفنادق ، فالوكالات أقيمت منذ العصر الفاطمي ^(١١) ، وهي تشبه الفنادق وينزل لها التجار القادمون من الخارج ، ويجانب الوكالات وجدت منشآت يطلق عليها القياس ، وهي عبارة عن عدة مباني عامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر ^(١٢).

le mêmes Pages. (١)

Abd elmajid Kraim Lareistence du gabés c.t.v 18p144 (٢)

P144- Les Cahira detunisie V. 18-1978

انظر : البكري ، ج ٢ ، ص ٦٦٧ ، وانظر الشجاني ص ٨٦ - ٩٦. (٣)

المرزوقي : ص ٢٦ - ٢٧. (٤)

رفعت موسى : الوكالات ص ١ - ث ص ٤٨ - ٤٩. (٥)

نسيم زكي : طريق التجارة الدولية ، ط القاهرة ، ط ٤ ، ص ٢٩١ وانظر المرجع السابق ص ٤٨. (٦)

المرجع السابق (٧)

ابن ماضي : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ط دار المعارف ص ٤٤٨ ، وما يليها ، ملحق رقم ١٦ (٨)

المرجع السابق ص ٤٥١. (٩)

نفس المرجع (١٠)

المرزوقي : الخطوط ج ٢ ، ص ٩٢/٩٣. (١١)

سبق ذكرها : انظر ص من هذا الفصل وعن غنطيطها انظر الفصل الأول من البحث. (١٢)

المعاملات المالية : العملة :

النقود ودراستها تعين بالباحث دائماً على تفهم الحالة الاقتصادية وتطورها كما تعين على فهم الكثير من النواحي السياسية وأوضح مثال على ذلك عندما عمد المعز بن باديس على رفع أسماء الخلفاء الفاطميين من العملة ووضع اسمه وشعاراً جديداً مناوئاً للشعار الشيعي وكان ذلك على الدينار الذهبي المضروب من عام (٤٤١هـ - ١٠٦٣) ^(١) وتبعته في ذلك بلدان كثيرة مثل صفاقص وطرابلس ^(٢) كما سبقه بنو حماد في إعلان الاستقلال ومما شك فيه أن هذا كان مؤثراً فعالاً في الميزان التجاري في أفريقية ، وكانت صقلية تستعمل النقود الهندسية ^(٣) والدنانير شبيهة الأفريقية وعندما استقر بنو جامع بقابس أصبحت لهم عملتهم الخاصة بهم والتي ضربت بدار ضرب لهم خاصة في قابس ^(٤) ،

وكان أشهرها ما يخص رشيد بن مكن جامع الهلالي .
بعد زوال هذه الدولة التي ازدهرت في قابس بعد فتح أفريقية على يد الموحدون انتشرت في أسواق قابس النقود الموحدية من دنانير ودراهم ، وبلغ وزن الدينار الموحيدي المربع ٤,٧٢ جرام ولتسهيل التعاطي المالي بالأسواق ظهرت عملات لكسور الدرهم مكان ١/٢ ، ١/٤ ، ٨/١ درهم ^(٥) .

السفنج :

أو السفنجات أو الصكوك ، عبارة عن سندات مالية واجبة التحصيل في وقت معين عليه بين الطرفين ^(٦) عند تحرير هذه الورقة وقد لعب اليهود في هذه المعاملات المالية في الأسواق والمرافئ دوراً هاماً .
فقد برعوا في هذه الأنشطة المالية ^(٧) - مثل تحويل هذه السفنجات للغير عن طريق التوقيع بالتوكيل وبالتحويل على ظهرها حتى أنه أصبح من المعتاد دفع الديون منذ القرن الرابع الهجري ، إما نقداً أو عن طريق خطابات الضمان (الكبيالات) ^(٨) المباشرة والمظهرة وهي المعروفة باسم Lanes of Credit وطورا استخدامها لإمكان النقود من مكان إلى آخر بأمان تفادياً لعمليات النقل الخطرة للنقود السائل ^(٩) .
ووجدت وثيقة رقم (١٤) من وثائق من وثائق أما ري ^(١٠) جاء فيها ما بين استعمال خطابات الضمان المالية .

^(١) ابن عساري : المغرب ج ١ ص ٢٩١ .

^(٢) انظر النجاشي : ص ٧٦ - ١٥٣ .

^(٣) الرسبان : المص ٦١ .

^(٤) سهام المهدي : دينار رشيدى نادر ، ص ٢٠١ - ٢٠٩ / المؤرخ المصري عدد ٣ و انظر صور وأرقام تلك الدنانير في ملحق هذه الرسالة .

^(٥) المراكشي المحب ، ص ١١٤ انظر برانشيك ، تاريخ أفريقية على عهد الحفصيين ، ج ٢ ص ٨١ .

^(٦) ومعناه في الحاضر الشيك أو الخوالة .

^(٧) نعيم زكي : دور اليهود في تجارة العصور الوسطى : ط . القاهرة "١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م" ط ١ ، ص ٢٤٠/٢٠ .

^(٨) المرجع السابق : نفس الصفحات .

^(٩) نفس المرجع والصفحات .

^(١٠) ميشيل : مجموعة رسائل تحت عنوان

فقد أرسل مخرز القابسي التاجر إلى زميله باج بيرو ككله الذي كان مدينا للقابسي في مائتين وعشر دنانير ثمن ألف جلد وستمئة جلد دفع منها عشرة دنانير وبقي عنده^(١)

(١) المصدر السابق ، ملحق رقم ١٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية

(في قابس)

١- عناصر المجتمع :

أ- العرب.

ب- البربر.

ج- أهل الذمة.

د- عناصر أخرى.

٢- طبقات المجتمع :

أ- طبقة الخاصة (الولاة - الأمراء - الوزراء).

ب- طبقة العلماء.

ج- التجار.

د- الطبقة الوسطى.

هـ- العامة.

٣- ونظام الأسرة - منزل الأسرة.

٤- بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

أ- العادات والتقاليد.

ب- الزي في قابس.

ج- الطعام والأشربة.

أولاً: عناصر السكان :-

ضم المجتمع القابسي خليطاً من السكان اشتمل على عناصر عديدة ^(١)، وهذا الاختلاط لم يكن وليد حقبة زمنية محددة ، بل تكونَ بمرور الزمن والأحداث التاريخية على أفريقية عامة ، وعلى قابس نظراً للتميز الذي هياها لذلك كواحة بحرية صحراوية ^(٢)، وانضم الفينيقيون الى البربر ، أهل البلاد الأصليين ^(٣)، في سكني قابس واختلطوا بهم وأثروا فيهم وتأثروا بهم. لقد كان هؤلاء البربر يعرفون في منطقة قابس وجريه باسم النسامون ^(٤)، وبأنهم أكلوا اللوتس ^(٥)، وقد أفسح السكان الأصليون لبعض اليهود في النزول بمدينةتهم، وذلك في جربة ، وبذلك كان في قابس في هذا الزمن البعيد أربعة عناصر من السكان:

عنصر بربري من سكانها الأوليين ^(٦)، وعنصر فينيقي قرطاجي ^(٧)، وعنصر سوداني من رحلهم القرطاجيون معهم في قوافلهم التجارية التي جابت أفريقيا ^(٨)، ودارت حولها ثم انضم إليهم العنصر الروماني بعد استيلاء روما على قرطاج ^(٩)، ثم وفدت إلى قابس منذ سنة ٧٥م وبعد تحطيم الإمبراطور فينوس لبيت المقدس أسر يهودية كثيرة ^(١٠)، وحين استولى على الوندال على أفريقية سنة ٤٣٩م وظلوا بها حتى سنة ٥٣٤م أضافوا إلى أفريقية وقابس على الأخص عنصراً حديثاً بقيت منه أعداد بأفريقيا بعد أن استردها البيزنطيون مضيقين بدورهم العنصر البيزنطي الإغريقي ^(١١)، فلما فتح العرب المسلمون أفريقية انضم العرب لعناصر سكانها بل انضم إليهم القبط من أهل مصر ، وبعد ذلك استكثر الأغلبية في الحرس من العنصر الصقلي ومن عنصر السودان، وكانوا في عهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف .

(١) قال عنها أحد الدارسين الأوروبيين أن قابس مدينة مختلطة.

- Gabes C'est une citéhyride. Voir gacques revault l'alrique méditerranée mcé-Edit caire, P. 129.

- ط. المجتمع العلمي الترسي بالقاهرة ط ١.

(٢) اللجاني ، ص ٨٦.

(٣) أنظر للمرجع السابق ، ص ٣/٢ وأنظر سعد زغول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، ط. الإسكندرية ط ١ ، ص ٢٩٧/٧٨.

البربر - رسالة دكتوراة

(٤) أنظر محمد البيلي ص ١٩ ، وأنظر : - عبد الله يوسف اللجاني الفينيقيون وركائز الذهب ، ط. القاهرة ، ط ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧م ، فيقول : أما لفظ ناسامون كما يسميهم هيرودوتس - وديود والصقلي وغيرهما من مؤرخي اليونان فليس في اللسان اليوناني ولفظه ناس أمون أو ناس عمون الأول نسبة للإله هومير أمون - المرجع السابق نفس المكان.

(٥) أنظر محمد البيلي ص ١٩ ، وأنظر : - عبد الله يوسف اللجاني الفينيقيون وركائز الذهب ، ط. القاهرة ، ط ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧م ، فيقول : أما لفظ ناسامون كما يسميهم هيرودوتس - وديود والصقلي وغيرهما من مؤرخي اليونان فليس في اللسان اليوناني ولفظه ناس أمون أو ناس عمون الأول نسبة للإله هومير أمون - المرجع السابق نفس المكان.

(٦) محمد بركات البيلي ، صفحات من تاريخ المغرب والأندلس ، ط. القاهرة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م ، ص ٢٢.

(٧) محمد بركات البيلي ، صفحات من تاريخ المغرب والأندلس ، ط. القاهرة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩م ، ص ٢٢.

(٨) مؤنس - فتح العرب للمغرب ، ص ١.

(٩) على سبيل المثال ، رحلة ضوالقرطاجي حول أفريقيا ، أنظر نخبة من الأساتذة.

ط. ليبيا ، ط ١ ، ص ٣ ، ص ٧٥.

Hirschberg, A history of the jews in north of africa lerclxn 1975, P. 401.

(١٠)

Hirschberg, A history of the jous in north of rica lerclxn 1975, P. 401.

(١١)

ولكثرة خيرات أفريقية وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ، ظل يفد على مدن أفريقية الكثيرون منهم. مما تقدم نجد أن الحياة الاجتماعية في قابس قد تأثرت بعدة عوامل ، قبلية واقتصادية ودينية.

العامل القبلي :-

تعتبر القبيلة حجر الزاوية في الحياة الاجتماعية في قابس سواء كانت قبيلة بربرية أو عربية ، فالخلية الأولى فيها هي الأسرة ، ثم العشيرة التي تشتمل على عدد من الأسر التي تنتمي لجذ واحد تجمعها القرابة الوثيقة ، وبعد ذلك تأتي مرتبة الأفخاذ التي تجمع عدداً من العشائر ثم نجد بعد ذلك البطن وهي تضم العديد من الأفخاذ وتصل إلى العماثر ، وهي أقل من القبائل ثم تجمع البطون وتصل لمرتبة القبيلة وهي دون الشعب وتجمع العماثر لتصل إلى الشعب.

وكان للعصبية القبلية دوراً أساسياً في الحياة الاجتماعية القابسية ، وكلمة عصبية لها معنى الاعتداد بالنسب ، وذلك يؤدي للتنازع^(١) ، وكان ذلك معروفاً قبل الإسلام ، أما الدين الإسلامي فقد دعا للتآخي والتآلف والود^(٢) ، تساعد العصبية بشكل إيجابي على الارتباط بين أفراد القبيلة ، ويؤيد ذلك قول ابن خلدون في شرحه لكلمة العصبية بمعنى الرابطة القبلية ، "إن صلة الرحم طبيعية في البشر إلا في الأقل ، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة ، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ، ويود ولو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك ، نزعة طبيعية في البشر^(٣) ، كما يذكر ابن خلدون "أن القبيلة الواحدة وإن كانت فيها بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها ، وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع^(٤) .

العامل الاقتصادي :-

الاقتصاد هو أساس حياة المجتمع القابسي ، لذلك تأثرت أحوال هذا المجتمع اقتصادياً لأن رخاء المجتمع اقتصادياً له دور فعال في ارتفاع مستوى المعيشة وتطور أوضاع هذا المجتمع ، وفي دراسة الأحوال الاقتصادية لقابس نجد أن قابس ازدهرت زراعياً ، لتوافر مقومات الزراعة من الأرض الخصبة وتنوع الموارد المائية والمناخ ، الذي كان له أكبر الأثر في تنوع المحاصيل والثمار^(٥) ، كما كانت قابس غنية بالسائمة لوفرة المراعي ، ومما ساعد على التطور أيضاً النشاط الصناعي ، وهذا يعني اكتمال العمران الحضري. "لأن العمران البدوي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل من الضروريات" وإذا تحضر المجتمع وأرتقي تزايدت صنائع أخرى معها ، مما يدعو إلى عوائد الترف وأحوالها^(٦) ، كما كان للنشاط التجاري دور كبير جعل رخاء المجتمع القابسي مطرداً ، خاصة نشاط التجارة الخارجية من ناحية البحر والصحراء^(٧) ، هذه الأنشطة قد تأثرت في المجتمع القابسي بالغزوة

(١) أنظر الحسن السائح : للحضارة ج ٧- ص ٨٢.

(٢) أنظر : ابن منظور لسان العرب بحرف عين ص ٢٩٦٦.

(٣) المقدمة ، ص ١٢٨.

(٤) المصدر السابق : ص ١٣٩.

(٥) عن الازدهار الزراعي ، أنظر : فصل الحياة الاقتصادية في قابس.

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٠٦.

(٧) عن النشاط الصناعي والتجاري ، أنظر الفصل الرابع من هذه الرسالة.

الهلالية رغم اضطراب أحواله زمن هجوم بني غانية وحملة قراقوش الأرمني ، لكن متى تعود الأنشطة^(١).

العامل الديني :-

كان من أعمق المؤثرات ، ولقد كان للإسلام بصماته الواضحة على المجتمع القابسي الذي تحولت نظمته الاجتماعية وأخلاقه وتقاليده وعاداته لتعاليم الدين الحنيف ، وقد أسهمت في ذلك المساجد والزوايا والجموع في بث هذه التعاليم. وقد كان بها دعاء لتعليم قواعد الدين ونظمه الاجتماعية^(٢)، ولقد كان الفتح الإسلامي استقراراً لبعض الأسر العربية في عدة أماكن من إفريقية ومنها قابس ، ولذا ترى الباحثة أن التأثير الإسلامي قد بدأ مبكراً في قابس ومنطقتها ، كما كان لانتشار الإسلام أثره بالنسبة للقبائل البربرية فقد غيرت تعاليمه السمحة الكثير من طباعهم.

أ-العرب:

أن العرب دخلوا قابس ما بين سنتي ٤٠/٢٧ هـ ، ولكننا نقدر أنهم لم يستقروا بها إلا بعد فتح عقبة الإفريقية سنة ٥٠ هـ ، ونقدر أن عائلات المجاهدين التي استقرت بها لم تلبث أن غادرتها بسبب ثورة البربر على عقبة واستيلائهم على إفريقية ولم يبق منها إلا القليل. وعليه فلا يمكننا أن نعتبر أن العرب قد سكنوا قابس واستقروا بها نهائياً إلا بعد حملة حسان بن النعمان وانتصاره الحاسم على البربر سنة ٨٤ هـ^(٣)، فمن ذلك الوقت ظهر العرب في المراكز الهامة في إفريقية ، ونقدر أن الذين سكنوا قابس منهم إنما هم عائلات الجنود والعمال والتجار وعلماء الدين الذين يصاحبون الحملات دائماً لفتح العقول وتطهير العقائد وتوجيه الحكام والدفاع عن الحق في مجالسهم ، على أن العرب بقوا رغم استقرار الحالة بإفريقية أيام الأغالية قلة بالنسبة لسكان البلاد ، ولم يحدث وجودهم - رغم اختلاطهم بالسكان - أي أثر في المجتمع البربري الأصلي في البلاد عدا الأثر الديني ، والأثر الطبيعي الذي خلفه الأغالية في المدن والسهول ، أما الأطراف فلم تتأثر بشيء ، وبقيت فيها النزعة للثورة ضد العرب حتى قدوم بني هلال وبني سليم منتصف القرن الخامس ومنذ ذلك الحين بدأ تعريب البلاد وظهر العنصر العربي واستطاع أن يصهر البربر في بوتقة ويذيبهم في معدنه^(٤)، وصبغ البلاد بالصبغة العربية التي تأثر بها أكثر البربر ، ما عدا بعض قري مطماطة ، فقد احتفظت بتقاليد البربرية القديمة وانتشرت في قابس قبائل كثيرة عربية استقرت بها^(٥)، نزل العرب أولاً عند أقرباهم الذين كانوا قد استقروا ، ثم تبعهم باقي أفراد قبائلهم الذين في الصعيد في برقة وطرابلس وإفريقية ، ومنهم تكون معظم عرب هذه المنطقة منذ منتصف القرن ٥ هـ ، ومن أهم تلك القبائل :-

١- بنو دياب :-

اختلف المؤرخون حول نسب بني دياب ، فنسبهم بعض المؤرخين إلى مالك بن بهثة بن سليم^(٦)، ونسبهم البعض الآخر إلى ربيعة بن زعب الأكبر بن حفصه بن امرئ القيس بن

(١) أنظر : الفصل الثاني "الحياة السياسية".

(٢) مثلما حدث في القيروان : أنظر : الدباغ : معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ٥٣-٧٨ ،

- أنظر : الرفيق القيرواني ، تاريخ إفريقية ص ١٤٨ ، ولقد خرج أهل قابس لحسان ابن النعمان ، وكانوا قبل ذلك متحصبين.

(٣) الرفيق القيرواني : تاريخ إفريقية ، ص ١٤٨ ، وأنظر المرزوقي ص ١٢٠.

(٤) أنظر محمد علي ما دون عروبة البربر ، ط ١ ، ص ١-١٣٥.

(٥) كما تحدث الثجاني عن توزيعاتهم ، أنظر ص ١١٨.

(٦) القلقشندي : قلائد الجمان ، ص ١٢٧ ، نهاية الأرب ، ص ١١٩-٢٥٠.

بهثة بن سليم^(١)، وموطن بني دياب ما بين قابس وطرابلس وبرقة^(٢)، ومن أشهر بطونهم الجواري، وهم بنو حميد بن جارية بن وشاح، وكانت مواطنهم الغرب وما إليها مثل تاجورا وحنزور، وهذاعة وزنزور، ورئاستهم في بني مرعم ابن صابر بن عسكر بن علي^(٣)، والمحاميد هم بنو محمود بن طوق بن عقبة بن وشاح بن دياب ومواطنهم بين قابس ونفوسه^(٤)، وما إلى ذلك من الضواحي والجبال ورئاستهم في بني رحاب بن محمود.

بنو عوف :-

وهم بنو عوف بن بهثة بن سليم بن منصور وديارهم بالمغرب فيما بين قابس وبونة^(٥)، وينقسمون إلى قسمين مراوس وعلامة، فمراداس كانت رئاستهم في بني جامع حتى القرن الثامن الهجري^(٦)، وعلامة كان رئاستهم الأول في وقت دخولهم إفريقية رافع بن حماد بنو كعب^(٧)، ويذكر الإدريسي أن بني عوف وبني دياب امتدت بطونهما من مدينة طرابلس إلى سرت في جهة الشرق، فسيطروا على عدة مناطق بين المدينتين^(٨)، كما نجد الكثير من قصور المبارك بعد قصر المحرس على خليج قابس^(٩). وما زال من نسلهم إلى الآن المرزيق وأولاد يعقوب ونفات وقاعد وغريب وعرب تطاوين والتوازين وبنويزيد يقيمون حول قابس في مارث والحامة وقفصة ودوز ومدين.

بنو زعب :-

اختلف النسابة والمؤرخون حول نسب بني زعب^(١٠)، فنكروهم البعض في زعب بن نصر بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم^(١١)، وأرجع البعض الآخر نسبهم إلى زعبت الأصغر بن زعب الأكبر بن جرو بن مالك^(١٢)، كما نسبوا إلى زعب بن مالك بن بهثة بن سليم^(١٣)، وقد سكنوا إفريقية بجوار إخوانهم بني دياب بن مالك وكانوا ينزلون من قابس وبرقة ثم صاروا إلى جوار بني هيب^(١٤). وانتقلنا عن قابس يوم السبت السابع عشر منه ففارقتنا بمفارقتها أرض النواهل واجتزنا في أرض إخوانهم الوشاحيين ثم في أرض المحاميد منهم والوشاحيون لو شاح بن عامر، وقد قدمنا أن وشاحاً ونائلاً إخوان ورفعتنا نسب نائل^(١٥)، ورئاسة الوشاحين الآن محصورة في

(١) الثجاني، ص ١٢٤، العبر ٨٤/٦، كحالة : ٤٠٨ - ٤٠١.

(٢) العبر : ٨٥/٦، التتشلدي : قلاتد ... ص ١٢٦، نهاية الأرب ص ٢٥٠.

(٣) القريزي : البيان، ص ٦٩.

(٤) الثجاني : ص ١٣٤، العبر : ٨٥ / ٦ من ياقوت.

(٥) الثجاني : ص ١٣٤، العبر : ٨٥ / ٦، التتشلدي، نهاية الأرب : ص ١٥٨.

(٦) العبر : ٧٤/٦، التتشلدي : قلاتد، ص ١٢٦، نهاية الأرب، ص ٢٨٤ / ٤١٨.

(٧) العبر : ٧٣ / ٦، كحالة : ح ٢، ص ٨٠٦، ٨٠٨. نزعة الشقاق ط ١ ص ٢٩٨ وانظر سيرة بني هلال النخوة العالمية

الأولى بالحمامات - بحث محمد المرزوقي ص ٢٣-٢٥

(٨) من ياقوت.

(٩) نزعة المشتاق : مجلد ١، ص ٢٩٨.

(١٠) أنظر : برنشتاين، ح ٤، ص ٢٣.

(١١) العبر : ٧٢/٦.

(١٢) الثجاني : ص ١٤١.

(١٣) العبر : ٧٢/٦، نهاية الأرب، ص ٢٧٢، الطرابلس، ص ١١٣.

(١٤) العبر : ٧٢ / ٦، وكحال، ح ٢، ص ٤٧٤.

(١٥) ولي وشاح بن عامر، يقول الشاعر - طويل :-

- صنعت صنيعاً ضاع في نجل عامر
كما ضاع في الأصنام وادي زروء

قبيلتي الجواري والمحاميد وماعدا هاتين القبيلتين في العدد والقوة ، فمهما نقص من إحداهما فارس بموت أو غيره نقص من الآخر نظيره عادة أجراها الله تعالى بينهم ، فتجد إحداهما الطائفتين إذا مات واحد من الأخري يتوقعون موت مقابله منهم ، فيقع ذلك عن قريب ، ورئاسة المحاميد في بني رحاب منهم ، وهو رحاب بن محمود بن طوق بن بقية بن وشاح . ومن قابس إلى ناحية توز أرض دياب في منازل بني أحمد وهم بنو أحمد دياب بن ربعة بن زغب وربما شاركهم في منازلهم هذه بنو يزيد وبنو يزيد أربعة أحفاد من دياب تحالفت وانتسبت على مدلول الزيادة لا إلى رجل متسم بيزيد ، وهم والصهبة والحمازية والخرجة والأصابعة ، فأما الصهبة - بسكون الهاء - فبنو جهت بن جابر بن قائد بن رافع بن دياب ، وأما الحمازية ، فبنو حمران بن جابر إخوانهم ، وأما الخرجة - بسكون الراء - فجماعة من آل سليمان بن رافع ابن دياب أخرجهم بنو عمهم آل سالم بن رافع من أرضهم فمالوا إلى محالفة هؤلاء وساكنوهم بمنزلهم ، وكانت أرضهم أرض مسلاته وما قارب منها ، وإما الأصابعة فهم منتسبون إلى رجل كانت له إصبع زائدة ودياب يطعنون عليهم نسبهم وينكرون أنهم خارجون عنهم^(١).

ب- البربر :-

هؤلاء البربر حيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصي ، فبينما هو معروف في تاريخ الفتح بإفريقية والمغرب^(٢) ، هم السكان الأصليون لبلاد المغرب وسواها العظيم ، واسم البربر ليس اسمهم الأول ، بل هو اسم دخل عليهم ينفرون منهم ويرون أن اسمهم الأصلي هو الأمازيغ أو بنو مازيغ ، وهو يعني في لغتهم الأمازيغية الأحرار الشرفاء أو السادة . ولذلك يفترض البعض أن هؤلاء الأمازيغ لم يطلقوا على أنفسهم هذه التسمية إلا بعد وصولهم بلاد المغرب وتغلبهم على من وجد بها وذلك أحرزوا السيادة على هذه الأرض وعلى ساكنيها^(٣) ، ثم أطلق على مجموع هذه القبائل اسم البربر ، وهو اسم يوناني - لاتيني كان يطلقه اليونان والرومان على الشعوب التي لا تتكلم بلسانهم ولا ترفع لواء الحضارة اليونانية الرومانية حتى أنهم أطلقوه أيضاً على المصريين مع أن مصر أقدم حضارة منهم . التصق الاسم بأهالي بلاد المغرب الأصليين وأختص بهم دون سواهم ، معرفة العرب حين الفتح الإسلامي وعربوا الكلمة اللاتينية وفسروها على عدة أوجه .

فقل إن البربر من البريرة بمعنى الهمهمة ، من الفعل بربر أي همهم أو تكلم كلاماً غير مفهوم وساقوا لذلك خبراً هو أن أفريق بن صيفي لما غزا إفريقية - فيما زعموا - وسمع رطانة أهلها قال لهم إما أكثر بربرتكم ، فسموا لذلك البربر وهذا اللغوي يشير إلى وجود شعب المغرب قبل اسم البربر مما يدعم قول القائلين بأن اسمهم الأول هو الأمازيغ^(٤) ،

وادي زرواد في قبيلة لافروان ببلها وبيلة أميال يسميه وأصله من موضع يعرف بقران بضم الفاء وتخفيف الاء ، وهذا الوادي يمر في طريقه على مزارع تسر منه ويلتفع به فيها فإذا انتهى إلى الأصنام ، وهو موضع في جوف القيروان انتشر في سبخة هنالك متسق ضاع ماؤه ، فلم يلتفع به ، فأشار هذا الشاعر إلى هذا .

- أنظر : التجاني ، الرحلة ، ص ١١٧ - ١١٨ .

- وأنظر : ابن خلدون : البربر ، ج ٦ ، ص ٨٦ .

(١) أنظر التجاني : ص ١٣٤ ، وأنظر ابن خلدون : للبربر ، ج ٦ ، ص ٨٦/٨٢ .

(٢) ابن خلدون : البربر ، ج ٦ ، ص ١٠٦ ، وأنظر محمد علي ما دون : عروبة البربر الحقيقية المنصورة ص ٨٥ ، ١٥٣ ، وأنظر : ص من هذا الفصل .

(٣) عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب : ج ٣ ، ص ٩١ .

(٤) وقيل إن اسم الأمازيغ بمعنى السادة يفترض وجود أناس قبلهم تصيد عليهم الأمازيغ بعد أن هزموهم مما يشير بوضوح لوجود هجرات متتابعة قديمة لا تعرف أخبارها ولا تواريخها ، أنظر : مادون ، عروبة البربر ، ص ١٥٣ .

اسم البربر إلى ستروبرانس "وكان مادغيس الأبتَر جدّ البرابره البتر" وكان من رجالاتهم إسماعيل بن زياد المتغلب على قابس سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ومن ولده نفزاوة ولوانة^(١).

وفي نفس الوقت المناطق من برقة وطرابلس إلى قابس وهي المناطق التي انتشرت فيها قبائل بني سليم وأفخاذها فإن معظم المصادر توجد قبيلتا لوانة^(٢)، وهوارة البربريتان وحتى حدود تونس^(٣)، ويشكل خاص كانت تلك المناطق مستقراً لهوارة^(٤)، كما كانت المناطق ذاتها تسمى باسم القبيلة البربرية ذاتها ، فمثلاً جبل نفوسة على اسم قبيلة نفوسة التي تستقر فيه ويقع في جنوب طرابلس إلى قرب قابس حيث يوجد جزء يسمى جبل مطماطة على اسم القبيلة التي تسكنه^(٥).

ويسكن قابس كثير من القبائل البترية من لوانة ونفوسة وبعض بطون من ضريبة من لماية وزواغة ومطماطة في جنوبها الغربي^(٦)، وعلى ساحل خليج قابس في مدينة بيفاقس تستقر قبائل من لوانة ونفوسة^(٧)، أما مدينة القيروان. فلم تهتم المصادر بتصنيف القبائل البربرية بها ، واقتصر ما ذكره البعثروا^(٨)، على "أنها فيها من عجم البلاد من البربر" ولعل الاحتلال المتكرر من قبل القبائل البربرية أدى لوجود بعض القبائل من أوربة وجراوة هوارة وزناتة وغيرها فضلاً عن سوماته من نفزاوة التي تستقر فئة منها في نواحي القيروان^(٩)، كما وجدت عشائر صغيرة تعود إلى هوارة قرب مرماجة في وادي مجردة الأعلى^(١٠)، أما بلاد الجريد التي تعد قابس منها ، فكان يسكن بها قبائل بدوية بما يتواءم مع طبيعتها الجغرافية حيث تكثر بها الواحات ، لذلك وجود حولها بالقرب من نقطة وتوزو وقفصة عرب قابس قبائل نفزاوة^(١١)، كما تسكن قسطنطينية بعض بطون نفزاوة^(١٢)، ولما كان التنظيم الاجتماعي للبربر يقوم على أساس قبلي لذا تنقسم كل من البترو البرانس لعدة قبائل رئيسية تتفرع بدورها لقبائل أصغر وفروع^(١٣)، ويطون وأفخاذ وفصائل ، لقبائل البرانس سبع قبائل هي أوربة^(١٤)، وصنهاجة وكنامة ومضمودة وعجبة وأوريغة وإزداجة ، ويضيف إليها أحد نسب البربر ثلاثاً هم : لمطه وهسكورة وجزولة ، أما قبائل البتر^(١٥)، فهم أربع أداسة ونفوسة وضريبة

(١) ابن خلدون : ج ٦ ، ص ١١٤ وما يليها فيه تفاصيل أكثر عن التقسيمات والبربر ، أنظر محمد بركات البلي : البربر في الأندلس ، رسالة دكتوراة مخطوطة ، مكتبة جامعة القاهرة ، ومحمد علي مانون : عروبة البربر ، الطبري : ج ٢ ، المصدر السابق نفس الجزء ، بالقوت ج ١ ، ص ٣١٨ على سبيل المثال.

(٢) البكري : المسالك ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ ، ٦٦٧.

(٣) ابن حوقل ، ص ٦٩-٧٠ ، والإدريسي ، ج ٢ ، ص ١٣٠.

(٤) صباح الشخيلي ، الهلاليون ، ص ١٧.

(٥) أنظر : الاستبصار ، ص ١١٢-١٥٠ ، وأنظر البكري ، كراسات تونسنية ، ص ٦١٤.

(٦) الاستبصار ، ص ١٥٠.

(٧) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ١١٤-١١٨.

(٨) البلدان ، ج ١ ، ص ٣٤٨.

(٩) المصدر السابق ، ج ٦٩ ، ص ١٣٦.

(١٠) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ١٤٢.

(١١) البكري : المغرب ، ص ٤٧-٤٨.

(١٢) نفس المصدر ، ص ٥٢.

(١٣)

(١٤) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٩٥ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٨٩ / ٩٠.

(١٥) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٩٠-٩١.

وبنولوا ، وينحدر من هذه القبائل الكبرى ، قبائل أخرى شهيرة فمن ضربة تجد فرعين رئيسيين هما : بنو تمصيت الذي يتفرع منهم قبائل مطماطة وصطفورة ولماية ومطغرة ومغيلة وملزوزة ومديونة ثم بنو يحي يتفرع منهم قبيلة زناتة أكبر القبائل البترية ، كما يتفرع بنولوا إلى نفاوة ولوانة التي يتحد منها عدة قبائل مثل : مزاته وسدراته ، أما نفاوة فتتفرع منها قبيلة ولهاصة التي تنحدر منها قبيلة ورفجومة.

ولما استطاع كسيلة أن يدخل القيروان وأن بعد فقتل عقبة بن نافع في تهورة ، ويستقر بالقيروان خمس سنوات^(١) ، وهي نفس الفترة التي احتلت فيها الكاهنة القيروان وكل إفريقيا بما فيها قابس بعد هزيمتها لحسان بن النعمان^(٢) ، ومن المؤكد أن هذه الفترات قد أدت لدخول الكثيرين من قبيلة أوربة البرنسية وبقيّة القبائل التي دخلت في الاتحاد القبلي مع كسيلة ، ثم دخلت قبيلة جراوة البترية مع الكاهنة ، وهذا لم يقتصر فقط على مدينة القيروان المحتلة منهم ، بل تعداه للمدن الأخرى المحيطة بها.

ومع حسان بن النعمان ، استقر البربر في قابس وغيرها ، بعد أن قام حسان بتوزيع الخطط على البربر^(٣) ، كما قام موسى بن نصير في إطار سياسته لمولاه البربر بنقل البربر من الأقاصي إلى الأواني^(٤).

كما كان لتجمع بعض القبائل من طرابلس إلى قابس مثل هواره وزناتة ونفوسة وانتشار الإباضية بينهم أثر في تأخرهم بالقيام بحركات^(٥) ، مناوئة إلا مع بداية ضعف الخلافة الأموية فضلا على أنها بحكم موطنها كانت مستقرة منطقة طرق القوافل الآتية من المشرق.

ج- أهل الذمة :

ضمت قابس من قبل الفتح الإسلامي نصارى ويهود ، أصبحوا يؤيدون الجزية والحوالي بعد الفتح^(٦).

اليهود :

كانت قابس من مواطن اليهود ، فقد وجد العرب اليهود في قابس ، وكان يوجد عدد من اليهود منذ أيام الفينيقيين ثم هاجرت جماعات أخرى في العهد الروماني ، لوقوع المنطقة على خط التجارة الساحلية والتجارة الصحراوية إلى بلاد السودان^(٧) ، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية في قبيلة نفوسة في جبل نفوسة والممتد من جنوب غرب طرابلس إلى جنوب قابس^(٨) ، ولما فتح عمرو بن العاص هذا الجبل وجد البعض من أهله يهود ونصارى ووجود هذه الديانات في هذا^(٩) ، المكان يعود لسهولة الاتصال بينه وبين طرابلس والتي تعتمد على التجارة مع قري هذا الجبل مما مطن لهذه الديانات من التوغل فيه ، لكن يبدو أن انتشار الإسلام أدي لانتشار النصرانية وقلة اليهودية في تلك النواحي ، غير أن أهلها المسلمين اعتنقوا

(١) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ ، ص ٣١.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٢.

- وأنظر / ناريمان عبد الكريم ، المجتمع في إفريقية ، دكتوراه في مكتبة جامعة عين شمس ص ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) المالكي : الرياض ، ج ١ ، ص ٦٨.

(٤) الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٨.

(٥) محمد بن الحسن : القبائل والأرباط المغربية ص ٨٦ - ٩٧ وأنظر المصادر السابقة.

(٦) - Dichl ; l'afrique byzantine., P, 335.

(٧) الإدريسي : نزهة ج (٢) ، ص ٢٧٩ - ٢٨١.

(٨) أبو عبادة : جغرافية تونس ، ص ١١.

(٩) ومجهول الاستبصار : ص ١١٢ - ١١٣.

مذهب الخوارج الإباضية^(١)، يعد تسالته للمغرب كانت قابس من مواطن اليهود بعد الفتح الإسلامي فيذكر ابن حوقل أن بها يهودا عليهم جوال^(٢)، كان اليهود في قابس فلاحين وصناعاً يغزلون الحرير ويصدرون الأقمشة اليمينية واغتوا من التجارة مع صقلية وإفريقية الداخلية، بعض منهم كانوا تجاراً عالميين.

وكان في قابس يهود كثيرون يحبون الشعر والموسيقى ومعلمهم ونجحوا في تحويل الأكاديمية إلى مركز ديني^(٣).

وقد كانت أقدم بيعة يهودية (معبد) تفتح خارج المدينة وأرباضها في قرية تسمى البلد أو جارة الصغيرة أو الدخالية^(٤)، وهذه البيعة تقع في الجزء الشرقي من القرية، وزعم يهود المكان أنها كانت مزاراً مقدساً ليهود قابس ولهم موعد سنوي يجتمعون فيه في احتفال عظيم^(٥)، حتى جاءت الحماية الفرنسية فألغت تلك العادة، كما يؤكد ختم هذه البيعة أنها كانت أقدم وجوداً من البيعة اليهودية بقرية المنزل أوحى المنزل بقابس^(٦)، كان اليهود يعملون في التجارة ويتعاملون في الأسواق والبعض منهم كانت له جنبيات في قابس وما حولها، وسكنوا خارج أسواق المدينة والذين كانوا داخل المدينة كانوا متناثرين بين أحيائها، كان رئيس اليهود المقيم في القيروان يسمى (ناجد) وهي لفظة عبرية^(٧)، تعني بالعربية (رئيس اليهود) وصلاحيته منصبه سياسياً ودينياً في آن واحد، وتشبه صلاحيات بطريرك النصارى في المشرق^(٨)، وكانت ترد إليه الفتاوى من اليهود المقيمين في قابس وغيرها لسؤاله في كل ما يشغل بالهم من أمور حياتهم^(٩).

(١) أبو زكريا: سير الأئمة، ص ١٠.

(٢) صورة الأرض، ص ١٠٧.

(٣) Encyclopedia judinca, P. 33 - 34, article gabes.

- وقد كانت أقرب بيعة يهودية، إنها نقطة الالتقاء الطبيعي "للقل" للطائفة: بيت الصلاة ومقر السدرس والتعليم احد ريشفاء، ومكان تعليم الكبار ليلاً بالدرس أو الوعظ، ولها يجتمع مجلس الطائفة والمؤمنون لاتخاذ القرارات أو إعلان المراسيم علناً، أو لإصدار حكم التكمير أو إعلان التوبة على من وقع عليه ذلك... وتقدم عن طريق السهبات كل المستلزمات المستعملة للقيام بالتراث الديني وللتألف للتوارة ومعلمها، والأصباغ التي يصبغ بها الثياب المقدس، ومنبر القدامى، ولاشمعدان والمصابيح والزيوت والشموع وتجمع موارد البيعة عن طريق بيع "المصوت" (حق الصعود للمبلى) لقراءة بعض القرآن بالمراد العلني والدور، (إعطاءات ظرفية)، و "الرتمز" "مساهمة فصالية" يسلمها المؤمنون الذين يرغبون في الاحتفاظ لأنفسهم بالاحتفال "بالمصوت" أثناء الفترة التي تغسل بين عيدين كبيرين متتابعين مثل "سكوت"، "ويسح"، ويوزع دخل البيعة على كل من المتمتعين به (المسره) أو "الحزمة" الذين يعلمون بالبيعة، (وشليح سبور) "الحبر الإمام" الذي يتولى أحياناً الوظائف معاً، وخادم البيعة "تماش" بعد أخذ واجب إصلاح البيانات.

- أنظر: حليم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ص ١٣٣.

(١) المرزوقي: قابس، ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩.

(٣) المنزل والجارة هم أهم مطلقين أوحين في قابس ويبدو أن هذه الأسماء ظهرت ربما أثناء الدولة الحفصية حيث لا نجدها قبل ذلك - أنظر: نفس المرجع، ص ٣٩.

(٤) وفي القيروان ملكه العالم الشهير حذا سيل عند أحد أبواب المدينة بجوار المسلمين

- أنظر: Ban-Sassom (Menaham) the jeinish community of gabas, P. 284.

- وأنظر: الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية ص من هذا البحث.

(٥) أنظر: Nann (J - Q - R) jevis V. 1 P. 124 - 144, 257.

- وأنظر: ر. إدريس، الدولة للصنهاجية، ج (٢١)، ص ٣٨٠.

(٦) أنظر: فصل الحياة الاقتصادية، ص.

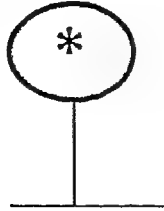
النصارى :-

أما عن النصارى فقد أشار ابن حردادية إلى أن قابس مدينة الأفارقة والعجم ، ومن الطبيعي أن يظل البعض منهم على النصرانية ، فقد ظل الجغرافيون - الذين وصفوا قابس - يتخذون مصطلح الأفارقة والعجم في كتاباتهم^(١)، حتى القرن السادس من الهجرة ، مما يدل على أنهم كانوا حينذاك تجمع منهم ومميز في مجموع السكان، ثم غلب اسم النصارى بعد ذلك.

وإذا كان أكثر نصارى قابس من الأفارقة فقد كانت أقلية منهم من البربر ، وقد كانت تعتبر مقعدا للأسقفية لذا نجد أنه من أهم التدابير التي اتخذها حسان لصيانة البلاد ، ولالتفافه لإصلاح أغلاط العلائق الكنائسية^(٢)، وكانت تابعة لسلطان كنيسة أنجيية ، فالكنيسة (الكاثوليكية) تابعة للكرسي الرسولي بروما ، والكنيسة (الأرثوذكسية) تابعة لبطريركية المسكونية في القسطنطينية ، وهما أنجبيتان عن البلاد ولا سبيل للإغضاء عنهما ، فجمع قساوسة المذهبين ، وأمرهما بقطع هذه الصلات مع تلك المراجع وربطها بالكنيسة المرقسية في الإسكندرية التابعة لدولة الخلافة^(٣)، وهو تدبير يدل على نكاه سياسي خارق يجدر بمثل حسان رجل الدولة ، ومن اصطلاحات المهمة المتعلقة بالتقاليد الغير الشعار ، فقد كان لقرطاجنة شعار قومي اتخذته للبلاد وقد اعتنقت الديانة النصرانية برسم على الصورة التالية^(٤):-



وهو يعرف بالصليب القرطاجي ، فغيره بصورة لا تتنافى التقاليد الإسلامية وجعله على هذه الصورة.



فرغ من الأول رمز التتليث ، وعوض الأخير بوضع كرة الأرض على العمود الأسطواني وجعل ذلك شعارا للمسلمين بدلا من الشعار القرطاجي. وأجراه على سك النقود ، وكانت على عهد الروم البيزنطيين تضرب على الصورة الآتية:-



الوجه الأول عليه صورة القيصر وولي العهد أو القيصرة ، إن لم يكن للقيصر ولي عهد ، وبه من الكتابة اسم القيصر والقباه^(٥)، وعلى الوجه الثاني (شكل ٢) في الوسط صليب مقام على ثلاث درج وحول الدائرة ما تعريبه : ضرب هذا بإفريقية سنة كذا ، وهي تذكر

(١) - Incyclopedia de l'islam - Panss d' ledin, 1978

(٢) - B??? tom, IV P. 352 - 355.

(٣) عبد العزيز الثعالبي ، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي لنهاية الدولة الأغلبية ، تحقيق أحمد بن ، ومحمد إدريس ، ص ٨٠ وما يليها.

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحات.

(٥) نفس المصدر والصفحات.

فحسب عقد مقدرة بعشر سنوات من استيلاء قيصر ذلك العهد ، فيقال مثلاً : سنة كذا من لا عقد كذا^(١).

أما الدينار القرطاجي اللاتيني العربي الذي ضربه حسان في ولايته ، فكان رسمه كما يلي :-



فالوجه الأول فيه صورة عبد الملك وولي عهده ، والوجه الثاني فيه الشعار القرطاجي في الإسلام ، وبعد حين ضرب نقوداً أخرى حُذف منها الصور ، ووضع مكانها كتابة باللاتينية بطريقة الاختزال هكذا^(٢) :-

INDNIMIORCVMODS



وصورة النناير الثانية هكذا :-

في الوجه الأول ، كتب عليه ما نصّه :-

IN NOMINEDOMINIMISERICORDIS UNTUS

ترجمتها "بسم الله الرحمن الإله الأحد.

الوجه الثاني :-

UN USDEUSNISI SOINIS ALISSIMILIS

تعريبها " وحده لا شريك ولا مثيل له .

FERIII IN AFRICAN IN DICTIONE III

ضرب بإفريقية في العشرة الثالثة يقابل ٨٥ هـ^(٣).

وترتيب حسان في السياسة الداخلية أنه كتب الخراج على الروم والمنتصرة من الأفارقة وأعفى من أسلم منهم ، لقاء التجنيد والخروج للقتال ، فدانت له بذلك البلاد من برقة إلى لاسوس الأقصى ، فمنهم من أسلم وحسن إسلامه ، ومنهم من أبي وأطاع ، فضرب عليه الجزية^(٤).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفسه.

(٣) نفس المصدر والصفحات.

(٤) نفسه.

رضوان الله ، كما تنص في ذلك المصادر المعتمدة كأسد الغابة والإصابة والاستيعاد وطبقات ابن سعد وغيرها ... إن طبيعة البلاد تؤثر في البشرة كما هو معروف .
وكلمة الفرنج يقصد بها الفرنسيين ، قال ابن خلدون " وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجية ، وتسميها العامة بالإفرتيسيس ، نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرايسة ... الخ^(١) .

الترك والصقالبة : -

قد توافدوا في النصف الثاني من القرن ٥ هـ ، والتحقوا بخدمة الأمير الزيري تميم بن المعز ، وكان قائدهم يسمى شاه ملك / ولكنهم مالبثوا أن ثاروا على الأمير تميم وخرجوا عن طاعته (شاهملك وهو من أولاد بعض الأمراء الأتراك ببلاد المشرق)^(٢) ، كما وفد لبلاد المغوب طائفة من الغز مع قراقوش الأرمني ، وهم جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين ، جاءوا وانتشروا في معسكر حول قايس ، وقد عرفهم العرب في أيام الفتوح الأولى عندما دخلوا بلاد المسلمين أسرى ومماليك ، فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكرية ، وقد ألحقهم الموحدون في جيوشهم وأغدقوا عليهم الأموال والعطاء^(٣) ، وسيكونون بعد ذلك جزءا من جيش الدولة الحفصية حول قايس ... هؤلاء الصقالبة والروم وبعض أجناس جلبت لبلاد إفريقية عن طريق الشراء والأسر ، وكان من المعروف أن عدوا من الأميرات في عهد بني زيري من أصل رومي أو صقلبي وأن حاضنة باديس الشهيرة التي وفدت مع أفراد أسرتها إلى إفريقية كانت من أصل صقلبي^(٤) ، ولقد عاشوا كطائفة أو عنصر في المجتمع القبايسي .

ثانيا: طبقات المجتمع : -

أ- طبقة الخاصة:

هذه الكلمة تعني لغويا اختلاف العامة ، وهي من الخصوصية^(٥) ، تنقسم هذه الطبقة في قايس لنوعين : كبار رجال الدولة مثل الأمير والوزراء الذين أختصوا أنفسهم بالسلطة والنفوذ ، كأمرء صنهاجة أو بني جامع أو بني حفص ، وعلية القوم وكلاهما يكون الفئة المتميزة من حيث السلطة والنفوذ والجاه في المجتمع القبايسي^(٦) ، وقد تكونت هذه تدريجيا ولم تقتصر على عنصر بعينه ، بل انتمى إليها أفراد من عنصر البربر والعنصر العربي وغيرهما ، وكان العنصر البربري ، على سبيل المثال - نفر من كتامة ونفر من صنهاجة التي كان فيها بنوزيري^(٧) ، وبنو حفص^(٨) ، أما العنصر العربي وكان من العرب الهلالية ، مثل مؤنس بين

(١) محمود شيت خطاب : سكان المغرب .. ص ١١٣ .

- وقد استخدم الجند الروم في الجيش في الأندلس وفي المغرب في الجيش المرابطي كذلك في جيش مأمون الموحدي ، أنظر

: عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي ص ١٠٨ .

- هذا إلى جانب السبي سواء مسلم أو رومي أو عناصر أخرى .

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٤٢/٢٤١ ، وأنظر : ابن غليون : التتار ، ص ٤١/٤٢ .

(٣) المراكشي : المعجب ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب ، وراقات ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ .

(٥) والخصوصية هي ما تخصه لنفسك دون غيرك ، أنظر : ابن منظور لسان العرب ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .

(٦) الذين كانوا على قايس أيان الفاطميين في ذلك ، أنظر : الداعي انريس ، تاريخ للدولة الفاطمية في المغرب ، تـح/ محمد

البعلاوي ، ص ١٧٦ .

(٧) كأمرء بني زيري الذين تولوا في بعض الأوقات قايس ، أنظر ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ، والثجاني ، ص ٩٥ - ٩٧ .

(٨) أمراء الدولة الحفصيين : ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

يحيي الذي كان مقدما على العرب الهلالية واستقر في قابس بعد فتحها على يد الفاطميين^(١)، ثم أسر بني جامع الهلاليين التي تطورت في قابس وترقت في عهدهم رقباً بعيد المدى. وانضم لهذه الطبقة عناصر أخرى مثل العنصر الأرمني متمثلاً في قراقوش الأرمني، وعنصر بربري آخر متمثلاً في بني غانية، ثم العنصر الرومي متمثلاً في نورمان صقلية الذين احتلوا قابس فترة من الزمن لكنه لم يترك أثراً يذكرنا تمتعت هذه الطبقة بالسلطة والجاه والثروة، فكان منها كبار رجال الحكم في قابس على اختلاف مناصبهم كالولاء.

الحياة الاجتماعية لطبقة الخاصة :-

شملت هذه الطبقة الولاة وأصحاب الشرطة وصاحب المدينة من بني زيري - أي البربر - ، ولتطبيق قول د/ حسن محمود في "أن القبائل صاحبة السيادة كانت تؤلف من طبقة أرستقراطية في المجتمع المثلث تخص نفسها بالشرف والسيادة"^(٢)،

وهذا التواء بين بني زيري الصنهاجيين مع بني غانية لأنهم من المرابطين. ومن الطبيعي أن تتميز هذه الفئة بمظاهر خاصة في أسلوب معيشتها، فمن ناحية الملابس تألقوا بأفخر الثياب وأغلاها مما عرف في ذلك العصر من ثياب ونسيج، وكانوا يلبسون الديباج السقلاطون وأثواب المعاجر القابسية أو المنسوجات الحريرية المزركشة المشهورة بقابس وتحتوي القطعة إلى جانب شريط الطراز على شريط زخرفي قوام زخرفته جامات تضم رسومات آدمية وحيوانية نباتية^(٣).

وشملت طبقة الخاصة أيضاً طبقة العرب من بني جامع الهلاليين الذين عاشوا بذخا وسكنوا قصر العروسين وكانت لهم فيه مجالس اجتماعية ومجالس شعر في بلاطهم التي حفلت بالشعراء والوزراء رجالهم المقربين^(٤).

ويرتدي الخاصة من الولاة الآخرون، وهو نوع من التيجان الصغيرة المصنوعة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة، وتستعمل النساء الآخرون كغطاء الرأس مع الملابس والزي.

ب- طبقة العلماء :-

تتدرج مع هذه الطبقة في التقييم الاجتماعي فئات الفقهاء ورجال الدين والقضاة، حيث احتل هؤلاء منزلة رفيعة في طبقات المجتمع القابسي خاصة.

لقد كان الفلاس يتكاثرون عليهم وعلى حضور مجالسهم سواء في المسجد الجامع في قابس أو في المساجد الأخرى في جميع أنحاء المدينة، وكانت فتاواهم مستمدة من فتاوى^(٥)، المسجد الجامع الأعظم بالقيروان، ولقد أنتقل بعضهم للقيروان أمثال أبو الحسن القابسي^(٦)، الذي كانت له آراؤه القيمة التي يحترمها الجميع ويتلقونها على يديه ويستمعون لفتاواه، لذا فقد اختلفت نظرة السلطة الزيرية لهؤلاء العلماء من وقت لآخر، لكن في الأغلب الأعم كانت السلطة الزيرية

(١) سجل ٥ من السجلات المستنصرين.

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، ص ٢٤٢.

(٣) أنظر : معاد ماهر : للمسيح الإسلامي، ص ١٢٢.

(٤) رينهارت دورزي "المعجم المفصل بأسماء القلايس : ترجمة إكرام فاضل، ص (٣٠ - ٧٠ - ٤٩).

- وبنو غانية كانوا يشبهون بأجدادهم للمرابطين وكانت حركتهم في قابس وإريقية لتقويض الموحدين وإحياء مجد المرابطين.

- أنظر : الفصل الثاني من هذه الرسالة : الحياة السياسية.

(٥) أبو العباس الغزالي : علون للدراسة، ص ٢٧٩.

(٦) أنظر : الحديث عنه في هذا الفصل "الحياة الثقافية".

تنظر لهم بعين الخيفة والتوجس إذ كانوا يشكلون القوة المعارضة للسلطة المحالفة للسلطان^(١)، في أحيان كثيرة بسبب فتوهم التي كان لها أقوى التأثير في نفوس الناس لأن الفتاوى كانت تصدر بنية صافية للإصلاح من ضمائر حية ومن علم متعمد في الدين الحنيف ، لذا احتلوا دائماً المكانة المرموقة في المجتمع القابسي^(٢)، لقد كان لهذه الطبقة أعظم تأثير في تثبيت المذهب المالكي في إفريقية وقابس التي نلاحظ فيها كثرة الزوايا والأربطة التي يعيش فيها الصالحون من الناس^(٣)، للنفقة في الدين والجهاد منذ هجمات الروم وقت الضرورة لذلك كان كثرة الزهاد والصالحين في هذه الأربطة والذين ننروا حياتهم للعيش من أجل الدين والدفاع عنه وتركوا متاع الدنيا^(٤)، ويلاحظ أن حياة هؤلاء العلماء كانت تتم بحرية التنقل في سبيل العلم ليس بين قابس والقيروان وتونس وغيرها من مراكز العلم في أفريقية لكن بين مدارس العلم في المدينة ومكة ودمشق والفسطاط وبغداد والبصرة وكان هؤلاء العلماء يكونون جماعة قائمة بذاتها^(٥) ولم تخصص الخلافة رواتب لهم فكانوا يكتفون قوتهم من العمل في مهن أخرى كالصناعة والتجارة ولكن بعد ذلك أصبحت هناك أوقاف وأحباس على مدارس العلم والجوامع والزوايا وتبلور ذلك على عهد الموحدين وبني حفص.

ج- التجار :-

فمنهم مياسير التجار ، وقد نص ابن خلدون^(٦)، على أنه لا يجب عدهم من طبقات الخاصة بسبب اختلاف المعايير الأخلاقية بينهم ، ويرجع ذلك إلى أنهم يتصفون بصفات أخلاقية وطبائع ناتجة عن التجارة بالبيع والشرء وارتباط ذلك بالرغبة في تنمية المال والانتقال بالسلع من الأسواق في الميناء وفي مراكز القوافل والمساومة الدائمة مما يقتضي من البائع أن يكون جريئاً.

لقد حرص التجار على أموالهم ببعدهم أحياناً عن الصدق ، كما حرصوا على جلب الفوائد والأرباح مما قد يلجئهم لأساليب تورثهم شر الأعمال كالغش والجور في الأثمان ، فإذا ما تمكنوا من تكوين الثروات الضخمة ، تمكنوا من الاتصال بأهل الدولة ورجال الحكم من الولاة هادفين من وراء ذلك الشهرة والسطوة وهؤلاء يتركون العمل لوكلاء ومتدربين لهم، ويمكن بعد ذلك أن يتخلوا عن الصفات الذميمة ويتحلوا بأخلاق الخاصة من القوم ، وهناك من التجار من يتمتع بقدر من الثراء يكفيه معيشة عالية مثل الصباغ والحداد وصانعي الثياب ، وقد يكونون من يهود قابس ، وهناك أصناف أخرى من التجار لهم جوانات ، وكل منهم حرفة مثل الزجاج والدهان والعطور بالإضافة لأصحاب الحمامات ، وهؤلاء التجار مترفون ينعمون بالثراء^(٧). والتجار كانوا يمثلون جانباً هاماً من طبقات المجتمع في المدن ، وكانت أحوالهم المالية والاجتماعية أفضل من باقي الفئات السكانية نتيجة أرباحهم الوفيرة خاصة التجار الذين يتعلمون

(١) أنظر : الدياغ : معالم الإيمان ، ج ٣ ، ص ٢٣٦ - ٢٨٩ ، دبرت مكيدة لبن عبد الصمد ، لحبيب في قابس وقتل في طريقة لمصر.

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحات ، عبد الصمد ،

- وهذه المكانة المرموقة لقابس مستمدة من الفتح الإسلامي حيث إنهم يتبركون لوجود الصحابي الجليل أبي لبابة الأنصاري في قابس.

(٣) الشجاني في أماكن كثيرة في وصف المنطقة.

(٤) المصدر السابق.

(٥) فيما عدا في حالة الفقيه أبي عبد الله بن عبد الصمد الذي كان يدعو يوم الجمعة في جامع القيروان وهو خطيبه اللهم أصبح بك ووليك أبا الطاهر.

(٦) للمقدمة ص ٤٢.

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٩٥ - ٣٩٩.

مع بلاد السودان لندرة السلع بها ، لذا يحققون أرباحاً وفيرة تفوق أرباح التجار المستفيدين داخل المدينة^(١).

قيل أن نتحدث عن طبقة العامة ينبغي لنا ألا نتلافى طبقة أخرى موجودة في المجتمع القابسي وهي : -

د- الطبقة الوسطى : -

ضمت هذه الطبقة فئات مختلفة ، هي فئات التجار المتوسطين وأصحاب الحيازات الزراعية ، وأرباب الحرف المختلفة ، يليهم أواسط الفقهاء ، ورجال العلم والأدب ولو أن أغلب هؤلاء كانت فئة متميزة لها وزنها في المجتمع القابسي ، أما التجار ، فهم يمارسون عمليات التجارة الخارجية سواء البحرية أو التجارة الصحراوية التي وصلت للجنوب الإفريقي وكذلك للمشرق^(٢) ، وتجلب لقابس الفرو للقصور^(٣) ، وقام بها تجار مسلمون ويهود ، كما كان هناك نصارى من بيزة وجنوة يأتون على سفنهم فضلاً عن مشاركة التجار اليهود^(٤) ، كما انعكس هذا الأزدهار التجاري على السكان فقد كانوا يجهزون الزيتون لإرساله إلى^(٥) ، مما جعلهم يعيشون عيشة ثرية لكنها غالبية أحياناً ، أما التجارة الداخلية فقام بها أهل قابس من التجار المستقرين بها وكان غالبية القائمين عليها من المسلمين ، كذلك أهل الذمة ، فهم ينقلون تجارتهم بين قابس ومثيلاتها وكذلك للقرى حولها.

هـ- طبقة العامة في قابس : -

العامة خلاف الخاصة ، والعَمَمُ العامة ، اسم للجميع^(٦) ، والعامة كصفة لموصوف عكس الخاصة ، وهم يكونون السواد الأعظم في مجتمع قابس ، وأطلقت عليهم صفات متعددة منها (السواد - الدهماء - الغوغاء - الرعاع - الحرافيش - العيارون - الشطار ...) ^(٧) ، وصفهم المقريري^(٨) ، بزوي الحاجة والمسكنة ، وبذلك نستطيع أن نطلق لفظ العامة على الناس الذين هم في المستوي الأدنى من طبقات المجتمع ، وتضم هذه الطبقة كل العناصر المختلفة والمتنوعة لأنها تتضمن بعض العرب والبربر ، والبربر المستعربين ، والعبيد بكل أنواعهم ، وبعض من أهل الذمة كالنصارى واليهود إلى جانب عناصر الجند المختلفة ، كما تشمل الكثير من الحرفيين والصناع وصغار التجار واليائعين والحمالين والصيادين والرقيق والفلاحين والخدم من الإماء والرقيق والدباغين الذين كان أغلبهم يهوداً في قابس ، والباعة الجائلين ، وفي بعض التعريفات بهم أن سبب تسميتهم بالعامة هو جهلهم بالأمور الدينية التفصيلية المتعمقة ، فهم يقرون بالله ورسوله (ص) وما جاء به من أحاديث^(٩) ، لكن أحياناً ما يتفقه بعض منهم في الدين والعلوم

(١) نس المصنوع : ص ٣٨٩ ، ٣٩٧.

(٢) الوسياني ، المير ، مخطوط ، ورقات ٤٩ - ٢٦٠ / أنظر : سعد زغلول : هامش على السير ص ٨٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٢ - ١٦٢.

(٤) الإدريسي : نزعة المشتاق ، ج ١ ، ص ٢٨٠.

(٥)

(٦) ابن منظور : ج ٤ ، ص ٣١١٢.

(٧) العيارون والشطار عرفوا أثناء الفتنة بين الأمين والأمين ببغداد ، وفي مصر بالحرافيش ، وظهور أثناء واقعة الريفية.

- أنظر : الطبري ، ج (٧) ، حوادث هذه الفتنة ، ص

(٨) ما تسميه ثورة الريفي ، أنظر : إغاثة الأمة ، ص ٢٨ ، وأنظر محمد محمود إدريسي طبقة العامة في قرطبة ، ص ٥ وما يليها ،

أنظر : الزعفراني : ألف سنة ... ص ٢٠٩.

(٩) أنظر : الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، ط. الحامي ، ج ٢ ،

- وأنظر : الونشريسي ، المعيار ، ج ٣ - ٧ - ٨ حيث وردت فيها فتاوى خاصة بذلك.

- وأنظر : الخوارزمي مفاتيح العلوم ، طدار التهضة العربية ، ج ١ ، ص ٧.

ويصبح من طبقة العلماء بعد فترة من الزمن أو يعتني أحد صغار التجار أو الصاغ ، ويصبح من طبقة مياسير التجار أو الصناع ، وهذا ما يسمى بالجرارك الاجتماعي ذلك أن مجتمع قابس كان مجتمعاً مفتوحاً لكل المجتمعات الإسلامية ، إذ تستند أهمية هذا الموضوع للدور الحيوي ، الذي لعبته العامة ، دوراً حيوياً في مسار تطور المجتمع القابسي ، ولقد شكلت العامة أساس القوي المنتجة من الفلاحين والحرفيين وصغار التجار والدباغين والصيادين والباعة في الأسواق وغيرهم من الذين وقع عليهم عبء الإنتاج^(١)، فكانوا يمدون هذا المجتمع بحاجاته الأساسية من الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع من جهة ويزودون بيت المال في إفريقية بالخراج والمكوس التي كانت تعد من أهم موارده من جهة أخرى ، كما كان للعامة فعاليتها على مسرح الأحداث السياسية إذ ظهرت خلال هذا العصر كقوي شعبية محلية أرادت أن تعبر بشكل أو بآخر عن رفضها للقوي الخارجية الطامعة ، وعن إرادتها الذاتية فقاومت مذهب الشيعة الفاطمي مقاومة مستميتة لأسباب كثيرة ، وقد ساعد في ذلك تضافرها مع القضاء ورجال الطريق ، وذلك المذهب المالكي السائد^(٢)، غير أن هذه القوي كانت تمتنع أحياناً عن دفع الضرائب للسلطان وذلك للاستقلال^(٣)، وكذلك كان لهم دور في عهد بني جامع الهلاليين ، فهم الذين ثاروا على المولى يوسف وعاقبوه ، وعذبه أشنع تعذيب لتطاوله على سيده من بني قرّة في غياب الأمير مولى ، وهم الذين ثاروا أيضاً لاتصاله بنورمان صقلية^(٤)، كذلك ثورتهم أيضاً مطالبين برجوع سيده للحكم.

٤- الحياة الاجتماعية العامة في قابس :-

أ - العادات والتقاليد :-

اتسمت العادات والتقاليد في قابس بسمة خاصة بها ، واتخذت طابعاً معيناً عرفت به على مرّ العصور ، فمنذ القدم أطلق على أرض جربة وقابس أرض اللوتس^(٥)، وأهل هذه الأرض كانوا يأكلون اللوتس وعرفوا بأنهم أكلو اللوتس Lotophage وعرفوا أنهم تجار ذو اقتصادية قاهرة^(٦)، وقد تحدث الجغرافيون عن عاداتهم منذ القدم في تسميد نخيلهم وأشجارهم بالفضلات الأدمية لأنها أنفع وأكثر فائدة للزرع ، لذا اعتادت العامة بيع الفضلات لتسميد الحدائق والغواط ، فالمنزل القابسي كانت توجد فيه حفرة الغبار أو المستراح الذي لعب^(٧)، دوراً هاماً في توفير السماد العضوي الجيد ، وقد بني القابسيون في جزعين ، جزء تربط به الحيوانات الخاصة بهم ، وجزء به حفرة مغطاة بمصطبة حجرية أو خشبية مجهزة بعدد من الفوهات ، فبعد قضاء الحاجة تغطي بشيء من التراب وأحياناً تخلط الفضلات الأدمية والحيوانية ، ثم تفرغ

- وأنظر : الوسياني : السير ، مخطوط ، ورق ٤٧ ، ٥٢ .

(١) أنظر : سعد زغلول ، هامش على سير الإياضية ، ص ٨٢ ،

- أنظر : إدريسي العامة في قرطبة ، ص ٥ وما يليها .

(٢) فكانوا لا يصلون الجمعة في المساجد حتى مسجد القيروان ، وامتنعوا عن الذهاب ، للصلاة فيه حيث يرفع الأذان الشيعي ،

- أنظر : ابن عذاري / ج ١ .

(٣) وهذا أورده اليعقوبي منذ القرن الثالث من الهجرة ، أنظر : البلدان ، ص ٣٧٣ وأنظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٠ .

(٤) النجاني ، ص ١٠٠ / ١٠١ .

(٥) المرزوقي : قابس ، ص ٨٠٧ .

(٦) أنظر : البكري ، المسالك ، ج (٢) ، ص ٦٦٧ .

- ياقوت : المعجم ، ج (٤) ، ص ٢٨٠ .

(٧) الناجي الباقوطي : العمارة السكنية ... ص ٢٥ وما يليها .

عبر باب خارج يفتح على النهج ، ثم يحمل إلى الحقول عبر عربات مجرورة أو في أوعية من الحلفاء على ظهور الدواب^(١).

الاحتفالات العامة :-

ومن عادة القابسية الخروج للساحات المختلفة في قابس كساحة عيني ويخرجون للحدائق الغناء في أنحاء قابس يحتفلون بالمناسبات السعيدة والأعياد فيروحون عن أنفسهم ويقضون أوقاٹ سعيدة في السر وأكل الأكلات القابسية الخاصة^(٢)، وكانت جميع العناصر والطبقات التي تعيش في مجتمع قابس منذ العهد الصنهاجي إلى عهد الدولة الحفصية يشاركون في هذه العادات والاحتفالات^(٣)، ويحتفلون بحلول شهر رمضان المبارك بتلاوة القرآن الكريم وختمه والاعتكاف في المساجد معظم لياليه ، كما كان هناك المسرحاتي الذي ينفخ في بوق جهوري للتبنيه لوقت السحور قبل أن يؤذن الفجر.

أما ليلة المولد النبوي الشريف ، فكان لها التعظيم والإكبار لدى القابسيين ويكون بالإشهاد الديني والمدايح النبوية وإضاءة واجهات البيوت والشوارع ويصنعون الأطعمة والحلوي ويقومون بتوزيعها على الأقارب والجيران والفقراء لوجه الله تعالى^(٤)، ويقومون بزيارة قبر الصحابي الجليل ابن لبابة الأنصاري التماسا للخير والبركة ، وترين دار الوالي بالشموع ويشاركهم فرحتهم بهذه المناسبات الاجتماعية والدينية.

وكذلك الاحتفال بيوم عاشوراء ، فترين الأسواق أيضا ، ويكثر بيع الفواكه الجافة وآلات الطرب والموسيقى وتخرج الزكاة والصدقات^(٥)، كما تعمل الدريده والدجاج في التاسع من المحرم وعاشوراء^(٦)، كما كانوا يحتفلون بمقدم الربيع ، وهذا هو عيد النوروز^(٧)، تتفق فيه الأموال وتمد الموائد الحافلة بالأطعمة الفاخرة ويجتهدون في صناعة المرقار^(٨)، حتى لا يخلو منه إلا منازل الضعفاء. كما يصنعون في مختلف المناسبات المذكورة الخبز المطبق المشهورة به منطقة المطربة والخبز اللوز كذلك الرشنة المشهورة بها قابس وما حولها من مناطق تابعة لها

(١) العاصي البقلوخي - مرجع سابق نفس المكان

(٢) الثجاني ، ص ١٠٠.

(٣) أنظر : العمري ، وصف إفريقية ، ص ٢٩٢.

(٤) وهذا ما يحدث في تونس ، بالقياس لقابس وبقي مدن إفريقية ، أنظر : حسن حسني عبد الوهاب ، وراقات ص ٢٢٤.

(٥) ابن أبي دينار : المؤنس .. ص ٢٩٠ ، وأنظر : المرجع السابق ص ٢٣٥ الدريده (مثل للكنافة المصرية) ، أنظر المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٦) نفس المصدر.

(٧) في ذلك أنظر : المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ ، وأنظر : عبد المنعم ماجد نظم الفاطميين ، ص ٤٠ - ٤٢ ، وأنظر :

فؤاد عبد المعطي : النوروز ، ط. جامعة بيروت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ص ٢٥ - ٣١ - ٣٧ - ٤٧ - ١٢١.

- وغالبا في النوروز في أول مايو ، وهو من أعظم أعياد الفرس ، ويتميز بأنه استقبال وتركبة وامتتاع جبابة الخراج ومن توليه العمال واستبدلهم وضرب الدراهم والدنانير وتركبة بيوت النيران وتقريب القربان وتشديد البنيان ، كما يعتقد الفرس بأن النوروز هو أول يوم في الزمان ، وكانت لهم تقاليد وعادات يتبعونها فيه ، فتميش الملوك من الأكاسرة عدة أيام ، يوم للقرابين يجلس الملك الحاجي ويوم لمعظماء أساورته ومواننته ويوم لأهل بيته .. وليقاء النيران في المساء ورش الماء في الصباح ، إلى آخر هذه الاحتفالات الفارسية ، وانتقل عيد النوروز إلى الأمويين ثم العباسيين ، وقد انتقل النوروز إلى مصر من قبل البلاد .. وحدنا المقرئزي عن احتفال الفاطميين بالنوروز ، فيذكر أن النوروز القبطي في أيامهم من حملة المواسم ، وهو لم يكن له صيغة لاتينية ، لكنه كان عيدا ينظر له على أنه فاتحة خير ، ومن المؤكد أنه احتفل به في إفريقية لأن هذه كانت عادة الفاطميين سواء في إفريقية أو في مصر.

(٨) نوع من الأطعمة المشهورة هناك.

- أنظر : ابن أبي دينار ، ص ٢٩٢.

كذلك عجينة اللوز والهاروس (الهريسة المعروفة في البلاد العربية) والكاكاس المصنوع من لحم الحوت الطري مع الإسفناخ (السيانخ) والفلفل الأخضر والخل والزيت مع الحساء الحوت والبشنة وهي نوع من الحبوب والبرقشوش وهو من حيوان بحري يسمى هلال البحر في قابس والكسرة أو خبز الطاحونة مع الحساء والشخشوخة (معجون الرمان) بالنسبة لوجبة الفطور

الحياة الاجتماعية الخاصة في قابس :-

المرأة :-

لقد أشاد كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا إفريقية خلال فترة البحث بجمال المرأة الإفريقية وحسن أخلاقها ، ورخامة صوتها^(١)، حتى نجد أن ابن دينار يذكر أن من لم يتزوج بتونسية ليس بمحصن^(٢)، وقد كان للمرأة الإفريقية دور أساسي في المجتمع وهو رعاية الأسرة والإشراف على شئون المنزل وتربية الأطفال ، وقد زادت مكانة المرأة في عهد الدولة الصنهاجية إلى عهد الدولة الحفصية وأصبح لها صوت اجتماعي وحرية مكفولة ، وهذا بفضل الأميرات الصنهاجيات مثل الأميرة أم العلو ، وكذلك الموحديات والحفصيات ، اللاتي كان لهن نصيب كبير في بناء المدارس وتشبيد المساجد التي كان لها أثر كبير في نشر العلم والتعليم بين البنات والبنين ، فنجد أن الأميرة عطف ، زوجة الأمير أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أمرت ببناء المدرسة التوفيقية بتونس ، وهي أول مدرسة مستقلة أسستها الأميرة على نفقتها الخاصة ، وكذلك جامع التوفيق^(٣)، وسار على هذا النهج في جميع المدن الإفريقية مثل قابس وكان بناء هذه المدارس يدل على الاهتمام بتعليم البنات منزلياً وصناعياً عن طريق المدارس التي تقع في المنازل ، وكانت صاحبات هذه الديار يقمن بدور المعلمات ، فيقمن بتلقين البنات وتعليمهن القرآن الكريم والمبادئ الدينية وتدريبهن على الشئون المنزلية وعلى الأشغال اليدوية مثل الغزل والتفصيل والخياطة والتطريز^(٤)، وقد حض القابسي في رسالته على تعليم البنات. أما طبيعة حياة النساء في البادية ، فكانت تختلف عن ذلك ، حيث تفرض عليها طبيعة عملهن في الرعي وكثرة تنقلهن وراء المراعي يخرجن سافرات ، كما كان لهن تأثير على مجرى الحياة في البادية ، فنجد أن السلطان المستنصر عندما رجع عن قابس رغب عرب من بني مهلهل في إعادة رئيسهم إليهم ، فركب نساوهم الحياة التي على ظهور الإبل ، واعترضن طريق المستنصر سافرات مولولات مطالبات بعودة رئيسهم إلى حكم توزر ، فقبل السلطان توسلهم وأعاد رئيسهم إلى حكم توزر^(٥).

وهذا نجده أمراً طبيعياً لدى المرأة البدوية فقد أملت عليها طبيعة العيش في الصحراء والأماكن المجردة الجدية في حياتها والثقة في نفسها (بعيدة عن التكلفة) مع أبناء عشيرتها. حول قابس في مجلس التوزيع.

حيث تنتشر الأحاديث والأخبار المتنوعة لأيادي النساء أصابع سحرية ، أصابع تحول الألوان إلى روائع ، أيادٍ تغزل وتنسج الصناعات التقليدية في الجنوب ، لها طعم الزمن ، روائع عفوية الشكل ومتناسقة الألوان ، عفوية كتحرك القوافل عبر الصحاري ، متناسقة كصوت حلدي البعير ، وكأغاني الأعراس عندما تصدح حناجر النساء ، النساء الصحراويات وساكنات القصور

(١) مجهول الاستبصار ، ص ١٥٣ ، الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ص ٤٢٥.

(٢) ابن دينار : المؤنس ، ص ١٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، وأنظر : ابن خلدون ، المعبر ، ج (٦) ، ص ٦٨٤ ، العمري ، وصف إفريقية ، ص ٧ ، حاشية

دائرة المعارف ، ج (٦) ، ص ٣٧ ، أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٨٥.

(٤) أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية ، ص ٨٧.

(٥) ابن خلدون ، المعبر ، ج (٦) ، ص ٩٠٠.

- وأنظر المرزوقي : البدو في حلهم وترحالهم.

يستعملان المنسج الأتقي المنساب أمامها مطروحاً على الأرض والخاص لنسج الأكياس ويصوت الشعر المكونة من عدة شرائط تسمى هنا (فليج) ، وكل قبيلة لها ألوانها المميزة من بعيد يستطيع المرء معرفة انتماء القافلة من لون الأكياس والخيام. والمرأة البربرية القاطنة بالقرى الجبلية تستعمل المنسج العمودي المشدود لأعمدة واقفة ، فهي تنسج^(١).

البرنس والحولي لحاف الرجل أو البخنوق الذي تغطي به المرأة جسدها ، فالأحمر الخمرى لون الدويرات والأسود يميز قرامشة ، والأزرق هو لون مطماطة وقابس وتطاوين^(٢) ، وهكذا فإن حارسة القرية والمدافعة عن نشاطها ورسومها بلغتها وتقاليدها البربرية هي المرأة وهي ربة البيت الكهفية البارعة التي تنسج بخفة الصوف الأزرق والأحمر وتوشح بزینات هندسية كما تنسج البسط والبرنس وتقيم مناسج حصر من نبات الحلفا^(٣) ، وتشارك زوجها في أعمال الحقل أيام الحصاد والدراس أو جنى الشار^(٤) ، وتتاجر في الأسواق وفي نفس الوقت تهتم بزینتها ، وكانت على قدر كبير من الشجاعة وحاربت حيث احتلت مكانة بارزة في المغرب والأندلس ، وقد بلغت مكانة المرأة البربرية مبلغاً عظيماً لدرجة أن بعض القبائل البربرية كانت تمجدها كل التمجيد فجعلها الأصل في الأسرة ورجحت كفتها عن الرجل ، والقاعدة العامة التي اتبعها البربر في الزواج هي الزواج من امرأة واحدة ، والمرأة البربرية حق اختيار شريكها.

أدوات الزينة عند المرأة القابسية :

حدث الرسول صلى الله عليه وسلم نساء المسلمين جميعاً على التجميل ، فقال الرسول (ص) للسيدة عائشة رضي الله عنها "مالي أراك شعناء ، مرهء ، سلتاء"^(٥) ، وفي قول آخر للرسول (ص) قال "إياكم والشعث حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها ويدهن بها"^(٦) ، وكانت المرأة القابسية تحرص كل الحرص على زينتها بتكحيل العيون والتخضب بالحناء القابسية^(٧) ، وارتداء أفضل الملابس والتحلي بالذهب والحلي خاصة في الأعياد.

أما عن أدوات الزينة التي تستخدمها النساء فقد ذكر الونشريسي بعضاً منها مثل المكاحل والمرادو الغالية ، والأمشاط والأمرية والنعال والقباقب وخرز الأمتعة بخيوط الذهب والفضة ، وكانت المرادو تصنع من الفضة للاكتحال ، ويحكى أن "الشيخ العوفي" صاغ لابنته مكحلة من فضة وقال "غلبتنا على ذلك أمها"^(٨) ، ويبدو أن بعض شيوخ وفقهاء الإسلام قد حرم استخدام تلك الأدوات ، خاصة إن كانت من معدني الذهب والفضة ، ورغم هذا يذكر الونشريسي أنها كانت منتشرة كثيراً بين طبقات النساء وكل على حسب مقدرتها ، واستخدمت النساء السواك للمحافظة

(١) مغنية : "باخنوج" عباءة للمرأة بنت للمحاميد يا عيشة ، ريشة ريشة ، فأمل لنساء الجبيلات تمزف على خيوط "الملسج" ، أنظر

: النشرة السياحية لتونس أنظر : Yacque Revault, Ar tis traditionnell le tunis, P. 33 - 48.

(٢) النشرة السياحية للتونسية ، المرجع السابق.

(٣) الوسياني : المير ، مخطوط ، ورقاق ٤٨ ، ط ١٤٢ ، ١٧٦.

(٤) أنظر : عبد العزيز بن عبد الله ، معطيات الحضارة المغربية ، ص ٢٩ ، ص ٧٧ ، الرحلة ، ص ٥٧ ،

- وأنظر : محمد بركات البيلي : البربر.

- وأنظر : المرزوقي : اليدو ، ص ٤٣ وما يليها.

(٥) ابن عبد ربه : طبائع النساء ، ص ٢٣ ، ١٢٤ - الشعناء التي لا تدهن ، والمرهء التي لا تكتحل ، والملتاء التي لا تتخضب ، أي لا تصبغ شعرها بالحناء.

(٦) نفس المصدر ، ص ١٢٣.

(٧) للقفشدي : صبح الأعشي ، ج ٥ ص ١٧٥.

(٨) الونشريسي ، "أحمد بن يحيى الونشريسي" : المعيار المغرب ، ج ٢ ، ص ٥٠٣.

على صحة أسنانهم وكان يصنع من خشب عطري ، ولقد نصّ الإسلام على استعمال السواك للغم ، وقد عرفت الزينة باسم الطلاء ، فتطلي العروس يوم فرحها بأنواع الطلاء والدهان^(١).
حلي المرأة في قابس : -

الذوق المحلي (الشعبي) غني بعباءات الإبداع ، ولعل أجمل ما وقع من إبداعه هو ما تفنن من صناعة الحلي وزخرفتها ، وقد ساعد على ذلك موقع قابس الجغرافي ، فالحضارات التي توافدت على أرضها كحضارة الفينيقيين والرومان والعرب وغيرهم ، وكذلك اتصالها بالعالم الخارجي عن طريق البحر وعن طريق الصحراء عكست فنونا ملبسية أضفت على أصابع الغنائين الحاذقين روحاً مستلهمة ، أصبحت من خصوصياتها ، فهو سر من أسرار صناعاتها وزخرفتها ما هو في بيئتهم ، وماتوارثوه من عادات وتقاليد ومأثورات ، بعضها متصل بالدين وبعضها الآخر بالعرف وعلى سبيل المثال ، فهم يصنعون قطعة دائرية ويرصعونها بخمس فصوص ويسمونها خمسة ، وقد يصنعونها أيضاً على شكل يد ويلبسونها لنفي الأذى وطرد العين ، أي أنها ارتبطت بالأفكار والعرف بالمغيبات فنجد العدد خمسة والنقش ، ومسميات الحلي مثل كل مسميات الجهات الإفريقية الأخرى ، كالخلخال والتيفار والبلج والريجاز والنومس والحديدة والحلقة والصخاب والنبلة ، أما البادية في قابس وعند البربر فيبدو أن أغلب حليهم من الفضة المزخرفة بالنقوش الخاصة مثل نقوش الحناء عندهم^(٢).
الخلخال : ما يلبس حول الساق كحلقة من ذهب أو فضة ، والحلقة دائرة فضية أو ذهبية تستعمل للربط من طرفي النطاق الذي تشد به المرأة أطرافاً وهي بالأزراء ويغلب استعمالها عند نساء البادية.

الشركة : هي القلادة الكبيرة التي تتدلى حتى تلامس البطن وتكون من الذهب أو الفضة ، أو محلاة بالجواهر ، أو العين ويتفنن الصناع في ترصيعها ، وفي قابس يضعها الصانع من (محبوب) وهو نوع من النقود الذهبية أو من خمسات وقمریات تقصّل بينهما بالمرجان والتفاح الذهبي الذي يسمى "حشف" وهذا في جربة.

أما المحبوب في قابس فيصنع في الشركة - كما يوجد حول طرحة المرأة ثم يحلي بالنوار وهي ورود صغيرة طبيعية وبخاصة للعرائس ، وهذا التقليد يخص قابس فقط^(٣).

الزواج : -

حض الإسلام على الزواج وشجعه ، وهناك أحاديث كثيرة تحض على النكاح ، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت "النكاح رقّ ، فلينظر أحدكم من يرق كريمة" وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "كم سنتنا النكاح"^(٤) ، وفي عصر ما قبل الإسلام وبدايته كان الزواج مشافهة ، فلم يعرف العرب عقود الزواج المكتوبة ، وكان الزواج يتفق عليه بين ولي الزوجة - وكان

(١) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٢٥٢.

(٢) محي الدين شريف ، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة ، ومن أحاديث مسجلة عن الباحثين كانت نذاع على قناة تونس القضائية ، ق ٧.

- وكان اليهود مختصين بهذه الصناعة في قابس ، أنظر : الزعراني : ألف سنة ... ص ١٠١.

(٤) الخلخال والحزام للرداء المضبوط باللون الأزرق الليلي ، وهو لباس صاحبه المملكتة الجسم مثل : الجارية وإيلي العامرية وعيلة الحيشية.

- أنظر : شريف ، نفس المصدر.

- برنامج تليفزيوني عن تقاليد قابس.

(٥) ابن عبد ربه : ص ٣٤٩ ، ٣٥٠.

في الغالب والدها ، وبين وكيل الزوج وكان في الغالب والده ، ويؤكد الدكتور / احمد الشامي على عدم العثور على أي عقود زواج إسلامية مكتوبة في فترة صدر الإسلام^(١)،

ويذكر جيشار أن الإسلام لم يستطع أن يقضي على الزواج القبلي - أي الزواج الداخلي - في نطاق القبيلة الواحدة رغم ما جاء من أحاديث تحث على الزواج البعيد عن نطاق القبيلة لما فيه من ميزات من ناحية تحسين الجنس والسلام ونزوي الإسلام أيضاً قد حرم زواج الأقارب من الدرجة الأولى كالأختين مثلاً في ذمة رجل واحد وفي آن واحد^(٢)، والحقيقة أن رأي جيشار هذا صواب لحد بعيد في مراحل الإسلام الأولى وقبل أن يتوسع هذا التوسع الكبير الذي أصبح من الصعب المحافظة معه على الزواج داخل نطاق القبيلة ، وضربنا مثلاً لذلك بالمجتمع الأندلسي ، وأقدم عقد زواج وصل إلينا يرجع إلى نهاية القرن الثاني الهجري^(٣)، ورغم التغييرات التي طرأت على عقود الزواج على مر العصور الإسلامية إلا أن مضمونها ظل واحداً وهو الإيجاب والقبول^(٤)، أما عن عقود الزواج في قايص بصفة خاصة ، فيتضح من الوثائق التي أوردتها الوثنريسي^(٥)، على سبيل المثال ، أن عقد الزواج كان يبدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله وبيان أهمية النكاح بالاسترشاد بآية من القرآن ثم اسم الزوج واسم الزوجة ووالدها ، وهل هي بكر أم ثيب؟ ومقدار الصداق الذي قبضه والد الزوجة... الخ^(٦)، ولا يتم الزواج إلا بولي وصداق وشهود ، وأقل الصداق من الذهب المالك ربع دينار ، ولا يجوز نكاح بصداق مجهول ويفسخ قبل البناء ، ويجعل الصداق لأجل معلوم^(٧)، وبعد الاتفاق على المهر والترتيبات الأخري تتم كتابة العقد ، وقد استحدث لهذا الغرض خطة تسمى خطة المناكح لتزويج المرأة التي غاب عنها وليها ، أو من لا ولي لها ، واشترط ابن عيود ألا تسند هذه الخطة إلا لرجل ورع ، وقد تولاه في قرطبة زيدون بن محمد المخزومي^(٨)، وشروط عقد الزواج لا بد أن تكون واضحة وملزمة للطرفين ولا يلتزم أحدهما بعد الزواج بشروط لم تكون في عقد الزواج ، وأجرة قاضي المناكح كما ذكر الوثنريسي تكون على الزوجين أو إحداها حسب الظروف^(٩)، أما عقد الزواج المسلم في قايص بالمرأة الكتابية فلا يختلف عن عقد زواج المسلمة ، فإن كان لها ولي ذكر فهي العقد ، وإن لم يكن لها ولي عقد نكاحها أساقفة أهل دينها ، إلا أن التشريعات الفقهية حرصت على ألا يعقد نكاح المسيحية أو اليهودية أمير أو ولي مسلم ، فأولياؤها أحق بالعقد ، إلا أن يرفضوا فيعقد نكاحها الأمير^(١٠)، وقد عرف القابسيون الخاطبة ، وكانت أمور الزواج عادة لا تبدأ إلا بالخطبة ، وتتولى إحدى الخاطبات هذه المهمة مبينة صفات وحسنات كل من الرجل والمرأة ، وأحياناً يقوم بهذا الدور الأصدقاء وقد اعتبر القابسيون يوم الجمعة هو اليوم المفضل لهذه المناسبة^(١١)، ويذكر الخشني أن هناك رجالاً أندلسيين كانوا يصرون على رؤية زوجاتهم في

(١) أحمد الشامي : التطور التاريخي لعقود الزواج في الإسلام ، دراسة مقارنة جامعة الزقازيق ١٩٩٢م ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) Guichard: Op, Cit, P. 75.

- وأنظر : رواية عبد الحميد : المرأة في العرب الإسلامي ، دكتوراه في جامعة الإسكندرية ، ١٩٩٩م .

(٣) الشامي : عقود الزواج ، ص ١٤ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٦ ، ٣ / المعيار من ٧ وأنظر : كمال أبو مصطفى عن الوثنريسي .

(٥) كما أبو مصطفى : مالقة الإسلامية ، ص ٦٠ ، وللمزيد عن شروط عقود الزواج .

(٦) راجع نفس المرجع ، ص ٦١ (عن الوثنريسي)

(٧) ابن عبد الرعوف : ثلاث رسائل أندلسية "الرسالة الثالثة" ، ص ٨٠ .

(٨) إبراهيم القادري : مجلة دراسات أندلسية ، مقال عن ظاهرة الزواج في الأندلس ، تونس ، المند التاسع ، يناير ١٩٩٣ ، ص ١٧ .

١٨ .

(٩) الوثنريسي : المعيار للمغرب ، ج (٣) ، ص ١١٠ - ١١١ - ١١٥ - ١١٦ .

(١٠) إبراهيم القادري : دراسات أندلسية ، ص ١٩ .

المناسبة^(١)، ويذكر الخشتي أن هناك رجالاً أندلسيين كانوا يصرون على رؤية زوجاتهم في فترة الخطبة وقبل البناء بهن والعقد عليهن^(٢)، وهذا النظام كان سارياً في المغرب الأدنى والأندلس. وقد كان من حق الفتاة المخطوبة أن توث خايطها إذا كانت هذه الخطبة قد تمت برضاء وقبول الطرفين الخطيب ووالد الزوجة، والنكاح عقد شفاهة وبدون عقد، ولكن هذا الكلام الذي تم بين الطرفين لا بد أن يكون عليه شهود ومات الخايط قبل الدخول ترثه ويرثها هو أيضاً^(٣)، وقد أورد ابن عبد الملك في ذيل والتكملة ما يفيد بأن والد العروس أحياناً عندما يجد رجلاً صالحاً يخطبه لابنته دون حرج، ومثال ذلك ما ذكره عن أسماء بنت داود مولى أمير المؤمنين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله وهي من مدينة بلنسية، وقد زوجها أبوها من أحمد بن محرزفتي كان يقرأ عليه وذلك لما وجده فيه من فضل وعقل فأعجبه، فقال له يوماً: أتحب أن أزوجهك أبنتي؟ فحجل الفتى وذكر له حاجته في ذلك فزوجها منه ونذر لها داراً ورزقاً إليه^(٤).

الطلاق :-

ويعد الطلاق من مفردات النظام الأساسي ومن الأسباب التي يأخذ بها القاضي في ذلك أنت تكون الزوجة كارهة لزوجها، وأيضاً كما ذكر الولشيري في المعيار، تطلق المرأة من الزوج الذي يغتصب أموالها بدون إئنها ورضاه، فلها في هذه الحالة أن تطلب الطلاق، فإن رفض الزوج طلاقها فإثمها في عتقه أي ذنبها في رقبته ولها أن تلجأ للقاضي^(٥)، ومن الأسباب الموجبة للطلاق المرأة أيضاً إذا أساء زوجها معاملتها بالسب أو الضرب أو كانت تسكن معه في حاضرة وتشكو منه قلة النفقة رغم ثرائه ورغبت في أن تلجأ لقوم صالحين هروباً منه ومن معاملته، في هذه الحالة يطلب القاضي إيداعها عند قوم أمنين حتى يتعهد الزوج بتغيير معاملته لها أو تطلق منه، وتوضع المرأة مع نساء مثله وليس مع رجال حفاظاً عليها حتى تحل مشكلتها^(٦)، وكان يلجأ لهذا الحل حماية للمرأة خاصة إذا كانت غير ميسورة وخيفة عليها من الضياع لعدم وجود عائل لها أو مورد رزق.

وكان لأهل الذمة مراسم خاصة في الزواج :-

تبدأ مراسم الزواج في الشريعة اليهودية بالخطبة وقد حددت الشريعة السن اللائق للزواج بثمانية عشر عاماً للرجل، لكن يجوز للرجل الزواج عند بلوغ ١٣ سنة، كما يجوز زواج المرأة عند سن ١٢،٥ سنة بشرط أن تثبت عانتها ولو شعرتين^(٧)، يتم الزواج حسب عقد يسمى كتوباه (KatubaKatuba) من أركانه تسمية المرأة على الرجل وتقديسها عليه بقبولها ولو بخاتم يعطيه إليها يداً بيد بحضرة شاهدين شرعيين قائلاً لها بالعبرية تقدست لي زوجة بهذا الخاتم، ويحرر العقد، وبعده تعقد صلاة البركة بحضرة عشرة رجال على الأقل^(٨)، والمهر في الشريعة

(١) المرجع السابق ص ١٥، ليفي بروفنسال : ثلاث رسائل في الحسبة، ص ٧٩.

(٢) الخشتي : قضاة قرطبة، ص ١٨.

(٣) الولشيري : المعيار للمغرب، ج ٣، ص ١٦٨.

(٤) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة، ج ٢، ص ٤٤٨ ترجمة رقم ٢٣٦.

(٥) أنظر : الولشيري، ج ٦، ص ١٤٧ - ١٤٨.

- والخشتي : قضاة قرطبة، ص ٦٣ - ٦٤.

(٦) الولشيري، ج ٦، ص ١٤٩.

- ونفس المصدر، ج ٣، ص ١٣١.

(٧) حاي بن شمعون "الأحكام للشريعة في الأحوال الشخصية للإسرائيليين القاهرة ١٩١٩م، ص ٦٠٢.

(٨) نفسه : ص ٨، ٩، وسمي عقد الزواج بفرامة الطلاق أو المؤخر، ومن المرجح أن هذا التسمية جاءت لأن غرامة الطلاق أغلى ما في العقد، أنظر : ليفي أبو المعجد، عقد الزواج عند اليهود كتوباه وكثيره يعقد الزواج عند شعوب الشرق الأدنى القديم حوليات كلية الآداب، عين شمس، م ٢٤، ج ١، ١٩٩٠ - ١٩٩٦، ص ٩٢.

التمودية ركن لازم للزواج وشرط قانوني لاتعداد وهو قسمان : معجل ومؤجل ، ويسمي المؤخر بالعبرية كتوباه^(١)، يشار للجزء المعجل في العقد بأن الزوجة تسلمته كما هو شائع في عقود الزواج الإسلامية ، والمؤخر يدفعه الزوج عند الطلاق ، أو يدفعه ورثته بعد وفاته للزوجة^(٢)، ومبلغ الكتوباه للبكر مائتان وللثيب مائة دينار ، وتنص المشنا على أنه "إذا رغب الزوج أن تضيف لهذا المبلغ ١٠ آلاف فلتضيف، كما وجدت يهودية خاصة بالمنازعات والطلاق"^(٣).

منزل الأسرة في قابس

هذا المنزل مثل كل المنازل في أي مدينة إسلامية أخرى في المجتمع الإسلامي ، فالحوش فيه هو رمز الحياة^(٤)، ومركز الجنب لكل العناصر لكي تتنظم حوله ، وتطل عليه مثل غرف المنزل ، وهناك عدة مصطلحات لهذا الحوش ، فهو الصبحة والفناء ليدل على ساحة أو قاعة بدون سقف تتوسط المنزل في قابس ، يسمي أحيانا وسط الدار ، وقد كانت له وظيفة اجتماعية هامة جدًا ، فهو مكان اجتماع الأسرة والتحدث والودّ وحلّ المشاكل بينهم ومكان استقبال الضيوف ، ومكان لإقامة الحفلات والولائم في المناسبات السارة ، وكان الترويح في العادة والمواساة في بعض المناسبات غير السارة ، بمعنى شامل هو الحياة بكل معانيها^(٥).

الفناء

إن الفناء أو الحوش هو الحلقة الرابطة المميزة لكل العمائر المدنية في المدينة الإسلامية^(٦)، وهنا يظهر التساؤل ، هل تبني فكرة الفناء عند المسلم تابعة من ظروف مناخية أو اجتماعية مكتسبة من الحضارات القديمة أم أن هناك ظروفًا جديدة أملت عليه وهي الإسلام لتعاليمه القومية التي تحفظ للمبني خصوصيته وحرمة.

عادة الولائم المنزلية في قابس :-

موارد المنزل القابسي تمد في أحلى المناسبات العائلية مثل الزواج ، وسبوع المولود وموسم الحج سواء خروج الحجاج أو عودتهم من الحج ، ويوم عاشوراء وشهر رمضان وعيد الفطر المبارك ، وعيد الأضحى المبارك وعيد النور وغيرها إلى جانب الكعك والحلوي^(٧)، كانت مائدة الرجل في قابس حافلة بأطياب الطعام ويجتمع عليها ما لا يجتمع في أي مائدة الأطعمة:

فهي تجمع المتضاد من الأطعمة التي لا توجد في مكان واحد سوى قابس وهي : - لحم الحوت الطري - الرطب الجني الغزال^(٨)، ولحم الغزال الصحراوي مما يدل على خيرات قابس

(١) ثروت أنيس الأسبوطي : نظام الأسرة ، ص ٢٢٤ ، والمهر في الشريعة الإسلامية حق من حقوق الزوجة على زوجها ، لا يلزم تقديمه كله عند إنشاء العقد ، بل يجوز أن يلزم بعضه ، ويؤخر بعضه لأجل معلوم كسنة أو شهر ، كما يجوز إلى أقرب الأجلين "الطلاق أو الوفاة" ، محمد أبو زهرة ، الأحوال الشخصية ، ص ١٩٣ - ٥٣.

(٢) Gootein, Mediterranean Society, 3, P. 119.

(٣) انظر ، عبد الرحمن صير ، اليهود في المغرب ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، قسم تاريخ ، جامعة لرقازيق.

(٤) صالح مصطفى لمعي : الشخصية الإسلامية في التصميم المعماري للمبني ذي الفناء الصحة ، بحث من أبحاث ندوة السكان في

المدينة الإسلامية ، ط القاهرة ، ط ١ ، ص ٤٩ وما يليها.

(٥) حسن فتحي : العمارة البيئية في المدينة الإسلامية ، وأنظر : ثروت عكاشة.

(٦) القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، ط. الهيئة العامة للكتاب ، ط ٢ ، ص ٨٩ وما يليها.

(٧) سعيد عاشور : الحياة الاجتماعية ص ٢٦٩.

(٨) الاستيفار : ص ١١٢ ، وأنظر : الشجاني ، ص ٩٧.

وامتيازها إلى جانب كرم أهلها وافتخارهم برخاء بلادهم ، وقد امدتنا المصادر المختلفة^(١) ، بصورة صادقة عن الاحتفالات الإسلامية ، فمثلا في القيروان أو المهدية أو تونس عادات الاحتفالات التي تتصف بمسحة إقليمية ، وتتخذ طابعاً خاصاً بها ، مثل تولية السلطان أو عودته .

تقاليد الأفراح في قابس : -

تنزين العروس - عروس قابس على وجه الخصوص - فيكون ملبسها من الملابس الذهبية المحلاة بالخيوط الفضية وحرير السفساري أو العكس على حسب المقدرة المالية ، لكن العادات واحدة ، فيلبس أيضاً السخاب ، وهي عبارة عن قلادة على الصدر من عبير مخلوط بالمحلب ومضاف إليه المسك ثم يدق ويعجن وتصنع من هذا الخليط مثلثات صغيرة تنقّب من وسطها وتلضم من فرع إلى ثلاثة يفصل بينها لمنع الحسد ، ويمتاز السخاب برائحته الزكية ومنظره البهيج بعد أن تتحلّى .

كما تتحلّى بالأقراط البديعة والخواتم المثقلة بالجواهر ، وليلة الفرح تسمى ليلة النجمة ، فهي اجتماع الأهل والخلان ، وتعامل العروس على أنها ملكة الحفل ، ويبقى هذا الحفل متواصلاً حتى الفجر ، وتتأق فيه العروس^(٢) ، بحليها وزينتها ، وتحمل على حجة وهي اليهودج الموضوع على الجمل ، وهذا اليهودج يزين بأصناف الحرير القابسي المسمى بالحجار ، ويتحول إلى بيت صغير من حرير على الجمل تجلس فيه العروس كملكة متوجة إلى منزل العريس في موكب كبير ، ووراءها الدفوف والمزامير والأهل والأقارب^(٣) ، وقد ظلت هذه العادات لوقت قديم في عروس قابس الكبيرة التي هي من نسل القبائل العربية كالحزم وهامة وغيرها حول قابس .

ويذكر الوثائقي أن النساء كن يمشين بنوع من النعال يحدث صوتاً عند المشي لجذب الأنظار ويسمي الخفاف الصرارة ، وكان المحتسب ينهي الحزازين - أي صناع الأحذية - عن صنع تلك النعال ، فإن عملوها بعد النهي وقع عليهم العقاب^(٤) .

وكانت العروس القابسية تحرص على أن يتكون جهازها من الأقمشة التي يكون معظمها من الحرير والقطيفة والمحمل ، وهي أفخر أنواع الأقمشة في ذلك الوقت^(٥) ، ومن الأقمشة جهاز العرائس أيضاً الغفارة^(٦) ، والمحززة^(٧) ، والثياب الرازي^(٨) ، ويذكر ابن حزم نصّاً غاية في الأهمية عن العروس "المقلة" الفقيرة وكيف كانت تساعد النساء خاصة المسنات - أي الكبيرات منهن - في إعارتها بعض الثياب والحلي ، وكان ذلك يحدث كما في باقي بلاد المغرب والأندلس .

وفي قابس كما بينه ابن حزم ، وبحدثنا أحد الدارسين عن احتفالات يوم العرس حيث تقدم

(١) على سبيل المثال ، العمري : وصف إفريقية ، وابن بطوطة ، ص ٧٠ وما يليها عن الاحتفالات في القاهرة .

(٢) انظر : محي الدين حريف الشعر للتونسي ص ٢٦-٨٦-٩٢

(٣) انظر : للشرة السباحية لأقصى الجنوب التونسي .

- انظر : شريف : نفس المصدر ، ص ٩٩ - ١٠٤ - ١٠٨ .

- انظر : المرزوقي ، ص ٢٨ - ٥٣ - ٧٣ .

(٤) الوثائقي : المعيار المغربي ، ج (٦) ، ص ٤٢٠ .

(٥) Levi Provençal : Op. Cit, T. III, P. 424 .

(٦) والغفارة : بكسر العين غطاء للرأس ، ويفتحها مع تشديد الفاء ، تلى عباءة .

(٧) إبراهيم القادري : دراسات أندلسية ، ص ١٧ .

(٨) Dozy : Op, Cit, PP. 312, 318 .

Yillert Boris : Documents Langnistique ethnographique sure une region du lunidion (Nefzaoua) : انظر

imprimerie nahonale de Trance, Parise 1980 P. 26 - 116 - 130

للعرّوس حقيبة أو (قفه) مملوءة بالحناء القابسية التي تضعها العروس مع أقرّبانها في اليوم السابق لزفافها في قابس والحلي الفضية والذهبية وقطع الثياب والمكاحل والمرايا والعطور والحريير وبعض المأكولات مع نساء قريبات العريس ثم يذهب رجال من أقرّباء العروس إلى حوش منزل العريس بالطبول والخيول التي ترقص براكيها ويصلون على النبي ويعرفون في وجهه بالبركة سيدي السلطان ليكون فال خير^(١). إلى جانب تحدث كل المحيطين بالعرّوس بجمالها وحسن طباعها

تقاليد الولادة :

أما تقاليد الولادة فهي بسيطة جداً فحالما تحس المرأة بالولادة ترسل لقريباتها وجاراتها فتحطن بها ، وتتولي إحدي العجائز المتمرّبات على التوليد ملازمتهما في الفراش. ويخرج الولد للنور صارخاً ، فتتلقاه الولادة^(٢) ، - لقابلة - وتقطع سرتة وتلته في الحزق النظيفة المعدة لذلك ، فإذا كان ولداً أطلقت النساء الزغاريد فيسمع الناس وتقدم التهاني للوالد ، وكلمات التهنة تقليدية معروفة وطالما مناسباً للطفل ويستشيرون مؤدب القلبية الذي له حصة في اسم المولود حسب الأبراج حتى يكون خير وبركة لذويه.

الختان :

لا يحدد وقت معين للختان ، بل يترك ذلك للفرصة السانحة مهما كان عمر الطفل ، ولكن جرت العادة أن يختن قبل السابعة من عمره ، وليس قبل مضي أسبوع على ولادته وتختلف حفلات الختان باختلاف حالة العائلة المادية ، فالأغنياء يقيمون حفلات كحفلات العرس ، تنبج فيه الذبايح ، وتختم بولائم تقدم فيها للناس حفان الطعام. أما الفقراء فينتهزون أي مناسبة كعرس قريب مثلاً ، أو أحد الأعياد ، ليختنوا أبناءهم حتى لا يتكلفوا آية مصاريف.

وللمختون في العرس تقليد خاص ، وهو أنه يقدم للعريس عند دخوله على عروسه فيحمله بين يديه لباب البيت ، وبعض العرسان يسلمه لأمه مع هدية مناسبة وتتلقى الأم ولدها إثر العملية وتضع تحت المكان السائل دماً بيضة دجاجة تسبح فوقها تلك الدماء (ولا أدري المقصود من ذلك ، ولم أجد من يعرف لهذه العملية تعليلاً).^(٣)

الألعاب الشعبية في بادية قابس :

يمارس الناس في البادية ألعاباً كثيرة بعضها مختص بالأطفال والبعض الآخر مختص بالكبار ، وبعضها يشترك فيه الكبار والصغار ، وأغلبها له تاريخ ممتد إلى العصر الجاهلي قبل الإسلام ، جلبته القبائل العربية النازحة لهذه البلاد.

١- لعبة إبل وخنّاب :

أي الإبل واللصوص ، والخنّاب جمع خانب ، وهو اللص في لهجة جنوب قابس والجنوب التونسي عامة ، وهذه اللعبة يمارسها الأطفال الذكور ، وتتمثل في إغارة القبائل على إبل خصومها وهي عادة كانت معروفة عند القبائل العربية ولا يعتبرونها لصوصية ، إنما هي في تقاليدهم فروسية شجاعة.

(١) 117-22 GILBERT BARIS: DOCUMENTS. وأنظر خريف: الشعر التونسي ص ١٣٦

(٢) انظر : المرزوقي : البند في حلمهم وترحالهم ص ٤١ - ٤٨.

(٣) انظر : المرجع السابق نفس الصفحات.

٢ - لعبة الحذيلة :

بسكر الحاء وتشديد اللام المكسورة بعدها ، وهي تعني (الدائرة يلعبها الأطفال ذكورا وإناثا على السواء) وهي مثل لعبة الاستغماية.

٣ - لعبة الخريقة :

ويلعبها الأطفال والرجال ، وهي خاصة بالذكور وتعتمد على الذكاء في إدراك طريقة الخصم ، وهي لعبة لها شهرة عظيمة بين سكان البادية ، ولها لاعبون مشهورون ، يسافر إليهم^(١) اللاعبون من أبعد الأماكن ، ليقابلوهم في مباريات حاسمة ، ولهذه شبه كبير بلعبة^(٢) (الدامة) ولعبة الشطرنج ، ولا تخالفهما إلا في اختلاط الخصمين ، ولا تزال إلى الآن ملتقي كثير من الجماعات ، يتكبدون عليها في الأسواق والشوارع وأمام الخيام أو خلفها إلى اليوم ، وقد تمتد مبارياتها أياما طويلة ، وهي أعظم أسباب كسل الرجال وتضييع أعمالهم.

تربية النشئ :

الصبر : يتم تعويد الطفل على الصبر وقوة الاحتمال إلى جانب الشجاعة ، ولهذا التعويد وسائل معروفة عندهم ، نلخصها كالتالي :

٢- إذا اشتد ظمأ الطفل في الصحراء ، فإن والده لا يمكنه من الماء حتى لو كان موجودا

، بل يأمره بالصبر مرات ، حتى إذا لم يبق لديه مجال للصبر ، أعطاه الماء ، وأمره ألا يتعدى جرعات قليلة - لأن شرب الماء بكثرة إثر ظمأ شديد يضر بكبد الإنسان. كذلك ينهي الطفل عن الشرب من ظفيرة النلو ، وهي الظفيرة التي تحيط بفم الدلو ، لأنها في زعمهم أطيب شربة يتذكرها الإنسان عند ظمئه فيشتد شوقه للماء ، وقد يقتله ذلك الشوق ويقضي على قوة احتماله.

٢- يصنعون مع الطفل - في حالة جوعة - نفس ما يصنعونه معه في حالة^(٣) ، الظمأ ،

ومن تعاليمهم في الطعام.

- ألا تسبق الناس في الطعام.
- ألا نتأخر عنهم في الانتهاء منه.
- ألا تأكل إلا مما هو أمامك.
- أن تقلل الأكل عند غير أهلك ، إذا لزم عليك.
- أن يمتنع الطفل خاصة من الطعام المعروض عليه من غير أهله ، ولو كانوا أقاربه.
- ألا يطلب الطعام ولو من أمه بحضور أجنب عن العائلة.

الثأر :

ومن أتس ما يربي عليه الطفل في البادية هو المطالبة بالثأر ، فإذا اعتدي عليه إنسان فلا بد من رد الاعتداء بمثله وإلا اعتبر جبائا^(٤).

معتقدات أهل قابس في الزوايا والأولياء الصالحين :

تعتبر المعتقدات الشعبية من أهم العناصر المكونة لأي ثقافة في أي مجتمع وهي أساس للكثير من الممارسات وأنماط السلوك الاجتماعي ، وهي عادة ما تكون حبيسة في صدور أفراد

(١) نفس المرجع: هذه الألعاب وغيرها ولا نستطيع الجزم بأصولها للتاريخية لكن مادامت متداولة دون تغيير لي أصلها أنها قديمة

وعريقة - نفس المرجع والصفحات

(٢) المرزوقي : البدو ص ٤١.

(٣) المرجع السابق ص ٤٢

(٤) المرجع السابق ص ٨٢

المجتمع ، ويلعب الخيال عند كل فرد دوره ليعطيها طابعاً خاصاً سواء في المدينة أو في القرى من حولها ، وهي توجد عند المتقين ، أو غيرهم ، إن من ينظر لخريطة قابس^(١)، يجد تفسيراً لما سبق حيث تنتشر الزوايا لأولياء الله الصالحين في كل مكان في قابس ، ومما يعطي تلك المعتقدات صبغة الصديق والتدين واللجوء دائماً لالتماس البركة والخير ، هي زاوية سيدي أبي لبابة الأنصاري المدفون في جنوب قابس ، وقد تواتر التاريخ الاجتماعي^(٢)، وأقوال الناس على مر الزمان أنه مدفون عندهم ، هذا يعطيهم طابعاً دينياً محبباً ، وكذلك الرباطات الساحلية على طول ساحل خليج قابس والصالحين الذين كانوا يعتكفون فيها وتوفوا ، وأصبحت لهم زوايا ، فأصبح أهل قابس يتبركون دائماً بذلك^(٣).

والاعتقاد في الأولياء أمر معروف في الجنوب من إفريقية لأن أهل الصلاح عندهم كل من رابط للصلاة مما كان له أكبر الأثر في فاعلية التيم الروحية في قابس^(٤).

عادة الوشم في قابس :-

وهو الرسم على الجلد ، ويعتبر له طابع خاص ، ويستمد الوشم طابعه وعناصره من إفريقية وقابس من النفوس البربرية القديمة ، فالطابع الديني منذ القدم يتمثل في نقش الصليب والخمس ، أو طابع فني كوشم المراكب على الزند ، والختم على الأصداغ ، وأفرع الأغصان والجريد على الأيدي والأذرع ، والعلامات التي تنفي العين على الجبين والطرز على الجباه ولقد تنفي قنماء الشعراء بالوشم ، مثل ما جاء في معلقة طرفة بن العبد :-

لخولة أطلال ببرقة تهمد : تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد^(٥)، أما عن ساحل البحر ، فالبحارة ينقسون عن مكنون صدورهم من عالم البحر بالوشم على أيديهم مثل صورة حبشية قديمة صادفها في أحد المرافئ ، أو صورة (الأسفين) وهي تلك الحديدية المعقفة التي ترمي بقاع البحر عند إرساء السفينة في المرفأ^(٦)، أما الدين الإسلامي فقد جاء محرماً للوشم ، فقد ورد عن النبي (ص) "لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتلججات للحسن والمغيرات لخلق الله"^(٧)

عادة تفسير الأحلام في قابس :-

انتشرت عادة تفسير الأحلام التي يطلق عليها في اللغة العربية معبري الرؤيا ، وقد حفلت كتب الطبقات بأن أحسن معبري الرؤيا من أهل قابس ، وكان الناس يسافرون لقابس ليعبروا عن رؤياهم ، وكان من رجل مشهور ، بتعبير رؤيا الناس تعبيراً يقرب من الصحة ويريحهم ، وهذه الأشياء تدل على قوة الفراسة ، وعلى المغيبات في المعتقدات المتأصلة في نفوس الناس الذين يريدون دائماً ما يريح أنفسهم ، كما أن هناك من الروى ما يدل تعبيرها على العلم والفائدة مثل رؤيا إبراهيم بن إبراهيم أحد تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان ، وقد كان تلامذته يرغبون في أن يؤلف كتاباً في الأصول يتداولونه فامتنع ، فحدث أن رأى أحد تلامذته (إبراهيم المذكور) أنهم نظروا لبطن شيخهم واستخرجوا منها قطعتين مملوءتين حسلاً فخاف من رؤياه "فدخل مدينة قابس" فسأل عن منامة رجلاً مشهوراً بأنه يعبر الرؤيا فأخبره أنه إذا كان الرجل ذا مال يؤخذ

(١) انظر : خريطة قابس.

(٢) البرقيلاني : ص ١١١ - ٦٠٢ - ٦١٢ لم يذكر اسم أبي لبابة ضمن الصحابة الذين دخلوا إفريقية.

(٣) المرزوقي : قابس ، ملحق أبي لبابة.

(٤) انظر : محمد العزيز لجاحي ، مدينة دوز ، نموذج للتدخل من البداوة والحضارة في الجنوب التونسي ، ط . دار سحر ، دار ط ١

، ص ١٤٩ ، وما يليها.

(٥) محي الدين ظريف : الشعر للشعبي التونسي - الدار العربية للكتاب ، ١٤ هـ / ١٩٩١ م ، ط (١) ، ص ٩٠ - ٩١.

(٦) لمرجع السابق ص ٩١ ، كما دارس قنماء المصريين للوشم واتخذوه من وسائل التزخرفة والتجميل ومن صور الشبان والنجمة والهلال.

(٧) انظر : موطأ مالك ، وانظر : نفس المرجع ص ٩٢.

منه كرمًا ، وإن كان ذا علم يؤخذ منه كرمًا ، فسر إبراهيم سرورًا عظيمًا ، ورجع للشيخ أبي الربيع وسار يساعده هو والتلاميذ لاستتساخ الألواح حتى أنهى من مجلدين ^(١) ، عادة الحناء في قابس : -

هناك عادات متداولة ، لكنها خاصة بقابس ، كما أنها وجدت في جميع المدن الإسلامية وهي عادة الخضاب بالحناء ، لقد اشتهرت قابس منذ القدم بزراعة أجود أنواع الحناء ، والأفراح في قابس ارتبطت بحناء قابس كعنصر هام ويعتبر من عناصرها الأساسية ^(٢) ، ولقد اشتهرت رسومات الحناء في قابس ^(٣) ، بالتنوع على أيدي وأنزع وأقدم النساء القابسية تصميمات فيوجد نقش سعف النخل والأزهار (الفلوار) وفراشات ونحلات صغيرات وهذه الأشياء الجميلة لاتفارق تصميماتهم ، وهي تابعة من البيئة الخصبة والحدائق الغناء المنتشرة في قابس -

كذلك وجدت تصميمات فلكية ، مثل القمر والنجوم ، قمر بداخله نجمة صغيرة أو قمر صغير محاط بنجوم صغيرة كثيرة ، مما يعكس إيمان الناس لأنه له عمود ديني ، فهو يمثل السماء وقبب المساجد ، كذلك وجد تصميم بحريًا قرب الساحل مثل جزء من سفينة ، مجداف .. فيما يوحى بحب البحر والسفر ، كما وجدت رسومات خاصة بالبربر على هيئة مثلثات وأشكال هندسية رباعية ومعينات وما إلى ذلك ^(٤) ، وترجع أصولها إلى معتقدات خاصة بالقبايل البربرية القديمة والحرب والسلام في حياتها ، كما وجدت الكثير من هذه النقوش أيضًا عند عرب المشرق ^(٥) .

الذي في قابس (الملايس) : -

يخضع شكل الملابس للإنسان لعدة عوامل أبرزها المناخ وطبيعة العمل الذي يزاوله الإنسان بالإضافة إلى مجموعة من العادات التي تنعكس على الشكل والزخارف ، والتي تستمد مقوماتها من الفكر الديني والإرث الحضاري ، والصلات الخارجية .

فملابس العمل لأصحاب الحرف والمهن ، تؤكد بموجب ما توفر لنا من معلومات تاريخية بأنها كانت بسيطة في أغلبها لتسهيل لصاحبها الحركة بحرية تامة ، واختلفت في بعض الأحيان من حرفة لأخرى بموجب مقتضيات وظروف ومجال عمل كل مهنة أو حرفة ، وإن كان غالبيتهم يرتدون الثبّان ^(٦) ، ومن جانب آخر فإن ملابس الشتاء تختلف عن ملابس الصيف ولكن قد يضطروهم فقر الحال وسوء أوضاعهم الاقتصادية للإبقاء عليها كل المواسم ^(٧) ، فإذا كان لكل حرفة لباسا فتقتضي الضرورة أن يكون لصاحب الحرفة ملابس لعمله وأخرى لراحته ، وهذا ما يؤكد الحديث النبوي الشريف : -

"ما على أحدكم لو اشتري ثوبين ليوم جمعته ثم ثوب مهنته" ^(٨)

(١) للاستزادة : أنظر : الدرحلي : طبقات ، ج (١) ، ص ٦٤ .

(٢) الثرة التونسية .

(٣) أنظر Gibert Boris. P. 124 .

(٤) على الدريرة : الحناء والخضاب في دول الخليج باللغة الإنجليزية ،

- أنظر : مجلة المأثورات الشعبية ، السنو التاسعة ، العدد ٣٥ ، ص ٧ من القسم الإنجليزي .

(٥) المرجع السابق : نفس المكان .

(٦) بالضم والتشديد : سراويل صغيرة أو شبه سراويل صغيرة ، ابن منظور ٧٢١٣م وهي تحريف للكلمة الفارسية 'ثبّان' التي تعني

سراويل الجلد يلبسها المصارعون ، وبنهارت دوزي ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، ص ٨١ ، ترجمة : أكرم

فاضل ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٢٩١هـ / ١٩٧١م .

(٧) أنظر : المعجم ترجمة أكرم فاضل

(٨) ابن منظور ١٣ / ٤٢٤ .

يشد الثَّبان أو السروال الصغير إلى جسم الفلاح عند وسطه بواسطة التكة^(١)، ويمكننا ملاحظة ذلك عند تفحص صورة الواقع للفلاحين في الحقل في إحدى المنمنمات في مخطوطة (كتاب الترياق) (لوح ١) التي تعكس لنا أعمال الفلاحين من خلال الممارسات المختلفة لمقتضيات العمل الزراعي، حيث يتابع الفنان العربي في رسمه مراحل العمل الزراعي في الحقل، ويلاحظ على الفلاحين اللذين يحرثان الأرض، وقد ارتدي أحدهما الثَّبان أو السروال القصير الذي يصل لحد الركبتين، وقد شده بواسطة تكة عند وسطه تاركاً نهايتها متدلّية بينما بقية جسمه كان عارياً، أما زميلة فقد ارتدي بالإضافة إلى الثَّبان ثوباً ذا أكمام قصيرة أخضر اللون محلي بنقوش على هيئة ورود. وقد رفع الفلاح أطراف الثوب أو القميص وأدخلها تحت تكة سرواله لكي لا تعيق الحركة.

وفي اللوح أيضاً نلاحظ فلاحاً آخر يعمل في الحصاد بواسطة منجل يرتدي ثوباً أحمر اللون، أما الفلاح الذي يتولى إدارة الدراسة التي يسحبها ثوران، وكذا الفلاحان اللذان يديران القمح، فقد ارتدي جميعهم الثَّبان فقط، وبقيت الأقسام العليا من أجسامهم عارية، والملاحظ على صور الفلاحين هذه أنهم جميعاً يمارسون أعمالهم وهم حفاة الأقدام حاسري الرؤوس، بينما نلاحظ على (لوح ٢) أن أحد الفلاحين كان قد غطي رأسه بعمامة حمراء ذات حزوز تشير إلى عدد طيات أولفات العمامة^(٢).

وبصدد ذكر العمامة ولون الملابس ونوعيتها عند الفلاحين نستعرض ما ورد بشأنها في الروايات التاريخية، فقد كانت ملابس الفلاحين تصنع من المواد الرخيصة والغليظة - أي - غير المصفاة، وأغلبها من القطن أو الصوف^(٣)، يهتم بعض الفلاحين بعمائم لصيانة رؤوسهم من الحر أو البرد أو الطوارئ الأخرى، وذلك لأن الرأس أشرف عضو في الجسم، وهو معرض لمثل هذه الأمور، وعمامة الفلاحين هذه كانت عبارة عن فوطة^(٤)، حمراء اللون وتلف أو تدور حول الرأس ثلاث دورات كما واضح في (اللوحة ٢) ويظهر في ذلك الفلاحون، وبعض المتصوفة تميزوا بلبس العمامة الحمراء بصورة خاصة بينما كانت العمامة البيضاء أو السوداء هي الشائعة والمقبولة عند العامة آنذاك وكان الفلاح يلبس الجبة^(٥)، في حالات البرد الشديدة أو حين الذهاب للمدينة لبيع حاصله غير أن جبة الفلاحين تختلف من حيث الصنع وجودة المادة المصنوعة منها عن جيب بقية الناس، وكذلك تختلف من حيث سعة الأكمام، وذلك لأن أكمام الجيب لم تعد مجرد جزء من الجبة، بل استخدمت كأداة لحمل كثير من الأشياء كالدنانير والمواد الأخرى، وكانت جبة الفلاحين عادة أوسع كمّاً من غيرها، لأنهم كانوا يحملون بعض حاصلاتهم، كالحنطة والبندق والبلوط والتين^(٦).

(١) رباط أو مشد يستخدم لربط الثَّبان، مطرز النهائيين بالحبر الملون يدخل في مجرى أو مدلوله، يسمي مار التكة أو حجرة المرأول، ابن سيده: المخصص، ٨٢/٤ - ٨٤، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ١٣١٧ هـ، دوزي، ص ٨٢ - ٨٣، ص ١١٥.

(٢) النظر: سلمية عبد الرسول: ملابس العمل للنوي المهن والحرف، ص ٢٤٢. كانت تلك اللوحيات من ملابس العامة متداولة بين الشرق والغرب مع ملاحظة وجود اختلافات طفيفة.

(٣) ابن المظفر: الفخري في الأدب السلطانية، ص ٢٧٩، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٤٥ م، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، ٦٤/٤.

(٤) الفوطة، ثوب يجلب من الهند، غليظ الصنع، عرفت عن أهل مصر والشرق والمغرب وذكر أنها ثوب قصير غليظ الصنع يستعمل منزلاً يجلب من السند، وفي منطقة الكوفة في العراق أزر مخطوطة تشير بها الجمالون والخدم ويقررون بها، ابن سيده ٧٢/٤، الوائلي: ٢٩/٣، ابن منظور ٣٧٢/٧، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠٠/٥، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦ هـ.

(٥) الجبة: ثوب مفصل ومخيط يحيط بالبدن وله كمان، ابن الجوزي، تلبس إيليس، ص ٨٤.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ٧٠/٧، تحقيق عيود الشاكي ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

أما ملابس خدام العامة والعبيد والرقيق ، خاصة أولئك الذين يشتغلون في خدمة البيت والمطبخ ، وملابس الخاصة الذين يقومون على خدمة مجالسهم وضيوفهم فرق واضح ، فالفوط والمآزر والملابس الخشنة للمطبخ ، ويبدو من ذلك واضحاً فيما أوردته النصوص التاريخية من أن زوجة أحد الولاة أخذت إحدى الجاريات منزل الخدام -أي جعلتها خادمة في المطبخ ونزعت عنها ما كانت تلبسه من الصيغ والملابس الحريرية ، وألبستها لباساً من الخيشة^(١)، وقمصاً من الشعر وأنزلتها المطبخ ، وأحياناً كانوا يلبسونها ملابس سوداء وهذه الملابس فهي نوعيتها أو لونها الأسود كانت ثلاثم طبيعة الأعمال التي يقومون بها ، فهي مقاومة ولا يبدو عليها الاتساع سريعاً ، كما هو الحال في الملابس الحريرية ذات الألوان الفاتحة ويمكننا أن نميز من ملابس الخدم ثياب الشتاء عن الصيف ، فالفوط غالباً ما تكون لباساً يتفق مع حرارة الصيف فهي أخف وأقل الملابس التي تمنح صاحبها حرية الحركة ولصغر حجمها كانت سهلة التنظيف ، أما الملابس الخشنة فهي للشتاء ، وبسبب ألوانها ، القاتمة يمكن تأجيل غسلها لفترة أطول^(٢).

ويلبس غالبية الخدام في أرجلهم نعالاً^(٣)، وتكون في الغالب صفراء أو حمراء اللون ، ولا كعب لها لسهولة الحركة فيها^(٤)، وأحياناً يصل بعض الخدام لظروف خاصة يمرون بها - لمستوي كبار الناس ، عند ذلك تتغير ملابسهم بحكم المكانة الاجتماعية التي بلغوها ، فيلبسون الخف^(٥)، والطيلسان^(٦)، وقد يلبس الخادم جبة وهي لم تكن مثل جيب بقية الناس لأنها مصنوعة من قماش غليظ إن طبيعة عمل الحمالين^(٧)، يتطلب ارتداء الملابس الخفيفة والقصيرة لئلا تعيق حركتهم ، كما أن وضع بعض الحمولة التي يكلف بنقلها على ظهره يؤدي بالواقع لتزييق ملابسه من جهة وتؤدي ظهره من جهة أخرى ، لذا استوجب عليه ليس بعض الملابس السمكية على ظهره يستند عليه الحمل.

ومن خلال النصوص التاريخية وردت إشارات إلى أن الحمالين كانوا يأتزرون بالفوط ، ولما كان عمل الحمال الرئيسي حمل المواد بما فيها ثقيلة الوزن ، استوجب عليه أن يشد وسطه بحزام^(٨)، وفي المصادر التاريخية إشارة إلى أن الحمال عند رفعة للانتقال يشد وسطه بحزام وذلك لمنع تهطل الثياب مما يعرقل حركته ، وقد يكون لشد الحزام فائدة في الحفاظ على سلامة الجسم أثناء أداء العمل ، وغالباً ما يلبس الحمال فوق ملابسه أو على جسمه مباشرة أشبه بالمدرة^(٩)، مشقوقة المقدمة مصنوعة من قماش سميك كالليباد مثلاً ، أو تكون مبطنة بقماش سميك يحمي ظهره من ثقل الحمولة ثم يشد الحمل إلى ظهره بواسطة حبل يمسكه بيده ويشد وسطه بحزام^(١٠)، وقد يكتفي الحمال بحزام أو يلفها للخلف ، ويغطي رأسه بغطاء يشبه

(١) الخيش : ثياب رقاق النسيج ، غلاظ الخيوط ، تتخذ من مشالة الكتان ومن أرداه ، وربما اتخذت من القصب ، لسان للعرب ، ٦ /

٣٠١

(٢) دورزي ، ص ٣٢٠ ، وأنظر : سليمة عن الرسول ، ملابس العمل لذوي المهن والحرف ، ص ٢٤٣.

(٣) النعال : ما ولي الأرجل من الأرض ، أنظر : ابن سيده ، ١١١/٤ . ابن منظور المصري ، أخبار أبي نواس ، ص ١٦٦ ، دورزي

ص ١٨٧ - ١٨٨ ، معجم دورزي ص

(٤) الخف : ما لبس في القدم -ابن سيده ، ١٤٤ / ٤ .

(٥) الطيلسان ، ضرب من الأكسية ، أنظر : ابن سيده ، ٧٨/ ٤ ، ويرى دورزي ، ص ٢٢٩ ، إنه .

(٦) أنواع من الخمار يطرح على الرأس والكفين أو يلقى أحياناً على الكتفين .

(٧) مفرداً (حتمال) يحمل لكل عن الناس ، ابن منظور ، ١٨٠/١١ ، معجم دورزي ، ص

(٨) أنظر دورزي : المعجم وسليمة عبد الرسول .

(٩) المرجمان السابقان نفس الأمكنة .

(١٠) زكي محمد حس ، أطلس للفنون الإسلامية ، ص ٩٨ ، شكل ٦٢ ، والشكل جزء من صحن من الخزف الفاطمي ذي الزخرف

الفاطمي ذي البريق المعدني في مجموعة أراكيل نويار بباريس ، معجم دورزي ص

القلنسوة^(١)، أو أن يشد فوطة عند وسطه ويلبس دون أن يلفها للخلف ويكون أعلى جسمه في هذه الحالة عارياً ، ويكشف لنا (اللوحة رقم ٥) صورة حمال متزر بفوطة مخططة تشبه قماش الكيس الذي حمل فيه الحمل وربما اتخذ من نفس قماش فوطته أو أن تكون فوطة أخرى مشابهة للتي يلبسها ، يستفيد منها في وضع بعض الحمول التي يكلف بنقلها^(٢).
يلبس الملاحون^(٣)، سراويل صغيرة أو ثيابان لستر العورة فقط لأنها تتناسب وأعمالهم في المراكب وأحياناً يتزرون بالقوط مما يتبين ذلك^(٤).
وتقتضي مهمة البنائين^(٥)، والفعلة^(٦)، الحركة الخفيفة والمستمرة لحمل مواد البناء ونقلها وطلوعهم بها لأعلى البناء ثم نزولهم منه ليعيدوا الكرة في نقل المواد لاستكمال العمل لذلك لبسوا الثيابين ، بل وتشدد المحتسب في إلزامهم ليس الثيابين الملحم^(٧)، لأن في ذلك سترًا لعوراتهم عند اشتغالهم خاصة أولئك الذين يحملون مواد البناء والذين يدعون بالرقاصين لكثرة حركتهم^(٨).

اشتهرت قابس بحماماتها ، والحمام مكان لتنظيف الجسم مما يعلق به من أوساخ أو ينمو عليه من شعر كثيف ، كذلك فهو مكان يعمل فيه الحجام الذي يسخر إمكانياته في تعيين مواضع التشريط على الجسم لسحب بعض الدم لأغراض علاجية خاصة ، كانت معروفة وشائعة حتى فترات كان اللبان يلبس ثوباً له جيب -أي- فتحة للصدر ، وخالياً من الأكمام ليمنح يديه حرية الحركة ، ويسمي هذا الثوب -البيحة- وقد يلبس ثياباً أو سراويل أثناء ضرب اللبان^(٩).
ينقسم السقاؤون لقسمين^(١٠)، أصحاب الروايا والقرب ، وأصحاب الحوانيت ، فالمجموعة الأولى هم الذين يحملون الماء في الروايا والقرب ويوزعون على الناس ، وقد أكد المحتسب على أولئك "أن تكون في أوساطهم الثيابين ليستروا عورتهم"^(١١)، أما أصحاب الحوانيت فلم يلزمهم المحتسب بلبس الثياب ، وإنما كانوا معرضين للتفتيش من قبله دائماً ، وذلك للتأكد من نظافة حوانيتهم وثيابهم.

ويمكن أن نستنتج مما ورد بشأن السقاعين ، أن أصحاب القرب الذين يوزعون الماء على الناس هم عمال عند أصحاب الحوانيت ، أو على الأقل أنهم أفقر حالاً من أصحاب الحوانيت ، ولأنهم على احتكاك أوسع بالناس وكانت أكثر ملابسهم من الصوف ، حيث يلبسون الأكسية

(١) أطلس الفنون الإسلامية ص ١٤٤ ، شكل ٤٣٢ ، وهو يمثل حثوة صلتوق من العاج من صقلية يرجع للقرن ١٣ أو ١٤ محفوظ بمتحف قصر باردو في فلورنسا.

(٢) أطلس الفنون الإسلامية ص ٢٢٠ ، شكل ٦١٠ ، وهو يمثل قطعة لمبيج ذات زخرفة مطبوعة في مصر أو الهند ترجع للقرن ١٤ أو ١٥ ، محفوظة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

(٣) للملاح هو النواقي.

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، ٧٢/١٣.

(٥) البناء ، مدير البناء وصانعة ، ابن منظور ، ٩٤ / ١٤.

(٦) الفعلة ، صفة غالبة على عملة الطين والحفر ولحرقها ، لأهم يفعلون ، ابن منظور - لسان العرب ٨/١١.

(٧) الملحم ، جلس من الثياب جمعها ملحم ، مأخوذ من اشتباك اللبس واختلاطهم فيها كالاشتباك لحمه الثوب بالسدي ، ابن منظور ، لسان العرب ، ٥٣٧/١٢ - ٥٣٨ ، معجم دورزي ، ص

(٨) ابن الإخوة ، معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٢٣٥ ، على بقلة وتصححة روين لبوي ، مطبعة دار الفنون .. كمبيريدج

(٩) ١٩٣٧ م ، ابن السام ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٤٤ ، تحقيق حسام الدين السامرائي - مطبعة المعارف - بغداد - ١٩٦٨ م.

(١٠) ابن سيده ، ٥ ، ٧٩/٤ ، ابن منظور ، ٢٩٤/٢ ، واللبايدوي : ص ١٢٠.

(١١) الإسقاء ، الإرواء ، والساقية : موضع السقيا ، والمساء : ما يتخذ للجرار والكيزان وقيل قوم سقاء وسقاؤون ، أنظر : ابن منظور : ٣٩١٨٤ - ٣٩٢ .

(١٢) ابن السام ، ص ٢٥ ، أنظر : معجم دورزي.

المعلمة أو الملونة المميزة بعلامات معينة وكانوا ينزلون عليها البرانس الكحل ، كما كانوا يلبسون القشابة في الشتاء حتى تستر الجسم كله حتى الرأس وهي من الصوف مقفلة من الأمام وبها كمان ولباس للرأس موصول بها من الخلف ، وتحت القشابة أو البرنس يلبس البربر القميص أو الجبة والسرراويل القصيرة أسفل الركبة ، وأحياناً الطويلة التي تصل إلى الكعبين ، وهذا الزي لا يزال موجوداً إلى اليوم في طرابلس هكذا كما يلبس البربر الحائك من الصوف^(١) ، يشتملون به وهو لباسهم المحبوب في كل الفصول بالإضافة إلى ذلك يضعون على رؤوسهم (القلنسوة) وهي قطعة قماش من الصوف عالية ملبدة ومدورة توضع فوق الرأس ويلبس فوقها لحاف صغير من الصوف رفيف بنسيج خصوصاً للرأس أو يلبس فوق حائك رقيق ويشد من أعلى بعمامة سوداء^(٢) ، تتخذ من خيوط الوبر^(٣) ، وتسمى الكرازي^(٤) .

وتتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه التجار يأتون من أرض السودان كما يغزلون لحاء الخروع ويلبسونه كعباءة في الصيف وتسمى هذا النوع البليزيون^(٥) .

ويعتقد البربر في أرواح الشر ساكنة البيوت المظلمة والكهوف والمياه والرياح ، هذا الاعتقاد في الأرواح الشريرة كان يتطلب من البربر طقوساً لطردھا أو تهدئ غضبھا واستجلاب رضائھا ، كما وجد إلى جانب هذه الطقوس طقوس أخرى لاجتلاب الخير ، ولا تزال كثير من هذه الطقوس موجودة في الشمال الإفريقي^(٦) ، وبخاصة في قري مطماطة ونفوسة .

أما عن نسائهم ، فتقدر وصفهم الوزان بقوله " ... ممثلات لحماً وشحماً لكنهم غير شديداً البياض أردافهن غليظة سمينة ونهودهن بارزة بيد أن خصورهن في غاية الرقة ، يتحدثن بظرف ويمددن أيديهن عن طيب خاطر^(٧) " .

الطعام والأشربة :

عرفت قايص باختلاف نوعية الطعام التي تختلف باختلاف الطبقات ، والبربر ومعهم قبائل الصحراء كما يقول البكري^(٨) ، كان طعامهم ضعيف اللحم الجاف مطحوناً يصب عليه الشحم المذاب أو السمن ، وشرابهم اللبن وقد غنوا به عن الماء حتى ملوكهم اعتمدوا على ذلك ، وقد رأي ابن خلدون^(٩) ، وجود علاقة بين الغذاء والعقل وصحة البدن ، فيري أن المنغمسين في الأدم والحفظة مثل البربر ، أقل حسناً في عقولهم وأجسامهم عن غيرهم الذين ليس عندهم السمن وغالب عيشهم الذره والزيت .

كانت صنعة الطبخ في قايص تقوم على معرفة كاملة بأنواع الطبخ ، فمائدة الخاصة غنية وشهية ومتنوعة ، يقدم لأفرادها الطعام في أصناف منفردة ، كان هناك الهريس باللحم وهي طعام الخاصة والعامة^(١٠) ، وكانت تقدم الأنواع المخلوطة بالخل ثم الأطعمة حلوة المذاق^(١١) ،

(١) الإدريسي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) ديوز : للمرجع السابق ، ج (١) ، ص ٤٢ .

(٣) ديوز : للمرجع السابق ، ج (١) ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) الوسياني : السير ومخطوط ، ورقة ١١٢ - ١٤٨ .

(٥) الوزان : للمصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦) الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقية ، بلغازي ١٩٦١ ، ص ٦١ - ٦٢ وأنظر : مالون ، عروبة البربر .

(٧) الوزان المصدر السابق .

(٨) البكري : المسالك ، ج (٢) ، ص ٢٧٥ .

(٩) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٥٤ .

(١٠) الهريسة عبارة عن عجينة التمع وقطع لحم مهروسة بعد طحنها ، درويش ج (٢) ، ص ٢٢ .

ومتى حلّ الضيوف تقام الولائم التي تذبح فيها الأبقار والغنم ، وقد اختصت مائدة الرجل في قابس بثلاثة أشياء متضادة قلما توجد على أية مائدة أخرى وهي لحم الحوت الطري والرطب الجني ولحم الغزال^(٢)، ومن أهم الأطعمة المعتادة عندهم الكسكسي أو الكاسكاس باللهجة القابسية الذي يعرفه جميع الناس ، فكان يطبخ اللحم بالحبوب والبقل كالبيشة كما جرت العادة ، فإذا تضج اللحم والبقل وفي قابس بلحم الحوت أيضاً، يخرج من القدر ويصفي المرق مما فيه من عظام ، ويوضع الكسكسي المطبوخ على النار حتى يتشرب ويأخذ حقه في المرق ، ثم يصب في قصعة ويعدل ويجعل عليه اللحم المطبوخ وبقلة وبزر عليه قرفة ويقدم^(٣)، وقد انتشر الكسكسي في أنحاء إفريقية وقابس بل والمغرب كله يصنع من اللحم والبقل.

وعرفت بعض الأطعمة الخاصة مثل "شواء الملوك" المكون من لحم الخروف مع البيض والتوابل^(٤)، وكذلك "الصنهاجي الملوكي" وهو لحم البقر والدجاج والطيور كما كان للعامة صنهاجي خاص بهم أيضاً^(٥)، وانتشر ذلك في عهد بني زيري ، كما انتشرت الكنافة والقطايف التي أدخلها الفاطميون إفريقية.

وكان الخاصة يأكلون ما يطهر من أمخاخ بعض الحيوانات والطيور بطرق مختلفة^(٦)، فضلاً عن معظم أنواعها ، مثل الطواجن المحشوة من اللحوم^(٧)، والأطعمة من الأسماك أو السلاحف البحرية ولحم الحوت^(٨)، فضلاً عن اللحوم المشوية على نار الفحم أو في الفرن سواء من لحوم البقر أو الكباش والخراف أو الأرانب والدجاج^(٩)، وانتشرت أكلات في المغرب والأندلس ، اشترك فيها الخاصة والعامة ، منها ما يعرف باسم (اللمتونية) وتصنع من جميع أنواع الطير وتطبخ على نار فحم معتدلة وبقية معها الرقاق والزيت والتوابل وتزين بالجوز واللوز والجبن المحكوك ، وتمرغ في المرق وتغطي بورق الأسفريا المصنوعة بالبيض^(١٠)، وعرفت مشهورة نسب بعضها لليهود مثل (الحجلة اليهودية) ، (الفروج اليهودي) ، وكلاهما يعتمد على الحشو والتوابل والبيض ، كما نسبت أكلات للمصريين مثل الفروج المصري^(١١).

مسكن البربر :-

كان مجتمع البربر مقسماً لقبائل مستقرة ، وأخري رحل ، قبائل عملت بالرعي وكان ذلك يصطرها للنتاج والترحال ، لذا اتخذت سكانها من الخيام التي كانت على شكل دوائر ، وقد اختلف صنع الخيام ، فكانت تصنع من الصوف أو الوبر ، وتقسم من الداخل لأماكن السكني وأماكن للجلوس وأخري للطعام^(١٢)، وكانت تصنع من الشعر ، فقد سكنت قبائل من زناتة

(١) مجهول : كتاب الطببخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين ، تحقيق ، أمير وزير أويثي ميرالدا ، صحيفة معهد الدراسات

الإسلامية ، مدريد ، المجلد ٩ - ١٠ ، ١٩٦١م ، ١٩٦٢م ، ص ٨٥.

(٢) الاستقصار : ص ١١٢.

(٣) مجهول : كتاب الطببخ ، ص ٣٦ - ٣٧.

(٤) نفسه : ص ٦٣.

(٥) مجهول : كتاب الطببخ ، ص ٣٦ - ٣٧.

(٦) النظر : الاستقصار ، ص ١١٣ ، وأنظر : المصدر السابق ، ص ٣٢.

(٧) نفسه : ١٣٢.

(٨) نفسه : ١١٣.

(٩) نفسه : ص ٢٨ - ٣٣.

(١٠) نفسه : ١١٣.

(١١) نفسه : ص ٦٨.

(١٢) الحسن الوزان ، ص ٢٨٢.

يعرفون بزراعة في الخيام من الشعر^(١)، وعندما ينعدم الكلاً يضطر الرجل للزحف للجبال والأراضي السهلية، فيسكنون بيوتاً مبنية بناءً بسيطاً من الحجارة، ويسقوف من الطين على شكل بيضاوي حتى لا يتراكم عليها الثلج، أو بيوت منقورة في الجبل، وينزلون للأودية في الربيع وتكون مساكنهم من الطين وسقوفها من الخشب وغيره من أنواع النباتات، ومنهم من كان يبني داره بجدارين متوازيين يملأون ما بينهما بالحجارة لمقاومة الحر والبر^(٢)، وذكر ابن خلدون^(٣)، لمساكن البربر قديماً بقوله "إنهم كانوا يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر" وكان ذلك قبل التطور الذي غير شكل فتحول كثير من القبائل لسكني المدن والاستقرار بها^(٤).

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٢٤.

(٢) اللجاني : الرحلة ، ص ١٧٨.

(٣) مثلما حدث في دخلها فقد امتلأت بعروش هذه.

(٤) القتال المرزوقي : قياس ص ١١٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السادس

الحياة الثقافية في قابس

١ - العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية

٢ - نظام التعليم
أ - المكاتب (الكتاتيب)

ب - المدارس

ج - المساجد

د - الأربطة

٣ - علماء قابس ودورهم في الحياة الثقافية

العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية^(١) لقابس

(أ) العامل الديني :

إن الإسلام في قابس وباقي إفريقية قد بدأ منذ تقدم عمرو بن العاص نحو إفريقية ،
"فقد ذكر البلاذري^(٢) عمرو بن العاص كتب إلي عمر بن الخطاب يعلمه أن من بين زويله
وبرقة أسلم كلهم وحسن طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة".
جذب عقبة بن نافع البربر بحماسة الدينية أثناء اختطاط مدينة القيروان^(٣) التي كانت
نواة لنشر الإسلام ، فدخل كثير من البربر في الإسلام واطمأنوا علي المقام بها^(٤) وكان عقبة
يضم إلي الجيش من أسلم من البربر ويغزو بهم بقية البلاد^(٥) حتى حملته الأولى ، وانتشر
الإسلام ما بين قفصه والقيروان ، حتى أن صاحب قفصه قام بتخليص بعض الأسرى بعد
مأساة تهودة^(٦) التي استشهد فيها أغلب المسلمين مادام الإسلام دخل قفصه^(٧) وهي علي بعد
مرحلتين من قابس فمن البديهي أن تكون قابس قد أسلمت قبلها أو بعدها مباشرة حيث إنهما
ترتبطان ببعضهما البعض.

كذلك قام أبو المهاجر بن دينار ، الذي تولى قيادة جيش إفريقية بعد عقبة بنشر
الإسلام بين البربر ودخل كسيلة زعيم قبيلة أوربة بقبيلته في الإسلام^(٨) ، كما أنه صالح عجم
إفريقيه وأدخلهم في الإسلام ، ومنذ ذلك الوقت دخل الأفارقة الإسلام على يدى أبي مهاجر^(٩).
استعمل حسان بن النعمان محمد بن أبي بكر وهلال بن ثروان اللواتي^(١٠) ضم جيش
حسان بن النعمان اثني عشر ألفا من البربر استمروا إليه بشرط أن يعطوه من قبائلهم هذا العدد
من الجند وبعد أن صار له عليها قرب قابس وعقد لولدي الكاهنة على هذا الجيش فخرجوا
يجاهدون مع العرب ، الروم ومن كفر من البربر^(١١) وترك معهم ثلاثة عشر رجلا من علماء

(١) كلمة "ثقافية" في اللغات الفرنسية والإنجليزية تعني Culture ، مشتقة من الزراعة والإستيعاب ، أما اللغى اللغوى فيلعب إلى أن الثقافة هي ما مكتسبه

الإنسان من منورب المعرفة النظرية والعلمية التي تحدد طبيعته في التفكير ومواقفه في مختلف مجالات الحياة^(٢).

والحضارة دائما تتضمن للدين والثقافة ، مشتقة من المدن - أى - بناها ومعمرها ، وفي هذا يقول "ابن خلدون" (٣) "أحوال عادية رائدة عن الضروري من
أحوال العمران ، زيادة تتفاوت في الرفق" فالمدنية إذن تعني بالجوانب للمادية والثقافية ، بالجوانب الفكرية والأخلاقية والفنية ، والدين والعقيدة في المنظور الإسلامي
أوسع بكثير من أن تقتصر على جانب من دائرة الثقافة ، بل هي أوسع حتى من دائرة الحضارة على إستنادها ، فالإسلام هو رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان
بل هو صنائع الحضارة والمدنية والثقافة التي يقول ابن منظور^(٤) عن معناها إنها الخدمة والنفقة وهي معطوفة على كلمة صناعة.

(أ) شحادة الناطور وآخرون في مدخل ال تاريخ الحضارة ط. الأردن سنة ١١٤١ هـ / سنة ١٩٦٠ م ط ٢ ، ص ١١٥.

(ب) المقدمة: ص ١٢١ ، وانظر المرجع السابق ص ١١٦.

(ج) لسان العرب: مادة "ثقف" ، وانظر: عماد الدين خليل ، حول مصطلح الحضارة ، مجلة منار الإسلام ، عدد محرم ١٤٠٥ هـ.

١٩٨٤ م ، ص ٧٢.

(٢) فخر البلدان ، ص ٣٢٩.

(٣) هناك أسطورة : إن الناس نظروا في ذلك اليوم والسباع تحمل أشبالها واللثاب تحمل أجرامها والحيات تحمل أولادها ، فأسلم كثير من البربر ، انظر

ابن الأثير ، الكامل ، ٣ ، ص ٣٦٦

(٤) قال عقبة لأصحابه إن إفريقية إذ أدخلها أمر تحرم أهلها بالإسلام ، فإذا أخرج منها رجعا إلى الكفر وإن أرى أن أقتل منها مدينة بعمليها مسكر أو
قيروانا تكون عر للإسلام إلى آخر الدهر . انظر للصدر السابق ج ٣ ، ص ٣٦٥ ، فتوى : لمحة الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٣٢.

(٥) نفس المصادر.

(٦) ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٧ ، انظر الفصل الثامن من الرسالة.

(٧) ابن الأثير ص ١٠٧.

(٨) ابن عسارى البيان ، ج ١ ، ص ٢٩

(٩) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١

(١٠) ابن عبد الحليم: فوج مصر والمغرب ، صفحات ٢٦٩ - ٢٧٠.

(١١) ابن عسارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٣٨ وقد كاتب حرب الكاهنة وحسان بالقرب من قابس وعند ما

التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم ، فعزموا على الإسلام وبنوا المساجد وحولوا القبلة للمساجد واستعملوا المنابر على المساجد.

وسوى بين العرب والبربر ، فكان يقسم الفياء بينهم ويوزع الأراضي على البربر (١) ، وهذا بالطبع في كل مدن إفريقية ، ويقول النويري (٢) ، إنه بعد ذلك فشا الإسلام في البربر واستقامت إفريقية له.

وكان لإتباع موسى بن نصير سياسة اتخاذ الموالى والرهائن (٣) أثر في تجميع أعداد كبيرة من البربر حوله (٤) وغزا بهم معظم بلاد إفريقية حتى دانت له البلاد على رأس المائة الأولى ودخل كثير من البربر الإسلام سوى بعض جماعات قليلة بقيت على دينها وفرضت عليها الجزية (٥) ، وبفضل هؤلاء البربر تم فتح الأندلس وقاد هذه الخطة أحدهم وهو طارق بن زياد (٦).

وترتبط بدايات دخول الثقافة العربية الإسلامية إلى قابس باختطاط مدينة القيروان (٥٠٠هـ/٦٧٠م) المرتبطة بها بإعتبارها أول حاضرة إسلامية إختطت بها ، لقد سبقتها حملات اصطحبت معها أعداد من الصحابة والتابعين ومنهم ألبابية الأنصاري.

لكن الأثر أصبح قويا وواضحا بعد وجود قاعدة إسلامية غلب عليها سكنى العرب وأصبح المسلمون يتوافدون عليها تباعا ، ومنها إلى قابس وباقي المدن.

وكانت هناك عدة محاور أخرى تلقت قابس من خلالها الثقافة الوافدة ، تمثلت في الجيوش المتوالية مع الحملات العسكرية التي أتت إلى إفريقية طوال عصر الولاة ، سواء التي أتت مع الفتوحات أو لإخماد ثورات الخوارج ، وتنتضح أهمية هذه الحملات في أنها إنطلقت من مراكز العلم بالمشرق ، فاشتهرت مدرستي الحجاز في مكة والمدينة بالفقه والحديث والتفسير ، لكن فاقت المدينة ، مكة في هذا المضمار ثم اختصت بعد ذلك بمذهب مالك (٧).

وفي دمشق نشأ الفكر السياسي وذاع مذهب الأوزاعي (٨) وفي مدرستي الكوفة والبصرة في العراق برز مذهب أبي حنيفة في الفقه وذاعت القدرية في مواجهة الجبرية في دمشق ، كما اهتمت المدرستان بدراسة اللغة العربية ووضع أصول النحو ، أما مدرسة القسطنطينية ، فمع إعتادها على مدارس العراق والحجاز ، فقد ظهر فيها فقهاء مشهورون (٩) وقام الخليفة عمر بن عبد العزيز بإرسال العشرة التابعين ليفقهوا أهل إفريقية في كل منها في الدين ويعلموهم الحلال والحرام (١٠). وعلى رأسهم إسماعيل بن عبيد بن أبى المهاجر واليا على البلاد ، وقد قرأ على أهل إفريقية كتاب الخليفة عمر بن عبد العزيز يدعو البربر إلى الإسلام (١١) ، وبذلك غلب الإسلام على إفريقية والمغرب ، ولم يبق في ولايته يومئذ أحد إلا

(١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية ، ص ١٤٨

(٢) نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، ص ٣٧ ، وانظر بن ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٣٥.

(٣) ابن عسار: البيان ، ج ١ ، ص ٤٢

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٧٠ ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١

(٥) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ٣٨

(٦) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٤ ، وانظر محمد بركات البليلى ، البربر في الأندلس ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة بكلية الآداب جامعة القاهرة وأنظر : ترمسان عبد الكريم : مجتمع إفريقية في عصر الولاة ، رسالة دكتوراه غير مطبوعة بكلية الآداب جامعة عبد شمس

(٧) أحمد أمين: فجر الإسلام ، ص ١٧٤

(٨) إمام أهل الشام ، أسس مذهب في الفقه ، عاش في دمشق ، وتوفي ١٥٧هـ/٧٧٤م وكان كثير الحديث والعلم ، أنظر: ابن علكان ونبات الأصيل ج ٣ ، ص ١٢٧ وبعدها.

(٩) المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، ١٩١ ، محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، ج ١ ، ص ١١٣ ، ١١٦.

(١٠) أبو العرب التميمي: طبقات علماء إفريقية ، ط ٢ ، ص ٨٧.

(١١) الدباغ: معالم الإيمان ، ج ١ ، ص ١٠٢

أسلم ، ويتضح هذا الشمول في انتشار الإسلام فيما كتبه عبد الرحمن بن حبيب إلى الخليفة المنصور: "إن إفريقية اليوم إسلامية كلها" (١) وإذا كانت الفترة التي تلت اختطاط مدينة القيروان قد اتسمت كسابقتها بمجيء كثير من التابعين مع جيوش الفتح ، لكن غالبيتهم لم يستقروا بها ، والبعض الآخر استقر بها لفترة ، وقلة استوطنوها - اختطوا وقيدوا بها (٢) ، أما التابعون الذين أتوا مع موسى بن نصير فقد استوطنوها في الغالب (٣) ثم تلى ذلك بعثة العشرة التابعين الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ليفقهوا أهل إفريقية في الدين عام ١٠٠هـ/٧١٨م (٤) ، ويرى البعض (٥) أن هذه الفترة كانت البداية الفعلية لتعلم أهل إفريقية العلوم الدينية.

وسمع أهل إفريقية خاصة في القيروان وتونس وكذلك قابس من هؤلاء التابعين ، ونشأ في المدن الإفريقية جيل جديد من الفقهاء أمثال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الذي سمع من جلة التابعين الوافدين إلى القيروان (٦) وكذلك منهم موسى بن رباح وخالد بن أبي عمران التونسي كما اتضح دور مدرسة القسطنطينية من خلال الجند الوافدين مما يوضح دور مصر المؤثر ، كما أن أهل قابس كانوا يستطيعون الإطلاع على علوم المشرق من تلك القاعدة القزبية ويأخذون عن رجالها أمثال الليث بن سعد (٧) ، وعبد الله بن لهيعة (٨) ، وعبد الله بن وهب (٩) ، الأحاديث وأساليب الرد على المشاكل التي تعر لهم ، وكانت قابس تنتشر هذه الثقافات عن طريق القيروان ، إذ كان هؤلاء التابعون ينتقلون من المدن الإفريقية إلى قابس والقرى (١٠) والمدن من خلالها.

(ب) التعريب :-

إذا كان الإسلام قد انتشر بسرعة بين البربر حول قابس فإن التعريب يحتاج إلى فترة طويلة لأنه تغيير في اللغة ، وكذلك التعريب الجنسي من خلال المصاهرات ، وكانت هناك عدة وسائل ساعدت على انتشار اللغة العربية بين البربر خاصة من خلال الانضمام للجيش أو العمل في الإدارة ، لكن تبدو صعوبة انتشار اللغة العربية بإفريقية بصفة عامة ، لوجود عدة لغات يتكلم بها أخلاط من السكان من روم وأفارقة وبربر وجدها العرب عند الفتح.

وفيما يخص الروم ، فإن كثيرين منهم قد هربوا إلى صقلية خاصة بعد هزم قرطاجنة الممثلة للغة اللاتينية ، لغة الحكم والإدارة. والأدب وكذا اللغة التي يتكلم بها الصفوة لكنها مع ذلك لم تتراجع في البداية ، لأن المسكوكات ظلت تضرب بنقوش لاتينية كما ظلت في بعض

(١) ابن عسار ، ج ١ ، ص ٦٧ ، وانظر النويري ، لمحة الأدب ج ٢٤ ، ص ٦٦

(٢) جاء ذكر أسماء عديدة منهم محمد بن لؤس الأنصاري وعلى بن رباح اللحمي وغيرهم ، انظر أبو العرب التميمي طبقات علماء إفريقية ص ٨٠-٨٢ والمالكي رياض النفوس ج ١ ص ٧٨-٩٣.

(٣) منهم المغيرة بن بردة القرشي ورفاعة بن رافع التونسي ، انظر المصدر السابق نفس الصفحات.

(٤) المصدران السابقان نفس الصفحات.

(٥) Von der hey den la Birberri orientale J120 .

(٦) منهم محمد بن لؤس الأنصاري ، حتى بن عبد الله الصنعاني ، على بن رباح اللحمي أبو أيوب سليمان بن يسار ، وانظر أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ص ٨٠ ، ٨٢ ، المالكي ، رياض ، ج ١ ص ٢٧-٩٤ ، ومنهم زياد بن أنعم المالكي ، يزيد بن أبي منصور المغيرة بن بردة القرشي ، ورافعة بن رافع التونسي ، انظر نفس المصدر ، ص ٨٣-٨٨.

(٧) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، إمام أهل مصر في الفقه والحديث ، قال عنه الخافعي: كان الليث بن سعد أنه من مالكة إلا أن أصحابه لم يقوموا به ، توفي ١٧٥هـ ، انظر: ابن حنبل: وقفات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٢٧.

(٨) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لمية الحضرمي من الفاتحين المصري ، كان يكثر من الحديث والأخبار والرواية ولى القضاء ١٥٥هـ/٧٧٢م ، وهو

أول قاضي مصر من قبل الخليفة وصرف عنه ١٦٤هـ/٧٨٠م ، انظر نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٨.

(٩) هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء ، لقيه المالكي المصري ، صاحب الإمام مالك وتوفي

١٩٨هـ/٨١٣م ، انظر: نفس المصدر ج ٣ ، ص ٣٦ ، ٣٧.

(١٠) حسين مؤنس: مقدمة رياض النفوس ، ص ٥٧.

المناطق لفترات لاحقة. "فكان أهل منصه متبربرين وأكثرهم يتكلم اللسان اللاتيني الادريسي" (١)

وفي جزيرة جربة - وعلى سبيل المثال - حيث كان اللسان البربري هو اللغة الأصلية الوحيدة لسكانها (٢)، وهي المستعملة لشئونهم ، حتى بعد أن تم الفتح الإسلامي وانتشرت اللغة العربية ، إلا أنها اقتصرت على الأوساط المثقفة المتصلة بالسلطة وعلى المشتغلين بالتجارة مع العرب ، بصفتها لغة الدين والحكومة ، إلا أنها لم تتغلغل بين جميع السكان في القرون الثلاثة الأولى للهجرة حيث كانت سلطتها بين أبنائها من سكان الجزيرة ، وكانوا لا يستعملون إلا لهجتهم البربرية في شئونهم الخاصة (٣) مثل قايص وأخوارها ، لذا فإن اللغة التي كان يجب على العرب مواجهتها هي اللغة البربرية ، التي اختلفت عن اللاتينية الواسعة ، بينما كانت البربرية ، على العكس من ذلك لغة فقيرة (٤). وعلى الرغم أن هناك عوامل أخرى إلى جانب الانضمام للجيش أو العمل في الإدارة ، ساعدت البربر على تعلم العربية مثل وجود مدينة عربية كالقيروان ، وكذا المعاملات من خلال البيع والشراء في الأسواق والإرتباط في بقية أقاليم الولاية فإن اللغة العربية لم تنتشر بين البربر بشكل شامل بدليل أن البربرية استمرت في مناطق كثيرة من إفريقية مثل جبال جنوب قايص (٥)

أما التعريب الجنسي كالمصاهرات ، فكان يستلزم وقتاً أطول من التعريب اللغوي حيث ينشأ جيل جديد يحمل صفات العرب جنساً ولغة ، ولقد اسهمت في ذلك الهجرات المتتالية الفردية والجماعية مع الفتوحات واستقرار العرب ، الذي أدى للاحتكاك بين العرب والبربر وما ترتب عليه من الإدماج من خلال المصاهرات كما ذكرنا التي تمت منذ وقت مبكر (٦) وكان العرب يفضلون البربريات ، لذلك اهتم خلفاء المشرق بسبايا المغرب بصفة عامة (٧) ، فكان بعض الخلفاء من أمهات بربريات (٨) ، لكننا مع ذلك ليست لدينا معلومات عن المصاهرات التي تمت خلال تلك الفترة.

إن السببي شكل عامل من عوامل التعريب الجنسي من خلال إرسال السبايا إلى المشرق بإستمرار ، وتوافد العرب إلى إفريقية بشكل تبادلي. كان التشابه بين العرب والبربر في نمط الحياة المادية من خلال ممارسته نشاط إقتصادي ونمط إجتماعي متشابهين خليفاً بأن يحدث الإمتزاج والإندماج بين العرب والبربر (٩) ، ولكنه تطلب فترة من الزمن ، لأن التعريب الحقيقي سوف يستلزم تراجع البربرية وهو أمر لم يكن قد بدأ في القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي (١٠) صفوة القول ، إن عصر الولاة قد شهد تحولا خطيرا بدخول الإسلام والعربية إلى إفريقية لكن لم يظهر آثارهما العميقة إلا في فترة لاحقة.

(١) الإدريسي: ج ٢ ، ص ٢٨٠ وما يليها.

(٢) الحميري: الأروض ص ١٥٨

(٣) الجربي: مؤنس الأحبة ، ص ٢٨

(٤) شكري فيصل المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، ج ٢ ، ص ١٨٣

(٥) كجبال مطماطة وهي جزء من جبل دمر المند حتى طرابلس وهو يأخذ اسم نفوسه وكلها أسماء قبائل بربرية.

(٦) وفد على إفريقية عبد الله بن العباس ونزل على منصور بن يزيد الحميري ، فأكرمهم وتزوج سلامة بنت بشر وهي جارية بربرية من تعة فولدت له المنصور عام ٩٥ هـ / ٧١٣ م ، بالبصرة ، أنظر: ابن حزم جهرة أنساب العرب ، ص ٢١

(٧) ابن عسار: البيان ، ج ١ ، ص ٥٢ ، كان خلفاء المشرق يستحبون طوائف المغرب ويوسلون إلى عامل إفريقية أن يبعث لهم البربريات السنيات.

(٨) عبد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص ٤٩.

(٩) ابن خلدون: العمر - ج ٦ - ص ٨٩ ، الفرد بل الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص ٨٣ ، ويقول ابن خلدون ربما كانت الإبل من مكاسب أهل النعمة منهم ، شأن العرب ومعاش المستغنين منهم بالفلاح ودواجن السائمة ومعاش المعززين من أهل الانتجاع والأطيان في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة.

(١٠) عبد الله العروى: تاريخ المغرب ص ٨٨

في عصر الولاة ظهرت الفئة المثقفة من فقهاء القيروان وتونس وقابس الذين رحلوا للمشرق طلباً للعلم والدراسة ، وسمعوا من رجال العلم والأئمة به ، ونقلت إلى إفريقية المذاهب التي انتشرت في المشرق وقتذاك ، ومعلوم أن تلك الفترة قد شهدت وجود مذهبين ، أبعدهما في العراق . وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ^(١) إمام أهل الرأي الذي عول على الرأي والقياس وعدة ضروريا في تفسير الأصول من قرآن وسنة ^(٢) . أما الإمام مالك ^(٣) ، فقط نشأ في المدينة وتميز مذهبه بالإلتزام بالقرآن والسنة والإبتعاد عن التأويل وعدم الإسراف في القياس والتحمس للنقل ^(٤) ، وخلف كتاب الموطأ الذي اعتمد فيه على الحديث في وضع تشريعاته ^(٥) .

ج) العامل الجغرافي :

لما كانت قابس واحة بحرية صحراوية كما أنها باب إفريقية ^(٦) ، فمن ناحية البحر والصحراء كان الإتصال المباشر بثغور باقي المغرب العربي والأندلس وثغور شرق البحر المتوسط وجزره وكذلك بلاد الفرنج . ومن ناحية الصحراء عن طريق القوافل الصحراوية للتجارة والحج مما كان له أعظم الأثر في توثيق الصلات الحضارية بين سائر العالم الإسلامي وقابس ، ويفسر ذلك ملاحظة الظواهر المختلفة في قابس التي تكشف عن تداخل في اللغة والتقاليد وأسلوب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأنواع العناصر السكانية بها ، فتربها من مصر جعل قابس تتأثر بثقافتها منذ القدم فقد كانت منذ العهد الفرعوني قد انتقلت إليها بعض الآلهة الفرعونية ^(٧) ، وقد سميت قابس وجربة وكل الجنوب من إفريقية وطرابلس النسامون أوناس آمون وكذلك أكلي النيق أو اللوتس وهي شجرة مصرية ^(٨) إلى جانب إستيعاب قابس للثقافات الأخرى قبل الإسلام ، لكن تلك الثقافات كانت ثقافات مستوردة غير أصيلة وتفتقد النظريات الوضعية كما تفتقد التوازن وتفتقد القيم الإنسانية التي حفلت بها الثقافة الإسلامية في كل جوانبها ، كذلك من الممكن أن تكون ثقافات قابس قبل الإسلام مفروضة بواسطة الطبقات أو الجماعات المسيطرة إقتصاديا كالتجار الأجانب ، لكن الإسلام ألغى ذلك وأصبحت ثقافته عادلة متوازنة تعتبر الصلة الدائمة بين الإنسان وربّه ^(٩) ، وأن الرزق بيد الله وحده ، كذلك هي ثقافة ربانية وعالمية ليست قومية ولا إقليمية ، فهي تكره الإحتكار والإستغلال والظلم في كل زمان ومكان وفي جميع أنماط السلوك ، لذا دخل القابسيون الإسلام عن وعي كامل وأصبح نبراسهم في تعاملاتهم التجارية والاجتماعية ، فقد لعبت القوافل التجارية دورا كبيرا في نشر الدعوة الإسلامية في قابس وبقي مدن إفريقية ، كما لعب التجار دورا هاما ، فقد كانوا ينزلون بأسواق قابس بدءا من منار قابس إلى أسواق قابس ويحتكون بعناصر قابس السكانية ، فدخلت الإسلام ، فقد أثرت فيهم نظافة التجار وأمانتهم وسلوكهم الشخصي ، وخاصة التجار المصريين فقد حادوا إفريقية وأفريقيا وتأثر

(١) ولد الإمام أبو حنيفة النعمان : ٨٠هـ / ٦٩٩م إبان خلافة عبد الملك بن مروان ، وتوفي : ١٥٠هـ / ٧٦٧م ، وهو يرجع إلى أصل فارسي ، أنظر : ابن علكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٤٠٥

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٤١ .

(٣) ولد الإمام مالك عام ٩٦هـ / ٧١٤م بالمدينة ، وهو من أصل عربي ، نشأ مدبرة في المدينة وتوفي ١٧٩هـ / ٧٩٥م ، أنظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٣٩ .

(٤) بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص ١٢٦-١٢٧

(٥) أنظر : كتاب الموطأ ، مالك ، ط ٤ ، دار الشعب ، ط ١ .

(٦) أنظر : الوزير السراج : الخلل ، ج ١ ، قسم ١ ، ص ٣٣٢ ، وأنظر : البكري ج ٢ ، ص ٦٦٦ ، والإدريسي ج ٢ ، ص ٢٧٩ .

(٧) آمال فرج : تأثر الأمة ليزيس في تونس ، رسالة ماجستير في معهد الدراسات والبحوث الإفريقية ، سنة ١٩٩٤م .

(٨) لجنة من الأساتذة موسوعة تاريخنا ليبيا ج ٤ ص ١١٢ .

(٩) علي أحمد مدكور / الثقافة والحضارة في التصور الإسلامي ، مجلة الدارة ، العدد ٤ السنة ١٤ رمضان ١٤٠٩هـ ، ص ١٩٨ .

الناس بهم ^(١) فأصبحت قابس مركزا للإشعاع الثقافي، كما لا تنسى الرقيق المجلوب لقابس فقد نظم الإسلام هذه المسألة ووضع لها حدا ، أدت إلى تدمير الحياة الوثنية ، إلى جانب دخول بعض الرقيق في الإسلام إذا أسلم سادتهم ولا ننسى أنه عن طريق هذه القوافل انتشر المذهب الأباضي في جنوب قابس إلى جبل نفوسة. كما ذكرنا ^(٢) فأبطلت وثنيتها هذه المناطق ، وقد عمل أهل هذه المناطق بالتجارة مع الممالك الإفريقية مثل غانا والسودان وغيرها ما نشر الإسلام عن طريقهم ^(٣). كذلك نشرت اللغة العربية ، لغة القرآن ، وابطال العادات الضارة. كذلك لا نغفل أثر قوافل الحج وتحرك الدعاة والفقهاء من قابس وإليها ، سواء للعلم أو التعليم ، وكان ذلك من أكبر المؤثرات الثقافية الإسلامية ، فتم تبادل المصاحف الكريمة وكتب الأحاديث النبوية الشريفة من وإلى قابس ^(٤) ونشر مذهب مالك ^(٥) ، والحياة الثقافية هي نتاج للمعطيات والعوامل السابقة فإن الحياة الثقافية في قابس تعتبر آتية من المشرق لذا اتسمت بصفات البيئة المشرقية ^(٦) ، فكان لابد من وقت حتى يحدث التفاعل ما بين هذه الثقافة المشرقية وبيئة قابس الثقافية التي هي نتاج تفاعلات ثقافية مختلفة أخرى مثل الثقافات الرومانية القديمة واليهودية والمسيحية ^(٧) ، كذلك ثقافة البربر التي كان لها طابع خاص تغلب عليه المعتقدات القديمة ^(٨).

ومن خلال هؤلاء التجار الوافدين إنتقل مذهب مالك الذي سيسود إفريقية في فترات لاحقة ويرجع إقبال الأفارقة على مذهب الإمام مالك بما جعلوا عليه من التمسك بنصوص الشريعة والميل إلى النقل أكثر من الرغبة في أعمال العقل ^(٩) ، وهذا يفسره قول ابن خلدون ^(١٠) ، في هذا الصدد ، فيقول "إن البداوة كانت غالبية عليهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ، فكانوا إلى الحجاز أميل لمناسبة البداوة ، كما يرى البعض ^(١١) ومن هنا كانت قابس لا تملك لخدمة من قبل رجع أو انزلاق في تاريخ الحضارة الأمازيغية ، مهد لتوافق أهل إفريقية مع المذهب المالكي فيما بعد ، إن الجند الذين أتوا إلى إفريقية مع أوائل الفتح وما تلاهم من العشرة التابعين كانوا في الغالب من أهل الحجاز الذين عولوا على النص ، وكان لهذه المدرسة أصول مع بعض الصحابة أمثال العباس وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وتوجت بعد ذلك بالإمام مالك ^(١٢) كما أن أحفاد هذه الأسر التي استقرت في إفريقية هم في الغالب الذين رحلوا إلى الإمام في دار الهجرة.

ولهذه الأسباب نفسها لم يقبل أهل إفريقية في تلك الفترة على مذهب أبي حنيفة ومع ذلك فقد دخل مذهب إلى إفريقية عن طريق التجار العراقيين وغيرهم الذين دخلوا بتجارهم

(١) مجلة سلطان: دور التجار المصريين في نشر الإسلام والثقافة بحث مقدم لمؤتمر مصر مسودة الإسلام في إفريقيا في أبريل ٢٠٠٠.

(٢) الوسيان: السير عطرط ورفات ٤٨ ص ١٧٢-١٧٥.

(٣) سعد زغلول هامش على عطرط الوسيان. أعمال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب ط الرباط ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص ٨٢ .

(٤) كما لعبت القوافل التجارية دورا كبيرا في ذلك فقد لعبت الأربعة أيضا دورا هاما حيث كان المراكبين ما ينسخون المصاحف والكتب الدينية. أنظر

عثمان الكعكاك مراكز الثقافة في البحر المتوسط ص ٤٣ وما يليها.

(٥) الوسيان السير ورفات كبيرة منها ٤٨-٥٢.

(٦) أحمد فواد الأهرمان التربية في الإسلام ج ٢ ، ص ٥٨.

(٧) سليم شعشوع: المعصر الذهبي ط ١ ص ٤٥.

(٨) نضر محمد علي ما دون عروبة البربر الحقيقة المنفورة ص ١٥٧.

(٩) المراجع السابق نفس الصفحة وأنظر محمود إسماعيل: مغريات ص ٥٧-٥٨.

(١٠) المقدمة ، ص ٤٤٦.

(١١) حسين مؤنس: مقالة الرياض ص ١١.

(١٢) أحمد أمين: نحر الإسلام ، ص ٢٤٣.

تباعا وامتلاّت بهم الأسواق^(١)، كما أن بعض أبناء العرب القادمين إلى إفريقية أمثال عبد الله بن المغيرة الكوفي قد سمع من كبار الكوفيين، وكان أحد زملاء أبي حنيفة^(٢)، وسمع عبد الرحمن بن زياد بن أنعم من أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة^(٣)، كما أن بعض من رحلوا إلى المشرق سمعوا من إمام أهل العراق مثل عبد الله بن فروخ^(٤) الذي اجتمع بأبي حنيفة وكتب عنه، نحو العشرة آلاف مسألة وكان حريصا على السماع منه^(٥). كان رغم اعتماده على ذلك يميل إلى النظر والاستدلال، وربما مال إلى أهل العراق إذ تبين له أنه الصواب في قولهم^(٦) لذلك كان ابن فروخ لا ينص الأصول، كما كان يسأل في المسألة فيجيب عليها بالأقوال المختلفة^(٧) كما سمع عبد الله بن غانم^(٨) من أبي يوسف، وانتشر كتب أبي حنيفة في إفريقية حتى أن ابن غانم كان يقرأها في الجمعة يوما^(٩) وكان أبو خارجة يقول "لا تذهب الليالي والأيام حتى تمحي أبي حنيفة^(١٠) وتم ذلك أيام سحنون، وهذا يعكس رأى فقهاء المالكية في مذهب أبي حنيفة، فكانوا ينكرون عليهم اتباعهم للقياس^(١١) كما أن اتباع أبي حنيفة لم يخطوا بنفس المكانة التي حظي بها أتباع مالك، فقد أهملت كتب الطبقات ذكرهم، واكتفت بنعتهم أهل العراق أو الكوفيين^(١٢) وبذلك لم يتحقق لمذهب أبي حنيفة الانتشار في إفريقية، مثل مذهب مالك كما انتشر مذاهب الخوارج عن طريق هذه القوافل وما يأتي فيها من تجارة ودعاة كالصفورية والإباضية وخاصة في الجنوب من قابس كجبال مطماطة ودمر إلى جانب جبل نفوسة أي إلى الجنوب من طرابلس، فقد كانوا منكبين على دراسة كتب دعوتهم من أهل البصرة وعمان^(١٣).

ولعبت القوافل التجارية التي تمر من مركز قابس الصحراوي في جنوبها دورا كبيرا في نشر هذه الدعوة وتبادل تلك الكتب، كذلك سفر الرجال لتعقبها وعودتهم أو وفود رجال الدعوة من البصرة وعمان لتعليمهم ولا ننسى دور مرافق قابس عن طريق السفن الرائحة والغادية، وهذا يعطينا تأكيدا على أن التعريب في قابس قد بدأ مبكرا فيها، فكان التعريب بصفة نهائية قد بلغ أقصاه بالغزوة الهلالية أي عند منتصف القرن الخامس من الهجرة^(١٤).

(١) أبو العرب: طبقات علماء إفريقية، ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢.

(٣) الرقيق: الثغوراني تاريخ إفريقية والمغرب، ص ١٦٣.

(٤) كان مولده بالأندلس: عام ١١٥هـ/٧٣٤م، انظر: لللكي، الرياض، ج ١، ص ١١٣/١١٤.

(٥) وبذلك عنه أنه قال: "كنت يوما عند أبي حنيفة لسقطت آجره من أعلى دار على رأسه فقال: "إن شئت أرض الجرح، وإن شئت ثلاثمائة حديث" انظر: نفس المصدر، ج ١، ص ١١٦، الديباغ: معالم الإيمان، ج ١، ص ٢٤٠.

(٦) نفس المصدر، ج ١، ص ١١٣.

(٧) عياض: ترتيب المدارك، ج ١، ص ٢٤٠.

(٨) أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن غانم شرحيل بن ثوبان الرهيني، قاضي إفريقية أيام روح بن حاتم صاحب مالك، دخل الشام والعراق للطلب العلم وللقى أبا يوسف، توفي ١٩١هـ، ٨٠٦م، انظر لللكي، الرياض، ج ١، ص ١٤٣.

(٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٧.

(١٠) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥.

(١١) نفس المصدر، ج ١، ص ١٦٠.

(١٢) vonderheyden, loc, cit.

(١٣) والإباضيون هم أقل جماعات الخوارج علوا وأكثرهم اعتد الأوامر بحث إلى نكر أهل السنة، فعندهم أن كثر مرتكب الذنوب والكبائر هو كثر نعمة "أي جحود نعمة وليس" كثر شرك بالله والإيمان عندهم هو جميع ما اقترضه الله على خلقه، ولم يقولوا... مثل الأزارقة - أن أطفال الكفار كتسل عتلون في النار". بالإضافة إلى ذلك، فإن الإمام محمد أبو زهرة يذكر أن الإباضيين يعتبرون ودماء عائلتهم حرام، ودارهم دار توحيد وإسلام إلا معسكر السلطان... ولا يجل من غنائم المسلمين الذين يمارون إلا الخيل والسلاح وكل ما معه من قوة في الحروب... كما تموز شهادة المصلين ومناحتهم الوارث بينهم وبين الخوارج ثابت د/ محمد عسامة: تيارات الفكر الإسلامي ص ٢٨.

(١٤) وانظر تاريخ الملل والنحل الإسلامية، الجزء الأول، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٧ م ص ٧٨ لدراسة تحليلية عن الارتباط للمعنيين بين الإباضية والخوارج، راجع د/ أحمد علي دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، ص ٨١-٩٠ والاطلاع على معلومات مغايرة عن الإباضية ومجموعهم عن الخوارج راجع سالم بن حمود السعالي، أمدن الناهج في تميز الإباضية عن الخوارج، تحقيق وشرح د. سله إسماعيل كاشف، مسقط وزارة التراث

(د) نظام التعليم :

وما أن حل القرن الرابع حتى احتل التعليم والعلماء والمتعلمون مكانه إجتماعية هامة في قابس ، وتعكس أحوال التعليم والمتعلمين صورة لحياة المجتمع الواقعية من النواحي الدينية والإقتصادية ، وأهم ما يوضح ذلك الفقرات المتناثرة هنا وهناك عن دور التعليم ونظمها ، والقاضين بالتعليم وتصرفات العلماء ومكانتهم الإجتماعية. وهناك كتاب يعد وثيقة هامة تعكس أحوال المجتمع القابسي في القرن الرابع الهجري وما بعده ، ويمكن تعميم ما جاء فيه عن منطقة معينة على منطقة المغرب كلها حيث التشابه الإجتماعي بين أجزائها يكون تاما من وجهة نظر التعليم وارتباطه بالدين ، وتلك الوثيقة هي الرسالة التي وضعها أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالقابسي المتوفى عام ٤٠٣ هـ ، وقد فصل فيها "أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين" (١) أعظم من أنجبهم قابس إذ كان له فضل كبير في تنظيم التعليم وتوجيهه الوجهة الإسلامية الصحيحة مما كان له أعظم الأثر ، ليس في قابس فحسب ، بل في كل أنحاء إفريقية والمغرب (٢).

الكتاب أو المكتب أو المكاتب :

كان متوسط عمر الصبي عند ابتداء ذهابه للمكتب يتراوح بين الخامسة والسادسة ويبقى في المكتب حتى سن الثانية عشرة أو ما دون ذلك ، وقد انتشرت هذه الكتاتيب في أنحاء المدن والقرى "فقد تكون إلى جوار المساجد ، وقد تكون بعيدة عنها ولا تكون بداخلها على أية حالة" وكان يقوم بالتعليم في هذا المكتب معلم أو أكثر يقوم بإستئجار المكان ويقوم بإنشائه من تلقاء نفسه ويرسل الآباء بأبنائهم لهذه الكتاتيب نظير أجر يدفعونه شهريا أو سنويا (٣). وكان اليوم الدراسي يستغرق طوال النهار تقريبا عدا فترة الظهيرة حيث يذهب النهار ، والراحة الأسبوعية تبدأ من بعد ظهر يوم الخميس حتى صباح يوم السبت من كل أسبوع ، وأهم ما كان يعنى بتعليمه في الكتاتيب هو القرآن الكريم حفظا إلى جانب الكتابة والنحو العربي ، وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب (٤). ويمكن القول بأن صورة التعليم في مراحل الأولى - كما تستمدنا من كتاب القابسي. اعتمدت على أربعة أعمدة هي:

المكتب والمعلم والصبي والقرآن الكريم ، وهي صورة مستمدة من الواقع الفعلي. وتعكس مناهج التعليم في المكاتب الجو الثقافي السائد ، وكان هذا الجو ملئاً ما بيننا يسود فيه التفقه على مذهب الإمام مالك ، ومن ثم فقد اقتصر تعليم الولدان على حفظ القرآن فقط وتعليم الخط العربي وبعض النحو والعربية ولم يخلطوا ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب (٥).

القومي والثقافة ١٩٧٩ م ، ص ٢٠-٤٨ انظر: الدرجيني ط المقدمة والإاضية ملهف الخواارج لكنة في تقاليدته يعتبر أقرب المناهف الخارجية في تنال تعليم الدين ، وهو الأقرب في ذلك عن الرقن-تاريخ إفريقية ، ص ١٤ وما يليها ، وانظر: - فعل الحياة الإجتماعية ص ، وانظر المرزوقي ، قاسم ص ١١٣ وانظر: الرسياني: السور ورقة ٦-٧

(١) قام الدكتور أحمد فواد الأهران بدراسة أحوال التعليم والمتعلمين من واقع هذه الرسالة ونشرها كملحق لكتاب بعنوان "التعليم في رأى القابسي" ونشرها مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٥. ويبدأ نص القابسي من ص ٢٤٢ في هذا الكتاب لما كان قبل ذلك من صفحات فهو من دراسة الأهران ، وما بعده فهو من كلام القابسي ، أنظر صبحي عيسى: الحضارة في غرب البحر المتوسط ص ٣٤٣ كاتبة رسالة دكتوراه بهذه مكتبة الجامعة الأمريكية

(٢) الرسالة المنصلة في أحوال المعلمين والمتعلمين ، أنظر الأهران: رأى القابسي في التعليم ص ٥٦.

(٣) المصدر والمرجع السابقين.

(٤) الأهران في التعليم ص ٤٧/٤٦ وهناك حالات - نادرة - يقطع فيها المتعلم حفظه للقرآن ويدرس العلوم الرياضية أو غيرها ثم يعود ويستأنف حفظ القرآن لاسيما إذا كانت سنة متقدمة بعد الثالثة عشرة : أنظر: ابن بشكوة قسم ٢ ترجمة رقم ٩٣٩٠ ص ٦٣٢.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، وانظر: صبحي عيسى الحضارة في غرب البحر المتوسط .

وتعكس رسالة القابسي^(١) المشار إليها آنفا ذلك الجو الديني السائد في المجتمع بصورة صادقة حين تعتبر أن مبادئ القراءة والكتابة ماهي إلا سبيل إلى تسهيل تحصيل عنصر هام من عناصر الدين هو القرآن^(٢).

وفي ظل هذا المجتمع المتدين الذي يرى أن التعليم ليس إلا وسيلة لتحصيل أمور الدين التي هي بذاتها أهم مقوم لشخصية الفرد والمجتمع.

خرج القابسي برأي في مسألة "إلزام التعليم" في تلك الفترة المبكرة نسبيا بالنظر لمسألة التعليم الإلزامي^(٣)، ولم يكن هذا سوى إجتهد في الرأي أما الواقع فلم يكن فيه أي إلزام من أي سلطة سوى ذلك الإلزام الأدبي والعرف الإجتماعي في أن يرسل الوالد ابنه للمكتب لتحصيل شئ من العلم في سن مبكرة.

وثمة أمر آخر تشير إليه رسالة القابسي وهي خروج الفتاة مع الصبي ، لتلقي العلم في الكتاتيب ، ويهتم القابسي بإسداء النصح بمراعاة عدم الإختلاط بينهن وبين الأولاد^(٤).

كما وجد كتاب آداب المعلمين مما دون محمد بن سحنون المتوفي سنة ٢٥٦هـ عن أبيه صغير الحجم ، وهو يبلغ ربع كتاب القابسي أو أقل ، وهو خاص بتعليم الصبيان ، اعتمد عليه القابسي كثيرا ونقل عنه واسترشد به وترسم خطاه وتبلغ صفحات هذا الكتاب المطبوع ٦٤ صفحة منها ٣٨ صفحة مقدمة الأستاذ/ حسن حسنى عبد الوهاب في شئون التعليم ، فكان كتاب ابن سحنون نفسه عبارة عن ست وعشرين صفحة لاغير من الحجم الصغير. وثبت فيما يلي فهرسة هذا الكتاب لتتضح لنا الموازنة بين ما تعرض له ابن سحنون وبين ما كتبه القابسي^(٥):

- ١- ما جاء في تعليم القرآن العزيز.
- ٢- ما جاء في العدل بين الصبيان.
- ٣- ياب ما يكره محوه من ذكر الله.
- ٤- ما جاء في الأدب وما يجوز في ذلك وما لا يجوز.
- ٥- ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم.
- ٦- ما جاء في القضاء بهدية العيد.
- ٧- ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان.
- ٨- ما جاء في إجازة المعلم ومتى تجب.
- ٩- ما جاء في إجازة المصحف وكتب الفقه.

وبالرجوع لنص الكتاب نجد أن ما نقله القابسي عنه يكاد يكون بلفظه في بعض المواضع وبإختلاف يسير في مواضع أخرى كحذف السند عن رأى فقيه أو تغيير في العبارة دون إخلال في المعنى ، على أن القابسي لم يكتف بما أخذه عن كتاب "آداب المعلمين". بل نقل عن الفقهاء الذين أخذ عنهم سحنون وابنه كابن القاسم وابن وهب وغيرها.

فإذا كان لابن سحنون فضل الصدارة في تحرير كتاب خاص في تعليم الصبيان ، فللقابسي ميزة التوسع في هذا الموضوع والإفادة في أبوابه المختلفة والترتيب الذي يدل على استقرار فكرة التعليم في الذهن والعمل على بيان السبل المختلفة المؤدية لتحقيق الغاية المنشودة منه ، فالقابسي يسجل في كتابه أحوال تعليم الصبيان في القرن الرابع ، وابن سحنون بدون هذه الأحوال في القرن الثالث.

(١) رسالة مفصلة في أحوال المعلمين والمعلمين.

(٢) رسالة الأهلان: التعليم ص ٨٠.

(٣) المرجع السابق ص ٨٣.

(٤) رسالة الأهلان: التعليم ، ص ٢٨٧ ، أنظر: صبيح عيسى - الحضارة في غرب البحر المتوسط ص ٣٤٥

(٥) أنظر الأهلان: التربية من الإسلام ص ٤٥

يختص كتاب القابسي في شئون التعليم المتعلقة بالصبيان فقط ، ويتعرض كذلك للمكان الذي يتلقون فيه العلم وهو الكتاب ، ولو أن المؤلف ^(١) جعل عنوانه "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين من الصبيان" لكان ذلك منه فعلا في الإيضاح والبيان ، وللصبي سن يبدأ عندها في دخول الكتاب وسن ينتهي بعدها من التعليم في ذلك المكان ، لكن القابسي لم يحدد سن الدخول أو عدد السنين التي يقضيها الصبي وهي مدة الدراسة في الكتاب ، ونستطيع مع ذلك أن نلمس زمن ابتداء التعليم ووقت انتهائه فيما يختص بالصبيان من ثانيا ما كتب.

ويقول القابسي ^(٢) "وينبغي للمعلم أن يأمر بالصلاة إذا كانوا في سبع سنين ، ويضمهم إذا كانوا أبناء عشر" وكذلك قال مالك.

ونص الحديث كما أخرجه أبو داود "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر".

ولا يستنتج من ضرب الأولاد على الصلاة إذا كانوا بنى سبع سنين ، أن سن التعليم تبدأ من ذلك الوقت ، وإن يرجح الباحث هذه السن دون غيرها ، والواقع أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها في تلقي العلم ، وإنما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان ، فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك دفعوا به للكتاب عن أبي بكر بن العربي قال: "وللقوم في التعليم سيرة بدیعة وهي أن الصغير منهم إذا بدأ في التمييز يعثوه إلى المكتب ^(٣)

ونحن نرجح أن هذه السن لم تكن محددة بين الخامسة والسابعة ، تبعا لإختلاف "تضج الصبيان وتقدمهم في الفهم والتمييز ، جاء عن القابسي" سأل مالك عن تعليم الصبيان في المسجد ، فقال لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة "وفي موضع آخر" وإن كان صغيرا لا يقر فيه ويعبث فلا أحب ذلك. فالطفل الذي لا يتحفظ من النجاسة ولا يستطيع الإستقرار هو طفل دون السابعة في الغالب.

ويذهب الصبي مبكرا إلى الكتاب ، فيبدأ بحفظ القرآن ، ثم يتعلم الكتابة ، وعند الظهر يعود للمنزل لتناول الغداء ، ثم يرجع بعد الظهر ويظل حتى آخر النهار ، وبطالة الصبيان من بعد ظهر يوم الخميس ، وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعود دون صباح السبت.

يتعلم الصبي مدة دراسته التي قد تستمر لوقت البلوغ أو بعده بقليل القرآن والكتابة والنحو والعربية ، وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب ، على أن أهم ما يدرس الصبي هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجماعية ، إذ يبدأ المعلم أو العريف بأية يرددها الصبيان من بعده ، ولكل صبي لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يحوه ليكتب شيئا جديدا ، ولم يكن من اللازم أن يحفظ الصبي القرآن كله ، إلا إذا كانت تلك رغبة أبيه ^(٤) دون الدرس والعلم ، أو هرب من أتعاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة ، والعزل والتهديد مرة أخرى والضرب تارة ثالثة إن لم تتجح النصائح ، ولم يجد التهديد.

وإذا أتم الصبي مرحلة تعليم الكتابة ، جاز إمتحانه فيما حفظ من القرآن وفي الكتابة وإختبار حفظ القرآن كله يعرف بالختمة.

وعندئذ إما أن ينقطع عن التعليم ويتجه إلى الصناعة التي يريد أن يزاولها لكسب المعاش ، وإما أن ينصرف لمرحلة أخرى من التعليم في الكتاب ، هذه هي الصورة التي ندرکها من الإطلاع على كتاب القابسي على وجه الإيجاز ، وأركان هذه الصورة التي تتركب منها أربعة هي: الكتاب والمعلم والصبي والقرآن ، هذه العمد الأربعة هي الأساس الذي يقوم عليه التعليم الأولي كما وصفه القابسي ، وعلينا أن نبحث بعد ذلك هذه الصورة مستمدة من

(١) أبو الحسن القابسي رسالة المعلمين وللمعلمين ص ٢٧.

(٢) الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين من الصبيان وهي فصل من رسالته المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين.

(٣) كتاب أبي بكر العربي أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ، مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ بالقاهرة الأهوان: التربية في الإسلام ،

ص ٤٦-٤٧.

(٤) أنظر : رسالة القابسي والأهوان : التعليم في رأي القابسي.

الواقع أم يصف فيها ما ينبغي أن يكون ، ثم نكتين إذا كان هذا النوع من التعليم إقليميا أم عاما (١)

وكان معلوم ذلك الوقت يتفاوتون من حيث الخلفية الثقافية ، فبعضهم لم يكن يعرف إلا القرآن والكتابة ، وبعض آخر تتسع ثقافته لمعارف أخرى غير القرآن ، فترتفع منزلته العلمية ، ومن حيث الوضع الاجتماعي للمعلم ، فإنه كان يتقاضى اجرا على عمله سواء مشاهرة أو مساندة حسب الاتفاق أو يترك هذا التقدير وفي أمر الصبي ، ومن ثم فقد كان القيام بالتعليم وسيلة لكسب المعاش ، ويبدو أن أجر المعلمين لم يكن مرفعا بحيث يعنى المعلم أو يجعله بمنأى عن الإتيان ببعض الأعمال التي ينظر إليها المجتمع على أنها (نواقص) ، فقد يعيث المعلمون بصبيانهم إذا تزوج رجل أو ولد له "فيصيحون عند بابه ويقولون: أسنادا ، بصوت عال ، فيعطون ما أحبوا من طعام أو غير ذلك فيأتون به معلمهم (٢) ، كما كانوا يستهدون آباء الصبيان في المناسبات الدينية ، وعند ختم الصبي للقرآن ، حتى أصبح ذلك بمثابة العرف المتفق عليه ، وينهي القابسي عن كل من هاتين الصفتين إلا أن يكون ثانيهما قد حدث "من غير مسألة" كما نص عليه سحنون (٣) ، ونفهم كذلك أنه قد جرت عادة المعلمين أن يقبلوا ، بل يأمرؤا صبيانهم بإحضار طعام أو غيره ، وهذا يوضح الحالة الإقتصادية في قابس من غنى و فقر وكذلك في بقية المدن (٤).

كما كان هناك في أحواز قابس استعمال نوعا من الكتاب يسمى الشريعة (على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه) فالجملة الكاملة هي محل تعليم الشريعة ، والشريعة - بهذا المعنى الخاص عبارة عن خيمة ممتازة وسط خيام الحى البدوى أى عبارة عن كتاب خيمي (٥). ففي العشائر الجبلية أو الصحراوية ينشئ رئيس الدوار خيمة للمؤدب يعلم فيه الأحداث من نكور وأنث ، (بعد انتخاب من تتوفر فيه شروط المعرفة والثقة والقدرة على تعليم الأحداث) (٦).

ويتداول بيوت العشرة إطعامه بالتناوب على طول العام ويعطونه معونات من حبوب وثمار أو بعض الأغنام كما يعطونه كسوة وهدايا في المواسم والأعياد ، ووجد عند البدو وطائف أخرى يؤديها لهم المؤدب مثل رقيه المرضى ، الوعظ والإرشاد ، كتابة رسائلهم وأحيانا الإمامة في الصلاة. وقد تنتج القيمة فتنتل معها (الشريعة) (٧)

الزوايا :

الزاوية مرحلة وسطى بين الكتاب الذي هو مدرسة ابتدائية عليا ووضعها مثل وضع الخانقاه الشرقية وانحصر دور الزوايا في مهمة تعليم الطالب وإيوائه من ناحية السكن والمأكل والملبس والتعليم علي نفقة الزاوية.

(١) أنظر فواد الأهران: الحرية في الإسلام ، ص ٥٣.

(٢) الأهران: التعليم ، ص ١٨١ ، ٢١٩ ، أنظر عبدالمؤيد شمس الدين: بين ابن سحنون والقابسي ص ٥٣ وما يليها.

(٣) السابق : ص ١٨١

(٤) لقد تدهورت حالة الكتاب في إفريقية بعد ذلك بكثير في بلاد إفريقية فلي تتاوير محروطة في الأرشيف الوطني فيونس عن منطقة الأعراس وهي قابس وإحرازها ويبيع البواحد لتقرير منطقة قابس ذكر كتابي جاره قابس ومول قابس والزوات وذرف والحانة والمطوية وغنوس ومطاطسه وتامررت والزواة وتاجور وبن عيسى وتوحان وبن عيسى وتوحان وبن زليطن وجرحيس وحدث أن تاجر كانت حالته من الملسم والمعلم ولللك بالنسبة لبن ولطن وأن قتر مدنيين لما تبنا للقاتد معلوماها عن الكتاب في منطقهما. أما عن الكتابي الأخرى فقد آلت بما كتبها للزوايا وتقليل منها للجوامع والمساجد والمدارس وجميعا ٣٤ كتابا كان إحدى عشر من المعلمين يمتلكون على المصاحف وهو ما يدل على عدم حفظهم للقرآن ومنعت هذه الكتابي ٨٠٢ تلميذا فقط. أنظر تقرير أواخر صفر ١٢٩٢هـ - أبريل ١٨٧٥ / د / ث القسم التاريخي كرتسون رقم ٦٣ ملف ، وأنظر أحمد قاسم الكتابية في البلاد الفرنسية بحث كراسات تونس سنة ١٩٨٦ ص ١٨٠ ومايليها.

(٥) محمد بن تاروت: الأدب المغربي ص ٦٢.

(٦) عثمان الكماك: مراكز الثقافة ص ٦٦.

(٧) المرجع السابق ص ٦٧.

الزوايا لها أنواع فنوع بسيط أو الزاوية البسيطة أي لا تتسب لطريقة أو لمذهب أو أن تكون علي ضريح أو ولي من أولياء الله وإنما هي عبارة عن مجموعة من الأبنية البسيطة لبيت الطلبة وتعليمهم أي عده غرف حول صحن كبير ، فتكون من الكتاب وغرفة التدريس ومكتبة وجامع مع المرافق اللازمة. وأحياناً يكون هناك أرض حجوارها حياً عليها (وفقاً عليها) لتعيش منها ومن وعدات الأهالي ونذورهم وما إلي ذلك ^(١) وهناك نوع آخر من الزوايا وهي أن تكون علي ضريح أو تابعة لولي من أولياء الله الصالحين فتكتسب سمعة جيدة وتكثر إيرادها من زوارها ونذورهم وشيئنا فشيئنا تتحول إلي مركز عمراني كبير ^(٢) وهذا موجود بكثرة في قابس وتستطيع الباحثة أن تقول أن نمو عمران قابس عشوائياً كان ذلك أحد أسبابه مثل زاوية سيدي علي النوري العثماني في وبعض جارة القديمة ^(٣) وزاوية سيدي المشيرفي في الشمال الغربي من ربوة خزنة المياه في قابس ^(٤) كما توجد علي طريقة المار بجارة زاوية سيدي بن عيس ^(٥) وزاوية سيدي القبطوني ^(٦) وزاوية سيدي عبد النافع حيث ينعطف سور المدينة شمالاً إلي بابها ^(٧) وكذلك زاوية سيدي الفرجاني وقد بنيت في عهد متأخر (عهد البايات في تونس) ^(٨) وغيرهم.

زوايا الطرق :

وهي التي تكون علي طرق القوافل والتعليم هو برنامج الدراسي الموحد بين عموم الزوايا وهي تجمع بين العمل والتعليم ويعني أن فيها مهمة البريد إذا لزم الأمر و انزال المسافرين إلي دار التصنيف أو الفندق ونسخ موطأ مالك وأجزاء القرآن الكريم ^(٩) وترتيب أناشيد وأحزاب خاصة بها وتكتمل من زاوية إلي أخرى بنفس الطريقة حيث أن التعليم موحد فيها كما ذكرنا.

المدارس :

لم تطو المدرسة تعليمي أو مؤسسة ذات نظام تعليمي إداري معين لها إلا في مطلع القرن الخامس من الهجرة في الشرق ثم امتدت بعد ذلك المدارس إلي الغرب الإسلامي وأنحاء العالم ^(١٠) وقد بدأت بنفس نظام الكتاب أي في مكان متفق علي أو في دار المعلم وكل النظام دون تدخل الخلافة إلي أواخر القرن السادس من الهجرة وأوائل القرن السابع فقد ذكر لنا الغبريني ^(١١) والونشريسي ^(١٢) عن أخبار مدارس وفتاوى تخصص التعليم ومعلمي المدرسة في سلا وتلمسان وكان يعقوب المنصور الموحد بين مدرسة سنة ٥٩٣ هـ ١١٩٦ م في ولاية سلام ^(١٣) انتشرت المدارس بعد ذلك في جميع أنحاء المغرب فإنشاء الحفصيون في بلاد أفريقية أول مدرسة ثقافية ^(١٤) وفي قابس كان أبي لبابه الأنصاري ومدرسة يؤديان دورهما

(١) أنظر للكمال : مركز القاعة ص ٥٣

(٢) الكمال : مراكز القاعة ص ٥٣

(٣) المزورقي : قابس ص ٣٩

(٤) المرجع السابق ص ٦٨

(٥) نفس المرجع ص ٦٨

(٦) نفس المرجع ص ٣٤

(٧) نفس المرجع ص ٦٦

(٨) نفس المرجع ص ٣٥

(٩) الكمال : مراكز القاعة ص ٥٧

(١٠) انظر : أحمد فؤاد الأهواني : فترية في الإسلام ص ٧٣-٧٥ وانظر غولييان ريسا : فترية الإسلام في الأندلس ط دار المعارف ط ص ١٣٥-١٤١

(١١) الغبريني عنوان الدراية ص ١٠٠ - ١٠٢

(١٢) المعيار للمغرب ص ٧ ص ١٤٣

(١٣) الغبريني ص ١٠١

(١٤) ابن أبي دينار المولسي ص ١٥٦

التعليمي في تنقيف أهل قابس^(١) وكان مثله مثل باقي المساجد كان تعتقد فيه حلقات تعليم الكبار ومجالس العلم^(٢) محبه في العلم ثم ما لبث أن أصبح يضم ملاحقا وفروعا وأروقة وقد زاره القاضي المطرف بن عميرة بعد تعيينه قاضي علي قابس واحداها ووصفه في قصيدة شعرية بدعية^(٣) ومهما كانت الصلة بين الجامع والمدرسة فإن المدرسة لخدمة طلاب العلم وكان متوازيين في الصلة بينهما ولم تذكر لنا أى من المصادر أي تدخل بين الجامع والمدرسة.

المساجد :

المسجد هو المركز الأول للإشعار الروحي والعلمي لأمة مكان العبادة والتعلم ، وموطن التذكّر والتفكير والتوجيه ، ولم تكن رسالة المساجد في الإسلام مقصورة على الناحية الدينية وحدها ، بل كانت المساجد ولا تزال فتحة الأبواب لا يرد عنها طالب علم ، أو قاصد ثقافة ففي مسجد الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أقام المهاجرين وفيه استقبل الرسول عليه الصلاة والسلام الوفود وفيه أطلقت البعوث ، وأرسلت الجيوش ، نعم لقد كان المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام مكانه للعبادة والاعتكاف ، وكان التعليم والتوجيه ومحل تشاور المسلمين ومقر القيادة العسكرية وعقد الألوكة للجيوش المجاهدة في سبيل الله مكانا للقيادة واستقبال الوفود القادة علي الرسول صلى الله عليه وسلم واعية في دخول الإسلام هذه هي خليفة المسجد وظيفه المسجد في كل زمان وهو المدرسة ففي المسجد كل علم ينفع الناس من علوم القرآن وعلوم السنة والشرعية واللسان وسنن الله في الأكوام وكل علم يحتاج إليه الأمة الإسلامية يكون تعلمه فرد كفاية في نظر الإسلام وعلي ذلك بني مسجد عقبة بالقيروان ومثله كل مساجد أفريقية^(٤) فكان الصحابة العلماء يذهبون للفتوحات ونشر الثقافة الدينية وتعاليم الإسلام في كل البلاد التي يفتحونها وأخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة وأرتحل الكثير من العلماء للتعلم في الدين وجمع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وكثير طلب العلم إذا كانت هناك حركة مستمرة للعلماء^(٥) ونتيجة لتركز الحركة العلمية الثقافية علي الناحية الدينية بالأقصى أصبح المركز الأساس والرئيسي للثقافة والمعهد الأول للتعليم ومكانة العبادة إلا و هو المسجد.

ولقد كان التعليم أول الأمر بقابس بالمسجد الجامع^(٦) وتليه المساجد الأخرى كمساجد الأربطة علي طول الساحل^(٧) (ساحل خليج سرت الصغرى أو ساحل قابس يعطي ذلك) وقد صار فيما بعد المسجد الجامع في قابس فرعا أساسيا للجامع الأعظم في القيروان (جامع عقبة) حتى أنه بنى علي غرار^(٨) وأصبح مركزا دينيا واجتماعيا رئيسيا في قابس ، ومقرا للفصل في القضايا وحلف اليمين ومثله مثل جامع ومثله مثل جامع سوله علي سبيل المثال كان يحلف فيه الخصوم بين يدي القضاة^(٩).

(١) العياشي رحلة العيسى ص ١٠١-١٢٢

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) النجاني حيث أوردها في حديثه عنه وعن قابس ص ١٠٩

(٤) انظر عبد العزيز العليم : رسالة للمسجد في الإسلام ط بيروت ط ٣-١٠٦ ٢٧٠

(٥) انظر سيلة كاشف : مصر في فجر الإسلام ط الهيئة العامة للكتاب

(٦) النجاني : أرسله ص ٢٤-٩٦

(٧) المصدر السابق ص ٢٤-٩٧

(٨) Marçais: Architecture Musulmana, J.78. وأنظر الفصل الأول من هذه الرسالة

(٩) الوئشريس : المعيل العرب... ج ٣ ص ١٥٩

المسجد:

يسمى معهد التعليم الابتدائي عند الحضر في المدن أو القرى أو المدائن الجبلية أو الصحراوية مسجداً أو مكتباً فكلمة تحريف بربرى لكلمة مسجد وتميز لها لتباين المعقد بين المسجد الذي هو محل الصلاة والسيد الذي هو محل التعليم ويوجد غالباً ملحقا بالمسجد أو لجزء منه ويكون غالباً لكل مجموعة ذات خمسين دار مسيد، أى عند نهاية الشارع وتقاطع الطرق فلا تشق المسافة بين الدور والمسجد على الطفل الصغير، ولا تعسر مراقبته ويكون عند ذهابه وإيابه بمرأى من شيخ الحى وأصحاب المحلات وهذه المراقبة بطريقة لطيفة وقائمة فالطفل دائماً هو رأس مال منطقته وقد يكون غدا شاعر الحى أو فارسه أو عزيمة ويتكون المسجد في طابقه الأسفل من ميطاه ومسجد صغير ليتعلم الأطفال الوضوء والصلاة كذلك محاط بحديقة صغيرة يلعب فيها الصغار ويتدربون على الفلاحة والطابق العلوى يحتوى على اللواح والمحايات والصلصال..... الخ أى نفس نظام الكتاتيب^(١)

لقد أنشأ البربر المسجد وعلموا العربية بالبربرية وعلموا فيه القرآن عربياً مبيناً وشرحوه بالبربرية وترجموه إليها، وكان معظم ابربر من الخوارج فكانت مساجدهم التعليمية على النظام الخارجى فقد انتشرت هذه المذاهب الخارجية وبخاصة مذهب الأباضية في قابس وفي جنوبها وباديته وجزيرة حرية كل إلى الجنوب من طرابلس والأباضية لهم نظام خاص بالتعليم بالنسبة للأطفال وبالنسبة للمراء والشباب ويوجد نظام العزابه وهو نظام تعليمي بقدر ما هو نظام إجتماعى في نفس الوقت وقد اهتم شيوخ العزابة بالتعليم بوضع مناهج دراسية وشروط لحلقة التعليم وأهل الحلقة الأباضية صنفان: أمر أى شيخ الحلقة أو نائبه والعريف الذي هو صنفه عريف منفرد وغير منفرد أما غير الأمر فهو المأمور ويقصد بذلك الطلبة أى الذين يتلقون الأوامر^(٢).

الأربطة :

الأربطة جمع رباط وهو بمعنى: ملازمة ثغر العدى وتعنى أيضا المحافظة على أوقات الصلاة ، وفسر الطوطشى هذا المعنى في تفسيره للآية الكريمة "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون"^(٣) ، إذ أوضح أن للجهاد في الآية معنيين ، الأول المحافظة على أداء الصلوات^(٤) ، والثاني هو الجهاد وهو المعنى الأكبر لهذه الكلمة ، كما جاء من القرآن الكريم في قوله تعالى: "واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوك"^(٥)

والرباط ، مصدر "رابط" أي لازم^(٦) بمعنى الإقامة وملازمة الرباط ، وهو منشأة دينية إسلامية تقام على السواحل وخاصة على خليج سرب الصغير (قابس) بصدر درء خطر العدو ودفع أذاه عن أراضي المسلمين.

والرباط أو المراقبة، أي ملازمة ساحل العدو، وأصله أن يرباط كل واحد من الفريقين خيله/ ثم صار لزوم الساحل رباطاً وملازمة أسمه مرابط^(٧)

وقد ظهر الرباط تدعيماً لفكرة الجهاد التي دعا لها الإسلام، حيث يمزج الرباط بهذه الفكرة امتزاجاً شديداً، ويعد جزءاً منه، وقد حرص الإسلام على الجهاد فدعى إلى الجهاد والمثاغرة،

(١) أنظر الكعكع : مراكز الثقافة ... ص ٦٧-٦٨.

(٢) في ذلك انظر المزيد من التفاصيل:

(٣) القرآن الكريم: سورة آل عمران ، آية ١٩٩.

(٤) الطوطشى: سراج الملوك ، ط . بيروت ، ص ٩٧.

(٥) القرآن الكريم : سورة الأنفال ، آية (٦).

(٦) ابن منظور : لسان العرب ، مادة (ربط).

(٧) الرباط هو مفاعل من الرباط، وهو ملازمة ثغر العدو، وهو من الألقاب التي ظهرت كصدى لبعض ماهر النهضة السنية التي قامت على أكساب السلاطنة في المشرق، ولها من بعدهم الأتابكة، ثم ما لبثت أن انتقلت للمغرب، انظر "حسن أياشا" الألقاب الإسلامية ص ٤٦٦.

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة عن رسول الله فقد روى مسلم في صحيحة عن سلمان الفارسي أن النبي قال: "رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً مات مجاهداً، وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان" (١)، وعنه أيضاً أنه قال: "كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة" (٢)، وغير ذلك من الأحاديث التي تعظم فضل الجهاد وتجزل العطايا من الله - سبحانه وتعالى - للمرابطة (٣).

والمرابط داخل الرباط غالباً ما يكون متطوعاً في سبيل الله، لا يبتغي من وراء مرابطته سوى وجد الله تعالى، وهو في أثناء مرابطته يحرص على الالتزام بالعبادة والطاعة لله، وكان بعض المرابطين يسكن بأهله الرباط، ولكن الفقهاء في حكمهم للرباط والمرابطة في سبيل الله يرون أن الرباط شرعاً هو الإقامة في الثغور لحراستها، فمن سكن الثغور بأهله فليس بمرابط (٤)، فيحين أن الإمام مالك أجاز للرجل أن يسكن الرباط بأهله عندما سئل عن ذلك، بقوله: "لا بأس بذلك" (٥)، وقد يطلق على الرباط كلمة قصر (٦) حيث اشتهرت هذه المؤسسات التي عرفت بدور المرابطين باسم القصور، مثل قصر الطوب، ورباط البحر وفيه مسجد المصهرج (٧)، ورباط الحامة على خليج قايس قرب صفاقس وقصر قايس، وهناك الربط التي أقامها الأفراد مساهمة منهم في الجهاد وتحصين السواحل على خليج قايس ومن أشهر تلك الربط "قصر طينة" و"قصر نقطة" ووصفهما بأنهما "قصران عامران" (٨)، إلى جانب "محرس بطوبة" الذي كان يتميز بوجود منارة عالية يصعد إليها عبر برج من مائة وست وستين درجة (٩)، و "محرس جبلة"، و"محارس أبي الغصن"، و"معداس" و"اللوزة" و"الريحانة" (١٠)، وعلى مقربة من قايس توجد أنقاض أحد المحارس القديمة وهو يعرف ببرج خديجة (١١) وله منار عال، وبقرب قايس كان هناك "قصر قايس" (١٢)، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الربط والقصور المقامة في العصر الأغلب على الساحل للجنوب من مدينة تونس، ومن أهمها "رباط الحمة" (١٣)، و"قصر أقليبية"، و"قصر المدفون" (١٤)، وقصر الثوريتين، وقصر سلقطة، ومصر قبوذية

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى أحمد بن تيمية، جميعاً ورتبها عبد الرحمن من محمد الحنبلي، ج ٢٨ الخاص بالثقة والجهاد، مكتبة ابن تيمية، ط ١٤٠٦، ص ٦.

(٢) الحسن بن عبد الله: آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٥ - خب من ١٦٦.

(٣) عن الأحاديث في فضل المرابطة: أنظر محمد بن أبي زيد: الرسالة، دار الملل، بيروت، د.ت من ٩٧/٩٦، أحمد شلي: موسوعة التنظيم والحضارة الإسلامية، ج ٩، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٩٨٣، ص ٨٠.

(٤) الديباج: معالم الإيمان، ج ١، ص ٩.

(٥) مسجون: المدونة الكبرى، ج ٣، مطبعة السمادة، القاهرة، ١٣٢٣، ص ٦/٥.

(٦) القصي: المراد به البناء المشيد العال وأصله الحبس لقوله تعالى "هو قصصنا في الخيام" أي محسوسات فيها، البغدادي: مراد بالاطلاع، ج ٣، ص ١٩٦، الشحان، ص ١٨٠.

(٧) الفريخ: عنوان الدراسة، ص ١٧٨، ١٦٣.

(٨) الشحان: الرحلة، ص ٨٤ - ١٠٤ - البكري: للغرب، ص ٢٠.

(٩) عن محارس صفاقس، أنظر: لبن حوقل صورة الأرض، ٧٠، البكري: للغرب، ص ٢٠، الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ٢، ص ٢٨٠.

(١٠) هي خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري، وكانت شاعرة مشهورة، وذكرها ابن رشيق في كتابه "المعجم"، وقد ذاعت شهرتها في القرن الرابع الهجري بسبب أشعارها في حبيب لها يدعى أبا مروان عبد الملك بن زيادة الله، وقد رف أهلها زواجها من حبيبها - أنظر: حسن حسني: شهرات التونسيات، ص ٥٣.

(١١) يرجع حسن حسني عبد الوهاب أن يكون سبب تسمية هذا الحصن واجهة لهذه الشاعرة حيث يرجع أن يكون أهلها قد سكنوا المنطقة المجاورة للحصن وعندما ذاعت شهرة خديجة أطلق اسمها على الحصن حسن حسني: المرجع السابق، ص ٥٤.

(١٢) البكري: المصدر السابق، الإدريسي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٩، واقرت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٨٠.

(١٣) البكري: نفسه، ص ٨٤، الحميري: الرو، ص ٤١٥ / ١١٠ - الشحان: المصدر السابق، ص ١٨.

أقلبيبة"، و"قصر المدفون"^(١)، وقصر الفورتين ، وقصر سلقطة ، ومصر قبوذية ، وقصر الجرف ، وقصر الروم^(٢) إلى جانب الكثير من قصور المراقبة التي انتشرت على بقية ساحل قابس أنشأت في العصر الأغلب أمثال "مصر مرسى الوادى" ، وقصر النخلة" ، وقصر صالح" ، و"مصر بنى مأمون" ، وقصر الهرى" ، وقصر جرجيس" ، وقصر شماح" وقصر ينقة"^(٣) ، وقصر جبل التوبة" ، وقصرجمة" ، وقصر الديماس"^(٤) ، وقصر زرمدين^(٥) ، وغيرهم من الربط ، وهكذا كانت الربط كثيرة العدد ومتنوعة الانتشار على طول ساحل قابس في العصر الأغلبى.

مساجد لها وظيفة الربط أو الأربطة :

كان من اهتمام الأغلبية بالربط أو الرباطات والتوسع إقامتها أن بنوا مساجد كثيرة على طول ساحل قابس، كان الغرض من إنشائها أن تؤدي نفس المهمة التي تقوم بها الربط، حيث إنهم أقاموا هذه المساجد على ساحل البحر، وكانت تتميز بمنازلها العالية التي تجعل الموجود داخلها يشرف على البحر ويراقبه وكان بذلك يجمع بين العبادة ومراقبة البحر، وقد ذكر الرحالة التجاني^(٦) هذه المساجد بقوله "... وعلى الساحل بطول مساجد كثيرة وهي مساكن للصالحين، والسكان بها يجمع بين الاحتراس ومجانبة الناس وأكثرها من مباني ابن الأغلب ومسجد أجاص التي زارها التجاني^(٧) وقال "رأيت فيها مسجداً يذكر أهلها أن لها فضلاً مشهوراً عندهم وأن الدعاء مستجاب عنده وقد أظهر بعد فلان به الرباط".

الأربطة كمراكز للعلم:

لما أخذ فقهاء المالكية ينشرون مذهبهم وعلومهم للناس بعد أن ثبتت أقدامهم. لم تكن المساجد الجامعة أو الزوايا أو المدارس هي أماكن نشر علومهم مذهبهم فحسب بل لقد امتدت أنشطتهم إلى الأربطة (أو الربط) فجلسوا للتدريس والتعليم في جنباتها وبذلك أصبحت للأربطة وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن وظيفتها الحربية وأخذ الناس يقصدونها لا للجهاد فقط بل لتحصيل العلم أيضاً^(٨) حيث تدرس بها العلوم النقلية (الدينية واللسانية) وكان المجاهدون والمرابطون ينقطعون فيها للعبادة والعلم إلى جانب الحراسة وبذلك احتوت هذه الأربطة على الكثير من المرابطين والعلماء والعاملين، وكانت العلوم متشابهة في كل الأربطة فهي العلوم الدينية مثل الحديث والفقه والعلوم اللسانية والتعليم^(٩) مثل اللغو والنحو والبيان وغيرها بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى كتعلم الطب^(١٠) والإسعافات المختلفة لذا نجد المرابط إلى جانب الجهاد العسكري كان لديه جهاد آخر لا يقل أهمية وهو طلب العلم فكان يدرس العلوم المختلفة

(١) من هذه القصور انظر: البكري: تاسع، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) هذا القصر مازال موجوداً اليوم بالقرب من بلدة الخرس بين صقاس وقابس ، وهو حصن يوناني قديم كان يعرف باسم Younga وعن رابطة هذا الحصن أبو عمارة عينة بن عمارة المالكي - المروى عند الأهل باسم (سبدي ، عينة) - وقد أقام مرابطاً بالحصن إلى أن مات لدن بمسواره (سنة ٢١٠ هـ/ سنة ٨٢٥ م) - أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب ، ص ٢٩٢ ، ورابط به واصل بن عبد الله اللحى من أصحاب محمد بن سحنون.

(٣) انظر: ترجمته في البداغ ، معالم الإيمان ، ج ٣ ، ص ٨٥.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ٣٠٣.

(٥) هو رباط يقع بالقرب من قرية اللروقة بأسمه (قرية زرمدين) ، وكان هذا الحصن مبنياً أسفل بالحجارة وأعلى بالطين، وكان السكان يلجأون إليه ويحصنون فيه عند هجوم قرصان الفرنجة عليهم، الشحان: الرحلة، ص ٥٥-٥٦، حسن حسين عبد الوهاب: الورقات، ج (٢)، ص ١١٠.

(٦) الشحان: المصدر السابق، ص ٢٢، ص ١١٢.

(٧) المصدر السابق نفس المكان.

(٨) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ط، ص ١٣٢.

(٩) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٥-٤٣٦.

(١٠) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٥-٤٣٦.

كالحديث والتفسير والفقه وبخاصة الفقه المالكي^(١) والتزموا في على التفسير بكل ما هو ماثور عن النبي (عليه الصلاة والسلام) وبيتدون عن التأويل والرأى والقياس اقتداءاً بإمام مذاهبهم : مالك بن انس^(٢) (سنة ١٧٩هـ - ٧٦٥م) إلى جانب دراستهم لموطأ مالك درسوا مدونه ابن سحنون وأسد بن أسد بن الفرات وغيرها من الكتب السنة على يد علماء المذهب مثل سحنون بن سعيد (سنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤م) وابنه محمد (سنة ٢٥٦هـ - ٨٦٩م) ويحيى بن عمر (٢٨٩٠هـ - ٩٠١م) وهذا على سبيل المثال^(٣) أما عن طريقة التعليم في هذه الأربطة. فالفقيه أو الشيخ المرابط الذي يعلم يجلس على حصير أو سجاد وأحياناً على كرسي وحوله في حلقة بمجلس الدارسين من المرابطين ينصتون في صمت وقبل أن يدخل في الدرس كان على الشيخ أن يقرأ البسملة والحمد لله. والصلاة على رسول الله ثم يقرأ ما تيسر من آيات القرآن وبعض الأحاديث النبوية الشريفة^(٤). وكان التدريس أما عن طريقة الأمالى أن الطلبة يسجلون ما يقوله الشيخ مسألة (كما الإملاء) ويقرأها الشيخ بنفسه ويصحح أخطاءها ثم يوقع الشيخ أو يختتم على كلمة وهذا الختم يبيع للطلاب أن يروى ذلك العلم^(٥) أما أن يكون العلم من كتاب مقرر معين على الطلبة.

وبعد انتهاء الدرس والشرح يختتم الشيخ بقوله : والله ورسوله أعلم ثم يقرأ الفاتحة وينصرف الطلاب بعد ذلك^(٦) وقد ساعد على ازدهار العلوم احتواء كل رباط على مكتبة كبيرة اشتملت على كثير من المؤلفات الأصلية من أمهات الكتب حيث كان المؤلفون يحسبونها على هذه الأربطة مما ساعد على ثراء وازدهار العلم^(٧) وسوف نجد هذا النظام في رباط البحر على ساحل قابس ورباط القصر بالحامة ومسجد الصهرج برباط البحر وغيرهم^(٨) كان نتيجة لاضطراب الأوضاع نتيجة الانتشار المذاهب الخارجية كالصوفية والحشوية والاباضية^(٩) أن تسبب فوضى وأدى إلى اعتزال الناس واعتمادهم بالدين الإسلامي بحثاً عما يعصمهم مما يحيط بهم ومن هنا نجد أنه قد ظهر الزهد والتصوف وارتبطا بالأربطة حيث زهد الرابطين وتصوفوا انصرفوا إلى الجهاد بشقيه. جهاد النفس وجهاد الدفاع عن الوطن والزهد هو أول درجات التصوف التي وعت تعريفات تأثيره تفسير فقد قال عنه معروف الكرخي^(١٠) التصوف الأخذ بإحقاق والياس بها في أيدي الخلاق، ممن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف، بينما وجد ابن خلدون^(١١) صعوبة في تفسير التصوف. علماء قابس ودورهم في الحياة الثقافية:-

أبو لبابة الأنصاري

هو يشير بن عبد المنذر أبو لبابة الأنصاري الأوسى وهو من بني عمرو بن عوف ثم من بني أمية بن زيد^(١٢) أو من بني زيد بن مالك. وأبو لبابة بن المنذر وإسمه بشير^(١) وهو بشير

(١) ابن فرحون: الدياجج للمذهب " ط ١ ج ١ ص ٨٢-١٣٥

(٢) أبو العرب: فهم طبقات علماء العربية ص ١٠٦-١٠٩ لأدهاع : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥١-٥٩

(٣) المصدران السابقتان نفس المكان

(٤) بما حق: الماركة ج ٣ ص ١٠٠

(٥) محمد عادل عبد العزيز : التربية الإسلامية في الغرب وأصولها ط القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ص ٢٣-٢٤

(٦) المرجع السابق ص ٢٥

(٧) الكمال مراكر الثقافة ص ١٧

(٨) الفردين عنوان الدراسة ص ١٩٨

(٩) الوسيان السيرة ووقاات ١٦-٤٨-٥٦

(١٠) أبو محفوظ بن فيروز الكرخي كان شيخاً معروفاً بالورع والتصوف مكان استاذاً لسرى النقطي وصعيب داود الطائري وترقى ببغداد سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م لمزيد من التفاصيل انظر : أبي عبد الرحمن السامعي : طبقات الصوفية تحقيق لور الدين شريعة ط القاهرة ط ٣ ص ٨٣-٨٥

(١١) المقدمة: فصل عن التصوف لمزيد من التفاصيل انظر محمد بركات البليلى : الزهاد والخصوف في المغرب والأندلس ط دار النهضة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

(١٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ١ ص ٢٣٣ ترجمة رقم ٤٦٢ ب د ع

ابن عبد المنذر بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك من الواس
وقيل اسمه رفاعه وهو بكنيته أشهر^(٦) لكن ابن السائب الكلبي^(٧) يعد لنا إنيان للمنذر بن
زبير (يبدو أنهما أشقاء للبابية) الأول رفاعه بن المنذر بن زبير بن زيد بن أمية شهد بدر
والعقبة الآخرة وقال يوم خيبر والثاني مبشر بن عبد المنذر شهد بدرًا وقتل يومئذ^(٨) ومن
أخبار أبي لبابة الأنصاري مع الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحدثنا ابن الأثير^(٩) :
أخبرنا أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله بن عساكر ، أخبرنا أبو العشائر محمد بن
الخليل بن فارسى القيس حدثنا أبو القاسم بن محمد بن أبي ثابت حدثنا محمد بن حماد الظهراني
أخبرنا سهل بن عبد الرحمن أبو الهيثم الرازي عن عبد الله بن عبد الله ابن أوس المدني عن
عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب عن أبي لبابة قال:
"استسقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الجمعة فقال أبو لبابة إن التمر في المريد^(١٠) ،
فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الله اسقنا في الثالثة ، حيث يقوم أبو لبابة عريانا فيسد
ثعلب^(١١) مريده بإزاره فقال: فاستهلت السماء فمطرت مطرا شديدا وصلى بنا رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) فطافت الأنصار بأبى لبابة يا أبا لبابة إن السماء لم تقلع حتى تقوم
عريانا فسد ثعلب مريده بإزاره.

ضرب له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسهمه يوم بدر^(١٢) وعندما استعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم للخروج لغزوة بدر الكبرى التي كانت أول معركة من معارك الإسلام
الفاصلة - جهاز الجيش وتم توزيع القيادات ، واستخلف (صلى الله عليه وسلم) على المدينة
وعلى الصلاة ابن أم مكتوم^(١٣) ، وسار أبو لبابة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريد
ردرا ، فرد في الروحاء^(١٤) واستخلفه على المدينة وضرب له بسهمه وأجره وكان كمن
شهدا^(١٥) وهو أحد النقباء. ولقد كان أبو لبابة الأنصاري من الأمثلة الخالدة للذين خافوا مقام
ربهم وأيقنوا إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في نفوسهم فكانوا منه على خوف وحذر - وذلك
أن الرسول الكريم (صلوات الله عليه وسلم) لما فرغ من غزوة الأحزاب^(١٦) - ورد الله الذين
كفروا بغيبهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال" أخذ يفكر في موقفه من اليهود لقد
أذهب الله عنه أعداءه الذين هددوه بالمدينة.

وتحزبوا في جيش عدته عشرة آلاف مقاتل للقضاء عليه وعلى دعوته، لكن اليهود في بنى
قريظة نقوا العهد وتحالفوا مع الأحزاب د المسلمين ولولا ارتحال الأحزاب تحت وطأة الردع
القاصف والريح العاصف لنزل اليهود إلى المدينة ولطعنوا المسلمين من الخلف ... وكان لابد

(٦) الكلبي: ابن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (د/ ٢٠٤ هـ) - ج ٣ ص ٦٢٤ ط بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ ط ١ ج ٣ ص

٦٢٤

(٧) بن الأثير : مصدر سابق نفس الجزء والمصنعة.

(٨) المصدر الجزء والمصنعة

(٩) المصدر الجزء والمصنعة

(١٠) أنظر: أسد الغابة نفس الجزء والمصنعات

(١١) المريد: موضع يجلب فيه التمر.

(١٢) ثعلبة: أي ثقب الذي يسيل منه ماء المطر.

(١٣) ابن السائب الكلبي: ج ٣ ص ٦٢٥

(١٤) صلى الذين البار ككروى: الرحيق المحترم (بحث في السورة النبوية فائز بالجائزة الأولى لمسابقة السورة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي).

(١٥) الروحاء : موضع بين الحرمين على بعد ٣٠ أو ٤٠ ميل من المدينة ، أنظر الأثير.

(١٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة نفس الجزء والمصنعة.

(١٧) قبل غزوة الأحزاب ساد المدينة الأمن والسلام وإيمان الرسول ومن معه أن قريشا أمامهم فترة طويلة متى تصدعت قوتها وأنه ينجح في بسط السلام
حول المدينة وكسر شوكة الأعراب حولها ووجد الرسول الكريم ومن معه الفرصة لنشر الإسلام وبخاصة أن جرى الأحداث بقول لصالح المسلمين
لكن اليهود شرعوا في التآمر مرة أخرى على المسلمين ... أنظر: بن هشام المفاوى (د/ ٢١٣ هـ) مختصر السيرة ابن هشام القاهرة ١٤١٤ هـ -

من إلقاء على بنى قريظة بما فعلت .. وسار إليهم المسلمون يتقدمهم على كرم الله وجهه - استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي أمر مؤنثا يؤذن في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة. وبعد ذلك حاصر المسلمون بنى قريظة واشتدوا فيه خمسة وعشرين ليلة حتى أهدم وقذف الله في قلوبهم الرعب (١). وأيقت بنو قريظة أنه مهما كانت عندهم من حصون فلن تمنعهم من الله، ثم من قبضة المسلمين مهما طال الحصار. وأيقنوا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غير منصرف عنهم، حتى ينجزهم. قال كعب بن أسد لهم: يا معشر اليهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وأنى عار عليكم خلا لا ثلاثا: فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم إنه نبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على ثمانكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذه فهل فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج لمحمد وأصحابه مصليين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وأن نظهر قلعمرى لجدن النساء والأبناء (٢) قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم على هذه، فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمثروا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب من محمد غرة.

قالوا نفسد سبتنا علينا، وتحدثت فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد غلبت (٣) فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ (٤) ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولادته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما (٥)، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يرسل إليهم أبا لبابة ليستشروه في أمرهم - وقد اختاروا أبا لبابة لهذا الأمر لأن ماله وولده فهم وكذلك لأنه كان من قبيلة الأوس التي كانت من حلفاء قبيلة بنى قريظة (٦). فلما رأوه قادميا عليهم أسرعوا إليه وقاموا إليه رجلا ونساء وأطفالا جهشوا وظلوا يبكون في وجهه (٧) وقالوا له: يا أبا لبابة: أترى أن نزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه يريد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سينبئهم إن نزلوا على حكمه (٨) هذه الإشارة العابرة أيقن أبوا لبابة إنه بهذه الإشارة العابرة قد خان الرسول الكريم صلوات الله عليه وأن هذه الحركة السريعة انطوت على تحري لليهود يدفعهم إلى التمرد على أمر الله فلا يزلون الله ورسوله ويقول أبو لبابة: "والله مازلت قدامي من مكانهم حتى علمت أني خنت الله ورسوله (٩) ثم يعن أبو لبابة في التعبير عن خلجات نفسه في هذه اللحظة فيقول: ثم ندمت واسترجعت ، ولقد نزلت وأن نزلت وأن لحيتي لمبتلة من الدموع ، والناس ينتظرون رجوعي إليهم ، لكنني ما رجعت بل أخذت من وراء الحصن طريقا آخر حتى جئت المسجد حيث ربط أبو لبابة نفسه في عمود من عمد المسجد وقال لا أبرح مكاني هذا حتى أموت أو يتوب الله علي مما صنعت.. أعاهد الله ألا تطأ قدامي أرض بنى قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت فيه الله ورسوله (١٠) ومكث أبو لبابة مشدودا برباطة إلي العمود لا يفارقه إلا لصلاة يؤديها أو لضرورة ينحيا عن نفسه ثم يعود

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص ٢٤-٢٥ وانظر أحمد السيوطي: أبو الأنصاري/ مجلة منير الإسلام عدد ١٢ السنة ٢٣/ جلد ٣/ سنة ١٩٦٥ ص ١٠٩

(٢) مختصر سيرة ابن هشام نفس الجزء ص ٢٥

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة

(٤) المسخ هو تحويل الذرة البشرية إلى صورة أخرى أتبع نفس المصدر والجزء والصفحة هامش ٣

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة

(٦) انظر: منير الإسلام مرجع سابق نفس الجزء والصفحة

(٧) جهش/ بكاء بصوت عال انظر مختصر سيرة هشام مصدر سابق نفس الجزء والصفحة هامش ٣

(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة وانظر نفس المرجع

(٩) نفس المصدر نفس المرجع انظر المبارك كزوري مرجع سابق نفس الصفحة (٨: ١)

(١٠) انظر مختصر ابن صدر سابق الجزء نفس الجزء ص ٢٦ وانظر للمبارك كزوري مرجع سابق ص ١٠٩

إلي ما كان عليه وكانت زوجته في وقت كل صلاة تلك وثاقه ليصلي ثم يعود فتربطة في العمود مرة أخرى وظل هكذا حتى بلغ خبره إلي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) الذي قال أما أنه لو جاعني لاستغفرت له فلما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقت من مكانه حتى يتوب الله عليه يا لعظمة هذا الدين الذي أكرمنا الله به حيث قال: رضى لكم الإسلام ديناً إن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وهو خير خلق اله وأكرم الناس علي الله - عز وجل - ولا يملك أن يغفر لمذنب ذنباً فالله وحده هو الذي يقبل التوبة من عباده وهو وحده الغفور الرحيم ومن يغفر الذنوب إلا الله؟

ولقد أنزل الله عز وجل علي رسوله توبته علي أبي لباب - وهو يتلقى عن جبريل الأمين قوله بسم الله الرحمن الرحيم "وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم" (١) صدق الله العظيم - ومع أنوار الصباح سمعت أم سلمة (حيث كان الرسول الكريم في بيتها) رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يقول فرجا تيب علي أبي لبابة فطلبت منه أم سلمة أن تتولي تبشير أبا لبابة بالعفو عنه من المولى التقدير فوافق الرسول الكريم لأنه يقول عليه الصلاة والسلام "آية أحب الأعمال إلي الله تعالى بعد الفرائض إدخال السرور علي المسلم" (٢) ولما سمع أبا لبابة خبر العفو عنه حتى غمره الفرح وقال للناس في المسجد الذين نهضوا لفك وثاقه "لا والله حتى يكون رسول الله صلي الله عليه وسلم هو الذي يطلعي بيده وذلك تعظيماً لرسوله ورجاء لبركته متى لا يعود لمثل فعلته، فما مر الرسول (صلي الله عليه وسلم) عليه خارجاً لصلاة الصبح أطلقه وأراد أبو لبابة أن يعظم شكر الله عز وجل الذي قبل توبته فعزم علي أن ينخلع من ماله كله حمداً لله وشكراً كما عزم أن يهجر وطنه الذي عصى الله علي أرضه ، تخلصاً من البيئة السيئة حتى لا تشده إلي أسفل بعد أدت به هذه التوبة إلي السمو الروحي فقال "يا رسول الله أن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن اخلع من مالي صدقة إلي الله وإلي رسوله (صلي الله عليه وسلم) فلم يقبل الرسول الكريم - صلوات الله عليه - أن يتجرد من ماله كفه شفقة عليه ورحمة بولده - وتشريعاً عادلاً - فقال له: "بل يجزيك يا أبا لبابة الثلث" (٣) وإستناداً إلي ما سبق بثوار التاريخ في مدينة قابس علي السنة أهلها من ذلك الوقت علي أن هاجر لنشر دعوة الإسلام في إفريقية في زمرة المجاهدين العاملين لخير دينهم وأمتهم ويبدو أنه وصل إلي إفريقية من إحدى الجرائد المرسلة إلي هناك (٤) إن تاريخ فترة الفتوح لا يزال يسبح في الغموض لان المؤرخين اقتصروا علي ذكر الغزوات الكبيرة وأهملوا ذكر السرايا التي كان المركز الإسلامي في المدينة المنورة يبعث بها للاستكشاف والفتح فقد أكتفت هذه السرايا تتوالى سنوياً تقريباً علي إفريقية فتصل إلي قابس وجهات لغزاة وقنصه الجريدة وتتمتع أحياناً في تراب إفريقية فتصل الدواخل (٥) ولا ننسى أيا الحاميات التي كانت تتركها الجيوش الكبرى خلفها مستندة إلي صلح من بعض الجهات أو القبائل بحيث تعتقد أن إفريقية لم تخل من منذ الغزوة الأولى للفتح الإسلامي علي إفريقية وكان يموت من بعض هذه الحاميات أو السرايا رجال يخفي أمرهم علي المؤرخين الذين جاءوا بعد هذا العصر إذ لم يشر إليهم أحد من قدماء المؤرخين في القرون الإسلامية الأولى ، وقد ذكره القاضي أبو المطرف بن عميرة (٦)

(١) سورة التوبة آية ١٠٢/٢/ أنظر: ابن هشام نفس الجزء ص ٢٦

(٢) منير الإسلام مرجع سابق ص ١١١

(٣) أنظر الميار كنفوري مرجع سابق نفس الصفحة وأنظر منير الإسلام نفس الجزء والصفحة.

(٤) أنظر محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا ص ٢٣٤ ط الحان ط ١

(٥) أنظر المرزوقي مرجع سابق ص ٢٣٦ - ٢٣٩ عند ذكره لحديث حسن حسبي عبد الوهاب في ذلك

(٦) قاي من المهد الحنفي عينة الخليفة المستنصر علي بمائة ثم قابس واسمه بالكمال أبو المطرق أحد بن عبد الله بن محمد بن حسن بن عميرة المخزومي

٥٨٢-٦٥٨م، ١١٨٦-١٢٦٠م، أنظر: أبو العباس الغبريني عنوان الدراسة فيمن عرف العلماء في المائة السابعة لجايه مع/ عادل - بيروت ١٣٨٩

في إحدى رسائله التي كان يكتبها أبناء وجود في بلدة قابس ووصفها فيها "بالجمال فهو تام الغربية مدهام الغاية مستأثر بسيد من سادات الصحابة" (١)، كما ذكره بعد ذلك الرحالة العبدري (٢) وفي أواخر القرن السابع من الهجرة في حديثه عن قابس قال "وبه قبر أبي لبابة صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليه مسجد وهو منه في بيت مغلق". وبعده بما يقرب من القرن يحدثنا النجاشي (٣) في أوائل القرن الثامن أثناء زيارته لقابس إضافة لما سبق من قول ابن عميرة وما ذكره أهل قابس "أن أبا لبابة الأنصاري مدفون ببلدهم وقبره عندهم مزار مشهور، وبقابس أيضاً مسجد ينسبونه إليه، ولم أر أحداً من المؤرخين عدا أبا لبابة عدة ممن دخل إفريقية من الصحابة فلعله إن ثبت أن قبره هناك ممن أغفل المؤرخين ذكره منهم.

أما ابن ناجي القيرواني (٤) فيقول "لما وليت قضاء قابس وجد فيهم يزورون قبراً في بيت نظيف داخل مسجد خارج عن البلد من عريبتها يسمى مسجد أبي لبابة صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجميع من في قابس وسائر عمالها يقولون ذلك وينقلونه نقلاً متواتراً حرهم وعبيدهم .. فقلت لهم (الكلام لأبن ناجي) (٥) أن المؤرخين قالوا لم يدفن بإفريقية من الصحابة غير أبي زمعة بالقيروان فقالوا ما رأينا أحد تردد فيما ذكرناه لك ثم لو وصلت تونس سألت عن ذلك شيخنا أبا الفضل أبا القاسم البرزلي (٦) فقال لي: "لما حجبت زرتة قبره ونقلهم فيه متواتراً فما ذكره المؤرخون إنما هو فيما عاينوه وذلك بأية علم خلاف ما لم يعلموه فالعمل على ما ذكره أهل قابس ولا قادح يقدم في عملهم" لكن العباس (٧) فقد أكد وجود قبر أبي لبابة بناء على ما سبق من حديث أنين ناجي وشيخه البرزلي.

وهناك مما ذكره البلاذري (٨) ما يؤكد وجود العديد من الصحابة الذين دفنوا في إفريقية ضمن السرايا فقد قال وبنت ابن أبي السرح السرايا ففرقهم في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة واستأقوا من المواشي ما قدروا عليه وعلى ذلك فلا يستبعد أن جماعة من الصحابة قد ماتوا ودفنوا في إفريقية وأغفل ذكرهم المؤرخون القدماء لعدم بلوغ العلم بهم إليهم وقد تواتر زعم أين أهل الجنوب الشرقي من إفريقية ما بين مدنيين وجرجيس ومنقردان وجربة (٩) من وجود قبور للصحابة في حصنهم فمن يرون عن أجدادهم إن سبعة من الصحابة قد استشهدوا ودفنوا بمكان يسمى إلى اليوم (جرف الصحابة) بأرض تسمى أرض (الغرايات) وتبعد عن مدنين نحو خمسة وعشرين ميلاً على طريق جرجيس (١٠) وإذا صرح وجود قبور للصحابة هناك فيكونون من بين من استشهد في الغزوات الأولى التي كانت تترافق وتتوالى على إفريقية من طرابلس (١١).

القابسي:

"هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي"

(١) أنظر محمد شريف: القاضي ابن عميرة حياته وآثاره ط القاهرة ط ١ ص ١١٢

(٢) أبو عبد الله محمد بن محمد الحلي

(٣) أنظر ابن ناجي: معالم الأبحار ج ١، ص ١٠-١٢

(٤) أنظر المرزوقي: مصدر سابق ص ٢٢٩.

(٥) مصدر سابق ج ٣ ص ٢٢٨.

(٦) من قتهاء المالكية كان متيماً في تونس وتعلم على يده الكثير مثل ابن نال.

(٧) الرحلة ص ٩٥.

(٨) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٢٨.

(٩) ثلاثة من البلدان في الجنوب الشرقي من قابس في الطريق إلى الأتقي من طرابلس أما جرجيس فهي جزيرة جنوب شرق قابس

على خليجها.

(١٠) جرجيس تقع إلى الغرب من جزيرة جربة.

(١١) أنظر المرزوقي ص ١٣٨.

الفقيه القيرواني^(١) قال عنه القاضي غياض^(٢) "ولم يكن أبو الحسن قابسا وإنما كان لدعم بشد عمامته شد القاين قسمي بذلك". أما صاحب معالم الإيمان^(٣) وهذا فيه نظر وظاهر قولهم "المعروف بابن القابسي" يقتضي أن والده كان من أهل قابس فإما أن يكون أتى القيروان وتزوج بها، وإما أن يكون أتى به صغيراً.

"ولقد حج القابسي سنة ثلاث وخمسين" وسمع كتاب البخاري بمكة من أبي زيد ورجع إلى القيروان فوصلها غداة الأربعاء أول شعبان أو ثانية سنة سبع وخمسين: كذا قال أبو عبد الله بن وهب^(٤) وكان القابسي "عالماً عاملاً - جمع العلم والعبادة والزرع والزهدي، والخشية ورقة القلب ونزاهة النفس ومحبة الفقراء، حافظاً لكتاب الله ومعانيه وأحكامه عالماً بعلوم السنة والفقه وإختلاف الناس سلم له أهل عصره ونظر أئمة في العلم والدين والفضل، كثير الصيام والتهجد بالليل والناس ينامون.."^(٥) له الكثير من المؤلفات الهامة من أهم ما درس منها أزماناً طويلة: الرسالة المفضلة لأحوال المعلمين والمتعلمين وكان فيها أسلوباً جديداً في التعليم الصحيح على الشريعة الإسلامية، كما شجع فيها تعلم الفتيات الصغيرات، كما أن له كتاباً في أهمية الحصون كان مهماً للأريطة ونظامها وحمايتها^(٦) وقد توفي في عام ٤٠٣ هـ / ١٠٢٥ م. ذكر ياقوت^(٧) عدة علماء من جملة علماء قابس: عبد الله بن محمد القابسي من مشايخ يحيى بن عمر الفقيه الشهير الذي توفي أواخر القرن الثالث الهجري فإن يعني أن عبد الله القابسي كان موجوداً في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ويرجع أنه كان فقيهاً أو من علماء الشريعة^(٨) أبو محمد حلف بن محمد القابسي. ذكره أبو العربي التميمي^(٩) "كان رجلاً صالحاً ثقة له سماع من ابن غانم القاضي ومن بهلول بن راشد" وهم من أبناء قابس الذين سكنوا القيروان وأنه كان من طبقة ابن سحنون الذي قال عنه "أنه لم يبدل ولم يغير"^(١٠) عيسى بن عيسى القابسي:

أبو موسى عيسى ابن عيسى (موسى) بن نزار بن يحيى القابس وصفه ياقوت^(١١) بأنه الفقيه المالكي الحافظ تتلمذ على أبي عبد الله الأهواني وأبى على حور التوفي ورحل إلى المشرق فسمع بمكة من أبي ذر العدوي وبيقعداد من أبي الحسن العنفي وأبى القاسم التنوخي وأبى الحسين الحراني وأبى محمد الجوهري وأبى الحسن القزويني وغيرهم وأنتصب للتدريس بدمشق فقرأ عليه عبد العزيز الكنانى أبو بكر الخطيب ونصر المقدس - .. وكان ثقة ومات بمصر ٤٤٧ هـ / ١٠٦٩^(١٢).

الوزير سلام بن فرحان:

سلام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي من بن هلال، وقد عاش بقابس في بلاط بني جامع الهلاليين وتقدم عندهم حتى أصبح وزيراً لأخر أمير من بني جامع الأمير مدافع ابن رشيد فلما هرب مدافع بن جيوش بن عبد المؤمن الموحد في عام ٥٥٥ هـ حتى ابن فرحان ساقته ودافع

(١) ابن حنبلان وفيات الأعيان ترجمة رقم ٤١٩.

(٢) ترتيب الملاك جـ ٢، ص ١٨٨.

(٣) الأسدي الدياع جـ ٣ ص ١٨٠: ١٥٨.

(٤) الدياع معالم الإيمان جـ ٣ - ترجمة القابسي.

(٥) أحمد فؤاد الأهوان: التعليم في رأى القابسي ص ١٧-٢٢.

(٦) أحمد فؤاد الأهوان: التعليم في رأى القابسي ص ١٧-٢٢.

(٧) معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٨١.

(٨) المرزوقي: قابس ص ٢٥٣.

(٩) حلقات علماء إفريقية ترجمته.

(١٠) أنظر في...: الأمام سحنون ط الفرغان وأنظر المرزوقي ص ٢٥٩.

(١١) المعجم جـ ٤ ص ٢٨١.

(١٢) المصدر السابق نفس الجزء والمقدمة وأنظر المروني ص ٢٥٤.

مخدومة حتى قتل في المعركة وقد كان بن فرحان شاعراً وله أشعار كثيرة في مدح بني جامع^(١)

أبو ساكن عامر من محمد الهلالي.

قال عنه النجاشي: (٢) عامر بن محمد بن مكى بن كامل من جامع أبو ساكن. تربي في بلاطه أباءه وأجداده بني جامع أمراء قابس بعد عام الأخماس فارق قابس مع عائلته وسكن دمشق. وظل يكتب أشعار رثاء في أيامه الجميلة بقابس وكان ابنة شاعراً مفوهاً^(٣) وصفة صاحب الخريدة^(٤) بأنه كان يدوياً وأميراً سرياً وله أشعار خماسية أى يغلب عليها الخماس وبساطة العبارة. توفي قبل ٥٧١هـ.

أبو الفضل بن عبد الله بن نزار الهواري أبو الفضل

هو ابن الفقيه عبد الله بن نزار الهواري القابس قال عنه صاحب الخريدة أنه كان حياً في عصره (أى إلى ٥٩٧ هـ) وهو من قبيلة هواره البربرية ويظهر أنه عاش في بلاط بن جامع كان من شعرائهم وكثيراً ما مادحهم. وقد بقي في قابس حتى جاءها الموحدون فتقرب إليهم بشعره واختص أولاد عبد المؤمن بالمديح^(٥)

ابن ميكائيل أو ابن مشكان (بالقاسم)

كان شيخ قابس وفقياً وله تلاميذ ومديرين ذكره العنبرين. على أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن منداس ولد ٥٥٧ هـ بمدينة الجزائر حيث نشأ وتعلم ثم رحل إلى قابس فأخذ عن شيخها من ميكائيل ثم عاد إلى مسقط رأسه وعكف على تدريس علوم الحديث وهو شيخ قارئ ولخوى. توفي ٦٤٣ هـ/ ١٢٦٥ م^(٦) أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن حسين بن عميرة. المخدومي:

وهي الشيخ فقيه مجتهد وعالم جليل من أهل جزيرة في الأندلسية وولى القضاء بأربوله وخاطبه من الأندلس وسلا ومستطيفه ثم قابس وذلك في عهد الدولة الحفصية وله أشعار فيها ورسالة في وصفها ومديحها وتوفي ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م^(٧)

صارت قابس من أهم المراكز الثقافية في إفريقية وغدت مقصد وهدف الكثيرين من علماء المغرب والمشرق عامة وقد ساعدت التطورات السياسية التي تعرضت لها إفريقية نحو منتصف القرن الخامس من الهجرة والمتمثلة في الغزوة الهلالية^(٨).

وفتح قابس واستقرار مقدمهم تلك القبائل وهو مؤنس الرباهي بقابس ومعه أغلب القبائل سواء في قابس أو نواحيها - أدى ذلك أن أصبح الأدب والشعر عنصراً هاماً من عناصر المجتمع الثقافي لقابس ولقد دعم الشعر والأدب البنية الثقافية فقد اتسمت ثقافة بن هلال يجب للقصص والشعر المحلون والقصص فقد طور ذلك المجتمع القابسي بإقراره قواعد الأدب فقد دخل الأدب الشعبي تعريبه منى هلال^(٩) نما تصوره من بطولات وملامح وخاصة مع قبائل رنانة فأصبحت سيرة شعبية يحكى في كل زمان ومكان - لقد أصبح الأدب الشعبي وما يحيط بصفة من صورة الشجاعة والبطولة من أهم ثمار الثقافة لا في قابس فحسب بل في آخر بقية المغرب والمشرق العربي بكل بلدانه^(١٠) واضيفت ألوان من الأحداث الخيالية وقصص

(١) أنظر جريدة العصر للأصفهاني ترجمته من ١٠٥ وحسن حسن حيد الوهاب عمل الأدب التونسي من ٨٦ وأنظر المرزوقي من ٢٥٤

(٢) الرحلة من ١٠٣.

(٣) المرزوقي من ٢٥٦.

(٤) الأصفهاني ترجمته كذلك ترجم النجاشي في رحلتهم أنظر النجاشي من ١٠٣: ١٠٢. وأنظر الخليل ج ١ من ٣٥٨.

(٥) ذكره النجاشي وأنظر الأصفهاني المصدر السابق.

(٦) أنظر العنبرين: عنوان الدراسة من ٢٤٨ وأنظر المرزوقي من ٢٥٥.

(٧) المصدر والمرجعان السابقان نفس الأماكن.

(٨) كما يجزئنا المسجل رقم ٥ من السجلات المستغنية.

(٩) عبد الله العلوي عمل تاريخ المغرب ج ٢ من ١١٢ وأنظر عبد الحميد بولس السمر الهلالية.

والمشرق العربي بكل بلدانه.^(١) واضيفت ألوان من الأحداث الخيالية وقصص البطولة والممزوجة بالحب والأساطير مثل قصص الجازية ودياب بن غانم على سبيل المثال ، ما يدلنا على أن هذه القصة بالذات لها ظل من الواقع والحقيقة أنه يوجد كان بالقرب من قابس يسمى مرقب دياب.^(٢)

مجالس الشعر والأدب :-

كانت مجالس الشعر والأدب في بلاط بني جامع تضاهي مجلس بلاط بني باديس في الروعة ، وإليها وكثرة الشعراء الذين يمحونهم ، ومن أشهر الشعراء ، الوزير سلام ابن فرحان ، ويحي التيقاشي القصصي^(٣) ، وكان يوجد مثل أي دولة مجالس الوعظ والقصص ومجالس الموسيقى.

مجالس أدب القبائل الهلالية وشعرهم :-

ما من شك في أن شعر شعراء بني هلال نمط ومن الشعر العربي ، له لونة الخاص ، ومميزاته الفريدة ، ولم يهتم أحد قبل ابن خلدون بالتحدث عن بني هلال ، وأهمية أدبهم فقد قال عنهم :- "فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراس لى ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويأتون بالبطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه في المدح والثناء والهجاء ، كما يستطردون من فن أي فنه في الكلام ، كما أن لهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة ، ويمتاز شعرهم بخلو من الأعراب وقوة الإحساس وسذاجة التصوير ، ومن أمثلة شعرهم في الحرب بينهم وبين بني باديس وانتصارهم عليه^(٤).

وإن ابن باديس لأفضل مائك :: ولكن لعمرى ما لديه من رجال.
ثلاثون ألفا منهم غلبتهم ثلاثة آلاف وذاك محال.

كما أن لهم أشعاراً كثيرة كتبت عنها مئات المؤلفات ، وقد اقتبس منهم بربر إفريقية طرائق الإنشاد والتغيم ، وحينما تنافس كل من بني غانية والغز اتباع قراقوش الأرمني ، حول استحواذ هذه القبائل العربية على تأييدهم ، لجأ بنو غانية إلى الشعر داعين العرب لنصرتهم لما يربطهم وإياهم من صلات رحم ، ويعيرونهم بانقيادهم للعبيد من الموالي الغز^(٥). وإلى جانب مجالس الأدب والشعر وجد أن لهم من الخصائص الموسيقية لرواية السيرة الهلالية في مصر ، ثم انتقلت معهم لقابس وباقي إفريقية. علماء تنقلوا ما بين جبل نفوسة وجربة وقابس والجريد:-

• أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسني : يعتبر المؤسس الفعلي للحركة العلمية والفكرية التي استمرت في الجزيرة ما لا يقل عن ثمانية قرون ، بداية من القرن الرابع الهجري ، وكان يقيم في بداية حياته في جبل نفوسة وفيه تعلم دروس ، ثم انتقل لجزيرة جربة واستقر فيها ، وكان ذلك في بداية القرن الرابع.

من أبرز إنجازاته : بناء الجامع الكبير في حومة الحشان ، إحدائه لمدرسة الجامع الكبير التي جمعت النواة الأولى لحركة تعليمية وثقافية ، سادت كل الجزيرة في وقت قصيرة

(١) عبد الحميد بونس السيرة الملالية وندوة الحمامات عن السيرة الملالية تغرية بن هلال: كل أشعارهم (ليسوا لهم اسم مؤلف) مجلة عالم الفكر جلد ١٧ عدد ١ لسنة ١٩٨٦ عن السيرة الشعبية.

(٢) المرزقي: قابس حنة الدنيا ص ٢٤- إجماع المؤرخ الأول للرواحات في تونس ص ٨

(٣) للاختراة : أنظر : العماد الاسفهان ، من جربة العصر ، قسم شعراء المغرب أثناء متفرقة.

(٤) أنظر : ابن خلدون ، ج (٢) ، ص ١٥١ وما يليها.

- وأنظر : فهمي عبد اللطيف أبو زيد الملالي ، ص ١١٨.

- وأنظر : رابع بونار : للمغرب العربي ، ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٧.

(٥) المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، أنظر مطبوعات أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الملالية بالجامعات ، بتونس ، المرجع السابق ، ص ٧١ ، حسن حسني عبد الرهاب ، ووقات ، ج (٢) ، ص ٢٥٤.

، وقد ذاعت شهرته بصفته يصيحب الحاكم الفعلي للجزيرة في العهد الفاطمي^(١)، تلك الفترة التي كانت فيها جربة مستقلة استقلالاً تاماً وقبرة موجود ومعروف لليوم بحومة الفاهمين بقلالة ، قرب مسجد أبي مسور.

- أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور : هو ابن الشيخ أبي مسور بسجا ، عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وتوفي في بداية القرن الخامس الهجري من أبرز أعماله بعثة لفكرة نظام العزابة وتركيزه للحركة العلمية في الجزيرة ونشرها ضريحة موجود لالآن شمال الطريق المؤدية للمطار على مسافة من الجامع الكبير^(٢).
- صالح بن أبي زكرياء فصيل بن أبي مسور ، ويونس بن أبي زكرياء ، هما ابنا الشيخ فصيل، عاشا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، وأبرزها يونس غز ترأس الوفد الذي أرسله أبو زكرياء فيصل للاتصال بأبس عبد الدين أبس بكر الفرسطاني مؤسس نظام العزابة في الربوع الإباضية بالجنوب التونسي ، والجريد (قسطالة والقصور) ليعرض عليه فكرة تأسيس هذا التنظيم الاجتماعي الجديد ويذكر الدرجيني أن يونس كان مشهوراً "بتصرفه في فنون المسائل"^(٣).

- محمد كمّوس : هو أبو محمد كمّوس الزواغي ، قبرة موجود للآن في حوقة الحشان ويعرف بسيدي عمر كمّون ، كان أحد شيوخ الجزيرة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، قتل في الهجمة التي شنّها المعز بن باديس الصنهاجي على الجزيرة والمعروفة بواقعة الجامع الكبير سنة ٤٣١هـ ، سنة ١٠٣٨م^(٤).
- أخبرني أبو صالح النفوس بتوزر مثل سنة ٢٤٠ أن أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن ميمكتن ، علمه بمنزل (إفاطمان)^(٥)، ويقال إن عمر هذا إنما تعلم القرآن بطريق مقمداس ، كانت تلقى فيها السابلة والمارة من المشرق يعني الجند العربي الداخل إلى إفريقية ، فيكتب عنهم لوحة من القرآن وينصرف إلى منزله فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجة فيكتب من المارة والرفاق ، كذلك حتى حفظ القرآن.

- أبو عمرو النميلي : من شيوخ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وتذكر المصادر أنه قتل في واقعة الجامع الكبير سنة ٤٣١هـ سنة ١٠٣٨م عن ستة تتاهز المائة والعشرين عاماً ، وهكذا تكون ولادته سنة ٣١١هـ / سنة ٩١٨م وكان من أبرز العلماء المنسويين إلى غار مجماج ، الذي ضم مؤلفي ديوان العزابة ويسمى أيضاً ديوان المشائخ وهو عبارة عن موسوعة فقهية ضخمة اعتمدت طيلة القرون الموالية لتجريس الفقة الإباضي في جزيرة جربة وجبل نفوسة ، وفي الجنوب التونسي والجريد ، وفي بقية الربوع الإباضية بالقطر الجزائري ، والديوان

(١) انظر : على يحي معمر : الإباضية في موكب التاريخ ، الحلقة الثالثة من ٧٧ : ٨٣ أبو زكرياء يحي من أبي بكر ، كتاب السيرة ، ص ٢٢٩.

- الدرجيني : طبقات ، ج (٢) ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨.

- الرسيان : السمر ، مخطوط ، ص ٢١.

(٢) انظر : فرحات الميميري : نظام العزابة ص ٢٩.

- الرسيان ، سير ، ص ٢٨ إلى ٣٢.

- الدرجيني : طبقات ، ص ١٢٩ - ١٣٠ - ١٤٣ - ١٤٥ ، ج ٢ -

- أبو زكرياء : السيرة ، ص ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٣) ميميري : نظام العزابة ص ١٨١ - ١٩٦ ، درجيني : طبقات ، ص ٣٩٣ ، ج (٢) ، (١) ، أبو ريش ، مؤنس ، ص ٦٥ ، الرسيان : السمر ، ص ٣٠ ،

أبو زكرياء ، كتاب السيرة ص ٢٤٤ ، ٢٤٥.

(٤) الشماخي : كتاب السمر ، ص ٣٧٢ الطبعة الحجرية ، الدرجيني : طبقات ، ص ١٦٢ ، ج (١) ، أبو ريش ، مؤنس ، ص ٦٥ ، الرسيان : السمر ، ص ٣٠ ،

أبو زكرياء ، كتاب السيرة ص ٢٤٤ ، ٢٤٥.

(٥) السمر : الشخصيات ، ص ١٤٢.

- حسن عبد الوهاب : ورقائق عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (تونس ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م) قسم ، ص ٨٠ - ١٢٠.

موجود إلى اليوم في جزيرة جربة ، وهو مخطوط ، وقبر الشيخ النميلي موجود اليوم بين الجامع الكبير بالحشان والطريق المؤدية للمطار^(١).

• أبو طاهر إسماعيل الجيطالي : عاش مدة طويلة في كجبل نفوسة خلال القرن الثامن الهجري ثم انتقل لجزيرة جربة واستقر فيها وتوفي فيها ، وهو مدفون في مقبرة الجامع الكبير ، ومن أشهر تأليفه (الكتاب القناطر) ، وكان إماماً عالماً ورعاً مستجاب الدعوة له تصانيف كثيرة في كل علم ، وسبب انتقاله لجزيرة أن فقهاء طرابلس حسدوه وافترؤا عليه لحاكم طرابلس ، ولقد تلقاه علماء الجزيرة أحسن لقاء واجتمع عليه الطلبة وكان يقرأ أو يضيف في المجلس الواحد ، توفي سنة ٧٣٧هـ ، ودفن بالجامع الكبير^(٢).

طريقة التعليم في البوادي وفي داخل البلاد : -

لقد كانت الأغلبية للبربر ، فقد نقل أقدم المؤرخين وهو سلام بن عمر ليتعلم البربر طريقة عمر بن يمكيتن ، بأن يأخذ لوحة حتى يحفظ القرآن ، ويمكن أن تكون تلك الطريقة قد اتبعت في قابس بما أنها باب إفريقية^(٣).

وكان ابن يمكيتن يعيش في حدود (١٤٠هـ - ٧٥٧م) ، يستفاد من ذلك أن ترصدنا ناشئة البربر للمسايلة من العرب القادمين من مصر إلى القيروان في مبتدأ المائة الثانية للهجرة ، إنما حصلت على السورة.

١- حرص أبناء الأهالي الأصليين على تعلم الدين الجديد واجتهادهم في مزاحمة أبناء الفاتحين والتساوي معهم في العلم والمعرفة.

٢- قلة وجود المصاحف المكتوبة في ذلك العصر ، حتى يحتاج المتعلمون للتعرض للمسافرين الوافدين وتلقي سور القرآن بالإملاء منهم ، ورسماها على الألواح بقصد حفظها^(٤).

التعليم عند يهود قابس :

كان التعليم في مكان مخصص يسمى (صلا) إلى المدرسة أو مكان الصلاة أو البيعة ، وهي كل عمارة يلقن فيها التعليم التقليدي ، ولو كان الأمر يتعلق بمحل خصوصي اكتراه المعلم لهذا الغرض حتى بيته الخاص^(٥). (ويلاحظ مما سبق أنها تشبه نفس ظرف المدرسة لتعليم أطفال المسلمين).

وفي نهاية التعليم الابتدائي للطفل اليهودي يقام احتفال بارمصواه ، (الرشد الديني) ومعناه أن الطفل أصبح يافعا وعليه منذ ذلك الوقت أن يقوم بالواجبات التي يأمر بها التوراة^(٦). أما التعليم العالي فاسمه (اليشاف) ويدور حول محورين مختلفين أولهما مادي وبزجماني، أي توضيح الشريعة اليهودية ، وثانيهما شكلي ، هو تطوير الرغبة المعرفية للطلاب.

كما أن البنت اليهودية تتعلم تعليماً أساسياً حتى زواجها مبكراً ، ثم بعد ذلك تتقن صناعة مفيدة مثل التطريز أو تفصيل الملابس أو أغذية الفراش^(٧) كما أن هناك الطالب الصانع الذي يتعلم وشريعته ، وفي نفس الوقت يحاول إتقان صنعته ما ليعمل بها. كما كان على الطالب أن يتعلم اللغة العربية بجانب دراسة باللغة العبرية ، وقد نبغ شعراء اليهود ، وقرضوا الشعر مثل :

(١) درجين : طبقات ، ج (٢) ، ص ٣٦٤ ، جيمري ، نظام العزابة من ١٧٥ ، الوسيان : مخطوطات ، ٣١ ، شماسي ، ص ٣٧٢.

(٢) أبورلس الجري : مؤنس الأحية في أخبار جربة ، ص ٩١ - ٩٢.

(٣) الوزير السراج : الخلل .. ص ٢٢٣

(٤) السمر : الوسيان ورقة ٣٠ حسن حسني حبلوهاب ورفقات ... ج ٢ ص ٨٠ - ١٢٠

(٥) حاييم الزعفراني : ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب ، ص ٦١.

(٦) المرجع السابق ، ص ٦٦.

(٧) وهذه الصناعات مشهورة في قابس ، واليهوديات يعملن بما تقليداً للمرأة المسلمة ، تنس المرجع ، ص ٧٠. وانظر : Encycloredia

Judauce : gabs

١- باقاشوت (أنشيد ومرثيات) وهذا النوع ينتمي للشعر الغنائي ، والمزامير التوراتية تجد مناخاً الشاعر الداخلية والتي يعلم فيها عن علاقاته مع الله ومع العالم ومع المجتمع ، والباقاشوت مثل المزامير من ضمن المراثيات والترايفل ، وهما معاً تعبير رائع عن العواطف المشتركة.

٢- التحنوت (شعر الإبهال) : الذي يتعرض لما نعيشه الطائفة اليهودية من حالات الضيق والعوز فتطلب من الله أن يغفر خطاياها وأن يعيد صهيون ويخلص الشعب الإسرائيلي.

٣- أهابوت (أنشيد الحب) : وهي ترتل قبل (سماع الشهادة) (اسمع إسرائيل) وتستلهم حب الله لإسرائيل ، الحب الذي يرتبط بفكرة الاصطفاء والخلص.

٤- مقدمة صوفية لقطعة شعائرية خاصة بيوم السبت أنعا قطعة طويلة ذات رجع صوفي قوي، وتقابل أبياتها الستة والعشرون القيمة العنصرية للحروف التي يتكون منها "يهوه" ، وهو أحد (أسماء الله الحسنى) ويكشف يعقوب ابنسور في هذه القطعة عن التعاليم القبلية التي استقاها من مختلف المصادر مثل "زهار" ونظريات اسحق لوريا ، والأعمال الفكرية السابقة التي تركها يهود جنوب فرنسا ويهود شمال إسبانيا.

علماء يهود :

إبراهيم بن عزرا : هو إسحاق إبراهيم بن مئير بن عزرا ، ولد في طليطلة سنة ١٠٩٢م، كان خير رسول درس اللغة العربية وآدابها بين اليهود المتقنين في البلدان ، ولقد ترجم بعض الكتاب المسلمين أشعاره العبرية باللغة العربية شعراً.

أدبه :

كانت الرغبة في الإحاطة بجميع العلوم والحكمة طابع المتقنين في القرون الوسطى. فلا عجب أن تكون كذلك طابع الكاتب والشاعر اليهودي (ابن عزرا) فبالرغم من أنه قد ساق النقد للإعجاب به دائماً وأبداً ، وبالرغم من أن نطاق مهارته كان واسعاً ملونا ، وأنه كان قد تفوق كثيراً في تفسير أسفار التوراة ، ووضع كتب قواعد اللغة وعلى الفلك والرياضيات والفلسفة ، وبالرغم من ممارسته لمهن أخرى ، فإن كل ذلك لم يمنعه من ممارسة الشعر أيضاً والتفريغ له.

وكان قد نسبوا إليه الشيء الكثير من أقوال الآخرين حين ووجدا فيها تعبيراً صائباً أو رأوا فيها فكاهاً مستلحمة ، وبعد (ابن عزرا) أو كتاب المدرسة الأسبانية يعد أن جرب حظه في الشعر الجدلي ، حيث يجرى نقاشاً بين حيوانات ، وحتى أنه قد أجرى مناقشات بين المفاهيم المعنوية ، وكذلك بين الإنسان والحيوان وبين فصول السنة وبين أيام السبوت والأعياد ، وقد كان هذا اللون الأدبي منتشراً آنذاك بين مختلف الشعوب وقدّر له أن ينتشر فيما بعد بثوبه العبري كذلك.

وتحتل قصيدته الكبرى (حي بن يقظان) محل الصدارة في أشعاره وقد أهداها لصديقه شموئيل بن جامع في قابلس (تونس) ، وتشبه هذه القصيدة (تاج الملك) لابن غبيرول إلا أنها من حيث القصة تشبه أسطورة تعيد إلى ذاكرتنا المقامات التي امتدت جذورها في الأدب العبري على عهد (ابن غزرا) ، وتعتمد قصيدة (حي بن يقظان) على مقالة فلسفية بنفس هذا العنوان وضعها الأديب العربي (ابن سينا) (٩٨٠م -

١٠٣٧م) غير أن (ابن عزرا) قد غير الأسلوب المعنوي الأصلي الصعب ، وجعله قصة حياة جذابة ، ولقد جعل لكل شخص ، ولكل حادث في هذه القصة مغزى مثالياً ، وإن كان في الإمكان فهم هذه القصة على بساطتها وفي هذه القصة يحدثنا الشاعر كيف التقى بشيخ يدعى (حي بن يقظان) من أورشليم ، وكيف قام حي بارشاده في جولة قاما بها في جميع عالم الأحياء ، حتى بلغا المرحلة العليا لهذا العالم ، وهي

المرحلة التاسعة ، وإذا بهذا المرشد الخفي يصيح الشاعر (اخلع نعليك واطلب عفو
روحك من مادة جسدك إذ هذا هو الحدّ النهائي الذي يستطيع أن يبعثه كل ابن أنثى ،
غير أن هذا القرب من الخالق هو بالذات الذي زاد من تشوق المؤلف إلى معرفة
الخالق أكثر فأكثر ، وقد كشف له (حي بن يقظان) عن الطريق لهذه المعرفة ، وهي
طريق التوبة المطلق إذ يقول : - "أعرف روحك حسب قدرتك وطاقتك ، وحينئذ
تستطيع معرفة الخالق والتطلع إليه".
وموضوع قصة (حي بن يقظان) المركزي هو الجولة في عوالم خفية برفقة مرشد
محاط بالآغاز ، وهو موضوع معروف ومنتشر في آداب عدد من الأمم ، وهو
موجود في عدد من كتب القنماء ، وأشهر من تناول هذا الموضوع هو "داتي" في
الكوميديا الإلهية*.

* أنظر حاييم الزعفراني: ١٠٠٠ سنة من حياة اليهود... ص ٦٩ وما يليها.

خاتمة وأهم النتائج

بعد هذه الدراسة التي تناولت تاريخ قابس السياسى والحضارى على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان : من أول تتابع قبائل الغزوة الهلالية، حتى بداية الدولة الحقيقية فى أفريقيا، أى من عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥١م إلى عام ٦٢٥ هـ / ١٢٤٧م عرضنا فيها لإسم هذه المدينة وتحليله، موقعها وخصائصه، الأسلوب المعمارى الخاص بها خططها وتطورها العمدانى، وحياتها السياسية، والإدارية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. استخلصنا من مجمل فصول هذه الدراسة أهم النتائج التالية : كان اسم قابس قديما يتكون من عدة ألفاظ، مثل لفظ تكاب - تكابى - تكابى - تكاباس. وحملت تلك الألفاظ عدّة معانى مثل : المكان الرطب المروى - الجسر - المعبدية مقدمه سفينة - أرض داخل فى البحر .. رجحت الباحثة تكويني هذا اللفظ من مقطعين Tack و Kap ، مقطع Tack أو Taki يرجع أصله الى اللغة الكلتية القديمة بمعنى مركب شراعى أو أما المقطع الثانى Cape من الكلمة اللاتينية Caput يعطى معنى أرض داخله فى البحر Hcad Land's أو معنى آخر مقدمه السفينة وقد عرّب الاسم فاصبح قابس، ولقد قال الله تعالى على لسانه سيدنا موسى عليه السلام "لعلى أتبيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى" [سورة طه آية ١٠]

كان لموقع قابس المتميز بحريا وصحراويا منذ أقدم العصور أهميه كبرى فى مسيرتها التاريخيه. فهي تطل على خليج سرت الصغير (ويسمى وتجل باسمها الآن)، الذى ربطها بالموانى الأوروبية. جعلها هذا الموقع شرقا على مقربه من طرابلس وبرقه فمصر. وشمالا وغرب على مقربه من صفاقس المهديه سوسه تونس القيروان وباقى مدن افريقيه كقفصة فى الغرب ونفزاوة وبلاد الجريد. أما الجنوب فجبال مطماطة ومدنين وغيرها وكانت قابس على جادة الطريق العظمى فارتبطت بكل البلدان عن طريق قوافل الحج والتجارة والبريد ، لهذا الموقع المزدوج مقومات ساهمت فى إبرازه ومن أهمها : مناخها الجيد والصحراء فى جنوبها بسبب وجود الخليج والبحر الذى يعد مصدرا للثروة البحرية. كذلك غزارة المياه الجوفية وتدفق العيون والينابيع. مما جعل الأراضي المحيطة بقابس تمتاز بكثافتها الزراعية وغناها إذ تقع فى منطقة جفينة يتم فيها تبادل المنتجات الزراعية العديدة مع السكان الذين يمثلون نسبة كبيرة من سكان إفريقية . وهي تعد أكبر مراكز التسويق الاقتصادى والتجاري خارجياً وداخلياً منذ أقدم العصور وهذا يجعلنا نلاحظ أقوال الرحالة والجغرافيين العرب تشهد لها بالازدهار والأصالة والبروز الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لأنها من أهم المدن الواقعة على خليجها على شاطئ بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط اليوم) بصفة عامة.

كان لقابس اسلوب خاص بها من ناحية الطراز المعماري. ان الطرز المعمارية متشابهة فى كل العالم الإسلامى، وان بدت مختلفة، فهي متشابهة فى السمة العامة الغالبية، ومختلفة فى بعض جزئيات تخضع دائما لطبيعة بعض المدن.

كان أسلوب الطراز المعماري القابسي وبخاصة التقليدي هو استخدام الإمكانات الموجودة في البيئة نفسها أو البيئة المجاورة علي سبيل المثال فكان هناك طريقة السقف الحامي «نسبة للحامة». وكان هناك أحجاز المائة التي تنقل من جنوب قابس، في قابس مسجد جامع يشبه مسجد القيروان الكبير، لكنه يصغره في المساحة والذي كان طرازه نموذجا احتذي به في كل المدن الإفريقية ومنها قابس. وحظيت قابس بشهرة دينية لوجود قبر أبا لبابة الأنصاري بها. وقد بنيت مدرسة له وأصبح مزارا. كذلك حفلت قابس بوجود أضرحة كثيرة بجانبها مساجد خاصة بها مسجلة عند سكان قابس ومنطقتها، أما قصر العروسين والقصبة فقد نوه التجاني الي التشابه بينهم وبين قصور وبنيات قلعة بن حماد.

وقد لجأت الباحثة الي أبحاث حفريات هذه القلعة، ومراجعة تقارير الأثرين، كي تصل الي فائدة علمية من حيث التخطيط. وكذلك لجأت الي تفسير قصائد الشعر التي وصفتهم.

كانت الأسواق منتشرة في قابس وحولها علي هيئة وكالات وأرباع وخانات والشوارع والحارات مثلها مثل المدينة الإسلامي، وهناك تفسير للحارة كأصغر وحدة عمرانية تتكون منها، المنطقة السكنية وتشتمل علي مجموعة من السكان المتقاربين في كل شيء يجمعهم الإسلام، ولكل حارة وشارع طابع مميز خاص. وقد يرتبط بنوع عمل السكان «النحاسين - العطارين.... وهكذا». وجميع البيوت تفتح علي الحارة، ووجد الساباط أو بمعني جس من فوق المنزل علي يمين الحارة، أو الشارع يؤدي من فوق الي شمال الحارة وفي نفس الوقت يعطي ظلا للمارة. كان المنازل والدور في قابس تتميز بوجود الحوش والفناء الداخلي، وهي سمة عامة إسلامية - وإن كانت من قبل الإسلام - حتي في القصور، وقد لاحظت الباحثة ان هذا النوع من الدراسة لم يأخذ حظه من الدراسة الوافية، وكان في قابس قبل اسلامها أسقفية وبيعة يهودية، وكان السور والخندق من الأحجار الضخمة من عمل الرومان «علي الأرجح» والأرياض في قابس كان فيها جلّ أسواقها. وكان لها مرفأ للسفن ومنازة قابس مشهورة تشبه منارة الاستخرية وكان بها فنادق كثيرة للتجار الأجانب. لها نظام خاص بها وتخضع للإشراف الدقيق. كما كانت الرياضات الكثيرة من السمات التي تميز قابس من الناحية الدينية المعمارية.. ولا ننسي ذكر العمارة البربرية التي كان لها طراز خاص بها، مثل المسيد أو المسجد البربري، القري المحصنة، والرباط البربري، علي الجبال جنوب قابس، وكان للبربر أسلوبهم في البناء بعد اسلامهم.

بدأت بشائر الفتح الإسلامي علي هيئة كتائب وجرائد زاحفة نحو افريقيا، تحمل اليها ديننا جديدا وحياة حضارية جديدة، ودورا جديدا حديثا مازال ممتدا بها للآن. ان مدينة قابس رغم عرقتها وقدمها الذي يرجع ربما قبل العصر الفنيقي، إلا انها في دورها التاريخي وتراثها مدينة إسلامية تأكد وضعها الحقيقي لظهور الاسلام كقوة عظمي في افريقيا... ترجح الباحثة أن قابس أسلمت قبيل معركة سببيلة، لأنها بحكم موقعها كانت بالنسبة لعرب الفتح القاعدة الخلفية لحماية وجودهم وظهورهم في معركة الفتح الفاصلة سببيلة وتدفقت عن طريقها قبائل الفتح الاسلامي بعد ذلك في ربوع المغرب كله، تحمل العقيدة السمحة واللغة السليمة والحضارة القويمة. بعد ذلك كان لقابس دورها الهام فعن طريقها عبر

الدعاة الفاطميون الي مدن افريقيا والمغرب. وعن طريقها ايضا عبرت القوات الفاطمية لغزو مصر بهدف الاستقرار فيها، بعد أن قاومت البلاد مذهب الفاطميين الشيعة بعد انتشار المذهب المالكي ومذهب الأياضيين في قابس وجنوبها. لذا كانت هناك ثورات ضد الفاطميين، وصراعات سياسية. بعد نزوح الفاطميين الي مصر وبناءهم لحاضرتهم فيها: القاهرة.. دخلت قابس ومعها طرابلس في دائرة الصراع بين الفاطميين وبني زيري، وهم من قبيلة صنهاجة الذين تولوا افريقيا من قبل الفاطميين بعد رحيلهم.

لما أظهر المعز بن باديس الزيري الخلاف مع الفاطميين، ونبذ طاعتهم وحولها الي العباسيين. ارسل اليه الخليفة المنتصر بالله الفاطمي بإيعاز من وزيرة البازوري، جحافل الهلالين علي هيئة قبائل متتابعة، لقد كانت غزوتهم هذه من أبرز الأحداث، لتي عصفت بأفريقيا منذ رحيل الفاطميين، واتضح للباحثة بعد دراسة السجل رقم ٥ من السجلات المستنصرية ان هذه الغزوة كانت منظمة علي هيئة جيش شعبي يحمل رايات وبنود الفاطميين برا وبحرا لافريقيا بقيادة الحسن بن الملمم ملك الدولة وحاصر المعز بن باديس برا وبحرا حتي حصره في المهديّة وانتشرت القبائل العربية في أنحاء افريقيا، واستولت علي الحاضرة الفيروان. وكانت قابس كما يخبرنا السجل مركزهم بعد فتحها واستقرارهم بحصنها، حيث فضربت العملات المستنصرية وقد وجدت الباحثة عملات فاطمية علي الطراز الشيعي مسكوكة في المهديّة من أول عام ٤٥١ هجرية وعام ٤٥٥هـ.

مما يؤكد فتح قابس من قبل السجل المكتوب في عام ٤٥٥هـ. كانت لهذه الغزوة أثارا سلبية كثيرة. كانت لها أثارا ايجابية أكثر فقد انتشر الدين الاسلامي واللغة العربية وتعرب المغرب كله كما كانت قابس مركزهم باستمرار، وأسست فيها أول دويلة عربية هلالية، هي إمارة بني جامع الهلالين، وكانت لهم نظامهم وقوانينهم وعلاقاتهم، وان لم نخبرنا المصادر عن ذلك بالتفصيل. كانت لهم علاقات سياسية وتجارية بصقلية وقد انتهز يوسف مولي الأمير الرياحي الهلالي فرصة سفره ويحيى ابنه الصغير بدلا من الكبير واتصل بروجار الثاني ملك صقلية انذاك وتسبب تصرفه في أرضه سياسية بين الحسن بن زيري وبين روجي الثاني قد توالى الأحداث المؤسفة وأدت في النهاية الي سقوط الدولة الزيدية واستيلاء النورمان علي المهديّة وقابس. ثم خلصها الموحدون وطرّدوا النورمان كما انتهت ذويلة بني جامع ايضا في عام ٥٠٥هـ.

كان لقابس والعرب فيها صلات مع نواحي افريقية، مثل صفاقس وسوسة وقفصه وبلاد الجريد - أما علاقاتهم بمصر فكان لها أطوار متعددة فبعد أن خلصت قابس من حكم النورمان وانتهت منها حكم دويلة بني جامع. غزتها قوات قراقوش الأرمني مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي. الذي سارت حملته الي سنتريه وزويله وأزال منها دويلة بني خطاب ثم غزا طرابلس وفتحها، وسار يستولي علي الفلاخ في طريقه، ويخطب علي المنابر لتقي الدين ثم صلاح الدين ثم للدولة العباسية، بعد ذلك كان هناك بنو غانية. لآتين من جزر شرق الأندلس للاستيلاء علي افريقيا وتفويض - ثم الموحدين، وإعادة مجد أجدادهم المرابطين كون بنو غانية مع قراقوش الأرمني. وقواته، بالاضافة الي عرب بعض مناطق

افريقيا، كونوا حلفا ثلاثيا ضد الموحيدين. وقابس وصحراءها الي جنوب برقة وطرابلس وصارت أرضا لصراعات وحروب.

كما كانت تارة مركزا لقراقوش وتارة أخرى لبني غانية الي أن قضى الموحدون علي هذه الحملات نهائيا أوائل القرن السابع من الهجرة بعد سلسلة من الحروب .

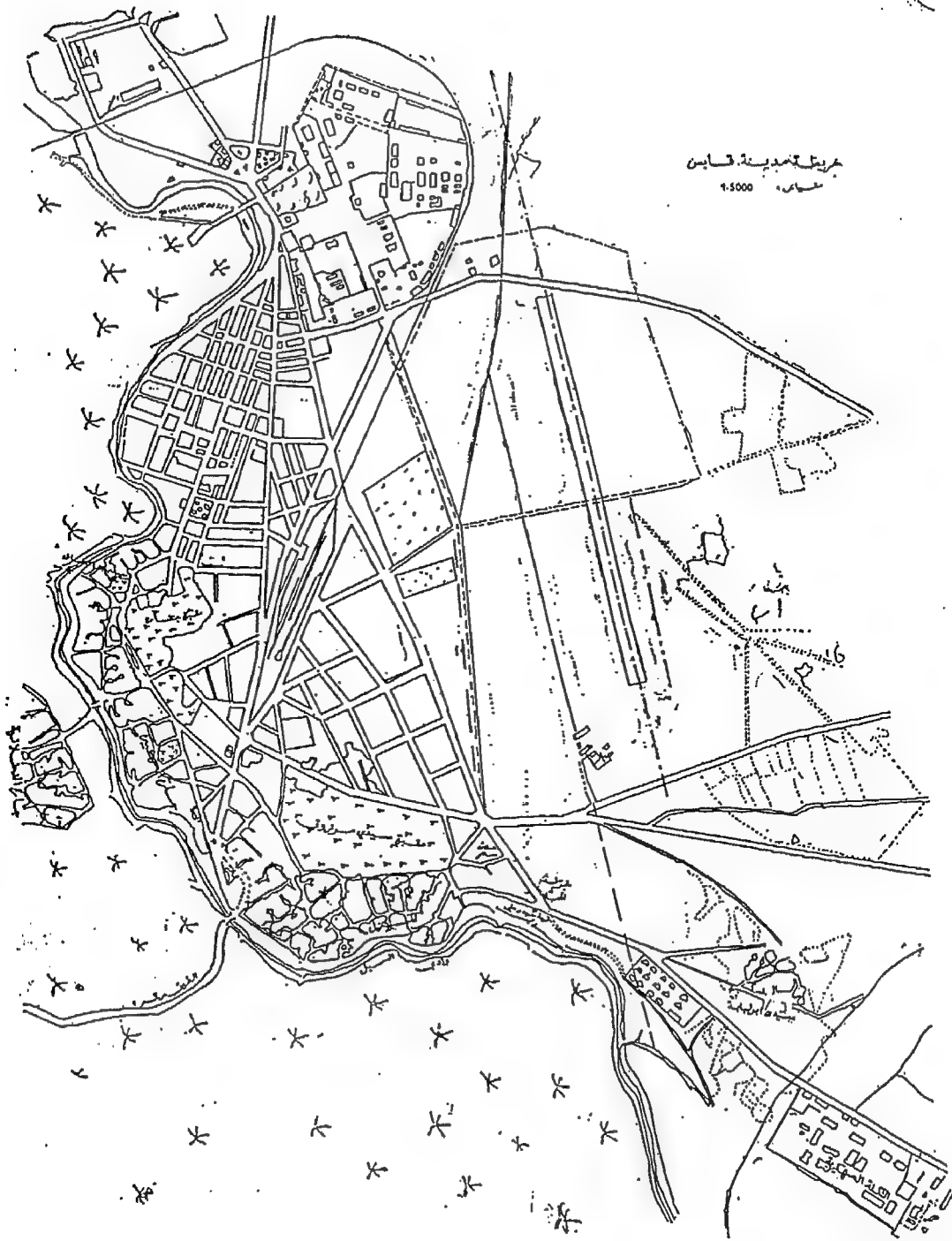
من خلال ذلك تلاحظ الباحثة مما سبق ان قابس ومنطقها تكررت فيها ظاهرة اتخاذها قاعدة للمنازعات أو مركزا لاسترداد الملك كل ذلك كان يدور في اطار الصراع علي السلطة ليس علي افريقية فحسب لكن في إطار المغرب بأكمله.

دخلت قابس تحت سيطرة الموحيدين مرة ثانيا لكنها لم يكن سيطرة مباشرة إذ أضحت بعد ذلك في اطار حكم الحنفيين وهم جزء من الموحيدين.

مما سبق نجد أن الوضعية السياسية قد تفاوتت علي قابس لذا تغيرت الإدارة فيها تبعا لمن يمتلكها. من حيث الحياة الاجتماعية كان لقابس عاداتها الاجتماعية ومعتقداتها المتوارثة لكن مما لا شك فيه أن الاسلام بتعاليمه الحنيفة كان من أهم المؤثرات الاجتماعية فيها. وبالتالي تأثرت ثقافتها وموروثها الثقافي التي تطور بفاعلية فخرج منها علماء أجلاء مثل أبو الحسن القابس وغيره^{٥٠}.

الملاحق

- ١- خريطة فتح العرب للمغرب
- ٢- خريطة مدينة قابس
- ٣- خريطة المدينة القديمة
- ٤- لمسجد الجامع بالقيروان الذى بنى على غرارہ بقابس
- ٥- زخارف وطرز المسجد الجامع
- ٦- الحارة الاسلامية ليا مدلولها الاسلامى
- ٧- قابس وأحياءها واولياءها الصالحين
- ٨- المنزل التقليدى فى قابس (بحث د. البقلوطى).
- ٩- العمارة البربرية.
- ١٠- ١٠-١- السجل ٥ من السجلات المستصيرية (صفحتان).
- ١١- ثبت ولاية قابس.
- ١٢- ثبت بنى زيرى.
- ١٣- ١٣-١- دينار ذهبى فاطمى شيعى ضرب المهدية ٤٥١هـ وجه وظهر.
- ١٤- ١٤-١- دينار ذهبى فاطمى شيعى ضرب المهدية ٤٥٥هـ وجه وظهر.
- ١٥- ١٥-١- دينار ذهبى فاطمى شيعى ضرب المهدية ٤٥٧هـ وجه وظهر.
- ١٦- ١٦-١- دينار ذهبى ضرب قابس ٥٤٢هـ لرشيد بن جامع بن على الدهمان الهلالي وجه وظهر.

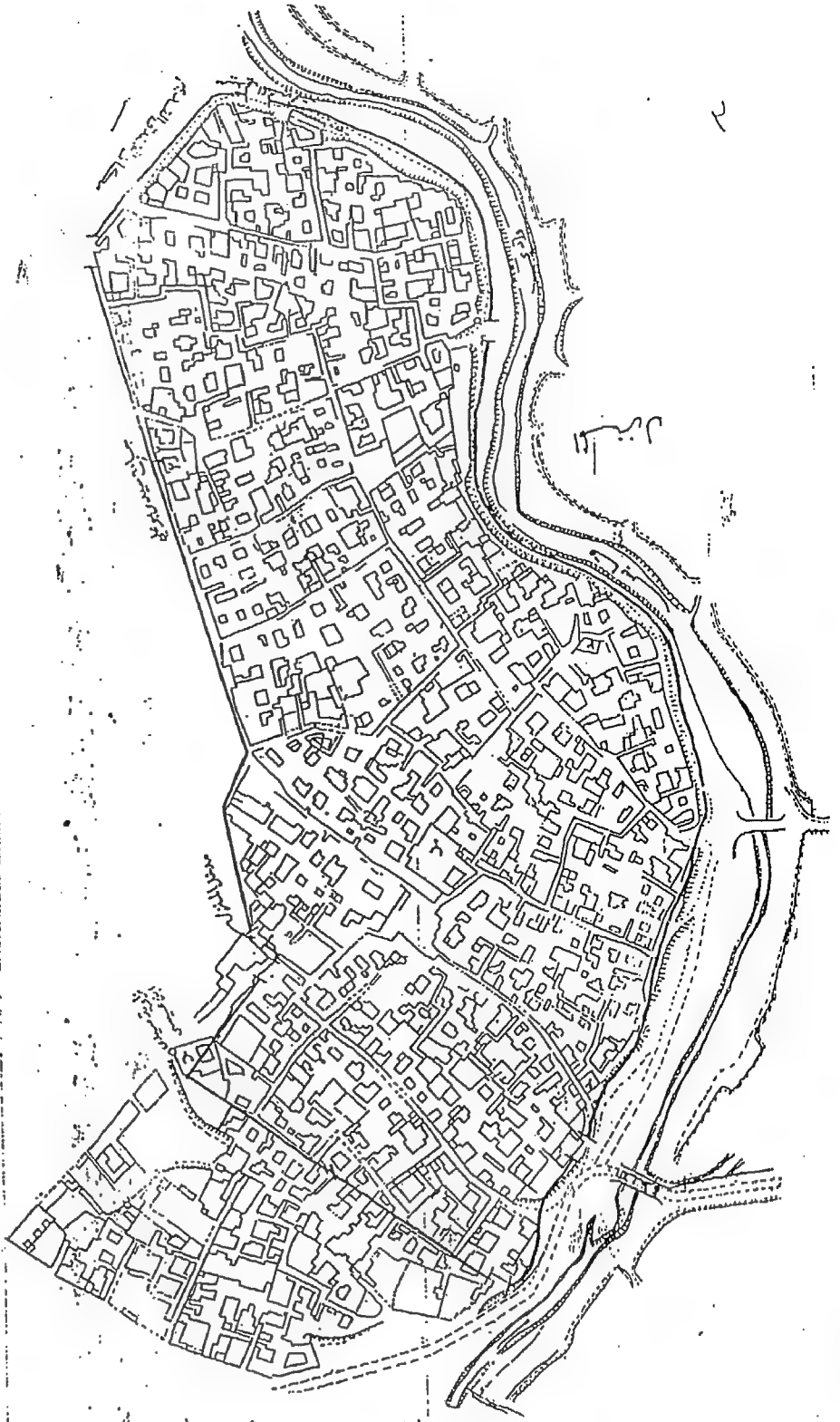


المرزوق من المخطط الوطني للتأجير رقم (1)
والتوزيع والتسويق

خريطة المدينة القديمة المسورة

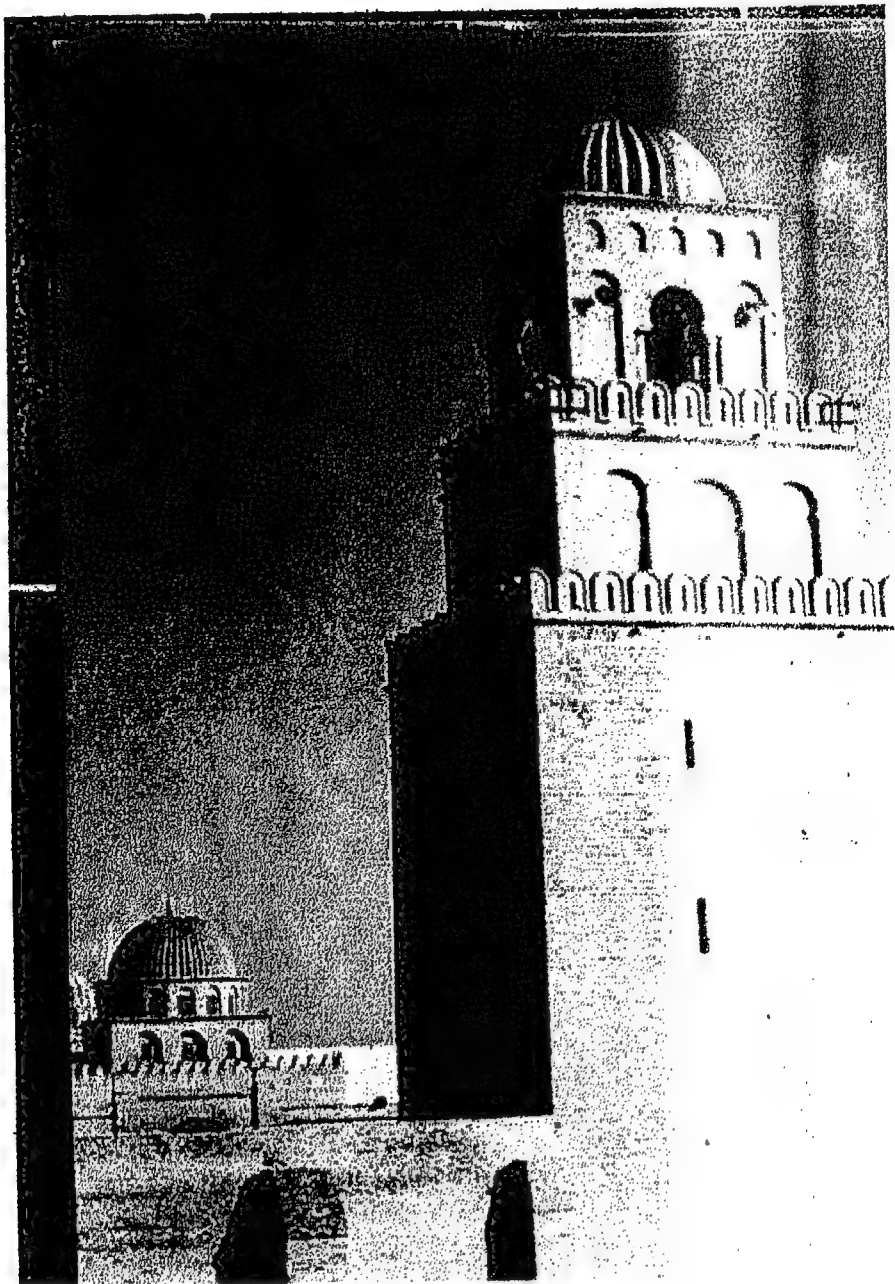
مقياس

1:2000



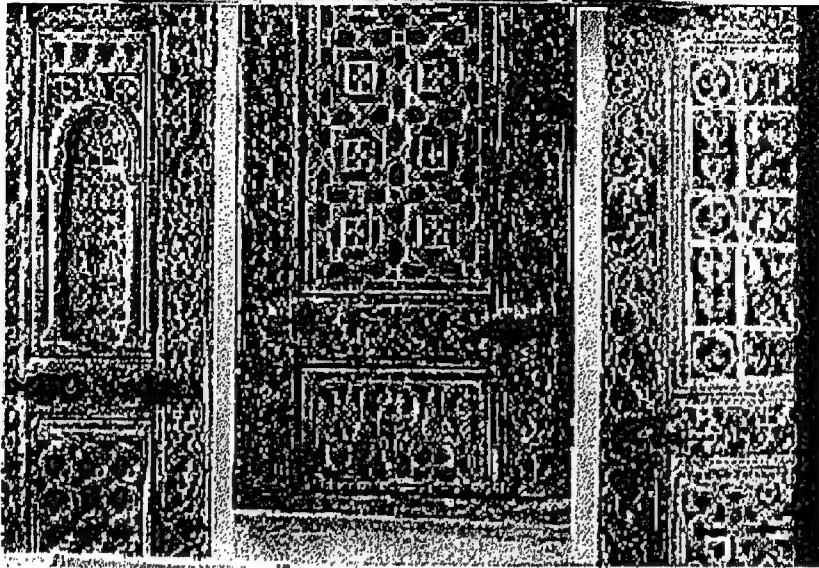
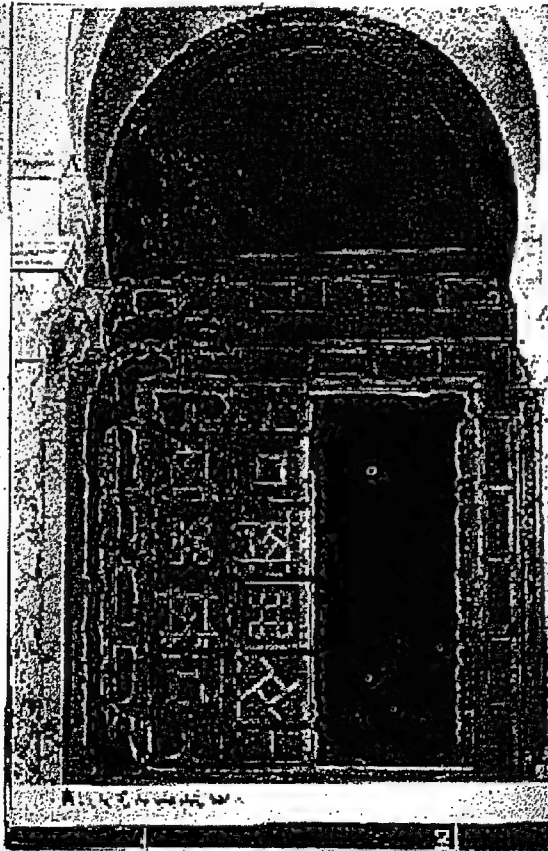
المزوت : به المعنف الوطني
للدار والقنول بتوني

المسجد الجامع بالقىروان الذي بني على غراره المسجد الجامع بقابس



ويلاحظ المنارة المربعة وهي طراز شائع في كل المغرب والأندلس

زخارف المنبر
تميزت زخارف كل باب
بشكل خاص

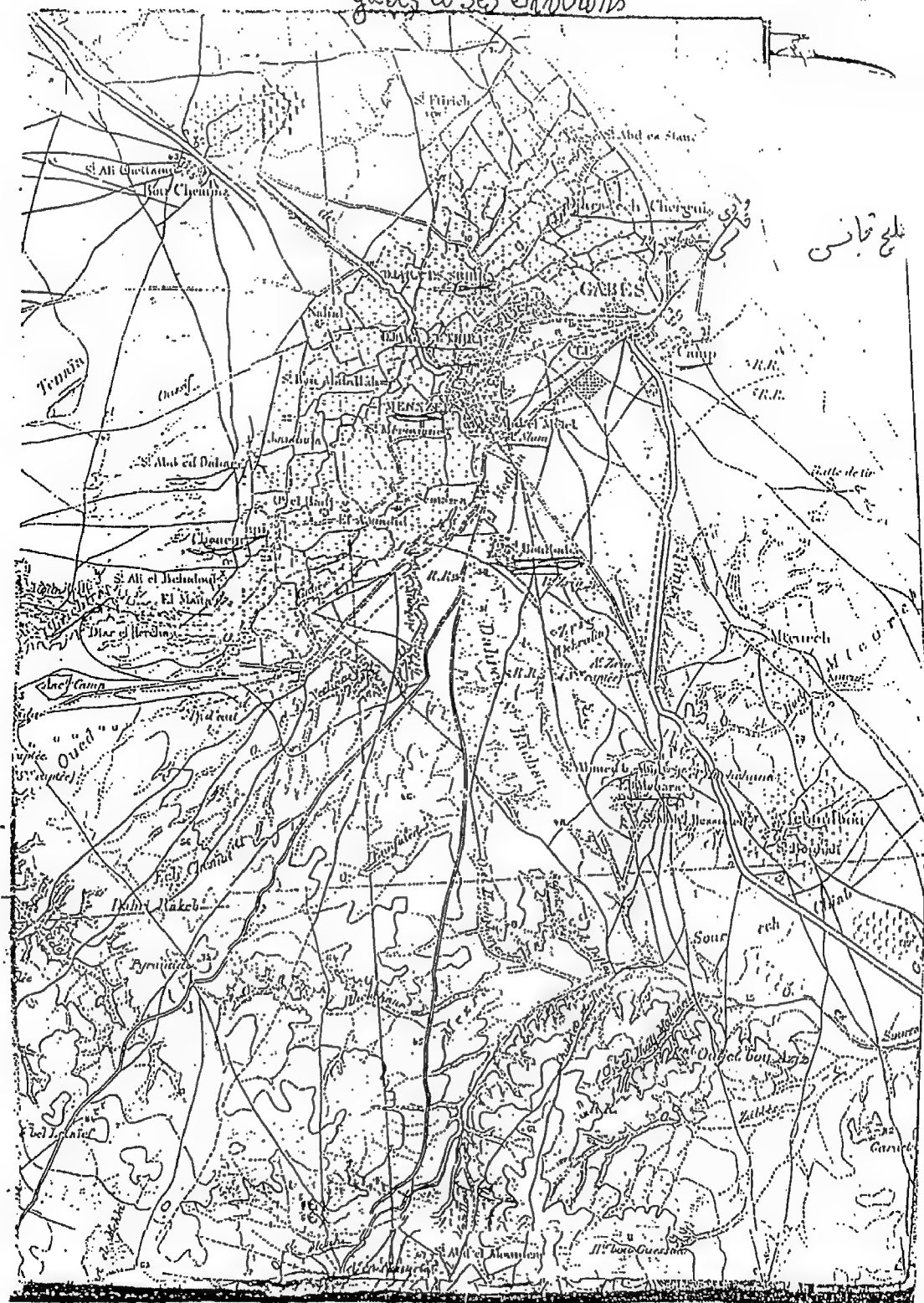


طرز وزخارف المسجد الجامع بالقيروان الذي عملا مثله في قابس

الحارة الإسلامية لها مدلولها المعماري الإسلامي



4





LA MAISON TRADITIONNELLE À GABÈS

181

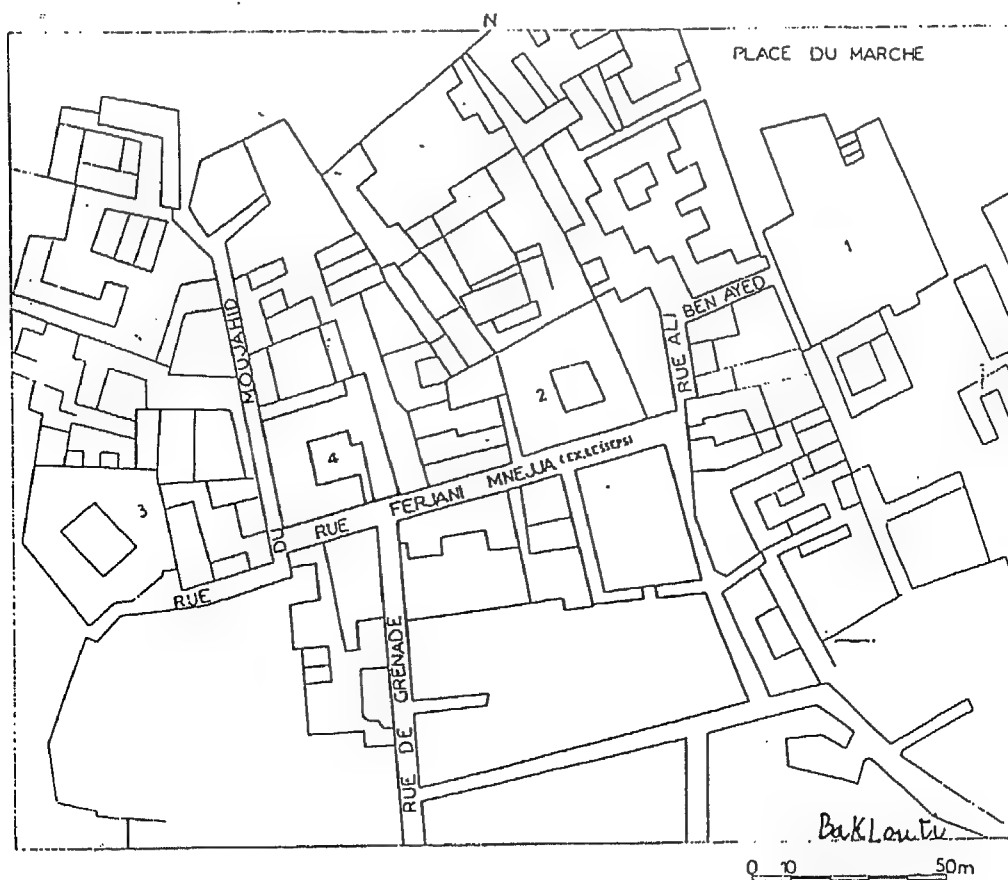
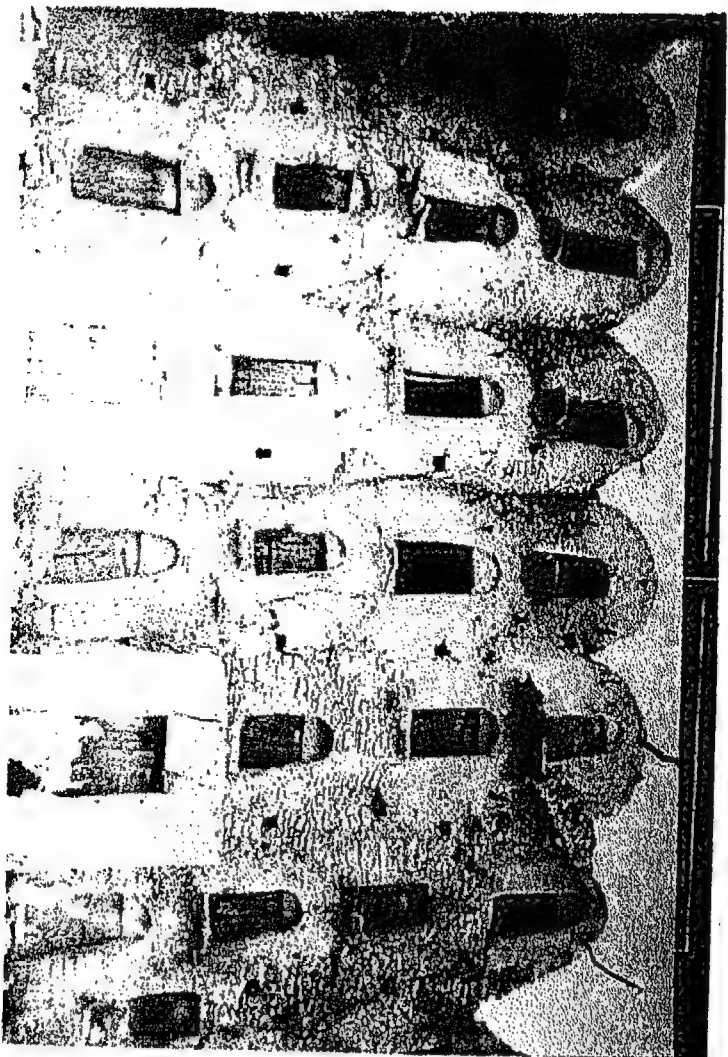


Fig. 3. — Plan de situation.

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| 1. Grande Mosquée. | 3. Sanctuaire de Sidi Abdelkrim. |
| 2. Synagogue (aujourd'hui disparue). | 4. Houche Khratof. |

العمارة البربرية في جبال مطماطة جنوب قابس



السجلات المستنصرية

• سجل رقم (٥)

بخط اليد الشريفة بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين.

من عبد الله ووليه: معد أبي تميم، الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين، إلي سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، علي بن محمد الصليحي.

سلام عليك: فإن أمير المؤمنين محمد اليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي علي جده محمد، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلي آله الطاهرين، ويسلم تسليماً (أ).

أما بعد: فالحمد لله الذي أرسل سماء جوده علي ساحات أمير المؤمنين مدراراً، وجعل فلكها يتضاعف عزة وإقباله دواراً، وملائكتها أعواناً لنصره وإنصاره، المنتقم من كل عدو ولد فاجراً كفاراً، الهاتك وقد هتك لحرمة الضيعة عنده أستاراً، المدير دائرة السوء عليه أن اتخذ دار البغي علي مصطنعه داراً، وسالبه النعمة إن لم يحسن (٢٠) للمنع بها عليه جواراً ذلكم الله لا إله غيره الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً.

يحمده أمير المؤمنين إلهنا واحداً قهاراً، ويشكر له جزيل نعمه إعلاناً وإسراراً، ويسأله أن يصلي علي جده الذي بعثه من بين الأنعام مختاراً، محمد الداعي إلي الحق إغذاراً وإنذاراً، الواضع بهدايته عن الخلق أغلالاً وآصاراً، وعلي وصيه في أمته السامي مناراً، وسيف نبوته الماضي غراراً - علي بن أبي طالب - العالي شرفاً ومقداراً، وعلي الأئمة من ذريته الحامين جارا، الذاكين نجاراً، الذين جعلهم الله لمساجده عماراً، وبلطائف همهم في ملكوت السماء سفاراً، وقد كان انتهى اليك من حضرة أمير المؤمنين خير ابن باديس اللعين في التباث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتئماً، وابتكات مرائر سعادته لما ثبت عهدها، فكانت كالتني نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله، وضربه بنصال بتت (٢١) مفاصله، واطلق نحوه من اعنه قبائل لرياحية والزغبية من منعه أن يبيل ريقاً، وسد لأنقاسه طريقاً، وربما به في أسر حصار لا يكاد يكون منه ظليفاً وملك جميع دياره التي كان بها يدل، ونال منه النيل الذي هو علي وشك نواره بإذن الله تعالي يدل، وسير الأمير أمين الدولة ومكينها - حسن بن علي - بوصلهم (ب) الي أعمال افريقية ليؤلف بين قلوب العرب المقدم ذكرهم علي الطاعة تأليفاً يزعم له جموحهم، ويمنعهم من أن يتنازعون فتذهب ريجهم، ولتكون كلمتهم علي استئثال الكفر للنعمة متفقة وآرائهم فيما يؤدي الي كشف النعمة بمكانة موفقة، ولما كان في هذا الوقت ورد كتاب الي حضرة أمين المؤمنين يذكر تصبجه في وجهته بوجه الإقبال وفوزه في نهضته ببلوغ الآمال، وأنه لم يذر غلا في الصدور إلا نزعته ولا شملاً من صلاح الجمهور إلا جمعه وان اصناف العرب دانت له دين الأمم لربها ودارت علي قضايا (٢٢) أمره ونهيه دور الرحي علي قطبها وأنه سار قيهم بجيش بغض لهم

(أ) في الأصل: «ليعمل إن شاء الله»، وإمامها علامات خطأ، كأنه يريد حذفها من النص.

(ب) يخطيء الهمداني في الاسم، فيقرأه: حسن بن علي بن ملهم، وإنما بوصلهم.

انظر. The Letters (B.S.O.S). VII, 1933- 1935.

البر وجحافل كأنهم في صفحات البر والبحر وبنود أمير المؤمنين طللت علي رأسه من النصر غماما وطلعة أعلامه أرتة من طوالع السعد أعلاما حتي أحدقوا بحصن الخائن الذي لا يكاد من بأس الله يحصنه ولا من أخذه الأليم يؤمنه فأطل عليه إطلال من يجد في قلبه من وقع سيف المنايا رجيفا ومن وقوع سهامها. وخرج إليه ابن بلكين صهره علي اخته، وابن يلمو الذي هو مقدم قومه، وابن حماد الذي هو صاحب قلعة كتامة (أ) مستأمنين وبغفو أمير المؤمنين لأئذين وعلي بابته ترسلا في مثله عن صنهاجة وافدين، ثم فتح حصن قابس (ب) وأقام علي منابر الدعوة النبوية وصرف العين والورق علي السكة المستنصرية وولي عليه ابن يلمو المذكور وصار بالباقيين الي الباب وانه لم يبق في حصون البحر وضواحي البر إلا ما القي الله الي أمير المؤمنين مقاليد (٣٣)، ومكن منه أنصاره وعبيده واطلع فيه من سعادة النداء بشعاره نجوماً، جعلها للشياطين رجوماً، واستصحب من مشايخ تلك الأعمال قوما رغبوا في الشرف بالهجرة الي الحضرة، والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله تعالي منه من الغمرة، وكشف عن وجوههم بإضلال ذلك الخائن من الحيرة، والتماس تدبير أمورهم مما يؤذن بتمام صلاحها بعد أن كساهم الله برحمته رونقا، ونقي عن مشاربهم بحمد الله روقا، فديارهم بالمسار مشمولة، وعراضهم بالتهانني مأهولة، وهو وارد قريب المسافة وصحبته خلق من الحجيج، يذكر انهم لا يطئون للبدو والحضر إلا موطياً، الطاعة موطناً، ولا يصادقون «إلا» مذعنا لها ولصفقه (ج) معطيا، وانه خلف ابن باديس للعين محصورا في مثناة (د) من الأرض، محصورا علي شفا جرف الأخذ والقبض، قد فغر الردي له قمه، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه، وأمير المؤمنين يسأل الله جلت عظمتة معونته، علي شكر نعمه التي هو عن القيام بواجب اقلها محصور ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ويقول: «الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن أن ربنا لغفور شكور ٢٥-٣٤».

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذه العارقة الطارفة لتنتشره علي المنابر، وتذيعه في البوادي والحوضر إن شاء الله تعالي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتب في شهر رمضان سنة خمسة وخمسين وأربعمائة.

والحمد لله وحده وصلي الله علي المصطفى محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلي آله الطاهرين المهديين وسلم تسليما وحسبنا الله ونعم الوكيل، ونعم المولي ونعم النصير.

(أ) في الأصل: كيانه

(ب) في الأصل فاس. في الواقع، لم يصل الفاطميون إلي فاس في مراكش، ولكن نشاطهم بقي في افريقيا، أي تونس الحالية.

(ج) في القاموس «صفق يده بالبيعة»، أي وضع يده في يد الخليفة، ويريد أن يقول: أن هؤلاء الأشخاص دانوا بالطاعة للخليفة.

(د) المثناة هي المنقي.

ولاية قابس

- ١- محمد بن الحسن: تولى أمور المعز وجيوشه وكان علي طرابلس وأضيفت له قابس فبعث عامل عليها وجمع الأموال وهادي الكبار وأخذ مال خزانة الدولة وهادي الكبار وراسل القاهرة التي ما لبثت أن أرسلت له سجل. فضاق منه المعز فقتله سنة ٤١٣هـ.
- ٢- محمد بن ولمويه «أو وليمه كما يسميه النويري» بعد أن قضى علي ثورة عبدالله بن الحسن أخو محمد بن الحسن لما ثار لمقتل أخيه وقتل الكثير من الصنهاجيين بعد ٤١٣هـ.
- ٣- ابراهيم بن ونمو أو ولمويه الذي كان قائد القيادة ودخل جريه وأخضعها للمعز بن باديس وذلك عام ٤٣١هـ.
- ٤- ابن ونمو أيام الزحف الهلالي «هكذا ذكره السجل ٥ ولم يذكر اسمه الأول».
- ٥- المعز بن محمد بن ولمويه حوالي ٤٥٠هـ.
- ٦- ابراهيم بن محمد بن ولمويه الصنهاجي
- أوائل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري تولى بعد موت أخيه وكان موجودا سنة ٤٧٤ و قتل سنة ٤٨٩هـ (عنهم مؤنس بن يحيى الهلالي).
- ٧- الأمير عمر بن المعز بن باديس: بايعه الاهلون عام ٤٨٧هـ وأسقطه تميم بن المعز بن باديس في نفس السنة وظهر فيها أمراء بنو جامع أيضا.
- ٨- مكي بن كامل بن جامع: كان بها سنة ٤٩٣هـ.
- ٩- الأمير رافع بن مكي: تولى قبل وفاة تميم واستمر زمن يحيى وجزء من عهد عليه واضطر الي الخروج من قابس وترك الحكم سنة ٥١١هـ.
- ١٠- الأمير رشيد ابن كامل «عم رافع»: بعد سنة ٥١١هـ.
- ١١- الأمير محمد بن رشيد: في عهده خرج عليه يوسف مولاة واتصل بصقلية.
- ١٢- الأمير معمر بن رشيد: تولى بتوصية من الأمين الحسن الزيري تنفيذا لوصية والده.
- ١٣- الأمير مدافع بن رشيد: أخذ الموحدون منه قابس ٥٥٠هـ.
- ١٤- الأمير عبدالله بن عبدالمؤمن بعد انتصار الموحدين ٥٥٥هـ.
- ١٥- قراقوش الأرمني ونائبه ياقوت الإفتخار بعد ٥٧٠هـ.
- ١٦- أبوسعيد بن أبي حفص ويعرف بإبن تافراجين واليا من قبل الموحدين
- ١٧- نائب محمد عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاني من قبل الناصر الموحدي بعد انتصارهم وفتحهم لقابس وبلاد افريقيا كافة ٦٠١هـ وما بعدها.
- ١٨- داوود ابن أبي داوود من قبل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص صاحب افريقية ٦٠٧هـ.
- ١٩- الشيخ ابن بكى مدير شئون قابس الي أن استولي ابن زكريا الحنفي علي بلاد افريقيا ٦٢٧هـ.

بنو زيرى (صنهاجة أفريقية، الحاضرة القيروان)

- ١ - أبو الفتوح (يوسف) بلكين بن زيرى، (توفى فى ٢١ ذى الحجة سنة ٣٧٣) المحرم ٣٦٢.
(كان فى أول الأمر من عمال الفاطميين)^(١) ،
- ٢ - المنصور بن يوسف (ولقبه عدة العزیز بالله) ٢١ ذى الحجة ٣٧٣.
- ٣ - أبو مناد باديس بن المنصور، ناصر الدولة، (ولد فى ١٣ ربيع الأول ٣٨٦ سنة ٣٧٤، وتوفى فى ٣٩ ذى القعدة سنة ٤٠٦)^(٢) ،
- ٤ - المعز بن باديس، شرف الدولة (استقل بالأمر سنة ٤٣٧)^(٣) ، ٣٠ ذى القعدة ٤٠٦.
- ٥ - أبو طاهر تميم بن المعز مستهل شوال ٤٥٣.
- ٤٨٠.
- ٦ - أبو طاهر يحيى بن تميم، (قتل فى ١٠ ذى الحجة سنة ٥٠٩)^(٤) ، ١٥ رجب ٥٠١.
- ٧ - على بن يحيى (٥)، ١٠ ذى الحجة ٥٠٩.
- ٨ - أبو يحيى الحسن بن على، (أصبح منذ سنة ٥٥٥ يحكم المهديّة من قبل عبد المؤمن، ربيع الثانى ٥١٥ توفى سنة ٥٦٣) روجر الثانى الترمندى ثم الموحدون (١٠ المحرم سنة ٥٥٥). ٥٤٣.

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٩٣) أنه توفى بواركلان يوم الأحد لسبع بقين من ذى الحجة. المترجم.
(٢) المصدر السابق (ج ١ ص ٨٦).
(٣) ولد فى ٧ جمادى الأولى سنة ٣٩٨ وتوفى فى مستهل شوال سنة ٤٥٣. انظر ابن خلكان (ج ٢ ص ١٠٤).
(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٣٩).
(٥) ولد بالمهديّة فى ١٥ صفر سنة ٤٧٩ وتوفى فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ٥١٥. انظر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٤١).
يستخرج من زباور معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى والجامعة فؤاد الأول ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ ص ١٠٩.

دينار ذهب يحمل رقم ٤٣٦٧ ، ٩١ مسلسل . عام الصك ٤٥١ هـ
في المهدية في شهر ربيع الآخر على طراز المستنصر بالله الفاطمي وهذا يثبت أن قابس فتحها
الفاطميون من قبل عام ٤٥٥ هـ وعادت العملات الشعبية تضرب في المهدية



۲۲۵۲



ضرب هذا الدينار في المهدية على الطراز الفاطمي عام ٤٥٥ هـ
ويحمل رقم مسلسل ٩٣ ورقم ٤٣٥٤٢ في سجل المتحف



۲۱۲۲



دينار يحمل رقم ١٢٠٨٦ في سجلات متحف الفن الإسلامي بالقاهرة
ضرب في المهدية عام ٤٥٢ هـ على الطراز الشعبي ويحمل رقم مسلسل ٨٩



Y 30 Y 30



المصادر والمراجع

المحتويات :

- المصادر المخطوطة

- المصادر المطبوعة

- أهم المراجع العربية والمعرّبة

- بنى هلال شعر ونصوص

- مؤتمرات

- أطلس

Encyclopédias -

Dictionary -

Périodicals -

- المراجع الأجنبية

بسم الله الرحمن الرحيم

المصادر المخطوطة :-

البرادي : أبو القاسم بن إبراهيم البرادي د/ ٩٩٧ هـ / ١٣٠٠ م - رسالة في كتب الإباضية ١٧٩١
- دار الكتب المصرية.

العصري : ابن فضل الله شهاب الدين أبو العباس أحمد في القرن السادس الهجري - الثاني عشر
الميلادي ؛ مسالك الأبصار ج ٢ - ٥٠ - عن بلاد المغرب والسودان والأندلس ٤٣٧٦
- دار الكتب المصرية ونشر جزء صغير يخص بلاد المغرب والأندلس تحقيق حسن
حسني عبد الوهاب في تونس ١٣٨٢ هـ - ١٩٧٢ م في دورية كراسات تونسية العدد
٣٩. Cahier de Tunisie XXXIX P.100 to 118.

العيني : بدر الدين أبو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسن - ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م عقد
الجمان في تاريخ أهل الزمان - ميكروفيلم ٣٥٠٦١ تاريخ دار الكتب المصرية.
المغربي : محمد الشطبي بدون ؛ كتاب الجمال في أخبار الزمان - ١٤١٦ تاريخ - دار الكتب
المصرية ميكروفيلم ١٤١٩٧ تاريخ.

ابن منكلي : محمد بن منكلي المصري كان حياً أثناء فترة حكم الأشرف زين الدين شعبان بن حسن
بن الناصر محمد بن قلاوون - ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ ، ١٣٦٢ - ١٣٧٦ م - وتقلد أثناء
حياته منصبا كبيرا في الجيش، الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في فئة القتال في
البحر - هذا المخطوط هو رسالة دكتوراه عبد العزيز عبد الدايم من قسم التاريخ -
جامعة القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٧٨ م وهذا المخطوط لم ينشر وهو موجود بمكتبة
الآداب - جامعة الإسكندرية تحت رقم ٩.

الوسيطي : أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسيطاني كان حياً في النصف
الثاني من القرن الخامس الهجري السير ص ٩١١٣ ج - ميكروفيلم ص ٨٤٥٢ دار
الكتب المصرية. ود/ سعد زغلول له بحث : هوامش على سير الإباضية عن هذا
المخطوط ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب ١٣٦٦ هـ - ١٩٧٩ م.

الملزوي : عبد العزيز عبد الواحد، نظم السلوك في تاريخ الأنبياء والخلفاء والملوك مصور عن
الخزاة الملكية بالرباط وموجود بمكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٢٥٨٩.

المصادر المطبوعة : -

- ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الله بكر القضاعي ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م،
- الحلة السراء - مج / حسين مؤنس - دار المعارف ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ط ٢.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي المكتبة الأندلسية - دار الكتاب
العربي ١٣٨٧هـ - ١٩٧٦م. كتاب التكملة لكتاب الصلة "غسان" نشر الفريديل وابن
أبي شنب - ط الجزائر المطبعة الشرقية ١٢٦٧ هـ / ١٩١٩م ط ٢.
ابن الأثير : "عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
الشمسي المعروف بابن الأثير د / ٦٣٠هـ - ٢٥٥م"
- الكامل في التاريخ مراجعة د/ محمد يوسف الدقاق ط بيروت : "دار الكتب العلمية ط
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
ابن الإخوة : "محمد بن محمد القرني المعروف بابن الأخوة د/ ٧٢٧هـ - ١٣٤٩م".
- معالم القرية في أحكام الحسبة - ط ١ القاهرة الهيئة العامة للكتاب - ١٣٦٩هـ -
١٩٦٧م.
الإدريسي : "محمد بن محمد بن أبي عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي من علماء
القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي". نزهة المشتاق في أختراق الأفاق ط
بيروت عالم الكتب بدون.
الأزدي : "جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر ويقال عنه أيضاً ابن ظافر ت/ ٦٢٣هـ - ١٢٤٥م"
- أخبار الدولة المنقطعة - تح حسن حبش ط القاهرة ط ١.
الإسبيلي : "بكر بن إبراهيم عاش في عصر الدولة المرينية" التيسير في صناعة التفسير. تقديم
وتحقيق عبد الله كنون - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في تدریس مجلد ٧ - ٨
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م" ص ٣ وما يليها.
الإسبيلي : "ابن العوام الأندلسي الإسباني بدون" مختصر كتاب الفلاحة باعثناء بآنكوري - مدريد
١٨٠٢ - ط ١. وطبعة ثالثة بتونس بدون.
الأصفهاني : "عماد الكاتب د/ ٥٩٧هـ - ١٢٠٠م" جريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء
المغرب تح/ محمد المرزوقي - محمد العروس المطوي الجيلاني - تونس ١٣٩٣هـ -
١٩٧٣م النشرة الثانية.
ابن أصيبعة : "موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ٦٦٨هـ -
١٢٩٠م عيون الأنباء في طبقات الأطباء - شرح وتحقيق نزار رضا - بيروت مكتبة
الحياة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

الأوسي الاتصاري : "نمير بن أبراهيم بدون" يرجع المحقق أنه عاش في زمن الدولة الأيوبية -
تفريج الكروب في تدبير الحروب تحقيق جورج سكاتلون. - القاهرة : منشورات
الجامعة الأمريكية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

ابن بسام : "أبو الحسن بن علي بن حسن الشنتريني ت ٥٤٢هـ - ١٠٦٤م"
-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - أربعة أقسام في ثمانية أجزاء تح إحصان عباس
ط بيروت دار الثقافة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

ابن بشكوال : "أبو الوشم خلف ابن عبد الملك د/ ٥٧٨هـ - ١٢٠٠م" كتاب الصلة ٧ أجزاء بتقسيم
المؤلف ط القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م "سلسلة
المكتبة الأندلسية - ٤".

ابن بصال : "عبد الله محمد إبراهيم بدون" كتاب الفلاحة - ط انطوان - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
ابن بطوطة : "محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي د/ ٧٧٩هـ - ١٤٠١م"
- تحفة النظر في عجائب الأمصار - المعروف برحلة ابن بطوطة ط بيروت دار
صادر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

البكري : أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ابن أيوب ابن عمرو البكري
(ت/ ٤٨٧هـ - ١١٠٩م). المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب دي سنان Deslane -
ط باريس ١٢٩١هـ - ١٩١١م ط ٢. كتاب المسالك والممالك جزءان، تح ادريان فان
ليوفن اندري فيري - ط ٢.

البلاذري : "أحمد بن يحيى بن جابر د/ ٢٧٩ هـ - ٨٩٢م" - فتوح البلدان - تح/صلاح الدين المنجد
- ط القاهرة - لجنة البيان العربي ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦ نشر مكتبة النهضة العربية
بالقاهرة. ط تونس الدار التونسية للكتاب ١٤١٢هـ

البلوي : "لم تعرف - الوفاء" أبو محمد عبد الله بن عمير بن محفوظ المدني ١٩٩٥م كتاب سيرة
أحمد بن طولون، تح محمد كرد علي - دمشق المكتبة العربية ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م
البيذقي : "أبو بكر الصنهاجي المكتبي بالبيذق عاش في القرن السادس الهجري - الثاني عشر
الميلادي" اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين الرباط دار المنصور للطباعة
١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

التجاني : "أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد د/ بعد ٧١٠هـ تقريباً - ١٣٣٧م" رحلة التجاني
تقديم حسن حسني عبد الوهاب - ط ليبيا - تونس - الدار العربية للكتاب ١٤٠٢هـ -
١٩٨١م. ط ٢.

ابن تغري بردي : "جمال الدين علي أبو المحاسن بن يوسف الأتابكي د/ ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م".
-النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م. المطبعة
الأميرية نسخة مصورة من هذه الطبعة.

التميمي والنوبختي : "الحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبد الله العمري التميمي بدون"
-كتاب فرق الشيعة - تح/ عبد المنعم الحفني ط القاهرة - دار الريا ط ١٤١٢هـ -
١٩٩٢م ط ١.

الجري : "محمد بو راس د/ ١٢٢٢هـ - ١٨٤٣م مؤنس الأحبة في أخبار حربة - تح/ محمد
المرزوقي - ط تونس المطبعة الرسمية ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
الجرسيقي : "عمر بن عثمان" - رسالة في الحسبة - نشرها ليفي بروفنال من ثلاث رسائل أندلسية
في آداب الحسبة والمحاسب - ط القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي ١٣٧٥هـ -
١٩٥٥م.

الجزائلي : "ابو الحسن علي" - كتاب زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ترجمة إلى الفرنسية ونشرة
الفرديل Alfred Bel ط الجزائر - ١٣٤٣هـ - ١٩٢٣م.

ابن جعفر : "ابو الفرج قدامة د/ ٣٢٨هـ - ٦٤٨م" الخراج وصيغة الكتابة تح/ محمد حسن الزبيدي
ط. بغداد دار الرشيد للطباعة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ط ٢.

ابن ججل : أبو داود سليمان بن حسن الأتلسي المعروف بابن ججل طبقات الأطباء والحكماء
تح/ فؤاد سيد ط القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

الجوزري : "ابو علي منصور العزيزي الجوزري عاش في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي"
سيرة الاستاذ جوزر - نشر محمد كامل حسن - محمد عبد الهادي شعيرة ط القاهرة -
١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م ط ١.

ابو حامد الغزالي : "محمد بن محمد الطوسي د/ ٥٠٥هـ - ١١٣٦م" التبر السبوك في نصيحة
الملوك - مراجعة سامي النشار ط القاهرة بدون ٤٤٨م - ٨٥٢هـ.

ابن حجر العسقلاني : "شهاب الدين أحمد بن علي د/ ٨٥٢هـ - ٤٤٨م" رفع الإصر عن قضاة
مصر ط القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م ط ١.

أبو الحسن القابسي : "ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي
د/ ٤٠٣هـ - ١٢٠٥م" الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين - نشر حسن حسني
عبد الوهاب ١٣٣٢هـ - ١٩٥٢م.

الحسن الوزان : بن محمد الفاسي - المعروف بـ ليو الأفريقي عاش في القرن الثامن الهجري -
الرابع عشر الميلادي. - وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي - محمد الأخضر ط
بيروت دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ط ٢.

ابن حزم : "ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الأندلسي الظاهري د/ ٤٥٦هـ -
١٠٧٨م" - جهمرة انساب العرب تح/ عبد السلام م هارون ط. القاهرة دار المعارف
١٣٩١هـ - ١٩٧١م ط ٣ "نخائر العرب - ٢". الفصل في المال والأهواء والنحل -
ط القاهرة - مكتبة الخانجي ١٣٢٠هـ - ١٩٤٠م - ط ١ - خمسة أجزاء.

الحسن بن عبد الله : "بن محمد بن بن عبد الله د/ ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م" - آثار الأول وترتيب الدول
- ط القاهرة مطبعة بولاق ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٥ م على هامش كتاب السيوطي :
تاريخ الخلفاء.

ابن حماد : أبو عبد الله محمد علي بن حماد د ٦٢٨ هـ ٢٣١ م أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم.
تح/ التهامي تخره وعبد الحليم عويس. ط. القاهرة دار الصحوة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
الحمادي اليماني : "محمد بن مالك بن الفضائل الحمادي" - كشف أسرار الباطنية وأخبار القباطنة.
تح/ محمد زينهم محمد عزب ط القاهرة - دار الصحوة - ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ط ١.
الحميدي : أبو عبد الله محمد بن أبي مضي فتوح بن عبد الله "ت ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م" -
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، وأسماء رواة الحديث وأهل الثقة والأدب وذوي
النباهة والشعر - ط / القاهرة - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر - ١٤٨٦ هـ -
١٩٦٦ م - ط ١ "المكتبة الأندلسية - ٣".

الحميري : "أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم د/ ٧٢٧ هـ - ١٣٢٧ م" كتاب الروض
المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس ط. بيروت ١٤١٠ هـ ١٩٨٠ م ط ٢.
الحنبلي : "الحافظ أبو النرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي د/ ٧٩٥ هـ - ١٣٩٢ م" -
الاستخراج لأحكام الخراج - بيروت دار المعرفة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ملحق بكتاب
الخراج لأبي يوسف ووجدت طبعة أخرى في مجلد مستقل من ط بيروت دار الكتب
العلمية ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ط ١.

ابن حوقل : "أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيب ت ٣٨٠ هـ - ١٠٩٥ م" -
صورة الأرض - ط بيروت بدون / إلى جانب ط ليدن - برابيل ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
ابن حيان : "أبو مروان حيان بن خلفين حسين بن حيان د/ ٤٦٩ - ١٠٩١ م" - المقتبس من
انباء أهل الأندلس، تح/ عبد الرحمن الحجي ط بيروت سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م :
السفر الثاني تح/ محمود علي مكي بيروت دار الكتاب العربي ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
السفر الثالث - نشر منشور أثيوبيا - باريس بولس كنتر الكنبلي - ١٣٥٧ هـ -
١٩٣٧ م. السفر الخامس - تح/ بهاروشا لميتا وغيبريكو كوتبتي م. صبيح - مدريد
المعهد الأسباني العربي للثقافة الرباط كلية الآداب ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. -
قطعة من عهد حكم المستنصر، تح/ عبد الرحمن الحجي بيروت دار الثقافة ١٣٨٥ هـ -
١٩٦٥ م. "المكتبة الأندلسية - ٤".

ابن حيوس : أبو الفتيان محمد بن سلطان محسن بن محمد بن حيوس بن محمد بن المرتضى بن
محمد بن الهيثم بن عدي ابن عثمان الغنوي "٤٧٣ هـ - ١٠٩٥ م" -
ديوان ابن حيوس - ط بيروت بدون.

الخشنى: "أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني ت ٣٦١هـ - ٩٧٢م -
قضاة قرطبة - الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م "المكتبة
الأندلسية - ١" وصفات علماء إفريقية، تح/ محمد زينهم ط القاهرة - مكتبة مدبولي
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

ابن الخطيب: "لسان الدين أبو عبد الله بن محمد بن سعيد بن الخطيب السليمانى
د ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤م" أعمال الإعلام فيمن ببيع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام قسم ٣
تح / مختار العبادي ومحمد الكنانى تحت عنوان : تاريخ المغرب العربي في العصر
الوسيط وهو الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ط الدار البيضاء دار الكتاب
١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

ابن خرداذبة: "أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ت ٣٨٠هـ - ٩٩٠م
المسالك والممالك نشرة لندن بريل ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م. وطبعة ثانية : بيروت مكتبة
الحياة بدون.

ابن خلدون: "عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضري المغربي - د ٨٠٨هـ - ١٤٣٠م -
تاريخ ابن خلدون المسمى - كتاب العبر وديوان المبتدأ والحيز في أيام العرب والعجم
والبربر ومن عاصروهم من فوي السلطان الأكبر.
- ط بيروت - مؤسس جمال للطباعة والنشر "بدون" المقدمة تح/ عبدالواحد وافي -
ط القاهرة دار الشعب ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م ط ١.

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً تح/ محمد بن تاديت الطنجي ط القاهرة
١٣٧١هـ - ١٩٥١م. العمران البشري في مقدمة ابن خلدون تأليف بائبلا كريسوفا ترجمه
عن الروسية رضوان إبراهيم مراجعة سمية محمد موسى ط القاهرة الهيئة العامة للكتاب
- ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م "المكتبة العربية".

ابن خلكان: "شمس الدين أبو العباس أحمد - ت ٦٨١هـ - ١٢٨٢م" وفيات الأعيان وأنباء الزمان
تح/ احسان عباس في ثمانية مجلدان ط بيروت دار الثقافة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م بدون.
ابن دحية: "عمر بن الحسن بن علي - د ٦١٣هـ - ١٢٣٥م" المطرب في أشعار أهل المغرب
تحقيق مصطفى عوض عبد الكريم - ط القاهرة ١٣٦٤هـ - ١٩٥٤م.

الدباغ: "أبو زيد عبد الرحمن عبد محمد بن الأنصاري الأسدي الدباغ د. ٦٩٦هـ - ١٣١٨م
"أكملة وعلق عليه: أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي د/ ٨٣٩هـ - ١٤٦١م
معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان تحقيق وتعليق محمد ناضور ثلاثة أجزاء - ط
تونس المكتبة العتيقة والقاهرة: مكتبة الخانجي ١٣٦٨هـ - ١٩٧٨م - ط ١.

الدرجيني: "ت ٦٧٠هـ - ١٢٧٢م" أبي العباس أحمد بن سعيد بن خلف المزاتي طبقات مشايخ
المغرب جزآن، تح/ إبراهيم طلاي بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

الدوادري : "أبو بكر عبد الله بن أبيك د بعد ٧٣٦ هـ - ١٣٧٦م" كنز الدر وجمع الغرر - الجزء السادس نشر تحت عنوان : الدرّة المضئّة في أخبار الدولة الفاطمية، تح/ صلاح الدين المنجد. ط القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١م.

الديار بكري : "حسين بن محمد بن الحسن د ٩٨٢ هـ - ١٥٧٤م" تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفس "جزءان" ط/ القاهرة. المطبعة الوهبة ١٢٨٣ هـ - ١٨٦٣م ط١.

ابن أبي دينار : "محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني على الأرجح توفى ١١١٠هـ - ١٦٩٨م" المؤنس في أخبار أفريقية وتونس - تحقيق محمد سخام ط تونس ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ط و ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ط٢ وطبعة ثالثة ط دار المسيرة ومؤسسة دار السعيدان بتونس ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ط٣.

ابن رشيد السبتي : "أبن عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتي د / ٧٢١ هـ - ١٣٢١م بقابس". رحلة ابن الرشيد بعنوان المؤلف : ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة تحقيق محمد الحبيب الخوجة ط تونس : الدار التونسية للنشر ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

الرشيق القيرواني : أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم د بعد ٤١٧ هـ - ١٠٣٩م - قطعة من تاريخ لإفريقية والمغرب تحقيق عبد الله العلي الزايدان - عز الدين عمر موسى - ط بيروت - دار الغرب الإسلامي توزيع دار الشروق بالقاهرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩١م ط١.

الرشيدى : "الرشيد الدين أبو الحسن أحمد بن علي ابن إبراهيم بن الزبير ت ٦٥٢هـ - ١١٦٦م" الخزائن والتحف تح/ محمد حميد الله - ط الكويت ١٣٧٩هـ - ١٩٥٣م.

ابن الزبير : "أبو جعفر أحمد بن الزبير د ٧٠٨ هـ - ١٣٣٠م" - صلة الصلة - روائع التراث العربي - ط بيروت - مكتبة الخياط ١٣١٩ هـ - ١٩٧٢م.

الزركشي : "محمد أبو عبد الله بن إبراهيم بن اللؤلؤ كان حيا في ٧٩٤هـ - ١٤١٦م" - أعلام لسايد بأحكام المساجد تحقيق الشيخ أبو الوفا مصطفى المرعي - ط القاهرة - ط ٣ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م - تاريخ الدولتين الموحد به والخصية تح/ محمد باضور - ط تونس " ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م".

أبو زكريا : "يحيى ابن أبي بكر الميراسني السدراتي ت ٤٧١هـ - ١٠٧٨م" السيرة وأخبار الأئمة، تح/ عبد الرحمن أيوب - تونس الدار التونسية للنشر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الزهرى : "محمد بن أبي ركر أبو عبد الله كان حيا في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي" - كتاب الجغرافيا تحقيق محمد صادق ط دمشق ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م. وتوجد طبعة أخرى ببيروت تدون.

سحنون : "سحنون بن سعيد التتوخي د ٢٤٠ هـ - ٨٦٢م" المدونة الكبرى الأمام دار الهجرة الأملم مالك بن أنس الأصبحي "سنة عشر جزء" نشر محمد ساس المغربي التونسي القاهرة - مطبعة السعادة ١٣٢٣هـ.

السراج : "محمد بن محمد بن السراج الوزير الأندلسي : ١١٤٩ هـ - ١٧٧١م" الحل السندسية في الأخبار التونسية - سلسلة نفائس المحفوظات - الجزء الأول في أربعة أقسام تح/ محمد الحبيب الهيلة - ط تونس ١٣٩٠ هـ - ٩٧٠م.

ابن سعيد المغربي : "ابو الحسن على بن موسى بن سعيد د / ٦٧٣ هـ - ١٢٨٥م" - بسط الأرض في الطول والعرض - تطوان ١٣٧٨ هـ - ١٩٨٥م -

المغرب في حلي المغرب تح / شوقي ضيف جزءان القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٠م - الغصون اليناعة في شعراء المائة السابقة تح / إبراهيم الإياري ط - القاهرة دار المعارف ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤م. - اختصار القرح المعلي في التاريخ المحلي -

تح / إبراهيم الإياري ط بيروت دار الكتاب اللبناني ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م. كتاب الجغرافيا تح إسماعيل العربي ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠.

ابن سعد : "محمد بن سعد الكاتب الواقدي ت ٢٣٠ هـ - ٨٣٥م" - كتاب الطبقات الكبير ط القاهرة مطابع الأهرام تحقيق حمزة النشترتي - عبد الحفيظ فرغلي - عبد الحميد مصطفى ط القاهرة - مطابع الأهرام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢

السقطي الأندلس : "ابو عبد الله محمد بن أبي محمد القطر المالقي" - كتاب في آداب الحسبة - نشر كولين وليفي بروفنسال باريس ١٣١٥ هـ - ١٩٣١م Livi - Prorvençal and colin.

السلوي : "ابو العباس احمد بن خالد الناصري ت ١٣١٥ هـ - ٨٩٧م" - الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ج ١ - ط الدار البيضاء ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م. السمرقندي : "الحاكم الامام أبي نصر احمد بن محمد السمرقندي الأبريسي د / ٥٥٠ هـ - ١١٧٢م" - رسوم القضاة تحقيق محمد باسم الحديثي ط بغداد - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م "سلسلة كتب التراث - ١٢٤"

السويدي : أبي الفوز محمد أمين البغدادي "لم يذكر سنة وفاته" سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ط. بيروت ودار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

السيوطي : "الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد د ٩١١ هـ - ١٥٣٣م" - بغية الدعاة في طبقات اللغويين والفجاة جزءان تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ط القاهرة - البابي الحلبي ١٣٨٤ هـ - ١٩٩٤م. - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جزءان القاهرة ١٣٢٧ هـ - ١٩٤٧. - تاريخ الحلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ط القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٧١م.

ابن شاكِر : "ابن شاكِر الكتبي ١٢٠ هـ - ٧٦٤م" - فوات الوفيات خمسة أجزاء تحقيق احسان عباس ط بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م. - عيون التواريخ تح/ فيصل السامر ونبيلة داوود جلود ط بغداد ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

ابو شامة : "عبد الرحمن بن اسماعيل شهاب الدين الدقيقي ت ٦٦٥ - ١٢٦٨م" - كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية جزءان ط القاهرة ١٢٨٧ هـ - ١٩٠٩م ط دمشق ١٤١٥ هـ - ١٩٩١م - الذيل على الروضتين - نشرة عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع والقاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧م.

ابن شاهنشاه : "محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي" مضمار الحقائق وسر الخلائق، تح/ حسن حبشي ط القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م.

ابن شداد : "القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع ابن تميم ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤م" - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ط بيروت بدون.

الشماعي : "ابو العباس احمد بن سعد ابن أبي عثمان بن عبد الواحد ٩٢٨ هـ - ١٥٢٢م" السير ط تحقيق أحمد بن مسعود الشيباني سلطنة عمان منشورات وزارة التراث القومي ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

الشهرستاني : "ابو الفتح محمد بن عبد الكريم ابن ابو القاسم ت ٥٤٨ هـ - ١١٥٣م" - الملل والنحل - ط القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨م ط ١ وتوجد طبعة ثانية بيروت بدون.

الشيخزري : "عبد الرحمن بن نصر ت ٥٨٩ هـ - ١١٩٣م" نهاية الرتبة في طلب الحسبة - تح/ السير الباز العربي ط القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٦م وطبعة ثانية القاهرة الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٩م.

ابن صاحب الصلاة : "ابو عبد الله بن احمد بن مسعود بن عبد الملك المعروف بابن صاحب الصلاة ولد بشاطبة ٥٤٢ هـ - ١١٦٤م ت ٦٣٥ هـ - ١٢٥٧م" - تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين - السفر الثاني تحقيق عبد الهادي النازي - ط بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

ابو صالح : "الأرمني - ٦٠٦ هـ - ١٣٠٨م - تاريخ الشيخ ابو صالح الأرمني المعروف بكتاب كنائس واديرة مصر - طبع وترجمة اينس - A.T.A. Eretts. اكسفورد - ١٣١٣ هـ - ١٨٩٥م.

ابن الصغير : "كان معاصر للدولة الرسمية في عهد السلطان اقلج بن عبد الوهاب الذي حكم ما بين ٢٤١ هـ - ٨٥٥م و ٢٨١ هـ - ٨٩٤م" - تاريخ الائمة الرسميتين ط بيروت بدون.

ابن عذاري : "أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي بن رجال القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي"، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ط ١ تحقيق ليفي بروفنسال - كولن - ط ليند - ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م - ج ٢ تصحيح دوزي - ليند ١٢٦٨ هـ - ١٨٤٩ م - ج ٣ تحقيق ليفي بروفنسال باريس ١٣٥٠ هـ - ١٩٦٧ م - تح/ احسان النسر بيروت ط دار الثقافة ١٣٧٨ هـ - ١٩٦٧ م وقسم يخص دولة الموحدين، تح/ محمد المزالي وآخرون - نشر نطوان ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.

أبو العرب التميمي : "أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي ط/ ٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م" - طبقات علماء أفريقية وتونس تحقيق على الشابي ط تونس ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

عماد الدين إدريس : "الداعي إدريس عماد الدين الفرنسي بن عبد الله الألفي من رجال القرن التاسع الميلادي" ٨٧ هـ - ١٤١٧ م - عيون الأخبار وفتون الآثار سبعة أجزاء ج هـ عن الدعوة الشيعية في اليمن والمغرب إلى سقوط الأغلبية وعهد المهدي ج ٦ في الخلافة الفاطمية من المعز إلى المستنصر وج ٧ في الدولة الصليحية باليمن ج هـ، تح/ فرحات الدشراوي ط تونس ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ج ٧ محفوظة في مكتبة عباس الهمداني. يوجد طبعة بيروت ١٤٥ هـ - ١٨٥ م بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين في المغرب، تح/ محمد البغدادي.

العقباني : "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني د / ٨٧١ هـ - ٤٩٣ م" تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر - تح/ على الشنوفي نشر في دورية Bulletin d'études orientales ١٣٨٨ هـ - ١٨٦٧ م. العماد الأصفهاني : "أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ٥٩٧ هـ - ١٢٦٧ م"، جريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

ابن عمر : "يحيى بن عمر" - أحكام السوق - نص فيه استخرجه محمود على مكى وعلق عليه في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد - المجلد الرابع ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م.

العياشي : "أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي المغربي ١٠٩٠ هـ - ١٦٧٩ م". رحلة العياشي أو ماء الموائد "النص الخاص بليبيا وخاصة برقة وطرابلس في رحلتي الذهاب والعودة فيما بين تونس ومصر ، خلال الفترة الممتدة من سنة ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م إلى ١٠٧٤ هـ / ١٦٦٣ م" ، تح/ الدكتور سعد زغول عبد الحميد وآخرون ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٩٦ م.

- القاضي عياض : "القاضي عياض بن موسى السبتي د/ ٥٤٤هـ - ١١٦٦م" - ترتيب المدارك وتقرير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - تعليق محمد بن تاووت، تح/ محمد بن الشريف ط الرباط ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م وج ٣، تح/ عبد القادر الغمراوي ط الرباط ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- الغبريني : "أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني ٦٤٤هـ - ٧١٤هـ - ١٢٦٦ - ١٣٣٦م". عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بيجابة. ط بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن غلبون : "محمد بن خليل الطرابلسي - من رجال القرن الثاني عشر الهجري - الثمانين عشر ميلادي" تاريخ طرابلس العرب المسمى بالتذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار نشر وتصحيح القاهرة أحمد الراوي - القاهرة ١٣٤٩هـ - ١٩٢٩م.
- أبو الفدا : "عماد الدين اسماعيل نور الدين علي بن جمال الدين محمد ٧٣٢هـ - ١٣٣٤م". - تقويم البلدان - قام بتصحيحه وطبعه البارون ماك كولن - ط باريس ١٣٥٠هـ - ١٩٣٠م - المختصر في أخبار البشر ط بيروت دار المعرفة - دار النشر والطباعة.
- ابن فرحون : "برهان الدين إبراهيم ابن شمس الدين بن علي بن محمد بن فرحون المالكي - ٧٩٤هـ - ١٣٩٩هـ"، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب جزئان تح/ محمد الأحمد أبو النور القاهرة دار النشر سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٥م.
- ابن الغرضي : "أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف، ت ٤٠٣هـ - ١٠٢٥م". - تاريخ علماء الأندلس جزآن - القاهرة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٣٨٦ - ١٩٦١م "المكتبة الأندلسية - ٢".
- ابن الفقيه : "أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ٣٦٥هـ - ٩٩٥م" - مختصر كتاب البلدان ط ليدن ١٨٨٥م - ١٢٥٣هـ .
- ابن قتيبة : "أبو محمد عبد الله بن مسلم ٢٧٦هـ - ٨٩٨م" - الإمامة والسياسة "المنسوب إليه" تح/ طه الزيني - بيروت دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- القسنطيني : "أبو العباس أحمد بن الحسين علي بن الخطيب المعروف بابن قنفذ القسنطيني ت ٨١٠هـ - ٤٣٢م" - الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح/ محمد الشاذلي تونس الدار التونسية للنشر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، سلسلة نفائس المخطوطات.
- ابن القطان : "أبو الحسن علي بن محمد عبد الملك الكتاني الفاسي ت ٦٢٨هـ - ١٢٣٠م" نظم الجمان في أخبار الزمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، الطبعة الأولى ، تح/ الدكتور محمود علي مكي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٠.

القلقشندي : "أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب الشافعي البصري.

ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م - "صبح الأعشي في صناعة الإنشاء" ج ٥ نشر المؤسسة المصرية العاملة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، "مجموعة تراثنا" ، مطبعة كوستا توماس بالظاهر ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

فلاند الجمان في التعريف بقياتل عرب الزمان ، الطبعة الثانية ، تح/ إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري واللبناني ، القاهرة بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

الكندي : "ابو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي المصري ت ٣٥٠هـ - ٩٧٢م -

كتاب الولاة وكتاب القضاة تصحيح زمن كتب ط بيروت مطبعة الأباء اليسوعيين ١٢٨٠هـ - ١٩٠٨م).

المالقي : "أبو الحسن علي بن محمد المعافري ت ٦٠٥هـ - ١٢٠٨م - "الحدائق الغناء في أخبار النساء. تراجم لشهيرات النساء في صدر الإسلام، تح/ عابدة الطيبي - ط ليبيا - تونس الدار العربية للكتاب - مطبعة الشركة التونسية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ - ط ١.

الإمام مالك : "الإمام مالك بن أنس ت ١٧٩هـ - ٧٩٥م - موطأ مالك - جزءان تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي - ط القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٣٧١هـ - ١٩٧١م.

المالكي : "أبو عبد الله بن أبي عبد الله المالكي ت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي". كتاب رياض النفوس في صفات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ج ١ في حسين مؤنس ط القاهرة ١٣٦٤هـ وطبعة أخرى ، تح/ بشير البكوش ، بيروت ط ٢.

الماوردي : "القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت ٤٥٠هـ - ٩٥٧م" - الأحكام السلطانية والولايات الدينية نشر محمد فهمي السرجاني - ط القاهرة المكتبة التوفيقية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

مجموعة : رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية صدرها ليفي بروفنسال. - ط المغرب - المطبعة الاقتصادية - ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.

مجموعة : الوثائق الفاطمية ، تح/ جمال الدين الشيال ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

المسعودي : "محمد الباجي المسعودي" - الخلاصة النقدية في أمراء أفريقية ط تونس ١٣٢٣هـ - ١٩٤٣م ط ١.

ابن مغاور : "الأندلس" نور الكرائم وسجع الحمام ، تح/ محمد بن شريفة - ط الرباط ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ط ١.

المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبي بكر ابن البهاء الشافعي المقدسي البشاري
ت حوالي ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ط. القاهرة -
مكتبة مديولي ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ط٣ - المقدس حياته تأليف فلاح شاكر بغداد
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ط١.

المقري : أحمد بن محمد المقري التلمساني ت ١٠٤١ م - ١٦٣١م - أزهار الرياض في أخبار
عياض نشر فيه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وإبراهيم الإياري وعبد الحفيظ شلبي - ط.
القاهرة ١٣٥٢هـ - ١٩٤٢م - نفح الطيب من غصن الأندلس الريب عشر أجزاء
تح/ أحسان عباس ط بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م وتوجد طبعة أخرى بيروت بدون.
المقريزي : "تصر الدين أحمد على بن تقي الدين ت ٨٤٥هـ - ١٣٧٧م" - الواعظ والأعتبار بذكر
الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرزية - ط بيروت بدون - السلوك لمعرفة دول
الملوك نشر محمد مصطفى زيادة ط القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ثلاثة أجزاء
- اتعاط الحنفا بذكر الفاطميين الخلفاء تحقيق محمد حلمي أحمد ط القاهرة ط٢ - نشر
جمال الدين الشيال ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م - المقفي الكبير ٨ أجزاء، تح/ محمد البعلوي
ط بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

المكناسي : "أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المكناسي ت ٩١١هـ - ١٥٣٣م" -
الروض الهاتون في مكناسة الزيتون ط الرباط ١٣٧١هـ - ١٩٥٣م.
المنصوري : "يبرس المنصوري نائب السلطنة بمصر ت ٧٢٥هـ - ١٣٤٧م" - مختار الأخبار -
تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٤هـ، تح/ عبد الحميد صالح
حمدان ط بيروت الدار المصرية اللبنانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ط١.
ابن منظور الأفريقي : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد ابن القاسم بن منظور
الأفريقي المصري "٦٣٠ - ٧١١هـ - ١٢٣٢ - ١٣١١م" - لسان العرب -
تح/ عبد الله على الكبير - محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي ستة أجزاء ط
القاهرة - دار المعارف ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

مؤلف مجهول : "أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم" - دراسة
وتح/ محمد زينهم محمد عزب ط القاهرة - دار الفرجاني للنشر والتوزيع ١٤١٤هـ -
١٩٩٤م ط١.

مؤلف مجهول : "الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشية" - تح/ سهيل ذكار - عبد القادر زمامة
ط الدار البيضاء - دار الإرشاد الحديثة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
مؤلف مجهول : كتاب فتح الأندلس - نشر المستشرق الأسباني خوالكين جونثال - ط الجزائر -
١٢٦٧هـ - ١٨٨٩م.

مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نشر وتح/ د. سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ١٣٧٨هـ.

مؤلف مجهول : كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين ، نشر أويثي ميراندا صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦١ - ١٩٦٢.

مؤلف مجهول : "مفاخر البربر نشر ليفي بروفسال ط الرباط - ١٣٣٤م" - وهذا المؤلف المجهول ألف كتابه في ٧١٢هـ - ١٣٣٤م.

ابن ميسر : "تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب ت ٦٧٧هـ - ١٢٧٨م" :
"أخبار مصر - المنتقى من "انتقاء نقي الدين المقريري ، تح/ أمين فؤاد سيد ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

ناصر خسرو : "ناصر خسرو علوي" - سفر نامة أو رحلة ناصر خسرو - تح/ يحيى الخشب ط القاهرة ١٤١٢هـ / ١٩٢٢م ط ٢.

النباهي المالقي : "أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي ت أواخر القرن الثامن هـ - الرابع عشر الميلادي" - المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - تح ونشر ليفي بروفسال - ط القاهرة دار الكاتب المصري ١٣٦٨هـ - ١٩٤٨م.

ابن النديم : "أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق ت ٤١٢هـ - ٢١/٢٢ تقريباً" "ال فهرست" تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٥٠هـ - ١٩٧١م.

النعمان القاضي : "أبو حنيفة بن محمد بن حيون المغربي ت ٣٦٣هـ - ٩٧٤م"

المجالس والمسائرات ، تح/ الحبيب النقي وإبراهيم شبوح ، ومحمد اليعلاوي منشورات الجامعة التونسية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ ط رسالة افتتاح الدعوة تح/ وداد القاضي ، ط بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧١م - دعائم الاسلام ، تح/ تامر العارف ، ط بيروت ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

التويري : "شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري التويري ت ٧٣٢هـ - ١٣٦٤م" -
نهاية الأرب في فنون الأدب واحد وثلاثون جزء تح نخبة كبيرة من الأساتذة/ سعيد عاشور ومحمد أمين وحسين نصار وآخرون ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٤١٢ - ١٩٩٢م.

ابن هشام : "ابن محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت ٢١٣هـ - ٨٣٥م" - مختصر سيرة ابن هشام جزءان - ط القاهرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م ط ١.

الهمداني : "أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت ٣٢٤هـ - ٩٤٥م" "صفة جزيرة العرب" تح/ محمد بن علي الأكوخ ، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٨٣.

- ابن واصل :** "جمال الدين بن واصل الشافعي المذهب ت ٦٩٧هـ - ١٢٩٨م" - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب نشر جمال الدين الشيال - جزءان ط القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.
- ابن وردان :** تاريخ مملكة الأغاليه، تح/ محمد زينهم محمد عزب ط القاهرة - مكتبة مدبولي ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ابن الوردي :** "محمد بن عمرو ت ٧٤٩هـ - ١٣٧١م" - تاريخ ابن الموردي - جزءان - منشورات العراق النجف - نشر المطبعة الحيدرية ١٣٨٩هـ - ١٩٦٠م ط ٢.
- ابن الوزان :** "الحسن بن محمد الوزان الزياني ت حوالي ٩٣٠هـ / ١٥٥٢م" - "وصف إفريقية" ترجمة من الإيطالية إلى الفرنسية A. EPAUL-ARD وعلق عليها ايلار ث. مونو، ترجمة من الفرنسية إلى العربية د. عبد الرحمن حميدة ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، الرياض ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الونشريس :** "أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي ت ٩١٤هـ - ١٥٣٦م" المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقية والأندلس والمغرب - تح/ جماعة بن الفقهاء نشر ط محمد حجي ط بيروت دار الغرب الإسلامي ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ياقوت الحموي :** "شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادى ت ٦٢٦هـ - ١٢٤٨م" - معجم البلدان خمسة أجزاء - ط بيروت دار صادر ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. - معجم الأدياء - عشرين جزءا - ط القاهرة مطبوعات دار المأمون - مكتبة القراءة والثقافة الدكتور أحمد فريد الرفاعي - مراجعة وزارة المعارف العمومية.
- اليعقوبي :** "أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح ت ٢٨١هـ - ٩٠٣م" - تاريخ اليعقوبي - ط بيروت دار صادر جزءان - جغرافية اليعقوبي مطبوع مع مؤلف بن رسنة الأعلق النفيسة ط بيروت - ط ٢
- اليمني :** "ظاهر بن إبراهيم الحارثي اليمني ت ٥٨٤هـ / ١٢١١م" - "الأنوار اللطيفة" ملحق بكتاب الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والأثنى عشرية ، لمحمد حسن الأعظمي، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- يحيى الأنطاكي :** "يحيى ابن الأنطاكي ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م" تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي "باريس ١٣٤٤هـ - ١٩٢٤م، بيروت ط أخرى.
- ابن يوسف الحكيم :** "أبو الحسن علي بن يوسف -" "الدرجة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السادس ، العدد "١-٢" ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

أهم المراجع العربية والمعرّبة

- إبتسام مرعى خلف الله : العلاقات بين الخلافة والوحدية والمشرق الإسلامى ط دار المعارف. ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادى الإسلامى فى العصر الوسيط ط إفريقيا الشرق ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ط ١.
- إبراهيم طرخان : الإقطاع الإسلامى - أصول تطوره. مجلة الجمعية المصرية التاريخية مجلد ٦ - ١٣٦٦هـ - القاهرة. ١٩٥٧ -
- إبراهيم العدوى : تاريخ العالم الإسلامى جزء أن القاهرة مكتبة الإنجلو إمبراطورية غانا الإسلامية - القاهرة ١٣٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- إحسان حقى : المغرب العربى - بيروت (بدون تاريخ). تونس العربية - بيروت دار الثقافة ط ٢.
- إحسان عباس : ١- تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى - بيروت ط ١
- ٢- العرب فى صقلية دراسة فى التاريخ والأدب - دار المعارف ١٣٨٠هـ - ١٩٥٩م.
- أحمد الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا - دار المعارف ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- أحمد فكرى : مسجد القيروان ط الدون بوسك ط ١ وط ٢.
- أحمد مختار العبادى : ١- الحياة الاقتصادية فى المدينة الإسلامية عالم الفكر المجلد ١١ - العدد الأول.
- ٢- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس الاسكندرية ط ١.
- ٣- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس - صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد مجلد ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- أرشيبال دى لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ترجمة أحمد محمد عيسى - مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- أمارى ميشيل : المكتبة العربية الصقلية - لبيسك ١٢٩٥هـ - ١٨٧٥م.
- إمبرتو ريتستيانو : النور مانديون وبنوزيرى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٤٩ مجلد ١١ ص ٧٥ - ٩٠.
- أمين توفيق الطيبى : دراسات فى التاريخ الإسلامى جزآن ط ١ طرابلس ١٤١٢هـ - ط ١ ١٩٩٥م.
- بل الفريد : الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى - ترجمة عبدالرحمن بدوى -

بنغازى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

انستاس الكرملى : رسائل فى النقود العربية والإسلامية وعلم النميات ط القاهرة - مكتبة

الثقافة الدينية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ط ٢

جمال حمدان : جغرافية المدن - القاهرة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ط ١.

جورج مارسية : بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامى فى العصور الوسطى - ترجمة

محمود عبدالصمد هيكل - مراجعة مصطفى أبوضيف أحمد - منشأة

المعارف إسكندرية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ط ١.

جويتهين : دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية فى حوض المتوسط -

ترجمة عطية القوصى ط بيروت توزيع مكتبة مديولى.

حامد العجائبى : مسكوكات إفريقية ط جامعة القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

الحبيب الجحمانى : دراسات اقتصادية واجتماعية فى تاريخ العرب ط ٢

حسن إبراهيم حسن : ١- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ٣ أجزاء - القاهرة

١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

٢- الدولة الفاطمية مكتبة النهضة المصرية ١٤١٣هـ ط ٥.

٣- انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية - مكتبة النهضة المصرية

١٣٠٤هـ - ١٩٨٤م ط ٣.

حسن أحمد محمود : ١- قيام دولة المرابطين مكتبة النهضة المصرية ١٣١٤هـ

١٩٥٤هـ - ١٩٨٤م ط ٣

٢- دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب إفريقيا المجلة التاريخية

المصرية مجلد ١٤ - ١٣٨٨هـ - ١٦٦٨م القاهرة.

٣- محنة الشيعة بإفريقية فى القرن الخامس الهجرى مجلة كلية الآداب

مجلد ١٢ - عدد ٣ - ١٣٧٠هـ - ١٣٥٠م.

حسن حسنى عبدالوهاب : ١- ورقات فى الحضارة - تونس ط ١.

٢- قصة جزيرة قوصرة العربية - مجلة الجمعة التاريخية المصرية

مجلد ١٢ - عدد ٢ - ١٩٦٩هـ - ١٩٤٩م.

٣- خلاصة تاريخ تونس - تونس ط ١.

٤- بساط العقيق فى حضارة الفيروان وشاعرها ابن رشيق تونس

١٩٧٠م - ١٣٩٠هـ ط ٢

٥- شهبيرات التونسيات المطبعة التونسية ١٣٥٣هـ

الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ، ج ١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١،

١٩٧٥م.

حسن على حسن : دراسات فى تاريخ المغرب العربى، مكتبة الشباب، القاهرة ن ١٩٧٧.

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مكتبة مديولى، ط ٢، ١٩٨٦ م.

- أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء الإعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٧ م.

- فتح الغرب للمغرب، الزهراء ط ١.

- المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط الحروب الصليبية.

- مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ج ٤، مايو ١٩٥٠

وطبع كتاب: للدار المصرية اللبنانية ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ط ١.

- تاريخ المغرب وحضارته، الزهراء ط ٢.

- غارات النورماندين على الأندلس مقال بمجلة الجمعية المصرية

للدراستات التاريخية، مايو ١٩٤٩ م.

ديمــــاندر. م. س : الفنون الإسلامية ترجمة أحمد عيسى ط مصر ١٣٦٤ هـ - ١٩٨٤ م.

رابـح بـونـار : المغرب العربى تاريخه وثقافته - الجزائر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

رولاند أوليفر وجوفيج : موجز تاريخ إفريقية ترجمة دولت صادق مراجعة أحمد السيد غلاب -

الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

زكى محمد حسن : ١- كنوز الفاطميين - القاهرة - ١٣٥٦ هـ - ١٩٤٨ م.

٢- فنون الإسلام - القاهرة - ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م.

زكى مــــبــــارک : التصوف الإسلامى فى الأدب - ج ١ - دار الجيل بيروت.

سحر سيد عبدالعزيز سالم : ١- تاريخ بطليوس الإسلامى جزان الإسكندرية ١٩٩١ م.

٢- طرق تجارة التوابل فى العصر الإسلامى من أبحاث الندوة العالمية

الطرق العربى - اليونسكو ونشر فى مجلة كلية الآثار مجلد ٥.

٣- شاطبة الحصن الأمامى لشرق الأندلس - الاسكندرية ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٤- رباط الفتح - الإسكندرية ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

٥- قادس ط ١٤١٣ هـ - الإسكندرية ١٩٩٣ م.

٦- بنو خطاب بن عبد الجبار الترمذى الإسكندرية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٧- العراقيون فى مصر فى القرن السابع الهجرى - الإسكندرية ١٩٩١ م.

٨- بحوث فى التاريخ الإسلامى وحضارته القاهرة - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

سعيد عبدالفتاح عاشور : ١- بحوث فى التاريخ الإسلامى وحضارته القاهرة - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

٢- الحياة الاجتماعية فى المدينة الإسلامية - عالم الفكر مجلد ٢ عدد ٢.

٣- طرق تجار الحرير - بحث القى فى الندور العلمية العالمية لطرق

الحرير لليونسكو ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٤- الحركة الصليبية ج ١ القاهرة - ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

٥- بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته.

- ٦- المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية القاهرة ١٤٩٢هـ - ١٩٨٢م وآخرون.
- ٧- تاريخ الحضارة الإسلامية العربية إسكندرية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- سيد عبدالعزيز سالم وأحمد مختار العبادي
- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس دار النهضة العربية - بيروت - ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م ط١.
- سيد عبدالعزيز سالم : ١- المغرب الكبير - دراسة تاريخية أثرية - إسكندرية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م ط١.
- تاريخ المغرب الإسلامي ١٤١٦هـ - ١٩٨٦م ط٢.
- ٢- تاريخ مدينة المرية الإسلامية
- مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٣- قرطبة حاضرة الخلافة - دار النهضة العربية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- سعد زغلول عبد الحميد : ١- تاريخ المغرب العربي ٣ أجزاء منشأة المعارف إسكندرية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٢- العمارة والفنون في دول الإسلام - منشأة المعارف ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٣- العلاقة بين صلاح الدين والموحدين مجلة كلية آداب إسكندرية ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.
- ٤- هامش على مخطوط السير لأبو الربيع الوسياني - أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته ١٣٠٨هـ - ١٩٧٨م.
- سلمان مصطفى زبيس : - المنستير - ماضيها ومعالمها التاريخية، الدار التونسية للنشر، تونس
- آثار المغرب العربي، دار الكتب الوطنية، تونس. ط١، ١٩٥٨م.
- القبة التونسية - وضمن أبحاث المؤتمر الثالث للآثار العربية، عدداً ٢، بغداد، ١٩٥٩م.
- شارل اندريه جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ترجمة محمد مزالي والعثير بن سلام ط الدار التونسية ١٣٨٩هـ - ط١ ١٩٦٩م.
- عبد الأمير شمس الدين : الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي - بيروت دار اقرأ ١٤٥١ ط١ - ١٩٨٥م.
- عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي - جامعة القاهرة.
- عبد العزيز المليم : حسان بن ثابت ط بيروت ط١ - ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م. القاهرة، الفكر ط٢.
- عبد المنعم ماجد : ١- حقق السجلات المستنصرية - دار الفكر العربي ١٣٦٤هـ - ١٩٥٤م، المستنصر بالله - القاهرة ط١.

- ٢- نظم الفاطميين ورسومهم، القاهرة ط١.
- ٣- ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ط دار الفكر العربي ط.
- عثمان الكعك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط لجنة البيان ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- محاضرات فى مراكز الثقافة فى المغرب معهد الدراسات العربية بالقاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
- عبدالله العروى : تاريخ المغرب محاولة فى التركيب جزآن - ترجمة ذوقان قرقوط بيروت ط٢.
- عبدالرحمن الجبلانى : تاريخ الجزائر العام - الجزائر ١٣٥٠هـ - ١٩٧٠م.
- عطية القوصى : ١- دراسات فى الحضارة فى حوض البحر المتوسط - جامعة القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٢- تاريخ الدولة العباسية ط جامعة القاهرة ١٤١٦ - ١٩٦٦م.
- ٣- أضواء جديدة على تجارة السكر من واقع وثائق الجينزا - المجلة التاريخية المصرية مجلد ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ٤- ميناء باضع مجلة معهد البحوث والدراسات الإفريقية عدد ٧.
- ٥- مدينة تنيس - المجلة العربية للعلوم الانسانية عدد ٢ مجلد ١.
- عصام عبدالرؤوف الفقى : تاريخ الفكر العربى - القاهرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- عز الدين عمر موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى خلال القرن السادس الهجرى دار الشروق ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ط١
- الموحدون فى الغرب الإسلامى - تنظيماتهم ونظمهم دار الغرب الإسلامى ١٤١١هـ - ط١ ١٩٩١م.
- عمر عادل عبدالعزيز : التربية الإسلامية فى المغرب ط١ - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- فون شـاك : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية وهو جزء من كتاب شعر العرب فى اسبانيا وصقلية ترجمة الطاهر أحمد مكى ط١ - دار المعارف بالقاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- كـريزول : الاثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبدالهادى عيلة، استخراج نصوصه وعلق عليه أحمد غسان، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
- ليفى بروفنسال : نخب تاريخية جامعة لآخبار المغرب الأقصى، مطبعة برطرنه باريس، ط١، ١٩٢٣م.
- حقوق رسائل موحدية ط الرباط ١٣٥٢هـ - ١٩٤٢م.
- تاريخ الاسلام فى المغرب والاندلس ترجمة سيد سالم - ط١ القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٨٥م.
- محمد بركات البيلى : ١- الزهاد والمتصوفة فى المغرب - دار النهضة العربية ط١.

- ٢- التشيع في المغرب - دار النهضة العربية - ط ١.
- ٣- دراسات في تاريخ المغرب والاندلس - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م. وط دار النهضة العربية ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٤- سجل ماسة ودورها في تجارة الذهب مع السودان الغربي مقال مجلة المؤرخ المصري العدد ٣ يناير ١٩٨٩م.
- محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ط ١
- محمد العزيز نجاحي : مدينة دوز - ط تونس دار سحر ط ١
- محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية ج ٤ ووثائق الدولة الفاطمية والاتابكية - ج ٧ ووثائق الأندلس وشمال إفريقيا مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. ط ٢
- محمد الطالبي : الدولة الأغلبية - تراجم أغلبية بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- محمد المرزوقي : قابس جنة الدنيا - مكتبة المثنى في بغداد - الخانجي بالقاهرة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- محمد العروس المطوي : السلطنة الحفصية - بيروت - تونس ط ١، الحروب الصليبية في الشرق والغرب ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- محمد توفيق بلبع : نشأة الرباط وتطوره مجلة جمعية الأثارة بالاسكندرية عدد ٥.
- محمد عبدالستار عثمان : المدينة الإسلامية - ط الكويت سلسلة عالم المعرفة ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م.
- مصطفى أبو ضيف أحمد : اثر العرب في المغرب في عصر الموحدين وبنى مرين ط ١ اسكندرية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- موسى لقببال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس الهجري - الجزائر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- هـايـيـد. ف : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ترجمة أحمد رضا محمد رضا مراجعة عز الدين فودة
- الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

بنى هلال شعر ونصوص

- ١ - سيرة العرب الهلالية - سيرة بنى هلال وشعرهم
القاهرة - مكتبة الجمهورية العربية - بدون سنة طبع
- ٢ - مجموعة من أشعار بنى هلال فى الحجاز ومصر والمغرب
القاهرة مكتبة ومطبعة الصناديقية بالأزهر ١٣٥١ هـ - ١٩٣١ م
- ٣ - السيرة الهلالية - النصوص الشفاهيه للشعراء الشعبيين تجميع عبد الرحمن الإبنودى.
- ٤ - سيرة بنى هلال - سيرة العرب الحجازية
القاهرة مكتبة الجمهورية العربية (بدون)
- ٥ - سيرة بنى هلال - تشتمل على كتاب الانس والابتهاج فى قصة أبو زيد الهلالي والنأى وزيد
العجاج
القاهرة مكتبة الجمهورية العربية (بدون)
- ٦ - شوقى عبد الحكيم - سيرة بنى هلال - دراسات فى الأدب الشعبى
بيروت مكتبة التنوير ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٥ م
- ٧ - الطاهر قيقه : من اقاصيص بنى هلال
رواية شفوية ط- تونس الدار التونسية ط- ٤
- ٨ - الإبداع الشعبى مجلة المأثورات الشعبية عدد ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ص ص ٢٠ - ٢٨.
- ٩ - إبراهيم اسحاق إبراهيم السيرة الهلالية بين الاسطورة والتاريخ المأثورات الشعبية عدد ٢٠
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ص ٧ - ٢٣
- ١٠ - الشعر الشعبى فى تونس ١٤٠٧ هـ
- ١١ - حسن البسيونى عوده : بنو هلال فى سوهاج ط ١٩٧٨ م.
- ١٢ - محمد أحمد عبد المولى : بنو مرداس الهلاليين - ط القاهرة ١ ط ١
- ١٣ - محمد فهمى عبد اللطيف أبو زيد الهلالي ط بيروت - ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م ط ٢.

أطلس

- ١- أطلس تاريخ الإسلام إنشاء حسن مؤنس وآخرون - ط القاهرة - الزهراء ط١.
- ٢- الأطلس العربي ط القاهرة وزارة التربية والتعليم ١٤٠٠هـ / ١٦٨٠م ط٥.
- ٣- أطلس تونس والجزائر إنشاء الحماية الفرنسية ط الإدارة الفرنسية العسكرية بالجزائر وموجود صورة ملونة من أغلب النسخ محفوظة في الجمعية الجغرافية المصرية بالقاهرة قاعة الخرائط.

4- Atlas antique de Tunis George Marcais et autres tunis 1953.

5- Atlas of Islamic World Robinson Francis Paris, 1989.

- ٦- أطلس التاريخ الإسلامي تصنيف هاري وهازارد - رسم خرائط بمبلي مكل - ترجمة إبراهيم زكي خورشيد - مراجعة مصطفى زيادة - ط القاهرة - مكتبة النهضة العربية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

Encyclopedias:

- 1) Encyclopedie de Lislam, Nouvelle, édition etablie avec le con-
cnrs des princiaux dintabste - Paris- g.p. Maison neuves, Leiden-
E.J. Brill, 1978. Tomc- IVP 350- 355.
- 2) The Encyclopedia of Islam, Vol IV-V Leyden, London, 1986 2
edition.
- 3) Encyclopédia Britannica, the University of Chicago, U.S.A.,
1975
- 4) Encyclopedia de LIslam, Dictionnaire Geographique, Ethnog-
raphique et des peuples Musulmans, Leyde, 1936.
- 5) Lexicon universal Encyclopédia Oxford 1983.
- 6) The World book encyclopedia United State America.
- 7) Encyclopédia judaica Berlin 3e printing 1974.
- 8) The cambridge encyclopedia of Africa. Generals editors: Ro-
lan olivar and Michael. Crouder. Cambridge University Press
1987.
- 9) Macdonalds Encyclopédia of Africa Edit.. London- Macdon-
ald- EduCation, 2 edit- 1978.

Dictionary:

1) Dictionnaire detaille- des noms des vetements chez les Arabes, Amsterdam, 1845.

2) Supplement aux dictionnaires Arabes, 2. V, Leyden, Brill, 1981.

3) The lexicon,webster dictionary Oxford 1984 Printing.

4) the World Book dictionary United State America 1999.

5) Latin- English dictionary London 1866.

6) Lexicon- Greek English dictionary Oxford- 13 editon.

7) Glossary of Arichitecture, Creswel EUC. Library- 1994.

8) سيد عبدالعزيز سالم بعض مصطلحات العمارة الإندلسية المغربية -في مجلد
بحوث اسلامية في التاريخ والحضارة والآثار قسم ٢ ص ٢٧٧ وما يليها.

Grand dictionnaire Encyclopédie Larousse,. Librairie larousse- Paris 1984.

9) Adictionary of arab topography and place narries by vigel groom librairie li-
ban- longman 1982.

١٠) يوسف قونس معجم المصطلحات الجغرافية - القاهرة دار الفكر العربي ص ٢٨٢

١١) بيار جورج Pierre gorger معجم المصطلحات الجغرافية ترجمة هيثم اللمع.

Dictionary:

PERIODICALS	ABREVIATION
Africa (Tunis) V.1-10	A.T
African studies Bullelin	A.S.B
African studies review	A.S.R
Bulletin d archeologic algricenne Paris V.1.4	B.A.A
Bulletin d'Institut Francais d'archeologie orientale Paris- Cairo V.2-4	B.I.F ao
Bulletin of the school of oriental African studies - London University school of orient.	B.S.O.A.S A.S
Bulletin d etude orientales- 1993	B.C.O
Bulletin de geographie et d'histoire 1905	B.G.H
Bulletin critique des annales Islamique	B.C.A-1
Les cahiers des arts et techniques	C.A.T
Cahiers des arts et tradition Populaire Tunis 1-3-5 1988- 1977	C.A.T.T
Cahiers d études africaines v- 1-14-1960- V25- 1985	C.E.A
Cahiers de Tunisie, ton 1957- 1964 1972- 1988- 1997	C.T
Institut de Belle Lettres Arabes, Tunis 1942- 1957	I.B.La
Institut de recherches sahariennes d'Alger- XIX 1960	I.R.S.A
Journal Asiatique, 1947- 1932- 1933.	J.A.
Revue de monde Arabe.	R.M.A
Revue Tunisienne	R.T

المراجع الأجنبية

- Abdul wahab (H.H) "Coup d'oeil sur les apports ethniques étrangers en tunisie" R.T., 1917.
"deux dinars nomades de Sicile" R.T., 1930, 215 - 218
Note (sans titre), Bulletin archeologique du Comite, 1922,
Cxlvi- cli.
"Villes arabes disparues", Mélanges William Marçais, Paris, 1950, 1-15
André Julien (C), Histoire de l'Afrique du Nord, 2^e ed. 2vol ; 1^{er} vol. par C. Courtois,
2^e vol revu par R Le Tourneau, paeis 1951, 1952.
Basset (R.), "Les Sanctuaires du Djebel Nefoussa" J. A., mai - juin 1899, 437 -470, juillet
- aout 1899, 88 -120.
"Un episode d' une chanson de geste arabe sur le seconde conquete de l'Afrique septen-
tionale par les Musulmans", Bulletin de correspondance, 1885, 136 -148.
Bel (A.), "La Djazia, chanson arabe precedee d'observations sur quelques légendes
arabes et sur la geste des Beni Hilal, extraits du J.A. mars -avril 1902 et mars -avril 1903,
paris 1903.
Les Benous Ghanya, derniers representants de l'empire almoravide, et leur lutte contre
l'empire almohade. Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger, paris 1903.
Baklouti, Nasser : La maison Traditionnelle en gabès, parmi Le Livre de : L' habi Tation
Traditionnelle autour de La Mediterranee par : Reva ULT. j ." et autres. Cairo 1^e edit.
Braudel (F.), La Méditerranée et le monde méditerranéenne a l'époque de philippe II,
paris, 1949.
Brunschiwig (R.), "Considerations sociologiques sur le droit musulman" Studia Islami-
ca, III, 1955, 61- 73.
Coup d'oeil sur l'histoire des Foires a travers l'Isamec, Recueil de la societe jean Bo-
din, V, la Foire, Bruxelles, 1953, 43-74.
"Fikh fatmide et Historie de l'Ifriqiya", Melanges G. Marçais, II Alger, 1957, 13-20.
La Berbérie orientale sous les Hafside, 2 vol., paris 1940, 1947.[Traduit en arabe par
H. Sahli, Beyrouth, 1998].
La Tunisie dans le Haut Moyen Age, sa place dans l'histoire, Conférences de l'Intitut
français d' Archeologie orientale, cairo 1948.
"Mesures de capacite de la Tunisie médiévale" R.A., 3e - 4e trim. 1953, 86-96.
"Sur les mesures tunisiennes de capacite au commencement du XVIIe siecle",
A.I.E.O., 1937, 74-87.
"Un aspect de littérature historico-geographique de l'Islam", Melangesoe Demombynes,
Cairie 1935-1945.
"Urbanisme medieval et droit musulman", R.E.I., 1947, 127-157.
"Apropos d'un toponyme tunisie du moyen Age", R.T., 1935, 159-155.
Cahen (C.), "L'Histoire economique et sociale de l'Orient musulman medieval", Studia
Islamica, III, 1955, 93-115.
Un texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au Xe siecle, estratto dall'
Archivio Storico per le Province Napolettane, Nouvelle serie, xxxIV, 1953-1954, Naples
1954 (tire a part 8p.).
canard (M.), "La procession du Nouvel An chez les Fatimides", A.I.E.O.,x, 1952, 364-398.

Le ceremonial fatimide et le ceremonial byzantin, Essai de comparaison, Byzantion 1951, 2e fasc., 355-420.

"L'Imperialisme des Fatimides et leur propagande", A.I.E.O., vI, paris 1942-1947, 162-199.

"Un famille de partisans, puis d'adversaires, des Fatimides en Afrique du Nord", Melanges G. Marcais, II, 33-49.

Une lettre du calif el-Hafidh a Roger II, Palerme 1955, 125-146.

L'Autobiographie d'un chambellan du Mahdi Obeidallah le Fatimide (trad. de la Sirat Jaafar al-Hajib) Hesperis, 1952.

"Un vizir chrétien a l'epoque fatimide : l'armenien Braham", A.I.E.O., 1954.

Cattenoz (H.G.), Tables de concordance des éres chretienne et hegirienne, Rabat 1953.

Cazes (D.), "Antiquites judaiques en Tripolitane" R.E.J., xx, 1890, 86 - 87.

Essai sur l'histoire des Israelites de Tunisie, paris 1888.

Chalandon (F.), Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, 2 vol., paris 1907.

"L'Etat politique de l'Italie méridionale a l'arrivée des Normands", Mélanges d'Archeologie et Historie, xxI, 1901, 411 -452.

Cahen (M.) et Leriche (A.), "Zeneta - Senhadja - Senegal", Bulletin des Etudes arabes, n° 38, 118-119.

De Beylier (General L.), La Kalaa des Beni Hammad, une capital berbère de l'Afrique du Nord au Xie siecle, Paris 1909.

De Cenival (P.), Le pretendu évêché de la Kalaa des Beni Hammad, Hesperis 2e tr 1932, 1-14.

De Mas Latrie, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age, 2 vol., 1er vol paris 1866, avec une introduction paginée a part, 2e vol., paris 1872, Supplement et tables.

Despois (J.), La Tunisie orientale; Sahel et Basse steppes, paris 1940.

Le Djebel Nefoussa, paris 1935

L'Afrique du Nord, paris 1949.

Dozy (R.), Dictionnaire des noms de vêtements chez les Arabes Amsterdam 1845.

-, Supplements aux dictionnaires arabes, 2 vol., 2ed., Leyde- paris 1927

Encyclopédie de l'Islam, 4 vol. et suppl., Leyde - paris 1908 - 1942 2e ed. a partir de 1954.

Encyclopedia Judaica, 10 vol., Berlin 1928-1934.

Ettinghausen @, Early realism in islamic art, Studi orientalistici in onore di G. Levi Della Vida, I, 61-82.

Fagnant (E.), Extraits inedits relatifs au Maghreb, Alger 1924.

Additions aux dictionnaires arabes, Alger, 1923.

Travaux historiques et scientifiques (annee 1950), paris 1953, 119-123

Ferron et pinard, "Céramiques musulmanes a Carthage", Cahiers Byrsa, Iv, 1954, 41-65

Fikry (A.), La Mosquée az- Zaytouna a tunis, Proceedings de la Société égyptienne d'études historiques, II, 1952, Cairo 1953, 27-64

Fischel (W.J.), [Jews in the économic and political life of mediaeval Islam] Royal Asiatic Society monographs, xxII, Londers 1937.

Fournel (H.), Les Berbères, 2 vol., paris 1857-1875.

Gaudefroy-Demombynes (M.), "Notes sur l'histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam", R.E.I., 109-147.

"Un magistrat musulman: le mohtasib", Journal des Savants, 1947, 33-40.

Gautier (E.F.), L'Islamisation de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs du Maghreb par 1927, 2e éd.; Le Passé de l'Afrique du nord, Les Siècles obscurs, Paris 1937.

Gobert (E.G.), "Les Références historiques des nourritures tunisiennes", C.T., 1995, 501-542.

Goitein (S.D.), From the Mediterranean to India: Documents on the twelfth centuries, The medieval Academy of America, Cambridge, Massachusetts Speculum, xxix, April 1954 n 2 part 1, 181-197.

-, "Glimpses from the Cairo Geniza on naval warfare in the Mediterranean and on the Mongol invasion, "Studi Orientici in onore di G. Levi Della Vida, 1, 11956, 393-408.

Jews and Arabs, New York 1955.

"The Cairo Geniza as a source for the history of muslim civilisation "Studia Islamica, 111, 1955, 75-91.

The last phase of Yehuda Halevi's life in the light of the Geniza papers Taoriz Quarterly, xxlv, 1954, 1-24.

Goldziher (I.) Le dome et la loi de l'Islam, trad Arin Paris 1910.

Lelivre d, Ibn Toumart, Alger 1903.

Golvin (L.), Le Maghreb central a l'époque des zîirides, Recherches d, archeologie et d, his-toire, Paris 1957.

"Note sur quelques fragments de plâtre troués récemment a la qalaa des Beni Hammad" Mélanges G. Marcais, II, 75 - 94 Recherches archeologiques a la Qalaa des Beni Hammad, Thèse secondaire (dactylographié pour le Doctorat és Lettres présentée devant la Faculté des Lettres d'Alger (année 1953).

"Contribution a l'étude des nattes a décor épigraphique au Moyen Age", A. I. E. O., 1959, 213 - 231.

Hazard (H. W.) "The numismatic Society, New York 1952.

Heid (w.) Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, trad. Furcy Raynaud, 2 vol., Leipzig 1936.

Idris (H.R.), Analyse et traduction de 2 textes de l'époque ziride, 70e Congrès de l'A. F. A. S. (Tunis mai 1951), fasc. 3, 209 - 216.

"A propos d'un extrait du kitab al - Mihad d' al - Mazari al - Iskandarani", C. T., 1953, 155 - 159.

"Contribution á l'histoire de l'Ifrikiya dp. le Riyadh en-Nufus d'Abu Bakr el-Maliki", R. E. I., 1935, cah. 3, 273-305, cah. 1, 45-104.

"Contribution á l'histoire de la vie religieuse en Ifriqiya ziride", Mélanges L. Massig-non, II, Damas 1957, 327 - 359.

Deux juristes kairouanais de l'époque ziride : Ibn Abi Zayed et al - Qabisi", A. I. E. O., xII 122-198.

"Essai de datation de la maqsura de datation de la maqsura de la grande Mosquée de kairouan", Arabica, III, mai 1956, 214-215.

"Essai sur la diffusion de La Chaisme en Ifriqiya", C. T., 1953, 126-140.

- "Deuxmaîtres de l'école juridique kairouanaise sous les Zirides:
Abu Bakr Ahmad b. Abd al-Rahman et Abu Omran al-Fassi", A. I. E. O., 1955, 28-58.
- "Fêtes chrétiennes célébrées en Ifriqiya à l'époque ziride", R. A. n° 440-441, 1954, 267-276.
- "La vie intellectuelle en Ifriqiya méridionale sous les Zirides d'après Ibn al-Chabbat",
Mélanges G. Marçais, II, 95-106.
- "La crépuscule de l'école malikite kairouanaise", C. T., 1956, 119-126.
- "Note sur l'identification du dédicataire de la Risala d'Ibn Abi Zayd al - Qayrawani",
C. T., 1953, 63-68.
- "Quelques juristes ifriqiyens de la fin du Xe siècle", R. A., nos 446-449, 1956, 349-373.
- "Une des phases de la lutte du malikisme sous les zirides (XIe siècle); al- Tounisi ; ju-
riste kairouanais et célèbre fatwa sur les chiïtes", C. T., 1956, 508- 517.
- "Sur le retour des zirides à l'obédience fatimide", A. I. E. O., xI, 1953, pp. 25- 39.
- "L'Ecole malékite de Mahdia: L'Imam al-Mazari", Mémorial E. Lévi- provençal.
- "Problématique de l'épopée sanhadjienne en Berbérie orientale", A. I. E. O., 1959, 243-255.
- "Du mouvement almohade à la dynastie muminide: la révolte des frères d'Ibn Toumart
de 1153 à 1156", Mélanges G. Marçais, II, 111- 116.
- Levi - Provençal (E), L'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris 193.
- Fragments historiques sur les Berbères au Moyen Age, Extraits inédits d'un recueil
compilé en 712/1312 et intitulé kitab Mafakhir al-Barbar, Rabat 1934.
- Six fragments inédits d'une chronique anonyme du début des Almohades, éd. trad., Mé-
langes René Basset, II, 117- 120.
- Réflexions sur l'empire almoravide au début du Xie siècle, cinquantenaire de la Faculté
des Letters d'Alger, 1932.
- Histoire de l'Espagne musulmane, 3 vol., Paris Leyde 1950- 1953.
- Trente sept lettres officielles almohades, éd. Rabat 1941, analysés par lui dans Hespéris, 1941.
- Lévi (R), "notes on costume from arabic sources", J. R. A. S., 1953, 64- 156..
- Lewicki (T.), Etudes ibadites nord africaines, partie I, Varsove 1955.
- "Le Culte du bélier dans la Tunisie musulmane", R. E. I., 1935, CAH. 2, 196- 200.
- Les Ibadites en Tunisie au Moyen Age, Academia di Scienze
Letters, Bib. di Roma, Conferenze, fasc. 6, Rome 1959.
- La Répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au
Moyen Age, 1ere partie, Rocznik orientalistyczny, xXI, 1957, 301- 343.
- "Les Subdivision de l'Ibadiya", Studia Islamica, IX, 1958, 72- 82.
- "Notice sur la chronique ibadite d'ad-Dargini", Rocznik orientalistyczny, xI, 1936, 146-172.
- "Quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibadite", R. E. I.,
1934, cah. 3, Paris 1935, 275-296.
- Une chronique ibadite "kitab al- Siyar", R. E. I., 1934, cah. 1, 59- 78.
- Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord (Memorial Tadeusz kowalski), Craco-
vie, 1953, 415-480.
- Lewis (A. R), Naval power and trade in the Mediterranean, Princeton, New Jersey, 1951.
- Lewis (B.), "The Fatimidids and the route to India", Revue de la Faculté des sc. écono-
miques de l'Université d'Istanbul, xI, 1949-1950.
- Lezine (A.), "Deux Ribat du Sahel Tunisien", C. T., 1956, 279-288.

"Le Ribat de Sousse", Direction des Antiquités et Arts de Tunisie, Notes et Documents, xiv, Tunis 1956.

- Lombard (M.) Arsenaux et bois de la Méditerranée musulmane (VIIe - IXe S.) ..., Bible général de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes, Vie section, Paris 1958, 53-106.

Une carte du bois dans la méd. mus., ibidem, av-juin 1959, 234-254.

- Lopez (R.s.) et Raymond (I. w.), Medieval trade in the Mediterranean World, New York 1955.

- Mann (J.), The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimides, 2 vol., Oxford University Press 1920-1922.

- Marçais (G.), La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Âge, Paris 1946.

Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe S., Constantine- paris 1913.

Manuel d'Art Musulman, 2 vol., paris 1926-1927; remanié sous le titre: l'Architecture musulmane d'occident, paris 1954

Marçais (G.), La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Âge, paris Les Arabes en berbérie du XIe au XIVe S., Constantine- paris 1913.

Manuel d'Art Musulman, 2 vol., paris 1926-1927 ; remanié sous le titre : l'Architecture musulmane d'occident, paris 1954.

Marçais (G.) et Poinssot (L.), objects kairouanais, Notes et Documents, xi, fasc. I et II, 2 vol., Tunis 1948-1952.

Marçais (W.), "Comment l'Afrique du Nord a été arabisée", A.I.E.O., IV, 1938, 1-23, 1956, 5-17.

L'islamisme et la vie urbaine, comptes rendus de l'Académie des Inscriptions, 1928, 86-100.

Pirenne (H.), Histoire économique de l'occident médiéval, Bruxelles 1951.

Pozananski (S.), "Kalâat Beni Hammad", R.E.J., 58, 1909, 297-298.

Quatremère (N.), "Mémoires historiques sur la dynastie des Khalifes fatimides, vie d'Elmoïzz", J.A. 3e série août 1836.

Solignac (M.), Recherches sur les installations hydrauliques de kairouan et des steppes tunisiennes du VIIe S., publications de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, XIII, Alger 1953.

Trabulsi (A.), La critique des Arabes jusqu'au Ve siècle H., Damas 1956.

Tyan (E.), Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, 2 vol., paris 1938.

Institutions de droit public musulman, I, Le Califa, paris 1954.

Vajde (G.), Le commentaire Kairouanais sur le "livre de la Création", R.E.I., Nlle série, VII, 1-62, x, juil. 1949-déc. 1950, 67-92.

Valien - Gamaliel, Annuaire de l'Institut de Philosophie et d'Histoire orientales et Slaves, XII, 1953, Mélanges Isidore Lévy, 641-652.

Introduction à la pensée juive Moyen Âge, paris 1947.

Vonderheyden (M.), La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou l'Aghlab, paris 1927.

Zambaur (E. de), Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam, Hanovre 1927.

Zbiss (S.M.), "Le Musée d'art musulman de Sidi Bou Khrissan à Tunis" Bulletin économique de la Tunisie, no 77, juin 1953, 96-100.

Le Ribat, Institution militaro-religieuse..., Comptes rendus de l'Académie des inscriptions, 1954, 143-147.

"Mahdia et Sabra-Mansouriya", Nouveaux documents d'art fatimide d'occident, J.A., 1956, 79-93.

Note sur cimetières musulmans de Tunis..., Extrait du 70e congrès de l'A.F.A.S(Tunis, mai 1951), fasc. 3, tiré à part.

Corpus des inscriptions arabes de Tunisie 1ere partie, Tunis 1955; 2e partie, Tunis 1960

Abréviations:

A.I.E.O.= Annales de l'Institut d'Etudes orientales de la Faculté des Lettres d'Alger.

C.T.= Les cahiers de Tunisie.

J.A= Journal asiatique.

J.R.A.S.= Journal of the Royal Asiatic Society.

R.A.= Revue Africaine.

R.E.I.= Revue des Etudes Islamiques.

R.E.J.= Revue des Etudes Juives.

R.T.= Revue Tunisienne.

ملخص

- عربي

ملخص

اختصت هذه الدراسة بمدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية
حوالى ٤٤٢هـ / ٦٢٥هـ ١٠٤١م ١٢٤٧م.

على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان كان لموقعها دورا حيويا فى تاريخها. رجحت الباحثة أنها فتحت قبيل معركة سبيلها، لم نخبرنا المصادر وكتب الرحالة عن خططها ومنشأتها بالتفصيل، ولكن الباحثة استفادت من ملحوظة للتجاني هي أن قصور بنى جامع لها نفس أسماء قصور بنى حماد بالقلعة وتشبيها فدرست الحفريات التى أجريت فيها وراجعت أبحاث الأثريين وترجمتها حتى استطاعت أن تصل إلى وصف يقرب إلى الحقيقة وقد ساعد على ذلك وجود بعض قصائد للشعر التى وصفت تلك الأبنية الملكية. ووجد فى قابس مسجد جامع على غرار المسجد الجامع بالقيروان ومساجد أخرى كذلك وجد المسيد البربرى ولقد تأكد عند الباحثة أن البربر كان لهم أسلوب فى حياتهم وكان لهم عمارة خاصة بهم كما لهم تقاليدهم وقد تأثروا بالاسلام أما الحياة السياسية فقد استفادت الباحثة من دراسة سجل رقم ٥ من السجلات المستنصرية ووصلت إلى أن هذه الغزوة الهلالية كانت منظمة على هيئة جيش شعبي وأنه وجد وظيفة المهمة وهى مكين الدولة عند الفاطميين الذى كان له دورا فى قيادة تلك القبائل وإصلاح ذات بينهم وقد فتحت قابس وفرقت السكة وأصبح مركزا لتلك القبائل ومتصلة بالقاهرة عن طريق البريد ومن النتائج السياسية قيام دوله أو إمارة بنى جامع الهلاليين وكان لها شأن كبير وكان لها عملات وعلاقات سياسية وتجارية وكانت من ضمن أسباب استيلاء نورمان صقلية على المهدي وقابس.

إن موقع قابس الحيوى كان سببا فى أنها محط أنظار الطامعين الغزاة للسيطرة على التجارة والنقود تبعا لذلك.

تحالف قراقوش الأرمنى مع ابنى غانية فى الاستيلاء على أفريقية وتحويل الطاعة لبغداد مع سلسلة من الأحداث والوقائع التاريخية. أما من الناحية الإدارية فقد تنوعت الوضعية السياسية من حيث تعددت الإدارات على قابس من الفاطميين وبنى زبرى ثم عرب الغزوة الهلالية فقراقوش الأرمنى وبنى غانية بعد فتحها فى عام الأحماس، ودخلت فى سلسلة الصراعات الطويلة التى قضى عليها الموحدين وتم فتحها واصبحت بصفة نهائية تابعة لبنى حفص وهم جزء من الدولة الموحدية أوائل القرن السابع من الهجرة.

تمتعت قابس بمميزات اقتصادية عديدة جعلت الحياة الاقتصادية فيها مزدهرة إلى جانب تشجيع الفقهاء ورجال الدين للزراعة بالإضافة طبعا إلى طبيعة أرضها الخصبة ومياهها الغزيرة كانت التجارة داخلية وخارجية كثيرة ومتنوعة في قابس فكانت البضائع ترد إليها ومنها برا وبحرا وصحراء.

أما الحياة الاجتماعية فكانت لها حياة اجتماعية زاخرة بالنظم والتقاليد التي كان الدين الإسلامي العامل المؤثر الأساسي عليها ونعمت بحياة ثقافية مثمرة وخرج فيها علماء أجلاء مثل (أبو الحسن القابسي) كما تمتعت بشهرة دينية حيث دفن فيها أبو لبابة الأنصاري كما حملت شعلة نشر الإسلام وكما انتقل عليها خرج منها ليضئ أنحاء المغرب والأندلس من جهة ومن جهة أخرى أضاءت شعلته كل القارة الإفريقية.

عن طريق العلماء الذين رحلوا لمختلف البلدان لنشر تعاليمه وكذلك عن طريق نسخ الكتب الدينية ونشرها عن طريق قوافل التجارة والحج.

سـ

summery

This study concentrate on Qabes city since Helalien family to Hafsien state (442 - 625 Heg) -(1041- 1247) .

For nearly 2 Centuries this state had a vital role in history. The researcher see that city entrede before Sopitela battle. No sources or Mounders books tell us about its plans or buildings in detail but researcher learned form what Taggany saw that the palaces of Bany Gamea had the same names of the palaces of Bany Hammad in the citadel and look like - she revise the researches of architects and translated to reach too the description near the truth

Some Peoms helped in the description of the royal Buildings and it found in Qabes the mosque looked like the mosque of Kirawan and other mosques and it found El-Masid El- Barbary the researcher found that the Barbar had a style in their life, and a certain architect and had a tradition they affected by Islam about the political life, the researcher found from books of Mostansaria, and she found that the Helalien invasion was organized in the form of popular army, and there was a person in this state of Fatemien has a role if leading this tributes and solve their problems.

Qabes opend and became a centre for this lribute and conected with Cairo by mail and from the political resultes small state or Emirate of Bany Gamea El- Helalien. which had agreat influnce and had coins, poletecal and commercial relations and this is the causes of invasion of Norman sicily on El- Mahdia and Qabes.

The vital situation of Qabes became a target of the invaders to have the influnce of trade

The co-olation of Armenian Qarakuosh with Bany Ghania to occupied Africa and switched the controll for Baghdad with some series of accidents and historic facts about the administrative side the political shape varied because the variety of Administration on Qabes from Fatemien and Bany Zery, then the Arab of Helalien battle then Armenian Qarakuosh and Bany Ghania after it opened in the year of faives(El-Akhmas) then it were a series of long conflicts then the Mowahedien opened it and it became finaly under the controll of Bany Hafs which is part of the Mowahedia state in the beginning of 7th century of Hegra.

Qabes had relish by a many economic property made a economic life very thriving beside the encouragement by the minister to farming becous of the good land and abundant water.

The inside and outside commerce was larg and different in Qabes.that the goods was bake by land sea and desert

The sociality lif was a foul of methods and customs which Islam effective in it and a cultuar life fruitful, to release a great scientists like (Abo El- hassan El- Qabesy) And it had relish by religious fame that Abo Lobaba El-Ansary was bury in Qabes and Islam was circulate to Andalos and All Africa





6

